جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵙⵉⴷⵉ ⵎⵓⵃⴰⵎⵎⴷ ⴱⵏ ⵄⴱⴷⵍⵍⴰⵀ ⴰ ⴼⴰⵙ
UNIVERSITÉ SIDI MOHAMED BEN ABDELLAH DE FÈS
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس – فاس
ⵜⴰⵖⵡⴰⵍⵜ ⵏ ⵜⵓⵔⵔⵉⵜ ⴷ ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵜⵉⵏⵙⴰⵏⵉⵢⵉⵏ ⵙⴰⵢⵙ - ⴼⴰⵙ
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES SAÏS-FÈS

مركز دراسات الدكتوراه : "اللغات والتراث والتهيئة المجالية"
تكوين الدكتوراه : اللغات والآداب والتواصل والديانات والتراث الثقافي المادي واللامادي والتاديخ والدراسات الترابية والتنمية البشرية
محور : التاريخ
مختبر: البحث في العلاقات الثقافية المغربية المتوسطية

أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية في موضوع :

الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية خلال العصرين الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة الباحثة: نادية بودرة
الأستاذ المشرف: لحسن أوري

تاريخ المناقشة : 16 يونيو 2021

لجنة المناقشة :

الدكتور ميمون أزيزا أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية-مكناس رئيسا

الدكتورة صباح علاش المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية عضوة

الدكتور محمد العمراني أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس -فاس عضوا

الدكتور سيدي محمد الكتاني أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس – فاس عضوا
الدكتور لحسن أوري أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس – فاس مشرفا ومقررا

السنة الجامعية : 2021/2020

إهداء:

أهدي هذا البحث إلى والدتي وأبي

إلى أخواتي وأخي عزيز

إلى كل أفراد عائلتي الصغيرة

إلى أصدقائي بدون استثناء

إلى أساتذتي الذين رافقوني خلال مساري الدراسي

كلمة شكر:

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي المحترم لحسن أوري

الذي أشرف على بحثنا ولم يبخل علينا بتوجيهاته ونصائحه

النيرة

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى كل أساتذة لجنة المناقشة الذين قبلوا قراءة وتصويب

هذا البحث

وكل من ساندني سواء من قريب أو بعيد خلال إنجاز هذا العمل

لائحة الاختزالات

Abréviations

A.D.N., Archive Diplomatique de Nantes
D.C.H.E.A.A.A.M., Documents du Centre des Hautes Etudes Administratives sur l'Afrique et l'Asie Modernes
M.A.E.E., Ministère des Affaires Etrangères et Européennes
M.E.D.A., Mennonite Economic Development Associates
S.H.A.T., Service Historique de l'Armée de terre

Abreviaciones

A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., Alta Comisaria de España en Marruecos Delegación de Asuntos Indígenas Centro de Estudios Marroquíes.
A.F., África Folletos
A.F.R.G.F.C., África Colección García Figueras incluye García Figueras Miscelánea
A.M.P.S., África Mapas
B.N.E., Biblioteca Nacional de España
B.N.E.A.H., Biblioteca Nacional de España Alcalá de Henares.
C.E.M.T., Centro de Estudios Marroquíes de Tetuán.
D.E.B.H.J.M.B.R., Documentos de Emilio Bonelli y Hernando y de Juan María Bonelli y Rubio
I.P.A.E.B.I., Ilustraciones Procedentes del Archivo de Emilio Blanco Izaga
M.S.S., Manuscritos Secreto
V.I.E.F.B., Vademécum Internacional de Especialidades Farmacéuticas Biológicas.

الريف الأوسط

بين التاريخ والذاكرة الجماعية

خلال العصرين الحديث والمعاصر

مقدمة البحث

تتجاذب موضوع «الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة» إشكاليات جديدة لم يسبق التعرض إليها في حقل التاريخ، وإشكاليات قديمة سبق دراستها في عدة مناسبات، لكنها تحتاج لقراءة جديدة ضمن عمل أكاديمي محكم على ضوء مستجدات الإسطوغرافيا وكل ما تشمله الوثيقة التاريخية بمفهومها الجديد.

تكمن أهمية الأطروحة في كتابة تاريخ الريف الأوسط عن طريق استحضار الذاكرة الجماعية، من أجل البحث بالخصوص في مواضيع مثل ذاكرة تأسيس المجال بالريف، وتمثلات الريفيين حول اقتصادهم وبنيتهم الديمغرافية، وأهم ما ترسخ لديهم جراء الكوارث الطبيعية والمشاكل الاجتماعية التي عاشوها داخل هذا المجال الجغرافي. ويكتسي هذا الأمر أهمية بالغة إذا استحضرنا افتقار هذه المنطقة لتاريخها الاجتماعي والثقافي إلى التدوين، وإن وجدنا بعض الإشارات القليلة في بعض المصنفات التاريخية، وكذا قلة كتب النوازل بالنسبة لمنطقة الريف[1]، باعتبارها مادة أساسية لكتابة التاريخ الاجتماعي بالمغرب. كما يمكننا إضافة صنف أساسي يتمثل في الأبحاث الأنثروبولوجية والسوسيولوجية التي أجريت بالمنطقة، والتي اعتمدت الذاكرة الجماعية بالأساس، لتدوين كل ما صدر عن الجماعات من أفعال وممارسات تحمل في طياتها تاريخاً خفياً وجب إخراجه إلى حيز الوجود.

ويستقي الموضوع أهمية إضافية من خلال ربط الذاكرة الجماعية الحاملة للمخيال الشعبي الريفي، والمدركة للسلوك الإنساني، والمُخَزِّنة للأحداث والتراث والثقافة الشعبية والشفهية، وبين التاريخ باعتباره أهم العلوم الإنسانية والاجتماعية، والمتتبع للإنسان داخل مجال محدد عبر زمن معين. وللبحث أهمية علمية تتمثل في إثراء تاريخ المنطقة والكشف عن خفاياه والتمثلات الرمزية الثقافية للأفراد، وإدراك الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بهذا المجال، الذي يمثل امتدادا وتجذراً واستمرارية للظواهر البنيوية. وتكمن الأهمية التطبيقية في إدراكنا ما للذاكرة من أهمية تاريخية ودور هادف في ترسيخ تفاصيل الحياة اليومية والاجتماعية والثقافية، وحفظها لمقاطع محذوفة من التاريخ المكتوب، والتي من شأنها إنارة التاريخ الثقافي والاجتماعي وإعادة بناء الحياة اليومية، انطلاقا مما حفظته من تراث شفهي وشعبي وممارسات ومخيال وحكايات وأشعار، ومن خلاله تتكون صورة نمطية للواقع والحياة والكون والوجود، في علاقتها بالإنسان، وارتباطها بالأنشطة الاقتصادية ودورة الحياة ونمط التفكير.

---

[1]- اعتمد الريفيون على القانون العرفي بالدرجة الأولى وقلت العودة إلى أحكام الشرع، ما نتج عنه محدودية إنتاج كتب النوازل الفقهية التي تعد أساس كتابة تاريخ المجتمعات المفتقرة للتدوين أو بعض جوانبه، وفي حالة الريف يعود أهم كتاب النوازل للزياتي الذي توفي سنة 1646م.

- محمد الزياتي (2013)، **الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**، تحقيق غنية عطوي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة-الجزائر، ص..337.

- تعالج هذه النوازل مجموعة من القضايا الحاضرة في كتب التاريخ مثل الجهاد، بالإضافة إلى مواضيع مغيبة في المدونات الإخبارية أهمها؛ ممارسة التجارة مع غير المسلم، وأحكام الهجرة وكل ما تعلق بالصرف، بالإضافة إلى قسمة الأرض ووضعية الأحباس والوقف وأصل النزاعات حول الماء، وهذه القضايا تقدم لنا معطيات حول طبيعة المجتمع الريفي المعتمد على الاستقرار والزراعة كنمط الانتاج، بالإضافة إلى استهدافه من طرف العناصر الخارجية ما أضفى عليه طابع الجهاد.

وتكمن جدة وراهنية موضوع «الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية»، في معالجة مجال جغرافي غني على مستوى الأنساق الثقافية والبنى الاجتماعية والأبعاد السياسية، وله ذاكرة متجذرة في المجال والإنسان. وتحفظ لنا هذه الذاكرة محطات تاريخية كبرى تتمثل في مرحلة ما قبل الاستعمار وخلالها وما بعدها، وذلك وفق عمل مونوغرافي يزاوج بين التاريخ المكتوب المتمثل في المصادر والوثائق التاريخية، والتاريخ الشفهي الذي تحفظه الذاكرة الجماعية، على ضوء منهاج المؤرخ الذي بإمكانه أن يجعلها وثيقة تاريخية بامتياز.

وتمنح ميادين المؤرخ الجديدة مبررات لاستعمال الأدوات الشفهية لفهم تاريخ الحياة اليومية بالريف، في ظل هذه الفترة التاريخية التي عرفت متغيرات وظرفيات استثنائية، ويبرز فيها التنقيب الحكائي كتعبير رئيسي. ولا غنى لنا عن التاريخ الشفهي بالمنطقة الذي نقابله بالنقد التاريخي، وفق مقاربةٍ تعتمد المقارنة بين هذا التاريخ والأرشيفات المكتوبة، الأمر الذي يستوجب تكوينا وعملاً ضخما مسبقا وفنا في التريث، من أجل طرق أبواب إشكاليات لم تكن إلى عهد قريب من تخصص المؤرخ، نذكر من أهمها، مجال الفضاء المقدس وسلوكيات العائلة، مرورا بالطقوس والاحتفالات وشبكات المؤانسة الاجتماعية، وحتى المواضيع الأكثر كلاسيكية في ميدان التاريخ مثل السياسة، وذلك من أجل تغطية النواقص الوثائقية أو لتقديم رؤية مغايرة.

تتمثل أهداف الأطروحة في دراسة أسس تأطير الذاكرة الجماعية وأماكنها ومدى مصداقيتها وربطها بالمجال المدروس، واستثمار الذاكرة وإنارتها بالمادة التاريخية والعلوم المساعدة من أجل إعطاء قراءة جديدة في تاريخ الريف الأوسط، ومن هنا تنبثق أهم الدواعي الموضوعية في اختيار دراسة موضوع «الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية»، وهي حاجة هذا المجال إلى عمل مونوغرافي شامل يدرس بنياته التاريخية وأنساقه الثقافية وهياكله الاجتماعية وأحداثه السياسية وفق مقاربة استرجاعية، تتضمن تاريخاً إشكالياً بحاجة إلى المزيد من الدراسة. هذا بالإضافة إلى اعتبار الأعمال المونوغرافية إضافة رصينة للرصيد التاريخي المغربي.

كما تعد المونوغرافيا صنفاً من الكتابة التاريخية قائماً بذاته، ومن حسناته الارتباط بالمكان والزمان، بشكل يجعل الباحث متمكناً من مادته التي تسمح له بعرض البيانات الاقتصادية والاجتماعية والأنساق السياسية، ووضع البنية في تحولاتها وتطوراتها، وانقلاباتها واستلابها وتأثرها وقدرتها على التأثير والدمج والاندماج والإقصاء والانفتاح والانغلاق. وقد مثل هذا الاتجاه تحولا كبيرا في كتابة تاريخ المغرب، واعتبره عبد الأحد السبتي بمثابة قاطرة تتصدر عملية تحديث الذاكرة الجماعية، الأمر الذي جعل الجامعة المغربية تعتمد نظام المختبرات المشجعة للطلبة على إنشاء مونوغرافيات تخص مناطقهم، إذ يسهل عليهم الإلمام بعوائدها وخصوصياتها وأحداثها التي طبعت الذاكرة الجماعية. لقد تعرضت المونوغرافيا مع ذلك لعدة انتقادات، إذ هناك من اعتبرها إرثا استعماريا، يطبعها التكرار والاقتداء، ما يجعلها تقع في النمطية والتركيز على القرن التاسع عشر، غير أنها أبانت عن نجاعتها في الكشف عن كيفية الانخراط في مسلسل الدمج الإمبريالي ومظاهر المقاومة المسلحة والسياسية زمن الحماية،

وأسباب التهميش زمن الاستقلال، وذلك من خلال تعديد روافدها الوثائقية التي من ضمنها الأرشيف الأجنبي.[2]

لم يحظ الريف بدراسة مونوغرافية خاصة به، خاصة فيما يتعلق بالذاكرة الجماعية، ما جعلنا نعتمد في الجانب النظري نماذج متعددة من المونوغرافيا تعالج عدة مواضيع في حيز جغرافي معين، وتقوم أهمها برصد الطقوس المتعلقة بالغيبيات والعوائد التي تكشف عن الأنساق الثقافية داخل المجتمع المدروس[3]. ونجد مجموعة من المونوغرافيات التي تتخذ المنحى الطبيعي في التأريخ للمنطقة، وذلك من خلال التعريف بالمجال المدروس وإطاره الطبيعي وموارده، ثم الإطار البشري منذ الاستقرار إلى التكتل القبلي، وتوجهاته الدينية، وكل ما يخص تكتلات الزوايا، وتحديد الطرق التجارية، بالإضافة إلى تغطية التاريخ الاستعماري للمنطقة.[4]

اطلعنا على مجموعة من الأطاريح التي تعرضت لموضوع صلحاء وأولياء الريف، أو مجال الفضاءات المقدسة؛ نذكر منها أطروحة مراد جدي »الأولياء الصلحاء وتحولات المقدس بالمغرب: دراسة في التاريخ السوسيو-ثقافي للتدين في الريفين الأوسط والشرقي«، تحت اشراف محمد استيتو وفريد لمريني، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة التي تمت مناقشتها سنة 2017-2016، وأطروحة أسول رميريث رودريغث Azul Ramírez Rodríguez، تحت إشراف والبورغا ويشو Wiesheu Walburgaالتي تحمل عنوان:

-Los «Santos» (Imrabden) y el paisaje cultural entre los Ayt Ali u Aissa del Rif central Marroquí: una perspectiva etnoarqueológica.

واعتمدنا على أطاريح تعرضت للجانب السياسي بالريف نذكر منها: »ابن عبد الكريم وحرب الريف ،«**1921-1926**لأغزادي لحسن، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية فاس، سنة 1989-1988، وأطروحة بديهة النحاس لنيل شهادة الدكتوراه في السوسيولوجيا سنة 2014-2013، تحت إشراف محمد الطوزي، في جامعة الحسن الأول الدار البيضاء، تحت عنوان:

La mémoire et ses usage : Le cas du Rif

والتي لامست الموضوع من جانب الذاكرة في الريف ودورها في حفظ الذكرى وإعادة إنتاجها، لكن دون إعمالها للمنهج التاريخي، لأنها عبارة عن عمل سوسيولوجي.

تمنح دراسة الذاكرة الجماعية بالريف وموروث الثقافة الشعبية، تمثلا وحضورا ومرجعيةً، إمكانات واسعة لفهم الوعي الجمعي الريفي، وإدراك نظرته وتصوره للعالم والحياة

---

2 - لحسن أوري، (2014)، تقديم ندوة: **تازة وباديتها من خلال الأرشيفات الأجنبية والتراث الوثائقي المحلي**، آنفو-برانت، فاس، ص..10-9

3 - تعتبر دراسة إدمون دوتي حول مراكش أهم مثال بخصوص الدراسات الأجنبية التي اهتمت بالجانب الطقوسي والعادات الدينية للكشف عن البنية الاقتصادية والتفاعلات السياسية، دون أن نغفل أن الدراسة أولت الجانب الأكبر لجغرافية المنطقة، انظر:

- إدمون دوتي (2011)، **مراكش**، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات مرسم، مطبعة أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، صص. 19-17، ص.98، ص. 139، ص. .297

4 - حول نفس المنطقة «حوز مراكش،» نجد مونوغرافيا أخرى ذات خطى منهجية تختلف عن الأولى، مكونة من جزأين مقسمين إلى ثلاثة أقسام؛ الأول حول الإطار الطبيعي والموارد، الثاني حول بنية السكان، والثالث حول التاريخ الاقتصادي والهيمنة الرأسمالية وعلاقة المنطقة بالوضعية الاستعمارية بالمغرب، مرفق برصيد مهم من الوثائق. انظر:

- Paul Pascon (2016), *Le Haouz de Marrakech*, Institut Universitaire de la recherche scientifique, Bouregreg Rabat, tomes I-II, p.37, p. 255, p. 446.

والواقع، كما تعتبر مدخلا لتحديد رهانات التنمية الثقافية للمجتمع واستشراف آفاق تطوره وتقدمه، وذلك بناء على دراسة علمية موضوعية لإبراز العلاقة بين مخزون الذاكرة وخلفياتها السوسيو-ثقافية.

حددنا المجال المدروس في ست قبائل منتمية للريف الأوسط، منها ثلاث قبائل جبلية داخلية، وثلاث ساحلية. وأكبر القبائل الداخلية هي إگزناين، التي تشكل بداية الريف الأوسط، وتحدها جنوبا قبيلة البرانس، وشرقا قبيلة أيث توزين، وهي قبيلة حدودية بين الريف الأوسط والشرقي، ثم أيث عمارث التي تقع شمال غرب إگزناين، وهي أصغر قبيلة داخلية. أما أكبر القبائل الساحلية ضمن المجال المدروس فهي أيث ورياغر التي تحد إگزناين جهة الشمال وأيث توزين غربا، فيما تتوسط كلاً من ثمسمان غرباً وإبقوين شرقاً. تتوفر هذه القبائل الست على تاريخ مشترك وتتقاسم قسطا هاماً من أبعاد الذاكرة الجماعية، نظرا لتوفرها على قاعدة لغوية موحدة إلى حد بعيد مع استثناءات بسيطة في النطق[5]، وغياب مثل هذا التجانس كان أحد الأسباب التي جعلتنا نستثني قبائل الريف الأوسط الأعلى، ونقصد بها قبائل »صنهاجة سراير .«

أما بالنسبة للفترة التاريخية المخصصة لدراسة الإشكالية وفق العمل المونوغرافي، فيستلزم منا العودة لمدة أربعة أو ثلاثة قرون في تاريخ المجال المدروس قصد وضع دراسة أشمل، لذا سنعتمد في هذا العمل على الزمن الطويل في كل ما يتعلق بالتاريخ الجغرافي والديموغرافي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وسنحدد التاريخ السياسي منذ قيام الدولة العلوية، بالنظر إلى بروز الريف على الساحة السياسية مع السلطان الرشيد، واستمرار هذا الدور السياسي الرئيسي إلى غاية القرن العشرين. ومن هذا المنطلق ستغطي الأطروحة تاريخ الريف الأوسط خلال العصرين الحديث والمعاصر، أي من القرن السابع عشر إلى حدود القرن العشرين.

إن نزوع هذه المقاربة إلى اعتماد الزمن الطويل، والعودة إلى الماضي العميق لا يعني إقامة علاقة بين الماضي والحاضر أو تأكيد تسلسل الظاهرة، إنما لتأكيد عدم ارتباط عمر الذاكرة الجماعية بعمر الإنسان، وعدم انتهاء الأحداث التي تختزنها بمجرد انتهاء حامل ذاكرتها، وإنما تتحول إلى إرث جماعي، وحكايات تروى وأشعار تغنى ورقصات وممارسات. وتهتم هذه المقاربة بتقديم التأويلات التي تثار حول الذاكرة الجماعية ومواضيعها، من قبل الفاعلين وآليات إنتاج الذكرى وتحويلها لتاريخ مكتوب.

أصبحت الذاكرة الجماعية موضوعا للتاريخ ضمن مدرسة التاريخ الجديد التي تمكنت من خلق فضاء لثورة الذاكرة، باعتبارها عملاً إسطوغرافياً يرمي إلى التكيف مع المستلزمات الجديدة وحاجيات الجماعات المعاصرة. وبالنظر إلى الكتابة التقليدية، يُفترض قيام التاريخ الإشكالي على حساب التاريخ السردي وتمحوُر الذاكرة حول مجموعة من العناصر الأساسية، وتبني إشكالية معاصرة مفتوحة وبعيدة عن كل تكتم وضعاني، وإجرائية استذكارية يشع فضولها وتستجيب لرغبة كل الأطراف الاجتماعية المندرجة في المسار التاريخي، ثم التخلي عن زمنية خطية مشبعة بسببية آلية لفائدة رؤية إثنولوجية أو أنثروبولوجية تثير الانتباه إلى مستويات تجعل الفرد ينخرط فورا في الاجتماعي والجماعي، بما فيها المستويات اللسانية والديمغرافية والبيولوجية والاقتصادية والميتافيزيقية أو الثقافية، وأخيرا إغفال زمن الأصول،

---

[5]- *A.D.N., série R.1783, Bulletin de l'Enseignement public du Maroc :Rif et Jbala,* sur Le Dialecte Berbère du Rif, Janvier 1926, p.5.

أي الفترة القديمة أو الوسيطية ومنح الامتياز للفترة الحديثة الممتدة على مدى ثلاثة أو أربعة قرون، والمتميزة بالمصادر الكمية الكفيلة بالكشف عن مجتمعاتنا.[6]

يعالج موضوع "الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية"، عدة إشكاليات ذات أهمية بالغة مرتبطة بالمخيال الجماعي الريفي في علاقته بالمجال ومؤهلاته، وبالحياة الاجتماعية وحماية الموروث الثقافي والفلكلور وكل ما يتعلق بالتراث اللامادي، وهي عناصر تعد جانبا أساسا لتشكل الهوية، وامتداداً للوعي السياسي المرتبط بالذاكرة الجماعية، التي تنمي الشعور بالانتماء إلى الجماعة، الراغبة في التعريف بتاريخها أكثر من أي وقت مضى، وجبر ضرر الجرائم المضادة للإنسانية والمقترفة بحقها[7]. غير أن هذا الأمر لا يعتبر عماد أطروحتنا التي ركزت على الجانب التحليلي التاريخي الذي تحتوي عليه الذاكرة الجماعية بالريف الأوسط، لملء فراغات الصفحات التاريخية، خاصة فيما يتعلق بالتاريخ الثقافي والاجتماعي، ودراسة الأنساق والبنى وفق مقاربة استرجاعية للذاكرة الجماعية المستمرة.

بناء على ما سلف، تتمحور إشكالية الأطروحة حول كيفية جعل الذاكرة الجماعية بالريف في خدمة تاريخ موثق للمنطقة، ومن ثمة سبل قراءة رواسبها على ضوء الوثيقة التاريخية، بمعنى ملء فراغات التاريخ المكتوب، باستثمار ما علق بالذاكرة الجماعية، لإعادة كتابة التاريخ الجغرافي والديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي، عن طريق إعداد عمل مونوغرافي حول الريف الأوسط. وتتمثل أهمية الإشكالية في تحليل كيفية بناء الذاكرة الجماعية بمجال الريف الأوسط، ودور المؤثرات الاجتماعية والثقافية والتاريخية في صناعتها، باعتبار الذاكرة الجماعية مرآة عاكسة للبنية السوسيو-ثقافية والتاريخية للمنطقة، وإبراز العلاقة الجدلية بين الذاكرة والتاريخ، حيث تعمل الذاكرة على حفظ التاريخ، الذي يمنحها المصداقية عن طريق التوثيق.

سنحاول أن نجعل من أطروحتنا تركيباً لتاريخ الريف الأوسط، وفق مقاربات جديدة، وإعادة قراءة ما كتب حول المنطقة وتوسيع دائرة المصادر لتشمل الذاكرة الجماعية التي تم توظيف معطياتها على ضوء النص المكتوب، لنتمكن من التطرق لمواضيع وفق تحليل وتفسير المؤرخ، بعد أن كانت حكراً على عالم الاجتماع والأنثروبولوجي، مثل دراسة رتابة الحياة اليومية.

كما يستوجب العمل على إشكالية الذاكرة والتاريخ تبني إطارٍ منهجي دقيق، يرتكز على مبادئ علم التاريخ، وذلك بالاقتداء بقوانينه وقواعده ومناهجه التيٍ لا يعيها إلا المؤرخ، الذي يجمع بين الحاسة التاريخية والوعي العلمي المتين، المرتكز على جمع العطيات والتحقق من صحتها وتحليلها ثم تركيبها. ويعتبر علم التاريخ محور العلوم الإنسانية كلها، إذ يوضح لنا كيف نشأ الإنسان ويتتبع تطوره على مدى الأيام والعصور، وجهوده في تسخير الطبيعة لخدمته والخطوات التي بنى بها حضارته وأسسها، وكيف كان ينهض بعد كبوة ويكبو بعد نهضة. وإذ

---

[6] - محمد حبيدة (2004)، **من أجل تاريخ إشكالي ترجمات مختارة**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، القنيطرة، ص..103

[7] - وردت مجموعة من الدراسات في إطار ربط التاريخ والذاكرة لكنها نحت منحى انصب حول جبر الضرر الجماعي وتحقيق التنمية عن طريق حفظ الذاكرة، والتحسيس بحقوق الإنسان، انظر:

- باسو أوجبور لحسن أيت لفقيه (2011)، **إملشيل الذاكرة الجماعية**، منشورات جمعية أخيام في إطار برنامج جبر الضرر الاجتماعي، ص. .2

ما تتبعنا تاريخ التدوين التاريخي أو تاريخ التأريخ نستنتج أن علم التاريخ مر بعدة مراحل ليصل إلى هذه المرحلة من الدقة.[8]

يعتبر المنهج التاريخي غير كاف لمقاربة الذاكرة الجماعية بالريف، ويجب ربطه بأدوات التحليل الأنثروبولوجي، خاصة في جانبها التأويلي لدراسة الأنساق الثقافية المحفوظة بالذاكرة الجماعية بالريف، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلالات هذا المنهج على مستوى الإنتاج أو التأويل بالتحديد. ويجب على المؤرخ أن يكون عارفا بالعلوم المتصلة بكتابة ودراسة علم التاريخ، والتي يمكننا تسميتها بالعلوم المساعدة أو العلوم الموصلة، وأن ينطلق من رصيد وثائقي يضم كل الأصول التي تحتوي على المعلومات التاريخية، دون أن ينحصر ذلك فيما هو مدون على الورق، نظرا لإيمان الباحثين بأنه لا شيء يتعالى على نظر التاريخ أو تضيق عن رحابه في الوقت الحالي، إذ كل ما يقع من الإنسان أو يقع عليه في جميع مناحي الحياة عبارة عن موضوعات داخلة في بحث المؤرخ واختصاصاته، فالتاريخ لم يعد دراسة معزولة عن علم الآثار والجغرافيا وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا التي تساعده في دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا.[9]

سنعتمد المنهج الشمولي الذي يجمع المنهج التاريخي والوصفي الخاص بالجغرافيا، والمنهج الكمي الإحصائي الخاص بالتاريخ الديموغرافي والاقتصادي، بالإضافة إلى التحليل الماركسي، ومناهج علم الاجتماع والإثنولوجيا لتتبع تاريخ الإنسان في المجال وتكوين المجتمع وإنتاج الفعل الثقافي، كما لن نغفل آليات السرد الكرونولوجي للأحداث التاريخية المتعلقة بميدان السياسة. وقد أملت ضرورة العمل المونوغرافي هذا التنوع المنهجي الذي يفرض تداخل العلوم الإنسانية من أجل بلوغ إنتاج عمل متكامل يجمع بين الجغرافيا والديموغرافيا والاقتصاد والتاريخ الاجتماعي والثقافي والسياسي، إلى جانب استثمار الذاكرة الجماعية والتاريخ الشفهي، الأمر الذي يستدعي عرضهما على مناهج دقيقة ليبلغا مستوى المعلومة التاريخية، ويضاهيا الوثيقة المكتوبة التي لا يمكن اعتبارها هي الأخرى نموذجية.

ندرك بعد رهن الذاكرة الريفية بالمنهج التاريخي ما تضفيه دراسة التاريخ الشفهي المحفوظ داخل ذاكرة الجماعة للإنتاج التاريخي المكتوب. وتتعزز هذه الأهمية بعد إعطاء الذاكرة الجماعية دورا في إنتاج التاريخ عامة والتاريخ المعاصر خاصة، والانطلاق من مواقع المجتمع والقبيلة والأسرة للاحتفاظ بمجموعة من الذكريات التي تشكل جزءا من هويته وشخصيته، ثم استثمار الأرشيف والمتاحف، والمواقع الأثرية مثل المقابر، والمواقع الرمزية كالاحتفالات التذكارية والمزارات والأعياد والشعارات، والمواقع الوظيفية كالكتب المدرسية والبيوغرافيات أو الجمعيات. إنها نصب تذكارية لها تاريخ، وصناعة هذا التاريخ سرعان ما تدعو إلى قلب مفهوم الكلمة لتجاوز ذاكرة المواقع وتلمس المواقع الحقيقية للذاكرة: الأوساط الاجتماعية والسياسية ذات التجربة التاريخية أو الأجيال الراغبة في تأسيس أرشيفات بناء على استعمالاتها المختلفة للذاكرة. وهكذا يتضح منحى كبير يمتح من العرف المعاش في اللاشعور الاجتماعي والأثر المتبقى في الوثائق مرورا بالتقليد الحي في الوعي التاريخي.[10]

---

8 - مصطفى أبو ضيف أحمد (1987)، **منهج البحث التاريخي بين الماضي والحاضر**، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 3.

9 - نفسه، ص. 137.

10 - محمد حبيدة، من أجل تاريخ إشكالي ترجمات مختارة...، مرجع سابق، صص. 104-103.

حرصنا على اعتماد معطيات الذاكرة في كثير من تفاصيل الأطروحة، دون إغفال الدراسات السابقة التي قدمت إطاراً نظرياً بَنَيْنا عليه أسس أطروحتنا التي اعتمدت بعض نتائجها واستفادت من بعض أخطائها، تفاديا لبداية البحث دون التسلح بأي رصيد من نتاج التراكم المعرفي، ودون إطار نظري محدد ومنهاج واضح، خاصة فيما يتعلق بكتابة الشق النظري من الأطروحة.[11]

اعتمدنا قاعدة وثائقية متنوعة محفوظة بكل من المكتبة الوطنية الإسبانية **Biblioteca Nacional de España** بمدينة مدريد، وقسم الأرشيف **Alcalá de Henares**، ومحفوظات الأرشيف الدبلوماسي **Fonds Protectorat-Maroc** بمدينة نانط **Nantes** الفرنسية، للإجابة على جوانب متعددة من الإشكالية المحورية للأطروحة، ومكتبة بني نصار-الناظور **La Tierra** والتي تتضمن مكتبة دايفيد هارت. وشكلت هذه الوثائق والكتب أساس بناء التاريخ الجغرافي للريف الأوسط[12]، كما اعتمدنا عليها لتركيب الإحصائيات الديموغرافية داخل القبائل المدروسة[13]، وقمنا بتوظيفها فيما يخص المعطيات الخاصة بنمط الإنتاج المعتمد بالريف الأوسط[14]، وعدنا إليها في كثير من الأحيان لدراسة الهياكل الاجتماعية[15]، وروتين الحياة اليومية[16]، واعتمدناها علاوة على ذلك، لرصد الوضعية القانونية بالمنطقة أو خصوصية العرف الريفي.[17]

---

11 - ميلود سفاري (1995)، «الأسس المنهجية في توظيف الدراسات السابقة»، **مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية**، عدد خاص، ص. 41

12- *B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°187,* Marruecos El Rif Azru Akchar, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, Mapa Provisional, en E. 150000, 1940.

- *B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°174, Marruecos, El Rif Bu Zineb, Geográfico y Cartográfico del Ejercito*, Mapa Provisional en E. 150000, 1940.

13- *B.N.E.A.H., V.I.E.F.B., dossier N° D.1765, Territorio del Rif,* por Don Vademécum, Madrid, 1946.

- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I.,* Fiche de Fraction des Beni M'Hamed, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949.

14- *A.D.N., Fonds Maroc Protectorat, Série 12MA/280/61, dossier N°2,* Rapport du Capitaine Brenguier, poste du Tizi ouzli, 1941.

- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 9MA/713/76,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Taghzut, Le 15 Mai 1947.

15- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Rapport du Capitaine Brenguier chef du poste des affaires indigènes de Tizi ouzli, N°606, des Djmaas de Centre ouvriers, poste du Tizi ouzli, Le 27 Décembre 1950.

- *B.N.E.A.H.,A.F.R.G.F.C, C^a-N°412/14, Noticia sobre la Yemáa Rifeña,* por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927.

16- *B.N.E.A.H., E.C.D.E.M.D.T., Ca 7187-1, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif*, A.F., Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.

17- *B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832, Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados,* por Emilio Blanco Izaga, La El Rif 2a Parte, Ceuta, 1939.

- *A.D.N., Fonds Maroc- Protectorat, série1MA/200/285, Dossier n° 73,* Etude du Droit Coutumier Berbère, par le Capitaine DENAT.

كانت الوثائق عماد المستجدات المرتبطة بالتاريخ السياسي للريف[18]، ووظفنا معطيات مجموعة من المونوغرافيات غير المنشورة[19]، ومجموعة من الدراسات الإثنولوجية والأنثروبولوجية التي مثلت جانبا مهما من الأطروحة[20]، بالإضافة إلى رصيد من الدراسات التي همت الجانب المنهجي لدراسة الذاكرة والتاريخ. وتجدر الإشارة إلى عودتنا في عدة حالات إلى النصوص الأصلية رغم اطلاعنا على ترجمتها، وذلك لعدة أسباب منها: عدم وضوح النص المترجم، أو عدم اكتماله.[21]

كانت المصادر التاريخية أساس الأطروحة، خاصة في بعض الفصول، إذ عدنا إلى مجموعة من المصنفات الإخبارية لالتقاط بعض الإشارات التاريخية حول الريف، منها المخطوطة كتراث أبو محمد البوفراحي، أو المطبوعة وهي الأغلب[22]، بالإضافة إلى نص

18- *B.N.E.A.H., R.667.470, Dossier N°3/92275, Verdaderas Amargas la campaña de 1909 en el Rif,* Relato y juicios de un testigo, Madrid, 1910.

- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 1MA/100***,** Dossier D.A.I. 196, Les photos N° 73350 et N° 343423, Commandant la Région de Fez (Etat-major), Objet secret, Le 14 Février 1925.

- *M.A.E.E., Série D.A., Direction des Archives***,** Courneuve : La Correspondance Politique et Commerciale, série M. Maroc 1917-1940, Volume 111-112, Lettre du Caïd Haddou Ben Hammou à Mohammed Ibn Abdelkrim du 31 août 1921.

- *B.N.E.A.H., D.E.B.H.J.M.B.R., Dossier 47/610008, N°1240440,* El Problema Rifeño, por Cándido Lobera, Donativo, Melilla, 1909.

19- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136***,** Confidentiel, Monographie sur les Jemaas en Tribu Gzennaia, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 21 Mai 1930.

- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8***,** *Monografía de la cabila de Beni Tuzin,* por Ángelo Ghirelli, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934.

20- Stevens Coon Carleton (1904), *Tribes of the Rif***,** Harvard University, The University of Michigan Libraries.

- Emilio Blanco de Izaga (2010), *La vivienda rifeña ensayo de características e interpretación con ilustraciones del autor1930,* Consejería de cultura, E.2, Melilla.

- دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، الطبعة الثانية، ، الجزآن الأول والثاني.

- أورسولا كينغسميل هارت (2010)، **وراء باب الفناء الحياة اليومية للنساء الريفيات**، ترجمة عبد الله الجرموني، منشورات تيفراز، الرباط.

- David Montgomery Hart (1995), *Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif. Una selección de su obra, publicada e inédita, sobre la estructura sociopolítica de los rifeños del norte de Marruecos*, estudios introductores y notas de Hart, La Biblioteca de Melilla.

21- Maurice Halbwachs (1950), *La mémoire collective,* Presses Universitaire de France, Paris,.

- جاك لوغوف (2017)، **التاريخ والذاكرة**، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى .

- Jacques Le Goff (1988), *Histoire et mémoire,* Gallimard.

22 - عبد الكريم الريفي بن موسى (1992)، **زهر الأكم مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل**، دراسة وتحقيق: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط،

- عبد الرحمان ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الجزء السادس.

- امحند البخلاخي (2006) **الجوهر المكنون في عجائب أخبار ولي الريف سيدي الحاج حسون**، منشورات الصالون الأدبي لابن الريف، سلسلة التراجم.

منقبي وآخر فقهي (نوازل)[23] ، ومجموعة من الدراسات التي جمعت التراث الشعبي الريفي، ووفرت علينا عناء جمع الأمثلة الشعبية والحكايات المأثورة عبر الاستمارات وآليات علم الاجتماع[24] ، ودراسات ومقالات متعددة، لا يمكننا عرضها بتفصيل، وعملنا على جمع الروايات الشفهية واعتماد الموروث الجماعي، في كثير من جوانب الأطروحة.

أمدتنا هذه الدراسات برصيد منهجي أفادنا في وضع خطة عمل مونوغرافي حول مجال الريف الأوسط، من خلال معطيات التاريخ المكتوب ورواسب الذاكرة الجماعية، وذلك عن طريق تفريع الإشكالية الرئيسية إلى ثلاثة أبواب تتضمن تسعة فصول. يتمحور الأول منها حول المجال والإنسان ونمط الإنتاج، وينقسم بدوره إلى ثلاثة فصول، يتطرق الفصل الأول إلى المجال والتضاريس، والفصل الثاني يهم تاريخ الإنسان، أما الفصل الثالث فيختص بدراسة الموارد الطبيعية ونمط الإنتاج.

ويتضمن الباب الثاني المعنون بـ"الذاكرة الجماعية وإعادة تركيب بنية المجتمع والثقافة ونمط الحياة المعتاد"، ثلاثة فصول، يتناول الفصل الأول منه موضوع التاريخ الاجتماعي بالريف الأوسط، والفصل الثاني يقارب العلاقة بين الذاكرة الجماعية والتاريخ الثقافي، أما الفصل الثالث فيروم إعادة تركيب نمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط.

ويتناول الباب الثالث والأخير المتمحور حول التاريخ السياسي بالريف الأوسط خلال العصرين الحديث والمعاصر، في فصله الأول موضوع الريف الأوسط بين سلطة المخزن والريفوبليك، في حين اختص الفصل الثاني منه برصد حيثيات العلاقة التاريخية بين الريف الأوسط والأطماع الأجنبية، أما الفصل الثالث والأخير فاستجلينا من خلاله ملامح التاريخ السياسي بالريف الأوسط وترسباته في الذاكرة الجماعية المستمرة.

لنكون بذلك قد أكملنا فصول عمل مونوغرافي متكامل حول مجال الريف الأوسط، يجمع بين كل جوانبه التاريخية من الجغرافيا والديمغرافيا والاقتصاد والمجتمع والثقافة والسياسة، ويزاوج بين التاريخ المكتوب بكل أصنافه، وبين الذاكرة الجماعية بكل تمثلاتها وترسباتها وأشكال استحضارها من طقوس وممارسات وحكايات وأشعار.

---

23 - عبد الحق بن إسماعيل البادسي (1993)، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط.

- محمد عبد العزيز الزياتي (2013)، **الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**، تحقيق غنية عطوي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة-الجزائر.

24 - محمد أقضاض محمد الوالي (2007)، **ملحمة ادهار أوبارّان أنشودة المقاومة الريفية**، مطبعة المناهل، الطبعة الأولى.

- إدريس أضوض (2012)، **ألف مثل أمازيغي ومثلان**، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط.

الباب الأول
المجال والإنسان ونمط الإنتاج بالريف الأوسط

يشمل الباب الأول جزءاً مهماً من الإشكالية المحورية للأطروحة، والمتعلق بالتاريخ الجغرافي[25] والديمغرافي والاقتصادي[26] بالريف الأوسط على عهد الدولة العلوية، من خلال الإشارات الواردة في الكتابات التاريخية ورواسب الذاكرة الجماعية، باعتبارها مصادر تستوجب مقاربة تركيبية، بين المنهج العلمي لاستقراء النصوص التاريخية والمنهج التأويلي، للعمل على محاولة تخليص الذاكرة الجماعية من الخرافة والبعد الأسطوري الذي يخترقها، وجعلها مادة جاهزة للاستثمار في البحث التاريخي. وذلك بالتوفيق بين هذين المصدرين والمنهجين، من أجل إعادة قراءة تاريخ الريف على ضوء جملة من الإشارات التي تم تغييبها ولم تنل حظها من الدراسة والبحث.

تعد الذاكرة الجماعية خزاناً لثقافة الشعوب وتاريخها، بما تحمله الثقافة من عمق أنثروبولوجي. ويحيل التاريخ على سيرورة الإنسان في الزمن والمكان، بحيث يعيد المؤرخ ترتيب الأشياء وتصحيحها وفق رؤية تقويمية وتقييمية في الآن نفسه[27]، وذلك من خلال جمع ودراسة واستقراء النصوص التاريخية، ثم تحديد مراحل وأنواع وعوامل تشكل الذاكرة الجماعية، التي تفيد في دراسة التاريخ الجغرافي موضوع الفصل الأول من هذا الباب خصوصا في جانبه المرتبط بتمثلات المجال، هذا إلى جانب استحضار التاريخ الديمغرافي في الفصل الثاني، على اعتبار الجغرافيا البشرية مكملا للشق الأول. أما الفصل الأخير فيرتبط بالبحث في تفاعل المجال والإنسان، ودور ذلك في إنتاج نمط اقتصادي خاص بالمنطقة.

يعتبر الباب الأول بفصوله الثلاثة ضرورة منهجية يجب أن تتوفر عليها كل مونوغرافية، باعتبار التاريخ الجغرافي والديمغرافي والاقتصادي، بمثابة بنيات شارحة ومفسرة للواقع التاريخي بالريف الأوسط، وتمثل تاريخ الأمدين الطويل والمتوسط من الأطروحة، كما تعد أساس البناء الإشكالي فيما يخص الثقافة والمجتمع والسياسة، وتحمل في الآن ذاته نسقاً ثقافياً خاصاً بالريف، وذلك من خلال أشكال حضورها داخل المخيال الجماعي، ودورها في توجيه الحياة السياسية للقبائل.

---

[25]- نقصد هنا بالتاريخ الجغرافي، التتبع التاريخي لمعالم وتكون المجال المخصص للمنوغرافية، باعتباره مكونا أساسيا من الحدث التاريخي ولا يمكن للمؤرخ تدوين حدث دون التعرض لمكان وقوعه، كما يعد جزءا لا يتجزأ من التاريخ المجهري، بالإضافة إلى دوره في التأثير على طباع الساكنة وارتباطه بأنساقها الثقافية، وشغله حيزا مهما من الذاكرة الجماعية، ويعزى هذا الانفتاح إلى الطفرة النوعية التي عرفها علم التاريخ على المستوى المنهجي والموضوعاتي مع مدرسة الحوليات.

[26]- يعتبر تتبع المسار الديمغرافي داخل المجال عنصرا أساسيا لقيام الفعل التاريخي، وجانبا مهما من العمل المنوغرافي، وحلقة واصلة للربط بين الجغرافية ونمط الإنتاج، باعتبار الإنسان مطوِّعا للمجال من أجل الاستغلال الاقتصادي وخلق نمط انتاج خاص يناسب الموارد المتاحة بالمنطقة، وهذه العلاقة الإنتاجية بين الإنسان والمجال وسمناها بالتاريخ الاقتصادي.

[27]- عياد أبلال، "الذاكرة الجماعية على ضوء الصحافة والتاريخ"، موقع مؤمنون بلا حدود الإلكتروني، https://www.mominoun.com/articles/، تمت زيارته بتاريخ 2019/12/14.

الفصل الأول

الريف الأوسط: المجال والتضاريس

تعتبر أصول تسمية الريف بمثابة نقطة انطلاق أولى في دراسة تاريخه، من خلال جرد المصنفات الإخبارية التي أوردت "الريف" بمثابة مجال ذي خصوصيات طبيعية وبشرية، ثم الكشف عن تمثلاته في الذاكرة الجماعية، واستحضاره في الحوار اليومي بالريف، كما تشكل هذه التمثلات مدخلاً لتحديد المجال جغرافياً وثقافياً وسياسياً.

ادرجنا في المبحث الأول إشكالية حدود قبائل الريف التي مرت عبر عدة مراحل، اتسمت بالامتداد أحيانا والتقلص أحيانا أخرى، الأمر الذي تبرزه أشكال حضورها بالذاكرة الجماعية الريفية، ومن خلال إعادة قراءة فصول تاريخ الجغرافيا الثقافية ورمزية المجال، وذلك بالاعتماد على الحكايات المتداولة، والأساطير المتوارثة، والطوبونيميا المرتبطة بها، والتي يمكنها أن تسد الفراغات التي تعتري النصوص المكتوبة حول مجال الريف الأوسط.

وتعرضنا في المبحث الثاني من هذا الفصل، لدراسة البنية التضاريسية الخاصة بالقبائل الست المدروسة من الريف الأوسط، وإسهامها في تكوين ثقافة الإنسان الريفي وجعله قادرا على مواجهة الصعاب، بالإضافة إلى قسوة المناخ وانعكاسها على الوضع الاقتصادي بالريف. والغرض من هذا التصنيف الموضوعي، هو إبراز مدى أهمية استثمار التاريخ الجغرافي، وضرورة دراسة إكراهات المناخ وانعكاساتها على تشكل التجمعات البشرية الأولى، والبنية الديمغرافية والتحديات التي اعترضتها عبر التاريخ.

المبحث الأول: مجال الريف الأوسط بين الإسطوغرافيا والذاكرة

أولا: الريف الأوسط التسمية والحدود

يُعد تحديد المجال أولى خطوات البحث التاريخي، وأهم أسسه، لأنه محتضنُ الفعلِ الإنساني عبر الزمن، ويتحكم المجال في المشهد التاريخي ومجريات أحداثه، وهو ما يضعنا أمام ضرورة وضع المجال المدروس وفق مساره التاريخي وحدوده الجغرافية.

ورد مصطلح الريف في مجموعة من المصنفات الإخبارية، وكان له حضور قوي داخل أحداث العالم المتوسطي، غير أن فراغ بعض الصفحات التاريخية، يوجه الباحث نحو الكتابات الدفينة[28]، وإلى نتائج الأبحاث الأركيولوجية.

يعود تاريخ مجال الريف إلى عصور ما قبل التاريخ، وكشفت لنا الدراسات الأركيولوجية بنياته الثقافية والاقتصادية، ما يوحي بتعميره البشري قديما. وقد تطورت الدلالة الجيوسياسية للريف، حيث أطلق عليه الرومان قديما اسم الأرض المجهولة .[29]وإذا عدنا إلى الفترة الإسلامية سنجد أن التحديد المجالي للمنطقة غير متلازم مع مدلولها لجغرافي والبشري، إذ كان هذا المجال في فترة الفتوحات الإسلامية يدخل ضمن بلاد طنجة وما والاها، وذلك في إطار النظام الإداري الموروث عن ما قبل الإسلام.[30]ومع وفاة صالح بن منصور سنة 749م، أصبحت إمارة نكور أول إمارة غير مفارقة بالغرب الإسلامي تضم مجال الريف، مقدمة بذلك أنموذجا فريدا للانتظام المجالي في الحضارة الإسلامية.[31]

أول إشارة وردت فيها تسمية الريف، هي تلك التي نجدها في كتاب أخبار المجموعة[32]، وذلك خلال القرن السابع الميلادي؛ «استحكم الجوع فأخرجوا أيضا المسلمين من استورقة وغيرها (...) في سنة ست وثلاثين [هـ]، واشتد الجوع فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين وكانت أجازتهم من وادي بكورة...».[33]

تعرض ابن سعيد الغرناطي (المتوفى سنة 1274م)، لأخبار بادس، وتداول مؤرخو العصر الوسيط مصطلح الريف أكثر من ذي قبل، وكان يعني به المنطقة الممتدة على الساحل

28- Marc Bloch (1961), *Apologie pour l'histoire ou métier d'historien*, Edition, n°4, Armand Colin, Paris, p.24.

29- José María Santos-Paniagua (1948), «Notas sobre el derecho consuetudinario de la propiedad en el Rif», in *Archivos del Instituto de Estudios Africanos*, n°1, año IV, Madrid, p. 8.

30- أحمد الطاهري (1998)، **إمارة بني صالح في بلاد نكور: الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الإسلامي**، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص ..17.

31- نفسه، صص.43-42

32- يعني الريف لغةً، الخصب والسعة في المأكل والجمع أرياف، وهو ما يقارب الماء من أرض العرب وغيرها وجمعها أرياف وريوف، والريف أرض فيها زرع وخصب، ورافت الماشية أي رعت الريف. ينظر:

- ابن منظور، **لسان العرب**، دار الكتاب، بيروت، ج.2، ص..128

وتعني كلمة الريف في اللغة العربية الحافة أو الشاطئ، والأرض المزروعة أيضا. انظر:

- دايفيد مونتكومري هارت (2016)، **أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الريس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، الطبعة الأولى، ج.2، ص. .649

33- مجهول (1989)، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة ها بينهم**، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الثانية، ص..62

المتوسطي، خاصة بعد أن أصبح المرينيون يهتمون بمرسى بادس، باعتباره نقطة رئيسة للتبادل التجاري، ومعقلا لمقاومة المد المسيحي.[34]

وحدد أبو عبيد البكري (في القرن الحادي عشر من الميلاد) مجال الريف بين زواغة جراوة شرقا، مسافة ذلك نحو خمسة أيام، بجوار مطماطة وأهل كبدان ولمرنيسة الكدية البيضاء وغساسة أهل جبل هرك وقلوع جارة التي لبني ورتدى، وتحده غربا قبيلة بني مروان الغمارية وبني حُميد ومسطاسة وصنهاجة.[35]

ظل مصطلح الريف متداولا إلى سنة 1080-1081م، وبعدها دخلت المنطقة تحت حكم المرابطين واعتبرت جزءًا لا يتجزأ من بلاد غمارة[36]، واستمر الوضع إلى حدود عهد الموحدين، حيث صُنف الريف إقليما متميزا عن بلاد غمارة، يمتد كما ورد عند ابن أبي زرع الفاسي، من شرق غمارة غربا إلى أنكاد شرقا. وفي أواخر عهد الموحدين وبدايات الزحف المريني تشكلت اتحادية «بطوية»، ما بين قبيلة ثمسامان غربا واتحادية قلعية شرقا، ثم توسعت خلال القرن الثاني عشر من الميلاد في اتجاه الشرق إلى أن أحاطت بمليلة، وامتدت منذ القرن الرابع عشر من الميلاد في اتجاه غرب نهر نكور إلى حدود قبائل صنهاجة.[37]

ورد ذكر الريف في المصنفات التاريخية بحدودٍ مختلفة، فقد أورده ابن أبي زرع مثلا، وفق المدلول التاريخي، واعتبره إقليما من أقاليم الشمال[38]، في حين أعطى ابن خلدون نفسه أكثر من تحديدٍ لمجال الريف، بعد أن اعتبره الجزء المطل على البحر الأبيض المتوسط، ذكر أن الريف تجمعٌ إثني متميز، واختزله في بلاد نكور، ثم عممه على جبال غمارة، وذكر الريف أحيانا كثيرة بشكل مجرد لتحديد الساحل "رحاب الريف بساحل بحر الدر"[39]، غير أن هذا التحديد الجيو عسكري قد يكون راجعا إلى أهمية الأحداث التي همت المنطقة في عصره، ومن بينها ظهور قوى محلية وتكتلات قبلية لفتت أنظاره في إطار اهتمامه بالتحركات الإثنية والعصبية.[40]

خضع مجال الريف لعدة أنواع من التقسيمات، إذ قُسم خلال العهد المريني إلى قسمين: امتد الأول من حدود بادس غربا إلى سبتة في أقصى الشمال الغربي، والثاني من حوز بادس ليشمل جميع مناطق البلاد الريفية الشرقية.[41]

---

[34]- سعيد الغرناطي الأندلسي، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق خليل المنصور، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ج.1، ص..253

[35]- عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص. .90

[36]- عذارى المراكشي (1983)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، المكتبة الأندلسية 23، دار الثقافة، الطبعة الثالثة، بيروت، ص. .218

[37]- زرع الفاسي (1973)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، ص. .140

[38]- نفسه، ص. 141.

[39]- عبد الرحمان ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج.6، ص..210

[40]- محمد أونيا (1998)، »مفهوم الريف المغربي«، **حوليات الريف**، العدد الأول، السنة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. .18

[41]- عبدالرحمان الطيبي (1998)، »الحدود الجغرافية والتاريخية لقبائل الريف الأوسط«، **حوليات الريف**، العدد الأول، السنة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص..48

حدد امتداد مجال الريف خلال العهد الوطاسي من تخوم مضيق أعمدة هرقل، نحو الشرق إلى وادي نكور، أي على مسافة مائة وأربعين ميلا، وينتهي شمالا في البحر الأبيض المتوسط في القسم الأول منه، ليمتد من هناك جنوبا على نحو أربعين ميلا حتى الجبال المحاذية لنهر ورغة الواقعة بمنطقة فاس.[42]

وقد أطلق الجغرافيون والمؤرخون العرب كلمة الريف على كل سفوح السلسلة الجبلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، بينما خصصوا تسمية جبالة على السفح المطل على المحيط الأطلسي[43]، كما أطلق الإخباريون ومنهم عبد الحق البادسي اسم الحوز على الريف تمييزا له عن المجال الجبلي، وذكر أن الريف هو المجال الواقع بين تلمسان وسبتة باعتباره فضاء حضارياً وثقافياً وروحياً[44]. وميز أحمد الرهوني بين الريف وجبال غمارة من حيث الخصب[45]، ويقصد بالريف وفق هذا الاعتبار منطقة نكور، ذلك المجال الضيق دون المجال المجاور له الذي يسمى جبال الريف.[46]

كما نجد المؤرخ عبد الكريم بن موسى الريفي يذكر مصطلح الريف منذ بداية عهد الدولة العلوية مرات عديدة في جميع فصول كتابه المعنون »زهر الأكم«، حيث ترد عبارات: أهل الريف، وبلاد الريف، والريفي وغيرها[47]، ويعني ببلاد الريف القسم الممتد بين بلاد غمارة غربا إلى حدود عمالة وجدة شرقا. وقد سار على نهجه الضعيف الرباطي في القرن التاسع عشر، إذ جعل بلاد الريف أو إقليم الريف على عهد السلطان المولى سليمان يمتد من جبالة غربا إلى نهر ملوية أو ما بعده شرقا[48]، وهي نفس الحدود التي خص بها أبو خالد الناصري مجال الريف في كتابه الاستقصا.[49]

أشار إيدوارد ميشو بيلير Bellaire Michaux Edouardمن جهته، إلى صعوبة تحديد مجال الريف، وذلك راجع لتداخل العوامل الجغرافية مع الأبعاد التاريخية والسياسية، وتغيرات وديناميات الهجرات، التي كانت تنتج عن الصراعات الداخلية والخارجية[50]

---

[42]- الحسن الوزان (1983)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، ج.1، ص..324

[43]- لحسن أغزادي (1989-1988)، **ابن عبد الكريم وحرب الريف 1921-1926م**، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية، فاس، ص. .72

[44]- عبد الحق البادسي (1414هـ/1993م)، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق: سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ص. .50

[45]- أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تيطاوين**، مخطوط بالكتبة العامة بتطوان، ج.2، ص. .292

[46]- محمد أونيا، »مفهوم الريف...، م.س.، ص. .16

[47]- عبد الكريم بن موسى الريفي (1992)، **زهر الأكم مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل**، دراسة وتحقيق: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، صص.278-277

[48]- محمد الضعيف (1986)، **تاريخ الضعيف تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق: أحمد العماري، نشر دار المأثورات، الطبعة الأولى، الرباط، ص. .345

[49]- أحمد بن خالد أبو العباس الناصري (1997)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المجلد الثالث، ج.9، صص..206-106

[50]- Edouard Michaux Bellaire (1927), **Conférence faites au cours préparatoire du service des affaires indigènes**, Champion, Paris**,** Volume 27, p.175.

تعارض المدلول الإداري والجغرافي-البشري بالريف الأوسط، وبدا ذلك واضحا منذ العهد السعدي حيث يورد المؤرخ المجهول إشارات حول تحديد اسم الريف على ما وراء بادس وجبالها غربا إلى قصر عبد الكريم حاليا، وتحديدها إداريا بناحية الريف.[51]

صنف التقسيم الإداري منذ عهد الدولة العلوية المنطقةَ إلى البلاد الريفية ومقرها بادس، حيث مثلت مركز استخلاص الضرائب، وضمت المزمة وجبل منصور وجبل إبقوين، وامتد القسم الثاني من حدود بادس غربا إلى مدينة سبتة في أقصى الشمال المغربي.[52]

أصبح الريف بعد تفكك الاتحاد البطوئي يعني المنطقة الواقعة بين واد نكور غربا وواد كرط شرقا، ومن أعمدة هرقل جنوبا إلى البحر الأبيض المتوسط شمالا، واعتُبر إقليماً من أقاليم مدينة فاس، وذلك وفق التقسيم الإداري الذي كان سائدا خلال عهد الدولة المرينية-الوطاسية[53]، وهو نفس التحديد الذي وضعه مارمول كربخال Luis del Mármol Carvajal باعتبار الريف يبتدئ من منطقة تطوان غربا، ويمتد نحو الشرق إلى نهر النكور على طول سهلٍ تنيف مساحته عن خمسين فرسخا.[54]

وحدد بعض الدارسين الكولونياليين حسب ميشو بيلير مجال الريف في امتداد شواطئ المتوسط، من إقليم وهران إلى القبائل البحرية بالريف الغربي قرب مدينة تطاوين[55]. وخلال القرن الثامن عشر استقل الريف بشكل نهائي عن إقليم جبالة غربا وبلاد أنكاد شرقا.[56]

استمر نفس التقسيم الإداري خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، واحتوى المجال كلا من الريفين الشرقي والأوسط، وظهرت تقسيمات جغرافية جديدة، تُقسم الريف إلى ثلاث مناطق، تتمثل المنطقة الأولى في الريف الشرقي من نكور إلى ملوية، والمنطقة الثانية في الريف الغربي، وتمتد من خط النكور إلى خط رأس الجبهة، وأحيانا يطلق الريف الأوسط على الريف الغربي، فيما تُصنف القبائل التي تتوسط الحيزين السابقين ضمن الريف الأوسط، وهذا علما بأن نعت الريف الأوسط يطلق أحيانا على الريف الغربي أيضا.[57]

ينتمي الريف جغرافيا إلى الإيالة المغربية شمال العاصمة الفاسية، من جانب البحر الأبيض المتوسط، في مواجهة إسبانيا، ومجاورتها في بعض مراسيها، التي احتلتها من القطر المغربي منذ زمن.[58]

---

[51]- مجهول (1994)، **تاريخ الدولة السعدية التگمدارتية**، تقديم وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة، عيون المقالات، الطبعة الأولى، مراكش، صص..22-16

[52]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا...، م.س.، صص. .330-328

[53]- نفسه، ص. .252

[54]- مارمول كربخال (1888)، **إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ج.2، ص. .229

[55]- Edouard Michaux Bellaire(Janvier 1926), «Histoire du Rif», *In Rif & Jbala*, N°71, , éditions du Bulletin de l'Enseignement public du Maroc, Librairie Émile Larose, Paris, p.35.

[56]- محمد أونيا، »مفهوم الريف...، م.س.، ص. .27

[57]- عبد الرحمان الطيبي، »الحدود الجغرافية والتاريخية...، م.س.، ص. .49

[58]- أحمد سكيرج (1926)، **الظل الوريف في محاربة الريف**، إعداد محمد الراضي كنون، الجديدة، ص..2

أعاد الدارسون الإسبان والفرنسيون مصطلح الريف خلال القرن التاسع عشر إلى أصول لاتينية، باعتباره لفظة مشتقة من كلمات: Rive Ripa, Rivage،[59]، التي تعني المنطقة الواقعة على الساحل أو الضفة. وفي النصف الأول من القرن العشرين قدم ميشو بيلير محاضرة حول أصول تسمية بلاد الريف وإشكالية تحديده، وأكد أن الريف مصطلح يعني القبائل المستقرة في واجهة المتوسط، وأشار إلى المعنى العسكري للريف، باعتباره سوراً منيعاً أمام الحملات الإسبانية.[60]

عرف مجال الريف شهرة أكبر منذ ثورة سكانه على الاستعمارين الفرنسي والإسباني ما بين -19261909م إلى 1955م، وتم تحديده في الشمال المغربي من نهر ملوية إلى المحيط الأطلسي، غير أن هذا التحديد يجانب الصواب إذا ما اعتبرنا منظور الريف لدى أهله، الذي هو بمثابة منطقة صغيرة واقعة في وسط شمال المغرب تمتد من اتحادية قبائل قلعية الواقعة شرقا إلى قبائل غمارة غربا، وأكبر مدنه وقراه مدينة المزمة (الحسيمة).[61]

وحدد التقييد المخزني الصادر سنة 1890م عدد قبائل الريف في 21 قبيلة[62]، أولاها من جهة الغرب قبيلة متيوة، وآخرها في الجناح الشرقي قبيلة كبدانة، ومن ناحية الجنوب تحدها كل من قبيلة إگزناين وترگيست، وهو التقسيم نفسه الذي حافظت عليه الحماية الفرنسية والإسبانية، وبعد استقلال المغرب سنة 1956م، أصبح الريف يُصنف وفق التقسيم الإداري العام لسنة 1957م، ضمن أحد أقاليم البلاد الشمالية.[63]

اعتبرت مصادر القرن العشرين الريف بمثابة حوض منبسط بين غمارة غربا وهضاب نهر ملوية شرقا، على ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا، ومشرفا على عتبة تازة وسهل مسون جنوبا[64]، وهو الحيز الذي شغلته إمارة النكور سابقا.[65]

يتكون المجال المدروس من ست قبائل، أكبرها قبيلتا أيث ورياغر وإگزناين، ومن بعدهما قبيلتا ثمسمان وأيث توزين ثم أخيرا قبيلتا إبقوين وأيث عمارث، وكانت جلها تنتمي إلى الريف الأوسط منذ التكون الجيولوجي الأول، وتشترك في الحدود الجغرافية والشبكة الهيدروغرافية والسمات التضاريسية والموارد الاقتصادية. تتحدث كل هذه القبائل بنفس اللغة مع اختلافات بسيطة على المستوى الصوتي، حيث تسمى هذه اللغة مثلا، «تَريفشْتْ» في إگزناين

---

[59]- *B.N.E.A.H., V.I.E.F.B., dossier N° D.1765,* Territorio del Rif, por Don Vademécum, Madrid, 1946. p. 1.

[60]- خديجة الخديري (2018)، **التراث الأثري لساحل بلاد الريف**، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، ص. 29.

[61]- عبد الوهاب بن منصور (1968)، **قبائل المغرب**، المطبعة الملكية، الرباط، ص. 65.

[62]- جاء إحصاء القبائل الريفية وفروعها، باعتبارها وحدات جبائية، وبلغ عددها 21قبيلة - 6منها ضمن الريف الأوسط-، منها قبيلة كزناية وأيث عمارث التي وردت بصيغة بني عمارط. انظر:
-التقييد مخطوط بالخزانة الحسنية، كناش رقم **192**، يتضمن 5صفحات، الرباط، 1890.

[63]- محمد أونيا، »مفهوم الريف...، م.س.، ص. 33.

[64]- أحمد عبد السلام البوعياشي (1974)، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، مطبعة دار الأمل، الطبعة الأولى، طنجة، الجزء الأول ص..107

[65]- مراد جدي (2016)، »الريف: التسمية والهوية والعمران البشري دراسة في تاريخ المجال والسكان ½»، **مجلة الذاكرة**، العدد الأول، مطبعة الأمنية، الرباط، ص. 19.

و«تَريفيتْ» في أيث ورياغر[66]، ولا تُسجل اختلافات ذات دلالة كبيرة إذا أخذنا بعين الاعتبار الجانب السوسيو-لساني، نظرا لتشابه البنية الثقافية والاجتماعية في هذه القبائل، علاوة على توفرها على تاريخ مشترك لعدة عقود ونضال ضد الاستعمارين الفرنسي والإسباني، وذاكرة جماعية تؤرخ لنفس البنية الاقتصادية والثقافية والسياسية.

تتمثل قبائل الريف الأوسط - دون كتلة اتحادية صنهاجة السراير- في ست قبائل وهي: أيث ورياغر وثمسمان وإبقوين وأيث عمارث وأيث توزين وإگزناين[67]، وتشكل هذه القبائل كتلة متجانسة من حيث التشكيلة التضاريسية والبشرية والإكراهات المناخية، لكنها تتمتع باستقلالية مجالية، تتمثل في الحدود الطبيعية مثل وادي النكور الذي يفصل بين قبيلتي أيث ورياغر وأيث توزين، وأيث ورياغر وثمسمان، النابع من جبال إگزناين جنوبا والمار بمحاذاة أراضي أيث توزين وثمسمان مخترقا المجال الترابي لقبيلة أيث ورياغر، قبل أن يصب في قلب خليج الحسيمة. ويشكل واد أورينْگا بدوره حدودا قارة بين الريف وغمارة جهة الغرب، حيث ينبع من قبيلة أيث سدّاث جنوبا ويخترق قبيلة بني سميح قبل أن يصب غرب الجبهة في أراضي قبيلة متيوة[68]، وجبل بوزينب الذي يشكل الحدود الفاصلة بين قبيلتي إگزناين وأيث عمارث.[69]

تفصل قبائل الريف حدودٌ متعددة، أهمها الحدود الطبيعية المتمثلة في المرتفعات أو الوديان، ونجد أهم الحدود الطبيعية القارة بمجال الريف؛ منها وادي كرط التي تفصل بين الريف الشرقي والريف الأوسط.[70]

تمتد قبيلة أيث ورياغر على طول نحو ستين كيلومترا من الشمال إلى الجنوب، وحوالي عشرين كيلومترا من الشرق إلى الغرب .[71]وتطل القبيلة شمالا على البحر الأبيض المتوسط، وتتوسط كلا من قبائل ثمسامان وإبقوين وإگزناين وأيث توزين وأيث يطفت وأيث عمارث وترگيست. وتعتبر أيث ورياغر أكبر قبيلة داخل الريف الأوسط، وتتكون من خمس قسمات كبرى هي أيث يوسف أوعري وأيث عري، وأيث بوعياش وأيث عظية، وأيث حذيفة وأيث عروس، وأيث عبذ الله، وإمرابظن[72]، وبفضل هذا الموقع الاستراتيجي للقبيلة وتميزها

66- تشترك قبائل أيث ورياغر وإگزناين وأيث توزين وثمسمان وإبقوين وأيث عمارث في اللغة المسماة تريفيث، ولا توجد فيها اختلافات معقدة، إذ تنحصر فقط في بعض مخارج الأصوات أو ما يتعلق بالصواتة phonetique، حيث تطرأ بعض التغيرات على الصوامت وتتغير صفاتها عند النطق وفق الانتماء القبلي. انظر:
- جواد الزوبع (2016)، »إشكالية الفعل وخصائصه الصرفية في أمازيغية »تريفيت» دراسة مقارنة»، **مجلة الذاكرة**، العدد الثالث، مطبعة الأمنية، الرباط، ص..129

67-*B.N.E.A.H., S.G.M.S.S., N°27,* Nombres De Las Cabilas Del Rif, servicio Geográfico, 1927, p.66.

68- عبد الرحمان الطيبي (2008)، **الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط ،1860-1912** منشورات تفراز، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. .26

69-*B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°174, Marruecos,* El Rif Bu Zineb, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, Mapa Provisional en E. 150000, 1940, p.1.

70–*B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°174, Marruecos***,** El Rif Bu Zineb, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, Mapa Provisional en E. 150000, 1940, p.2.

71– Auguste Mouliéras (1895), *Maroc Inconnu Exploration Du Rif,* Librairie Coloniale et Africaine, Joseph André, Paris, p.95.

72 – دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص..447

الجغرافي والبشري أصبح الورياغليون يعتدون بأنفسهم واشتهروا بحبهم الكبير لأرضهم، كما يعتبرهم جيرانهم ذوي الدم الريفي الخالص وأفضل من يتحدثون باللغة الريفية الأصيلة.[73]

تتكون قبيلة إگزناين بدورها من خمس قسمات كبرى هي أشث[74] يونس وأشث عرو عيسى في الشمال[75]، وأشث عاصم في الشمال الشرقي، وأشث محند في الغرب، وإمزذورار في الجنوب الشرقي، ثم إشاوين وجبارنة في الجنوب[76]، وتنقسم إلى تكتلين رئيسيين هما تكتل ثيزي وسري المتضمن لثلاث قسمات وأكنول المتكون من قسمتين. وتبلغ مساحتها حوالي ألف ومائتين كيلومتر مربع، ويشكل مجالها جزءاً مهما من سلسلة جبال الريف. تحد جبال إگزناين شمالا بكتلة جبال أزرو أقشار من قسمة أشث عرو عيسى، وتشكل قسمة أشث يونس وأشث محند حدودها الشرقية المتجسدة بالتحديد في مرتفعات أبرشان وذيمرقفث وأوشانن وبوعنقود.[77]

تقع حدود قبيلة إگزناين مع قبائل إبظارسن وأيث توزين وأيث ورياغر وأيث عمارت شمالا من الشرق باتجاه الغرب، ومع قبائل أيث عمارت وإمرنيسن غربا من الشمال باتجاه الجنوب، ومع قبائل إمرنيسن وربرانس جنوبا من الغرب باتجاه الشرق، ومع قبائل لبرانس وإبظارسن شرقا من الجنوب باتجاه الشمال.[78]

تشغل قبيلة أيث توزين بشرق نهر النكور مساحةً تقدر بحوالي سبعمائة كيلومتر مربع، وتمثل قبيلة حدودية بين الريفين الشرقي والأوسط، وتحدها قبيلتا ثفرسيث وثمسمان شمالا، وقبيلة إگزناين جنوبا، وقبيلة إبظارسن شرقا، وأيث ورياغر غربا[79]، وتنقسم القبيلة إلى خمس قسمات هي: أيث عكي، وأيث برعيز، وأيث ثعبان، وأيث ثسافث، وإغاربيين.[80]

يحد البحر الأبيض المتوسط قبيلة ثمسمان شمالا، وتشكل قبيلة أيث ورياغر حدودها الغربية، وقبيلة أيث سعيد حدودها الشرقية، وأيث توزين حدودها الجنوبية. وتبلغ مساحتها

---

[73]– Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu Exploration Du Rif…*op. cit., p. 95.

[74]- استعملنا كلمة "أشث" بالنسبة للمناطق المنتمية لقبيلة إگزناين وحسب النطق المحلي لهذه القبيلة، واستعمالنا "أيث" كما تنطق في القبائل الخمس الأخرى، وتقابل معنى كلمة "آيت" بالنسبة لقبائل الأطلس.

[75]– تجدر الإشارة إلى أننا نجد اختلاف في تسمية القبائل وقسماتها، مثلا: أشث عرو عيسى بالريفية تتحول إلى ولاد علي بن عيسى بالدارجة العربية، أنظر:

- Ramírez Rodríguez (2012-2013), *Los «Santos» (Imrabden) y el paisaje cultural entre los Ayt Ali u Aissa del Rif Azul central Marroquí: una perspectiva etnoarqueológica*, Director Walburga Wiesheu, Escuela Nacional de Antropología e Historia, p.16.

[76]– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 447.

[77]– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p. 1.

[78]– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, en date du 20 Mai 1941, p.1.

[79]– *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, pp.8-9.

[80]– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 447.

حسب موليراس 1600كلومتر مربع[81]، رغم أن وصف هذا المؤلف غير دقيق عموما. ويعيد الطاهري[82]، أصل تسميتها إلى مجاورة حدودها الشمالية لمياه البحر، أي «ثومسْ أمانْ» بالريفية. وتنقسم القبيلة إلى خمسة أخماس أو قسمات رئيسية هي أيث ثعبان، وأيث بويذير، وأيث مرغنين، وثروگوت، واربع الفوقاني.[83]

كانت حدود قبيلة إبقوين قديما حسب بعض المصادر تمتد من الشرق إلى الغرب، من مجرى وادي كرت إلى أحواز بالش عند قدم جبال بلاد غمارة، ومن الشمال إلى الجنوب، من ساحل البحر، مرورا بجبال إگزناين حتى ممر تازة وأحواز ورغة.[84]

فيما يرسم حدودها موليراس في القرن التاسع عشر باعتبارها قبيلة تمتد على طول الشريط الساحلي الرابط بين بادس وخليج إگار عياش السفلي، الذي ينتهي غربا عند رأس «مورو نويبو». وتشكل القبيلة امتداداً من الساحل الشمالي إلى قبيلة أيث يطفت في اتجاه الجنوب، وتمتد أراضيها على طول نحو عشرين كلم من الشرق إلى الغرب، وحوالي أربعين كلم من الشمال باتجاه الجنوب.[85]

تعد قبيلة أيث عمارث من بين القبائل الصغيرة بالريف وتبلغ مساحتها حسب موليراس، نحو أربع مائة كيلومتر مربع، وأعلى مرتفع بها هو جبل أيث عمارث الذي يقسم القبيلة إلى جزأين من الشمال إلى الجنوب. وتتوفر القبيلة على غطاء نباتي هام دائم الخضرة بفضل أشجار الأرز والبلوط والزيتون البري.[86]

تحد قبيلة أيث عمارث شرقاً قبيلةُ إگزناين، ومن الجنوب الشرقي قبيلةُ إمرنيسن، ومن جهة الجنوب الغربي قبيلة أيث بشير ضمن كتلة صنهاجة السراير، كما تحدها غرباً كل من قبيلتي ترگيست وأيث مزذوي، وشمالاً قبيلة أيث ورياغر[87]. وتتكون القبيلة من ثلاث قسمات رئيسة هي: أيث رحساين، وأيث عبو وإجعونن، وأيث سعيد أويخرف.[88]

تتفاوت القبائل المدروسة الست جغرافيا ومجاليا، بالإضافة إلى عدة اعتبارات تحدد أهميتَها، تتمثل في الموقع الاستراتيجي وعدد الحاملين للسلاح، ثم من حيث الموارد الاقتصادية التي تتصدرها الأراضي الخصبة ووفرة المجاري المائية وشساعة المراعي.

تعد قبيلة أيث ورياغر قلب جسد الريف الأوسط بقبائله الساحلية والداخلية، هذا من حيث الموقع والفئة القادرة على حمل السلاح والتي تقدر بـخمسة عشر ألف فرد، تليها قبيلة إگزناين

---

[81]– أوجست موليراس (2007)، **المغرب المجهول: اكتشاف الريف**، ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز ناريف، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ج.1، ص..111

[82]– أحمد الطاهري (2019)، **بلاد الريف في أعماق تاريخ وثقافات البحر المتوسط**، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى، تطوان، ص..68

[83]– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. .447

[84]– عبد العزيز طليح (2016)، **إبقوين نبش في الذاكرة**، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الرباط، ص..25

[85]– Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu Exploration Du Rif*..., op. cit., p. 90.

[86]–Ibid, p.125.

[87]– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série 12MA/900/137,* le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Bni Amart, Le 24 Mai 1939, p. 2.

[88]– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. .447

التي تشكل حدود القبائل الريفية جنوبا، وتتوفر على حوالي ستة آلاف حامل للسلاح. ولقبيلة ثمسمان الساحلية أهمية مجالية واستراتيجية، وتتوفر على خمسة آلاف حامل للسلاح، مثلها مثل قبيلة أيث توزين الداخلية. وتتوفر قبيلة إبقوين على مجال بحري وموارد اقتصادية هامة نسبيا، رغم محدودية مجالها البري واكتفائها فقط بـألف وخمس مائة حامل للسلاح. أما قبيلة أيث عمارت، فتعرف محدودية على مستوى المجال والموارد التي تتلخص في حيز بسيط من المجال الغابوي، وألف فرد حامل للسلاح.[89]

تتفاوت أهمية القبائل بين الواقعة على الساحل والواقعة بالداخل، وذلك راجع لتوفر المجال الساحلي على الموارد البحرية وعلى مجموعة من المراسي. وقد اكتسبت أربع من هذه المراسي أهمية بالغة عبر التاريخ، وربطت علاقات تجارية خارجية، وهي مرسى ثمسمان[90]، ومرسى النكور ومرسى إبقوين ومرسى بوسكور، الذي اكتسب أهمية تجارية بالغة بعد اندثار مدينة ومرسى بادس.[91]

تقاسمت القبائل المدروسة تمثلات ثقافية وطقوساً وعوائد اجتماعية، ونسجت ذاكرة جماعية مشتركة وخاصة في آن واحد. وقد ارتبط أغلب هذا التراث بالتضاريس والمجال الجغرافي والموارد المائية، مثل نهري كرت والنكور، والموارد الاقتصادية المتمثلة في المراسي والأراضي الزراعية والمجال الغابوي. تُتداول في مجموع المنطقة نفس اللغة الريفية، وهو ما ساهم في بناء هوية مشتركة بين أعضاء هذه القبائل ،[92]وحسب دراسات الجغرافية السياسية والأنثروبولوجية الدينية فإن القبائل الست المدروسة تتقاسم كل الجوانب التي تجعل ذاكرتها الجماعية موحدة[93]، تتضح بشكل أكبر عند الحديث عن تمثلات المجال الريفي في الذاكرة الجماعية.

ثانيا: مجال الريف وتمثلات الذاكرة الجماعية

حظي مجال الريف بتقييم خاص من قبل ساكنته، ومنحته اعتبارات وشمت الذاكرة الجماعية التي أرّخت لتكونه وتطوره أساطير وروايات تناقلتها الأجيال بشكل ممتع. ويعتبر هذا التراث مصدرا ذا فائدة هامة للتأريخ لذهنية وثقافة المنطقة، حيث يمكن استخلاص بعض الإشارات المفيدة للتأريخ الجغرافي لمنطقة الريف الأوسط، وذلك عبر تحليل وتجزيئ مكونات روافد الذاكرة.

89– أحمد سكيرج (1926)، **الظل الوريف في محاربة الريف**، إعداد محمد الراضي كنون، الجديدة، ص..3

90– عبد الرحمان ابن خلدون، ديوان المبتدأ...، م.س.، ج. ،6ص..285

91– أحمد الطاهري (2019)، **بلاد الريف في أعماق تاريخ وثقافات البحر المتوسط**، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى، تطوان، ص.68

92– *B.N.E.A.H., V.I.E.F.B., dossier N° D.1765*, Territorio del Rif, por Don Vademécum, Madrid, 1946. p. 1.

93– Azul Ramírez Rodríguez y Ouajd Karkar (2012), "Linajes Santos (Imrabden) y Lugares Sagrados. Algunas expresiones femeninas y masculinas de lo sagrado entre los Ayt Ali u Aissa, Amazighs del Rif centre marroquí, y la "Teoría de la santidad geopolítica" de Ernest Gellner", *Peregrinaciones Ayer y Hoy Arqueología y Antropología de Las Religiones*, El Colegio de México, Impreso en México, p.242.

تتصل تَمثُّلات الجماعة الخاصة بالجغرافية الثقافية للمجال بسياق ونمط الحياة السائد داخله، مع تسجيل اختلافات على مستوى الخطابات التي صيغت بشأنها، لكنها تقترن في كليتها بمجال معين يحتوي هوية مشتركة ترسخت بالذاكرة الجماعية.[94]

يتميز المجال الرمزي عن المجال الواقعي بعدة اعتبارات، ويتمثل أهمها في استيعاب امتزاج التاريخ الجغرافي بالتاريخ الثقافي والذهني الذي يعكس بنية المعتقد السائدة، ونوعية المخاوف التي تتهدد الجماعات البشرية داخله والكشف عن نوعية متطلباتها اليومية.

تَمَثَّل الريفيون مساحةَ مجال الريف بشكل يفوق مساحته على أرض الواقع، معتبرين أن العالم يتلخص في الريف وأحيانا في القبيلة أو القسمة، بشكل جعلهم لا يتصورون وجود حياة خارج هذا المجال، وهو تصورٌ قائمٌ على الأقل في مرحلة الطفولة. كما يتصور الريفيون هذا المجال بدون حدود جغرافية تقسمه، حتى تبدو لمن يراه من خارج الريف ككتلة متجانسة ومتكاملة، وذلك بهدف إظهار القوة الكامنة في الاتحاد، وإحكام هذه الحدود داخليا أمام عناصر القبائل الأخرى.[95]

طبعت التضاريس ذاكرة الجماعات الإنسانية بانطباعات خاصة، وتمنحهم طبائع مقترنة بوعورتها، وتنسج معهم علاقات تشعرهم بالانتماء وتمنحهم الهوية، وتجعلهم يتحدثون عن تاريخهم ونشأتهم الأولى، انطلاقا من التكون الجغرافي الخاص بمجالهم، والمقترن أحيانا بالأسطورة.[96]

يوظف المؤرخ الأسطورة المركبة على التحليل التاريخي ظاهريا، لأنها بُنيت في مكانٍ ما ضمن حقبة تاريخية معينة بالتفاعل مع الإنسان، مع إمكانية حضور مخلوق خرافي أو ولي ذي كرامات. وحسب ليفي ستراوس، تستعيد الأسطورة المخلفات البالية للمنظومات الاجتماعية وتُرتِّبها، فيما تجعلها الحياة الثقافية المديدة للأسطورة صيداً ثميناً للمؤرخ، وتحدد مكان وزمان الذاكرة.[97]

غطى زمن المعجزات الصخور الكرانيتية بالريف الأوسط، حيث نجد انتشار أساطير قديمة تنتمي إلى زمن الكرامات، واكتست نسبة مهمة من القداسة لدى السكان الذين اعتقدوا بها الفأل الحسن ونذير الشؤم، حسب الرؤيا وتفسيرها.[98]

ارتبط التكون الجغرافي الأول عامة بالريف في أحيان كثيرة بالأساطير وكرامات الأولياء والصلحاء، والتي يؤرخ من خلالها لتكون العديد من التشكيلات التضاريسية من المرتفعات والمجاري المائية. نلحظ انتشار أساطير دون أخرى، خصوصا تلك التي تحمل دلالات شمولية

---

[94]– لطفي عيسى (2015)، **بين الذاكرة والتاريخ في التأصيل وتحولات الهوية**، أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص..160

[95]– Pallarés Montse Flores (2010), *El Agua del Rif*, la mar de fácil editorial, Edición primera, Barcelona, p.11.

[96]– Fernand Braudel (2001), *Memory and the Mediterranean*, Alfred A.Knopf, 1st Edition, New York, p.15.

[97]– جاك لوغوف (2017)، **التاريخ والذاكرة**، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، ص..216

[98]– أورسولا كينغسميل هارت (2010)، **وراء باب الفناء الحياة اليومية للنساء الريفيات**، ترجمة عبد الله الجرموني، منشورات تيفراز، الرباط، ص..146

مرتبطة بالديانة الإسلامية وحتى الاعتقادات القديمة، فيتم تكييفها حسب المجال المحلي، فتسند كرامة تفجير مياه العيون لولي ما كدلالة على كرامته، وهي من الأساطير المأثورة في الريف. وتعود هذه الأسطورة إلى إحدى كرامات النبي موسى حسب الآية الستين من سورة البقرة: «وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا [99]» هكذا تُروى في أيث ورياغر حكاية أحد الأولياء المنتمين إلى سيدي حند أوموسى من إگزناين الذي وصل إلى صخور الريف الأوسط في أيث توريرث على وجه التحديد، بعد سفر طويل عبر أراض قاحلة، وتوقف للاستراحة في مكان ظليل، وعندما شعر بالعطش ضرب بعصاه على الأرض، فتدفقت المياه على شكل عين جارية تسمى «رميزاب ن ارعص[100]». وهذا نفس التفسير الذي نجده في قبيلة إبقوين أيضا، حيث ضرب سيدي محند أمقران بعصاه على أسفل صخرة، فتفجرت عين أغبار الجارية إلى يومنا هذا.[101]

تتميز الأسطورة المرتبطة بمجال الريف الأوسط بتعدد الروايات، حيث تروي كل قبيلة على حدة نفس الأسطورة وفق اعتباراتها التضاريسية وتسمياتها الخاصة، نسبة إلى الولي الذي تنسب إليه هذه القدسية وتؤمن بكراماته وتتبرك به داخل حيزها الجغرافي.

نذكر مثال كرامة أحد الأولياء الورياغليين الذي تمكن حسب الأسطورة المتداولة محلياً من تغيير مجرى نهر النكور ليستفيد من ذلك أهالي أيث ورياغر على حساب التوزينيين ووليهم سيدي بوجداين. ويتعلق الأمر بسيدي محند أوموسى المتوفى سنة 1839-1838، والذي قيل عن كراماته قدرته على الظهور في مكانين مختلفين في نفس الوقت، والمشي فوق الماء.[102] ونجد في هذه الكرامات المرتبطة بالمجال والمجاري المائية والاستمطار والجهاد، إشارات تمثل هواجس ومخاوف الريفيين وتطلعاتهم.

تعد المروية القبلية والحكاية الخرافية نوعا من التأريخ الذي يمزج بين الحقيقة التي تتمظهر في أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية، والخيال المرتبط بالكرامات والمخلوقات الخرافية. وتستند إلى مجموعة من الروابط التي تجمع بين الجماعات الإنسانية بقيمها الأخلاقية النمطية ضمن مجال مشترك للحياة، كما تحمل في طياتها مادة تاريخية غنية، إذ تحيل إلى مزيج من المعتقدات والطقوس والذهنيات التي مكنت مختلف المجتمعات من اقتراح معنى محدد وخاص للعالم على الصعيد المادي المعاش والمجرد. وتقترن أيضا بنسق إنجاز الأشغال الزراعية اليومية منها والموسمية، مع جملة من العادات والممارسات الطقوسية التي تحيل على أزمنة ضاربة في القدم.[103]

يعيد الريفيون تاريخ تأسيس مجالهم إلى زمن بعيد غير محدد دون أي إشارة واضحة متضمنة لتاريخ معين، رغم غياب كامل للمصداقية ومصادر موثوقة، يظل الريفيون واثقون

---

[99]_القرآن الكريم، **سورة البقرة**، الآية60 ، برواية ورش.

[100]– أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء ...، م.س.، ص. 147.

[101]– أنخيلو گيريلي(2017)، **إبقوين قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، ص.31.

[102]– دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطيين المغربية، الطبعة الثانية، هولندا، ، ج.1، ص. 166.

[103]– لطفي عيسى، بين الذاكرة والتاريخ ...، م.س.، ص. 128.

بأن معلوماتهم صحيحة إلى حد بعيد معتمدين في ذلك على الذاكرة الجماعية، من خلال مصادرها المتمثلة أساسا في الحكاية، الأمر الذي يتطلب مقابلة هذه المعلومات بالنص المكتوب لاستطلاع مدى صحة معطيات الذاكرة.

تحضر النوازع التأسيسية عند كل الجماعات الإنسانية، وتظل ذاكرة التأسيس إسلامية داخل الريف الأوسط في مجموعة من الجوانب، حيث تنغرس الذاكرة في حالة بحث مستمر عن رابطة بناءة بين مستويات إدراك أو تمثل ثقافي، المجال الحضري روحيا، من خلال استثمار الرأس المال الرمزي، وكيفية صياغة التوافق الاجتماعي حولها بما يكفل اتساق الأنشطة السياسية والاقتصادية والثقافية[104]. ونستحضر ارتباطا بهذه النقطة على سبيل المثال، مسألة أصل الورياغليين المقترنة بجبل حمام الذي ارتبط بأسطورة القيام بمناسك الحج بمكة، وبسيدي بوخيار على قمة هذا الجبل أيضا، في نفس اليوم، حيث كان يعتبر نقطة انطلاق الأولياء نحو مكة ذهابا وإيابا خلال يوم واحد.[105]

انعكست وعورة التضاريس الريفية على حياة السكان، إذ أرغمتهم على العزلة، فصعبت ظروف عيشهم، وبصمت حياتهم بنوع من العنف والقسوة والشدة والاضطراب، وتمكنت من وشم ذاكرة مجالهم من خلال إطلاق تسميات تعود إلى الأولياء أو الموارد الطبيعية على عناصر من هذه التضاريس، مثل الجبال والأودية والفجاج.[106]

ارتبطت مجموعة من الأعلام المكانية بالريف الأوسط بتمثل السكان لطبيعة الأرض من وجهة نظرهم، ومكوناتها الجيولوجية والتضاريسية والمعدنية والترابية، حيث نجد من بين الفرضيات حول أصل تسمية أيث ورياغر، تلك التي تعيده إلى اللون الأصفر باللغة المحلية، أي «أوراغ» الذي أخذه جبل حْمام، ظنا من سكانه أن المنطقة تتوفر على مناجم من الذهب، هذا المعدن النفيس الذي يقترن مقابله الريفي بدوره باسم القبيلة، أي «أورغ».[107]

شكلت الأسطورة المرتبطة بالمجال، أهم روافد الذاكرة الجماعية بالريف الأوسط، التي تتوارثها الأجيال وتضمن استمراريتها وحفظها، وتمدنا بمادة تاريخية مهمة قابلة للاستثمار من قبل المؤرخ وفق مناهج علمية ومنطقية تخلصها من الزوائد وتستغل المادة الخام التي تحفظها بين ثناياها.

تصنف الطوبونيميا بالريف الأوسط ضمن آليات الحفاظ على ذاكرة المجال وترسيخها، فأسماء الأماكن تختزن عناصر ثقافية، وهي بمثابة إشارات ورموز دالة، لأنها تنبثق من الوسط لا خارجه، وتؤرخ لأحداث تاريخية تمزج بين الواقع والخيال.

نجد انتشار أسماء مرتبطة بالأماكن المتوفرة على الكهوف، أي «إفران»، مفردها «إفري»، نذكر منها إفران بقبيلة إگزناين ضمن قسمة أشث عرو عيسى، وثاندا أو ثامذا بيفران، أي بركة الكهوف، في إبقوين مثلا. نلاحظ أيضا وفرة الأسماء المرتبطة بالصخور

---

[104]– لطفي عيسى، بين الذاكرة والتاريخ ...، م.س.، ص. 141، وص..221

[105]– أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء ...، م.س.، ص. .148

[106]– *B.N.E.A.H., V.I.E.F.B., dossier N° D.1765*, Territorio del Rif, por Don Vademécum, Madrid, 1946. p. 1.

[107]– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. .428

كما هو الشأن بالنسبة إلى» أزرو أقشار« و»أزرو نوامْسا« ضمن نفس القسمة من إگزناين. وتكتسي الأماكن الصخرية مكانة خاصة في ذاكرة العديد من الشعوب، وتحمل طابعاً من القداسة، لما يمثله الحجر من قوة وصلابة، وهو ما حمل مجتمعات كثيرة على الاحتماء به من المخاطر الطبيعية، وللاطلاع على الغيب واستجداء البركة، إضافة إلى المنافع المادية الأخرى التي لمسها الإنسان في الحجر منذ عصور ما قبل التاريخ، فهو كان مأواه وغطاءه بعد مفارقة الحياة، وأداة لكسب قوت اليوم.[108]

ارتبطت القبيلة بعوامل جغرافية واقتصادية، وعرفت نوعا من التشارك فيما يخص الموارد الطبيعية[109]، بينما طبعت الثقافة المجال بالمعجم الطوبونيمي والمصطلحات الجغرافية المرتبطة بالتضاريس، وكانت أهم مظاهر وشم الذاكرة الجماعية.[110]

تنتشر الأعلام الجغرافية المرتبطة بالموارد المائية في الريف الأوسط نظرا لأهمية هذه المادة الحيوية، وهي خاصية مشتركة في مختلف أرجاء العالم. وتشمل هذه الأسماء العيون والصهاريج والمجاري المائية وغيرها. نذكر من بين الأمثلة، لفظة «أَغْبَارْ «التي تعني العين أو المنبع، وذلك في «أغبار ن تسثيت«، و«أغبار إفا)ر(كوكن« في قبيلة إگزناين[111]. ونجد نفس التسمية في قبيلة إبقوين حيث يحمل أحد مداشرها اسم «أغبار .»[112]نذكر أسماء مداشر أخرى مرتبطة بأسماء الموارد المائية مثل مدشر «ثيفا(ر)وين«، مفردها «ثافراوث«، أي العين أو الصهريج، في أيث ورياغر، و«ثارا ثازوگاغث«، جمعها «ثاريوين«، أي العيون مرة أخرى في إگزناين[113]. تقترن الأعلام الجغرافية أيضا بأسماء النباتات، كما هو الحال بالنسبة للزيتون البري، أو «أزمور« بالريفية الذي أطلق على العديد من المناطق في الريف الأوسط، نذكر من بينها قسمة ومدشر «إزمورن« في قبيلة إبقوين، ومدشر «ثيزمورين« في أيث ورياغر. نجد من ضمن الأشجار الهامة الأخرى في مجال الريف الأوسط، شجر الصنوبر، أو «ثايذا« بالريفية، هكذا حمل أحد الفجاج في قبيلة إگزناين اسم «ثيزي ن ثايذا«. يسري نفس الشيء على نبات القصب، أي «غانيم«، حيث نجد مدشراً في إبقوين يحمل اسم «ثيغانيمين«، وهي صيغة الجمع المؤنث لهذا النبات، وقسمة «ثسافت« أي البلوط الأخضر في أيث توزين.[114]

تؤرخ الطوبونيميا لحضور الوحيش أيضا داخل هذا المجال، حيث ترتبط مجموعة من الأسماء المكانية باسم الخنزير مثلا، ما يدل على انتشاره، إذ نجد منبع «ثارا نييرف«، أي عين

---

[108]– رشيد الحسن (2002)، **وشم الذاكرة معالم أمازيغية في الثقافة الوطنية**، مطابع أمبريال، الرباط، ص. 60.

[109]– Paul Pascon, «30 ans de sociologie du Maroc», *B.E.S.M.,* N°155-156, Janvier 1986, p.186.

[110]– رشيد الحسن، وشم الذاكرة...، م.س.، ص. 57.

[111]– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 15.

[112]– أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 69.

[113]– *B.N.E.A.H., V.I.E.F.B., dossier N° D.1765*, Territorio del Rif, por Don Vademécum, Madrid, 1946. p. 1.

[114] –رضوان بخرو، «إضاءات حول طوبونيمية الريف الشرقي منطقة بوعلما أنموذجا»، موقع هيسبريس الإلكتروني الذي تمت زيارته بتاريخ 04/03/2020.، https://www.maghress.com/hespress/

الخنزير، بقبيلة إبقوين[115]، وتحضر نفس التسمية في قسمة أشث محند من قبيلة إگزناين، بالإضافة إلى تسمية دوار من قسمة أشث يونس من نفس القبيلة باسم أنثى النمر، أي «ثاغيراست»[116]. ومن الحيوانات والطيور الأخرى المرتبطة بطوبونيميا المنطقة نذكر ابن آوى الذي يطلق علية الريفيون اسم «أوشن»، هذا اللفظ الجامع الذي يشمل الذئاب أيضا، فنجد فرقة أوشانن من دوار بوعنقود بقسمة أشث يونس بإگزناين ،[117]وأوشانن في ثمسمان. لم تُستثن المواشي والطيور والدواجن من هذا التوجه، فحملت منطقة في إبقوين اسم «إگار أوفوناس»، أي حقل الثور، وسُميت عين بنفس القبيلة، «ثارا ن ثغاط« ، أي عين المعزاة، وأُطلق على مرج يفصل بين قبيلتي إبقوين وأيث ورياغر اسم «أگرمام أويازيظ»، أي بحيرة الديك، وحمل منحدرٌ حاد في إبقوين اسم «اجارف إذبيرن»، أي جرف الحمام، وبالنسبة للجوارح سُمي موقعٌ في إگزناين، «أزرو إفورشان»، أي رأس أو قمة الصقور، ومدشرٌ في أيث توزين، «إمديون»، أي العقبان.[118]

احتفظت الطوبونيميا المحلية بالأسماء الأمازيغية المحلية للتضاريس متبوعة بنعت يحدد البنية التضاريسية المعنية، فنجد اسم «أذرار»، أي الجبل، في حالات «أذرار أبرشان« أو «أذرار أزوگاغ»، و«ادهار»، أي المرتفع، مثل «ادهار أوبرّان« في ثمسمان الذي شهد أولى معارك أنوال، و«ثوريرت»، أي التل، منها «تيوريرين« في أيث توزين[119]، و«ثيزي»، أي الفج، مثل «ثيزي عزا« في ثمسمان، المنطقة التي شهدت معارك شهيرة خلال الحرب الريفية، أو «ثيزي أوسري« في إگزناين، و«أزغار»، أي السهل أو المنبسط عند قدم المرتفع، منها «أزغار« ثمسمان و«أزغار «أيث ورياغر، و«ثغزويث»، أي المنعرج الفيضي الذي يتحول إلى بستان، نذكر منها «ثغزويث ن داسا« في أيث توزين، و«ثيغزا« في كل من ثمسمان وأيث ورياغر. وبالنسبة للمناطق المتوسطة بين الجبال وغير النافذة أخذت اسم «إكنار جمع أكنور»، نموذج أكنول في الريف.[120]

نجد علاوة على هذا، أسماء طبونيمية مرتبطة بالمجال في الريف الأوسط ذات دلالات تختلف عن المألوف، أي أنها لا ترتبط بالطبيعة، نذكر منها مثلا، «إمظران إسمغان»، أي مقابر العبيد التي تؤرخ لوجود العبيد المرافقين للقوافل التجارية المتنقلة بين مرسى بادس وفاس، والذين كانوا يُدفنون في مقابر خاصة على طول الطريق، هكذا نجد نموذجا قرب الرواضي في قبيلة إبقوين، وآخر في أيث رحساين بقبيلة أيث عمارث. وقد حملت مداشر وقسمات أسماء العناصر الدخيلة، فنجد مثلا قسمة إغربيين في أيث توزين، والنعت يطلق على كل الأعراب القادمين من الغرب والمستقرين في الريف، ومدشر إفاسيين في أيث ورياغر قرب زاوية سيدي يوسف، وآخر بنفس الاسم عند قدم ادهار أوباران في ثمسمان. اقترنت

115– أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 27.

116– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.2.

117– رشيد الحسن، وشم الذاكرة...، م.س.، ص. 64.

118– أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 48.

119– رضوان بخرو، «إضاءات حول طوبونيمية...، م.س.

120– رشيد الحسن، وشم الذاكرة...، م.س.، ص. 61.

الأسماء الطوبونيمية أيضا بمواقع تحمل طابع القدسية نظرا لارتباطها بالأولياء، منها جبل سيدي بوخيار بأيث ورياغر ،[121]وقسمة أشث عرو عيسى بقبيلة إگزناين ،[122]أو بفضل خاصياتها الاستشفائية، كما هو الحال بالنسبة إلى العديد من العيون، نذكر منها تلك الموجودة في إبقوين مثلا، والتي يطلق عليها اسم ثمزيزذگث.[123]

تحفظ لنا الطوبونيميا أسماء مجالات احتضنت أحداثاً تاريخية ارتبطت بها تسميتها، نذكر مدشر إبولنديين، الذي قد يعني البولونيين قرب كرونة في ثمسمان، وهم من السلافيين الذين اقترنوا بمملكة النكور باعتبارهم عبيد بيض وكان لهم شأن كبير في إحدى مراحل هذه الإمارة، أو مدشرا محتفظا بالتسمية القديمة للمنطق، بلند. هذا بالإضافة إلى موقع مقبرة اليهود الأمازيغ القدامى في مدشر «إغشّامن« في نفس القبيلة، وكذلك موقع البيرو في إگزناين المرتبط بفترة الاستعمار الفرنسي.[124]

ارتبطت التسميات أيضا بالأشكال التضاريسية، إذ نجد بالريف كغيره من المناطق تحديدات طوبونيمية مرتبطة بالمرتفعات والمنحدرات، ما يعطي فكرة حول استيعاب الريفيين لجغرافية مجالهم التي تعرف تنوعاً يستوقفنا بالدراسة.

المبحث الثاني: التضاريس والمناخ

أولا: التشكيلة التضاريسية بالريف الأوسط

جعلت التشكيلة الجغرافية المشهد الطبيعي للريف الأوسط يبدو من الجو مثل ورقة بنية مجعدة [125] ويمكن تعميم هذه الخاصية نظرا لتشابه البنية التضارسية التي يتقاسمها الريف الأوسط مع باقي مناطق القسم الشمالي للبلاد، هذه المنطقة التي تخترقها سلسلة جبال الريف، وتمتد من طنجة غرباً إلى ملوية شرقاً، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى تازة جنوبا.[126]

شكلت سلسلة جبال الريف وحدة متكاملة، عكس سلسلة جبال الأطلس العريضة والعالية بالجنوب، والسلسلتان منفصلتان عن بعضهما البعض عند ممر تازة. ويُقدر طول سلسلة جبال الريف بحوالي أربع مائة كيلومتر، وعرضها بنحو مائة كيلومتر تقريبا. وتعتبر ترگيست الخط الفاصل بين الجهة الغربية والشرقية، أما الجزء المنتمي للريف الأوسط الذي نحن بصدد دراسته فيقع بين قبيلة ترگيست غربا وقبيلتي أيث توزين وثمسمان شرقا، والبحر الأبيض

---

[121]– *B.N.E.A.H., V.I.E.F.B., dossier N° D.1765,* Territorio del Rif, por Don Vademécum, Madrid, 1946. p.1.

[122]–*A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136***,** Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.3.

[123]– أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 48.

[124]–*A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136***,** Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 5.

[125]– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م.س.، ج.1، ص. 47.

[126]– خديجة الخديري، التراث الأثري...، م.س.، ص. 30.

المتوسط شمالا وقسمة أكنول من قبيلة إگزناين جنوبا. ويتضح من خلال معاينة المعطيات الهيدروغرافية ونسبة تساقط الأمطار أن الريف الأوسط ينتمي جغرافياً إلى البحر الأبيض المتوسط، ومناخه مزيج من المناخين المتوسطي والقاري، مع غلبة المتوسطي، وهو ما لا يختلف كثيرا عن الوصف الذي أورده ليوطي في قولته الشهيرة، بلدٌ بارد شمسه حارقة.[127]

تميز الريف ببنية تضاريسية صعبة، غلب الكلس على تكونها الجيولوجي، وكان مجال الريف قديما عبارة عن منخفض بحري عميق تراكمت به الإرسابات في نهاية الزمن الجيولوجي الثالث، وتعرضت لحركات تكتونية باطنية عنيفة، نتج عنها تكَوُّن سلسلة جبال الريف المعقدة ذات الأشكال المتداخلة والبنية الالتوائية التي تزيد من حدة ظاهرة التعرية بها. وقد ساهم ضعف نفاذ الصخور في تشكيل الشبكة المائية، وأدت كمية التساقطات إلى هشاشة المجال الريفي. قد ألقت هذه العناصر بالإضافة إلى قساوة المناخ، بثقلها على كاهل الساكنة، ورسخت طابع الانعزال لديها وحافظت على حفظ وقوة مظاهر خصوصيتها الثقافية المحلية.[128]

يمكن اعتبار جبال الريف من الناحية الجيولوجية امتداداً للتل الجزائري التونسي الذي يعود تكوينه إلى النصف الثاني من الزمن الجيولوجي الثالث، ويمكننا رسم سلسلة الريف على شكل قوس مقعر يبتدئ أحد أطرافه من الشمال الغربي من مدينة طنجة، وينحدر من الجنوب نحو الجنوب والجنوب الشرقي الذي يأخذ في الاتجاه تدريجيا من الغرب إلى الشرق بمحاذاة نهر ورغة، لينتهي عند مرتفعات نهر مسون ونهر كرت. ويمتد طول الساحل الريفي على حوالي ثلاث مائة كيلومتر، ويبلغ العرض الأقصى للسلسلة ثمانين كيلومترا.[129]

ارتأينا التطرق إلى جغرافية القبائل الست المدروسة ضمن سياقها الجغرافي العام للريف بأقسامه الثلاثة. القسم الأول هو الريف الغربي، أو إقليم جبالة الذي يشكل الجزء الشمالي الغربي لسلسلة جبال الريف، وتتشكل حدوده الشمالية الغربية في المناطق المطلة على شبه جزيرة إيبيريا، وحدوده الجنوبية الغربية في المحور المتجه من منطقة تلال لكسوس الأسفل، والحوض الأعلى لهذا النهر، ثم مضيق باب تازة، وأخيرا الحافة الشرقية لنهر الحد، وتتميز تضاريس هذا القسم بانتشار التلال الشيستية التي يزيد ارتفاعها أحيانا عن تسع مائة متر عن سطح البحر في المناطق الجنوبية الشرقية، ويقل هذا الارتفاع كلما اتجهنا نحو الشمال الغربي لحدود مدينة طنجة. ويمكن تقسيم الريف الغربي ذي المناخ الرطب إلى ثلاث مناطق حسب تحليل كيفية استغلال الأرض، إذ توجد غرب المنطقة تلالٌ صالحة لزراعة الحبوب على رأسها الشعير والقمح والذرة والجاروس، ولغرس الأشجار المثمرة كالزيتون والتين، وتنتصب في وسطها الذروة الجبلية التي تحتوي على جبال غسانة، وعلى الأعراف crêtes الكلسية المطلة على مدينة الشاون، ويمتد في شمالها إلى الشاطئ المتوسطي، حيث تسود التلال الشستية

---

[127]– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م.س.، ج.1، صص. 36-39.

[128]– خديجة الخديري، التراث الأثري...، م.س.، ص. 43.

[129]– لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم وحرب الريف...، م.س.، ص. 73.

المتناظرة للتلال الغربية للذروة الجبلية. ويدل الشكل الطوبوغرافي لهذه المنطقة الأخيرة على أن أثر الرطوبة أقل مما عليه الحال في المنطقتين السابقتين.[130]

يتركز المجال الريفي ضمن هذه السلسلة بالقسمين الشمالي والغربي أساساً، وهو ما يُصطلح على تسميته بوحدات المجال الخارجي المكون بشكل رئيسي من صخور مارنية وشيستية، دون أن يمنع هذا من وجود عناصر الزحف التي تنتمي إلى المجال الداخلي الذي يضم الطيات الزاحفة، منها طية أكنول.[131]

يمتد الريف الغربي نحو الجنوب، حيث يربط الذروة الجبلية الوسطى بمقدمة جبال الريف، ويمكن حصر الجزء الجنوبي في هذا القسم في المنطقة الممتدة بين الروافد اليسرى لنهر لوكوس إلى ما بعد أحواز ورغة الوسطى شرقا، وتتخلل هذا الإقليم سهول ضيقة عبارة عن خلجان قديمة، فيما يشكل جبل أودكا أعلى قمة به. ويمكن تقسيم الريف الجنوبي إلى جزأين، يمتد الأول غرب مرتفع أودكا، من اللوكوس إلى وادي أسرى، وقد سهلت الأودية اتصال هذا الجزء بمنطقة التلال والسهول الضيقة، ويمتد الجزء الثاني شرق مرتفعات أودكا، من الريف الجنوبي إلى ما وراء نهر ورغة، في اتجاه مدينة تازة، ويقل الغطاء النباتي في هذه المنطقة.[132]

تشكل البنية الجبلية نسبة ثلثي تضاريس مجال الريف، ما جعل بنيته الجغرافية صعبة الاختراق، ولا تتجاوز فيها المساحة الزراعية نسبة تتراوح ما بين 13 إلى 15%.[133]

توجد أعلى قمم جبال الريف بالقسم الغربي، ويتناقص هذا الارتفاع كلما اتجهنا نحو الشرق، باستثناء بعض المرتفعات ضمن الريف الأوسط التي يصل علوها إلى ألفي متر عن سطح البحر. وتمتد الأحواض والسهول العليا بالريف الشرقي مع انحدار تدريجي جهة البحر، تفصل بينها فجاج ضيقة وصعبة الاختراق. أما من الناحية المناخية فتعتبر المنطقة الشرقية شبه جافة، ولا تزيد فيها نسبة التساقطات المطرية عن ثلاث مائة ميليمتر سنويا، لذا تنعدم فيها الغابات، وتضعف فيها الحياة الزراعية التي لا تقوم إلا على مياه الأنهار الموسمية. ونظرا للظروف الطبيعية وعدم انتشار المراكز الحضارية بالريف الشرقي، فقد اعتمد السكان على حياة الترحال، وهو نفس الأمر الذي فسر انتفاضاتهم خلال العصور التاريخية.[134]

يشكل الريف سلسلة جبلية متوسطية، وتمتد على الساحل في أقصى شمال المغرب من طنجة غربا إلى ملوية شرقا. وتشكل هذه السلسلة وحدة تضاريسية ماثلة على شكل هلال بمحاذاة الساحل المتوسطي، وتتميز بأشكالها الطوبوغرافية البسيطة، كما تنتمي إلى

130–*B.N.E.A.H., A.F., A.M.P.S., serie 123H11-08*, N° 118-63, El Rif Marruecos El Rio Guis, Talleres del Servicio Geográfico del Ejército, Mapa Provincial en 150000, 1958. P.2

131– عبد المالك ابن عبيد، »الريف الطبيعي«، **معلمة المغرب**، المجلد الثالث عشر، 2001، ص. 4530.

132– *B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°174, Marruecos*, El Rif Bu Zineb, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, Mapa Provisional en E. 150000, 1940. p.2.

133– ميمون أزيزا - محمد أحميان، »القحوط والمجاعات في الريف المعاصر«، **الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة**، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، 2019، ص..246

134– لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم وحرب الريف...، م.س.، ص. 78.

المجموعات الألبية المتميزة بتضاريسها شديدة التجزؤ، ويبلغ طولها ما يقارب ثلاث مائة وستين كيلومترا، وعرضها في جزئها الأوسط نحو ثمانين كيلومترا.[135]

لا تعتبر سلسلة جبال الريف عموما شديدة الارتفاع، حيث يشكل جبل تيدغين أعلى قمة بها بعلو يصل إلى ألفين وأربع مائة وستة وخمسين مترا، أما الإحساس بالارتفاع الذي يشعر به المرء عند توغله داخل الريف، فقد يعود إلى شدة انحدار السفوح، وإلى عمق وضيق وكثرة تقطع الأودية. وهذه الظواهر الطوبوغرافية ذاتها هي التي عاقت شق طرق المواصلات، وربط مناطق الريف بباقي أجزاء المغرب، أو ربط هذه الأخيرة بموانئ المتوسط القليلة الانتشار على الساحل الريفي، نظرا لارتفاع الأجراف الصخرية في بعض المناطق وانخفاضها في مناطق أخرى، أو لقلة عمق المياه في مناطق ثالثة، أو لوجود حواجز رملية ومستنقعات تعوق حركة السفن. فهذه المظاهر الطبيعية الساحلية هي التي تفسر الدور الخطير الذي لعبته بعض الموانئ منها بادس والحسيمة الواقعتين في منطقة قبيلتي إبقوين وأيث ورياغر.[136]

يعرف المجال المدروس تبايناً على المستوى التضاريسي، رغم سيادة نفس البنية الجغرافية عموما داخل الريف بأسره، حيث توجد أعلى مرتفعات الريف الأوسط في قبيلة إگزناين، متجاوزة الألف وست مائة متر لتصل في أزرو أقشار إلى ألفين وأحد عشر مترا، وهي أعلى قمة في مجموع المنطقة المدروسة،[137] تليها قمة جبل حمام في الجهة الجنوبية الشرقية لقبيلة أيث ورياغر التي تصل إلى ألف وتسع مائة وواحد وخمسين مترا، قبل أن تنخفض هذه المرتفعات تدريجيا في اتجاه الشمال الشرقي عبر مرتفع شقران وجبل الرابظة، بعلو يصل إلى ثمان مائة وخمسة وأربعين مترا، ثم هضبة ثافراست المنبسطة التي لا يتجاوز علوها مائة وأربعين مترا، والتي تشكل سهل أيث عري، وهي المنطقة التي تمتد إلى حدود خليج الحسيمة. نجد غرب هذه الكتلة مرتفعات أيث حذيفة بقمم تصل إلى ألف ومائتين وواحد وخمسين مترا في ادهار ن ثاشثيوين، وألف ومائتين وتسعة وثلاثين مترا في ثارّيست. ويتواصل هذا الانحدار في اتجاه الشمال حتى مدشر ثازاغين بمحاذاة نهر غيس ،[138]تعتبر التضاريس الجبلية سمة بارزة في جميع قبائل الريف الأوسط، إذ تصل هذه المرتفعات أوجها في قبيلة أيث عمارث في جبل ثيرماثين ن الصندوق بالتحديد، بعلو ألف وسبع مائة وثمانية وثلاثين مترا، وفي قبيلة أيث توزين، في قمة ثيزي قشقاش بعلو يبلغ ألفا وست مائة وثمانية وعشرين مترا ،[139]وفي إبقوين في قمة ثارا ن ثباغرا بعلو سبع مائة وسبعة وأربعين مترا .[140]وتتناقص حدة هذه المرتفعات في أيث ورياغر كلما اتجهنا شمالا نحو خليج الحسيمة، وفي إگزناين جهة الشرق حيث قبيلة

135– عبد المالك بن عبيد ، »الريف الطبيعي...، م.س.، ص. 4529.

136– لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم وحرب الريف...، م.س.، ص. 74.

137– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م.س.، ج.1، صص. 40-37.

138– *B.N.E.A.H., A.F., A.M.P.S., serie 123H11-08*, N° 118-63, El Rif Marruecos El Rio Guis, Talleres del Servicio Geográfico del Ejército, Mapa Provincial en 150000, 1958. P.1.

139– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م.س.، ج.1، ص. 37.

140– أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 49.

إبظارسن [141] وفي أيث توزين جهة شرق القبيلة ذاتها حيث قسمة إغربيين، وفي إبقوين في اتجاه وسط القبيلة وبسهل رالا مريقة بالتحديد.

تمتد شمال المجال المدروس مرتفعات تنحدر كلما اقتربنا من الساحل بشكل مفاجئ لتشكل أجرافا ومنحدرات صعبة الاختراق من جهة البحر[142]، وتقتصر المنافذ على أفواه الأودية التي تستقي مياهها من المرتفعات الجنوبية وتفرغها في الساحل المتوسطي بأراضي قبائل ثمسمان وأيث ورياغر وإبقوين، ونعني بها أودية النكور وغيس وأغزار أمقران وبادس وبوسكور، بالإضافة إلى الأجوان والمراسي في سيدي إدريس في ثمسمان، وخليج الحسيمة في أيث ورياغر، وبوسكور وبومكسوض وبادس في إبقوين.

ساهمت البنية الجبلية في الريف في إغناء غطائه النباتي، حيث تنمو غابات هامة في معظم المرتفعات، ونخص بالذكر غابات الأرز في أيث سدات وكتامة بجبل تيدغين بالتحديد، والغابات الأخرى في مرتفعات إگزناين وأيث عمارث وإبقوين، بالإضافة إلى غابات صغيرة نسبيا في أيث ورياغر وأيث توزين وثمسمان. وقد اضطر سكان الريف التأقلم مع وعورة تضاريس المنطقة والظروف الجغرافية القاسية عموما. كما أرغمتهم العزلة وغياب الطرق ووسائل المواصلات على الكد والاستعانة بالدواب.[143]

تشكل قبائل الريف بنية تضاريسية متكاملة، تتشابه وتتقاسم سمات متعددة، يصعب التفريق بينها أحيانا، رغم ذلك يمكننا رصد اختلافات بين تضاريس القبائل الداخلية الجبلية، ونعني بها إگزناين وأيث توزين وأيث عمارث، والساحلية، أي أيث ورياغر وثمسمان وإبقوين.

تتمتع قبيلة إگزناين بموقع جغرافي استثنائي داخل الريف الأوسط وخارجه، حيث أنها تغلق وتتحكم في الشمال الغربي لمدينة تازة، وتشكل ممراً لقلب كل من الريف الأوسط والشرقي، الأمر الذي ساعد مقاومي إگزناين على الوقوف في وجه الحركات المخزنية والاستعمار الفرنسي، وكانت جغرافيتها محددا أساسيا لمسارها السياسي وساهم في تشكيل بنيتها الثقافية ،[144]وتعد قبيلة إگزناين بصفة عامة الجزء البيني لسلسلة جبال الريف بين الشمال والجنوب، الأمر الذي انعكس على حال حياتها الاقتصادية، غير أن الجزء الشمالي من القبيلة هو الأكثر غنى، سواء من حيث جودة التربة أو نسبة التساقطات.[145]

يعتبر الريف بصفة عامة منطقة جبلية، صخرية شمالا وشستية جنوبا، يتراوح طول قممها بين ست مائة وخمسة وستين مترا وألفين وعشرة أمتار، تأخذ اتجاهين أساسيين نحو الشمال

141– *B.N.E.A.H., V.I.E.F.B., dossier N° D.1765*, Territorio del Rif, por Don Vademécum, Madrid, 1946. p.17.

142– *B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°174, Marruecos,* El Rif Bu Zineb, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, Mapa Provisional en E. 150000, 1940. p.1.

143 – أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. 27.

144– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136*, Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 8.

145– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136*, Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 1.

الشرقي والجنوب الغربي، تحدها قمم السلسلة الشرقية المتمثلة في كل من جبل بوزينب وأدرار أزناگ، والتي تشكل الحدود الفاصلة بين قبيلتي إگزناين وأيث ورياغر.[146]

تبلغ مرتفعات إگزناين شرقا علو ألف وثمانمائة واثنين وثمانين مترا، ويبلغ جبل برارث علو ألف وسبع مائة وثلاثة وثلاثين مترا، وتجتمع هذه المرتفعات شمالا نحو أعلى قمة جبل أزرو أقشار ،[147]ونجد جنوبا نحو مارار جبل فرزاز بحوالي ألف ومائتين وستة وستين مترا، ثم جبل بومرحال بعلو ألف وخمس مائة وأربعة وثلاثين مترا، وجبل بوزينب بارتفاع يبلغ ألفاً وسبع مائة وثلاثة أمتار. ثم تبتدئ سلسلة ثانية أقل ارتفاعا نسبيا من جبل عقا نحو ثيزي ن أوذرن، نجد ضمنها جبل تيزروثين بعلو ألف وثلاث مائة وأربعة وستين مترا، وقمم أولاد حدو وتزي وانالتي تبلغ ألفاً وأربع مائة وثلاثة وعشرين مترا. ويقل ارتفاع قمم قسمة أشث محند في اتجاه الشرق والشمال الشرقي، والتي نذكر من ضمنها قمة جبل أوشانن التي تبلغ نحو ألف وخمس مائة وسبعة أمتار. وتمثل قسمة إشاويين منطقة الوادي، وأعلى قمة بقسمة لوطا لا تتعدى تسع مائة متر.[148]

تقع قبيلة أيث توزين بين نهري كرت ونكور وتخترق أراضيها عدة مجاري من أهمها أغزار أمقران وواد صوف، كما تتوفر على مصادر مائية متعددة منها عين أزلاف وعين أغبار وعين السلطان. وتعتبر القبيلة منطقة جبلية يتراوح علو قممها بين ألف وثلاث مائة متر وست مائة متر. وتمتد المرتفعات الأساسية في قبيلة أيث توزين على شكل سلسلتين جبليتين متجهتين نحو الشمال يفصل بينهما مجرى أغزار أمقران، الأولى شرقية تتواصل حتى مرتفعات أيث أوريشك وأيث سعيذ وتنتهي عند رأس أفراو بالساحل المتوسطي، والثانية غربية تمتد حتى مرتفعات ثمسمان، حيث تتجسد بالساحل في رأس كيلاطيس. وتبتدئ السلسلتان في الجنوب عند أزرو أونفيف بمرتفعات إفارني، لتتوالى القمم كلما اتجهنا نحو الشمال في جبل بومسعوذ، ثم جبل قرن. وفي اتجاه الغرب حتى الضفة اليمنى لنهر النكور تمتد السلسلة الأخرى التي تجسدها مرتفعات قشقاش وتوگونت وبوجداين. وانطلاقا من سفوح قشقاش يتشكل جبل بوعرما الذي يمتد إلى مرتفع ثيغزا ليشكل حدود هضبة ثسافت عند المنخفض الفاصل بين جبال أيث توزين وإگزناين.[149]

146– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136*, Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 1-2.

147– *B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°187, Marruecos* El Rif Azru Akchar, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, Mapa Provisional, en E. 150000, 1940, p.1.

148– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136*, Fiche N° 1522/2.0, Confidentiel, Le Colonel Georges Chef du Territoire de Taza, Fiche de tribu Gzenaia, Cercle de Tainast, 17 Octobre 1952, p. 3.

149– *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8*, por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, pp. 12-18.

تنتمي قبيلة أيث عمارث إلى القبائل الداخلية من الريف الأوسط، وهي من القبائل الجبلية وأعلى مرتفع بها هو جبل أيث عمارث، الذي يقسم القبيلة إلى جزأين من الشمال إلى الجنوب.[150]

تغلب الطبيعة الجبلية على تضاريس القبائل الداخلية من الريف الأوسط، وتعرف قممها ارتفاعاً أكبر مقارنة مع القبائل الساحلية التي تتمتع بخصوصية تضاريسية تتسم بالانخفاض نسبيا، وتعرف كذلك تباينا على مستوى الفرشة المائية والمناخ.

تتميز تضاريس القبائل الساحلية ضمن المجال المدروس بالتنوع، وتوفرها على بعض السهول الشاسعة نسبيا، أهمها سهل نكور الذي تتقاسمه قبيلتا أيث وریاغر وثمسمان. إذ تتوفر قبيلة ثمسمان على موارد مائية هامة، ذكر موليراس ثلاثة أودية منها هي، أيث ثعبان الذي ربما يقصد به أغزار أوعاروجن، وسيدي إدريس، أي أغزار أمقران، وأيث مرغنين، أي أغزار ن سيدي صارح .[151]تخترق قبيلة ثمسمان العديد من المجاري نذكر منها أمدجاح، وإفاظيسن، وبوعوين، وثيوارضيوين، ومجْيَن، وصْناب، وأغبري، ورخميس، وإسْران، وأظهشور، وحزييم، ورمعذن، وغيرها. مرتفعات ثمسمان ليست بنفس علو مثيلاتها في القبائل الداخلية في الريف الأوسط، نذكر أهمها المتمثلة في ادهار أوواجْيو بعلو يبلغ تسع مائة متر، وادهار ن رعونصار أوبقوي، وادهار ن ارْقامث بقسمة ثروگوت الذي احتضن أول مؤتمر للمقاومة، وادهار أوباران الذي شهد أولى معارك أنوال[152]. كما تتوفر قبيلة ثمسمان على أراض منبسطة ذات تربة غنية قرب الساحل، لعل أهمها سهل ثروگوت أو النكور، وإگار أومزير، وأفراس عبدون، وإگار رحمون، والطايث، وإگار أمقران، وثيغرار، وإگار ن ثازاغين.[153]

تقع قبيلة إبقوين على الساحل المتوسطي غرب خليج الحسيمة، وتطبع تضاريسها الوعورة وشدة الانحدار، خصوصا قرب الشواطئ. وإذا كانت كل من قسمتي إزمورن وثگيذيث تتميزان بطبيعة جبلية، فإن قسمة أزغار في الوسط بها أراض منبسطة شاسعة نسبيا، تتموقع بين الشريط الساحلي ومرتفعات أيث وریاغر وأيث يطفت.[154]

تعد قبيلة أيث وریاغر أكثر انبساطا وأوفر نباتا من قبيلة إبقوين، وأهم قممها محاذية لكل من قبائل أيث عمارث وإگزناين وترگيست، وتتمثل أهمها في جبل بوزينب بالنسبة لأيث عمارث وإگزناين، باعتباره من بين أعلى مرتفعات الريف الأوسط.[155]وتتمتع بسهول شاسعة متموجة قليلا، بالإضافة إلى العديد من البساتين والحقول على ضفاف نهري النكور وغيس الذين يصبان في خليج الحسيمة.[156]

150– Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu Exploration Du Rif*..., op. cit. p.125.

151– أوجست موليراس، المغرب المجهول: اكتشاف الريف...، م.س.، ص. 111.

152– الوكالة الوطنية للمحافظة العقارية والمسح العقاري والخرائطية، خريطة بودينار، 1: 25000.

153 –الوكالة الوطنية للمحافظة العقارية والمسح العقاري والخرائطية، خريطة أولاد أمغار، 1: 25000.

154– أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 23.

155– *B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°174, Marruecos,* El Rif Bu Zineb, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, Mapa Provisional en E. 150000, 1940. p. 1.

156– أوجست موليراس، المغرب المجهول: اكتشاف الريف...، م.س.، ص. 106.

ثانيا: المناخ والإكراهات الطبيعية

يعد البحث في تاريخ المناخ من أهم خطوات إنجاز البحث المونوغرافي ،[157]وله أهمية بالغة في تفسير الكثير من المعطيات الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ويعد المناخ في حد ذاته موضوعاً مستقلاً يستوجب إفراد دراسات خاصة به، وبإمكان الباحث استثمار نتائج هذه الأبحاث لإضاءة مجموعة من الجوانب المعتمة في تاريخ الإنسانية.[158]

يتعدى التأريخ للمناخ حدود التاريخ المجهري والمونوغرافي، فهو قابل لاستيعاب مجال أوسع، حيث يمكننا الحديث عن مناخ الريف المغربي ضمن المناخ المتوسطي، مشكلا من داخله وحدة فزيائية مناخية تفصل بينها المسافات الطويلة.[159]

تتساوى الأشهر الممطرة والأشهر المشمسة من السنة داخل مجال المتوسط، وتجف وديانه صيفا وتعيد جريانها شتاء، كما يتسم مناخه بالقساوة من حيث الحرارة والبرودة[160]، وينتج عن تشارك المجال وتشابه المناخ والتضاريس مطابقة في التوجه الاقتصادي ونوعية الإنتاج الزراعي، وتتعداه في تشكيل بنية بشرية تتقاسم نفس الطبائع المتسمة بنوع من الشراسة.[161]

ساد المناخ المتوسطي داخل قبائل الريف الأوسط خاصة الساحلية منها، مع تسجيل بعض الاختلافات البسيطة على مستوى كمية التساقطات المطرية والتساقطات الثلجية التي تتحكم فيها البنية التضاريسية ونسبة ارتفاعها عن مستوى البحر، والتي يتوقف عليها مستوى الإنتاج. وظل الريف بأسره مترقبا الأخطار المترتبة عن التقلبات المناخية وقساوتها، خاصة ما يتعلق بتوالي سنوات الجفاف، علما بأن المناخ الريفي يمزج بين المناخين الأطلسي والصحراوي.[162]

تقاسم الريف المناخ المضطرب مع باقي مناطق المغرب، الذي يعد في كليته متطرف المناخ ويستحيل فيه الاعتدال، وهي الصعوبة التي أصابت فلاحته وأدت إلى تقهقره الاقتصادي، نتيجة أعوام طويلة من القحط والجفاف.[163]

وفي حالات الاستقرار النادرة للمناخ بالريف سجلت نفس القبيلة الإحصائيات التالية: شهر يناير ثلاثة أيام مطيرة بنسبة أربعة وثلاثين مليمترا، وأربعة أيام خلال فبراير بنسبة سبعة وثلاثين مليمترا، وتسعة أيام خلال شهر مارس بنسبة ستة وستين مليمترا، واثني عشر يوما خلال شهر أبريل بنسبة مائة وخمسة وستين مليمترا، وثلاثة أيام خلال شهر ماي بنسبة تسعة

157– Emmanuel Le Roy Ladurie(1982) , *Montaillou: Village Occitan de 1294-1324,* Gallimard, Paris,. p.5.
- Mohammed Mouhib, *Midelt Esquisses Historiques et Culturelles*, Info-Print, Fes, 2015, p.30.

158– Emmanuel Le Roy Ladurie (1967) , *Histoire du climat depuis l'an mil*, Flammarion, Paris, , p.17.

159– فرناند بروديل (1993)، **المتوسط والعالم المتوسطي**، ترجمة: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، ص..63

160– نجد بعض المصادر التي تشير إلى أن المناخ بالمنطقة كان معتدلا، مما سمح بإنتاج محاصيل وفيرة وأشجار مثمرة، تتخللها جبال كثيرة كبيرة وعالية تحتفظ بالبرودة. انظر:
- مارمول كربخال (1984)، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي أحمد توفيق وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، ص..25

161– فرناند بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، م.س.، ص..63

162– Fernand Braudel, *Memory and the Mediterranean…,* op. cit., p.15.

163– مجهول (1946)، **قحط في المغرب معركة الحنطة في المنطقة**، مطبعة المخزن، تطوان، ، صص..8-7

مليمترات، ويوم واحد خلال كل من شهر يونيو ويوليوز وغشت بنسب ثلاثة مليمترات، ومليمترين، وثلاثة مليمترات على التوالي، ولم يعرف شهر سبتمبر أي يوم ماطر، بينما عرف شهر أكتوبر خمسة أيام مطيرة بنسبة اثني عشر مليمترا، ولم يعرف شهر نونبر أي يوم مطير، مع تسجيل أربعة أيام ماطرة خلال شهر دجنبر بنسبة خمسة وعشرين مليمترا، ما مجموعه ثلاثة وأربعون يوما مطيرة، بنسبة ثلاث مائة وستة وخمسين مليمترا، وذلك من خلال إحصائيات إدارة الحماية الفرنسية 1949-1948م.[164]

ينطبق وضع مناخ قبيلة إگزناين على القبائل الريفية خاصة الجبيلة منها، حيث تشهد تساقطات مطرية محدودة خلال فصلي الخريف والربيع، ويشتد البرد فيها خلال فصل الشتاء مع تسجيل تساقطات ثلجية فوق المرتفعات، والحرارة المفرطة خلال فصل الصيف.[165]

نستحضر حالة مناخ قبيلة أيث عمارث المتسم بنفس قساوة مناخ قبيلة إگزناين المحاذية لها، إذ تشهد بدورها هبوب رياح عاصفية وتساقط الأمطار والثلوج التي تؤدي بها في كثير من الأحيان إلى العزلة، غير أن هذا المناخ يوفر ظروفا زراعية ملائمة نسبيا للقبيلة.[166]

يمتد المناخ القاري الجبلي، الذي يختزل أشهر السنة في فصلين فقط، والمتميز بشدة البرد شتاء والحرارة المفرطة صيفا، مع انخفاض وارتفاع فجائي لدرجة الحرارة بين الليل والنهار ليشمل قبيلة أيث توزين.[167]

تكسو الثلوج سنويا قمم إگزناين وأيث عمارث خلال فصل الشتاء، وقد يصل علوها أحيانا ما يقارب المتر، ويرافق تساقط الثلوج برد قارس. وإذا استثنينا منطقة جبل حمام، فإن الطقس يميل إلى الاعتدال في قبيلة أيث ورياغر. لا ينتمي وسط قبيلة إگزناين إلى حوض التجمع المائي الأطلسي المتوسطي، وتفصل مرتفعاتها الممتدة من «مارار« إلى «أزرو أقشار«، بين مجريي نهري ورغة وملوية، وتعرف المنطقة هبوب رياح غربية وشرقية، مع غياب الزوابع الرملية. كما تُسجل بالمنطقة تساقطات بين شهري مارس ودجنبر، وتتغير نسبة التساقطات من سنة لأخرى.[168]

تتميز القبائل الساحلية من المجال المدروس بمناخ متوسطي، كما هو الأمر في قبيلة إبقوين مثلا، حيث يميل الطقس إلى الاعتدال كلما اقتربنا من الساحل، فيما يسود المناخ القاري كلما توغلنا في الداخل، مع تسجيل تباين كبير في درجة حرارة الليل والنهار. تتأثر المنطقة بالتقلبات العنيفة في مضيق جبل طارق، علما بأن الرياح الغالبة هي الشرقية خلال فصل الشتاء التي

164– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.1.

165– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 5.

166– Blanco de Izaga (Emilio), *La vivienda rifeña ensayo de características e interpretación con ilustraciones del autor 1930*, Consejería de cultura, E.2, Melilla, 2010, p.45.

167– *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, pp. 34.

168– دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م.س.، ج.1، ص. 37.

تتسبب في هيجان البحر، والغربية خلال فصل الصيف التي تزيد من درجة الحرارة، وإن كان معدل درجة الحرارة السنوي لا يتجاوز 18 درجة. وينحصر موسم الأمطار بهذه القبيلة ما بين شهري أكتوبر وأبريل، حيث يصل معدل الأيام المطيرة في السنة إلى نحو ستين يوما، مما يوفر نسبة لا بأس بها من الأمطار تسمح بتحقيق محاصيل زراعية مقبولة، باستثناء المواسم الجافة. وتجدر الإشارة أيضا إلى انتشار الضباب في المنطقة، خصوصا في الصباح وبعد الظهيرة، ما بين شهري مايو وشتنبر ،[169]وتحتفظ الذاكرة المحلية بالكثير من الحكايات عن هجرة السكان السابقين من المنطقة بسبب الضباب الذي تسبب في المجاعة والأوبئة.

إن المناخ السائد في قبيلة إبقوين لا يختلف عن مثيله في باقي قبائل الريف، مع تسجيل قساوة أكبر في المرتفعات والمناطق غير المحمية، هكذا يصبح الطقس ألطف في حوض نهر بادس مثلا، بفضل الحماية التي توفرها المرتفعات من الجهتين الشرقية والغربية من الرياح القوية .[170]وتعرف المناطق المحمية بواسطة المرتفعات من الرياح الشرقية والغربية السائدة في مجموع مناطق شمال المغرب طقسا ألطف.

تأثرت التضاريس بالريف بفعل الظروف المناخية، وشهدت تغيرات بفعل التعرية وتشكل الأودية العميقة، فلم يجد جريان المياه صعوبة في حفر أودية عميقة عبر الكتل الرسوبية، وصخور الشست تاركة الأوحال التي تعوق السير.[171]

تميز مناخ القبائل الساحلية بالاعتدال، مع تقلبات مفاجئة، وتتسم المناطق الداخلية بالمناخ الجاف، وتعتبر جبال الريف عموما أغزر جبال المغرب مطرا، مع اختلافات في نسبة الأمطار بين الجبال الريفية ذاتها، إذ المرتفعات الغربية أكثر مطرا مقارنة جبال الجهة الشرقية.[172]

تعرض الريف بحكم موقعه، للتيارات المناخية المتوسطية والأطلسية من قبيل غزارة الأمطار والرطوبة، حيث تتدفق المياه في المسيلات بالسفوح طيلة السنة، وتجري المياه بقوة في الأودية مما يسمح بإقامة الطواحين المائية، وتنتعش الحياة النباتية ويتسع الغطاء الغابوي. ويبلغ متوسط التساقطات السنوية ثمان مائة وخمسين مليمترا، في كل المنطقة الغربية والوسطى الممتدة نحو إقليم تازة التي تستفيد دائما في فصل الشتاء من تيارات الضغط الجوي المنخفض المارة بجنوب شبه الجزيرة الإيبيرية في هذه الفترة من كل سنة. وتتعرض هذه الأجزاء دائما في فصل الشتاء إلى الضغوط المنخفضة التي تمر على جنوب شبه جزيرة ايبريا ومنطقة جبل طارق في مثل هذا الفصل من كل سنة يتعرض الريف الغربي للتقلبات المناخية

169– أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 62.

170– أنخيلو گيريلي (2020)، **قبيلة أيث يطفت**، ترجمة: نادية بودرة، دار الأمان، الطبعة الأولى، الرباط، ص..27.

171– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136***,** Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.12.

172– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136***,** Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.11.

والعواصف الممطرة التي تعرفها أوروبا الغربية، وكلما اقتربنا نحو المناطق الشرقية تقل مؤثرات المحيط، ويصبح مناخ الريف الشرقي شبه جاف.[173]

أثر المناخ على البنية الاقتصادية في المنطقة، خاصة بالمناطق الجبلية التي تشهد صعوبة قيام النشاط الفلاحي، ما أدى إلى التوجه نحو الصناعات المحلية ومزاولة أنشطة اقتصادية أخرى مثل الصيد والقرصنة والحرف التقليدية، ولجأ السكان إلى التجارة خاصة وأن المنطقة ذات موقع استراتيجي مهم اقتصاديا.[174]

عاش الريف مجموعة من الكوارث الطبيعية، منذ نشأته الجيولوجية الأولى، خاصة وأنه جمع بين الصفائح القارية والبحرية، ما جعله عرضة لتكون مجموعة من بؤر الزلازل وبعض البراكين الخامدة، غير أن أهم إكراه عانى منه الريفيون تمثل في الجفاف.

عرفت التساقطات المطرية بالريف اختلالا واضحاً وعدم الانتظام، ونتج عن ذلك معيقات طبيعية كثيرة، تمثلت بالأساس في توالي سنوات الجفاف، واحتفظت الذاكرة الجماعية بأشدها وأكثرها تأثيرا على البنية الاقتصادية، وأهمها كان سنة 1865م، حيث انعكست وضعية المناخ على المحاصيل الزراعية وأدى ذلك إلى ارتفاع مهول في الأسعار، واستمر الجفاف في سيطرته على مجال الريف بحدة أكبر سنة 1878م، وظل الوضع على حاله إلى حدود سنة 1880م.[175]

ساء حال المناخ بشكل متكرر خلال سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين، وبلغ ذروته سنة 1931م، حيث اشتد الجفاف، الذي سبقته سنوات متتالية من قلة الأمطار ،[176]غير أن أعظم وقع لتقلبات المناخ كان سنة 1940م، حيث بدأت الأسعار ترتفع والمحاصيل تقل، الوضع الذي جعل ساكنة الريف في أزمة اقتصادية حقيقة عام 1941م.[177]

تحدد التقارير الفرنسية في إشارات مختلفة، الجفاف الذي عرفه الريف خلال النصف الأول من العقد الرابع من القرن العشرين، ما بين سنتي 1944-1945م، والتي تتطابق مع معطيات الذاكرة الجماعية بالريف التي تتحدث عن «عام 45«، وتدفع هذه التناقضات المناخية السكان إلى بناء أنماط عيشهم وأنظمتهم الثقافية بغية التكيف مع هذه العناصر الطبيعية.[178]

تميز الريف عامة بمناخ متذبذب غير مستقر، خاصة القبائل الجبلية الداخلية من الريف، وأهمها قبيلة إگزناين التي تسود فيها الظروف المناخية الصعبة، من قبيل الرياح العنيفة، والجو القاسي والتساقطات الثلجية خلال الشتاء، والحرارة المفرطة خلال فصل الصيف، كما هو الحال في قسمة أشث محند مثلا. أما بالنسبة إلى التساقطات المطرية في هذه القبيلة فقد طبعها

---

[173] – لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم الخطابي وحرب الريف...، م.س.، ص. 75.

[174] – الخديري (خديجة)، التراث الأثري...، م.س.، ص. 46.

[175] – أزيزا (ميمون)-أحميان (محمد)، »القحوط والمجاعات...، م.س.، ص. 254.

[176]– María De Madariaga Rosa,«L'image et le retour du Maure dans la mémoire collective du peuple espagnol et la guerre civile espagnole de 1936», *l'Homme et la société*, N° 90, Paris, p. 73.

[177] – أزيزا (ميمون)-أحميان (محمد)، »القحوط والمجاعات...، م.س.، ص. 257.

[178]– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.12.

التذبذب وعدم الانتظام، إذ بلغت مائتين وستة وتسعين مليمترا سنة 1941م، ومائة وثمانية وثمانين مليمترا سنة 1945م، وارتفعت إلى ثلاث مائة وتسعة وخمسين مليمترا سنة 1946م، فيما سجلت حصيلة مائة وثلاثة عشر مليمترا خلال الأشهر الثلاثة الأولى فقط من سنة 1947م، وذلك حسب إحصائيات إدارة الحماية الفرنسية ما بين 1941-1947م.[179]

تعتبر سنوات الجفاف أكبر إكراه مناخي عرفه الريف الأوسط، وكان المحدد الأساسي لبنية الاقتصاد ونمط الإنتاج، مع تحديد نوع العمارة وكل الأفعال الثقافية الإنسانية، مع الكشف عن البنية الذهنية السائدة. ما ساهم في خلق بنية كثيفة من أساطير ورموز وحكايات وطقوس وممارسات مرتبطة بالخصوبة داخل هذا المجال، والتي تدور أغلب مواضيعها حول التضاريس والمناخ. وأمام ترقب الريفيين لخطر القحولة والجفاف وعجزهم عن تفسير الظاهرة، فقد اتجهت الذهنية الريفية نحو الغيبيات، وممارسة الطقوس الضاربة في عمق الميثولوجيا الأمازيغية.[180]

نخلص من خلال المبحثين السابقين إلى أن حدود مجال القبائل الست المدروسة من الريف الأوسط، متحركة وغير قارة، خضعت للامتداد والتقلص وفق ما أملته الظروف التاريخية، ووفق ما يمثله حدود المجال داخل الذاكرة الجماعية، بالإضافة إلى استخلاص أبعاد الجغرافية الثقافية من خلال الطوبونيميا، ومصادر الذاكرة وأشكال حضورها داخل المخيال الجماعي الريفي، بالإضافة إلى صعوبة البنية التضاريسية التي تميز الريف، إلى جانب الإكراهات المناخية التي تعد محددا أساسيا لنمط عيش السكان واستقرارهم، وأهم التحديات المؤثرة في تشكيل البنية الديمغرافية بالريف الأوسط، وسببا رئيسيا في بروز ظواهر اجتماعية أهمها الهجرة الداخلية والخارجية.

179– *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136*, Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.11.

180– Ricardo Donoso - Cortés (1913), *Estudio geográfico político-militar sobre las zonas españolas del Norte y sur de Marruecos,* Librería Gutenberg De José Ruiz, Madrid, p.113.

الفصل الثاني

تاريخ الإنسان داخل مجال الريف الأوسط

تستوجب دراسة البنية الديمغرافية وضع لمحة تاريخية حول الحضارات التي تعاقبت على مجال الريف والاستقرار البشري الأول بالمنطقة المدروسة، لفهم تنوع التشكيلة البشرية التي يتمتع بها الريف الأوسط بالاعتماد على الدراسات الأركيولوجية والكتابات التاريخية، بالإضافة إلى الكشف عن المنعطفات والظروف التاريخية التي ساهمت في تشكيلها، والعناصر الإثنية التي كونت بنية ثقافية ريفية متماسكة داخل مجال الريف، بالإضافة إلى تأثير الدول التي حكمت المغرب على بنية الساكنة الريفية.

كما يساهم رصد تحركات السكان داخل بلاد الريف الأوسط، وتباين نسبة استقرارهم من قبيلة لأخرى، في الكشف عن مجموعة من الاكراهات المجالية والاجتماعية والسياسية التي مثلت جانب مهم من تاريخ المنطقة، والذي وشم الذاكرة الجماعية الريفية.

المبحث الأول: الاستقرار البشري وتوزيع السكان بالريف الأوسط

أولا: الاستقرار البشري والخصائص الإثنية بالريف الأوسط

تبرز هنا أهمية تقديم لمحة عامة حول الاستقرار البشري الأول بالريف الأوسط، لما له من دور في إبراز قِدم تعمير المنطقة وتنوع العناصر الإثنية التي مرت منها، رغم أن المصادر التاريخية لم تقدم لنا تغطية وافية لهذا الجانب التاريخي خاصة خلال الفترة التي سبقت المرحلة الإسلامية، ما جعلنا ننفتح على مصادر أخرى.

كشفت الأبحاث الأثرية التي أجريت منذ منتصف تسعينات القرن العشرين والعقد الأول من القرن الواحد والعشرين بعدة مواقع من شمال المغرب عن قدم استقرار الإنسان بالريف المغربي، والذي يعود على الأقل إلى العصر الحجري القديم الأوسط، وقد تم العثور على عدد من اللقى الأثرية المتضمنة لمعطيات جديدة حول الاستيطان البشري بالمنطقة، وبينت الأبحاث تعاقب استيطان بشري يمتد من العصر الحجري القديم الأوسط إلى العصر الحجري القديم الأعلى، والذي تم تأريخه وفق »الحضارة الإيبيروموروية« الممتدة ما بين 20000 و8000 سنة قبل الحاضر. وقد ساهمت هذه الاكتشافات في إزالة الغموض الذي كان يلف المرحلة ما بين نهاية الحضارة الإيبيروموروية وبداية حضارة العصر الحجري الحديث، وفي دعم النظرية القائلة بأن عوامل محلية هي التي كانت وراء قيام هذه الحضارة، ودعت إلى إعادة النظر في كثير من الأفكار والنظريات السابقة مثل نظرية التأثير الخارجي، وعزلة الريف عن التأثيرات الحضارية المتوسطية، وعزل جبال الريف لشمال المغرب عن العالم المتوسطي القديم[181]، أما فيما يخص فترة ما قبل التاريخ، فقد كشفت الأبحاث عن تغير في نمط العيش لدى السكان الذي بدأ يعتمد الترحال، وأهم معالم حضارته هي القبور الدائرية الشكل[182]، وإذا انتقلنا إلى الفترة التاريخية التي يؤرخ لها عادة بالقرن الثاني عشر قبل الميلاد، وهو تاريخ ارتياد البحارة الفينيقيين للشواطئ المتوسطية[183]، نجد أن التعمير بالساحل الريفي المتوسطي كان هاما، وناهزت عدد مدنه المعروفة العشرة، وبدا بعضها بمثابة حلقة أساسية في الفضاء المتوسطي، خاصة مدينة روسادير التي أجمعت المصادر القديمة على اعتبارها ميناء ومدينة. وكشفت الأبحاث الأثرية المنجزة حول عدد من المواقع القديمة بمنطقة الريف مثل بودينار أن تاريخها

---

[181]_ Abdessalam Mikdad et J Eiwanger et J Moser et M Nami (2004) , « La stratigraphie du site d'Ifri n'Ammar (Rif oriental, Maroc) », Rapport préliminaire, dans *Beiträge zur Allgemeinen und Vergleichenden Archaologie24*, Deutsches Archäologisches Institut, , p.127.

[182]_ Abdessalam Mikdad et J Eiwanger, « Recherches préhistoriques et protohistoriques dans le Rif oriental (Maroc) », Rapport préliminaire(2000) , dans *Beiträge zur Allgemeinen und Vergleichenden Archäologie 20*, Deutsches Archäologisches Institut, , p.110.

[183]_ استقر السكان بالسواحل الريفية منذ أن قامت التجارة الفينيقية بمركز «روسادير« حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ومع بداية الفتح الإسلامي كانت أهم قبائل الريف الأوسط مستقرة في مواطنها المعروفة حاليا، مثل أهالي بني توزين الذين تعود أصولهم إلى بني توجين جنوب وهران، صاحب استقرارهم هجرة البطون الزناتية إلى الريف بعد مقتل دهية في حروبها مع حسان بن النعمان، بالإضافة إلى أهالي قبيلة إگزناين بين أيث عمارث وإمرنيسن غربا وأيث توزين شرقا، على مفترق المياه الشرقية، وأصولهم نفزاوية. قبيلة أيث ورياغر بدورها صنفها ابن خلدون ضمن بطون مكلاته، ثم إلى بطون بطيوة الطبقة الثالثة من صنهاجة، بالإضافة إلى قبيلة إبقوين على الساحل الشرقي لبادس. انظر:
- عبد الرحمن ابن خلدون (2000)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج.6، صص..276-274

يتراوح ما بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن الأول من الميلاد، رغم عدم التأكد من وظيفتها وتصنيفها ضمن مراكز حضرية دائمة أو مراكز تجارية مؤقتة.[184]

لم تسفر الأبحاث الأركيولوجية بالريف الأوسط عن أي لقى أثرية تحدد المواقع العمرانية[185]، والإرث الحضاري القديم، سواء تعلق الأمر بالعهد البونيقي أو الفينيقي أو بالعصر الروماني، باستثناء بعض الإشارات التي ذكرت آثار العمران البشري بالمنطقة ضمن المغرب ككل[186]، وأدى انهيار النظام القديم وصراعات الفتح إلى خراب المنشآت والعمران، وأهمها مرسى ثمسمان ونكور وموقع أگدال[187]، وخرب الباقي على يد المرابطين.[188]

نجد إشارات تدل على تأهل الريف المغربي بجماعات بشرية متعددة، حيث تطرق الجغرافي بطليموس Ptolemy، لدور الإطار الطبيعي في مقاومة الهجمات الاستعمارية التي ترددت على المنطقة، وعرف الساحل الريفي المتوسطي تعميرا قديما نظرا لاندماجه في الخط البحري الرابط بين مدينتي قرطاج وطنجيس، ما يؤكد انفتاح الريف على حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث تعود النواة البشرية الأولى بالريف وفق المصادر المكتوبة إلى استقرار ثلاث مجموعات كبرى خلال القرنين السابقين للميلاد وهي: بقوية Baquates ومرنيسة Maurenesiiومكناسة Makanitae أوMacenites، كما وردت في المصادر الرومانية، وأخذت القبائل المتفرعة عنها اسم لواتة[189]، خلال الفترة الانتقالية بين العصر القديم والوسيط، نسبة لجديها المشتركين لوى الكبير زجيك بن بر ونفزاو بن لوى الكبير[190]. ويعود استقرار هذه المجموعات إلى الفترة ما قبل السيطرة الرومانية[191]، وتمكنت في هذه

184_ مراد جدي (2016)، **الأولياء الصلحاء وتحولات المقدس بالمغرب: دراسة في التاريخ السوسيو-ثقافي للتدين في الريفين الأوسط والشرقي**، تحت اشراف محمد استيتو وفريد لمريني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، صص.158-157

185_ voir: Patrice Gressier, (1989), *Prospection Archéologique dans le Rif Zone de l'ancien royaume de Nakur,* thèse de 3ème cycle présentée à l'université- Sorbonne, Paris, pp. 255-257.

- Patrice Gressier(1992) , »Le développement urbain des côtes septentrionales du Maroc au Moyen âge frontière intérieure et frontière extérieures », in *CASTRUM* 4, Rome-Madrid, , p. 17.

- Enrique Gozalbes Gravioto(1981), »Melilla en el siglo XI todos para su historia», in *Actas de las jornadas de cultura Árabe y Islámica*, Madrid, , pp.238.

- Charles Raymond Roget (1924), *Le Maroc chez les auteurs anciens*, Paris, pp. 37-39.

186_ عذاري المراكشي (1948)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ليفي بروفنسال، ليدن، ج.1، ص..20

187_ أحمد الطاهري (1998)، «بواكير العمران الحضاري ببلاد نكور بين الأركيولوجيا والتوثيق ،«**حوليات الريف**، العدد الأول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 7.

188_ زرع الفاسي (1973)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، ، ص. .143

189_استقرت جماعات بشرية متعددة بالريف مشكلة نواة أغلب قبائلها، ضمنها بطون نفزة من لواتة وليست من صنهاجة، وتتمثل أهم فروعها بالريف في غساسة بساحل بطوية، ومرنيسة الكدية البيضاء، وزهيلة بنواحي بادس، وبنو ورتدي أهل قلوع جارة من ولهاصة، وأيث ورياغر وإگزناين والتي نجدها في مواطن أخرى بالمغرب الأوسط، منها مدينة تيجس أو تنس، وينسب لها حصن أزلي وسوق على نهر شلف، بالإضافة إلى بنو يصليتن، منهم أهل جبل أبي الحسن بثمسمان، وتقترن هذه التسمية بمناطق عديدة من شمال إفريقيا، أهمها بنو يزناسن من مكلاتة. انظر:

-عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر... ، م.س.، ج. ،6صص. .151-150

190_ أحمد الطاهري (2019)، **بلاد الريف في أعماق تاريخ وثقافات البحر المتوسط**، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى، تطوان، صص.35-33

انظر أيضا:

- مجهول (1996)، **مفاخر البربر**، تحقيق: محمد يعلي، مدريد، ، ص..203

191_تعد هذه المجموعات في حد ذاتها تفرعا عن السلالات البشرية الأولى بالريف، وتعود إلى أصل بنو مازيغ بن كنعان، ورفع نسبهم إلى مازيغ بن هراك بن مديد بن كنعان بن حام بن نوح. انظر:

الفترة من السيطرة على الملاحة بأقصى الحوض الغربي للمتوسط، وامتدت مواطن استقرارها لتشمل جزر البليار. ومن خلال البحث في الأصول الاجتماعية لسكان المنطقة عبر استقراء مختلف المصادر التاريخية» تجلت أهمية نفزة الصنهاجية وصنهاجة البرنسية باعتبارهما التجمعين القبليين اللذين كان لهما أبلغ الأثر في هيكلة المجال الجغرافي والعمراني، تضاف إليهما قبائل غمارة المصمودية المتاخمة للبلاد من ناحية الغرب وبطون مكناسة الزناتية المنتجعة على طول واد ملوية».[192]

نستنتج أن الريف عرف تعميرا بشريا قديما، غير أن التأريخ له كان مع بداية دخول الإسلام[193]، وتميزت قبائل الريف باحتفاظها على مكان استقرارها، وتكوين سمات مشتركة بينها أهمها اللغة، ومن محددات القبيلة المغربية بشكل عام والقبيلة الريفية بشكل خاص، توفر الجد المشترك، وصلة القرابة والنسب، والبنية التنظيمية التي تسهر على تماسك القبيلة وممارسة الأعراف رغم كونها تشكيلة بشرية متنوعة.[194]

أعاد النسابون أصول سكان الريف إلى ثلاث مجموعات بربرية. موطن غمارة، وهي فرع من مصمودة، هو الريف الأوسط والساحل المطل على المتوسط. وذكر كل من البكري وابن خلدون أن مجموعة صنهاجة كان لها دور سياسي في منطقة الريف منذ القرن السادس والسابع من الميلاد، وتعزز عددهم خلال القرن الحادي عشر، أيام المرابطين حيث انخرطوا في صفوف جيوشهم، وأمام الزحف الصنهاجي تقلصت مجموعة غمارة[195]. وتنسب قبائل كتامة أيضا إلى المجموعة الصنهاجية، والموطن الرئيسي لصنهاجة هو القبائل المطلة على نهر ورغة. ويعتبر التكوين العرقي لسكان الريف الشرقي معقداً نسبيا مقارنة بالمناطق السابقة، فهو يضم عناصر غمارية وصنهاجية وزناتية، وأشار البكري إلى قبائل أيث ورياغر وإگزناين ودورها في قيام إمارة نكور[196]. عرفت المنطقة توغل عناصر زناتية كثيرة، في العصر المريني خلال القرن الثالث عشر من الميلاد، واستطاعت أن تطبع كل المجموعات البشرية الأخرى.[197]

كانت المنطقة الريفية مأهولة بالطبقة الثالثة من صنهاجة غداة دخول الإسلام، وذلك داخل المجال الممتد وسط جبال الريف بشمال المغرب الأقصى، التي تحدها قبائل نفزة شرقا وقبائل غمارة غربا وقبائل أوربة جنوبا، ولها تأصيل تاريخي في المنطقة، ومن أهم فروعها بالريف

- أحمد الطاهري (2013)، **فصول مبتورة من تاريخ المغرب بلاد الريف وحاضرة نكور من فجر التاريخ إلى أنوار الإسلام**، ركوليكتوريس أوربانوس، الطبعة الأولى، إشبيلية، ص..54

[192] _جدي (مراد)، الأولياء الصلحاء...، م.س.، ص. .167

[193] _ خديجة الخديري (2018)، **التراث الأثري لساحل بلاد الريف**، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، ص. .44

[194] _ أحمد المقري (1349)، **زهرة الأخبار في تعريف أنساب آل بيت النبي المختار**، المطبعة الجديدة، الطبعة الأولى، فاس، ص. 121.

[195] _ أبوعبيد البكري، المغرب...، م.س.، ص. .90

[196] _تعتبر أصول إگزناين عامة أمازيغية، مع تسجيل استثناءات وافدة من مهاجرين وشرفاء والاتصال بالعرب المسلمين، ومنهم جماعة صنهاجية هاجرت من جنوب الجزائر واستقرت بكل من قبائل أيث ورياغر وأيث توزين، والذين فروا من القوطيين خلال القرن السابع من الميلاد .انظر:

- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel*, Le Colonel Georges Chef du Territoire de Taza, Fiche N° 1522/2.0, Fiche de tribu Gzenaia, Cercle de Tainast, 17 Octobre 1952, p.8

[197] _ لحسن أغزادي (1988-1989)، **ابن عبد الكريم وحرب الريف** 1926-1921**م**، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية، فاس، ص. 82.

الأوسط صنهاجة بادس، ومنهم أبو عمرو ميمون بن أبي جميل الصنهاجي، ابن أخت طارق بن زياد. وذكر ابن خلدون من فروعهم بورغة فشتالة، وأيث ورياغر وغيرهما، ويدرج ابن خلدون بعض البطون النفزية ضمن صنهاجة، وهي بطون بطوية[198]، وهم بقوية، بنو ورياغل بالمزمة، أولاد علي بتفريست.[199]

استمرت هذه التشكيلة البشرية بالريف، والمكونة بالأساس من نفزة وفروع صنهاجة وزناتة وغمارة ومصمودة، وشكلت قاعدة قيام إمارة نكور ضمن أقدم حاضرة إسلامية ببلاد المغرب[200]، وقد ساهمت في تطعيم قبائل الريف عناصر بشرية جديدة، أمازيغية وعربية وعبرية، وعملت الشرائح الإثنية جنبا إلى جنب على تطوير الإمارة، إضافة إلى الرقيق الأبيض المعروفين باسم الصقالبة، وهم عبيد مستقدمون من الشعوب السلافية[201]، والعناصر الشيعية والأندلسية.[202]

تنوعت وتعددت الجماعات البشرية داخل الريف الأوسط وشكلت قوة بشرية مهمة، تميز نمط عيشها بالاستقرار القائم على الزراعة، في نفس الوقت كانت قوة متحركة تعمل باستمرار من أجل تنظيم نفسها بتكوين قوتها الدفاعية الحربية.[203]

حافظت البنية القبلية بالريف على خصوصيتها الإثنية ومنظومتها الاجتماعية ومقوماتها الثقافية، إلى حدود القرن 10م، إلى أن استقبلت عدداً من الشرفاء الأدارسة بعد حصارهم بقلعة حجر النسر وطردهم من فاس، ومن جملتهم بنو محمد[204]، الذين اتخذوا أملاكا بنكور[205]، وأولاد حمامة[206]، والمرابطين الحسونيين الذين استقروا بأدوز في بقوية منذ القرن الخامس الهجري، إضافة إلى بعض الأقليات الدينية والعرقية منها اليهود والصقالبة بحكم توسع النشاط التجاري والحرفي وتأثير العمران الحضري. وأهم تأثير حدث خلال هذه المرحلة، أي ما بين

198_ عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر...، م.س.، ج.6، ص..197

- يعود أصل اتحادية بطيوة الى قبيلة زناتة، ويعيد مجموعة من الباحثين، وأبرزهم محمد حجي، أصلها إلى القبائل الصنهاجية. وقد شكلت الاتحادية القبلية تكتلاً اخذ مسار الجهاد وآمن بالمصير المشترك ضد دار الحرب، واعتبرها ابن خلدون مكونة من إبقوين وأيث ورياغر وأولاد علي بتفرسيت. انظر:

- محمد أونيا، «مفهوم الريف...، م.س.، ص. 22.

199_ عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر...، م.س.، ص. .196

200_ أحمد الطاهري (1998)، **فصول منسية من تاريخ المغرب: إمارة بني صالح في بلاد نكور**، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. .5

201_يقال بلاد الصقالب متصلة من البحر الشامي إلى البحر المحيط إلى الشمال، بها أجناس كثيرة، وخرب حكمهم وانقسموا إلى أربع، ملك البلغاريين وبويصلا وملك فراغة وبويمة وكراكو، انظر:

- أبو عبيد البكري (1992)، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، صص. .331-330

202_ عبد الله بوصوف (2017)، **جوانب من تاريخ إمارة نكور**، منشورات ملتقى الطرق، الدار البيضاء، ص. .78

203_ هاشم العلوي (1995)، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ج.1، ص. .161

204_من بني محمد الأدارسة بالريف: أولاد عيسى بالنكور، الزرادیون بتازوطا من گارت بعين شربانة وإخوانهم أولاد عبد الله، وأيت محمد بن محمد الغرناطي بملوية وبني عبد الواد، وبيدر وبالريف. انظر:

- أبو القاسم الزياني (1429هـ/2008م)، **تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب**، تحقيق: رشيد الزاوية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، صص. .81-82

205_ عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر...، م.س.، ج. ،6ص. .289

206_ينحدر الشرفاء أولاد حمامة من جدهم مولاي عبد القوي صاحب تافررت قرب تلمسان) أو تاقدمت حسب رواية أخرى قرب تاهرت(، انظر:

- عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر...، م.س.، ج.6 ، ص. .289

القرنين السابع والعشر الميلادي، هو دخول »قواعد التنظيم الإسلامي» في ضبط حركية التجمعات والأحلاف القبلية[207]، وتغلبها على الموروث الاجتماعي القديم، والذي بدأ يتحول إلى مكبوت اجتماعي.[208]

سقطت إمارة نكور سنة 1019م، ووفدت عناصر جديدة للاستقرار بالمنطقة، أهمها أزداجة البرنسية من وهران، واندمجت مع القاعدة البشرية المحلية لقبيلة أيث ورياغر، حيث يعتقد أن الجماعة المعروفة بـ »أيث يوسف وعلي» من ذرية ثاني ملوكها يوسف بني على، ومع بداية القرن الحادي عشر من الميلاد تعرضت المنظومة القبلية القديمة بالريف الأوسط إلى التفكك وإعادة التركيب، وهكذا اختفت نفزة من التشكيلة الاجتماعية الريفية، فيما احتفظت قبيلة إگزناين وأيث ورياغر وغيرها من البطون بأسمائها الأصلية، في حين لم يعد أهل جبل أبي الحسن بثمسمان يعرفون ببني يصليتن[209]. بالموازاة مع ذلك تألقت بعض الفصائل الفرعية، التي غدت بمثابة أصول جديدة للانتساب، ونذكر منها »أيث سعيد» المتفرعين عن سعيد بن إدريس رابع أمراء نكور وأكثرهم خلفا، أما باقي أعقاب آل صالح فقد آلت إلى الانقراض، وأصبحت الفروع النفزية مثل أيث ورياغر وإگزناين مجموعات مستقلة بذاتها، وإن دخلت ضمن لفوف سوسيو-سياسية مع غيرها.[210]

عرف الريف على عهد الدولة المرابطية منذ سنة 1080م، استقرار القبائل الصنهاجية التي انخرطت ضمن صفوف الجيوش النظامية، مشكلين النواة الأولى لكتلة قبائل صنهاجة السراير التي تمثل قلب الريف الأوسط[211]، وحضر العنصر المصمودي إلى الريف الأوسط مع ازدهار التجارة الموحدية، وطبع الذاكرة الجماعية بالمنطقة، غير أن هزيمة العقاب سنة 1212م، أدت إلى انهيار على مستوى الديمغرافيا، بالتزامن مع الحروب والصراعات التي شهدها الفضاء المتوسطي، وبسبب المجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعية التي اجتاحت المغرب خلال هذه الفترة التاريخية، ما دفع موجات من العصائب الزناتية خلال العقد الأول من القرن الثالث عشر إلى اكتساح المغرب الشرقي وصولا إلى الريف. وقد كان لبعض العناصر من هذه العصائب وجود سابق بالمنطقة، وتمثلت أساسا في أسر من بني مرين التي أسست مدينة تازوطا قبل تأسيس الدولة المرينية لمحاربة الدولة الموحدية، وقبل الدخول الرسمي إلى المغرب سنة 1213م، وبسط السيطرة على إگزناين المشرفة على حوض أگرواو، وتمكنوا من اعتلاء الحكم فور تلمس الضعف الموحدي. وقد أقطع المرينيون بلاد الريف لبني وطاس، وهم من أعقاب يوسف بن تاشفين ونسبهم دخيل على بني مرين، واتخذوا من تازوطا

---

[207]_ هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى...، م.س.، ص. 261.

[208]_ مراد جدي، الأولياء الصلحاء...، م.س.، ص. 169.

[209]_تعتبر أيث ورياغر وإگزناين وإمرنيسن وبني يصليتن (ثمسمان حاليا) وبني يزناسن إخوة، وهم أمازيغ صنهاجيون، وبالنسبة لإگزناين وأيث ورياغر يعتبران أبناء مگلاطة الذي كان يصاحب أمازيغيا يسمى تطوفت ويحيلنا على اسم قبيلة بالريف الغربي هي أيث يطفت. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الريس، منشورات صوت الديمقراطيين المغربة بهولندا، الطبعة الأولى، ج.2، ص. 425.

[210]_ أحمد الطاهري (1998)، **إمارة بني صالح في بلاد نكور: الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الإسلامي**، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 197.

[211]_ Gérard Maurer (1968),»Les paysans du Haut Rif central», In *Revue de Géographie du Maroc*, N° 14, p. 147.

معقلا لهم، وكانت الرياسة فيهم لبني الوزير. أثر المرينيون على التشكيلة البشرية والإثنية بالمنطقة، حيث عرفت اندفاع الأفراد والأسر والجماعات من عدة جهات للاستقرار بها، ويمكن رسم خطوط التحولات البشرية التي عرفتها المنطقة بفضل الهجرات الوافدة عليها منذ القرن 13م.[212]

عرف الريف الأوسط نسبة استقرار أهم خلال عهد الدولة المرينية، واتضحت قوتها مع بداية ضعف الدولة الموحدية، إلى ان امتد هذا التجمع القبلي وشمل مليلة، وأصبحت بطوية تمتد من نهر نكور إلى ملوية.[213]

شكلت الهجرات نحو الريف تأثيرا واضحا على النسيج السكاني، خاصة الريف الشرقي الذي استقبل جماعات بشرية قادمة من الجنوب الشرقي ووصلت بعضها إلى أيث ورياغر وأيث عمارث وترگيست مثل أولاد عيساوي والودغيريين والشرفاء الأدارسة منذ القرن الثالث عشر، ومع بداية القرن الرابع عشر من الميلاد وصلت أفواج جديدة من القبائل العربية تمثلت في عرب المعقل الهلاليين، ومنهم إكانونن، والذين انتشروا في حوض واد كرط الأوسط ووصلوا إلى أيث عمارت، كما نزحت إلى المنطقة جماعات من القبائل الزناتية وخاصة من بني يزناسن، منها المسامير وإحفطلاين المستقرين بمزوجة، وهم من أولاد بوسمير بأنگاد وانتقلت جماعة منهم إلى ترگيست، ومن فروعهم أيث بوستة النازلين في أيث بوعياش من أيث ورياغر وأشث حازم باگزناين. وقد شكلت المنطقة الواقعة بين ملوية وكرط مصدرا رئيسيا لبعض هذه الهجرات، منها التي استقرت ببورد بإگزناين. كما انتشر الشرفاء الخمالشة في قبائل صنهاجة السراير وإبقوين وبني بوفراح وأيث ورياغر.[214]

توزع الأندلسيون بقبائل الريف الأوسط خاصة بعد طردهم النهائي من الأندلس سنة 1492م، وقد شهد الريف منذ القرن الرابع عشر استقرار جماعات أندلسية، منها: أسرة الحسن بن الخراز المالقي، والأسرة الخزرجية الغرناطية، وأسرة أبو مروان عبد المالك الوجانسي وغيرها ببادس، فنجد فرقاً كاملة تنسب للأندلسيين، منها فرقة »أندروسن« بأيث ورياغر، و»أعراص« التي استقرت ببادس، إضافة إلى اليهود النازحين من مدن الساحل الجنوبي للأندلس نحو بادس، والتي اضطروا إلى مغادرتها بعد حرب المهدي السعدي ضد أبي حسون، والتي انتهت بتخريبها، فلم يبق أمام اليهود إلا التوجه »نحو الداخل خاصة اسنادة، وأيضا تارجيست«، لكن الذاكرة الجماعية لا تحتفظ إلا بذكرى مجموعة صغيرة تستوطن تغزوت بمسطاسة.[215]

---

[212] _ عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر...، م.س.، ج.6، ص. 242.

[213] _ محمد أونيا، «مفهوم الريف المغربي...، م.س.، ص. 22.

[214] _ Paul Pascon - Herman Van der Wusten (1983), *Les Beni Bou frah Essai d'écologie sociale d'une vallée rifaine (Maroc),* Reproductions industrielles, Rabat, pp. 71-72.

[215] _ عاش بعض اليهود بمنطقة تغزوت، وتاجروا بالبرادع وسلع أخرى في الأسواق. انظر:

*-A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 9MA/713/76***,** Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Taghzut, Le 15 Mai 1947, p.4.

إضافة إلى العناصر الزنجية التي جلبت إلى المنطقة من الجنسين في إطار تجارة الرقيق[216]، أو أحرار ينحدرون من التجمعات المخزنية القديمة لعبيد البخاري، انتقلت من المحور الجنوبي جماعات من غياثة سلكت حدود كرط الجنوبية، منها القيطونيون. ومن بني زروال هاجرت جماعة شكلت أكبر فرق أيث يطفت، ونعني بها إزروالن، ومنها انتقل الشرفاء العمرانيون للاستقرار في أيث بوفراح وأيث سداث، ومن مرنيسة انتقل أولاد الشعرا للاستقرار في بني گميل، وجماعة سيدي إبراهيم للاستقرار في دوار أغيل أحمد بأيث عمارت. ونجد جماعات مرنيسية بأيث توزين وأيث يطفت وأيث ورياغر وإگزناين تعرف بإمرنيسن[217]، غير أن تشكيلة عناصر قبيلة أيث توزين ترتكز على مجموعة إثنية أمازيغية متجانسة لحد كبير، نواتها صنهاجة وغمارة وزناتة، مع تسجيل حضور الشرفاء.[218]

نزحت جماعات من نواحي تازة إلى الريف، منها التسول الذين استقروا بتلا يوسف في إبقوين وأصبحوا يحملون اسما أمازيغياً، أي إتسوليين، ومجموعات من البرانص في أيث معاذ من أيث عمارت والجبارنة وإخبابن بإگزناين.[219]

استقرت جماعات من سوس في إطار المحلات السعدية، منهم المجاهد "أمجاهذ" السوسي بأيث بوفراح، غير أن الجزائر-تلمسان تعتبر المصدر الأهم للهجرات نحو الريف خلال القرن الرابع عشر من الميلاد، منهم أولاد يعلا من إزكرياتن إلى تارجيست، ومن بني سنوس بأشث عاصم بإگزناين التي لا تشكل جزءًا من أي اتحادية قبلية، وتشكلت من التجمعات الريفية القديمة التي تتكون من نواة أمازيغية.[220]

يعتبر القرن السادس عشر من الميلاد بداية استقرار داخل هذه المجموعات إذ نجد إشارات لدى مارمول كربخال وليون الإفريقي الذي طاف المنطقة خلال هذا القرن، تعطي صورة دقيقة لوضعية قبائل الريف قريبة إلى الصورة الحالية لهذه القبائل. ويمكن تفسير هذا الاستقرار بعامل خارجي متمثل في انتقال المغرب من عصر الإمبراطورية الشاسعة، حيث كان الحكام ينتقلون لأسباب سياسية وعصبية، إلى نظام الملكية الذي نبذت فيه العصبية القبلية وحلت محلها العصبية العسكرية باعتبارها عاملاً داخلياً ضمن الوعي السياسي الذي ساد المنطقة، والذي

---

[216]_استقرت نسبة من عناصر السود بمنطقة أيث عروس وأصولهم عبيد أسر شرفاء جبل علام. أنظر:
- Valentín Benítez Cantero (1953), *Miscelánea Costumbrista de Beni Aaros*, A.I.E.A., N° 22, p.16.

[217]_ شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد مخزوم، منشورات مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1991، ص.20.

[218]_*B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8, por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin,* Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, p. 45.

- يعود الأصل الزناتي بقبيلة أيث توزين إلى الدولة المرينية، التي أحرزت أول نصر لها قرب نهر نكور. انظر:
- أحمد الوارث (2009)، «من تاريخ التصوف المغربي: الزاوية التوزينية بالريف الشرقي ،«مجلة التاريخ العربي ،العدد التاسع والأربعون، الرباط، ص. 207.

[219]_*A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136***,** Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.4.

[220]_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136***,** Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.5.

دفع بها إلى تشكيل وحدات واتحادات قبلية، أمام الخطر الخارجي المتمثل في الهجمات الإسبانية والبرتغالية على الشواطئ الريفية.[221]

وفدت مجموعات من المتصوفة والشرفاء إلى الريف منهم المسناويون أولاد سيدي بوزكري، الذين استقروا بأيث حذيفة، وأيث زكري بأيث عبد الله، وإزكريين بأشت هشام بأشت عاصم من اگزناين، وأولاد گنون المنتشرون في كتامة وأيث ورياغر، كما عد المحور الغربي مصدرا هاما للحركات السكانية الصادرة إلى الريف الأوسط، وخاصة من غمارة التي تشكل مكونا هاما من ساكنة أيث بوفراح، ونزحت منها جماعات متعددة من الشرفاء خاصة المشيشيين، مثل اللواتيين بأيث ورياغر، وشرفاء إهرامن المنتسبين إلى مولاي عبد السلام بن مشيش بأغيل أحمد بأيث عمارت. ومن المشيشيين أيضا بني عبد الوهاب بأيث ورياغر الذين أخذوا تسمية الغلبزوريين، وفي إبقوين يعرفون بإدردوشن لأن أغلب الغلبزوريين ينتمون إلى مدشر إدردوشن بأيث ورياغر، وينتسب شرفاء أولاد عيسى الشريف بأشت حازم من قبيلة اگزناين إلى الشرفاء العمرانيين أولاد مولاي حنين ببني مستارة الصنهاجية.[222]

دخل شرفاء أولاد سيدي يوسف بن داود من صنهاجة جبالة إلى قسمة أشت يونس من إگزناين، ومنهم شرفاء أولاد عزوز وأولاد يوسف بقرية العرقوب، ومن قصر كتامة نزح أبو يعقوب ابن الشفاف إلى بادس وأولاد سيدي قاسم نرحاب إلى بني بوفراح والمعروفين بإقاسميين خلال القرن السادس عشر[223]، وانتقلت جماعة من الوزانيين إلى سنادة بأيث يطفت منذ منتصف القرن الثامن عشر، كما تلقت المنطقة هجرات سكانية من مناطق مغربية أخرى، منها جماعة من الشاوية ببني گميل، وتنسب إليها فرقة كاملة من قبيلة إگزناين هي »إيشاويين». كما نزح المرابطون السنوسيون المنتمون لجدهم أبو القاسم السنوسي إلى الريف الأوسط أواخر القرن السابع عشر.[224]

عرف الريف تحولا اجتماعياً مهماً بعد الاحتكاك العربي الإسلامي، خاصة مع صالح بن منصور الحميري، إلا أن الساكنة احتفظت أغلبها باللغة المحلية، أي الريفية، وكان الريف موطن الوافدين الأدارسة، خاصة بعد سقوط حكمهم مكونين فرقة أولاد علي، والمصامدة الموحدين، وعرفت المنطقة توافد جماعات من الجنوب الشرقي وفاس ومراكش وتطوان والأندلس قبل وبعد سقوط غرناطة خاصة الهاربين من جحيم القشتاليين.[225]

نجد حضور التشكيلة الإثنية الأصلية والوافدة على الريف داخل كل قبائله، حيث شكلت كتلة متجانسة يصعب التفريق بين عناصرها، ونعطي مثالاً عن ذلك من قبيلة إگزناين التي لم تعرف قسماتها أي تحولات عميقة فيما يخص انتماءها العرقي، وذلك لأكثر من ثلاثة أجيال قبل بداية القرن العشرين، إذ تنتمي قسمة أشت يونس إلى أصول عتيقة يصعب التحقق منها،

221_ مارمول كربخال، إفريقيا...، م.س.، ص. 230.

222_ أحمد المقري، زهرة الأخبار...، م.س.، ص. 120.

223_ عبد الحق البادسي (1414هـ/1993م)، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق: سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ص..67

224_ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، دار الغرب الإسلامي، ج.1، ص..1002

225_ عبد الرحمن ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر**...، م.س.، ج.6، ص..281

وتتكون من تشكيلات مختلفة، أقدمها إيوجيرن وأشث إسحاق وإفركوكن وإمزيرن، وتنتمي كلها لأصول أمازيغية، رغم اعتبار إيوجيرن ذوي أصل أندلسي جاؤوا عبر طنجة واستقر البعض منهم ببني وليشك، ويعتبرون أنفسهم من أبناء سيدي فتوح في طنجة. وتعود أصول خبابة إلى برانس بني خالد، وأصل حضرية إلى قبائل مطالسة، وأصل بعض العائلات يهودي أسلمت عبر أربعة أجيال، منها ولاد القايد وولاد العربي من حمو سالم، بالإضافة إلى نوى قدمت من كرت وبني يزناسن وكونت سلالة متجانسة.[226]

نجد في قسمات قبيلة إگزناين نماذج دالة على ذلك، حيث تأسست قسمة أشث محند مثلا من نواة صنهاجة عين مديونة، ويعتبر ولاد زيان أنفسهم من أصل إدريسي، ومنهم أسر ذات أصل يهودي، أهمها إموروذن وأولاد الباز أسلمت عبر ثلاثة أجيال، ويعتبر دوار ولاد الطاير الأقدم في هذه القسمة، وأصلهم غير محدد، في حين قدم جزء من ولاد بوجطو من قبيلة ثفرسيث، إلاّ أنهم يمثلون قسمة موحدة من حيث الممارسات الدينية والطقوس واللغة والعادات اليومية.[227]

تعتبر قسمة أشث عرو عيسى ذات أصل إدريسي، مقسم إلى جزأين، الأول استقر بمدشر ثينمْرار والثاني بكل من أذرار ن سيذي عيسى وادوايار وواونكورث، وينحدر أهالي هذه الدواوير من سيدي عيسى الذي يعود أصله إلى موسى بن مشيش. وتوجد حاليا عائلات منتمية لسيدي عيسى بمدينة فاس، وتتقاسم مع العائلات المستقرة منها بإگزناين بقسمة أشث عرو عيسى عائدات صندوق مولاي إدريس، وتعتبر هذه القسمة ذات أصل شريف غير مختلط، وهو الأمر الذي يميزها عن باقي القسمات. وبالنسبة لدوار تيغزة، فهم شرفاء أيضا، لكنهم ينتمون إلى سيدي محند أوعيسى، الذي مر من رعزيب ميضار، وربطه بقسمة أشث عرو عيسى، واستقلت عن قبيلة أيث توزين.[228]

تتميز التشكيلة التضاريسية في الريف بالوعورة، حيث نجد مرتفعات وأودية شبه مغلقة ومعزولة عن بعضها، مما أرغم الساكنة على العيش ضمن وحدات صغيرة كدواوير وعائلات تعيش على الاكتفاء الذاتي وعلى نظام اقتصادي أصيل. كما تحكمت طوبوغرافية الريف في تجزئته السياسية والاجتماعية، ونجد في تاريخ تعمير المنطقة أن الريف كان ملجأ للمضطهَدين والفارين من الكوارث الطبيعية والسياسية.[229]

عرف الريف خلال المرحلة الاستعمارية وفود جماعات أوروبية، خاصة إلى المناطق الحضرية، كما حدث مثلا بالنسبة إلى مدينة الحسيمة بعد هيكلتها، وكان أغلب المعمرين بها

---

[226]_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 5.

[227]_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947,. p. 7.

[228]_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 6.

[229] _لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم...، م.س.، ص. 81.

من مدن جنوب إسبانيا، من قبيل مالقة وألميرية وغرناطة ومورسية وإشبيلية، غير أن الأكثر انعزالا من هؤلاء هم الوافدون من صوريا Soria، ومدريد Madrid، ووادي الحجارة Guadaljara. وقد توفرت للجميع شروط العيش بالمدينة الجديدة، رغم أنهم واجهوا عدة مشاكل قبل التأقلم ومعرفة كيفية جلب المياه التي كانت تعرف ندرة بالمنطقة، ما جعلهم يبحثون عن مصادر ماء جديدة، إذ عملت سلطات المدينة على استغلال موارد ينابيع إيسري وثارا يوسف وثارا بيرف التي لم تكن كافية، مما جعلهم يتطلعون لاستغلال مياه واد غيس، الأمر الذي عرف امتعاض السكان.[230]

أفرز التشكل السكاني لمنطقة الريف الأوسط، خصائص إثنية، ولسنية، واجتماعية عملت على تشكيل الذاكرة الجماعية والثقافية لسكان المنطقة وإنتاج معطياتها الرمزية، إذ »شكلت عمليات الدفاع عن الحيز الجغرافي وعمليات غزوه الفصول المتعاقبة للتاريخ البشري، ورواسب الذكريات في طبقات الذاكرة الجماعية«.[231]

انقسمت هذه التشكيلة السكانية المتنوعة والمتكتلة في نسق واحد حول قبائل الريف، وفق اعتبارات مختلفة ونسب متفاوتة، رغم أن الريف بأكمله لم يعرف كثافة سكانية مهمة، إلا أن ذلك التفاوت النسبي كان واضحا بين قبائله، وأثر على الحياة العامة داخل القبائل الريفية، في كل جوانبها بداية من تأمين اليد العاملة وصولا إلى توفير القوة السياسية.

ثانيا: الخريطة السكانية بالريف الأوسط خلال الاستعمار **.1909-1956**

شهدت القبائل المدروسة نسبةً من التوازن على مستوى الجغرافية البشرية، إذ عرفت القبائل الكبرى تجمعات أهم من القبائل الصغرى[232]، واختلفت نسبة السكان بالريف من قبيلة لأخرى، وفي نفس القبيلة حسب الفترات التاريخية. ونورد كمثال قبيلة إبقوين التي قدر مارمول كربخال عدد سكانها بحوالي 15000 نسمة خلال القرن 16م، وهجرها سكانها بشكل شبه تام لمدة ثلاثة سنوات بعد الحملة العقابية التي قام بها بوشتى البغدادي، قبل أن تعود هذه الساكنة مرة أخرى إلى أراضيها لتصل إلى حوالي 11000-9000نسمة (خلال العشرينات من القرن العشرين)، حسب ما أورده گيريلي، موزعة على ثلاث قسمات هي إزمورن في الشرق، وأزغار في الوسط، وثگيذيث في الغرب، علما بأن أغلبهم أمازيغ، مع وجود عناصر قليلة من أصل عربي، وريفيين ذوي بشرة سوداء، وأقلية يهودية بمدشر ثافنسا.[233]

تعتبر قبيلة أيث ورياغر ضمن قبائل الريف الأوسط، أكبر تجمع قبلي في شمال المغرب، وتُعد الكثافة السكانية بهذه القبائل الأعلى في المنطقة، إذ تقارب ثمانين نسمة في الكلم^2، بل

---

[230]_ Enrique Guerra (1994), »Alhucemas: El nacimiento de una ciudad», *Al jamia*, N° 5/4/, Casa blanca, p. 9.

[231]_ مراد جدي، الأولياء الصلحاء...، م.س.، ص. 147.

[232]_ *B.N.E.A.H., R.D., N°16065, El Rif,* La Zona Española, Madrid, 1940, pp.4-5.

[233]_ أنخيلو گيريلي (2017)، **إبقوين قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، ، ص. 27-33.

تصل إلى 120نسمة في أيث ورياغر، وهي الأعلى في شمال إفريقيا، إذا استثنينا القْبايل في الجزائر. وتعد أيضا من أقوى التجمعات القبلية بسلالاتها الأصلية والدخيلة المتجانسة.[234]

تجدر الإشارة إلى أن الإحصائيات لم تكن بالدقة المطلوبة، حيث عمدت إدارة الحماية الفرنسية والإسبانية إلى وسيلتين لإحصاء السكان، الأولى بالاعتماد على عدد الكوانين والأسر والاكتفاء بها[235]، أو تمثل عدد أفرادها بشكل نظري ثم تحصيل المجموع الإجمالي للساكنة، والثانية بالاعتماد على القوة الحربية البشرية، أي الفئة النشيطة والقادرة على حمل السلاح من الذكور لكل قسمة ثم القبيلة، الأمر الذي يعطي صورة حول نسبة السكان، من خلال افتراض عدد تقريبي للساكنة الكلية بناء على معدل عدد أفراد الأسرة، على اعتبار أن كل واحد من هؤلاء هو رب أسرة في نفس الوقت.

ندرج مثال قبيلة أيث توزين التي تنقسم إلى خمس قسمات حسب موليراس الذي اعتبر قبيلة ثفرسيث قسمة من بين القسمات الخمس، والأربع الباقية هي: إگار ما)ر(واس، وأيث حساين، وعمارث، وسيدي يحيى. وقد قدر عدد المشاة الذين يمكن لكل قسمة تجنيدهم في 3000، أي ما مجموعه 15000مقاتل، ليصل مجموع السكان إلى 75000، بمعدل خمسة أفراد في كل أسرة[236]، وهذا الرقم مبالغ فيه، إذ لا يتماشى مع التقديرات ونتائج الإحصاءات اللاحقة، ومع احتساب ساكنة قبيلة ثفرسيث. والأقرب إلى الصواب هو تقدير ساكنة قبيلة أيث توزين ما بين 15000 و20000 نسمة، ما معدله 21إلى 28نسمة في كل كلم^2، علما بأن القبيلة تمثل بنية ثقافية تعود لأصول أمازيغية باستثناء عناصر الشرفاء الأدارسة.[237]

تعرف القبائل الجبلية وعلى رأسها قبيلة إگزناين فقراً على مستوى التكتلات السكانية، وتقتصر على خطوط متداخلة بين قبائل الريف، وعلى قمم المرتفعات[238]، وقد خصت إدارة الحماية الفرنسية هذه القبيلة بإحصائيات دقيقة نسبيا سنة 1937م وسجلت الأرقام التالية: 317 كانون بقسمة إشاوين، و543 كانون في مارار، و472 كانون في لوطا، و389 كانون في إمزذورار، ما مجموعه 1721كانون، و1060 كانون في قسمة أشث عاصم، و553 كانون في

234_ تتبني جميع الأنساق الانقسامية الريفية على مبدأ القسمات غير المتجانسة بدل قاعدة الجد المشترك، ونموذج القبيلة الزراعية المتكيفة مع البيئة الجبلية. والقبائل الست المكونة للريف الأوسط ترتبط بالسلالات الأبوية النسب، وتتضمن قسمات أصلية أو دخيلة، ومتوسط القسمات الأصلية في القبائل الست هو ،49%أما إذا نظرنا إلى هذه الأنساب في كل قبيلة على حدة فنجدها تبلغ نسبة 42% في إبقوين، و31% في أيث عمارت (أيث عمارث تسمية تدل على تعميرها من طرف سلالات خارجية دخيلة). ونفس الأمر تقريبا بالنسبة لإگزناين التي تبلغ فيها هذه النسبة ،32% و55%بأيث توزين، و78%بثمسمان، و58% في أيث ورياغر. والمجموعات في الريف تتكتل حول التحالف السياسي، أو تكتل العصب حول النسب الدموي. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص .422 .وج.1، ص.34 .

235_ يصعب تحقيق نسبة كبيرة من الصواب وفق هذا المنهج الإحصائي، إذ يعتمد النظام السوسيو-اقتصادي في الريف على توسيع دائرة الأسرة، حيث يزوج الآباء أبناءهم الذكور الذين يعيشون في كنفه ويقومون بإعالته هم وأبناؤهم في المستقبل. انظر:

- *M.E.D.A., La Maison rurale du pré-Rif*, L'Union Européenne, 23-02-2001, p.2.

236_ Auguste Mouliéras (1895), *Maroc Inconnu Exploration Du Rif*, Librairie Coloniale et Africaine, Joseph André, Paris, pp.113-118.

237_ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, p.10.

238 _ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 3.

قسمة أشث محند، و908 كانون في أشث يونس، و526 كانون في قسمة أشث عرو عيسى، حيث يبلغ مجموع كوانين قبيلة إگزناين .[239]4768

وعرف التوزيع السكاني تفاوتاً واضحاً داخل القبيلة وداخل القسمة الواحدة. وقد أنجزت سلطات الحماية الفرنسية إحصائيات أخرى سنة 1939م، وكانت أكثر تفصيلاً، وهمت ساكنة قسمة أشث عرو عيسى المكونة من خمسة دواوير. وجاءت نتائج الإحصاء كما يلي: 734 شخص ضمن 79كانون بدوار ثينمرار، و246 فرد ضمن 30كانون بدوار سيدي عيسى، و791 فرد ضمن 73كانون بدوار دوايار، و745 ضمن 70كانون بدوار واونكورت، و497 فرد ضمن 48كانون بدوار ثيغزا، ما مجموعه 3263فرد ضمن 300كانون.[240]

تتلخص إحصائيات ساكنة قسمة أشث يونس سنة 1949في عدد الأفراد الموزعين على سبعة دواوير، وهي: 1340بدوار أزرو، و1010 بدوار ثاغيراست، و426 بدوار حضرية، و940 بدوار العرقوب، و600 بدوار أشث حازم، و766 بدوار ثاسثيت، و1020 بدوار خبابة، ليصل مجموع ساكنة هذه القسمة 6503فرد.[241]

حسب احصائيات إدارة الحماية سنة 1949، توزعت ساكنة قسمة أشث محند على ثلاثة دواوير قسمت على الشكل التالي: 546فرد بولاد زيان، و710 بولاد الطاير، و1474 بأشث بوجطو، ليصل مجموع الساكنة بهذه القسمة 3052فرد.[242]

تمتع أبناء قبيلة إگزناين بالقوة الحربية وحسن التأطير، لكن عددهم كان قليلاً[243]، وقد لجأت فرنسا بدورها إلى حساب الكثافة السكانية بالقبائل وفق عدد حاملي السلاح وذلك سنة 1947م، حيث نجد في قبيلة إگزناين تفاوتاً بين القسمات التي حظيت بدراسة أكبر، وهي ثلاث، علما بأن القبيلة تتكون من خمس قسمات. هكذا أحصت 1322حامل سلاح في قسمة أشث يونس يتوزعون على ستة دواوير كبيرة كالتالي: 1286فرد في أزرو المكون من إشلاحن وإيوجيرن وإفاركوكن وإمزيرن وإبوسعيدن وإيوسفين وولاد إسحاق وولاد علا، و974 فرد في مدشر ثاغيراست الذي يتكون من إعبوثن وإملوكن وإزورار وولاد لحسن وإعجان وإنحادن وإهلاريثن، و410 فرد في حضرية الذي تقطن به سلالات ولاد علي أويوسف وولاد القاضي

239_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.6.

240_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Oulad Ali ben Aissa, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p.2.

241_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Beni-Younes, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p.2

242_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Beni-M'Hamed, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p.1.

243_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, en date du 20 Mai 1941, p. 7.

وإخوخوثن، و1662 فرد في العرقوب المكون من ولاد يطو وولاد منصور وولاد تيشفة وإمشماشن وإزندار، و606 فرد في أشث حازم الذي يتكون من إبوعزاثن وإمعطشن وإحمدوشن وإباقبثن، وأخيرا 1016فرد بمدشر خبابة الذي يتكون من إموساثن وإيعقوبن وإحارشون وإباقبثن.[244]

ونجد بقسمة أشث عرو عيسى 595حامل سلاح يتوزعون على خمسة دواوير هي، ثينمرار الذي أحصت به السلطات الفرنسية 700فرد ينتمون إلى إحدوشن ولعربين وإشمرارن وإشكودن وأشث ثيزي عيسى وغلاوات وإنمار وعلي، ودوايار الذي يتكون من 796فرد ينتمون إلى ولاد الحاج عبد العزيز وولاد سيدي محند وإبوزرماضن وإمعوشن ولاد عبد الله، ومدشر واونكورت الذي يتكون من 652فرد من سلالات إخياظن وإياسينن وولاد سي عمر وولاد علي، وأذرار نسيذي عيسى المكون من 244فرد المنتمين إلى ولاد احمد أوعيسى ومحند أوعيسى، وأخيرا مدشر ثيغزا الذي يتكون من 577فرد ينتمون إلى ولاد يخلف وإبنعيساثن وأشث ثيزي، حسب احصائيات ادارة الحماية لسنة 1947م.[245]

تتماثل قسمة أشث محند مع قسمة أشث عرو عيسى من حيث نسبة حاملي السلاح والتي تتحدد في 588فرد، وتتكون هذه القسمة من ثلاثة دواوير هي، أشث بوجطو الذي يتكون من 1320فرد ينتمون إلى بني بومخلوف وولاد علي أو عسو ولاد عبد الله أوموسى وولاد حسون وولاد محند وولاد عبد الرحمان وولاد الباشير وبوهيوفن، ومدشر ولاد طاير الذي يتكون من 655فرد وتنتمي إليه سلالات إفارسين وولاد يخلف وولاد عيشة وولاد ابراهيم وولاد القايد وولاد سيدي يعقوب، وأخيرا مدشر ولاد زيان المتكون من 494فرد ينتمون إلى ولاد قارون وولاد دراج وإيعقوبن وإموروذن وإزريا وولاد موسى بن زيان، وذلك حسب ادارة الحماية لسنة 1947.[246]

يعد أبناء دوار أشث أزرو من قسمة أشث يونس الأكثر كفاءة على الإطلاق في مجموع قبيلة إگزناين من الناحية الحربية، ويُصنف محاربو مداشر ثاغيراست وحضرية وخبابة ضمن الأوائل من الناحية القتالية، الأمر الذي يفتقر له سكان مدشر أشث حازم والعرقوب من نفس القسمة، الذين كانوا من أوائل الوافدين على مكتب الإدارة الاستعمارية خلال فترة التحضير لحركة 1942من أجل استعطافهم وفضلوا الهروب نحو المنطقة الإسبانية. وكان محاربو قسمة أشث محند يتمتعون بسمعة طيبة، وحضروا بمعية شيخ قبيلتهم لحركة سنة 1942، وتعتبر

244_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 5.

245_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 7.

246_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 7.

قسمة أشث عرو عيسى الأكثر قيمة من الناحية الحربية، دون أن نغفل بعض الإخفاقات الفردية.[247]

تنقسم قبيلة أيث عمارث، باعتبارها أصغر قبيلة جبلية بالمجال المدروس إلى أربع قسمات حسب موليياس، هي: أيث عبد الله وأيث سعيد وأيث أوذرار وأيث إغزار، وبكل قسمة 3000 من المشاة ليصل مجموعهم في القبيلة إلى 12000رجل. أهم المداشر بالقبيلة هي أعرقوب المكون من 500كانون وأگراوا المكون من 100كانون، وأمزاورو وبه 100كانون أيضا. هناك بالإضافة إلى هذه المداشر الثلاثة نحو ستين مدشرا صغيرا منتشرين في أرجاء القبيلة بها ما بين مائة كانون وعشرة كوانين.ويقدر موليياس عدد السكان في نحو ستين ألف نسمة، وذلك انطلاقا من عدد حاملي السلاح المقدر في12000[248] . ويتعارض هذا الرقم مع إحصائيات سلطات الحماية الإسبانية الأكثر دقة التي أنجزتها سنة 1945، والتي حددتها في 11801مسلم و 42إسباني و11 يهودي، أي ما مجموعه 11854نسمة.[249]

بلغت ساكنة قبيلة أيث ورياغر حسب موليياس الذي تفتقر معلوماته إلى الدقة ويطبعها الكثير من المبالغة، نحو مائتي ألف نسمة، على اعتبار أن عدد المقاتلين بها يناهز أربعين ألف رجل. وقد ذكر أسماء خمسة عشر مدشرا كبيرا، بها ما بين ألف كانون ومائة كانون، وأشار إلى وجود ما يزيد عن مائتي مدشر إضافي، بها ما بين مائة كانون وعشرة كوانين[250]، وحسب الإحصاء الذي أجرته إدارة الحماية الإسبانية سنة 1945م، فإن ساكنة أيث ورياغر كانت تقدر بـــ65890 مسلم و51 إسباني و14 يهودي و2 أجانب، أي ما مجموعه 65957 نسمة[251]، كما تفيد إحصائيات حسب الجنس في إعطاء صورة مختلفة عن طبيعة الساكنة، ونجد مثالاً عن هذه المعطيات حسب النوع بقبيلة إگزناين سنة 1937م، حيث تم إحصاء 7430 رجل و10081 امرأة، و8363 طفل و7918 طفلة، ما مجموعه 33792فرد، ويُلاحظ كيف كان عدد النساء أكبر من الرجال بسبب الحرب الريفية، في حين كان عدد الفتيات أقل نسبيا من عدد الأطفال الذكور.[252]

تتوزع ساكنة قبيلة إبقوين على قسماتها ودواويرها بشكل متفاوت، حيث نجد بمدشر أذوز 700كانون، وبإگار عياش بجزأيه العلوي والسفلي 200كانون، وبثافنسا 500كانون، وبإزمورن 500كانون، وحوالي 400كانون موزعة عبر قرى صغيرة. وقد قدر موليياس ساكنة هذه القبيلة في ذلك العهد بنحو 45000نسمة، اعتمادا على عدد المقاتلين المحدد في تسعة

247_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 5.

248_ Mouliéras (Auguste), Maroc Inconnu Exploration Du Rif, op. cit. pp. 125-126.

249_ *B.N.E.A.H., R.D., Territorio del Rif, N°1765,* Vademécum, Madrid, 1946. p.13.

250_ Mouliéras (Auguste), Maroc Inconnu Exploration Du Rif..., op. cit., pp. 94-95.

251_ *B.N.E.A.H., R.D., N°16065, El Rif,* La Zona Española, Madrid, 1940 .p. 15.

252_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, en date du 20 Mai 1941, p. 7.

آلاف[253]، نتائج إحصاء 1945الذي أنجزته إدارة الحماية الإسبانية تقدم لنا أرقاماً أكثر دقة، إذ حددتها في 11105مسلم و30 إسباني، أيما مجموعه 11135نسمة.[254]

عرفت قبائل الريف الأوسط بنية سكانية متذبذبة، نظرا لعدة عوامل أهمها وعورة التضاريس وندرة وسائل الإنتاج بالإضافة إلى الوضعية السياسية، وبفضل المصنفات الإخبارية تمكنا من جمع اشارات تهم تاريخ الاستقرار البشري وتعاقب الدول على منطقة الريف، كما أفادت التقارير الاستعمارية في جمع رصيد مهم من الإحصائيات الدقيقة حول المنطقة خلال القرن العشرين.

253_ Auguste Mouliéras, Maroc Inconnu Exploration Du Rif..., op. cit., pp. 93.

254_ *B.N.E.A.H., R.D., Territorio del Rif, N°1765*, Vademécum, Madrid, 1946.p. 61.

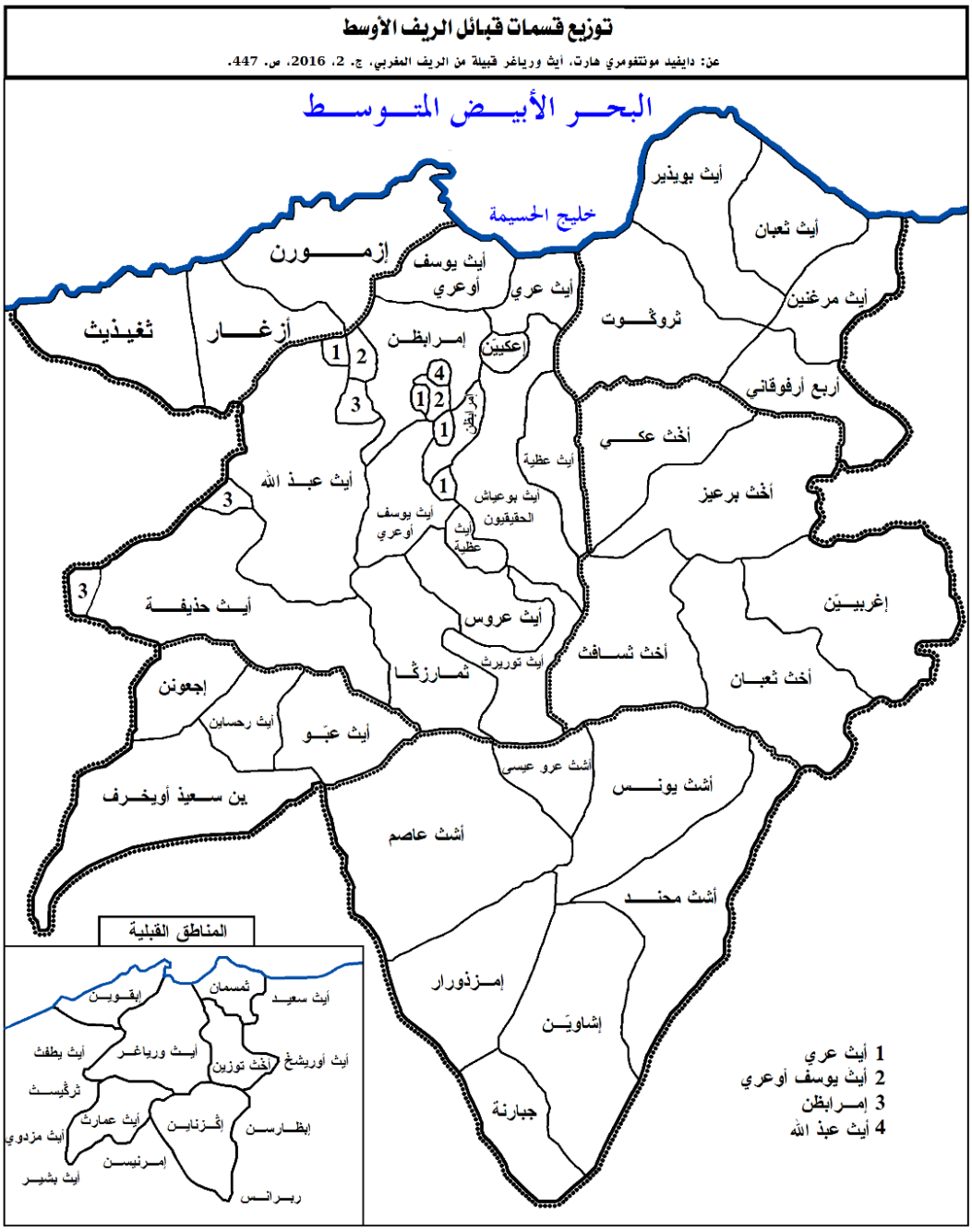

حظيت ساكنة الريف باهتمام من قبل القوى الاستعمارية، وأخضعتها غير ما مرة لإحصائيات دقيقة وأخرى عامة، ندرج أهمها:[255]

[255] _ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 32.

القبيلة	الإحصاء الإسباني 1929	الإحصاء الإسباني 1938	الإحصاء الفرنسي 1939
آيث عمارث	**7885**	**8012**	
آيث ورياغر	**39537**	**47629**	
إبقوين	**7079**	**10995**	
إگزناين			**35722**
آيث توزين	**21204**	**30443**	
ثمسمان	**24729**	**25568**	

كانت هناك إمكانية وضع تحديد دقيق لساكنة الريف الأوسط من خلال إحصائيات سنة 1945م من حيث معيار الديانة والعدد والمساحة التي يشغلونها، غير أن غياب أي إشارة بالنسبة لقبيلة إگزناين أفقدت هذه الإحصائيات أهميتها بالنسبة لدراستنا، وتبقى الإحصائية المضبوطة للريف الأوسط هي التي كانت سنة 1960م.[256]

الإقليم	القبيلة	مجموع السكان	المغاربة	الأجانب	الكثافة السكانية في الكلم^2
إقليم الحسيمة	**1-إبقوين**				
	جماعة الرواضي	**6702**	**6702**		**39**
	جماعة إزمورن	**5498**	**5488**	**10**	**56**
	مجموع سكان إبقوين	**12200**	**12190**	**10**	**48**
	2-آيث عمارث	**13246**	**13246**		**59**
	3-آيث ورياغر				
	جماعة آيث يوسف وعري	**15754**	**15705**	**49**	**166**
	جماعة امزورن وخميس إمرابظن	**8812**	**8772**	**40**	**71**
	جماعة آيث عبذ الله	**12710**	**12710**		**58**
	جماعة آيث بوعياش	**19825**	**19825**		**120**
	جماعة آيث حذيفة	**8442**	**8438**	**4**	**56**
	جماعة أربعاء توريرث	**10445**	**10445**		**38**
	مجموع سكان آيث ورياغر	**75988**	**75895**	**93**	**85**
	4-إگزناين				

[256] _ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م. س.، ج.1، ص. 32.

إقليم تازة	جماعة أكنول	12113	12102	13	22
	جماعة بورد	14996	14996		42
	جماعة ثيزي أوسري	14564	14555	9	26
	مجموع سكان إگزناين	41675	41653	22	30
إقليم الناظور	5- آيث توزين				
	جماعة إگارمارواس	14211	14211		73
	جماعة ميظار	14966	14936	30	84
	جماعة ثلاثاء أزراف	10692	10692		34
	مجموع سكان آيث توزين	39969	39839	30	67
	6- ثمسامان				
	جماعة ثروگوث	9809	9809		75
	جماعة بودينار	12827	12810	17	70
	جماعة خميس ثمسامان	14962	14962		157
	مجموع سكان ثمسامان	37598	37581	17	110
المجموع العام بالنسبة لقبائل الريف الأوسط		220576	220404	172	65

نستنتج أن قبائل أيث ورياغر وأيث توزين وإبقوين وأيث عمارث تضاعف عدد سكانها بين 19601929- م، وازداد سكان تمسمان، في حين سجلت قبيلة إگزناين زيادة بسيطة، وكانت قبيلة أيث ورياغر الأكثر تكاثرا ونموا نظرا لتوقف النزاعات الدموية بعد قدوم الإسبان وبسبب تزايد الإنجاب الذي يميز المجتمعات الإسلامية عموما، وقد خلق هذا التكاثر الكبير صعوبات جمة للورياغليين، حيث أرغمهم على البحث الدائم عن المجال، إذ أدى تقلص الأراضي الزراعية بهذه القبيلة إلى اتساع رقعة الفقر.[257]

نلاحظ ندرة فيما يخص المعطيات الإحصائية قبل فترة الحمايتين الإسبانية والفرنسية، ونقصا في عملية الإحصاء الدقيق للسكان بعدها، مع تسجيل بعض الاستثناءات أهمها بين 1928م-1930م، والتي سجلت بالحسيمة 6941نسمة، والناظور 3222نسمة، والملاحظ أن

[257] _ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 34-35.

الإحصائيات لا تشمل القرى، غير أن إسبانيا اهتمت بمؤشر النمو الديمغرافي فيما بعد وسجلت تطورا بخصوصه.[258]

اعترضت البنية الديمغرافية بالريف مجموعة من الإكراهات الجغرافية والاقتصادية التي حجمت من نسبة تطورها، بالإضافة عوائق الاجتماعية وحيثيات السياسية غيرت من مسارها الطبيعي، وقلصتها في كثير من الأحيان.

استمرت الحيثيات والظروف التاريخية التي أثرت على البنية الديغرافية بالريف بالذاكرة الجماعية، خاصة ما تعلق منها بالحملات التأديبية والمد الاستعماري وبروز ظاهرة الهجرة، منها ما وافق معطيات المصنفات التاريخية ومنها ما يجانبها في مجموعة من الوقائع نظرا لخضوع الذاكرة لمجموعة من المتغيرات الذاتية وتأثير عامل الزمن عليها.

[258]_ محمد أوحدو (2017)، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية نموذج قلعية، منشورات زمن، سلسلة شرفات، الرباط، ص.69 .

المبحث الثاني: البنية الديمغرافية بالريف الأوسط بين الواقع التاريخي والذاكرة الجماعية

أولا: معطيات تاريخية حول البنية الديمغرافية

لقد تعودت قبائل بلاد الريف الأوسط بشمال المغرب على الحياة الصعبة، والظروف القاسية التي فرضتها عليهم الطبيعة، إذ حاولوا التكيف مع جل الشروط، لتجاوز الفقر المدقع الناجم عن توالي فترات القحوط والمجاعات والجفاف، وما نجم عنها من مجاعات أودت بحياة الكثيرين منهم.[259]

فقد اجتهد سكان الريف من أجل ضمان سبل عيشهم أمام ندرة وسائل العيش بسبب قلة الأراضي الفلاحية، ومحدودية المناطق المستغلة من طرف الإنسان وتباعدها وانعزالها، وضعف خصوبة التربة المستغلة وصعوبة استغلال المجال الناجم عن قوة الانحدارات والتي تساهم الأمطار في جرف تربتها، بحيث يستحيل معها قيام نشاط فلاحي معيشي يساعد على انتشار الساكنة بالمنطقة على غرار باقي المناطق المغربية الأخرى، إذ تساهم التساقطات الثلجية في بعض القمم في عرقلة الحياة القروية، كما يلحق تواتر الصقيع أضرارا فادحة بالمنتجات والمزروعات.[260]

أثر المناخ وفترات الجفاف وتردد المجاعات الناتجة عن سوء المحاصيل الزراعة وتسلل الإمبريالية داخل الريف على النمو الديمغرافي وتكريس البؤس، مع انتشار الفقر وخلق مقدمة اجتماعية واقتصادية لنشوء المجاعات وقلب موازين نظام التغذية عن طريق الرفع من مستوى العيش وخلق هوة بين الفئات الاجتماعية واتساع طبقة الفقراء الذين اقتاتوا على الأعشاب.[261]

وأضحت الكوارث الطبيعية، وعلى رأسها الأوبئة والمجاعات اجتاحت المنطقة باستمرار، مسألة بنيوية في تاريخ الريف، وهو ما أثر سلبا على البنية الديمغرافية وتراكم الإنتاج المنشّط للتبادل التجاري، حيث كانت القبائل الريفية تحاول تأمين احتياجاتها في ظل تعطل الأسواق الأسبوعية التي كانت من بين الأسباب المباشرة لانتشار الأوبئة بالمنطقة ،ومنها على سبيل الذكر لا الحصر؛ وباء الكوليرا الذي ظهر بأيث توزين وثفرسيث في شهر شتنبر من عام 1878م، وانتقل إلى قلعية وكبدانة مع بداية أكتوبر من نفس العام، عن طريق ارتداد نفس الأسواق.[262]

---

[259]_ جرمان عياش (1992)، **أصول حرب الريف**، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمسماني، الشركة المغربية المتحدة، الرباط، ص..97

[260]_ لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم...، م.س.، ص. .80

[261]_ ميمون أزيزا- محمد أحميان، «القحوط والمجاعات في الريف المعاصر...، م.س.، ص. .247

[262]_ محمد أحميان (2018)، الريف والبحر الأبيض المتوسط ،**1830-1926** مجلس الجالية المغربية بالخارج، الطبعة الأولى، الرباط، ص..452

انظر أيضا:

- محمد الأمين البزاز (1992)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب بالرباط، ص..267

لقد مر الريف بمجموعة من المجاعات التي كانت سبباً في خلخلة طبقات ديمغرافية مهمة من نسيجها الإنساني، وأودت بحياة مجموعات بأكملها، مما جعل الريفيين يستنجدون بالمخزن .[263]إلا أنه رغم ذلك استمر انتشارها وظهرت أنواع أخرة منها الجذري والكوليرا والتيفوئيد الذي أوذى بقسم هام من الثروة البشرية والحيوانية، حيث شهد الريف نزيفاً ديمغرافياً، أمام صعوبة تعويض الأجيال المفقودة جراء هذه الأوبئة. خصوصا وأنها نالت من الراشدين الذين كانوا يشكلون قوة النشاط الإنتاجي، فتضرر بسبب ذلك الإنتاج في سنوات الأوبئة هذه، وتراجع عدد المواليد الذي سينعكس بشكل سلبي على مستقبل الأقاليم الريفية التي ستتمظهر بعد وصول هذه الفئة العمرية إلى سن الخصوبة والزواج.[264]

لقد أرغمت المجاعات والأوبئة بالريف عدداً من الجماعات السكنية على الفرار من قبائلهم، خاصة الوافدين من اليهود الأوروبيين والتجار، حيث أجبر انتشار وباء سنة 1869م مجموعة من الأسر الريفية إلى الهجرة نحو تطوان وطنجة تاركين أراضيهم ومنازلهم[265]. وذكر ابن سودة أن أهل الريف اتجهوا إلى فاس وفضل البعض الآخر الاتجاه نحو الثغور المحتلة، ونحو الجزائر خاصة خلال فاجعة 1882-1878م.[266]

أثرت ندرة الموارد الاقتصادية، والكوارث الطبيعية المتمثلة بالأساس في الجفاف على الخريطة الديمغرافية بالريف الأوسط، في شح بعض المواسم الزراعية، حيث هلك عشرات الآلاف من الضحايا خلال فترات المجاعة التي شهدها القرنان التاسع عشر والعشرون.[267]

وحفظت لنا الذاكرة الجماعية من خلال تداول الأمثلة الشعبية بالريف، مجموعة من الإشارات حول الأمراض المنتشرة، نستحضر منها على سبيل المثال؛ مين يقيمن خبوحمرون ذكمراس ذزارزاشث. بمعنى؛ ما تبقى من مرض الحصبة أتى عليه الجذري[268]، مين إزايدن خرمشدجفا ذكمراس ذرجيجاشث بمعنى؛ ما نجا من التيفويد أتت عليه الرجفة.[269]

نجد إشارات رقمية عبارة عن إحصاء للمرضى حسب الجنس والداء ضمن الأرشيف الإسباني، وتفيد أن الأمراض نفسها عرفت استمراراً في الريف، والنموذج من قبيلة أيث ورياغر لسنة 1932م، حيث سجلت 2315مريض ذكر و1948 أنثى، بالإضافة إلى 1004 إصابة بالجذري و42 بالتيفوئيد و22 حالة اختناق و15 حالة لداء الكلب، فيما سجل المختبر 490

263_«وصل كتابك مخبرا فيه بعدد من ورد من آل الريف130 في المركب، وذكرت (...) احتياج هؤلاء إلى ما يعتقون به أنفسهم»، رسالة من السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان إلى نائبه محمد برگاش، بتاريخ 4 ذي القعدة 1284 موافق لـ 27 فبراير 1868. انظر:
- أحميان (محمد)، الريف...، م.س.، ص. 453.
انظر أيضا:
- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة...، م.س.، ص. 205.

264 _محمد أحميان، الريف...، م.س.، ص. 454.

265 _نفسه، ص. 453.

266 _مصطفى بوشعراء (1984)، «الجوائح والقواصم ،«**مجلة دار النايبة**، العدد الثاني، طنجة، ص..36

267 _ميمون أزيزا -محمد أحميان، «القحوط والمجاعات في الريف المعاصر...، م.س.، ص. 245.

268- محمد ميرة (2009)، **الأمثال الشعبية في الريف**، مطبعة الشرق، وجدة، ج.1، ص..146

269- إدريس أضوض (2012)، **ألف مثل أمازيغي ومثلان**، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص..86

عملية تحليل للدم، و326 حالة لتصفية الدم[270]، بالإضافة إلى أمراض أخرى بنسب قليلة مثل اللوكيميا أو سرطان الدم.[271]

ولم يخل الريف من الأمراض الجنسية، أهمها السيفليس أو الزهري المسمى بالمناطق المغربية النوار، الذي تم رصده بمجموعة من القبائل الريفية أهمها ثمسمان وأيث توزين وإبقوين وأيث ورياغر، وحسب إحصائيات إدارة الحماية الإسبانية سجلت 1000حالة سنة 1914م، منها حالات مؤكدة، وأخرى بدت عليها التقرحات الجلدية، بالإضافة إلى حالات مكتسبة، كما سجلت نفس التقارير أمراض مزمنة مرتبطة بالعظام والمفاصيل، وهي نتيجة للوضع المناخي وضعف وسائل التكيف معه بقبائل الريف[272]. كما أثرت المجاعات على بنية السكان بالريف الأوسط، حيث شهدت سنوات 1947-1944م ارتفاعاً مهولاً على مستوى الوفيات خاصة بقبيلتي أيث توزين وثمسمان.[273]

وقد ساهمت مجموعة من العوامل في إعاقة النمو الديمغرافي بالريف لعل من أهمها المتعلقة بالحروب المستمرة بين القبائل وانعدام الأمن، والعوامل السياسية من قبيل قمع الثورات الداخلية وتجريد الحملات التأديبية التي كان يقوم بها المخزن من حين لآخر، عندما تمتنع القبائل عن دفع الضرائب وتقديم الجنود للجيش، والعوامل الطبيعية منها الكوارث الطبيعية والمجاعات وانتشار الأوبئة، والعوامل الاقتصادية المتمثلة في قلة الموارد وندرة وسائل الانتاج، حيث أن أهل الريف هم أول سكان العصر الحديث الذين تعاطوا الهجرة إلى الجزائر أولا ثم إلى أوروبا ثانيا.[274]

غير أن مسار الهجرة أو التهجير بالريف بدأ تحديدا منذ العصر الحديث[275]، على يد المخزن الذي كان يعتمد على الريفيين في تعمير المدن المهددة بالغزو أو الانقلاب على السلطان، إذ شكل الريف على المستوى الاجتماعي مخزونا بشريا مهما وأكثر تماسكا، لجأت إليه السلطة المركزية

270_ *B.N.E.A.H., R.D., Territorio del Rif, N°1765,* Vademécum, Madrid, 1946.p. 61.

271_ José Valdés Lambea (30 Julio 1915), « Contribución al estudio de la sífilis en el Rif, Revista C*línica de Madrid,* Número 14, Año VII, Madrid, p. 47.

272_ L.Urruria (30 Julio 1915), « Sobre El tratamiento de la leucemia por el benzol, Revista *Clínica de Madrid*, Número 14, Año VII, Madrid, p. 53.

273_ ميمون أزيزا -أحميان محمد، «القحوط والمجاعات في الريف المعاصر...، م.س.، ص. 263.

274_ لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم...، م.س.، ص. 90.

275_نجد إشارات حول الهجرة الريفية لأسباب سياسية تسبق العهد العلوي، إذ يتحدث الطيبي مثلا، عن الضرورة السياسية التي دفعت الساكنة إلى الهجرة منذ العهد الوطاسي »عندما طلب مورسكيو غرناطة النازلين بالقرب من تطوان من السلطان المولى محمد الشيخ الوطاسي إقطاعهم موضعا لبناء منازلهم وحماية أنفسهم من غارات القبائل المجاورة لهم. ولبى السلطان المولى طلبهم فعين لهم مدينة تطوان المخربة بسبب الغارات الإسبانية موضعا لسكناهم«. وقد أدى استمرار عداء القبائل المجاورة للأندلسيين المستقرين بالمدينة بالقائد أبي الحسن المنظري إلى تقديم شكاية لعلي بن راشد الذي استقدم أربع مائة مقاتل من الريف لحفظ الأمن. لم تتوقف هجرة الريفيين إلى شمال المغرب، حيث تكونت حومة خاصة بهم شمال شرق مدينة تطوان، وشكل الجيش الريفي الدعامة الأساسية لتحرير الثغور في العهد الإسماعيلي، وتم ترحيل الريفيين لتعمير المناطق المحررة، كما حدث في منطقة الفحص في أواخر القرن السابع عشر، وهو ما نستشفه من أسماء المواقع هناك كمرسى بني ورياغل مثلا. اقتنى الريفيون أراض في هوامش طنجة، كما فعلت عائلة الباشا عبد الصادق الريفي التي لعبت دورا هاما في قيادة المجاهدين. وقد ساهمت هذه الهجرات في تحقيق نوع من التوازن الديموغرافي بين الجهات وتقليص نفوذ الريفيين. انظر:

-عبد الرحمان الطيبي (2008)، **الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط 1860-1912**، منشورات تفراز، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 103.

لتعمير المناطق الأخرى، ونذكر كمثال حالة تعمير تارودانت بالريفيين المستقرين بفاس عام 1687م .[276]

لقد بلغ الأمر حفاظا على تماسك المجموعات الريفية في المنطقة إلى تعيين رجل منهم باشا على تارودانت وهو عبد الملك الخطيب الريفي عام 1687م، علما بأن حضور القواد الريفيين كان أقوى في الشمال المغربي، حيث ترسخ مع قواد من أمثال أحمد بن علي الريفي الذي عين عاملا على الفحص وبلاد غمارة.[277]

واعتمد السلطان المولى إسماعيل على أهل الريف لتعمير مدينة العرائش، وأمر قائدهم أن يبني بها مسجدين وحماما وداره بقلعتها[278]، وفتح سنة 1692م مدينة أصيلا وعمرها أهل الريف أيضا، وبنى بها قائدهم مسجدين ومدرسة وحماما وبنى داره بقلعتها.[279]

وتسببت الحملة التأديبية ضد قبيلة إبقوين التي قام بها المخزن على العهد العزيزي، متذرعا بقيامها بأعمال قرصانية ضد البواخر الأوروبية، في هجرة جماعية لأهالي هذه القبيلة، فانتشروا في مختلف أرجاء الريف وانتقلوا كذلك إلى الجزائر. ونورد مثالا على ذلك توجههم إلى بني بوفراح ومدشر المعارط بالتحديد، والهجرة نحو وهران بعدما نقلت فرنسا نحو ثمانية وخمسين عائلة بقيوية على متن باخرة الأمير سنة 1898م، وهي نفس سنة الحملة التأديبية.[280]

شهد الريف بعد ذلك خلال القرن التاسع عشر هجرات خارج البلاد بشكل موسمي خاصة نحو الجزائر، وذلك راجع لعدة أسباب أهمها اقتصادية[281]، وقد اضطر الريفيون للهجرة منذ عهود سابقة امتدت منذ القرن الخامس عشر إلى بداية القرن العشرين، من أجل المصلحة العامة أو نتيجة الجفاف والأوبئة، وضعف الموارد الطبيعية[282]، واستهدفت الهجرات تموين الحروب ضد المخزن والثوار والاستعمار.

شهد الريف الشرقي بعد أحداث سيدي ورياش، معارك أخرى ضد الجيلالي الزرهوني، بهدف اجتثاث وجوده بقلعية، أو خلال مواجهة الاحتلال الإسباني بعد ذلك. وقد دفع تواصل

276_ورد بالمصادر «قدم على السلطان المولى ولده محمد العالم مع علماء فاس يهنئونه بالفتح وقدم عليه وفود أهل المغرب للتهنئة وأمر بخروج أهل الريف الذين بفاس يأتون لسكنى تارودانت». انظر:
- أحمد أبي القاسم الزياني (1884)، **الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين من أولاد مولانا الشريف بن علي من كتاب الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، مطبعة الجمهورية، باريس، ص..21

277_ علي مزيان (2017)، «بطوية ودورها في الحياة السياسية بالمغرب خلال العصر الحديث ،«**مجلة الذاكرة**، العدد الثاني، مركز الريف للتراث والدراسات والأبحاث، الناظور، ص. .44

278_ أحمد بن خالد أبو العباس الناصري (1997)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ج.1، ص..74

279_ نفسه، ص. .77

280_ عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..105

281_كانت الأسباب الرئيسية للهجرة الريفية نحو الجزائر ذات طبيعة اقتصادية، تتمثل في انعدام التوازن بين الأراضي الصالحة للزراعة والكثافة السكانية المتنامية في الريف، وتقلب الاقتصاد الفلاحي بالريف أمام قلة الأراضي الخصبة وهاجس الجفاف، ثم قلة فرص الشغل مقابل وفرة اليد العاملة. وقد أطلق عليها الإسبان الهجرة حسب نموذج الخطاف emigración tipo golondrina، حيث كانت تدوم ستة أشهر سنويا وتعرف ذروتها بين شهري فبراير وأبريل. رحب الفرنسيون بالمهاجرين الريفيين الذي كانوا يفضلونهم مقارنة مع الجزائريين. من المعلوم أن الريفيين سبق لهم أن هاجروا من أجل العمل إلى طنجة والعرائش ومنطقة الغرب وفاس. انظر:
_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. .131-130

282_عبد الرحمان الطيبي ،الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..103

المعارك الريفيين إلى الاشتغال في الضيعات الجزائرية بعد نهاية عملية الحصاد، لإعانة الثورة الريفية ضد الإسبان.[283]

رغم ضعف وسائل الإنتاج بمنطقة الريف والمتمثلة في قطعة أرضية بسيطة، والمحراث والدواب أو زوج الدابة "ذيويا" التي كان يعتبر مالكها غنيا[284]، وتمكن السكان من سد حاجياتهم الغذائية من المنتجات الزراعية والحيوانية في كثير من الأحيان، وتجاوز ذلك إلى تحصيل فائض من الإنتاج وتوجيهه إلى الأسواق المحلية أو التبادل الخارجي أو تبذيره في المواسم المقامة في الزوايا والأضرحة (وهذا أمر نادر في الريف)، وأحيانا كثيرة حدث خصاص في المواد الغذائية الأساسية، نتيجة لاجتياح موجة من الكوارث الطبيعية، أو حصول حركة مخزنية ضد قبيلة معينة، أو نشوب حرب أهلية، أو خوض حرب مع المحتل الأجنبي، وأدى العجز الغذائي إلى استهلاك بعض الأسر لمدخراتها من المحاصيل السابقة، أو لاستدانة الشعير من طرف بعض الأسر الميسورة مقابل رهن أملاكها أو بيعها، وخاصة للأسر الشريفة والمرابطية[285]، فيما فضلت بعض الأسر الهجرة نحو مناطق أخرى إما داخل التراب الوطني في المغرب، أو إلى الجزائر خاصة بعد وقوعها في يد الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، ونهاية مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، وذلك للعمل في ضيعات المعمرين.[286]

شكل النمو الديموغرافي أحد أسباب الهجرة الريفية وكان أكثر حدة في منطقة الريف الشرقي على وجه الخصوص، إذ كان عاملا مساعدا على انتشار العنف وظاهرة الثأر، حيث أصبحت الهجرة وسيلة لاستقدام السلاح وتصفية الحسابات الشخصية، واشتغل الريفيون بمثابة عمال زراعيين في أراضي المعمرين الفرنسيين، بالإضافة إلى قيامهم بإعداد الخمور عبر عصر العنب، فيما صرفوا جزءًا من أرباحهم لاقتناء الأسلحة بهدف حماية أنفسهم والاستعداد للحروب، وقد أعقبت هذا النوع من الهجرة هجرة أخرى نحو أوروبا.[287]

ساهمت عوامل أخرى في ظل ضعف السلطة المركزية، على غرار العوامل الاجتماعية والسياسية والصراعات القبلية، واحتلال بادس ونكور، في الدفع بالأسر الريفية إلى الهجرة إلى مناطق آمنة.[288]

مثل الفقر أهم عوامل الهجرة الريفية، خاصة خلال الثلاثينات من القرن العشرين، حيث عرف الريف اجتماع القحط والحرب، ما اضطر العديد من الأسر الريفية إلى الهجرة نحو المدن الشمالية، وعلى رأسها مدينة طنجة. وقد اضطر المهاجرون للتنقل إلى هذه الحواضر مشيا على الأقدام، ودفن ضحايا المجاعة في أي مكان وافت أحدهم المنية على طول الطريق[289]، لم تتمكن قبيلة إگزناين مثلا، من سد الحاجيات الغذائية لسكانها، ما جعل الهجرة

---

283 _محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص.51 .

284_ Émile Laoust (1918), « Le nom de la charrue et de ses accessoires chez les Berbères», *Archives Berbères*, Publication du Comité d'Études Berbères, Rabat, Volume3, pp. 51-54.

285_ Mimoun Aziza (2003), *La sociedad rifeña frente al protectorado español de Marruecos 1912 - 1956*, Ediciones Bellaterra, Barcelona, p. 33.

286 _Ibid, p.43.

287 _محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص.95 .

288 _عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..103

289_ Mohamed Choukri (1979), **Le Pain nu**, Traduit par Tahar ben Jelloun, Paris, p .I.

الجزائرية تجذب اليد العاملة الوفيرة بهذه القبيلة، وسجلت سنة 1939هجرة 4000عامل على الأقل، وقد ساهم هؤلاء في رفع مستوى عيش القبيلة من خلال إمداد عائلاتهم بالمساعدات، ولم تسجل الهجرة نحو المدن المغربية سوى نسبة 500عامل.[290]

كان لظاهرة الهجرة دور كبير في الكشف عن صعوبات العيش في الريف، وضعف الموارد الاقتصادية بالمنطقة، والفترات العصيبة في الحياة المعيشية نتيجة الجفاف والقحط والمجاعة، وكان لانتشار هذه الظواهر انعكاس خطير على المستوى المعيشي والديمغرافي المحلي، إذ حاول السكان البحث عن مخرج بالتنقل إلى مناطق غير الريف للتخفيف من حدة هذه الصعوبات وضمان لقمة العيش، لذا تفشت ظاهرة الهجرة.[291]

ثانيا: رواسب الهجرة في الذاكرة الجماعية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

يمكن تحديد بداية هجرة الريفيين للعمل غرب الجزائر والسهول الغنية بوهران بتاريخ 1880م، وربما مباشرة بعد دخول فرنسا إلى الجزائر، وكانت البداية مع بني يزناسن ثم »إقرعين» ثم الريف الأوسط، إلى أن توقفت سنة 1962بعد استقلال الجزائر. وعرفت الهجرة الريفية ذروتها قبل مرحلة التهدئة بالريف من طرف القوتين الإسبانية والفرنسية المتحالفتين، وعمل الوضع الاقتصادي الهش على رفع وتيرتها مرة أخرى عقب جفاف سنة 1945م، إلى أن أغلقت فرنسا الحدود سنة 1955بسبب الحرب الجزائرية.[292]

تردد الريفيون على بلاد الجزائر في إطار مجموعات مشكلة من قبائل الريف الأوسط بقيادة كبير العمال " المتعاقد" عبر منطقة عين زهرة (عين زورة) بـ»إبضارسن»، بحثا عن العمل في الضيعات التي ساهم في تأهيلها المعمر الفرنسي خصوصا بمنطقة وهران، ويرجع تاريخ هذه الظاهرة إلى سنة 1852م التي عُرفت في تاريخ بلاد الريف بظروف عيش قاسية، بسبب قلة الموارد، والجفاف المتردد الذي أدى إلى ظهور العجز الغذائي.[293]

لقد ساهمت هذه الهجرة في إنعاش الحياة الجماعية لعائلات المهاجرين، حيث تمكنوا من تحويل مدخراتهم من الأموال عبر وسائلهم الخاصة، وعلى غرار عملهم في الضيعات الفلاحية بالجزائر، اشتغل عدد منهم في تجارة التهريب في ظروف جد صعبة.[294]

تحكمت في عملية تنظيم الهجرة إلى بلاد الجزائر مجموعة من الشروط والتنظيمات، وتميزت بمجموعة من القيود عندما دخلت السلطات الاستعمارية الفرنسية والإسبانية على الخط، بحيث لم تكن تسمح بها إلا للمتمتعين بالسلامة الصحية، ويتم ذلك عبر تقييد المرشحين في لوائح خاصة يشرف عيلها المقدم أو الشيخ ببلاد الريف وخصوصا بمنطقة إگزناين. وقد

290_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli,* Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 12.

291 _عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..171

292 _دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .130

293 _ نفسه، ص. .132

294 _نفسه ص. .134

ساهمت في نسبة ارتفاع عدد المهاجرين الريفيين إلى الجزائر مدودية النشاط الزراعي بالريف.

لقد كان تنسيق عملية الهجرة من أجل العمل في بلاد الجزائر تلقائيا عند ساكنة بلاد الريف، حيث تم الحفاظ على نظام الفريق من أجل العيش في شبه حنطات عمالية قبلية احترمت بشكل كبير الانتماءات القبلية، ونالوا ثقة فرنسيي الجزائر فأسندوا إليهم مسؤولية الإشراف على فرق العمال وزودوهم بسلاح المراقبة. وقد توزع الريفيون في مجموعة من المهن الفلاحية بشكل متنظم، إذ التحق بقسم المقاولات إقرعين وآيث سعيد وإبظارسن، واشتغل عمال آيث ورياغر وآيث عمارث وإگزناين كمياومين بالمزارع أو كحراس بالضيع الكبيرة بينما اشتغل التمسمانيون والتوزينيون مياومين في الأعمال التي تسند إليهم حسب الحاجة.[295]

لم يتجاوز أجر العامل الريفي في ضيعات المعمرين الفرنسيين 345فرنك إلى حدود سنة 1953، وهو أجر أحسن بكثير مما كانوا يتقاضونها داخل المنطقة الإسبانية في الريف والذي لم يتجاوز 16بسيطة في اليوم. وقد ارتفع هذا الأجر بعد هذا التاريخ إلى 420فرنك فرنسي، أي 42بسيطة. وكان العمال الريفيون يشتغلون يوم الأحد للحصول على الأجر ونصفه أي 630فرنك، كما كانوا يُكافؤون على الإنجاز السريع للعمل، في حين كان دور العمال المتعاقدين يُختزل في مراقبة العمال ووضعهم في المكان المناسب لإنهاء عمل سبق أن حدد ثمنه مع المعمر. كانت أجرة المتعاقد في حالة العمل بالمقاولة تناهز 3000فرنك للهكتار للعمل في حقول العنب، و6000 فرنك للهكتار بالنسبة لحقول القمح، و200 فرنك للمتر المربع بالنسبة لأشغال البناء وشق الطرق، و150 فرنك للشجرة الواحدة فيما يخص التشجير. وكان المتعاقد يتقاضى 1000فرنك في اليوم بالنسبة إلى الأشغال بالمياومة. كانت من ضمن مهامه القيام بدور الوساطة بين العمال تحت مسؤوليته وأرباب العمل، والحرص على أدائهم لفواتير التأمين والعلاج، وتحديد سكنهم الذي كان يوفره المعمرون، علما بأن توزيعهم بهذا الخصوص كان يتم حسب انتمائهم القبلي أيضا.[296]

كان معظم العمال الريفيين متزوجين، وعمل بعضهم من المنتمون للريف الشرقي على أخذ زوجاتهم وأبنائهم والعيش في البيوت المخصصة للعائلة في بلاد المهجر، في حين فضل المنتمون إلى الريف الأوسط ترك عائلاتهم بالريف، وهذا مظهر من مظاهر المحافظة الذي يميز أهالي الريف الأوسط، ويلاحظ مظهر آخر لهذه المحافظة في إعجاب هؤلاء بالطريقة الدينية العلوية وانجذابهم إلى تعاليمها، نظرا لما تحتويه من محافظة ورزانة وصرامة حسب ما جاءت به التقارير الفرنسية. وقد تأثر الريفيون بهذه الطريقة الدينية، خصوصا منهم الذين كانوا يشتغلون في مستغانم حيث كان مقر هذه الطريقة وجلبوا تعاليمها إلى الريف. كانت علاقتهم جيدة مع المعمر الذي كان يفضل خدمتهم باستمرار.[297]

---

[295] _دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 134.

[296] _نفسه، صص. 135-134.

[297] _ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.7.

وعرفت الهجرة الفردية نحو الجزائر انتشارا واسعاً، وذلك بشكل موسمي لأنهم شغلوا ميدان الفلاحة، وكان هذا النمط من الهجرة يحتاج إلى الضمانة تحت رئاسة فرد منهم يكلف بالمجموعة المكونة من ثمانية إلى عشرة أفراد، وكان عدد المهاجرين والمكسب المادي يزداد كلما كانت أشغال الفلاحة كثيرة بالديار الجزائرية.[298]

تميزت هجرة الجماعات بالتماسك التقليدي الذي شكل حماية لها بكل ما قد يمس بمصلحة هؤلاء العمال، غير أنها لم تَخلُ من عيوب أهمها، ميل المكلف بالمجموعة في غالب الأحوال إلى الجشع والرغبة في الاحتفاظ بأجور العمال، خاصة إذا كان بدون عمل، وتعددت الشكاوى ضدهم عند العودة من العمل الفلاحي، إذ لم تكن للمكلف بالمجموعة أية سلطة تفوق مهمة تسهيل عملها.[299]

عرفت القبائل الساحلية أيضا ظاهرة الهجرة الموسمية نحو الجزائر، كما كان الشأن بالنسبة إلى إبقوين، هذه القبيلة التي انتشر أهاليها في مختلف الأرجاء، وقد استقرت بعض الأسر منها بطنجة والريف الشرقي منذ حملة البغدادي سنة 1898م، حيث نجد مثلا مدشرا كاملا يحمل اسم إبقوين في أيث بويفرور بإقرعين. وقد ساعد موقع إبقوين الجغرافي ومرور القوافل التجارية والسفن البحرية في تنشيط الهجرة بهذه القبيلة، كما كانت عمليات الثأر المنتشرة بالريف من أسباب الهجرة النهائية[300]. إلى حين تنفيذ هجوم جيش التحرير على ثلاثة مواقع بإگزناين يوم 2أكتوبر 1955م، والذي كان بمثابة إعلان عن نهاية الهجرة الريفية نحو الجزائر، وعادت من جديد بشكل ضعيف ومتقطع بين 1956-1962م، إلى أن أخذ الريفيون وجهة جديدة تمثلت في الهجرة إلى أوروبا.[301]

قدمت السلطات الفرنسية بواسطة حاكمها العام بالجزائر دعماً مادياً لأهل إبقوين المهاجرين، من أجل القيام بعمليات تجارية مع الجزر الجعفرية.[302]

اتجه سكان أيث توزين شأنهم شأن باقي سكان القبائل الريفية للهجرة الموسمية نحو وهران، وكان ذلك مرتين سنويا خاصة بين شهري ماي ويونيو، خلال موسم جمع المحاصيل الزراعية وجني العنب. وكانت وسائل المواصلات البحرية القليلة من حجرة النكور ومليلية تسهل عملية التنقل نحو وهران من أجل العمل. وأحيانا كانت الهجرة وجهة للفارين من نزاعات الثأر.[303]

---

[298]_ *A.D.N., Fonds Maroc Protectorat, Série 12MA/280/61,* dossier N°2, Rapport du Capitaine Brenguier, poste du Tizi ouzli, 1941, p. 1.

[299]_ *A.D.N., Fonds Maroc Protectorat, Série 12MA/280/61,* dossier N°2, Rapport du Capitaine Brenguier, poste du Tizi ouzli, 1941, p. 2.

[300]_ أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 81.

[301]_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 138.

[302]_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.8.

[303]_ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, p.43.

استقبلت قبيلة إگزناين هجرات ضعيفة جدا نظرا لفقر المنطقة، وعدم قدرتها على سد حاجيات سكانها الأصليين، باستثناء بعض الحالات القديمة، والتي وفدت من المنطقة الإسبانية المجاورة، عكس الهجرة الموسمية إلى خارج القبيلة التي سجلت الحيز الأكبر في إحصائيات الهجرة، وكانت البداية مع قسمة أشث عرو عيسى قبل أن تشمل باقي القسمات لاحقا. وبما أنها ارتبطت أساسا بالفلاحة فقد كان ارتفاعها وانخفاضها رهين بالمردودية السنوية وكمية الإنتاج، حيث سجلت أضعف نسبة سنة 1942م، وبالنسبة للمهاجرين الدائمين بلغ عدد العمال في الجزائر خلال نفس السنة 1322رجل، وعدد المنتقلين إلى المناطق المغربية، أو ما يُطلق عليه في الريف اسم «الغرب» وتنطق «رغاب» في الريف بالمناطق المغربية 1061، من عدد إجمالي للساكنة يبلغ 11435تقريبا، والذي تزايد ما بين 1946-1945إلى 13000تقريبا. وخلال فترة المجاعة هذه عرف السلم الديمغرافي توقفا تاما، وتوفي عدد من الشيوخ والشباب والأطفال ما جعل نسبة السكان تنخفض من جديد إلى ما يقارب11400 نسمة.[304]

هاجر أهالي إگزناين نحو الجزائر بكثرة أفرادا وجماعات، وبنسبة أقل إلى المناطق المغربية الأخرى أو «الغرب»، وخلال الهجرة إلى الجزائر استقروا هناك مع تخصيص بضعة أيام لزيارة عائلاتهم بالقبيلة.[305]

استفاد العمال المهاجرون المنتمون إلى إگزناين من حقوقهم وحصلوا على أجورهم كاملة، حيث كان أرباب العمل يقدرون جودة عملهم ولا يسعون لاستغلالهم، وساهمت الملكيات المشتركة بين العمال وأرباب العمل في منح الاستقرار لأهالي إگزناين ومنع انحرافهم السياسي والاجتماعي وجعلهم في تواصل دائم مع الفرنسيين الجزائريين.[306]

وشمت ظاهرة الهجرة الذاكرة الريفية بمجموعة من الانطباعات، تجمع بين الشوق والحنين إلى الريف وأهله، والاضطهاد والقسوة المعاشة ببلاد المهجر، ووقع الهجرة على عائلات المهاجرين وتأثير ذلك عليهم.

كما عانى الريفيون وهم في بلاد المهجر من اضطهاد المدن المستقبلة من حيث الاستهزاء بلغتهم الأم في ظل عدم دراية المهاجرين الريفيين بالدارجة المغربية، والإحساس بالحاجة وضرورة حفاظهم على خصوصياتهم الثقافية وجذورهم الريفية.[307]

وخلفت ظاهرة الهجرة تراثاً غنياً نقل معاناة المهاجرين عبر صور فنية توارثتها الأجيال، ومن خلالها حافظ الريفيون على تأريخهم التلقائي لمعاناتهم خارج وداخل حيزهم الجغرافي،

304_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 7.

305_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* N°606, Confidentiel, Rapport du Capitaine Brenguier chef du poste des affaires indigènes de Tizi ouzli, des Djmaas de Centre ouvriers, poste du Tizi ouzli, Le 27 Décembre 1950, p.1.

306_ *A.D.N., Fonds Maroc Protectorat, Série 12MA/280/61,* dossier N°2, Rapport du Capitaine Brenguier, poste du Tizi ouzli, 1941, p.3.

307 _شكري محمد (2001)، «أنا وليد لغة تستضيفني إن لم أقل أنا لاجئ فيها ،«**مجلة مجرة**، العدد السابع، مراكش، ص..69

وتمكنت الصور الشعرية من نقل مأساة وفقر الريف وحنين الأسر لأربابها المهاجرة، ونقل مشاعر الريفي خارج موطنه الأم.

إذ وصف الشاعر هذا المشهد المأساوي من خلال الأبيات الشعرية التي تقول: أوذارْغ أذسوْغ ذوزّغ خافي ذارا مين زْريغْ التيفقّاع مين زريغ التمارا إفقوسن ذْگور أرّينانْغ ذي رْحارا هاجاغْ ذامو(ر)ث إينوا تلعاغ أبارا. بمعنى؛ انحنيت للشرب جف الينبوع، كم عشت من المصائب والإجهاد، والهموم التي تكدست في القلب جعلتنا في أحوال سيئة، هاجرت أرضي وذهبت خارجها. ذمشوندا نرغروبيث ذگور إنو ذْغزا سنسغ سادو إرقنضاث ذي گذْفرذونْزا)ر(. بمعنى؛ انغرست الغربة في قلبي، وأمضيت ليالي الثلج والشتاء تحت الجسور. قاغاس أربي ميمي هاجاغ ذي ذمورا نبارا أذعقبغ غا ذمو)ر(ث إينو سيري إنو ذازيرا ماني ذدجا ذفوشث ذوجنّا ذا زيزا بمعنى؛ أقول يا إلهي لماذا هاجرت لبلدان الخارج، سأعود لأرضي برأس مرفوع حيث توجد الشمس والسماء زرقاء.[308]

ينقل لنا الشاعر فقر المنطقة من خلال البيت التالي: بابا رامي يموث يجايد إج نذقيراط إنّاي غاك أتويو)ر(ذ أمينو قيم حْظاط مين غاحْظيغ ذگوزرو وايْعدر إظحواط توغات تاذوكاند يوثا ونزار يساهْوات. بمعنى؛ حين مات أبي ترك لي قطعة أرضية، قال لي: "يا بني لا تهاجر واعتني بها"، كيف لي أن أعتني بصخرة غير صالحة للزراعة، كانت عبارة عن مصطبة جرفتها مياه الأمطار.[309]

لم تغفل الذاكرة الجماعية بؤس الريف وأسباب الهجرة، إنايي آياريف مايذييذ ذاروا الناش كورشي يويو)ر(يخْرا ذقّيمذ غاوحذش، قلي أيها الريف أين أولادك الكل هجرك وبقيت بمفردك، دورذْ أم الصحرا ذوزغ مارّا ذتاش مين دانغ يجين ونوفي مين غاناش، تحولت إلى صحراء قاحلة ما جعل أولادك لا يجدون ما يأكلون.[310]

يعبر الشاعر عن ارتباط الريفيين بأرضهم من خلال الأبيات التالية؛ أنشين واخا نويو)ر(ونزما)ر(أشم نتو أذمو)ر(ث ناغ قنقن غاوذارا)ر (غايغزار غا ييسْم ندشارنغ. بمعنى؛ نحن وإن هاجرنا لن نتمكن من نسيانك يا أرضنا نحن مرتبطين بالجبل والوادي واسم مدشرنا. ماذوياغ أيما أذتوغ إغزران ذرعنصار نوامان أذيتراغيذ أيما ذمو)ر(ث إنو إيذينيذ بوذمسمان. بمعنى؛ هل سأهاجر يا أمي وأنسى الوديان ومنابع الماء، ستنادي يا أمي وأرضي وتقولين لي أنت من قبيلة ثمسمان، ماذوياغ أيما أذتوغ أمزروي يريدان غارغذير أيثراغيذ أيما أيماذمو)ر(ث إينو أذايْذينيذْ شكْ زگوجذير. بمعنى؛ هل أهاجر وأنسى التاريخ الذي طهرته مياه المطر، وتقولين لي يا أمي يا أرضي أنت من أجذير.[311]

---

[308] _المقطع الأول من القرص المدمج.

[309] _ المقطع الثاني من القرص المدمج.

[310] _ المقطع الثالث من القرص المدمج.

[311]- المقطع الرابع من القرص المدمج.

-تجدر الإشارة إلى أن المنطقة مسماة أجذير توجد بقبيلتين من الريف الأوسط، هما أيث ورياغر وإگزناين، انظر:

-B.N.E.A.H., A.F., A.M.P.S., serie 123H12-01., N° 12[1], El Rif Marruecos Alhucemas-Axdir, Talleres del Servicio Geográfico del Ejército, Mapa Provincial en 150000, 1959. P.1.

نخلص إلى أن الريف استقبل عناصر إثنية مختلفة خلال فترات تاريخية مختلفة، ساهمت في تنويع بنيته الديمغرافية، رغم اعتراضها من قبل مجموعة من الإكراهات الطبيعية المتمثلة في الجغرافية والمناخ التي أدت إلى انتشار ظاهرة الهجرة، إلا أن هذه الساكنة اعتمدت الاستقرار بمثابة نمط عيش، ما يعطي فكرة حول الحياة الاقتصادية بالريف الأوسط وسيادة نمط انتاج قائم على الزراعة.

يعتبر السكان في صيغة اليد العاملة أهم وسائل الإنتاج بالريف الأوسط إلى جانب الأرض والموارد الطبيعية، وبالتالي كان لتفاعل الإنسان ضمن المجال وموارده دور أساسي في بلورة نمط انتاج خاص بالمنطقة.

الفصل الثالث

الموارد الطبيعية ونمط الإنتاج بالريف الأوسط

يكمن الترابط بين نتائج البحث الجغرافي والمظهر التضاريسي، والنتائج المستخلصة من التاريخ الديمغرافي وطبيعة نمط العيش المعتاد، في ضرورة استكمال الثلث الأول من إشكالية الأطروحة، وذلك عن طريق البحث في طبيعة الانتاج ووسائله بالمجال المدروس، وفي حيثياته ومميزاته، من أجل وضع قاعدة رصينة من البناء التحتي تمنحنا آليات فهم البنية الفوقية المتعلقة بالإنتاج الثقافي، إذ يعد الاقتصاد أساس قيام الحضارة وسبباً رئيسياً في انجلائها.

يظل البحث في التاريخ الاقتصادي بالمغرب بشكل عام مجرد محاولات جنينية، مما يجعلنا نتساءل هل يوجد حقا فضاء اقتصادي مغربي؟ في الحقيقة نود فقط تكوين فكرة عامة عن وسائل الانتاج المستعملة من طرف السكان المحليين والتي فرضت نمط عيش معين.[312]

يعتبر التاريخ الاقتصادي من أهم حلقات البحث المونوغرافي وضرورة موضوعية ومنهجية، ونتيجة منطقية لتفاعل الإنسان داخل مجال معين، والذي يحدده في الآن نفسه عن طريق الموارد الطبيعية المتاحة، خاصة وأن هذه الموارد تعرف تنوعا وأشكال تدبيرية متعددة بالريف الأوسط، وترتبط في كليتها بشبكة معقدة من الأعراف المحلية، والتي من شأنها الكشف عن وضعية الاقتصاد وبنيته الثقافية في آن واحد، واعتبارها أساس العديد من الصراعات السياسية بين القبائل، وسبباً رئيسيا لتعرض الريف للأطماع الخارجية.

يتمحور البحث في تاريخ اقتصاد الريف الأوسط حول ثلاث نقط أساسية؛ نوعية الموارد وتعددها ووفرتها، ثم تحديده نمط الإنتاج القائم بناء على حصيلة المبحث الأول، وتمثله داخل الذاكرة الجماعية، واعتبار اقتصاد المنطقة من بين أهم المواضيع التي تتخلل أحاديث الريفيين اليومية، وبناء ثقافة خاصة مرتبطة بنمط الإنتاج السائد.

---

[312] _عبد الله العروي (2016)، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية **1830-1912**، ترجمة محمد حاتمي ومحمد جادور، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، ص..55

المبحث الأول: الموارد الطبيعية وأشكال التدبير

أولا: الماء والأرض

تعتبر أهم الموارد المائية بقبائل الريف الأوسط تفرعات لوادي كرت ونكور ومسون وغيس وهي في طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط[313]. يتوفر الريف على أنهار ووديان محلية، وتتحول من منابعها إلى روافد جافة خلال فصل الصيف، وإلى سيول جارفة خلال فصل الشتاء، ويبلغ عدد هذه الأودية حوالي عشرين تتوزع عبر سلسلة جبال الريف. توجد ثمانية منها بالريف الأوسط، أطولها نهرا غيس والنكور اللذان يزيد طولهما عن سبعين كيلومتر. ينبع الأول من أيث سدات الصنهاجية ويصل إلى أراضي أيث ورياغر عبر تاركيست، حيث يشكل الحدود الغربية لسهل الحسيمة الرسوبي. فيما ينبع الثاني من إگزناين[314]، ويشكل بالأراضي الورياغلية الحدود مع قبيلة أيث توزين جهة الشرق. يلتقي هذا النهر الهام شمالا بمياه بحيرة «ثاندا حوا» حيث شُيد سد محمد بن عبد الكريم الخطابي في الثمانينات من القرن الماضي، ويفصل عند هذه النقطة بين ثمسامان وأيث ورياغر، حيث يوجد حوض الحسيمة الرسوبي. أنشئت العديد من قنوات الري على ضفتي نهري النكور وغيس، مما ساهم في الرفع من مساحة الأراضي المسقية التي امتدت إلى أربعة آلاف هكتار بالنسبة إلى مجرى النكور وألف هكتار بالنسبة إلى غيس، علما بأن هذه المساحة قد توسعت في عهد الحماية.[315]

يكتسي نهر النكور الذي توجد منابعه في قبيلة إگزناين أهمية أكبر، وتستفيد قسمات هذه القبيلة من روافده بشكل متفاوت، إذ تستفيد قسمة أشث محند من ذارا علّ (أللہ) باعتبارها أهم مصدر، بالإضافة لمصادر أقل أهمية مثل ذارا نتنسيدا وأنو بوريح وذارا نييرف وذارا نعبود، في حين تعتمد قسمة أشث يونس على إغزار ذاغيراست شمالا، ويستفيد منه مدشران هما: ذاغيراست وحضرية، وعلى إغزار مسذام الذي يبلغ صبيبه حوالي مائتين وعشرين متر مكعب، ويلتقي جنوبا مع إغزار وويزغث، إضافة إلى مصادر أقل أهمية منها ذارا نذا)ر(وا علا (باب السلطان) وأغبار نذستيت. أما أهالي قسمة أشث عرو عيسى فيستفيدون من وادي سيدي عيسى وذارا نذيطاوين. وتتمثل أهم الموارد المائية بجنوب قبيلة إگزناين في ذارا تازوگاخث بأشث مرار بقسمة أشث عاصم، وذارا نتانوت، وذارا أشث حوسين، وذارا خميس، وذارا بوطويل، وذارا ذمقراتد، وعين خشب، وذارا نذا)ر(وا حمو نعمر، وذارا جنان القايد المذبوح، بالإضافة إلى الموارد المائية بإمزذورار بقسمة إشاوين، وهي ذارا ذسماط، وذارا

313_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, pp.2-3.

314_ *B.N.E.A.H., A.F., A.M.P.S., serie 121H1801r., N° 18,* El Rif Marruecos Azru Akchar, Talleres del Servicio Geográfico del Ejército, Mapa Provincial en 150000, 1949. P.1.

315 _ دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي دراسة إثنوغرافية وتاريخية**، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، الطبعة الثانية، ج.1، صص..38-37

حانوت، وذارا يوسار وذارا إدردورن، وأغبار إفركوكن، وذارا المرجة وغيرها[316]. تجتمع روافد جنوب إگزناين، من قبيل بوحدود وبرون وسويح وويزغث في واد إشاوين الذي يسمى مسون حين يقطع دوار ذاوا حدو. ونجد بمارار روافد الدفلة ودهلية وتشربانت وذيغمبوين وذيوريرين، علما بأن أهم روافد واد إشاوِين هو مجرى بويسري. وبقسمة لوطا نجد مجرى باب تارمست ومجاري مائية صغيرة أخرى[317]. تعتبر جبارنة من قسمة أشث نروضى ضمن إشاوِين أغنى منطقة على مستوى الشبكة المائية، غير أن أغلب هذه المجاري كانت ضعيفة، حيث أشار بلانكو أيثاگا إلى هذه العيون المائية مع إغفال عين ثارا ثازوگاغث.[318]

تستقبل قبيلة أيث توزين مياه نكور عبر إغزار صوف، أو أغزار ن رَعْوَثْش (العولة) الذي يتجه من الشرق نحو الغرب غير أن أهميته المائية محدودة، مقارنة مع أغزار أمقران[319]، الذي يستفيد من مياه واد كرت ويتجه من الجنوب نحو شمال القبيلة، ويعد أساس زراعتها، إذ يزود قسماته بالموارد المائية، خاصة قسمات أيث عكي وأيث برعيز وإغاربيين. تخترق أراضي أيث توزين العديد من الأودية الصغيرة التي تشكل روافد لنهري النكور وكرت، أو أغزار أمقران، ونذكر منها: أغبار وثيمذرارث وأزراف وأيث مدجور (ملول) وثسافث وبوعرمة وفارس وسيدي يحيى وأنگيش وثغانينت وثيزي ورمعذن وبوجداين.[320]

تعتبر قبيلة أيث ورياغر أكبر مستفيد من مياه نهر النكور، ونجد قولة متداولة داخل قبيلة إگزناين تقول: «أمان نإگزناين رْغيذْجث ن أشث نشور (نكور)» ما مفاده المنبع بقبيلة إگزناين والغلة لأهل نكور (سهل نكور)، حيث قام اقتصاد هذه المنطقة على خيرات هذا الوادي، بينما قبيلة المنبع ظلت مفتقرة لمورد مائي دائم.[321]

ارتبطت كرامات أولياء الريف بظاهرة ندرة الماء، إذ نقلت لنا الرواية الشفهية خبر رجل ببادس قصير القامة مصفر اللون يستنبط المياه على شكل عيون وآبار من المناطق الجافة التي ينعدم فيها الماء، كما كانت له القدرة على العلم بقرب المياه أو بعدها عن طريق استنشاق هواء

316_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.5.

317_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, N° 1522/2.0, Confidentiel,* Le Colonel Georges Chef du Territoire de Taza, Fiche Fiche de tribu Gzenaia, Cercle de Tainast, 17 Octobre 1952, p.5.

318_ دايفيد مونتگومري هارت (2004)، **القانون العرفي الريفي نصوص مختارة من أعمال إمليو بلانكو أيثاگا**، ترجمة: محمد الوالي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الطبعة الأولى، الرباط، ص..90

319_ *B.N.E.A.H., A.F., A.M.P.S., serie 123H. 12-03, N° 123*, El Rif Marruecos Uad Amekran, Talleres del Servicio Geográfico del Ejército, Mapa Provincial en 150000, 1956. P.1.

320_ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, p.19.y pp.22,31.

321_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, pp.2-3.

ذلك الموضع[322]. ما يوضح ارتباط ذهنية الساكنة بندرة الماء الذي يعتبر مادة حيوية لمنطقة تعتمد الزراعة وتربية الماشية.

نسجت محدودية الموارد المائية شبكة عرفية خاصة بتدبير المورد المائي، وتسخيره وفق ضوابط من شأنها تعميم الفائدة، أهمها التناوب واحترام دور الغير وتحديد كمية الاستهلاك وفق قياس الزمن.

يكتسي نظام السقي في أية منطقة أهمية بالغة، مما يجعله جديرا بالدراسة والتحليل. وكلما قلت الموارد المائية وكثر الطلب عليها نظرا لارتفاع عدد السكان، كلما أصبح هذا النظام أكثر تعقيدا. ولنا في حالة منطقة السهل في أيث ورياغر نموذجا جديرا بالمعاينة وتوضيح حيثيات هذا النظام. يلاحظ في المقابل أن المناطق الجبلية التي تشهد وفرة في مياه الري وندرة في الأراضي الزراعية ونسبة أقل من السكان، لا تعرف نفس التعقيد.

اعتمدت الزراعة في الريف على مياه الأمطار، والمياه السطحية، مع اعتماد نظام سقي مر بحيثيات معقدة، قبل احتكاك الريفيين بالأندلس والعرب. وينبني هذا النظام على شبكة عرفية محلية، وعلى أساس التقسيم الجماعي، حيث يتم السقي بالتناوب بين الأسر المالكة اعتمادا على القياس الزمني، وتختلف المدة من قبيلة لأخرى، وذلك حسب النمو الديموغرافي ووفرة المياه وشساعة الأراضي، الأمر الذي جعل السقي سببا في عدة نزاعات، كانت تنظر فيها سلطة القبيلة[323]. الجدير بالذكر أن الموارد المائية قد تكون ذات صبغة جماعية أو خاصة، حيث مياه الأودية والآبار في الأراضي الجماعية لا يحق لأحد التصرف فيها لوحده، في حين يخضع الماء في الحالات الأخرى «لأشكال الاستغلال والانتقال عن طريق البيع والشراء والإرث والرهن والكراء»، ويصبح بالتالي ضمن الملكية الخاصة.

ارتكز نظام السقي في الريف الأوسط على أربع مبادئ أساسية هي أولا، تقسيم مياه الري وفق تقسيم الأرض، أي أن صاحب الأرض هو مالك ما تحتويه من موارد مائية سطحية أو جوفية، الأرض وما فيها من الموارد المائية، ثانيا، تنظيم استغلال الماء حسب الأولوية، أي الإنسان أولا ثم الحيوان والأرض وطاحونة الحبوب أخيرا. ثالثا، ملكية مياه الأنهار جماعية، والساكنة قرب المنابع العليا للأنهار لها حق الأسبقية على ساكنة الجهة السفلى، ونادرا ما يخلق المبدأ الأخير مشاكل بين الساكنة. جرت العادة بالريف الأوسط أيضا أن تتغير قواعد الري حسب وفرة المياه، وكلما قلت كلما تعقدت القوانين.[324]

ارتكزت قنوات الري بالريف الأوسط حول الوديان والعيون والآبار، وكانت تتم العملية وفق نظام التناوب بالنسبة إلى مياه الآبار ذات الصبيب الضعيف في المناطق العليا، والمجاري السفلى للأودية حيث تكثر الأراضي الزراعية مقارنة مع وفرة المياه، لدرجة وصف فيها بلانكو أيث ورياغر بالمجتمع التناوبي. وتُقسَّم أدوار الري بناء على توقيت محدد متوافق عليه،

---

322 _إبراهيم القادري بوتشيش (2014)، **المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من الأسفل**، منشورات رؤية، مكناس، ص..90

323 _عبد الرحمن الطيبي (2008)، **الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط** ،1912-1860 منشورات تيفراز4، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص..150

324 _دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..160

إما يوم واحد أو أكثر، وفي حالة تحديد الساعات خلال اليوم الواحد تعتمد الساعة بمثابة مقياس أو طول الظل في غياب الساعة، ويمتد ليوم أو أيام وتتفاوت مدة الدور حسب شساعة الأرض وعدد فروع السلالة، وتزيد المدة كلما كثر الأبناء المتزوجون، وتنقص المدة كل ما مات رجل متزوج، واتسم نظام السقي عادة في المناطق الجبلية بالبساطة وقلة التعقيد بالنسبة للسهل، وذلك راجع لقلة الكثافة السكانية ووفرة المياه. وفي حالة نشوب صراع حول عدم احترام الدور ينظر "القوام" في الأمر ليصدر الحكم ومقدار التعويض.[325]

كان المزارعون يقومون بتحديد عدد الأدوار ومدة كل دور وترتيبها، عن طريق القرعة مستعملين قطعا من الخشب أو الحجارة، وفي المناطق الجبلية تظل القرعة سارية على طول السنة، في حين يمكن تغييرها في المناطق السهلية. تُقسم مدد الري بالنسبة للقنوات الرئيسية باليوم، وبالنسبة للقنوات الثانوية التي تقل بها المياه تستعمل مقاييس أخرى، منها المعول الذي يحيل إلى عدد مستعملي المعاول لتحويل مياه القناة بارتباط مع صاحب الأرض، ويحيل إلى عدد المساهمين الذي يوفرهم مالك الأرض لصيانة القناة، ثم زوج من الدواب «ثيوگا» أو «ذيويا»، أي أنه بإمكان صاحبها الحصول على دور كامل عكس صاحب الدابة الواحدة الذي يحصل على نصف الدور. وكان بإمكان المزارع بيع دوره أو مقايضته وفي حالة النسيان يخسر الفلاح دوره. وبالنسبة لمن اشترى أرضا تسقى بمياه غيس السفلى ولا ينتمي إلى المنطقة فليس له الحق في استعمال مياه الري إلى أن يشتري دور الري أيضا، مثلا كان ثمن دورٍ مدته 12ساعة في الأسبوع يتراوح ما بين 500 و600 دورو خلال الموسم الزراعي 1938 و1939م.[326]

عاد إصلاح قنوات الري بالريف للجماعة، وفي حالة تعذر الحضور على فلاح ما توجب عليه دفع غرامة قدرها 5,2دورو حسني (أجرة يوم عمل)، ومن امتنع تصادر بندقيته، وفي حالة جرفت مياه الوادي تربة أرض شخص ما ووضعتها فوق أرض شخص ثان بما فوقها من أشجار تصبح في ملك هذا الأخير لأن الأرض الثانية هي الأصل ومنها تنبثق الجذور، في حين إذا جرفتها إلى جانبها فقط يحتفظ صاحب الأرض الأولى بأرضه. الجدير بالملاحظة أن نظام الملكية والري ينبني على أسس انقسامية وترابية، ذلك لأن القنوات الرئيسية تمد المداشر، والقنوات الثانوية في خدمة «ذارفيقين»، أي السلالات، والقنوات الصغيرة توفر المياه لفروع السلالات، أي «إجوجْگا».[327]

اعتمد الريفيون الأعراف المحلية لتنظيم أدوار الري، وذلك لم يمنع بت الشرع في أمر قوانين السقي، نورد مثال نازلة بمجال الريف خلال القرن السابع عشر، حيث »سئل الشيخ الصالح أبو القاسم بن خجوا –رحمه الله- عن أناس لهم ماء يسقون به أمدا طويلا، وهم أخذوا ذلك من يد أربابه أنزلوهم في أرضهم ويسقون بمائهم، فقام أناس ينازعون أرباب الأرض، والماء في ذلك فصالحوهم بمواضيع من تلك الأرض، وفيها مجرى الماء المذكور، فحكم لهم

---

[325] _دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..168-166

[326] _ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.9.

[327] _دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص..169-168

الشرع، فإن بقي الماء على مجراه، فلم يروا أبدا من إبقائه على مجراه الأول، قالوا: نأخذ منه نصيبا، فقال أربابه: لا نعطيكم منه شيئا لأنه لا أصل لكم في الماء فما الحكم في ذلك؟، فأجاب: الماء المسؤول عند أربابه المالكين له ومن أدعى الدخول فيه بميراث، أو ابتياع، أو هبة أو شبه ذلك، يكلف الثبوت والله سبحانه أعلم وهو الموفق للصواب[328]«، وهو نص فقهي يفصل بين متنازعين عن مصدر مائي.

تنوعت الموارد الطبيعية بقبائل الريف، وفق تنوع مجالها الذي جمع بين الساحل والجبل والمرتفع والمنبسط، غير أن صعوبة تضاريسها قلت من إمكانية استغلالها اقتصاديا، وحدت من مؤهلاتها الطبيعية التي أدت إلى تفاعل واضح بين الإنسان والمجال لإفراز نمط اقتصاد خاص، تتضافر فيه المعطيات الطبيعية المحدودة والقوة البشرية، وذلك وفق القاعدة الثالثة لويل ديورانت التي تقول أن قساوة المناخ وقلة الموارد الطبيعية تؤديان إلى قيام الحضارة.

تمثلت أهم موارد قبائل الريف عامة والريف الأوسط خاصة في مجال غابوي مهم فمن خلال إشارات المؤرخين والأخرى المستقاة من كتب الجغرافيين والرحالة الذين زاروا المنطقة في العصر الوسيط والحديث، ومن خلال رواسب الذاكرة الجماعية التي وصلتنا عن طريق الروايات الشفوية، وعبر معاينة بقايا بعض الغابات، يمكن الاستدلال على وجود غطاء نباتي كثيف بالمنطقة، فالريف يعتبر من أغنى المناطق المغربية بل والمتوسطية من حيث تشكيلاته النباتية.[329]

تنوع الغطاء النباتي بقبائل الريف الأوسط في الماضي، حيث انتشرت أشجار الصنوبر في المرتفعات العالية، وأشجار البلوط الأخضر والفلين بالمرتفعات المتوسطة، وفي الجهات الساحلية سادت أشجار الخروب والزيتون البري. وسجلت بنية غابات قبائل الريف الأوسط تفاوتا من حيث المساحة والجودة، وعرفت الغابات انتشارا أكبر داخل القبائل الجبلية إذ نجد هيمنة المجال الغابوي على مساحة قبيلة أيث عمارث وأيث توزين وإگزناين. وحسب إحصائية إدارة الحماية الفرنسية بقبيلة إگزناين سنة 1940-1935بلغت غابة ويزغث مساحة اثنين وثلاثين ألف ومائتين وسبعة وعشرين هكتارا، وغابة أفوكا ثمانية عشر ألف وخمس مائة هكتار، وغابة ذيغزراثين ألفين وثلاث مائة وستة وثمانين هكتارا، وغابة بورد أربعة آلاف ومائة وسبعة وأربعين هكتارا.[330]

تمتعت إگزناين بسلاسل غابوية مخضرة امتدت بين قممها، من ذمرقفث بجبل أبرشان إلى أزرو أقشار، حيث نجد الصنوبر البحري ذا الحجم الكبير بكميات هائلة، وقلة الأشجار حديثة الغرس، نتيجة نشاط الرعي بالمجال الغابوي، ونجد كمية مهمة من الصنوبر الحلبي جنوب

---

328 _محمد عبد العزيز الزياتي (2013)، **الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**، تحقيق غنية عطوي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة-الجزائر، ص. .294

329 _مراد جدي (2016)، **الأولياء الصلحاء وتحولات المقدس بالمغرب: دراسة في التاريخ السوسيو-ثقافي للتدين في الريفين الأوسط والشرقي**، تحت اشراف محمد استيتو وفريد لمريني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، ص..144

330_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.10.

واد كروان وجبل بوزينب في ثيزي موذان، بالإضافة إلى بقايا الغابات القديمة وبعض الأشجار الرقيقة. وينتشر التشجير عموما في كل قبيلة إگزناين.[331]

تعتبر غابة إگزناين الأهم من حيث المساحة، غير أننا نجد أهم غابات السنديان والبلوط الفليني والدردار والصفصاف بقبيلة أيث توزين، ومن خلالها عرفت القبيلة وفرة خشب الفلين الثمين لكنها لم تسوقه، واستغلته فقط للتدفئة وصنع سقف المنازل[332]. وعاشت قبيلة أيث عمارث على خيرات غابتها من الخشب حيث عمد سكانها إلى صناعة الفحم والقطران[333]. تميز الريف في جزئه الجنوبي بمجال غابوي شاسع، حيث شكل فضاء غنيا للرعي وموردا أساسيا للخشب الذي استُغل للتدفئة والطهي والبناء وصناعة الفحم، مما ساهم في تقلص هذا المجال، متأثرا بعوامل أخرى أهمها ارتفاع النمو الديموغرافي واجتثاث الغطاء النباتي لتوفير أراض زراعية إضافية.[334]

انتشر المجال الغابوي بالقبائل الداخلية، مقابل محدوديته بالقبائل الساحلية التي عرفت قلة خشب الأشجار، ما عرقل تأهيل أوراش الملاحة بها، أمام صعوبة توصيله من القبائل الغنية به.[335]

سجلت أراضي إبقوين استثناء، نظرا لغناها النسبي مقارنة مع أراضي القبائل الساحلية الأخرى بالريف الأوسط، غير أنها لم تتوفر على آليات استغلال ثرواتها بشكل صحيح، وبعد أن كانت المنطقة مغطاة بالغابات الكثيفة، تحولت إلى منطقة حرجية، بقيت بها بعض أشجار البلوط والصنوبر والعرعار والزيتون البري، وشهدت المنطقة انتشار نبات الدرو.[336]

عرف الريف الأوسط تنوعا نباتيا وانتشارا للنباتات المتحملة لتغيرات الطقس، ونذكر منها، أشجار البطم أو الدرو Pistacia Lentiscus «فاظيس»، وعرعار شمال إفريقيا Collitris articulata «أمرزي» أو «إمدزي»، والنباتات الشوكية كالسدرة «ثازكارث» أو «أخشاب»، ونبات الدوم «ذيگزظند»، والحلفاء «آري» ذا الاستعمال المحلي المكثف. وتنتشر أشجار الصنوبر «ثايذا»، والبلوط «أبدجوظ» بمنطقة إگزناين وجبل حْمام وأيث عمارث، بالإضافة إلى شجر الخروب «ذاسريغوا»، والزيتون البري «أزمور» الذي لا تُأكل ثماره، والعرعار الكادي Juniperus oxycedrus«ثاقا»، والقطلبarbutus unedo «ساسنو» أو «أساسنو»، والأوكاليبتوس الذي غرسه الإسبان على جنبات الطريق. وتنموا أشجار الحور الأبيض populos alba «ثينمرتش»، والحور الرومي alnus glutinosa والأثل tamarisk africana«ثمايث»

331_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.3.

332_ Auguste Mouliéras (1895), *Maroc Inconnu Exploration Du Rif,* Librairie Coloniale et Africaine, Joseph André, Paris, pp. 113,117.

333_ Ibid, p. 125.

334_ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C^{a}-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. p. 5.

335 _حسن أميلي (2011)، **المغاربة والمجال البحري في القرنين** 17 و18**م**، مختبر الأركيولوجيا والتراث الثقافي الساحلي-المحمدية، بدعم من وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي والتقني، الطبعة الأولى، الرباط، ص..159

336 _أنخيلو گيريلي (2017)، **إبقوين قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، ص..68

على ضفاف مختلف المجاري المائية في الريف، وتسمى محليا كل هذه الأنواع «الصفصاف نوامان». نذكر أيضا القصب «غانيم»، والدفلى «أريري» الذي تستعمله النساء لصناعة السم، والأغاف «أكفير» أو «أكارزيان»، والصبار «إفوذار» الذي يستعمل كسياج للمنازل، والذي يرجح أن مسلمي الأندلس هم الذين نقلوه إلى المغرب من إسبانيا التي استقدمتها من المكسيك. تعرف الأعشاب البرية تنوعا داخل مجال قبائل الريف الأوسط، وأهم أنواعها الزعتر البري «زوي» أو «أزوي» بقمم جبل حْمام الذي أفادت أزهاره في إنتاج أجود أنواع العسل[337]، غير أن مجيء الاستعمار الإسباني جعل هذه التشكيلات النباتية تتدهور وتستوطن مجالات ضيقة، وذلك بسبب الاستغلال الكثيف وغير الرشيد، ما نتج عنه عراء المجال من الأشجار باستثناء بعض أعراف الجبال الساحلية والداخلية.[338]

تسجل المنظومة الغابوية حضور الوحوش الضخمة، وأهمها الأسد «إيزم» الذي شغل حيزا مهما من التراث الشعبي الريفي، حيث تروي الذاكرة الجماعية بالريف أن آخر أسد قتل رميا بالرصاص كان في أيث عمارث خلال القرن التاسع عشر، وعرفت منطقة إگزناين وجود النمور، وهذا ما نستشفه من دليل طوبونيمي من خلال حمل أحد المداشر لاسم «ثاغيراست» وهي أنثى النمر، ولم يعرف الريف الأوسط انتشار الضباع عكس الريف الشرقي، مقابل انتشار الخنزير البري بمناطق الأشجار الكثيفة والخفيضة، مع انتشار بنات آوى والثعالب في جميع أنحاء الريف، بالإضافة إلى القنافذ والفئران والأرانب البرية، وأنواع من الكواسر أهمها العقبان والصقور الكبيرة والنسور، ثم البوم والغراب والحجل والحمام، وبعض الزواحف كالضفادع والسلاحف والأوزاغ الصغيرة التي تحظى بالتوقير لأنها أنقذت النبي محمد حسب التراث الشعبي بالريف، عكس العظاءات الكبيرة الملعونة التي دلت الكفار على مكانه. ويعتقد الريفيون أن كل الأفاعي سامة رغم أن الأفعى السامة الوحيدة هي الأفعى الأوروبية ذات الرأس المثلث، ويسود نفس الاعتقاد حول العقارب[339]. تضمنت الغابة المتوسطة لقبيلتي أيث توزين وإگزناين على أكبر كم ونوع من الوحيش بالريف الأوسط.[340]

زخرت منطقة إبقوين بوحيش متنوع يتضمن الحيوانات اللاحمة كالقطط الوحشية وبنات آوى والثعالب والضباع وغيرها، والقوارض كالسناجب والجرذان، بالإضافة إلى المواشي والدواجن والخنازير البرية والأرانب، والزواحف من ضفادع وسلاحف وعظاءات وثعابين. نجد أيضا الوطاويط والخفافيش، ومختلف أنواع الطيور والعصافير من قبيل العقاب والحدأة والرخمة والصقر الشاهين والبومة والغداف والعقعق والقبرة والشحرور والدوري.[341]

حفظت ذاكرة الريف أساطير وحكايات[342] ذات أساس مرتبط بمجالها الغابوي والوحيش المتوفر، وتجاوزته أحيانا لاستحضار مخلوقات خارقة مثل الغول والغولة.

---

337 _دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص..44-43

338_ Carleton Stevens Coon (1931), *Tribes of The Rif,* Harvard African Studies, Volume IX, Peabody of Harvard University, Cambridge, pp.8-10.

339 _مونتگومري هارت (دايفيد)، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. .47-46

340_ Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu Exploration Du Rif…*, op. cit, p.113.

341 _أنخيلو گيريلي، إبقوين قبيلة...، م.س.، ص. .68-67

342 _ارتأينا التفصيل في موضوع الأساطير والحكايات وسنتطرق إليها ارتباطا بالتاريخ الثقافي للريف الأوسط.

صُنف إقليم الريف ضمن الأراضي الوعرة المليئة بالجبال شديدة البرودة والغابات الكثيفة، ولم يتوفر على أراض زراعية شاسعة، غير أن تضاريسه سمحت بغرس مختلف الأشجار المثمرة أهمها البرتقال والتين واللوز والجوز.[343]

تخلل المجال الغابوي بالريف الأوسط أراض صالحة للزراعة خضعت لتدابير خاصة، ووُزعت وفق اعتبارات محلية كشفت عن بنية ثقافية اشتراكية. فمن خلال التعاقدات الزراعية تمكنا من رصد مجموعة من أساليب التكافل والتضامن والتشارك المنتشرة داخل المجتمع الريفي، ساهمت في استغلال المجال وتوفير وسائل الإنتاج، وتمتين الروابط الإنسانية التي تحمل في طياتها دلالات اقتصادية.

مثلت الأرض وسيلة الإنتاج الأولى بالريف، وملكيتها لم تكن قانونا بقدر ما كانت وظيفة اجتماعية[344]، وارتكز النظام الاقتصادي العتيق عامة على ملكية الأرض ومردوديتها الفلاحية.[345]

كان نظام ملكية الأرض بالريف انقساميا بشكل عام، انطلق من تطور شجرة النسب زمانيا، واتضح على الأرض مكانيا، ويعتبر هذا المبدأ بمثابة مفتاح لتفسير تعقيدات البنية الاجتماعية والمجالية بالريف الأوسط، حيث لعب انتشار الأولياء والشرفاء دورا يزاوج بين ما هو روحي بانتمائهم لآل البيت، وما هو سياسي من خلال إحلال السلم بين المتنازعين، وساهمت النزاعات المتكررة في ظهور ما سماه الباحثون الفرنسيون والإسبان بالفوضى المنظمة، التي وطدت النظام القبلي بدل انحلاله. ويمكن تسمية النظام السياسي الذي كان قائما بأنظمة منظمة دون زعامة. تتصف المجتمعات الزراعية المستقرة بهيمنة النزاعات الدموية الداخلية عكس قبائل الرحل التي تشهد حروبا طاحنة فيما بينها.[346]

ارتبطت الملكية في المجتمعات الإسلامية عامة بالإرث والنسب الأبوي، فأملاكي أي «ر(مُورْكْ» إينو، هي مجموع ما ورثته عن أجدادي. وقد ارتبطت الملكية في الريف الأوسط بالسلالات ذات النسب الأبوي «ذَارْفِيقِينْ»، ويُقسم الملك الخاص بين الأبناء فور وفاة والدهم، إلا إذ كانوا ميسورين، حيث يتولى الابن الأكبر تسيير الأمور آنذاك، ويحدث العكس في حالة نشوب أي صراع فيُقسم الإرث حسب ما هو متعارف عليه شرعيا.[347]

نجد أراض بإگزناين تعود للعائلة وتعتبر ملكية فردية (لأنها تعود لكبير العائلة دون غيره من أفراد الأسرة إلى حين وفاته)، وهي ملكية تطبيقية وفق الأعراف تفتقر للتوثيق، وساد نوع

---

[343]_ الحسن الوزان(1983)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، ج.1، ص..324.

[344]_ *A.D.N., Fonds Maroc-Protectorat, série 1MA/285/73,* Etude «Essai sur l'esprit de la coutume berbère marocaine (Son fondement, ses traits essentiels, son avenir)», 1937, p.1.

[345]_ *D.C.H.E.A.A.A.M., Dossier E3195, N° 3.454,* Ch. Noaillac, Les bases de l'économie marocaine, université de Paris, 1956, p.7.

[346]_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص..21-20

[347]_ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C°-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. P.6.

آخر للملكية يعود للزوايا، حيث كانت هذه الأراضي تستغل بواسطة الخماسين. أما ملكية الحبس فترعاها المؤسسات الدينية، وتباع محاصيلها لصالح المؤسسة التي تنتمي إليها.[348]

لعبت ملكية الأرض بالريف وظيفة حياتية تنهار بنفس طريقة انهيار حقوق الفرد أمام حقوق العائلة، والتي تختفي بدورها أمام المصالح العليا للمجموعة بكاملها، بنفس الطريقة التي يتبدد بها الموروث الفردي خلف الموروث العائلي الذي يندمج بدوره في الموروث الجماعي للقبيلة.[349]

كان نظام الملكية بالريف يتحدد بشهادة أشخاص منتمين للجماعة (عشرة أفراد)، وتُؤكد بعقود أخرى منها الإرث وانتقال ملكية الأرض، ونفس الدور كان يقوم به عقد البيع والشراء من حيث ترسيخ الملكية.[350]

مثلت الأرض العنصر الأساسي في العمل الإنتاجي، بالإضافة إلى كونها إحدى أهم الخصائص الإنسانية والاجتماعية المتجهة نحو استقلال الفرد عن الجماعة، عكس ما ذكره الانقساميون حول انتشار الأراضي الجماعية بالريف أمام تقلص الملك الخاص[351]، وتتأكد هذه الفرضية من خلال أنماط توزيع الأملاك بالريف، حيث تأخذ الممتلكات الخاصة شكل ملكيات غير خاضعة للتقسيم، باعتبارها مستقلة، في حين تُستغل الأملاك الجماعية غير القابلة للتقسيم من قبل الأفراد المنتمين للجماعة الذين لا يتوفرون على أراض خاصة[352]. تحتطب النساء في الأراضي الجماعية، وتحفر فيها الآبار وتخصص للمقبرة، ويقوم أفراد القبيلة

348_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Fiche N° 1522/2.0, Confidentiel, Le Colonel Georges Chef du Territoire de Taza, Fiche de tribu Gzenaia, Cercle de Tainast, 17 Octobre 1952, p.23.

349_ *A.D.N., Fonds Maroc- Protectorat, série 1MA/285/ 73*, Exécution des prescriptions de la note résidentielle N°303.DP/2, Bureau des Ait-Youssi, du 8 mars 1924, p.2.

350_ محمد أوحدو (2017)، **الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية نموذج قلعية**، منشورات زمن، سلسلة شرفات، الرباط، ص..92

351- يبدو أن هذا الحكم لا يستقيم مع ما ورد في الدراسات الانقسامية، ونأخذ على سبيل المثال ما أورده هارت، حيث يشير إلى أن «امتلاك الأراضي أو العقار في منطقة أيث وَرْيَاغرْ، كما هو الأمر في باقي مناطق المغرب والعالم الإسلامي، يصنف إلى ثلاثة أنواع أساسية تقليدية. وهذه الأنواع هي: أولا، »ر(مُورْكْ ،«أي الأملاك والأراضي الخاصة، وثانيا،» ر(مُشْرَعْ « أو» رَمْشَاعْ ،«أي الأراضي الجماعية المستعملة عادة، كمراع، وهي في ملكية الجماعة، وثالثا، »حُبُوسْ ،«أي أراضي الأحباس الموقوفة للمساجد كعمل خيري من طرف المحسنين، والتي يخصص ريعها لأغراض دينية«.كما يؤكد على أن «أهمية وقيمة الصنف الأول، [أي الأراضي الخاصة] تتجاوز بكثير مثيلتها بالنسبة للصنف الثاني في أيث وَرْيَاغرْ، كما أن النوع الثاني يعتبر أكثر أهمية من النوع الثالث، أي أراضي الأحباس«.يشير هارت إلى صنف رابع هو «"ر(حُورْمْ"، وهو مجموع الأراضي المحيطة بالمساجد ومقابر الأولياء والصلحاء والتي يمنع قطع الأشجار الموجودة بها، وإن كان يسمح باستعمالها لرعي الماشية «.انظر:

_دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..145

352_ جرت العادة في منطقة أيث وَرْيَاغرْ ألا تُزرع أرض الجماعة بشكل جماعي، حيث تعتبر ممرا ومرعى ومكانا للاحتطاب، غير أن منطقة إگزناين عرفت في بعض الحالات تقسيم أرض الجماعة على العائلات الفقيرة للاستغلال الشخصي بشكل مؤقت أو دائم. كما شهدت منطقة جبل حْمام تقسيم محصول أشجار البلوط في ملكية الجماعة بعد جنيهبشكل جماعي عبر »ثْوِيزَا«، وتوزيعه عن طريق القرعة »ثَاسْغَارْثْ .«وتقوم قبائل صنهاجة سراير وأيث عمارث بحرق الأشجار في هذه الأراضي وتحويلها لرماد يسمدها لتصبح صالحة للزراعة والاستغلال، فتفقد الطابع الجماعي وتُقسم إلى قطع خاصة بين أهل الجماعة بالتساوي وعن طريق القرعة، إذ تضع كل عائلة رمزا معينا خاصا بها ليمر أحد المارة ليلتقط الرموز بالتتابع ليختاروا وفق ذلك الترتيب، ويتم توثيق هذه الأراضي. وكان شائعا في الريف أن من أحي أرضا فهي له، حتى وإن كان غريبا عن الجماعة. لم يتم تنظيم توزيع الأراضي الجماعي في شكل قوانين محددة مما تسبب في نزاعات شديدة قبل أن تبدأ سلطات الحماية في تنظيم ملكيات الأرض، ثم من بعدها المملكة المغربية. انظر:

-دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..149-148

جميعهم بإصلاحها وفق عرف القرعة، وتتحكم الأعرف في نزاعات أرض الجماعة. وتقام الأسواق في أملاك الجماعة، بينما تعود ملكية أراضي الحبوس إلى المؤسسات الدينية المتمثلة في الزوايا والمساجد والمزارات.[353]

سجل نظام الملكية وتقسيم الأرض بقبائل الريف الأوسط اختلافات بسيطة، لكنه كان متطابقا من حيث المبدأ، غير أن الأنظمة الاستعمارية كان لها موقف مخالف، حيث استحسنت فرنسا طبيعة ملكية الأرض وتصنيفها بقبيلة إگزناين، واعتبرتها أصيلة واقتصادية ومميزة لبيئة المنطقة. كانت الأراضي الصالحة للزراعة ذات الملكية الخاصة التي تسمى «رمورك» تقدر بـاثنين وخمسين ألف هكتار مع تسجيل غياب أراضي الجموع[354]. وعرف بصفة عامة تقسيم الأراضي بالريف وطريقة انتقال ملكيتها بين الأسر مجموعة من التعقيدات التي حاول النظام الاستعماري تجاوزها.[355]

تحمل الأراضي غير المزروعة اسما عاما هو «ذامو(ر)ث»، في حين تحمل الأراضي التي تم تسميدها طبيعيا والقريبة من السكن اسم «ادّمنثْ»[356]. وكانت جل أراضي إگزناين تعود إلى السكان المحليين، ولم تشغل أراضي الأحباس مجالا مهما، حيث كانت تُختزل في بعض البقع الصغيرة من أشجار الزيتون.[357]

سعت إدارة الحماية الإسبانية إلى تدبير تغيرات بنية الملكية بالريف عبر تقنين ممتلكات الأراضي بعد أن تم إصدار مرسوم الملكية العقارية سنة 1913م، للحفاظ على ملكية المعمرين للأراضي الخصبة، لتتحول الأرض بذلك إلى سلعة اقتصادية بعد أن كانت مجالا مقدسا تندرج داخله البركة والشرف، وتنتظم القبائل الريفية ضمن مجالات ترابية في إطار إقليمي وجهوي، بغرض تحويل الانتماءات القبلية إلى انتماءات إقليمية.[358]

ألف الريفيون ربط علاقات تعاقدية خاصة في مجال الزراعة، وذلك راجع لوعيهم بأن التضامن ينتصر على فقر الأرض، وكانت التعاقدات تتم شفهيا وتجدد سنويا، والعقد الشفوي صالح لمدة سنة أو أكثر حسب الاتفاق. جمعت التعاقدات الزراعية في الغالب الأكثر والأقل غنى (أو مالك الأرض وغير المالك والذي كان يتلقى أجرة عمله مقابل العمل في أرض المالك وفق عقد معين)، مع رصد بعض حالات تعاقد طرفين متساويين اقتصاديا، مع تقسيم محاصيل الأراضي المسقية والمسمدة، المتعاقد بشأنها إلى خمسة أقساط، قسطان منها لصاحب الأرض ثمناً لأرضه، والحصة الثانية ثمن السقي، والحصص الثلاثة الباقية لمن قام بالزرع والتسميد

353_ محمد أوحدو، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية...، م.س.، ص.92.

354_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Eléments pour La mise à Jour de L'Atlas Monographique du cercle, poste du Tizi ouzli, 1948-1949, p.1.

355_ Jamous (Raymond), Honneur et Baraka: les structures sociales traditionnelles dans le Rif, éditions de la maison des sciences de l'homme, Paris, 1981, p. 103.

356_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص.50.

357_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.11

358_ محمد أوحدو، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية...، م.س.، ص.10.

وتقديم اليد العاملة ووسائل الإنتاج. أما محاصيل الأراضي البورية فتقسم إلى ثلاثة أقساط، تعود الأولى إلى صاحب الأرض والحصتان الباقيتان إلى صاحب الزرع والعمل. يسمى هذا النموذج التعاقدي «إمْثرْثن»، وهو أقل شيوعا من نظام الخماس الذي يعد أقدم العقود تاريخيا، حيث يتلقى الفلاح وفقه حصة خمس الإنتاج مقابل بيع قوة عمله لصاحب الأرض. وهناك تعاقد «إزگناون» أو «إزيناون» أو «إنْصاصن» بمعنى الأَنصاف، وهو تشارك متكافئ من حيث وسائل الإنتاج واليد العاملة وتقسيم المحاصيل بالتساوي.[359]

نرصد نفس التعاقد بالريف الشرقي ويسمى «أقران»، يعرف نوعا من التوازن بين الفلاحَيْن الشريكين من حيث الأرض والعناصر الزراعية، ويتقاسمان الإنتاج الفلاحي في نهاية الموسم الزراعي. وكل ما مالت كفة الحبوب أو العمل لشريك زادت حصته، ويصلح ويسري هذا التعاقد أيضا على اقتسام القطيع وما ينتجه، بما في ذلك الصوف بالنسبة لشراكة القطيع. نذكر أيضا نوعا آخر من التعاقد يسمى «النفع»، حيث يؤجِّر مالك الأرض أرضه لمستثمر يستغلها ويتكفل بمصاريفها، ويؤدي هذا الأخير ثمن أجرة كراء الأرض للمالك من الإنتاج. وتقدر قيمة الأجرة حسب نوعية الأرض وخصوبتها ومساحتها ومدى قربها من بيت المستغل، هذا بالإضافة إلى «تويزة» التي يشارك فيها أفراد مختلفون ينتمون إلى القبيلة لفائدة فلاح معين يتولى مهمة إطعامهم، وتتم بالتناوب لخدمة مستمرة تشمل كل الأفراد المشاركين[360]، وقد شكلت «تويزة» صلة وصل بين الإنتاج والعلاقات الاجتماعية. ومن المعلوم أن الفقهاء كانوا يحصلون على نصيبهم من المحصول بشكل موسمي، بموجب عقد «الشارظ» الذي يربطه مع الجماعة. واستمر عرف التعويض المادي لكل من فقد بقرة أو ماشية[361] إلى فترة ما بعد الاستعمار الاسباني والفرنسي ببعض القبائل باعتباره عقدا تضامنيا أخلاقيا. حمل العمل الجماعي في طياته دلالات اقتصادية، حيث سمح باستغلال الأرض بتكلفة أقل، واجتماعية عبر تجسيد روح التعاون والتضامن، وثقافية من خلال ما صاحب هذا العمل من ترديد للأهازيج الشعبية الراسخة في الذاكرة.[362]

نرصد نوعا آخر من التعاقد في المناطق الجبلية أهمها جبل حْمام وإگزناين، ويعتبر أخلاقيا أكثر مما هو اقتصادي، إذ يحتفظ كل فرد بمحصوله الزراعي، مع العمل بشكل جماعي عن طريق التناوب على كل الحقول، الأمر الذي فرضته قلة اليد العاملة والدواب، ويسمى هذا التعاقد «إذْويرن»، في حين كان التعاقد مناصفة بخصوص تربية الماشية وخلايا النحل.[363]

359_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..84.

360_ محمد أوحدو، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية...، م.س.، ص..89.

361_ تؤكد هذه المؤسسات على أهمية التضامن والتعاضد في الحياة اليومية للريفيين، المؤسسة الأولى المسماة »روزيعث« هي نوع من التأمين المشترك على الحيوانات، خاصة الأبقار، إذ في حالة احتضار بقرة أو ثور يذبحه صاحبه، ويصبح أهل القبيلة ملزمين أخلاقيا بشراء حصص اللحم المقسمة بالتساوي لتجنيب صاحبها الخسارة، والمؤسسة الثانية تسمى»ذويزا«، أو »ثويزة«، وهي عملية تطوعية تقوم بها الجماعة لمساعدة فردٍ لإنجاز عمل ما، ويُعلِم صاحب العمل الجماعة بيوم ذويزا وطبيعة العمل المراد شغله يوم السوق. انظر:

-دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..86.

362_ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C^{a}-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. p.4.

363_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..85.

تعكس التعاقدات الزراعية داخل المجتمعات التقليدية وجها من أوجه التضامن والتكافل الاجتماعي، ويبدأ التعاون في الريف على مستوى الأسرة، بين الأبناء والأب والزوجة أحيانا، دون أن يعني ذلك بالضرورة تقسيم حصة الإنتاج على الأطراف المساعدة، ويتسع التكافل الزراعي ليشمل الجيران والمدشر والجماعة أحيانا. وفي حالة اشتراك طرف لا تربطه صلة قرابة دموية بالمجموعة المتعاقدة أو غير ملزم بتعاقد شفوي فتمنح له حصة من الانتاج، علما بأن شيوخ الفلاحة هم المعنيون بتحديد المساعدين في الأعمال الزراعية، والبت في مسألة الانتماء إلى المدشر أو الجماعة، ويسري التعاقد الشفوي بين أفراد من نفس الجماعة أو الاتحادية القبلية أو الفخذة أو الفرقة. ويقوم النظام الزراعي الريفي على عناصر أساسية تتمثل في الأرض والعمل والحبوب والأسمدة والأدوات كالمحراث والفأس، والدواب كالبغال والحمير والأبقار. ويبقى الأعضاء الذين يجمع بينهم عقد الزراعة ملزمين بالمساهمة بأحد هذه العناصر، وتتقوى الحصة الإنتاجية بحجم وأهمية العناصر المقدمة خلال الموسم الفلاحي.[364]

ثانيا: الثروة السمكية والمعدنية

تمتعت قبائل الريف الأوسط بتنوع مواردها البرية والبحرية، واصطدمت بضعف وسائل استغلالها وتسخيرها للرفع من مستوى العيش واقتصاد المنطقة، وجلبت الثروة السمكية والمعدنية الأطماع الخارجية التي سعت جاهدة إلى بسط سيطرتها على هذه الشواطئ والمناجم.

تعرف الثروة السمكية بالريف غنى وتنوعا، خاصة بالساحل البقيوي الذي كان يعد من أفضل المصايد السمكية في الشمال المغربي، ونذكر من الأسماك المتوفرة به سمك المرجان والنازلي والغُبر والبوري وخطاف الماء وسمك موسى والشفنين والتن والسردين وثعبان البحر والتُرس والقُشر والشِلق والأنشوفة والإسقمري، حيث توفرت الساكنة على أزيد من ثمانين قارب للصيد وتجارة التهريب.[365]

نجد في التقارير الاستعمارية الفرنسية إشارات حول التنقيب المعدني بالريف الأوسط عامة، وقبيلة إگزناين خاصة، أولها حول دوار حضرية المنتمي إلى قسمة أشث يونس بجبل أبرشان، والذي يعد مجالا غنيا بالحديد. هذا بالإضافة إلى سفوح جبل تغيدت الغنية بالمياه المغنيسية، والتي توجد قربها منابع المياه الدافئة، وتُكوِّن المياه الراكدة بهذه المنطقة طبقة زيتية مما يدل على وجود أصل بترولي، وعلى امتداد بحري غني إلى هذه المنطقة خلال تكونها الجيولوجي الأول.[366]

توجد ناحية بوسكور من قبيلة إبقوين طبقات معدنية من الفحم الحجري، وبالقرب من جبل عوندجا دلائل عن وجود معدن الكحل، والكبريت في أماكن متعددة من القبيلة، علما بأن مجموعة من المؤسسات والشركات الأجنبية كانت قد قدمت طلبات للجنة التحكيم في باريس قبل الحماية بهدف الترخيص لها باستكشاف أو استغلال الموارد المنجمية في القبيلة، أهمها

---

[364]_ محمد أوحدو ، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية...، م.س.، ص..66

[365]_ أنخيلو گيريلي، إبقوين قبيلة...، م.س.، ص..85

[366]_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, pp.2-3

طلب المجموعة الإنجليزية لشركات مناجم المغرب Morocco Mining Syndicate[367]. ومن المعلوم أن سلطات الحماية الإسبانية قد استغلت مناجم الرصاص في كل من بوسكور وناحية بادس. وتحتوي قبيلة أيث توزين على كمية كبيرة من المعادن، أهمها الحديد الذي توجد أهم مناجمه بالحوض العلوي لإغزار أمقران، كما تم رصد ثلاثة مواقع تحتمل وجود الرصاص بالإضافة إلى تمظهرات بترولية مفترضة جنوب القبيلة لم يتم التأكد من صحتها بعد.[368]

اهتم الأجانب كثيرا بمناجم الريف وعقدوا صفقات حولها باستخدام شرفاء القبيلة، أهمها صفقة الفرنسي الكونت موريس دي شافانياك Le Comte Maurice de Chavaignac، الذي استقر بمدينة طنجة سنة 1882م، وباشر فيها أنشطته الصحفية والاستقطاب السياسي، وعقد صفقة بيع بنفس المدينة مع الشريف حمو أخمليش[369] بالتواطؤ مع القائد علي الورياغلي[370] تخص الأراضي التي تتوفر على المعادن بجبل حْمام بقبيلة أيث ورياغر، ما بعث القلق بالأوساط الإسبانية، خاصة وأن الريفيين كانوا متأكدين من وجود معادن نفيسة بالمنطقة. وقد ظلت الذاكرة الجماعية بالريف حاملة لهذه الحقيقة[371]، إذ تروي أحداث وصول الكونت موريس مرفوقا بزوجته الكونتيسة إلى جزيرة بادس يوم 14-01-1884م. واقترنت حادثة بيع المعادن الريفية باسم الكونتيسة في الذاكرة الجماعية، حيث أصبح يسمى عام الكونتيسة، ولولا استعانته بشيوخ الزوايا وتأثيرهم على الساكنة لما تمكن من التغلغل في الأرض الريفية. بعث شافانياك برسائل تمهيدية لتسهيل انتقاله إلى الساحل الريفي ببادس، وقد نزلت زوجته الكونتيسة بالفعل بهذا الشاطئ، غير أن سعيه قوبل بالرفض من قبل القبائل الريفية، وتم طرد العمال الذين استقدمهم ومعاقبة المتورطين في الصفقة.[372]

ونجد رواية شفهية بخصوص الصفقة هذا ملخص فحواها: عم القحط والجفاف بلاد الريف في أواخر القرن السادس عشر، وظهر الحاج علي بن السي عمار من أيث حذيفة في هذه الظرفية. كان يجلب فائض الحبوب من الجزائر بحرا إلى المزمة وبادس، ما جعله على دراية بالأطماع الأجنبية بمعادن الريف. وبينما كان يستريح أثناء رحلته عند أحد الخمليشيين في زاوية التفاح بقبيلة أيث مزذوي، باح لهذا الأخير بسر المعادن الريفية، واقترح عليه الخمليشي عقد صفقة مع ثرية فرنسية. هكذا اتفقا حول طرق إرضاء الساكنة، وقامت الثرية بإنزال العدة على شاطئ بادس، وهي منطقة تتقاطع فيها حدود قبائل إبقوين وأيث يطفت وأيث بوفراح، في حين وقفت قبيلة أيث ورياغر في وجه الحاج علي، وعقد أعيان القبيلة اجتماعا بقرية «اغْريظ»

---

[367] _ أنخيلو گيريلي، إبقوين قبيلة...، م.س.، ص. 78.

[368] _ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, p. 41.

[369] _ هو الحاج حمو الخمليشي أخ محمد صديق أخمليش، ترتب عليه حق السجن من طرف عامل فاس، وشفع له المرابطون وأطلق سراحه. درس بسوس، وتعمق في الكمياء، وتعلم طرق صهر المعادن، وتزوير النقود. انظر:
_ عبد الحميد الرايس (1999)، «المسألة المعدنية بالريف والتهافت الأجنبي »، **حوليات الريف**، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ، ص..77.

[370] _علي بن السي عمر، من فرقة بني حذيفة، شارك في صفقة بيع أرض جبل حْمام، بحكم وقوعها في دائرة نفوذه. انظر:
_ عبد الحميد الرايس، المسألة المعدنية بالريف...، م.س.، ص..77.

[371] _نفسه، ص..74.

[372] _ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, pp.2-3.

بتماسينت، واتفقوا على مهاجمته وإحراق منزله، لكنه تمكن من الهرب. أدى الحذيفي مبلغ الغرامة المفروضة عليه وباعت الجماعة عدة الورش وأضيف ثمنها إلى مبلغ الغرامة. وبالتنسيق مع أعيان قبيلة الشرفاء الخمليشيين والقبائل الأخرى التي نزلت بها الكونتيسة والعمال، تم فرض غرامات ثقيلة على المتورطين وخربت بيوتهم، لأنهم هم من أخذ النصيب الأوفر من الصفقة.[373]

أجرى أبل بريف Abel Brives، أستاذ الجيولوجيا بجامعة الجزائر دراسات وتنقيبات هامة في منطقة الغرب ما بين 1907-1901م. كما تنقل دو سيغوناو De Ségonao أستاذ الجغرافيا بالسوربون وآخرون في جميع أنحاء المغرب تقريبا خلال الفترة الممتدة بين 1911-1905م، وذلك بهدف البحث واستكشاف الموارد المنجمية، مستفيدين من مقتضيات القانون المعدني الذي سنته السلطات المغربية، وتنفيذا لفصل من فصول اتفاقية الجزيرة الخضراء سنة 1904م[374]. شكل الاتفاق المتعلق بالمعادن المغربية الذي أقره مؤتمر الجزيرة الخضراء، والصدور اللاحق للظهير السلطاني المنظم لحق الاستغلال الأجنبي للمناجم المغربية، دفعة قوية للرأسمالية الأوربية، للحصول على الامتيازات في استغلال مناجم الريف، خاصة منطقة الريف الأوسط، لأن معادن الريف الشرقي تم البت فيها بشكل كامل. سعت هذه القوى الأجنبية إلى بلوغ معادن جبل حْمام التي كانت حقيقة شعبية توارثتها الذاكرة الجماعية بالمنطقة، وهناك وثائق تثبت بيع هذه الأراضي وسعي الأوربيين إلى السيطرة عليها.[375]

اعتبرت السلطات الفرنسية أن صفقة المعادن بالريف ضمنت نجاحها بموافقة المخزن المغربي، لأن القبائل الريفية مطيعة ومرغمة على الإيجاب، لأن الرفض يعد تجاوزا للشروط والاتفاقيات الدولية، وطلبت السلطات الفرنسية من المخزن تأديب كل من شارك في منع إنزال عدة الورش والشروع في العمل بمناجم الريف، رغم أن السلطان المولى الحسن الأول نفسه كان رافضا مسألة إقامة المشروع، وتحجج بأن جزيرة بادس ليست مرفأ أو ميناء تجاريا، ما جعله يرفض الصفقة، وكان رده دبلوماسيا.[376]

اهتمت الشركات الإسبانية بمناجم المغرب الشمالي وخاصة مناجم منطقة الريف التي اعترفت الأوساط الأوربية المعتمدة في طنجة بنفوذ إسبانيا عليها منذ سنة 1904م، وركز النشاط التنقيبي الإسباني بالخصوص على إقليم الناظور من خلال الشركتين، Compañía del Norte Africano، أي شركة الشمال الإفريقي، التي رخص لها الجيلالي الزرهوني باستكشاف واستغلال المناجم في منطقة نفوذه، وشركة Minas del Rif، أي مناجم الريف، التي استفادت من القوانين والإجراءات التي سنها الحزب اللبرالي الإسباني سنة 1909م أثناء وجوده بالحكم، وأصبحت تهيمن على مناجم شمال إفريقيا ككل.[377]

---

373 _ رواية شفوية عن عبد الحميد الرايس أوردها عن والده المرحوم محمد محمد بودرة الرايس. انظر:
_ عبد الحميد الرايس، »المسألة المعدنية بالريف...، م.س.، ص..80

374 _ لحسن أغزادي (1989-1988)، **ابن عبد الكريم وحرب الريف**1926-1921 **م**، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية، فاس،. ص..35

375 _ عبد الحميد الرايس، »المسألة المعدنية بالريف...، م.س.، ص..97-96

376 _ نفسه، ص..85-84

377 _ لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم وحرب الريف...، م.س.، ص..36

زادت الأطماع الإسبانية في الريف بعد ضياع الأسواق الفلبينية، خاصة خلال سنة 1908م، حيث قامت برحلة تنقيبية في السواحل، بعد إجراء الشركات المهتمة لمسح ميداني سمح بوضع خريطة تحدد المواقع المعدنية. وتعاظمت وتكثفت الرحلات الاستكشافية خلال العقد الأول من القرن العشرين، أمام تراجع السيطرة المخزنية وتعاظم القوى الاستعمارية بالريف. ومن بين أهم هذه الرحلات، تلك التي قام بها الجيولوجي أبل بريف لفائدة شركة فرنسية[378]، ثم رحلة ديلبريل Delbrelالتي روى حيثياتها إنريكي أركيس Enrique Arques، حيث اعتُقل الاثنان من طرف الريفيين بتهمة التنقيب عن المعادن، وكان ذلك في إبقوين سنة 1907م[379]، وقام الإيطالي أنخيلو گيريلي Guirelli Angelloبدوره بمجموعة من الرحلات الاستكشافية إلى الريف، وقدم خرائط طبوغرافية لمواقع المعادن، مرجحا وجود الفحم المعدني في بوسكور والأنتيموان في مرتفع أَوْغار أو عوندجا، وذلك في قبيلة إبقوين، والأنتيموان ثم معدن الحديد بأيث يطفت. هذا بالإضافة إلى مؤشرات تفيد بوجود البترول بشاطئ ثاوسارث، وقد أنهى أعماله بالتزامن مع الاحتلال الإسباني.[380]

توفرت منطقة الريف الشرقي على نسب معدن الحديد تفوق النسب المسجلة بالريف الأوسط خاصة بمرتفع إكسان وأيث شيكار. وقد استغلت إسبانيا أغلب هذه المناجم، وغطت بعائداتها النفقات العسكرية وقطاعات أخرى، واستفادت أيضا من الدخل الضريبي الذي سجل ارتفاعا من نسبة 18% إلى 50% بين سنتي 1950 و1951م[381]، علما بأن أغلب مشاريع التجهيز التي أنجزتها إسبانيا في منطقة الحماية استهدفت تسهيل استغلال مناجم الريف، حيث عملت إسبانيا بشراكة مع فرنسا على بناء خطوط السكك الحديدية جنوب مليلية في عمق الأراضي المغربية منذ 1910م، هكذا كان خط الناظور ثيزظوظين الذي يبلغ طوله خمسة وعشرين كيلومترا مخصصا لنقل المعادن وحدها.[382]

المبحث الثاني: نمط الإنتاج واقتصاد الندرة بالريف الأوسط

أولا: الفلاحة والصيد

أرغمت الظروف الطبيعية الريفيين على مزاولة أنشطة اقتصادية دون غيرها، أهمها الفلاحة وتربية الماشية، وتحددت الساكنة من خلالها صعوبة التضاريس وقساوة المناخ لبسط نمط زراعي خاص بها.

تعتبر خصوبة التربة أول محدد لغنى النشاط الفلاحي، ونجد بمنطقة الريف أنواعا متعددة، منها الترس (أبركان) والبياض (إدقي) ذات الإنتاج الضعيف، ولحرش (تافريشت=الكلس) ذات الإنتاج المتوسط، والحمري (أوزويغ) التي يعد إنتاجها وافراً[383]، غير أن النسبة الغالبة

378_ Bertrand Desmazieres, Pierre de sorbier (1998), *Le Colbert de Lyautey*, Edition La porte, p.206.

379_ Enrique Arques (1952),*Tres sultanes a la porfía de un reino*, editora Marroquí, Tetuán, , p.44.

380_ Francisco Carcaño Mas (1991), *Melilla Rifeñeras*, Ayuntamiento de Melilla, , p.73.

381_ محمد أوحدو ، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية...، م.س.، ص..74

382_ لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم وحرب الريف...، م.س.، ص. .38

383_ عبد الرحمن الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..92

لهذه الأنواع هي ذات الإنتاج الضعيف، خاصة التربة الكلسية المنفذة[384]. يُسجل مع ذلك، استثناءٌ بضفاف الأودية المغطاة بتربة غرينية خصبة تكونت نتيجة الترسبات، إلا أن أغلبها ضعيف لا يعطي إنتاجا وافرا، خاصة الأراضي ذات التربة الكلسية المنفذة. وتبقى معظم الأراضي مكسوة بالحصى، ولا تساعد الفلاح الريفي على تحصيل مردود زراعي جيد. أما بالنسبة إلى الأراضي الواقعة في المرتفعات والمنحدرات وسفوح الجبال والهضاب، فتتعرض لموجات تعرية قوية بسبب الأمطار، مما يؤدي إلى ظهور شقوق التيبس بالمناطق ذات التكوينات الصلصالية، سرعان ما تتحول إلى أراضي مُعراة وعقيمة، وتزيد التعرية الريحية وسوء الاستغلال البشري من حدة تدهور التربة.[385]

لقد قام اقتصاد الريف، منذ قيام إمارة النكور، على النشاط الفلاحي رغم فقر التربة وقلة مردودها. وتحدث الإخباريون في هذا الشأن عن أنواع هذه الأنشطة بها فها غراسة أشجار الإجاص والرمان التي جُلبت من الأندلس، وانتشار الغراسات الأخرى التي جلبت من المشرق والتي أدخلها بنو أمية مثل الزيتون. وانتشرت بهذا المجال كذلك زراعة القمح والشعير، شكلت الزراعة البورية والمسقية أساس اقتصاد الريفيين، باعتبارها أساس عيش المجتمعات المستقرة، وقد خصصت أيث ورياغر مثلا، حقولها لزراعة الشعير الذي مثل الحبوب الرئيسية في باقي قبائل الريف الأوسط، والذي احتل مكانة خاصة داخل الذاكرة الجماعية، كما سجل حضور داخل الموروث الشعبي باعتباره مادة أساسية لاستمرار الحياة "أيا سيذي إمندي أيا ذفاوث نوخام ماني وا)ر(يدجي أتدوار كورشي ذطرام" بمعنى "سيدي الشعير يا إنارة البيت حيث لا توجد يصبح كل شيء مظلم"، ثم يليه القمح أو الجاودار بجبل حْمام[386]. وحافظ سهل أيث ورياغر الذي يعتبر أخصب منطقة بالريف على مؤهلاته الزراعية المهمة والفريدة من نوعها، واستفاد من عملية الري التي كانت تتم على طول نهري غيس ونكور[387]، وقد عمدت قبيلة أيث عمارث أيضا إلى زراعة الذرة والقنب الهندي، بينما عاش أهل التل على خيرات الغابة فقط، وعرفت القبيلة غرس الأشجار من قبيل اللوز والجوز والتين والعنب والزفزوف[388]. كما عرفت المنطقة انتشار الخضر والقطاني المتنوعة منها الذرة والبازلاء والعدس والطماطم واليقطين والثوم والباذنجان والجزر وما إلى ذلك. ويعطي تعدد أنواع المزروعات انطباعا خاطئاً بأن المنطقة غنية، غير أن المنتوج محدود عموما ورهين بكمية التساقطات السنوية. وأدرك سكان الريف الأوسط وضعهم الصعب وهشاشة البنية الفلاحية

384_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 2.

385_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 2.

386_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص.50.

387_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 3.

388_ Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu Exploration Du Rif* ..., op. cit. p.125.

المتمثلة في قلة التساقطات المطرية وضعف المنتوج الزراعي، الأمر الذي هيمن على حواراتهم اليومية.[389]

عرفت القبائل الساحلية بالريف تقلص المساحات الزراعية نسبيا، وتوفرت فقط على قطع أرضية مجهرية، مع تسجيل غياب التراكم الذي يخلق الفئات الغنية المرتبطة بالزراعة، الأمر الذي دفع بالسكان نحو نشاط الصيد وتجارة التهريب[390]، هكذا يلاحظ تعاطي أهالي قبيلة إبقوين مثلا لزراعة الذرة والقمح بكمية محدودة، مع انتشار زراعة الشعير، وغرس أشجار اللوز الذي كانت تصدر فائضه صوب جبل طارق، مع استغلال الزراعة البورية والمسقية لتحقيق الاكتفاء الذاتي والباقي كان يباع في الأسواق الأسبوعية[391]. كما أن القبائل الداخلية من الريف الأوسط لم تعرف شساعة الأراضي الزراعية، وذلك راجع لإكراه تضاريسي متمثل في انتشار الجبال، رغم أن النشاط الفلاحي كان أساس عيش هذه القبائل. وتمثلت أهم المنتجات الفلاحية بقبيلة إگزناين مثلا في الشعير والقمح والذرة (مسقية) والعدس والفول[392]، لكن ظل التشجير هو الأهم، وإن عرفت نسبته تفاوتا بين قسمات هذه القبيلة، حيث نجد ضمن قسمة أشث عرو عيسى حوالي 6510شجرة زيتون، و22750 شجرة عنب، و2122 شجرة لوز، و600 شجرة برتقال، و56 شجرة جوز، و270 شجرة رمان، وما مجموعه 24200شجرة بين التين والبرقوق والسفرجل. وما يميز التشجير في هذه القسمة هو توفر السقي الجيد، رغم ضيق المساحات الصالحة للزراعة. ونذكر مثال دوار الدوايار ضمن نفس القسمة الذي يتوفر على إمكانيات مائية مستقلة وتربة خصبة، لكن موقعه بين سلسلتين جبليتين مرتفعين صخريين متقاربتين حال دون اتساع مساحتها المزروعة[393]، وبلغ عدد أشجار الزيتون بقسمة أشث يونس 9000شجرة، وعدد أشجار العنب 95000، بالإضافة إلى 4500شجرة لوز و30000 شجرة بين التين والبرقوق. وتميزت هذه القسمة بانقسامها إلى منطقتين، واحدة عليا، أي أشث يونس ننج (الفوقاني) انتشر فيها التشجير، وأخرى نواداي (التحتاني) عرفت زراعة الحبوب[394]. سجلت قسمة أشث محند من جانبها قلة التشجير، حيث نجد 2965شجرة زيتون فقط، و2800 بين كل الأنواع الأخرى.[395]

---

[389] _ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص.53.

[390] _ Mohamed Ounia(1995) , «Les structures agricoles dans le Rif pré-colonial : cas de Boqqouia», Revue *Maroc-Europe*, n°8, p.24.

[391] _ أنخيلو گيريلي، إبقوين قبيلة...، م.س.، ص.69.

[392] _ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.11.

[393] _ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Oulad Ali ben Aissa , Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p.3.

[394] _ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Beni-Younes, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p.3.

[395] _ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Beni-M'Hamed, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p. 2.

اتنشر التشجير بمنطقة إگزناين على نطاق واسع، حسب ما نستشفه من إحصائيات إدارة الحماية الفرنسية سنة 1941م التي تقدم الأرقام التالية: 40511شجرة زيتون، و476146 شجرة عنب، و34256 شجرة لوز، و672 شجرة برتقال، و714 شجرة كرز وجوز، و1161 شجرة رمان، وحوالي 95665شجرة مختلفة النوع[396]. وخُصصت في المقابل في المنطقة مساحة أربعة آلاف وسبع مائة وثلاثة عشر هكتارا لزراعة القمح وثلاثة عشر ألف واثنين وثلاثين هكتارا للشعير وثلاث مائة وثلاثة وتسعين هكتارا للفول وخمس مائة وأربعة وتسعين هكتارا للذرة وسبعة هكتارات لحبوب الجاودار واثني عشر هكتارا للحمص وثلاث مائة وخمسة وسبعين هكتارا للعدس وتسعة وسبعين هكتارا للبازلاء ومساحة ثلاثة آلاف ومائة وخمسين هكتارا لزراعات أخرى مختلفة.[397]

عرفت كل من قسمة أشث عرو عيسى وأشث يونس في السابق نشاطا لا بأس به للتشجير، حيث كان عمر أشجار الزيتون يناهز الثلاثين سنة حسب الإحصائيات الفرنسية لسنة 1941م، مقابل غياب التشجير حديث العهد، ما يوضح قلة اهتمام الجيل الجديد بهذا النشاط، واختيار تحدي الهجرة نحو الجزائر. غير أن الاستثمار الجيد للموارد المائية زاد من إنتاجية هذه الأشجار التي فاقت فائدتها زراعة الحبوب ذات المردودية الرديئة. ونجد من بين أهم هذه الأشجار الزيتون واللوز والجوز والتين والعنب والبرتقال، مع تسجيل نسبة مهمة من أشجار المندرين في قسمة أشث عرو عيسى.[398]

لا تختلف تضاريس وتربة أيث عمارث عن نظيرتها في قبيلة إگزناين، مما سمح بالتشجير المكثف في هذه المنطقة كما دأب الفلاحون على ذلك في السابق، وبفضل الاستفادة من مساعدة إدارة الحماية الإسبانية، حيث يشير إيميليو بلانكو إلى عملية غرس أشجار أعدت في مشتل بالمنطقة سنة 1929، بالإضافة إلى تقديم طلب إلى الإدارة في الحسيمة لتزويد هذه القبيلة بشتلات تهم 2000شجرة زيتون و2000 شجرة لوز و450 شجرة تفاح و450 شجرة برقوق و50 شجرة برتقال و50 شجرة رمان[399]. كما ترتبط موارد قبيلة أشث توزين بما تتوفر عليه من الأراضي الصالحة للزراعة المخصصة بالأساس لزراعة القمح والشعير والذرة، لكن

396_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, en date du 20 Mai 1941, p.11.

397_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, en date du 20 Mai 1941, p.11.

398_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p.12.

399_ Emilio Blanco de Izaga (2010), La vivienda rifeña ensayo de características e interpretación con ilustraciones del autor1930, Consejería de cultura, E.2, Melilla, p.46.

الغنى الحقيقي للقبيلة كان يتمثل دائما في الأشجار المثمرة والبساتين المتعددة، التي تنتج الزيتون والزيت بكثرة[400] واللوز والرمان.[401]

لجأ سكان الريف إلى عدة سبل لحفظ المنتوج الفلاحي أهمها تجفيف التين والعنب، أمام قلة الموارد الطبيعية، ونمط اقتصاد الندرة، والاكتفاء بوسائل الإنتاج العتيقة، وذلك من أجل ضمان توفير الطعام خلال فصل الشتاء وسنوات الجفاف.[402]

ظل النشاط الفلاحي بقبائل الريف الأوسط ضعيفاً، وذلك راجع للتساقطات المطرية غير الملائمة، خاصة خلال العقد الرابع من القرن العشرين الذي شهد جفافا استثنائيا انتهى بمجاعة موسم 1945-1944م، حيث كانت المحاصيل الزراعية ضعيفة جدا، إن لم نقل منعدمة. فلم يسجل أي محصول في قسمة أشث محند مثلا، وهي التي كانت تحقق أعلى إنتاج على مستوى القبيلة. تم تعويض هذا النقص بالاستفادة من موارد تربية المواشي بفضل ما توفر في المنطقة من القطعان الكبيرة، وهو ما مكن الأهالي من كسب رزقهم. افتقرت هذه القسمة إلى البساتين والأشجار المثمرة والموارد المائية الكافية، لكن الأهالي تداركوا الأمر لاحقا بالتنقيب على مياه الري وتحسين المحصول ووضعية الفلاح[403]. ظلت الزراعة بالريف بشكل عام رهينة بمنسوب التساقطات منذ القدم وتكرس الوضع، خصوصا في الأربعينات من القرن الماضي، حيث تركت مجاعة 1945م أثرا عميقا ودائما في الذاكرة الجماعية للريفيين.[404]

رافقت تربية الماشية نشاط الفلاحة وكانت مكملا له، وتفاوتت أهمية هذا النشاط من قبيلة لأخرى داخل الريف الأوسط، حيث كثرت الأبقار والأغنام في سهول الريف، مقابل انتشار الماعز والحمير بقمم الجبال[405]، مع تسجيل حضور الدواب وبعض الخيل، في كل المناطق الريفية باعتبارها من ضمن وسائل المواصلات، والجدير بالذكر أن المراعي كانت ملكا جماعيا، ودأب الريفيون في حالة عدم توفرهم على عضو من العائلة لرعي ماشيتهم على التعاقد أخلاقيا مع راع يقوم بهذه المهمة. علما بأن غالبية التعاقدات كانت شفوية ويسري مفعولها لمدة محددة يتم التوافق حولها تدوم سنة أو أكثر. وتُسند إلى أحد الأعيان الذي يحظى بثقة واحترام أهالي القبيلة مسؤولية فسخ مثل هذه التعاقدات في حالات خاصة نذكر منها:

400_ نلاحظ انتشارا واسعا لأشجار الزيتون التي أنتج منها الريفيون زيت الزيتون باستعمال المعصرة التقليدية التي ارتبطت كأدوات فلاحية أخرى، بالعهد الروماني. وكانت ملكية معصرة الزيتون جماعية في أيث ورياغر، الأمر الذي لا ينفي امتلاك الأشخاص أيضا لهذه الأداة. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..63-62

401_ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, p.39.

402_ Bernard Rosenberger (2018), Le Maroc au XVI[e] siècle Au seuil de la modernité, Faculté des lettres et des Sciences Humaines de Rabat, Deuxième édition, p.35.

403_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.11.

404_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..53

405_ الحسن الوزان، وصف إفريقيا...، م.س.، ج.1، ص..324

إهمال الشريك المكلف بالقطيع الاعتناء بالماشية، أو تعريضها للخطر، أو وفاة أحد المتعاقدين، أو نفوق القطيع.[406]

اكتست الدواب والمواشي والدواجن أهمية اقتصادية بالغة في الريف، باعتبارها من وسائل الإنتاج، كما احتفظ الريفيون ببعض الحيوانات الأليفة، فلم يكن يخلو مسكن من القطط والكلاب، حيث كان يستعان بهذه الأخيرة لحراسة المساكن والصيد. وتكشف كثرة الدواب وندرة الخيول عن طبيعة التضاريس الوعرة. قام الريفيون أيضا بتربية خلايا النحل، علما أن ملكيتها كانت فردية.[407]

كان عدد رؤوس الماشية والدواب في إگزناين حسب إحصائيات إدارة الحماية الفرنسية في الفترة الممتدة ما بين 1935 و1940م على النحو التالي: نحو 123حصانا و89 فرسا، و5336 رأسا من البقر، و1531 عجلا، و16611 رأساً من الغنم، و75071 رأساً من الماعز، و2430 دابة[408]. كما عرف نشاط تربية المواشي مراحل أوج وتراجع، ففي شتاء 1945م، وهي سنة المجاعة كما هو معروف، تراجع نشاط تربية الماشية بشكل كبير في قبيلة إگزناين، بعد أن كان جد متقدم قبل ذلك، وتمت هيكلته من جديد وشهد هذا النشاط فترة انتقالية استمرت حتى سنة 1947م، سجلت خلالها أضعف النسب، قبل أن تنتعش من جديد بعد هذا التاريخ. وتعتبر تربية الماعز الأكثر نجاحا بالمنطقة وذلك راجع لطبيعة المنطقة الجبلية ونوعية ابغطاء النباتي، غير أنها تعاني شتاء من قلة المراعي. نفس الصعوبة تسجلها تربية الأبقار، حيث كانت قسمة أشث محند تستفيد من مراعي قسمة بورد مقابل عدم استقبالها للقطعان الخارجية. وسجلت الإحصائيات خلال سنة 1945م 24794 ،رأس من الماعز و5370 رأس غنم و1926 رأس بقر، وخلال سنة 1947م 11213 ،رأس ماعز و771 رأس غنم و855 بقر[409]، وسجلت نفس الإحصائيات سنة 1949بقسمة أشث عرو عيسى حوالي 40دابة و460 رأس بقر و20 رأس غنم و3760 رأس ماعز[410]، وبقسمة أشث يونس 360دابة و500 رأس بقر و80000 رأس

406_ عبد الرحمن الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، صص.154-153

407_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص.54

408_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, en date du 20 Mai 1941, p.11.

409_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p.12.

410_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Oulad Ali ben Aissa, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p. 3.

ماعز و700 رأس خروف[411]، بينما نجد بقسمة أشث محند 222دابة و1000 رأس غنم و5000 رأس ماعز.[412]

لا تختلف أهمية تربية الماشية في أيث توزين عن مثيلتها في قبيلة إگزناين، حيث سجلت التقارير الاستعمارية الإسبانية نسباً مهمة من الأبقار والخرفان، مع غياب نشاط تربية الخيل، بينما كانت الدواب تستعمل على نطاق واسع للتنقل والعمل.[413]

حقق الريفيون الاكتفاء الذاتي من خلال مزاولة نشاط الفلاحة، لكن نسجل حصول عجز غذائي بالمنطقة خلال تردد سنوات الجفاف، وظهرت ظاهرة رهن الأملاك مقابل الحصول على بعض الشعير وغيره من الحبوب. وقد ظلت غلة الأشجار والفواكه المجففة التي تزخر بها المنطقة موردا ينقذ أهل الريف من المجاعة، ويحسن دخل الساكنة عن طريق مقايضة المحصول وتسويقه داخليا وخارجيا. علما بأن تربية الماشية شكلت دائما وسيلة هامة لسداد جانب من الحاجة الغذائية بالريف. وقد أَوْلى الريفيون أيضا اهتماماً واضحا بتربية النحل، وزاولوا الصيد البحري والقنص باعتبارهما أنشاطين اقتصاديين مكملان للأنشطة السالفة الذكر، وخصصت للقنص أيامٌ معلومة من أيام الأسبوع دون يوم الجمعة ويوم السوق حسب كل قبيلة. أما وسائل القنص فكانت بسيطة تعتمد على الفخاخ والعصي والكلاب، كانت تفرض الغرامة المالية على من خالف قواعد وأعراف الصيد.[414]

وانتشر الصيد البحري في إبقوين وثمسمان، القبيلتان اللتان تتوفران على شواطئ مهمة لممارسة الصيد البحري مقارنة مع أيث ورياغر. وقد عمد الصيادون إلى استعمال القارب المعهود في المنطقة الذي يطلقون عليه اسم «أغارابو» بمجاديف مصنوعة من خشب الصنوبر، ويبلغ طوله ستة أمتار وعرضه متران، ويمكن الإبحار به لنحو كيلومتر لاصطياد السردين والرنكة وأنواع أخرى بين شهري غشت وماي. وهناك نوع أصغر من القوارب يسمى «مورونة» يبحر به الصيادون لمسافة أقل تقارب المائتي متر لاصطياد أسماكٍ بحجم أكبر، وذلك بين شهري مارس ويوليوز. غير أن القوارب كانت معدودة، ما جعل النشاط البحري محدوداً بدوره. أما القنص فقد جمع بين التسلية وسداد الحاجة الغذائية، باعتباره نشاطا غير منتظم، باستثناء اصطياد الأرانب الذي كان يتم خلال فترة تساقط الثلوج، ويقوم الصيادون بتوزيع الطرائد بالتساوي. نشير أيضا إلى ظاهرة اصطياد الخنزير بشكل موسمي لتجنب الضرر الفلاحي.[415]

411_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136*, Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Beni-Younes, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p.3.

412_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Beni-M'Hamed, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p.2.

413_ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, p.40.

414_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 4.

415_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص..88-87

توفر قطاع الصيد البحري بالريف الشرقي الأكثر حيوية على تقنيات الصيد الساحلي والصيد في أعالي البحار، الذي كان يصل بين شواطئ مليلة وسبتة والحسيمة، وكانت مجموعة من المعوقات تعترض هذا النشاط، منها عدم توفر المنطقة على بنيات استقبال مساعدة على مستوى الموانئ ومرافئ البواخر من أحجام كبرى قادرة على صناعة سفن تستوعب حجم هذا النشاط، ونسجل ارتفاع مداخيل الصيادين الإسبان في المنطقة مقارنة مع نظرائهم من قبائل الريف الأوسط، إذ بلغت أكثر من 7.192.000 بسيطة، ما يوضح أن المستعمر كان يستغل خيرات المنطقة، ما كرس فقر سكانها.[416]

ثانيا: الصناعة والتجارة

اعتمد الريفيون في صناعاتهم على الموارد الأولوية المتاحة، واستغلوا مجالهم لينتجوا صناعات محلية، غطوا من خلالها متطلبات الحياة اليومية، من قبيل أثاث البيت وأدوات التزيين، ووسائل الإنتاج كالقوارب والمحاريث. وقد سوقوا فائضها داخل القبيلة وخارجها، ووفرت لهم موردا اقتصاديا إضافيا.

عرف الريف مجموعة من الصناعات مند قيام إمارة نكور أهمها، صناعة السفن التي استفادت من وفرة خشب الأرز ومعدن الحديد، ورافقت صناعة طواحين الغلال نشاط الزراعة، بالإضافة إلى الصناعات التي تطلبها العمران والبناء، وعملت قبائل الريف الأوسط على تطويع الجلد والخشب واستغلاله في الصناعة[417]. عرفت المنطقة أيضا صياغة الذهب والفضة[418]، وسك النقود عن طريق الاستفادة من خبرات اليهود المقيمين بالمنطقة.[419]

ارتبطت صناعة الفخار في الريف بالمرأة بشكل عام، ويُنتج فخار من نوع جيد في مجموع الريف، غير أن نساء قبيلتي إبقوين وأيث ورياغر تميزن بصناعة فخار له خصوصيته سواء من حيث أشكاله أو نقوشه أو جودة النحت والمواد المستعملة[420]، وتشبه نقوش الفخار في هذه المنطقة نظيرتها القبرصية والإيبيرية خلال الألفيتين الثانية والثالثة قبل الميلاد، والتي عثر عليها شرق المنطقة المتوسطية، ما يؤكد قدم هذه الصناعة، ووجود صلات ريفية إيبيرية، وكانت النقوش عبارة عن خطوط أمازيغية ما يدل على انتشارها في العالم المتوسطي. وتعود محدودية إنتاج الفخار الريفي بالأساس إلى بساطة الأفران وغيرها من وسائل الإنتاج التقليدية[421]، ومن الصناعات التقليدية الأخرى التي انتشرت بالريف يمكن ذكر صناعة السروج والسلال والجبس.[422]

---

[416]_ محمد أوحدو ، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية...، م.س.، ص..72

[417]_ *M.E.D.A., Taghzout,* L'Union Européenne, 23-02-2001, p. 2.

[418]_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..93

[419]_ عبد الله بوصوف، جوانب من تاريخ إمارة نكور...، م.س.، ص..70

[420]_ María José Matos(1927-1945), «La Cerámica Rifeña. Tierra, Agua, Fuego y manos femeninas», *La Atlántida Rifeña de Emilio Blanco Izaga: La impronta de un militar español en marruecos*, , Edición de Vicente Moga Romero. Melilla, 2014, p.78.

[421]_ أنخيلو گيريلي، إبقوين قبيلة...، م.س.، ص..73-72

[422]_ سعيد الأشعري، »الصناعة التقليدية بالريف الشرقي ودورها في تحقيق التنمية المحلية ،«**مجلة الذاكرة**، العدد الثاني، مركز الريف للتراث والدراسات والأبحاث، الناظور، 2017، ص..60

لم تحظ صناعة النسيج في الريف الأوسط والشرقي بأهمية كبيرة عكس الريف الغربي، وذلك نظرا لغياب المواد الأولية من جهة، والاكتفاء بنسيج مليلية من جهة أخرى. وشهد الريف انتشار صنعة الحدادة التي أنتجوا من خلالها الفؤوس وسكك الحرث، حيث انتشر «إمْزيرن»، أي الحدادون في جميع أرجاء الريف وشكلوا دواوير خاصة بهم في الريف الأوسط. عرفت منطقة الريف عموما وفرة في نبات الدوم الذي أصبح مادة أولية لصناعة عدة أدوات للاستعمال اليومي طَوّعَتْه أيادي النساء والرجال وتم ترويج منتجاته في الأسواق المحلية[423]، نشير أيضا إلى انتشار صناعة الحصر بنبات الحلفاء على نطاق واسع في أشث محند بإگزناين، وقد تم تصدير هذه الحصر إلى منطقة الحماية الإسبانية ومقايضتها بالمواد القطنية.[424]

انحصرت الصناعة الريفية في احتياجات الحياة اليومية، وتجاوزتها في أحيان قليلة جدا لتشمل بعض أواني التزيين. وقد حقق من خلالها الريفيون نوعا من الاكتفاء الذاتي، وعرضوا فائضها في الأسواق، واستعملوا مداخيلها لاقتناء المواد التي يصنعها المستعمر.

قامت إمارة نكور حول سوق أقامه بنو صالح على الضفة اليمنى لنهر نكور، باعتباره نواة تجارية ساهمت في إرساء قواعد العمران، وشرع إدريس بن صالح في تعميم وتيرة قيام العمران على الضفة الأخرى لنهر نكور خلال نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات من القرن الثاني الهجري، وأكمل عمله التجاري والعمراني ابنه سعيد[425]. عرف الريف في ظل إمارة نكور ازدهارا على مستوى الحرف والتجارة والفلاحة، واتسعت رقعة مبادلاتها أفقيا وعموديا، الأمر الذي انعكس على البنية الاجتماعية، وبرز دور العامة التي شكلت الدعامة الأساسية للسلطان في مواجهة تجاوزات أرباب الدواوين ومنفذي الجند .[426]

ونشطت التجارة بأسواق نكور نظرا لوجود نظم ومقاييس مضبوطة للمعاملات من مكاييل أهمها الصحفة التي تعادل 25مدا، علما بأن المد هو المكيال المحدد للزكاة في الإسلام، وأوزان كالرطل الذي يساوي 22أوقية، ونقود في شكل دنانير ذهبية مشهود بسلامتها ودقة وزنه اوكانت تُروج بالتالي عداً وليس وزنا حسب جاك كاني، ونقلا عن صاحب كتاب لقى السنين 1007م، وكانت التجارة تنشط بالمراسي والأسواق، ومثلت نكور ممرا تجاريا مهما.[427]

استمر بلاد الريف في العصر الوسيط في تسويق منتوجاته خارج المنطقة عبر مليلية ومنها إلى مالقا وقرطاجنة، حيث كان الريفيون ينقلون إليها الصوف والفواكه الجافة والسلال والشمع والعسل، ويحصلون مقابلها من التجار الأوروبيين على الأقمشة والأدوات المعدنية

423_ عبد الرحمن الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..167

424_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.12.

425_ أحمد الطاهري (1998)، «بواكير العمران الحضاري ببلاد نكور بين الأركيولوجيا والتوثيق »، **حوليات الريف**، العدد الأول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ، ص..8

426_ محمد أونيا(1999)، «قراءة في إمارة بني صالح في بلاد نكور »،**حوليات الريف**، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 154.

427_ عبد الله بوصوف، جوانب من تاريخ إمارة نكور...، م.س.، صص..72-71

والأسلحة[428]، كما اعتبر الجغرافيون العرب الريف الأوسط وجهة للتجار من الجهة المقابلة لبحر الروم، وذكروا أن مدينة النكور كانت تتوفر على كل ما يلزم للعيش وكانت تصدر عبر مرسى المزمة الصوف والحبوب.[429]

مرت قبائل الريف الأوسط بنمط التجارة العتيق من خلال تبادل السلع عبر مؤسسة السوق، وراجت بها العملة الحسنية والبسيطة خلال القرن 19م، وحُددت قيمة معدن العملة بقيمة السلع. تعاملت قبيلة إگزناين خلال الفترة الاستعمارية بالفرنك باعتبارها ضمن مجال المنطقة الفرنسية رغم أن نسبة هامة من معاملاتها التجارية كانت تتم مع المنطقة الإسبانية حيث تروج عملة البسيطة، وقد أثر الارتفاع النسبي لقيمة هذه العملة على السوق التجارية، مما جعل تجارة الحدود غير متكافئة، رغم أن منتوجات هذه القبيلة كانت مربحة.[430]

جمع السوق بين الدورين الاقتصادي والاجتماعي واكتسى صبغة القداسة في الذاكرة الجماعية الريفية، حيث كثيرا ما يكرر الريفيون عبارة: «نهار ن اسوق غاس رْحو)ر(مثْ» التي تؤكد على حرمة يوم السوق وجو الأمان والإنسانية التي كانت تطبعه[431]، وقد امتدت ظاهرة الأسواق الأسبوعية[432] الرئيسية خلال الفترة المعاصرة، ونذكر من أهمها، سوق أيث وریاغر، وسوق أربعاء تاوريرت، وكانت دائمة الحراسة من قبل حارس مقيم، مع استمرار مداومة دكان أو اثنين طيلة أيام الأسبوع لتلبية المتطلبات اليومية من الشمع السكر الشاي وعود الثقاب[433]. نستشف من ملاحظة طريقة عمل الأسواق أن اقتصاد الريف كان مغلقاً، فلكل قبيلة سوقها، وعقدها الخاص بالرهن أو التعهد، وكل نشاط أجنبي مراقبٌ بشكل مشدد من طرف «اجْماعثْ» اجْماعة[434]، الأمر الذي نجده حاضراً في قبيلة إگزناين التي مارست مبادلاتها

428_ إيلي دو لابريمودي (1999)، «المدن البحرية بالمغرب تجارة ملاحة وجغرافية مقارنة»، ترجمة عز الدين الخطابي، **حوليات الريف**، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 12.

429_ إيلي دو لابريمودي، «المدن البحرية...، م.س.، ص..23

430_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136*, Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p. 12

431_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث وریاغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..109

432_ تنشط الأسواق الأسبوعية بالريف عامة، وتسمى هذه الأسواق بأسماء أيام الأسبوع متبوع باسم موضع السوق أو القسمة أو القبيلة التي تحتضنه، ويعتبر يوم السوق مناسبة للتواصل الاجتماعي، وله دور سلمي أكثر من دوره التجاري. كما يجتمع به مجلس القبيلة، ويتم في هذا الفضاء الاجتماعي بامتياز الفصل في القضايا المطروحة، وتُفرض أو تُستخلص فيه الغرامات المفروضة، وتطبق فيه الأحكام. وتبرز قيمة السوق لدى الساكنة في مضاعفة العقوبة على الجريمة المقترفة داخله أو بالقرب منه خلال يوم انعقاده.

-تعتبر قبيلة أيث وریاغر أكبر قبيلة بشمال المغرب وكانت تتوفر على سبعة أسواق خلال فترة الحماية هي: سوق الأحد في ثماسينت والاثنين في أيث حذيفة والاثنين في أيث بوعياش، وسوق أربعاء ثوريرث، وخميس إمرابظن، وخميس أيث عبد الله، وسوق السبت في إمزورن. شهدت بعض الأسواق في هذه القبيلة فترة ازدهار تلاها خفوت انتهى بالاندثار، نذكر كنموذج منها سوق أحد »ثيسار« الذي كانت له أهمية اقتصادية وسياسية في فترة »الريفوبليك« باعتباره الموقع المثالي لانعقاد مجلس القبيلة، غير أن مكانته اندثرت بعد مرحلة التهدئة بسبب التوجه الرسمي للإدارة الإسبانية المتمثل في اللاتمركز على المستوى الإداري، وألغي هذا السوق كليا مع تقسيم الكولونيل إيميليو بلانكو للقبيلة إلى ثلاث قيادات سنة 1934م، فتحول موقعه إلى ثماسينت ليفقد أهميته الاقتصادية والسياسية. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث وریاغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 113-112.

433_ أورسولا كينغسميل هارت(2010)، **وراء باب الفناء الحياة اليومية للنساء الريفيات**، ترجمة عبد الله الجرموني، منشورات تيفراز6، الرباط، ص..113.

434_ *A.D.N., Fonds Maroc- Protectorat, série 1MA/285/ 73*, Etude sur les actes en pays de coutume, 1922, p.22.

التجارية الخاصة المتمثلة أساسا في بيع المواشي (والتي تمثلت بالأساس في بيع الماشية[435]، داخل سوق اثنين ثيزي أوسري «رثنين نثيزي وسري» بأزرو بقسمة أشث يونس. وكان هذا السوق بمثابة مركز لتسوية خلافات القبيلة التي يبت فيها المجلس القبلي أو «أيثاربعين»، «أشتاربعين» بالنطق المحلي[436]. توجد بالإضافة إلى هذا السوق الهام أسواق أخرى نذكر منها: سوق الخميس «رخميس» بأجذير بقسمة أشث عاصم، وسوق الأربعاء «را)ر(بع» ببورد، وسوق الأحد «رحد» بدار القايد المذبوح[437]، وسوق الثلاثاء «تراثا» بقسمة إشاوين[438]، أما أيث توزين فكانت تتوفر على ثلاثة أسواق رئيسية هي سوق ثلاثاء إگار ما)ر(واس بقسمة إغا)ر(بيين، وسوق أحد بوبراهم بأيث عكي، وسوق ثلاثاء أزراف بقسمة أيث تعبان، وكان التوزينيون يترددون على سوق ثفرسيث وأربعاء توريرت التابع لأيث وریاغر[439]، وكان مركز قبيلة أيث عمارث عبارة عن سوق أسبوعي "سوق نرثنين"، واكتسى أهمية سياسية واجتماعية أكثر منها اقتصادية.[440]

كانت هناك أسواق[441] تجمع بين أكثر من قبيلة أهمها سوق أحد الرواضي بإبقوين الذي كان يرتاده سكان القبيلة وأيث وریاغر وأيث بوفراح وترگيست وزرقت، ويعقد في نفس اليوم

435_ صدرت قبيلة إگزناين الماعز والزبيب والتين المجفف وحصر الحلفاء وجلود المواشي، وقامت باستيراد مجموعة من المواد الكولونيالية، منها السكر والشاي والشموع والأقمشة القطنية، كما جلبت الحبوب والمواشي من القبائل المجاورة في بعض الأحيان. انظر

- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série 12MA/900/136, Confidentiel***,** Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, en date du 20 Mai 1941, p.11.

- كانت قبيلة إگزناين تصدر الزبيب والتين المجفف وحصر الحلفاء وتستورد كل ما هو كولونيالي من سكر وشاي وصابون وشمع وأقمشة قطنية وزيت، وقامت خلال سنوات 1946-1945م باستيراد الحبوب، حيث لم يكفيها الإنتاج المحلي. انظر:

- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.12.

436_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947**,** p.12.

437_ *B.N.E.A.H., A.F., A.M.P.S., serie 121H1802r.,* N° 18[2], El Rif Marruecos Zoco El Had De Gueznaia, Talleres del Servicio Geográfico del Ejército, Mapa Provincial en 150000, 1949. P.1.

438_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série 12MA/900/136, Confidentiel*, Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, en date du 20 Mai 1941, p.11.

439_ *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, p.41-42.

440_ *B.N.E.A.H., A.F., A.M.P.S., serie 121H1703r.,* N° 17, El Rif Marruecos Zoco Et Tzenin de Beni-Ammart, Talleres del Servicio Geográfico del Ejército, Mapa Provincial en 150000, 1949. p. 1.

441_ عرفت الأسواق الأسبوعية تنظيماً ملحوظاً، إذ لا تتغير مواقع الباعة والسلع من أسبوع لآخر، وعرفت جلب سلع مستوردة منها الأقمشة والثياب، وعرفت تسويقا جيدا للمنتوج المحلي المتكون من أدوات الحديد والنسيج والحلفاء والدوم والخشب والطين. مع ملاحظة نوع من التخصص، حيث ينتمي الجزارون والخياطون مثلا إلى أيث عكي، وصناع الحبال ونعال الدوم إلى إبقوين. تجدر الإشارة أيضا إلى مهمة الجابي المكلف باستخلاص رسوم السوق أو »أعْشّار «التي كانت تسند عموما إلى التوزينيين.

سوق للنساء[442]، ويسمى «رحد ن ثمغارين»، أي سوق الأحد للنساء. ويعتبر انعقاد سوق الرجال والنساء في نفس اليوم استثناء في الريف[443]. يمكن اعتبار سوق اثنين أيث حذيفة سوقا جهويا نظرا لتلبيته لحاجيات قسمتين فأكثر، وشكل سنة 1934م مركزا للمراقبة الإدارية لقيادة غيس العليا، ما جعل قيمته التجارية والسياسية تكبر. وتميزت أسواق أيث ورياغر بنوع من التخصص في تسويق سلعة معينة بالإضافة إلى السلع المألوفة في جل الأسواق، هكذا اشتهر سوق السبت بإمزورن بترويج الخضر والفواكه، وسوق أربعاء ثوريرث بالعنب والسلع المهربة، واثنين أيث بوعياش بتجارة المواشي، ثم اثنين أيث حذيفة وخميس إمرابظن بتجارة الحبوب.[444]

ويمكننا رصد نوعين من الأسواق في الريف، الأولى محلية والثانية جهوية تلبي حاجيات قسمتين على الأقل، وقد تحولت هذه الأسواق خصوصا في الريف الشرقي، إلى مراكز قروية بفضل رواجها التجاري الكبير وسهولة الوصول إليها، الأمر الذي لم يحدث في الريف الأوسط، إلا في حالات استثنائية كسوق السبت بإمزورن مثلا وسوق الخميس في ثمسمان، حيث ظلت الأسواق ذات سلع محلية في الغالب، ويؤدي السوق أربع وظائف اقتصادية، هي بيع وتسويق المنتجات المحلية، ومبادلة الفائض مقابل سلع أخرى، وترويج الأدوات المصنوعة يدويا، ثم نشر وترويج السلع الخارجية، وقد ميز مدى التركيز على الوظيفتين الأخيرتين الأسواق الكبيرة عن الصغيرة خلال فترة الحماية.[445]

شكلت هذه الأسواق فضاء لإجراء مختلف المعاملات التجارية، وتسويق المنتجات الفلاحية، والبضائع الأوربية والسلع المستقدمة من تطوان وفاس أهمها المواد القطنية والشاي والسكر والقهوة، واختلف حجم الأسواق من قبيلة لأخرى، وشكّلت نقطة تماس بين مجموعة من الجماعات، وكانت تُسوى عن طريقها النزاعات القضائية والسياسية والاقتصادية. كما ساعدت على دمج الجماعات القبلية التي فرقتها الظروف الجغرافية، وربط علاقات بين الفلاحين، وارتبطت خلال الفترة الاستعمارية بالمواقع العسكرية. لذلك حاول الاستعمار تحطيم البنيات التقليدية للقبيلة الريفية التي كانت الأسواق أحد عناصر لحمتها، فعمل على استحداث أسواق جديدة أو إلغاء أخرى هامة أو تحويل مواقع بعضها.[446]

-أشار بلانكو إلى أن كثافة السوق تفوق كثافة الحاضرين لأداء صلاة الجمعة، ما يؤكد أهمية السوق الأسبوعي. أما بالنسبة إلى القبائل الصغيرة جدا فتشارك في سوق القبيلة الرئيسي، ويكون ذكوريا بامتياز ولا تحضره من النساء إلا العجائز والفتيات الصغيرات أحيانا. دأب الريفيون على اختيار موقع السوق الأسبوعي بعناية، ولم يكن يشهد مكان انعقاده أي نشاط آخر طيلة أيام الأسبوع، غير أن سلطات الحماية الاسبانية والفرنسية تنبهت إلى أهمية هذه الموقع لتركز مراقبتها بعين المكان، فقامت ببناء دكاكين محيطة بالسوق، الأمر الذي أعطى للسوق قيمة اقتصادية، بالإضافة إلى القيمة السياسية، إذ كان السوق يشهد انعقاد اجتماع الجماعة والبت في مختلف القضايا التي تهم الشأن المحلي، وللسوق قيمة روحية لأنه يقام عادة قرب الولي الصالح الذي يحميه. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص.123-112

[442]_ ارتأينا التفصيل في موضوع الأسواق النسائية بالريف في الجانب الثقافي نظرا لقلة أهميتها الاقتصادية.

[443]_ أنخيلو گيريلي، إبقوين قبيلة...، م.س.، ص. 79.

[444]_ *B.N.E.A.H., A.F., M.R., serie IB.5759210*, N° 104, El Rif Marruecos Fracción de Beni Hadifa, Talleres del Servicio Geográfico del Ejército, Mapa Provincial en 150000, 1928. P.2.

[445]_ دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..108

[446]_ عبد الرحمن الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..158-157

تميزت الحياة الاقتصادية بالريف الأوسط عبر التاريخ بالأراضي، والأسواق والأملاك والخزائن، وكان الريفيون يعرضون منتجاتهم، ومصنوعات اليهود الذين كان لهم دور اقتصادي بالأساس، ولم يشاركوا في النزاعات الدموية أو يحملوا السلاح أبدا، مستفيدين من حماية زعيم قسمةٍ أو أعضاء إحدى السلالات الذين كانوا مستعدين للدفاع عنهم حتى الموت إن اقتضى الحال، ورغم الوضع الاجتماعي المتواضع لليهود في الريف، إلا أن خدماتهم كانت مطلوبة، خصوصا منها صياغة الحلي الفضية والذهبية وصناعة البرادع[447]. لم يكن المجتمع الريفي رأسماليا، ولم يفرز طبقة اجتماعية محترفة في التجارة، باستثناء المناطق القريبة جدا من مليلية وتطوان وفاس، ويعود غياب الوسطاء التجاريين بالمجتمع الريفي إلى غياب أشكال الإنتاج التجاري، والعلاقات الأفقية التي تربط بين مختلف وحدات الإنتاج، وإن وجدت العلاقات العمودية فإن التبادل التسويقي لا يؤثر بشكل كبير في المجتمع الريفي من حيث الكم.[448]

رغم فقر سكان الريف الأوسط وعدم مراكمتهم لرؤوس أموال كبيرة، إلا أنهم اعتبروا ريفهم كله خير، باستثناء بعض الحالات، نذكر منها وضع عمر بن محمد بن محمادي من قبيلة إگزناين الذي راكم حوالي 1.500,000فرنك، وهو المبلغ الذي كسبه بفضل التجارة[449]. غير أننا نرصد ظهور فئة الأعيان والتجار الأغنياء بقبائل قلعية من الريف الشرقي نتيجة التجارة مع مليلة، وامتلكوا السلاح وتمردوا على السلطة.[450]

اكتست الجزر أهمية تجارية بالغة، واحتلت بها الصادرات والواردات نسباً مهمة، وكان القنب من ضمن الصادرات المحلية، كما كانت هذه الجزر معبرا لتجارة التهريب، خاصة تهريب الحبوب والسلاح والمعادن.[451]

لقد دأبت قبائل الريف على استيراد المنتجات الأوروبية عبر ميناء مليلة[452]، ويعتبر الميناء القطب الحيوي في المدينة نظرا لاحتوائه على مجمل مشاريع المدينة، خاصة مشروع مد الطرق الذي أعطى نفسا جديدا للتجارة والمواصلات عبر الميناء، وخصصت شركات الملاحة البحرية رحلات تجارية نحو الحسيمة خلال كل أسبوع أو أسبوعين، منها: عابرة البحر الأبيض المتوسط La Transmediterránea، وسوطا وأثنار Sota yAznar، والإخوة كابو Cabo hermanos، والشركة الألمانية للملاحة La Compañía Alemana، بالإضافة إلى الشركات الفرنسية من قبيل شركة الملاحة باكي-مارسيليا La compagnie de navigation Paquet-

---

447_ دايفيد مونتگومري هارت، القانون العرفي الريفي...، م.س.، ص..20

448_ عبد الرحمن الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..161

449_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p. 9.

450_محمد أوحدو، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية...، م.س.، ص..22

451_إدريس الشلوشي(2012)، **الجزر المغربية المتوسطية بادس، نكور، جزر ملوية، البرهان، ثاورة، 1799-1912م الغزو والمقاومة**، دار القلم، الطبعة الأولى، الرباط، ص..110

452_ *D.C.H.E.A.A.A.M., Dossier E3195, N° 2.734,* P.M. Bazin, Nemours ou Melilla port du Maroc oriental, université de Paris, 1956, p.7.

Marseille[453]. وإذا كانت ساكنة الريف الشرقي قد لقيت منفذا تجاريا عبر مليلية، فإن أهالي الريف الأوسط، خصوصا منهم البقيويون والورياغليون واليطفتيون[454] والبوفراحيون كانوا يسوقون منتوجاتهم المحلية كالجلود غير المدبوغة واللوز والفحم والدجاج والبيض والعسل وشمع النحل والصوف والسمك عبر حجرة النكور وصخرة بادس، ونحو سبتة وجبل طارق.[455]

ربط الريفيون علاقات تجارية خارج سياج الأسواق الأسبوعية، وتطورت المبادلات بين القبائل الريفية والتجار الأوروبيين عبر الجزر والحواضر والمراسي المتوسطية منذ احتلال بادس سنة 1564م وقبلها بكثير. ونذكر مثلا أهمية جون ومرفأ بوسكور القريبين من مدشر اسواني الذي اكتسب أهمية تجارية بالغة بعد اندثار مدينة بادس. وكان هذا المرسى يضم ورش إصلاح القوارب البحرية، وعرف إنشاء سوق النصارى قرب ثاندا إيفران بالأراضي البقيوية الذي انتعشت فيه المعاملات التجارية بين الريف والبرتغاليين بالخصوص[456]، ودفع انعدام الأمن في فترات ضعف السلطة المركزية القبائل الريفية نحو التعامل والاتجار مع تجار مليلة، عبر فرخانة وبني نصار المزوجيتين.[457]

استمرت تجارة التهريب بالريف وبلغت ذروتها سنة 1860م، نتيجة لسعي الدول الأوربية إلى غزو الأسواق المغربية، وترويج المواد المهربة. ورغم خضوع بعض المراسي المرخص لها بالتجارة الخارجية لمراقبة المخزن، إلا أن وجود الاستعمار الإسباني بجزيرتي بادس والنكور كان عاملا أساسيا لاستمرار هذه التجارة، خصوصا الحبوب والماشية، الأمر الذي شغل السلطة المركزية للبلاد نظرا للأضرار المالية المترتبة عن هذه التجارة، لذلك لم يقف المخزن مكتوف الأيدي، إذ وجه السلطان المولى الحسن الأول رسالة إلى القائد مبارك الذبلاني بخصوص مرسى بقوية، وأوصى من خلال الرسالة بتطبيق أقصى العقوبات في حق من ثبت في حقه تهريب السلع. وضبطت سلع مهربة من قبيلة غمارة، وصاحبت هذا التهريب أحداث أليمة، وتصفية حسابات شخصية بين الريفيين والإسبانيين[458]. كما أصدر السلطان المولى عبد العزيز ظهيراً يمنع استمرار هذه التجارة، وأُلغي نتيجة الضغط الإسباني بحجة الاتفاق المبرم بين البلدين بخصوص دخول المؤن إلى الجزيرتين، وانتعشت هذه التجارة عقب هذا الإلغاء.[459]

استفادت القبائل الريفية الساحلية من تجارة التهريب، كما أنها لجأت إلى القرصنة من وجهة نظر الأوروبيين، أو الجهاد البحري، الذي عاد عليها بأرباح اقتصادية والكثير من المآسي التي طبعت ذاكرتها الجماعية.

453_ Enrique Guerra(1994), «Alhucemas: El nacimiento de una ciudad», *Al jamia,* N° 5, Casa blanca, Abril,p. 10.

454_ أنخيلو گيريلي (2019)، **قبيلة أيث يطفت**، ترجمة: نادية بودرة، دار الأمان، الرباط، ص..33

455_ أنخيلو گيريلي، إبقوين قبيلة...، م.س.، ص..75

456_ نفسه، ص..189

457_ محمد أوحدو ، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية...، م.س.، ص..49

458_ عبد الرحمن الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..165

459_ نفسه، ص..162

بدأت الإرهاصات الأولى للقرصنة الريفية خلال القرن الخامس عشر، وأثارت قلق أوروبا، حيث حاول ملك البرتغال منذ سنة 1499م الحد من الأنشطة القرصانية انطلاقا من صخرة بادس من خلال إنشاء قلعة قربها. ونظرا لصعوبة تموين هذا المركز، تفككت وانسحبت الحامية. وفي سنة 1508م غادر الكونت بيذرو نابارو Pedro Navarroأميرال الأسطول البحري الإسباني مالقة، لمطاردة السفن القادمة من بادس والتي تظهر أمام السواحل الأندلسية، واستولى على ثلاث منها ولحق الباقية إلى أن دخلت مرسى بادس، وبعد تدمير مدينة بادس حصّن الصخرة ونصب مدفعية هناك وترك حامية من 32شخص تحت إمرة الحاكم خوان بييالوبوس Juan de Villalobosمما أدى إلى استحالة رسو السفن الريفية. وقد حاول السكان استرجاع الصخرة، ولم يسمح لهم بإنشاء السفن الشراعية والمراكب بمرسى بادس التي تجوب البحر الأبيض المتوسط، وكان الإسبان يقتلون كل من حاول ذلك، ما جعل حاكم بادس يطلب عون سلطان فاس. لكن رغم هذا الدعم فشلت عملية استرجاع الموقع، وبعث له مغربيين ادّعيا أنهما يصنعان نقوداً مزيفة، ونجحا في عملية جس النبض وبالتالي إنجاح هجوم القائد. وحاول الإسبان استرجاع الموقع بعد ثلاث سنوات، وبعد أن أعاد الباشا صلاح الرايس أبا حسون الوطاسي إلى الحكم سنة 1554م، حصل على حجرة بادس اعترافا بالجميل، واحتفظت بها الجزائر 10سنوات وحاول الإسبان استرجاعها سنة 1564م، نظرا للانعكاس السلبي الذي خلفته على التجارة الإسبانية، وتم استرجاع الموقع بعد صراع مرير مع الأتراك.[460]

وصل القراصنة الأتراك بالجزائر إلى السواحل الريفية (خلال القرن الخامس عشر) التي كانت مليئة بغابات الأرز الصالح لصناعة السفن، وذلك خلال القرن الخامس عشر. وفي العقد الثاني من القرن السادس عشر تواصلت الأطماع من الجهة الإيبيرية. شهدت المنطقة في هذه الفترة أحداثاً طبعت الجهاد البحري وأثرت على مصير جزيرتي بادس والنكور، حيث تواصل الصراع السعدي الوطاسي، وتزايد الضغط التركي على الدولة السعدية، وانهزم المأمون بعد اقتتال أبناء المنصور على الحكم، فغادر صوب إسبانيا وتنازل لملكها على العرائش، ثم نزل بجزيرة بادس سنة 1610. واستمر الجهاد البحري بالسواحل الريفية، مما أدى إلى تزايد الضغط الأوربي على المخزن المغربي بخصوص دفع التعويضات.[461]

واتضحت ملامح القرصنة الريفية خلال القرن السادس عشر، وكان لها أهداف اقتصادية في البداية إلى أن تحولت إلى الأخذ بالثأر، الأمر الذي أدى إلى خلق مجموعة من الأزمات بين المغرب والدول الأوربية المتضررة، خاصة إسبانيا وبريطانيا، وأُجبر المخزن نتيجة لذلك على تقديم تعويضات وإرسال حملات لتأديب القبائل، وخلق مشاكل داخلية فيما بينها لتفكيك قواها[462]. وحاولت أوروبا استعادة أسراها من الريف مقابل الأسرى المغاربة الواقعين بيد فرنسا ما بين 1700و1727م، غير أن منطقة الريف سجلت أسيراً وحيداً من قبيلة أيث ورياغر، وذلك بنسبة 0,4%. وقد دبّر السلطان المولى اسماعيل ومن بعده السلطان المولى محمد بن عبد الله مسألة الأسرى بكل دبلوماسية.[463]

460_ إيلي دو لابريمودي، »المدن البحرية...، م.س.، ص..27

461_ خديجة الخديري(2018)، **التراث الأثري لساحل بلاد الريف**، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، ص..63

462_ عبد الرحمن الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص..310

463_ حسن أميلي، المغاربة والمجال البحري...، م.س.، ص..154

تلاشت القرصنة المغربية مع حرب تطوان -18601859م ،بينما عرفت استمراراً بالسواحل الريفية، وذلك بدعم علني أو خفي من السلطة المركزية. غير أن القوى الاستعمارية عملت بكل الوسائل، بما في ذلك الضغط على المخزن المغربي، على محاربة هذه القرصنة، فطلبت إنجلترا من السلطات المغربية بتأديب الريفيين الذين يقفون حجر عثرة أمام ملاحتها خلال عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام (1859-1822). وكان القنصل الإنجليزي السير جون دراموند هاي Sir John Drummond Hayمع ذلك مقتنعاً بعدم جدوى استعمال العنف ضد الريفيين، وقرر أن يتحاور مع زعماء القرصنة بنفسه. ورغم الحوار استمرت القرصنة، الأمر الذي وتر العلاقات المغربية الإنجليزية، وشغلت قرصنة إبقوين القنصليات الأجنبية، خاصة خلال سنة 1864م، حيث قتل البقيويون الإسبان الذين كانوا على متن مركبين إسبانيين في مياه خليج الحسيمة، وتعرض البقيويون للعقاب جراء ذلك من قبل السلطات المحلية بأمر من السلطان بفاس بعد عدة شكاوى من قبل الإدارة الإسبانية. وفي سنة 1875م هاجم البقيويون قارب ميگيل وتيريسا Miguel y Teresa، ونهبوه وأسروا طاقمه، وتعرضت البارجة التي أُرسلت لاستطلاع الأمر أيضا للهجوم، ما أدى بالإسبان إلى إطلاق النار وتوجيه المدافع إلى إبقوين، وتدخل المخزن المغربي لإطلاق سراح الأسرى. تواصلت عمليات القرصنة وهاجم البقيويون هذه المرة باخرة فيدوشيا Fiduccia الإيطالية، وروزيتا Rosita الإيطالية، وأسروا طاقميها[464]. ما دفع بالسلطان المولى الحسن الأول إلى إضافة ديوانتين، إلى جانب ديوانة مليلية، الأولى بالساحل المقابل لحجرة نكور والثانية بالساحل المقابل لصخرة بادس، غير أن هذه المشاريع لم تكن كافية بالنسبة لطموحات إسبانيا، الأمر الذي تأكد بسياستها ضد المخزن بعد اتفاقية مدريد 1880م مباشرة، وظهرت من جديد الأطماع الأوربية خاصة الإسبانية منها ببسط السيطرة على القوارب الريفية.[465]

ازدادت حراسة السواحل الريفية تدهورا على عهد السلطان المولى عبد العزيز، خاصة بنكور وبادس رغم جهود المخزن لإصلاح الوضع، إلا أنه ظل على حاله سنة 1897م، حيث استمر القراصنة الريفيون في اعتراض سفن المهربين من الإسبان الذين طالبوا المخزن بالتعويضات، وقد حاول المخزن العزيزي التصدي لتجارة التهريب فحرّك سنة 1895م إحدى قطع الأسطول الحربي وبث مراقبة واسعة حول التجارة غير المقننة[466]. كلفت القرصنة الريفية المخزن مبالغ مهمة حيث بلغ حجم التعويضات التي دفعها المخزن المغربي لإسبانيا بسبب القرصنة الريفية سنة 1891م 85022 ،بسيطة، وحصلت فرنسا على 120000فرنك سنة 1896م[467]، وقد تجدد تصدي البقيويين للسفن الأوروبية بعد حملة بوشتى البغدادي، وذلك سنة 1913م عندما جنحت بارجة الخنرال كونشا.[468]

افتقر الريف للوحدات التجارية الحرة في البداية وكانت ضعيفة خلال سنتي 1912 و1915م، وعرفت تطورا ملحوظا فيما بعد إلى أن بلغت 115وحدة خلال 1945م. وتعود

464_ أنخيلو گيريلي، إبقوين قبيلة...، م.س.، ص..192-190

465_ محمد أونيا، "القرصنة الريفية بين الأسطورة والتاريخ "(1898-1856)، مجلة **حوليات الريف**، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ص.44.

466_ نفسه، ص. 51.

467_ نفسه، ص..48

468_ أنخيلو گيريلي، إبقوين قبيلة...، م.س.، ص..197

أسباب تزايد هذه الوحدات إلى أحداث الحرب العالمية الثانية التي أرغمت إسبانيا للبحث عن استثمارات جديدة، الأمر الذي يفسر تقهقر عدد هذه الشركات أو الوحدات فور انتهاء الحرب.[469]

وقد حاول المستعمر إرساء قواعد المدينة الحديثة بالريف الأوسط لضمان مستلزمات المعمرين والسكان المساعدين لهم من اليهود التجار أو الموظفين، باعتبارهم النواة الأولى في القانون التنظيمي، وأنشأت إسبانيا دور الترفيه مثل المسرح، وفرضت ضرائب على دور الدعارة التي أنشأتها، حيث بلغت 40بسيطة عن كل نزيل. وعرفت المدينة أيضا استخلاص ضرائب التجارة ونشاط الجمارك منذ سنة 1926م. شهدت وعرفت واردات المدينة تنوعا منذ هذه السنة لتشمل الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة والخمور ومواد غذائية تليق بمدينة كولونيالية جديدة. وتضاعف عدد التجار الصغار، حيث بلغ عددهم مائتين وخمسين تاجرا سنة 1929م. كما تم توفير فضاءات ترفيهية للقطاع الأمني والعسكري تمثلت في ملهى وكازينو ونادي رياضي وحانات.[470]

عملت السلطات الاستعمارية على استخلاص الضرائب من القبائل الريفية، عبر عدة طرق بالمنطقة الإسبانية، مباشرة بعد القضاء على مقاومة محمد بن عبد الكريم، غير أن المنطقة الفرنسية التي تضمنت قبيلة إگزناين لم تتمكن من ذلك إلا بعد العقد الرابع من القرن العشرين، واستخلصت الترتيب بالشكل الذي كان يقوم به المخزن دون التأسيس لأي مركز حضاري أو بناء منشآت ترفيهية.[471]

استخلصت فرنسا الضرائب من قبيلة إگزناين عن طريق القائد بشكل سنوي عبر كل قسماتها، وأخذت هذه العملية وقتاً مهما للإقناع وللانتقال بين الدواوير. وكان عدم دفع الترتيب يكلف الأهالي فقدان ثلاثة أرباع قطعانهم، ما جعل المستخلصات جد مهمة حسب إحصائيات سنة 1945م، إذ بلغت في قسمة أشت يونس 347.747,00فرنك، وفي أشت محند 189.705,00 فرنك، وفي أشت عرو عيسى 146.917,00 فرنك، ليصل المجموع العام 684.369,00فرنك. وفي سنة 1946، بلغت المداخيل 781.977,00فرنك في قسمة أشت يونس، و182.748,00 فرنك في قسمة أشت محند، و 297.833,00فرنك في قسمة أشت عرو عيسى، بمجموع عام بلغ 1.262.558,00 فرنك.[472]

ظهرت أشكالٌ مختلفة لتسديد الفوائد داخل قبيلة إگزناين، حيث قدم الأفراد القادرون على العمل أربعة أيام من الخدمات، مع إدراج أسمائهم ضمن قوائم الدفاتر الخاصة بالشيوخ، وهؤلاء العمال عملوا تحت طلب السلطات المحلية في مجمل الأعمال ذات المصلحة العامة،

469_ محمد أوحدو ، الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية...، م.س.، ص..49

470_ Enrique Guerra, «Alhucemas: El nacimiento..., op. cit., p.7.

471_ Ibidem.

472_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p.4.

من إعداد الطرق أو غيرها من الأعمال التي من شأنها تطوير المنطقة، وبلغ عددهم 2.249 فردا.[473]

يتضح أن الموارد الاقتصادية بالريف كانت جد محدودة، ونستشف بناء على ما سبق أن نمط الإنتاج بالريف كان تقليديا وضعيفاً، وقد اعترضت اعتماده على الزراعة إكراهات مناخية وتضاريسية، ما دفع بسكانه إلى مزاولة أنشطة اقتصادية أخرى، أهمها الصناعة والتجارة والصيد البحري، وتجاوزوها أحيانا إلى تجارة التهريب والقرصنة، ما جعلهم في اصطدام مستمر مع الدول الأوربية والمخزن المغربي.

اعتمد الريفيون على نمط عيش مبني على نشاط الزراعة والاستقرار، ونمط الإنتاج السائد قائم على اقتصاد الكفاف والندرة، نتيجة قلة الموارد وصعوبة استثمارها أحيانا، بالإضافة إلى قلة اليد العاملة التي أفرزتها ظاهرة الهجرة.

نخلص إلى أن المجال بالريف الأوسط اتسم بحدود سياسية متحركة، عرفت مجموعة من التحولات عبر التاريخ، وبنية تضاريسية صعبة ومناخ غير ملائم، نتج عنه تردد مجموعة من الكوارث الطبيعية، كانت نتائجها واضحة على البنية الديمغرافية التي عرفت نزيفاً ديمغرافياً في كثير من الأحيان، بالإضافة إلى تحكم واضح على مستوى توطين الخريطة السكانية، والذي يعود أيضا إلى عامل اقتصاد الندرة الذي كان سببا رئيسياً في بروز خيار الهجرة.

تظافر المجال والإنسان ونمط الإنتاج، وأثر كل عنصر من هذه العناصر على الآخر، إذ أخذ الإنسان الريفي طباعه الصلبة من الطبيعة التضاريسية الوعرة والمناخ الصعب، وتأقلم الإنسان في المجال وطوعه وأخرج منه بقعا فلاحية رغم محدوديتها، شكلت نمط إنتاج ريفي قائم على الزراعة. وقد أثرت محدوديته على البنية الديمغرافية التي جعلتها عرضة لعدة مشاكل اجتماعية، ومنه أعطت بنية ثقافية واجتماعية يصعب تحليلها دون التعرض لما سبق، وانعكست على الذاكرة الجماعية ما ضمن استمراريتها عبر الأجيال.

473_ *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.5.

الباب الثاني

الذاكرة الجماعية وإعادة تركيب بنية المجتمع والثقافة ونمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط

شكلت الذاكرة الجماعية حلقة وصل بين التأثيرات الجغرافية والاقتصادية والنسق الثقافي داخل وعاء المجتمع، وتعتبر الذاكرة مصدراً من مصادر التاريخ الاجتماعي الذي لم يحظ بالاهتمام الكافي من قبل المؤرخ، ويمثل الإنتاج الثقافي مصدرا أساسيا للذاكرة، وبالتالي نلمس حضور علاقة جدلية بين الذاكرة والتاريخ الاجتماعي والثقافي، إذ يعد كل منهما مصدرا للآخر وحافظا له.

اكتسى التاريخ الاجتماعي[474] أهمية بالغة لاستكمال صفحات التاريخ الريفي، باعتباره تنظيماً يحمل خصوصية تستوجب دراسة دقيقة من أجل الإجابة على مجموعة من الإشكاليات التاريخية، والتي تجد تفسيرا لها داخل الأنساق الثقافية.

يعتبر الإنسان الريفي المنتج للذاكرة مركزا لدراسة التاريخ الاجتماعي على ضوء استقراء الوثيقة التاريخية، وذلك من أجل توسيع دائرة المناهج والمصادر وآليات التحليل التي تفيد في إعادة قراءة تاريخ المنطقة، وإضاءة جوانب أخرى تضاف إلى التاريخ السياسي الذي يعتبر الجانب الأكثر إنتاجا على المستوى التاريخي.

يعتبر الباب الثاني مركز إشكالية الأطروحة باعتباره الجزء المستجد منها، والذي يمزج بين مجموعة من مناهج المعارف المساعدة للتاريخ، وقراءة منجزات العلوم الأخرى ورواسب الذاكرة الجماعية وفق المنهج التاريخي، للكشف عن خصائص الأطر الاجتماعية بالريف الأوسط، بالإضافة إلى الجوانب الثقافية التي تمنح إمكانية إعادة تركيب الحياة اليومية.

ينقسم الباب الثاني إلى ثلاثة فصول رئيسية؛ أولها حول التاريخ الاجتماعي بالريف الأوسط، والفصل الثاني يعالج إشكالية العلاقة بين التاريخ الثقافي والذاكرة الجماعية داخل هذا المجال، ثم فصل أخير حول إعادة بناء نمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط، وهو بمثابة فصل تطبيقي وتركيبي للفصلين السابقين.

474 –نعني هنا بالتاريخ الاجتماعي، تتبع تشكل الهياكل المكونة للمجتمع الريفي عبر التاريخ، ورصد أدوارها والتراتبية التي تحتوي عليها، والتعرض للأنساق الثقافية التي تنتج عنها من خلال التاريخ الثقافي.

الفصل الرابع:

التاريخ الاجتماعي بالريف الأوسط

تفرض الذاكرة وضع إطار نظري لتوضيح ميكانزماتها وعلاقتها بالعلوم الإنسانية عامة وعلم التاريخ خاصة، وكيفية اعتبارها مصدرا شفهيا للتأريخ، الأمر الذي سيساهم في الكشف عن الجانب الذي يربط بين الذاكرة الجماعية والتاريخ الاجتماعي، وكيفية استثمار الآليات والمعطيات المستخرجة من هذه العلاقة لكتابة التاريخ الاجتماعي بالريف الأوسط.

يفرض الشق النظري المزاوجة التطبيقية المستقاة من الواقع التاريخي والنص المكتوب، والمرتبطة بدراسة خصوصية المنطقة، وتدرس الهياكل الاجتماعية والجوانب التنظيمية منها، بالإضافة إلى كشف الخصائص الانقسامية في المجتمع الريفي.

يعتبر نظام القرابة والتفاوت الاجتماعي، أهم الأطر الاجتماعية بالريف الأوسط، ومحددات لبناء ذاكرتها الجماعية، وتعود في نفس الوقت إلى مستويات ثقافية، ما يجعل البعد الاجتماعي والبعد الثقافي أكثر تداخلا، ويصعب الفصل بينهما أحيانا، ويفيد كل جانب منهما في تحليل معطيات الجانب الآخر، من أجل استخلاص تحليل مركب ومتكامل.

المبحث الأول: الذاكرة والتاريخ الاجتماعي

أولا: الذاكرة والعلوم الإنسانية

جعلت الحركة الإنسية الذاكرة الجماعية متمحورة حول الإنسان في أوروبا، وأصبحت موضوعاً للعلوم المهتمة بالإنسان، بعد أن ضعفت ظاهرة تخليد الذكريات الخاصة بالملوك والقديسين، وظهر توجه التركيز على ذكريات الشقاء والتعذيب والظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وتطور المناهج المعرفية لتتوقف عن أسطرة الماضي، كما أدى تطور الفكر الفلسفي إلى تبدل مضمون وميكانزمات الذاكرة الجماعية.[475]

اهتمت العلوم الحقة بدراسة موضوع الذاكرة الإنسانية، حيث رأت البيولوجيا مثلا، أن عمل الذاكرة وظيفي مرتبط بالدماغ، ووظيفة من وظائف الجهاز العصبي المرتبطة بعمل الدماغ وحفظ الذكرى وإعادة إنتاجها ووضعها في إطار الماضي. ويعود البحث في الذاكرة البيولوجية على الأقل إلى القرن الثامن عشر، حيث عمل علماء الإحياء وعلى رأسهم موبيرتوي Maupertuisوبوفون Buffonعلى إنتاج مؤلف جمع جميع الوحدات الأولية البيولوجية التي تقضي بنقل ذاكرة من جيل إلى آخر[476]. تظل الاستمرارية وتناقل الذاكرة وحفظها وإعادة إنتاجها ضمن أهم الأبعاد التي راهنت عليها المقاربة التاريخية المعتمدة على الذاكرة الجماعية باعتبارها مصدرا من مصادر التاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي.

تحلل المقاربة النفسية الذاكرة الإنسانية وفق البعد الذاتي لمعالجة ما يرتبط بالترميز والاستحضار والتعرف عليها[477]، مع الإقرار بوجود عامل نفسي عرضي يتعرف على الذكرى المنتجة، وبالتالي فالجانب النفسي يحضر بقوة في الذاكرة الفردية-(الأنا الفردية)، أما القضايا الجماعية فتحتكم لذاكرة أكثر موضوعية، ويتضح ذلك من خلال الضمائر المستعملة، رغم أن الذاكرة بشقيها الفردي والجماعي تكون مراعية لميثاق الهوية والانتماء.[478]

غير أن العلوم الاجتماعية ارتبطت أشد الارتباط بدراسة الذاكرة، وامتدت لترتبط بفروع معرفية متعددة أهمها علم النفس والفلسفة والأدب والسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا وعلم الأعصاب والسيكولوجيا وغيرها[479]، حيث طرحت الذاكرة مجموعة من المفاهيم الجديدة التي تجاذبتها علوم ومعارف متعددة[480]، وتداركتها التحولات الكبرى خلال القرن العشرين،

475- Jacques Le Goff (1988), *Histoire et mémoire*, Gallimard, pp. 252-253.

476- جاك لوغوف (2017)، **التاريخ والذاكرة**، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، ص..159

477- Jacques Le Goff, *Histoire et mémoire*..., op. cit., p. 10.

478- عبد العزيز الطاهري (2016)، **الذاكرة والتاريخ المغرب خلال الفترة الاستعمارية 1912-1956**، تقديم: جامع بيضا، دار أبي رقراق، بدعم من وزارة الثقافة، الرباط، ص. .84

479 - Jacques Le Goff , *Histoire et mémoire*..., op cit., p. 10.

480 - Badiha Nahhass (2014), *La mémoire et ses usage : Le cas du Rif*, Thèse du Doctorat, sous la direction de Mohamed Tozy, en formation doctorale sciences sociales, Université Hassan II, Casa Blanca,. p. 3.

خاصة في حقل الفلسفة [481]والأدب[482]، ما دفع بالأدباء إلى انتقاد الذاكرة واعتبارها ذات وظيفة مرتبطة بالخيال[483] والإبداع، وغير مفيدة للعلوم الإنسانية[484]، وباعتبار عملية التذكر سوى قصة سردية، لها وظيفة اجتماعية توصل معلومة إلى الآخرين في ظل غياب الحدث أو الموضوع المستهدف[485]. غير أن المسافة الزمنية تخلق فرقاً جوهرياً بين الذاكرة المرتبطة بالماضي والخيال الذي يعتبر معطى راهناً ولا يثير أشياء ماضية غائبة، إنما أشياء غير موجودة أصلا، وبالتالي فالذاكرة الجماعية تستدعي حضوراً مكثفاً للحدث التاريخي ولا ترتبط كل الارتباط بالخيال عكس الذاكرة الأدبية أو الشعرية.[486]

تعرضت الذاكرة الجماعية لتحولات كبرى مع تطور مناهج العلوم الاجتماعية، وأدت دورا مهما في تعدد الاختصاصات التي سعت إلى الحلول بينها، وسعت السوسيولوجيا إلى استكشاف هذا المفهوم الجديد مع عالم الاجتماع موريس هالبواكس Halbwachs Maurice وذلك من خلال كتابه الذاكرة الجماعية 1950م[487]. كما قدمت الذاكرة للأنثروبولوجيا مفهوما أكثر ملاءمة لحقائق المجتمع الذي تدرسه، واستكشفت أبعاد الذاكرة اللصيقة بالزمن والتاريخ[488]،

---

[481]- وذلك من خلال اصدار برغسون كتاب المادة والذاكرة سنة 1896 حيث وجد أن الصورة تتقاطع مع الذاكرة والإدراك، وتحت الذاكرة السطحية توجد ذاكرة عميقة. انظر:

- Henri Bergson(.1986), *Matière et Mémoire essai sur la relation du corps à l'esprit*, Librairie Félix Alcan, Paris, p.161.

هذا لا يعني أن الفلسفة لم تتعرض للذاكرة من قبل، حيث عرفت الفلسفة الكلاسيكية مثلا تحليلات متعددة للذاكرة على مستويات مختلفة، حيث ميز أرسطو بين الذاكرة بالمعنى الدقيق للكلمة، أي ال»منيمي« وهي قدرة الحفاظ على الماضي وتذكره، وال»أنامنيسيس« وهي التذكير، الذاكرة التي فقدت قدسيتها. انظر:

- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..119

[482]- من خلال اصدار مارسيل بروست روايته »البحث عن الزمن المفقود« سنة 1913م، والتي مزجت بين السرد الأدبي والعمل الوظيفي للذاكرة، أخذت حيزا في المجال الروائي والأسطوري والتاريخي في الساحة الثقافية أنا ذاك. انظر:

- Marcel Proust (1992), *In Search of Lost Time*, Translation Scott Moncrieff, the Modern Library, Volume 1. New York, p. 77.

[483]- يتماشى الخيال مع إرادة الإنسان وإن خالفت الواقع، حسب تيار يقر بتعرض التاريخ المرتبط بالذاكرة لإشكالية خلط الخيال بالواقع أمام حالة اتحاد الخيال بالذاكرة (توماس هوبس)، في حين يذكر التيار الثاني حالة تمايز بين صور الخيال وصور الذاكرة، واسترجاع الذكرى لا يرتبط بالخيال (ألان شارتيي Alain Emile Chartier). وهناك من يسم الذاكرة بالواقعية وينفيها في الخيال، لأن استرجاع الذكرى يتم بفعل التذكر وليس التخيل (جون بول سارتر Jean Paul Sartre)، والذكريات تنتمي لعالم الواقع وإن ارتبطت في بعض تفاصيلها أحيانا بالخيال. انظر:

- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص. .75

[484]- تساءل الأديب والناقد أندريه بريتون Breton André سنة 1922، لماذا لم تكن الذاكرة سوى منتوجاً صادراً عن الخيال؟ رغم أن الإنسان يمنحها الكثير من الثقة إلاّ أنها تتسم بالكثير من المكر والهشاشة. وأثار الانتباه إلى إمكانية ترويض الذاكرة التي أحدثت ثورة على مستوى فنون الذاكرة انظر:

- Andre Breton (1924), *Manifeste du surréalisme*, Sagittaire chez Simon Kra, Paris, p.22. Voir aussi:

- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..161

[485] - Pierre Janet (1912), *L'évolution de la mémoire et de la notion du temps,* paris, p.15.

[486]- عبد العزيز الطاهري، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص. .77

[487]- يعتبر عالم الاجتماع موريس هالبواكس الأكثر اهتماما بالذاكرة، حيث ربطها بالأطر الاجتماعية معتبرا الأسرة أولها، مع التفصيل في الإطار الديني والإثني، ودورها في توجيه الذاكرة. انظر:

- Maurice Halbwachs, *Les Cadres Sociaux de La Mémoires…*, op.cit., p.113.

- ثم أصدر كتاباً ثانياً سنة 1950م، وخصصه لدراسة وتحليل مفهوم الذاكرة الجماعية من وجهة نظر علم الاجتماع، بالإضافة إلى التعرض لأهم ما يميزها عن الذاكرة الفردية. انظر:

- Maurice Halbwachs (1950), *La mémoire collective,* presses universitaire de France, Paris, p.5.

[488]- Ibid, p. 52.

وهذا يتم طبعا داخل ثنايا الأنثروبولوجية التاريخية، والرفع من الذاكرة الجماعية رهين بارتباطها بالزمن المديد بدل الأحداث القصيرة المدى.[489]

ظل ارتباط الذاكرة بالسوسيولوجيا أوثق لتضمنها البعد الاجتماعي الذي حدد أسس ظهورها وتطورها وتفاعلها، عبر المسار التاريخي، ولا يجب أن تُستخلص الأحداث العالقة بالذاكرة دون الإلمام بتحليل هذه الفروع المعرفية للذاكرة، وخلق مقاربة شمولية تنأى عن التجزيء[490]. يعتبر علم الاجتماع الذاكرة الفردية وجهة نظر داخل الذاكرة الجماعية[491] التي يعمل الإطار الجغرافي والزمني والاجتماعي على ترسخها لدى عدد كبير من الأفراد لتصبح جماعية، والذاكرة نشاط اجتماعي يمر عبر خطاب ينبني باستمرار على علاقة مع الآخر، كما تظل الذاكرة الجماعية الأقرب إلى الوقائع والمعطيات الاجتماعية، والسياق التاريخي والاجتماعي الذي أنتج فيه التمثل، وذلك بهدف إعادة بناء الهوية.[492]

اهتم علم الاجتماع بالجانب الاجتماعي من الذاكرة الجماعية، كونه يكشف عن ممارسات الجماعة وعاداتها ويضمن استمرارها داخل الإطار الجماعي بنقلها عبر الأجيال، وهي الخاصية التي كانت في خدمة التاريخ بصفة عامة والتاريخ الاجتماعي بصفة خاصة.

ثانيا: الذاكرة الجماعية وكتابة التاريخ الاجتماعي

حملت الذاكرة التاريخ قبل ظهور الكتابة، وارتبط أول الأمر بالسرد والشهادة والأسطورة، وبعد التدوين استعملت الكنيسة الأوروبية الوسيطية الذاكرة لخدمة إيديولوجيتها، وأصبحت لها وظيفة دينية، وقسمت الذاكرة الجماعية بين ذاكرة الطقوس التي ركزت على تقديس الباباوات والقديسين الأحياء منهم والأموات، وذاكرة دنيوية ضعيفة، ووجهت التاريخ نحو دراسة الأنساب والإسطوغرافيا المدنية والكرونولوجيا التاريخية الملكية. وبعد ظهور المطبعة انتقلت أوروبا من الثقافة الذاكرية إلى الثقافة الوثائقية، وظهرت عدة تجديدات على الذاكرة الجماعية،

489- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..162

490- نفسه، ص. .32

491- يقسم الباحثون إشكالية فصل الذاكرة الفردية عن الذاكرة الجماعية، إلى قسمين، حسب الانتماءات المعرفية، نجد رواد المنظور الداخلي وفق التحليل الفلسفي للذاكرة الذين يعتبرونها شخصية وذاتية وفردية ولصيقة بالنسيان، مع بعض الاختلافات بين الفينومينولوجيا التي تقر بذاكرة فردية محض. انظر:

- إدموند هيوسرل (2009)، **فكرة الفينومينولوجيا**، ترجمة: أحمد الصادقي، الحوار، الطبعة الأولى، سوريا، ص. .52

وهناك من يميز داخل الذاكرة الفردية بين ذاكرتين يتهددهما النسيان، الأولى حركية تحفظ آثار الماضي، والثانية نفسية خالصة مستقلة. انظر:

- Henri Bergson (1959), *Matière et mémoire*, PUF, Paris, p. 83.

- بينما رواد المنظور الخارجي يرون أن الذاكرة جماعية وحفظ جمعي للماضي تنأى عن ظاهرة النسيان. انظر:

- Maurice Halbwachs (1925), *Les Cadres Sociaux de La Mémoires*, Félix Alcan, 1er Edition, Paris, pp. 281-282.

- بينما قدم التيار الثالث حلاً وسط باعتماد مفهوم الانتساب Attribution المستقى من الفلسفة التحليلية للظواهر الطبيعية، وبالتالي تنسب الذاكرة إلى كل الضمائر، بالتالي فالذاكرة الفردية بتعددها تشكل ذاكرة جماعية، والذاكرة الفردية بدورها تتأثر بالمحيط والجماعة في تشكلها. انظر:

- عبد العزيز الطاهري، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص. .31

492- نفسه، ص. .91

تراكمت فوق الذاكرة المكتوبة والذاكرة الشفهية القديمة، ما أدى إلى ضعف الذاكرة الطبيعية.[493]

دعمت أوروبا فكرة القومية، خاصة خلال القرن التاسع عشر، ما جعل هذه الدول تمول عدداً من المؤرخين لخدمة هذا الغرض، وانصب التاريخ على ما هو سياسي ليحدث شرخا بينه وبين الذاكرة، غير أن الذاكرة عادت في شكلين بعد الحربين العالميتين، تمثل الأول في نسب الذاكرة للمجهول، حيث أقيم في عدد من البلدان قبر للجندي المجهول، بمثابة دعوى للتناغم في ذاكرة مشتركة، والثاني في ظهور التصوير الفوتوغرافي، الذي صور الذاكرة بدقة وجعلها موثقة.[494]

ظلت المواضيع المرتبطة بالذاكرة قليلة جدا بالمغرب، رغم تأثيرها في المشهد الاجتماعي والثقافي والسياسي، ورغم ظهور بعض المبادرات الوطنية والفردية لحفظ الذاكرة التي اقتصرت على مرحلة الاستعمار والاستقلال، ما يطرح رهان فتح ورش «التاريخ الاجتماعي للذاكرة»، واستغلال الذاكرة الجماعية للكشف عن إشكاليات جديدة أهمها: الأحوال المعيشية وتاريخ الحياة اليومية والأزمات الديمغرافية والتدين، والتعدد الثقافي كما هو الحال بالنسبة إلى اليهود والأمازيغ مثلا.[495]

يشترك كل من التاريخ والذاكرة في خاصية حفظ الماضي والعناية به واستحضاره، ويختلفان في كيفية حفظه وطريقة العناية به ووسائل استحضاره، لأن الماضي لا وجود له إلا في أذهاننا، فلا نستحضره إلا بما يحملنا على ذلك من قضايا الساعة، وإن كان الاستحضار عن طريق الذاكرة لن يخلو بالتأكيد من الانفعال والحماسة والخيال، وإن استحضرناه بالبحث التاريخي، فإننا نرمي إلى إثبات الحقائق التي تنفي كل جدل، وقد أصاب تيودور مونو Théodore Monod عندما قال: «يقال إن التاريخ يساعدنا على فهم زماننا، ولعل الصحيح في الأمر هو أن يقال بأن زماننا هو الذي يساعدنا على فهم التاريخ»، علما بأن الذاكرة هي المحرك والتاريخ هو الطريق السالك.[496]

ترتكز المقاربة بين التاريخ والذاكرة على متن مصدري متنوع شمل الوثائق وسير المناقب ومدونات النوازل والأنساب والأخبار والرواية الشفهية والخرافات والأشعار والحكم والأمثال وما إلى ذلك. ولتعقب علاقة الذاكرة بالتاريخ، وصياغة نسق بين المعطى التاريخي ومخزن الذاكرة الحية المنغرسة عميقا في التمثلات الفردية والجماعية القائمة بخصوص أحداث الماضي، فيجب تنشيط مختلف الذاكرات التي تتباين أشكالها، ومحاولة فك ألغازها لجعلها مادة قابلة للفهم، وتوضيح كيفية تشكلها خلال الحياة اليومية المعاشة[497]. لا يستطيع مؤرخ اليوم استيعاب الذاكرة الجماعية للماضي إلا بالنزول إلى الإسطوغرافيا، والتاريخ يؤسس للجماعة

493- Jacques Le Goff, *Histoire et mémoire*…, op. cit., pp. 161-164

494-Ibid, p.161.

495- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص. .134

496- إبراهيم بوطالب،«الذاكرة والتاريخ»،**مجلة البحث التاريخي**، العدد الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، 2003، ص. .26

497- لطفي عيسى (2015)، **بين الذاكرة والتاريخ في التأصيل وتحولات الهوية**، أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص..220

الجينيالوجية لأجل الشرعية، فمن التاريخ انتقلنا إلى الذاكرة[498]. وتعد الوثيقة أداة المعرفة التاريخية وهي زاوية الملاحظة، وهكذا تحيي أحداثاً لم يكن يتذكرها أحد، وتؤسس لذاكرة تاريخية تتميز عن الذاكرة الجماعية، وهنا تكمن قدرة التاريخ على توسيع الذاكرة ونقدها وتعديلها.[499]

يتمثل دور التاريخ في جمع روايات الذاكرة وممارساتها الاجتماعية وتحليلها لتقديم صورة تاريخية شاملة على ضوئها، وبالتالي اعتبار الذاكرة مرحلة أرشيفية للمؤرخ ينطلق منها ليحدد العوامل المفسرة للأحداث الواردة ثم يبلغ المؤرخ من خلالها الطور التمثيلي المتمثل في كتابة المعرفة التاريخية. بعد أن توسع مفهوم الوثيقة مع مدرسة الحوليات، أصبحت الذاكرة مادة وثائقية تفيد المؤرخ، وتصنف ضمن الشواهد التاريخية التي أعدت للتاريخ قصدا، ما يجعلها تطرح مشاكل ابستمولوجية عريضة من حيث التعامل معها، وتصبح محل شك رغم أهميتها المعرفية، ما يتوجب على المؤرخ نقد الذاكرة وتحليلها ومساءلتها، واعتماد منطق الاحتمال أكثر من الضرورة المنطقية، دون تجاوز هذه البنية الدلالية[500]. تتأكد بقوة الاستقلالية الذاتية للتاريخ عن الذاكرة على الصعيد الإبستمولوجي، وتفسير التاريخ لمادة الذاكرة يعد نمط ارتباط بين الواقع الموثق والمتخيل الجماعي.[501]

تركز الذاكرة عادة على المدد القصيرة التي تستهدف التاريخ السياسي، والحدث التاريخي هو نقطة من الزمن وقع فيها كل شيء، وليكون هذا الحدث ذا قيمة تقوم الذاكرة بربطه بمجموعة من الأحداث، تجعله يتموقع في نسق حكائي، لكنها تمتد لتشمل الزمن الاجتماعي، وتساعد الذاكرة على إعادة بناء تجربة معاشة على محور الزمن[502]. تعتبر الذاكرة ملجأ للانفعال وهي بمثابة خزان للذكريات، وتُسائل وترغب في الفهم وتقدم برنامجا للبحث التاريخي. ويعتبر التاريخ حقيقة مترسخة في حياة الأشخاص، ومتجذراً في أزمنة جماعية متعددة وغير متجانسة. والذاكرة زمن مجرد مبني عمدا خارج الزمن المعيش، لكنها تخفي بين ثناياها أزمنة متعددة تفيد التاريخ الثقافي والاجتماعي.[503]

تخزن الذاكرة التطور المستمر للماضي، ويتميز زمنها بالارتباط بالحالة السيكولوجية، ومركب من الاحساس والحركة «هو في جوهره إحساس محرك»، بالتالي فهو زمن داخلي ذاتي، وحسب الزمن الماضي يصبح تذكرا بالنسبة للمستقبل، وتسترجع الذاكرة الفعل الاجتماعي والذكرى الفخرية مهما بلغت في عمق الزمن[504]. يعتبر التاريخ مهيكلا وفق أصول وعتبات وأحداث كبرى طبعت حياة الفرد والجماعة، ويرصد التغيرات في الزمن والحياة الجماعية، ويقوم بتقسيمها إلى مراحل متعددة. والذاكرة سلسلة من الصور الماضية

498- بيير نورا، »الذاكرة الجماعية«، ضمن كتاب **الكتابة التاريخية**، ترجمة: محمد حبيدة، أفريقيا الشرق، بدعم من وزارة الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 2015، ص. 87.

499- بول ريكور، »التاريخ والذاكرة«، ضمن كتاب **الكتابة التاريخية**، ترجمة: محمد حبيدة، أفريقيا الشرق، بدعم من وزارة الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 2015، ص. 101.

500- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص. 164.

501- نفسه، ص. 167.

502 - François Furet (1982), *L'atelier de l'histoire*, Flammarion, Paris, pp. 74-75.

503- Maurice Halbwachs, *La mémoire collective*..., op.cit., p. 113.

504- Henri Bergson (1986), *Mémoire et vie*, PUF, 3éme Edition, Paris, p. 152.

الخاصة بالجماعة، خاضعة لترتيب زمني أو موضوعاتي، وتلقي نظرة داخلية على هذا المجتمع وتحدث نوعاً من التناسق بين الأحداث، دون أن تشعر بتغيرات الزمن، والذاكرة نظرة داخلية للتاريخ، تنعدم فيها خطوط الفصل الزمنية، لأنها تيار من التفكير المستمر والمنبثق من الوعي الداخلي.[505]

انتقلنا خلال القرن العشرين من التاريخ كجزء من الذاكرة إلى الذاكرة كموضوع للتاريخ، وهذا لا ينفي العلاقة بينهما[506]. وتعتبر الذاكرة مستوى بدائياً للتطور التاريخي، وكانت البداية الفعلية لهذا الاهتمام بإصدار عدد خاص لمجلة Dialectiquesالمكرس للعلاقة بين التاريخ والذاكرة بعنوان «الذاكرة تحت عباءة التاريخ»، وذلك قصد تعديل التاريخ وإعطاء الكلمة للمنسيين في التاريخ، وإعادة الاعتبار للتاريخ الشفهي، لأن إدانة الذاكرة بضعف الموضوعية تنطبق تماما على المصادر الأخرى للتاريخ. يجب ألا تؤدي العلاقة بين التاريخ والذاكرة والعلاقة بين الماضي والحاضر إلى الالتباس أو الريبة، لأن الماضي مرتبط جزئيا بالحاضر، ويضعنا أمام الحياة اليومية.[507]

يعتبر كل من التاريخ والذاكرة استحضاراً للماضي، ويتجلى الفرق بينهما في آليات استحضار هذا الماضي، إذ يعتمد التاريخ على المخلفات والشواهد المادية والشفهية، ويجيب على أسئلة الماضي من خلالها، ويحدد مراحل تاريخ الإنسان الذي يعتبر مركز التاريخ، وبالتالي فهو حقل معرفي إنساني ينتمي للعلوم الإنسانية. استحضار التاريخ عند المؤرخ يكون عبر آليات علمية أكاديمية محددة، بينما الذاكرة ملك الجميع، وتجمع بين التاريخ والواقع والزمن والمجال والعفوية والخيال والأسطورة، وفق إطار المجتمع. والذاكرة الجماعية إرث غير قابل للتصرف، وسهل الاستعمال وأداة نضال وسلطة ورهان انفعالي ورمزي، بينما الذاكرة التاريخية ثمرة تقليد معرفي وعلمي.[508]

تتميز الذاكرة الجماعية بمقومات تؤهلها لتصبح مصدرا للتاريخ الثقافي والاجتماعي إذا أحسن المؤرخ استثمارها وفق الضوابط العلمية والمنهج التاريخي، وتتوفر بحد ذاتها على آليات إعادة بناء الحدث، ما يجعلها تتمتع بإمكانية سد ثغرات تاريخ المجتمعات الشفهية.

تفيد آلية التذكر عند الإنسان في طرح الآثار وإعادة قراءته، وتستطيع عمليات إعادة القراءة أن تشغل عددا من المراكز العصبية الشديدة التعقيد، وجزءًا كبيراً من قشرة الدماغ، وإن وجدت مراكز تعنى بالدماغ ومختصة بتثبيت الأثر التذكري[509]. تقوم الذاكرة بتسجيل وحفظ الذكرى والممارسة الاجتماعية واسترجاعها، وباختصار هي القدرة على تذكر[510] كل ما يخطر في الذهن من الحالات الماضية، حركات كانت أو صورا ذهنية، يكون استحضارها

---

[505]- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص. 71.

[506]- Jacques Le Goff, *Histoire et mémoire…*, op. cit., p. 10

[507]- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..211

[508]- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص. 158.

[509]- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..102

[510]- Paul Foulquie, *Vocabulaire des sciences sociales*..., PUF, 1987, p. 177.

تلقائيا أو إراديا فتسمى التذكر، ويطلق نفس الاسم على ما نستعيده من الصور النفسية دون الحركات المادية.[511]

تعتبر الذاكرة قدرة تخزين الحدث وإعادة تشكيله في غياب الخطاب الأصلي، وهذا يفرض وجود ثلاثة مكونات هي: الدعامة والرمز والحدث أو الخطاب، وهي آلية ترميز المعلومات المستقاة من المحيط الاجتماعي، واسترجاعها فيما بعد. فالذاكرة إذا، هي الإدراك والتخزين ثم إعادة الإنتاج والتعرف على الذكرى، والفرق بين الإدراك والذاكرة يكمن في توجه الأول نحو الحاضر في حين تتجه الذاكرة نحو الماضي. والذاكرة هي وعاء الإدراك المباشر، وتمثل المعبر الرئيسي للوعي الفردي، فيما يساعد الإدراكُ الذاكرةَ على القيام بمهامها، ويعتبر الإدراك والتذكر دائمي التبادل والتداخل بينهما عبر ظاهرة التنافذ Endosmose[512]. يعتبر التعرف أو التحديد عملية سيكولوجية وواقعاً ملموساً يأتي بالذكريات من الماضي إلى الحاضر بواسطة التمثلات الصادرة عن الذات، ويضعها في السياق الزماني والمكاني، أي في السياق التاريخي، بواسطة علامات الاستدلال Repèresأو الترميز والتشفير Encodageالتي ترافق الحدث منذ وقوعه إلى تخزينه وإلى تمثله.[513]

تعتبر الذاكرة قوة عقلية قادرة على حفظ الأحداث الغابرة واستحضارها عند الاقتضاء[514]. وتتطور الذكريات التي يتم استدعاؤها من عمق الذاكرة إلى ذكريات-صور، تتجه نحو الاختلاط بالإدراك الذي تَبَنّى الذاكرة والذي يوفر لها الإطار الراهن، وكل ذاكرة عبارة عن جهد[515]، يجعل الذاكرة قادرة على استحضار الماضي مع إمكانية الوقوع في النسيان، وتحتمل النجاح الذي يسمى أعجوبة صغيرة أو أعجوبة الذاكرة الموفقة.[516]

تعانق الذاكرة الواقع في كثير من الأحيان، ويكون مصير الأحداث غير الدالة هو النسيان، وبعض الأحداث يعترضها الصمت والرقابة والطمس والإنكار وفقد الذاكرة، وتختلف ذكرى الحدث من الذاكرة المنهزمة (رفض الذاكرة Refus de mémoire- رفض التصديق Refus de croire رفض بناء زمن الذاكرة الجماعية) إلى الذاكرة المنتصرة (تمجيد المنتصرين، وغزارة التدوين التاريخي بخصوص الحدث، وتحويل التاريخ إلى الأسطورة والخيال)[517]. تعتبر الذاكرة والنسيان ظاهرتين متلازمتين، وفق خاصية تعدد الأزمنة التي تتمتع بها الذاكرة والتي تقطعها فصول من النسيان، تفسر لغز حضور الغائب.[518]

511- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص. 24.

512-نفسه، ص. 25.

513- Maurice Halbwachs, *Les cadres sociaux de la mémoire*..., op.cit., pp. 281-282.

514- عبد النور جبور (1979)، **المعجم الأدبي**، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت، ص. 117.

515- Marc Bloch (2006), *L'Histoire La Guerre La Résistance*, Quarto Gallimard, France, p. 340.

516- بول ريكور (2005)، **كتابة التاريخ وتمثل الماضي**، ترجمة محمد حبيدة، من أجل تاريخ إشكالي ترجمات مختارة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة بن طفيل، القنيطرة، ، ص. 166.

517- محمد جادور (2003)، «الذاكرة وبناء الخطاب التاريخي (معركة الملوك الثلاثة) »، **مجلة الثقافة المغربية**، العدد عشرين/واحد والعشرون، الرباط، ص. 193.

518- إدموند هيوسرل، فكرة الفينومينولوجيا...، م.س.، ص. 52.

أعطى استعمال الذاكرة البسيط نتائج غامضة لا ترقى إلى مستوى التاريخ المكتوب بشتى أنواعه[519]. ويمكننا تقسيم تاريخ الذاكرة الجماعية إلى خمس مراحل هي، مرحلة النقل الشفهي، ومرحلة النقل الكتابي إلى جداول وفهارس، ومرحلة البطاقات البسيطة، ومرحلة التدوين الآلي (مرحلة الميكانوغرافيا)، ومرحلة التسلسل الإلكتروني[520]. تساعد الذاكرة على تأريخ صفحات ضائعة من تاريخ المجتمعات المفتقرة للكتابة، أو المتمتعة بذاكرة شفهية وكتابية في آن واحد، بين الذاكرة العتيقة التي طغت فيها الذاكرة الشفهية وتمتعت بوظائف خاصة للذاكرة المكتوبة أو المرسومة، والمرحلة القروسطية التي تساوت فيها الذاكرتان مع ما شهدتاه من تحولات مهمة في وظائف كل منهما، والمرحلة الحديثة التي عرفت تطورا حاسما وتحولات عميقة في الذاكرة الكتابية، ما أطلق عليه الذاكرة المنتشرة.[521]

تطرح الذاكرة عدة اشكالات نظرية، تستدعي مساراً منهجياً طويلا ومركباً من آليات معقدة، منذ وقوع الحدث وتخزينه إلى إعادة إنتاج الذكرى وتمثلها واستحضارها وكتابتها، وتتعدد مقاربات دراسة الذاكرة بتعدد الفروع المعرفية، ويطرح إشكال الفصل بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية.[522]

ظل مصطلحا الذاكرة والتاريخ متعايشين وحاضرين على نفس المنابر[523]، إلى درجة يتوهم فيها عموم الناس أنهما كلمتان مترادفتان، والقرابة بينهما لا تلغي خصوصية كل منهما، رغم القواسم المشتركة والعلاقة الجدلية الرابطة بينهما. والذاكرة والمذكرات والشهادة بمثابة ترميم للتاريخ وملء لبياضاته، رغم ما يُعاب على الشهود من طغيان العاطفة وزعم امتلاك الحقيقة المطلقة، خاصة عندما ترتبط الذاكرة الجماعية برهانات الحاضر، فأصحابها لا يجدون أي حرج في مداهمة المؤرخ ومناهجه العلمية التي يعتمدها في ترتيب الماضي.[524]

يؤطر المجتمع الذاكرة الجماعية ويقدم لها أساس الاشتغال والتخزين، مما يجعلها مصدراً أساسياً للمجتمعات الشفهية التي تفتقد للتاريخ المكتوب. وتَزاوجُ التاريخ وعلم الاجتماع من شأنه أن يعيد بناء التاريخ الاجتماعي وفق مناهج منطقية، بالاعتماد على الجانب الاجتماعي من الذاكرة الجماعية.[525]

---

[519]- حبيب القزدغلي وآخرون (1993)، **نساء وذاكرة تونسيات في الحياة العامة 1960-1920**، ميديا كوم، تونس، ص. 3.

[520]- André Leroi-Gourhan, Le geste et la parole II, *La Mémoire et les rythmes*, Albin Michel, Paris, 1964-1965, p. 65.

[521] -Ibid, p. 66.

[522]- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص. 21

[523]- Martin Jean-Clément, »Entre histoire et mémoire : à la recherche d'une méthode«, *In La guerre civile entre histoire et mémoire***,** Ouest Editions, Nantes, 1995, p.17.

[524]- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...،م.س.، ص. 7.

[525]- Marc Bloch(1925) ,«Mémoire collective, tradition et coutume. A propos d'un livre récent», *Revue de synthèse historique*, XL (nouvelle série XIV), n°118-120, p. 74

رسم توضيحي عن التفاعل بين التاريخ والذاكرة التاريخية والذاكرة المشتركة لتفرز ذاكرة جماعية

عن ماري كلير لافابر Marie Claire Lavabre

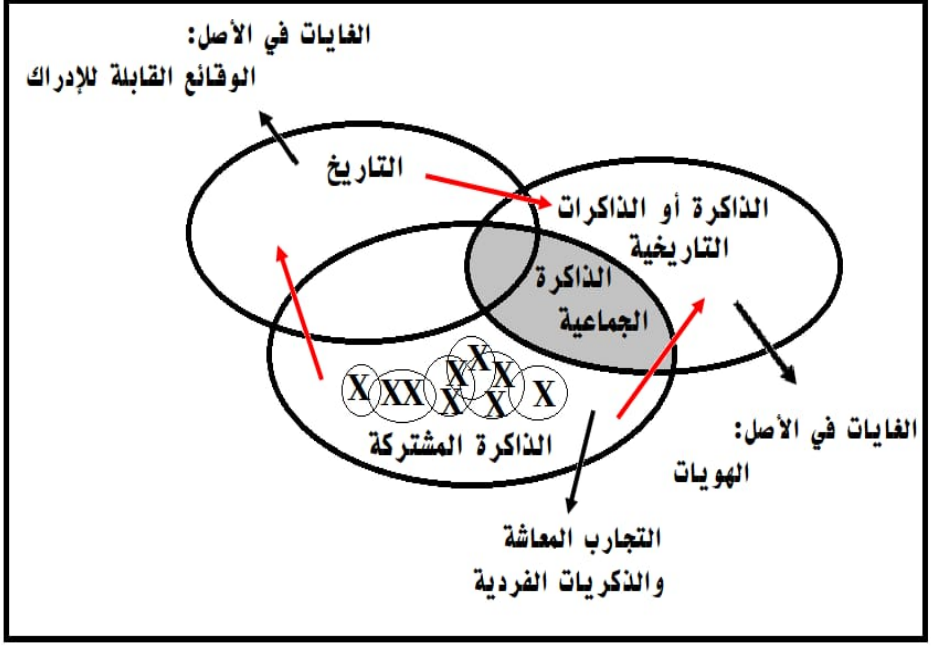

.(526)

(526)- Marie Lavabre Claire (2016), *La mémoire collective entre sociologie de la mémoire et sociologie des souvenirs?,* Halshs, p.13.

يعتبر مفهوم الذاكرة الجماعية مفهوما سوسيولوجيا-أنثروبولوجيا، ولا تحمل الذاكرة المقاصد السياسية فقط، بل تتعداها إلى المحتويات الإنسانية والثقافية، والروابط الاجتماعية التي لها محتوى ثقافي لغوي (التقاليد)، ولها جانب خاص بالأحداث التاريخية التي عاشتها الجماعة الاجتماعية، لذلك وجب علينا أن نبحث عن الأحداث التي كونت الذاكرة، وكيفية تكون الذاكرة الجماعية تاريخيا. ويهتم المؤرخ بالأحداث التي تحفظها الذاكرة وبالصفحات المبتورة منها، وتعيدنا لغة الذاكرة إلى تاريخ الجماعة الحقيقي، لذا لا يجب إهمال لغة المشافهة، والعلوم التي تدرس محتويات الذاكرة الشفاهية (اليومية)، والإثنوغرافيا التي تعتني بالوصف الدقيق لجميع مظاهر الحياة اليومية للجماعة، والأنثروبولوجيا التي تبحث عن الذاكرات الجماعية المختلفة والمتماسكة داخل الجماعة نفسها، الأمر الذي يكشف تفاعل هذه الجماعة مع الأحداث التاريخية التي عاشتها، والصراعات الداخلية التي كشفت عن تعدد الذاكرة الجماعية، لنتحرر من المخيال الاجتماعي أثناء الصراعات السياسية التي تشكل هوية كل ذاكرة دون أن تهتم بالرجوع إلى القاعدة الثقافية والتقليدية التي تشترك فيها الذاكرات.[527]

كانت الشعوب تعيد صياغة تاريخيها عن طريق الذاكرة الشعبية التي تقدم الحدث والشخصيات التاريخية وفق منظورها الخاص، وتصنع تاريخاً ممزوجاً بالخيال الذي يعكس المثل الأخلاقية والأماني المجتمعية، وهذا التاريخ تتوارثه الأجيال، ويمكنه أن يكون مصدرا من مصادر التاريخ الاجتماعي. وقد لا يعكس كل هذا تقسيماً كرونولوجياً تراكمياً ودقيقاً، لكنه يهدف إلى تفسير وجداني للأحداث، وتقديم موقف المجتمع من الوقائع التاريخية واليومية، فالمحكي الشعبي والأسطورة والشعر والرقص وما إلى ذلك، عناصر تحمل تطلعات وآمال المجتمع، والحلم يعكس ما يعيشه المرء خارج الزمان والمكان.[528]

يعتبر التاريخ علم الإنسان عبر الزمن[529]، ويحدد هذا التعريف السمة البشرية والاجتماعية للتاريخ، رغم شمله بعض المجالات الطبيعية[530]. ويتأكد الفرق الهائل بين التاريخ البشري والطبيعي، غير أن التاريخ هو دراسة المجتمعات البشرية، ومنه فالتاريخ هو التاريخ الاجتماعي، ويمكن إدراك الماضي انطلاقا من الحاضر، ما يمكننا من دراسة معكوسة مع أخذ الحيطة قدر الإمكان.[531]

تمنح الذاكرة الجماعية وعاء للتاريخ الاجتماعي وتحفظ صفحاته المفقودة، ويعتبر المجتمع إطارها العام الذي تستقي منه مادتها، وبالتالي تعتبر الهياكل الاجتماعية بالريف الأوسط أولى خطوات تدوين التاريخ الاجتماعي وكشف رواسب الذاكرة.

527- محمد أركون (2003)، «أنثربولوجيا وذاكرة جماعية مفهوم الكلمة الغائبة: كلمة الأمل أفكار وشعارات مغشوشة »،**كتابات معاصرة**، العدد السابع والأربعون، منشورات انتصار العقل، بيروت، ص. .123

528- عبد الكريم مدون(2005)، «التاريخ الاجتماعي بين الأسطورة والذاكرة الشعبية محاولة قراءة في ذاكرة المجتمع الآسي »،**مجلة قراءات**، العدد الأول، أكادير، ص. .113

529- Marc Bloch(1959), *Apologie pour l'histoire ou métier d'histoire,* Armand Colin, Paris, p.33.

530- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص. .168
نذكر من ضمن هذه الأعمال مثلا:
- Emanuel Le Roy Ladurie(1967) , *Histoire du climat depuis l'an mil*, Flammarion, Paris,.

531- Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire ou métier d'histoire...,* op.cit., p.49.

المبحث الثاني: الهياكل الاجتماعية بالريف الأوسط

أولا: البنية القبلية والأنظمة الانقسامية

تعتبر القبيلة مجموعة متماسكة ومستقلة سياسيا واجتماعيا تعيش أو تطالب بمنطقة محددة خاصة بها، تحمل اسما مشتركا وشعوراً مشتركاً وموطناً مشتركاً، وأعضاؤها ملزمون أخلاقيا بالاتحاد في حالة الحرب، وإنهاء الخصومات عن طريق التحكيم، غير أن معايير الانقسام لا تنطبق على قبائل أيث ورياغر تماما[532]، رغم اعتبار إرنيست گيلنر Gellner Ernestأن قبائل شمال إفريقيا المسلمة تتمتع بنفس الخاصيات[533]. تكتسي التنظيمات الاجتماعية بالريف نوعا من التعقيد من خلال امتزاج الجانب الاجتماعي بالجانب السياسي، اذ تصبح الهياكل الاجتماعية في خدمة الحرب.[534]

تتكون القبيلة الريفية[535] حسب إيميلو بلانكو إيثاگا وفق نمط هرمي يرتكز على قاعدة العائلة دون زواج أبنائها، وتسمى «ذيمْسّي» أي النار أو الموقد، وتسمى كذلك «تذخّانت» أي الدخان، وتسمى اجتماعيا «النوبث» أي الدو[536]، نسبة إلى دورها في الأعمال الجماعية، ومنها إعالة فقيه المسجد والقيام بأعمال توزيزة لصالح فرد من الجماعة. وتتفرع أسر من الأسرة الأصل تسمى «جيج»، وتجمع الأسر في وحدة أكبر ذات انتماء أبوي تسمى «ترفيقث» أي فرقة ويسمى كبيرها «أزدجيف» أي الرأس، وتكون مجموعة من ترفقين «اجماعث»، أي الجماعة. تتوفر هذه الوحدة الأخيرة على أملاك ومسجد ولها أدوار وواجبات، ويسيرها «إزدجيفن»، كما نلاحظ غياب الارتباط الكامل بالنسب الأبوي، إذ تقوم مجموعة من اجماعث باحتواء أسر غريبة مقابل القيام بواجباتها وتعتبرها منبثقة منها، وتنخرط اجماعث في وحدة أكبر هي «أربع»، أي الربع أو العشيرة أو القسمة، أو الخمس في مستوى أعلى. يعتبر مفهوم خمس أخماس من وجهة نظر الأنثروبولوجيا مبدأ من مبادئ النظام القبلي والانقسامي في المغرب، إذ يتصف بدقة التحديد والتنظيم المتناسق، ويعتبر إضافة مغربية أمازيغية في مجال الأنساق الانقسامية، ولهذا النظام أهداف وظيفية محددة، وتقاطع ترابي وتكاثر بشري، وتسهل

---

[532]- دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطيين المغربة بهولندا، الطبعة الثانية، ج.1، ص. 7.

[533]- إرنست غيلنر (2004)، **مجتمع مسلم**، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادر، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، طرابلس، ص. 251.

[534]- Stevens Coon Carleton (1904), *Tribes of the Rif*, Harvard University, The University of Michigan Libraries, p. 95.

[535]- بنيت القبيلة الريفية على علاقات ترابية، والنموذج الانقسامي الذي يرتكز على الانتماء المشترك لتنظيم القبيلة. تشمل ملكية الأرض ما بها من مجاري مائية، والأفراد المنتمون للمنحدرات لهم حق الأسبقية في المجاري المائية، بالإضافة لعملية التناوب في السقي المحددة بالقرعة بين خطوط الأنساب. ينبني نظام التحالف القلعي على الروابط القبلية، وأحيانا على روابط الصداقة، كما يستند على عامل الجوار والعمل الفلاحي. وقد شمل التحالف قبائل أكثر أثناء الأزمات السياسية التي واجهتها بسبب اقتحام الجيلالي الزرهوني والوجود الاستعماري بمليلية، وكان »إمقرانن«، أي إمغارن أو الأعيان أو أعضاء المجلس القبلي يجتمعون بحضور الشريف أو أمرابظ ضمن »أگراو «الذي ينعقد غالبا بالزوايا أو المساجد أو أماكن الدرس، بعد القيام بطقس »تغدوين« الذي يتم بإبعاد أسلحة المجتمعين التي تجمع في مكان محدد للدلالة على الاتفاق. ويقام الاجتماع للتشاور أو لإعلان الحرب، كما يؤدى القسم ويهدد كل من خان بالعنف الرمزي. انظر:

- محمد أوحدو (2017)، **الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية نموذج قلعية**، منشورات زمن، سلسلة شرفات، العدد التاسع والثمانون، الرباط، صص.106-105.

[536]- مثل الدور "النوبث" مركز صراع بين مالكي الأراضي، ونظر فيها الفقه إلى جانب العرف الأمازيغي، حيث رفعت نوازل بهذا الخصوص إلى فقهاء غمارة في كثير من الأحيان.

وحدة الفعل القبلي. وتنتظم قبيلة أيث ورياغر حسب نموذج خمس أخماس، ونجد نظام الربع في قبائل أخرى غير أن المفارقة هي أن الخمس يعتبر أكبر من الربع رغم تعارض ذلك مع الدلالة الرياضية[537]. وأخماس قبيلة أيث ورياغر حسب كون هي: أيث يوسف أوعري وأيث عبد الله وأيث عري وإمرابظن وأيث بوعياش، حيث يستثني أيث حذيفة، وأخماس إگزناين هي: أشث يونس وأشث عاصم وأشث محند وإمزذورار وأشث عرو عيسى، مستثنيا إشاوين وجبارنة.[538]

قد تتضمن قسمة كبرى قسمة صغرى أو أكثر، ولكل قسمة سوقها الخاص بها وقوانينها العرفية، ويرأسها إمغارن أو إمقرانن، أو أعضاء مجلس الربع، «أيتاربيعين ن اربع»، الذين يجتمعون بشكل دوري من خلال أگراو الأسبوعي، لاستخلاص مداخيل السوق والذعائر والديات وتوزيعها على المستحقين، ويدبر إمغارن أو إمقرانن أمور الحرب والثأر والمساندة وفق نظام الحلف أو اللف، باعتباره القيادة السياسية العليا داخل القسم والعشيرة والقبيلة.[539]

يعتبر بلانكو مجتمع الريف فوضى منظمة، مع ما يحمله هذا المفهوم من خصومات واختلافات ويمكن اختزالها في غريزة الدفاع عن النفس وروح التآزر والتحالف. ويرى بلانكو انتظام المجتمع الريفي كنسق انقسامي يبتدئ من الأسفل إلى الأعلى، أي من الأسرة التي تجمعها قرابة العصب ويسميها غصنا أو فرعا صاعدا، إذ حاول اقتباس دلالة مصطلح «جاجگو» الورياغلي الذي يحيل إلى غصن متفرع من الخضروات مثلا، ويقابله مصطلح «جيج»، أي الوتد الذي يستعمل في إگزناين وأيث عمارث، أو أيضا مصطلح «أزوار»، جمعه «إزوران»، ويعني الجذر أو العرق، وهو أقل استعمالا من المصطلح الآخر الأكثر شيوعا، وهو «ثارفيقث»، وإن كان هذا المصطلح الأخير يشمل وحدة أكبر قليلا من «جاجگو»[540]. المستوى الانقسامي الأعلى الذي يتضمن مجموعة «ثارفيقين»، هو القسمة أو العشيرة التي يسميها الريفيون «أَرْبع»، أي الربع، أو «رْخُمسْ»، أي الخمس، علما بأن الربع وحدة انقسامية أصغر من الخمس كما سبقت الإشارة. وتبقى «ثاقبيتش»، أي القبيلة الوحدة الانقسامية الأعلى. أما إذا انتقلنا إلى المستوى السياسي، فإن مجموعة من هذه الوحدات قد تتحالف فيما بينها في إطار ما يسميه الريفيون «اللف»، إي الحلف.[541]

يشبه التنظيم الاجتماعي بالريف التنظيم القبلي بالأطلس وبعض المناطق الصحراوية، وإن اختلفت المصطلحات الدالة على كل وحدة، وتبقى الأسرة هي النواة الأولى تليها الفرقة ثم العشيرة فالقبيلة. وتضم الأسرة الأبوين والأبناء الذين يجمعهم نفس المنزل، وحين تصبح هذه الأسرة عائلة أكبر تتكون من أجداد وحفدة يسكنون جوار بعضهم تسمى «جاجگو»، «إجوجگا» في صيغة الجمع، فتكون وحدة عمل قائمة الذات، ويقترن الريفي غالبا بزوجة

537- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C[a]-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. p.2.

538- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif*..., op. cit., 1904, p. 92.

539- دايفيد مونتگومري هارت (2004)، **القانون العرفي الريفي نصوص مختارة من أعمال إيميليو بلانكو إيثاگا**، ترجمة: محمد الوالي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص. ص..12-11

540- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص..472

541- نفسه، ص..21

واحدة، ويستمر احترام الآباء والرضوخ لسلطتهم حتى بعد الزواج، وإن عدّد الزوجُ الزوجات، تظل السلطة للأولى، خصوصا إن كان لها أبناء ذكور.[542]

يقصد بالعشيرة مجموعة من الأسر دون جد مشترك بالضرورة، وهي مستوى انقسامي أعلى من ثرفيقث ذات الجد المشترك، في الريف على الأقل، فهي التي يسميها هارت القسمة بدل كانتون لدى بلانكو ومونطاني وكون. من خاصيات العشيرة أو clanأنها لا تتوفر على جد مشترك. يجب التمييز أيضا بين العشيرة كمصطلح انقسامي بامتياز والدوار كمصطلح ترابي مجالي بالأساس، وقد تتوزع نفس القسمة سواء كانت صغرى، أي الربع، أو كبرى أي الخمس على عدة دواوير. هذا إن كان المقصود بالعشيرة مفهومها الأنثروبولوجي وليس دلالتها اللغوية، أي بنو أبي الرجل الأقربون. وفي كثير من الأحيان تقطن العشيرة حيا خاصا من القرية وتستغل أرضا معينة، وتنظم نفسها للدفاع عن مكتسباتها، وأعضاؤها يؤازرون بعضهم في السراء والضراء، ويشكل الدوار أو المدشر مجموعة اجتماعية أساسية تضم عدة «ثارفقين» يجتمع رؤساؤها في المسجد فيكونون الجماعة التي تنتخب رئيسا يسمى المقدم أو الجاري، ومن اختصاص الجماعة النظر في الشؤون الإدارية والسياسية التي تهم الحياة اليومية للدوار من قبيل جمع الضرائب وتوزيع الأراضي والمراعي الجماعية، وتوزيع مياه الري، وضبط بداية أوقات الأشغال الفلاحية وتنظيم الأعمال الجماعية مثل إصلاح الطرق وصيانة الأحواض والسواقي وبناء وصيانة مسجد القرية، وجمع راتب فقيه الكتاب ومناقشة الشؤون المتعلقة بالحياة أو بالإدارة المركزية .[543]

تضم الفخدة حوالي خمسة دواوير ويطلق عليها في الريف الخمس، يقابله في الأطلس تقبيلت، تقوم غالبا داخل وحدة جغرافية قائمة الذات، وتشرف على الفخدة جماعة من ممثلي كل دوار يطلق عليهم اسم أمغار، ولا يزيد عددهم عن 10، والجماعة تنتخب رئيسا يسمى الشيخ العام، لأنه يتولى الرئاسة لمدة سنة، وهو المنفذ لإدارة الجماعة، واستغلال الشيخ للنفوذ يعرضه لانتقام الجماعة. وتنعقد اجتماعات الجماعة غالبا خلال يوم السوق الأسبوعي، أوعند حدوث ظروف استثنائية (حروب-قرارات السلطة المركزية...). الجماعة هي الخلية الحيوية للنظام السياسي في الريف، وتعد القبيلة وحدة سياسية تضم بعض الأفخاد، وللقبيلة جماعة ينتخب أعضاؤها على صعيد الأفخاد، ورئيسها يدعى القائد، تنحصر مهامه في النظر في شؤون السلم والحرب، وقيام المعاهدات والأحلاف والنظر في القضايا الجنائية الكبرى، وأشهر ضريح في القبيلة يكون مقراً للجماعة، ويحدث اتحاد القبائل في حال وجود خطر خارجي وعدو مشترك بين القبائل ويعتبر عامل اللف الذي يوحد صفوف القبائل أمام الخطر الخارجي، بمثابة تحالف معنوي مقدس. وهو عامل مهم في قيام الحياة الاقتصادية، والتبادل التجاري بين القبائل المنضوية تحت نفس اللف.[544]

---

[542]- أنخيلو گيريلي (2017)، **إبقوين قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، ص. 113.

[543]- لحسن أغزادي (1989-1988)، **ابن عبد الكريم وحرب الريف** 1926-1921م، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية، فاس، ص. 92.

[544]- اعتمدنا ما ورد في أطروحة لحسن أغزادي، **ابن عبد الكريم وحرب الريف** 1921-1926م، صص. 95-94، على سبيل استحضار ما كتب حول الموضوع، مع الأخذ بعين الاعتبار استعماله مصطلحات مرتبطة بطبقات الأنساب العربية كالشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والعمارة والفصيلة لا تنطبق على الأجزاء الانقسامية ما دامت تنبني على الانتساب إلى الجد الواحد. وردت مجموعة

تشكل القبيلة المستوى الأعلى الذي تنتظم بداخله مجموعة من القسمات، وتضطلع بذلك بوظيفة الحفاظ على التوازن بين هذه القسمات ذاتها حسب مبدأ «توازن وتعارض الأجزاء». يتحدث بلانكو المتأثر بآراء مونطاني عن انتظام القسمات داخل كل قبيلة في الريف ضمن لفين متوازنين، وهو ما يفنده هارت. يضيف بلانكو أن مثل هذه اللفوف أو التحالفات التي نجدها على مستويات القبيلة، وساهمت «ثارفقين» أيضا في توحيد صفوف الريفيين لمواجهة التغلغل الأجنبي في المنطقة. كما تميز المجتمع الريفي بمرونة المجال الترابي لوحداته الاجتماعية، لكن ليس إلى الحد الذي قد يمس بالحدود القبلية القارة إلى حد ما، إذ تسارع القبيلة المتضررة لوضع ضوابط تضمن استقرار مجالها، كما حدث بين إبقوين وأيث وریاغر بضفاف المجرى الأوسط لواد بوهم مثلا.[545]

تتسم صورة تاريخ الريف إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر بالتقطع، إلا أنها تبدوا كاملة ومنسجمة مع الحقائق الإثنوغرافية، حيث تعطينا لمحة عن هذا المجتمع القبلي الذي برز في التاريخ بمثابة مجتمع أبي وثائر وميال للخصام في نفس الوقت، وهي النظرة التي كان يحملها دائما غير الريفيين عن المجتمع الريفي، ومن المؤسف أن يكون الجرد التاريخي المتوفر حول الريف قد اعتمد كليا على وجهة نظر خارجية لم يكن فيها للريفيين أي إسهام .[546]

تتحدد أهمية القبيلة في المجتمع الريفي من خلال التحليل البنيوي الأنثروبولوجي في الماضي، وتتبع خط النسب الأبوي، ودراسة طبيعة السلطة المنتخبة التي لا تكون حكرا على أسرة دون أخرى، ومعاينة تقلص التراتبية الاجتماعية داخل القبيلة، وملاحظة انطباق النظرية الجينيالوجية في تمثيل البنية القرابية. ويمكننا دراسة دور القبيلة أيضا، من خلال العودة للدراسات السابقة حول مجتمعات شمال إفريقيا، وأبرزها دراسات روبير مونطاني Robert Montagne، التي فكت تركيبة النظام القبلي أول الأمر، وكشفت عن نظام التحالفات القبلية التي وسمها بالتحالفات الشطرنجية، حيث اعتبر مونطاني هذه التحالفات عاملا لاستمرار النظام الاجتماعي بالقبيلة، وأداة ووسيلة لظهور الاستبداد القيادي في نفس الوقت، لذا لا يضمن اللف الاستقرار بشكل دائم. وقد تعرض مونطاني للانتقاد من قبل دعاة الأطروحة الانقسامية، كهارت مثلا. وإذا كان گيلنر بدوره يقر بأن هذا التحليل مفيد من حيث قائمية الأحلاف القبلية، ودور هذه اللفوف في الحفاظ على النظام في حالة حدوث نزاع بين قبيلتين، غير أن نظرية مونطاني تعجز عن فهم البنية الاجتماعية الانقسامية في مستوياتها الدنيا إذ ينتفي عامل حفاظ اللف على الاستقرار في حالة نشوب نزاع داخلي بين مجموعات تربطها علاقة قرابة أو تشترك في نفس خط النسب.[547]

من المعطيات في هذه الفقرة لا تنطبق على حالة الريف من قبيل الفخدة المتكونة من خمسة دواوير هي الخمس وتحديد عدد إمغارن في عشرة أو فكرة انتخاب الشيخ العام التي لا وجود لها في الريف بل في الأطلس فقط. نفس الشيء بالنسبة للقائد، هذا المفهوم المخزني الذي يختلف في الريف مقارنة مع المناطق الأخرى في المغرب.

[545]- David Montgomery Hart (1995), *Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif. Una selección de su obra, publicada e inédita, sobre la estructura sociopolítica de los rifeños del norte de Marruecos*, estudios introductores y notas de Hart, La Biblioteca de Melilla, , pp. 130-131.

[546]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث وریاغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص..648

[547]- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص. .98

تعرف تسمية الأجزاء الانقسامية المكونة للقبيلة توسعا أو تقلصا لمدلولها، خصوصا بالنسبة إلى الأجزاء التي تنتشر في مجالات ترابية متفرقة، ويسميها هارت ظاهرة الهيمنة والانحسار دون أن يعني ذلك أي هيمنة لقسمة على أخرى. وهذه خاصية مألوفة تتسم بها القبيلة المغربية. انتقال الأجزاء الانقسامية من مجال ترابي إلى آخر والاستقرار به يخضع لعدة عوامل، لكنه لا يتم في الريف عبر الترحال والانتجاع لغياب هاتين الظاهرتين بالمنطقة، ولا عبر السلب والنهب. قد تقتني أطراف من مجموعة قبلية أراض تابعة لمجموعة أخرى، لكن ليس إلى حد المساس بالحدود القبلية القارة إلى حد ما. وتكتسي الحدود بين القبائل في غالب الأحوال طابعا جغرافيا طبيعيا، مما يضمن استقرارها كالمرتفعات والأودية مثلا، وإن كانت هذه الأودية ذاتها تغير مسارها أحيانا، فتتغير الحدود كما حدث لنهر النكور الفاصل بين أيث ورياغر وأيث توزين.[548]

تعتبر القبيلة إطاراً اجتماعياً منظما ومكوناً من عدة هياكل تنظيمية، أولها الجماعة التي تعتبر أهم مؤسسة لتنظيم الحياة الاجتماعية بالقبائل الريفية، وتقوم بدور التحكيم في النزاعات، وتضم هذه المؤسسة مجلس الفخذة المكون من الأسر التي تسير مجالها وشؤونها الاقتصادية والسياسية ويتكون مجلس الفرق يتكون أعضاؤه من عشرة أعيان يمثلون فخذات القبيلة لهم حق اختيار مساعديهم، ولهم دور إنشاء المؤسسات الجماعية مثل الأسواق، وليس هناك أي توارث في هذه المناصب، وتضم الجماعة مجلس القبيلة الذي يضم المجلسين السابقين، ويمثلون مؤسسة أيث أربعين المتخصصة في أمن القبيلة، والدفاع عن مجال القبيلة، وكان لهذه المجالس تنظيم سياسي محكم .[549]

لا يمكننا الحديث عن مفهوم الانقسامية دون الرجوع إلى الإسهام الميداني لإيفانس بريتشارد[550]Evans- Pritchard الذي يعد الأساس والمرجع الذي تبناه معظم رواد النظرية الانقسامية، هذه النظرية التي تعتبر المجتمع الانقسامي segmentary [551] societyمجتمعاً ينقسم

---

[548]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 440-438.

[549]- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C°-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. P.2.

[550]- Evans Pritchard E. (1940), *The Nuer a description of the modes of livelihood and political institutions of a Nilotic people,* Clarendon Press, Oxford, , p.14.

[551]- يستخدم مصطلح الانقسامية Segmentarity في الأنتروبولوجيا ليدل على نظام القبيلة التي تحدد الانحدار القرابي على أساس تتبع علاقاتهم بأسلافهم الأعلى البعيدين. وعلى ضوء هذا، يفهم البناء الاجتماعي على أنه نظام متدرج يشبه الشجرة ذات المستويات المختلفة من الوحدة والتعارض، فالوحدات المنقسمة عند المستوى الأدنى تتجمع معا داخل وحدات أكبر عند مستوى أعلى. ومن هنا يربط إيفانس بريتشارد Evans-Pritchard البناء الانقسامي بالمسافة القرابية (الجينيالوجيا). انظر:

- شارلوت سيمور-شميت (1998)، **موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الانتروبولوجية**، ترجمة مجموعة من الباحثين بإشراف محمد الجوهري، المشروع القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ص: 126.

- نجد وصفا دقيقا للمجتمعات الانقسامية من خلال نموذج النوير The Nuerالذي يتضمن نصوصاً أو رسومات تبين البناء الانقسامي، وهي عبارة عن جداول وتشجيرات توضح مفهومي الانصهار والانشطار، اللذين شكلا الإضافة النظرية المهمة لبريتشارد في إضافاته للبناء النظري للمقاربة الانقسامية التي حاول فيما بعد، كل من إرنست گيلنر ودايفيد هارت، ولوسيت فالنسي وجون واتربوري، توظيفها في سعيهم إلى تحديد مميزات البنية القبلية باعتبارها أهم الهياكل الاجتماعية لدى المجتمعات الشفهية. انظر:

- المختار الهراس (1988)، القبيلة والسلطة تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، الطبعة الأولى، الرباط، ص. 17.

- ترتكز البنية الانقسامية على انعدام أي تجميع للسلطة بين يدي شخص واحد بصفة عامة. والغياب التام للمؤسسات السياسية المتخصصة. والتوزيع المتوازن للسلطة بين مختلف المجموعات، وعلى جميع المستويات، وهذا يكفي لضمان استتباب النظام. انظر:

إلى وحدات تنتسب إلى سلف بعيد، وترتبط هذه الوحدات بعضها ببعض بروابط القرابة. فالقبيلة الكبيرة تنقسم إلى عشائر Clans، التي تنقسم بدورها إلى أفخاذ Lineages[552] وتعيش كل وحدة في إقليم خاص بها، وتمارس فعاليتها الاقتصادية بحرية، فهي مستقلة عن الوحدات الأخرى، ولا تخضع في حياتها السياسية إلا لسلطة رئيسها المباشر. ولذا فليس في المجتمع الانقسامي سلطة موحدة، ويعتبر شعب النوير القاطن في جنوب السودان نموذجا لهذه المجتمعات».[553]

يلخص عبد الله حمودي الأطروحة الانقسامية في الجينيالوجيا ودورها في تحديد الجماعات الاجتماعية، باعتبارها نمطا من التمثلات التي تقنن النظام الاجتماعي، وتحدد نمط العيش، غير أن حمودي يتجاوز النظرية الانقسامية عندما تكون الوحدات المكونة للنظام التجزيئي الذي يرافق الحرب وحين يغير الأفراد مجالهم القبلي الذين يصبحون ضمن الشجرة الجنيالوجية الجديدة، وبما أن الأفراد يسمح لهم بتبديل مؤسس بمؤسس آخر هذا يعني غياب الصرامة، وهذه الصرامة تحضر في المجتمع الريفي من مجموع القبائل المغربية، ولا يسمح لهم بالشراء ولا التناسب، وانتقد حمودي مسألة غياب التراتب الاجتماعي الذي أقرت الأطروحة الانقسامية بسيادته في القبائل المغربية، واعتبر حمودي أن التراتبات السياسية لها تأثيرها على اللعبة السياسية، وضمنها في بعض الأفراد الذين يحتكرون السلطة وانتقالها لأفراد نفس الأسرة أحيانا، بالإضافة إلى السلطة الرمزية التي تمارس من قبل عائلة الشرفاء، الأمر الذي يساهم في الرفع من شأنها اقتصاديا، وحسب النظرية الانقسامية يقوم الشرفاء بامتصاص النزاعات القبلية بالعمل على التوصل إلى الصلح وإحلال السلم، وهذا في حد ذاته يوضح التراتب الحاصل بالقبيلة المغربية.[554]

تبنى كل من دايفيد هارت David Hart ورايمون جاموس Raymond Jamous[555] أهم عناصر المنظومة الانقسامية، من خلال دراسة المجتمع الريفي، ونظام السلالة الأبوية، وتطابق علاقة القرابة مع التوزيع الجغرافي رغم دمج عدد من الأجانب من طرف القبيلة،

- علي صدقي أزايكو (1988)، «حول النظرية التجزئية مطبقة على المغرب » ، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط**، العدد الرابع عشر، ص. 10.

[552]- الاتحادية القبلية أو كونفدرالية القبائل: وهو تحالف قبلي حربي بالأساس قائم على روابط تاريخية قديمة، وأشهرها بالريف ثلاث اتحاديات: الريف أو بطوية، صنهاجة السراير، غمارة. اللف أو الحلف: تحالف بين قبائل أو قسمات قبلية بهدف المحافظة على توازن القوى بين طرفين متصارعين. الوحدة السلالية lignage توصيفهما للبنية الاجتماعية للقبيلة مفهومين رئيسيين: الفرقة الاجتماعية التي شكلت عصب التحالفات والصراعات، إذ كانت جل مداشر لقبيلة منقسمة إلى فرقتين أو ثلاث، تخضع لتوزان هش يفرض عليها الدخول في تحالفات مع عائلات أو فرق أخرى من خارج المدشر واللف: وهو تحالف بين مجموعة من العائلات أو الفرق أو المداشر المستقرة داخل مجال القبيلة. انظر:

- Paul Pascon Wusten Herman van der, *Les beni Boufrah…*, op. cit, pp. 76 – 82

[553]- شاكر مصطفى سليم (1981)، »**قاموس الأنتروبولوجيا**،« جامعة الكويت، الطبعة الأولى، ص. 860.

[554]- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص. 102.

[555]- انطلق رايمون جاموس Raymond Jamous في دراسته حول قبيلة قلعية من إقامة تعارض صارم بين نظامين يرى أنهما أساسا اشتغال المنظومة الانقسامية داخل القبيلة الريفية، وهما الشرف Honneur والبركة Baraka، وذلك بالتركيز على أنساق اجتماعية ربطت بين الساكنة الريفية، كالنوبث = الدار، وجاجگو = الأسرة الكبيرة، وترفيقت = السلالة، وادشار =المدشر، وتخماست / اربع = القسمة / الفخذ، وثقبيتش/ خمس اخماس -القبيلة، واللف- التحالف، بالإضافة إلى مفاهيم أخرى كالمساواة، والانقسامية، والعلاقة التراتبية، والأب، والابن، والشريف، والقتل والتضحية، والعنف، والسلم، والحياد. وإذا كان الانقساميون يؤكدون على أهمية النسب والقرابة في التشكل والانتظام القبلي، فإن جاموس على عكس ذلك تماما، يؤكد على دور وأهمية الأرض أو الرابطة المجالية، إذ أن الارتباط بالأرض أشد وأقوى عند القلعيين من رابطة القرابة. انظر:

- Raymond Jamous (1981), *Honneur et Baraka: les structures sociales traditionnelles dans le Rif,* éditions de la maison des sciences de l'homme, Paris, p. 56.

ومبدأ الانصهار والانشطار في جميع المستويات، والدور السياسي للشيوخ أو الأعيان، أي إمغارن، ودور الوساطة الذي يقوم به الأولياء، ونبها إلى تجنب أي تعميم يخص المجتمع الريفي على كل المجتمعات، التي تستوجب التحليل بدورها. وقد طبق النظرية نفسها بول باسكون لدراسة قبيلة بني بوفراح اعتمادا على الرواية الشفوية.[556]

وانطلاقا مما سبق يمكن سرد ست وحدات تنتظم في مختلف مستويات النسق الانقسامي الذي يحكم القبيلة الريفية هي أولا: «تارفيقت» أو الفرقة، ثانيا الدوار أو ادشار: كمستوى أدنى من التنظيم السياسي، ثالثا الربع أو الخمس[557] أو القسمة القبلية: باعتباره وحدة سياسية وترابية، رابعا القبيلة: كوحدة سياسية أكثر منها قرابية، وتتشكل من أربعة أرباع، خامسا اتحادية القبائل: التي تتشكل من اتحاد بين مجموعة من القبائل لغايات سياسية وعسكرية،

556- Paul Pascon Herman Van der Wusten (1983) *Les Beni Boufrah Essai d'écologie sociale d'une vallée rifaine (Maroc)*, Reproductions industrielles, Rabat, pp. 51-53.

557- يتوفر الربع والخمس، أي القسمة غالبا على سوق خاص مما يسمح باستخلاص أو أداء غرامات السوق أو «ارحق»، تتسم قبيلة أيث ورياغر وقبائل الريف الأوسط عموما بتقطع المجال الترابي وتضاعف القسمات الصغرى، وترتبط أسماء القسمات عادة باسم جد مفترض أو موقع جغرافي ما عدا اسم خمس «إمرابظن» الدخيل. انظر:

-مونتگومري هارت (دايفيد)، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ص. 456.انظر أيضا:

- David Montgomery Hart, *La Sociedad Bereber Del Rif Marroquí...,* op. cit., p.60.

- يشكل »إمرابظن «خمسا إضافيا، وهؤلاء يعيدون أصلهم إلى فاطمة بنت النبي، وإلى السلطانين ادريس الأول وادريس الثاني، ولا تتجاوز نسبة الشرفاء الأصليين حسب تقدير هارت 6,9%، أما الباقي فلا ينتسبون إلى الدوحة النبوية بل هم مجرد »مرابطين«، غير أن الريفيين عموما يعتبرون فئة »إمرابظن «تتميز عنهم بشكل من الأشكال، ويحددون من هم شرفاء حقيقيون أو العكس حسب مقولة »صوت الله في الحقيقة هو صوت الشعب «كما لاحظ كَيلنر، ومن صلحاء الريف الذين تم ذكرهم في المقصد فقط ابراهيم الأعرج من يعود إلى سلالة النبي، والشرفاء المزعومون بأيث ورياغر لا يحصلون على نصيب من مداخيل صندوق مولاي ادريس بفاس، عكس شرفاء سيدي حند أوموسى التابعين لقسمة أشث عروعيسى بإگزناين. صدور ظهير سلطاني مختوم بطابع السلطان محمد بن عبد الله سنة 1771م يؤكد على انتساب «إمرابظن» الورياغليين إلى إبراهيم الأعرج ويضفي بالتالي الشرعية على نسبهم الشريف. والجدير بالذكر أن »إمرابظن «بالريف يقسمون إلى فئتين: الأولى الملقبة بسيذي وهم حاملو البركات ومحققو المعجزات، والفئة الثانية المرتبطة بهم والملقبة بالسي، ويقول الورياغليون أن لقب السي يشمل الفئة المتعلمة المنتشرة بقبيلة إگزناين. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 457-465.

يسمي الريفيون القسمات بكل أصنافها »أربع«، أي الربع أو »ارخمس«، أي الخمس، رغم أن الربع قسمة صغرى وتتصف بتقطع أقل على مستوى المجال وضعف التكاثر مقابل الخمس. وقد أدى منع نزاعات الأخذ بالثأر إلى إضعاف مؤسسة خمس أخماس وانتفاء دورها الوظيفي المرتبط بغرامات الحق إلى أن زال هذا الدور بشكل نهائي، كما كان واضحا في أحداث 1958-1959. ولا يتصف نظام الأخماس بالتوازي والتوازن، ويبقى تحت رحمة التضاعف المتفاوتة، ونمو القسمات المعنية. توفر القسمة على سوق خاص بها يمنحها استقلالية أكبر وتشترك القسمات الصغرى في سوق واحد. وبإمكان الريفي أن يرتاد أي سوق وإن كان خارج القبيلة، غير أن انتقاله إلى قبيلة أخرى لغرض غير التسوق كان يستوجب في عهد الريفوبليك أداء عمولة أو »تازطاط« لعضو بارز من القبيلة ليقوم بدور الضامن والحامي أثناء الرحلة. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 467-469.

يتميز الريف بمرونة المصطلحات فالخمس يتضمن الربع والقسمة تتضمن القسمة الصغرى دون أي فرق لغوي، والانقسام داخل القسمات الصغرى لا يعني وجود عداوة أو تحالف بالضرورة، إنما ضرورة جغرافية وترابية، ثم نبلغ مستوى »ادشار« أو المدشر، وتعني مجموعة من المنازل لهم أرض ومسجد ومقبرة وولي، وكل فرد يعرف حدوده الجغرافية وسكان مدشره وسكان مدشر وجغرافية مدشر غيره، وبالتالي نجد للمدشر حدودا اجتماعية، ومركزه المسجد والمقبرة، والمقابر لا توضع بشكل اعتباطي بل تنفرد كل سلالة بموضع خاص بها، والمنازل تكون مشتتة لحب الريفيين للعزلة. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 469.

وتعتبر قلعية اتحادية قبلية[558]، يسميها جاموس «خمس أخماس» على اعتبار أن كل خمس يوازي قبيلة، وسادسا اللف: وهو تحالف حربي بين فرق وأقسام القبيلة.[559]

اعتبر جاموس الانقسامية قائمة على الأرض غير أنه هناك من يعيدها إلى رابطة الدم[560]، حيث تتمثل مبادئها في اسم جد حقيقي أو مزعوم أو أي اسم، وتُجزأ الوحدة في المستوى الأعلى إلى مجوعة من القسمات التي نادرا ما يتجاوز عددها خمسا، وكل قسمة تجزأ إلى قسمات صغرى، ثم إلى سلالات كبرى، ثم إلى سلالات صغرى وإلى أصغر منها، إلى أن نبلغ الأسرة النووية التي قد تتضمن أحيانا عدداً كبيرا من الأفراد، خاصة في حالة وجود أملاك مشتركة. ويعتبر الأنثروبولوجيون مسألة إمكانية تتبع هذا النسب أو عدمه عاملا محددا عند تعريف وحدة اجتماعية معينة، ويستمر الانقسام عند مراحل لاحقة من تاريخ شجرة النسب، عبر ظاهرتي الانشطار أو الانقسام والهجرة أو تغيير الإقامة ويتمثل المبدأ الثاني في التعارض بين الأجزاء أو الأقسام الذي يُعرف أيضا بتوازن القوة حسب منظور العلوم الإنسانية، وندرج مثال أيث موسى وأيث عيسى الأخوين المتنازعين اللذين سيتحدان ضد أبناء أيث زيان ابن عمهم، والثلاثة سيتحدون ضد عنصر خارجي.[561]

تسجل مبادئ النظام الانقسامي حضورها داخل الذاكرة الجماعية بالريف من خلال ممارستها وتتجسد في المثل القائل، الدم لا يباع ولا يرهن، أو بعض الأبيات الشعرية التي نذكر منها مثلا:"أيبريغْن انغْ أَيوراوْن أومرْزي مارا نمنغْ جارانغ غابارا وانتمسعذي" أي"أبناء قبيلتي يا قلوب العرعار حتى وإن تخاصمنا سنتحد أمام العنصر الخارجي".[562]

ترتكز الانقسامية المبنية وفق رابطة الدم على نظام السلالة ،[563]أي «ذارفيقث» والسلالة الفرعية، أي «جاجگو»، ويرتبط هذا النظام بالمجال الانقسامي بطبيعته الزمنية، في حين

---

[558]- محمد أونيا، »التصور الانقسامي للمجتمع بشمال المغرب ملاحظات حول أعمال رايمون جاموس ودافيد هارت ،«مجلة أمل، العدد الثاني عشر، السنة الرابعة، 1997م، ص. 63.

[559]- Raymond Jamous, *Honneur et Baraka...,* op. cit., p. 56.

[560]- أولى جاموس أهمية للأرض في خلق الالتحام بين القبائل الريفية أكثر من القرابة، وهجرة الريفي خارج تراب قبيلته تفقده الهوية، وملكية الأرض في الريف أساس كل شخص طامح إلى تسلق الهرم الاجتماعي.

- اعتبر هارت كل قبيلة تنتهي أصولها إلى جد مشترك ولو وهميا، مقسمة إلى عدة عشائر وكل عشيرة مقسمة لمجموعات صغرى، وكل منها تنقسم إلى سلالات إلى أن يصل التقسيم إلى الأب والأم والأولاد، والنقطة الأساسية في تركيب المجتمعات الانقسامية لها علاقة بالوحدات التي تليها، وكلما كانت الوحدة كبيرة سهل ترتيبها تصاعديا وصولا إلى عامل الأصل الذي يصبح غير مرغوب فيه أو يؤدي وظيفة مؤقتة، والجد المشترك عامل أساسي في تحديد المجموعة الاجتماعية. العشائر والفخذات تعتقد بوجود جد مشترك رغم عجزها عن ترتيب أصولها، والرقعة الجغرافية المدافع عنها تمارس نفس التأثير الذي يمارسه الجد المشترك. انظر:

- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. ص. 184-185.

[561]- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C^{a}-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. p.2.

[562]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 494.

[563]- المقصود هو نظام السلالة المنتظم على أساس قرابة العصب أو ما يسميه الريفيون »ذاومات«، ويتضمن هذا النظام مصطلحين أساسيين هما »ذارفيقث«، أي المجموعة السلالية الكبرى، و»جاجگو«، أي السلالة الصغرى أو الفرعية، وللمجموعتين معا جد مشترك وتسمى المجموعة باسمه أو بلقبه، علما بأن هذه الألقاب لا تحمل طابعا طوطميا، ونذكر كأمثلة سلالة أفقير أزوگاغ بأيث توريرث، هذا الجد الذي حمل هذا اللقب بسبب لون شعره وانتمائه إلى الطريقة الدرقاوية، وسلالات أوشانن في أجذير بأيث ورياغر وفي إهروشن بأشث عاصم بإگزناين وفي ثمسمان وفي أيث سعيذ. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 473-472.

ينتمي المدشر إلى المجال الترابي، أما المستويات الانقسامية العليا، أي القسمة الصغرى أو الربع، والقسمة أي الخمس، وذاقبيتش أي القبيلة فترتبط بالمجالين معا.[564]

يخضع نمو السلالات في الريف لمجموعة من المبادئ والأسس نذكر أهمها التي أوردها هارت وهي كالتالي:[565] الانشطار Fission: يحدث في الريف دون تغيير مكان الإقامة ودون أساس للعداوة إنما حبا في الخلوة. الانصهار والالتحام Fusion: هي عملية معاكسة تجعل سلالات المستوى الأدنى تتحد في المستوى الأعلى. الهجرة Scission: وتعني تشكل سلالة جديدة بعد انتقال فرع من السلالة الأصلية للعيش في مكان آخر لأسباب متعددة لعل أهمها خلال فترة الريفوبليك نزاعات الأخذ بالثأر كما يتضح من نموذج سلالة أفقير أزوگاغ. فقد هاجر هذا الرجل المنتمي إلى إمجاظ بمدشر هيبير بإگزناين سنة 1850م بعد ارتكابه جريمة قتل إثر نزاع حول الأرض، ولجأ إلى أيث توريرث، وتزوج هناك وكون سلالة امجاظ بارعص المختلفة عن سلالته الأصلية واحتفظ أفقير على حقوقه في إگزناين أي خمس مجموع أملاك إمجاظ بهيبير. الاحتضان والتكاثر Reception and accretion: هي عملية احتضان مهاجر وتصبح بذلك الوجه الآخر للهجرة. التقطع والتضاعف Discontinuity and reduplication: مبدأ ينتج عن ظهور سلالتين أو مدشرين في مكانين منفصلين يحملان نفس الاسم. وتحتفظ الذاكرة الجماعية بروايات تفسر كيفية الانسلاخ والتقطع، كسلالة أيث ادريس المنتشرة في سبع قبائل ريفية. وارتباطا بهذه الظاهرة تظهر مسألة ادعاء الأصل، أو ما أطلق عليه بارنز Barnes «فقدان الذاكرة البنيوي»، وكل هذه العوامل تعطي مجموعة غير متجانسة. التجزؤ Fractionation: وهو مرتبط بالنسق الترابي للنسق الانقسامي، ويكون عندما يتجزأ جزء من مستوى انقسامي أدنى إلى جزأين أو ثلاثة مع انتماء أحد هذه الأجزاء ترابيا إلى جزء ترابي مغاير يوجد في مستوى انقسامي أعلى. والتقلص Attrition: وهو عكس التضاعف، والوجه الآخر لعملية التكاثر عبر الاحتضان، وعادة ما كان يحدث هذا التقلص بسبب نزاعات الأخذ بالثأر. وتشهد المنطقة منافسة السلالة المحلية للسلالة الأجنبية التي بدأ نفوذها بالتوسع، وتبقى سلالة الشرفاء حالة خاصة، والملاحظ في الريف أن الغريب يبقى غريبا وان تكاثر في القبيلة وأصبح مالكا للأراضي، ويُعتبر الأطفال تابعين لقبيلة أمهم.

يؤدي التعارض إلى كسر التضامن الانقسامي داخل مجموع هذه القبائل من جراء المواجهة بين لفين متعارضين. عكس افتراض النموذج الكلاسيكي للانقسام، نظام اللف والتجانس الذي يفرضه في اختيار الفريق من طرف السلالات الأبوية للتحالف معه، ويتفق هارت مع گيلنر فيما يخص مقومات اكتساب الأمغار لهذه الصفة في الريف، حيث تستند على أسس منها قوة شخصيته، وقدرته على حماية مجاله من كل الأخطار ليكسب ثقة السكان، وامتلاكه للأراضي وكثرة أولاده التي ترمز للقوة والنفوذ، بالإضافة إلى الكرم غير أن جاموس نفى أي نوع من الانقسامية على المستوى الاقتصادي بالريف[566]. ولم تكن العلاقات بين الوحدات تناحرية بامتياز، ما دام عامل الماء يشكل عامل توحيد على المستوى الزراعي

564- David Montgomery Hart, *La Sociedad Bereber Del Rif Marroquí*..., op. cit., p. 60.

565- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 477-472.

566- Raymond Jamous, *Honneur et Baraka...,* op. cit., p. 59.

والاجتماعي، والصراعات التي ظهرت في المجتمع الريفي تحل بواسطة العرف والجماعة التي تضمن لها الأمن، بالإضافة إلى وجود أسباب التضامن أقوى من أسباب النزاع.[567]

تنبني جميع الأنساق الانقسامية الريفية على مبدأ القسمات غير المتجانسة بدل قاعدة الجد المشترك، ونموذج القبيلة الزراعية المكيفة مع البيئة الجبلية. وارتباطا بخاصية عدم التجانس هذه في القبائل الست المكونة للريف الأوسط، تبدو النسب المئوية للسلالات والقسمات الأصلية مقارنة مع السلالات والقسمات الدخيلة ذات دلالة هامة. إذ أن متوسط القسمات الأصلية في القبائل الست هو 49%، وفي كل قبيلة على حدة تبلغ نسبة 42%في إبقوين، و31% في أيث عمارت، و32%في إگزناين، و 55%بأيث توزين، و 78%بثمسمان و58% في أيث ورياغر.[568]

تعتبر القبيلة «ذاقبيتش» أكبر كيان اجتماعي-سياسي بالريف، وتتميز كل قبيلة بالريف الأوسط عن الأخرى بخصوصيات بشرية ومجالية وعقدية خاصة بها، وتتضمن داخلها وفق مبدأ «بطو» بمعنى الانقسام الأخماس والأرباع والربع، ثم المداشر، ثم السلالات «ذارفقين»، ثم السلالات الفرعية «إجوجكًا» ثم الأسر «النوباث»، ويعتبر الريفيون القبيلة تكتلاً لا يتجزأ، مقابل المستويات الانقسامية المتعددة، هكذا يهيمن مفهوم الانسجام والتراص في المستوى الأعلى في ظل استقلال الأجزاء في حالات مواجهة خطر خارجي. وما يزكي وحدة واستقلالية القسمات هو توفرها على أسواق أسبوعية، وأعضاء في المجلس وكيان سياسي خاص، وتكرست هذه الاستقلالية بعد الحماية، خاصة في أيث ورياغر بعد فترة التهدئة 1934-1935م، إذ قسمت القبيلة إلى ثلاث قيادات متساوية هي لوطا والنكور وغيس، مما ساهم بالتالي في بروز نوع من انفساخ الوحدة القبلية، إذ بدأ أهل الجبل ينادون سكان السهل بـ«أيث بوذخسايث»، أي أهل القرع، ويرد هؤلاء بنعت أهل الجبل بـ«إعلوشن» بمعنى السُذَّج، لكن هذا لا ينفي وقوف قبائل الريف الأوسط وقفة رجل واحد ضد الاحتلال الإسباني والجيلالي الزرهوني وخلال أحداث 1958-1959.[569]

بصفة عامة يمكننا عرض أهم العناصر القبلية القديمة واستعمالها، وأهم المؤسسات التي تنتمي إليها ووظائفها:

1. تنبني مؤسسة «اجماعث»، أو «الجماعة» على تآلف عدد من السلالات أو تارفيقين لأهداف اجتماعية، وتشكل هذه العائلات الخلية الأولية للبنية الاجتماعية.
2. تتجسد هذه الخلايا الأولية في «إجدجيفن» أو «إزليفن»، أي رؤساء هذه المجموعات، وهم ممثلوها الحقيقيون والحماة الكبار لتقاليدها، أي «القاعدة» التي تصاغ في قوانين مكتوبة يتم التنصيص عليها خلال «أگراو»، أي اجتماع هؤلاء الرؤساء.

567- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C^{a}-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. p.2

568- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 422-421.

569- نفسه، ص. 435.

3. تتمظهر هذه المؤسسة على أرض الواقع في المسجد والقرية والأراضي التابعة لها التي تشكل أساس التقطع والحدود المرنة، والتي تتسبب بدورها في العديد من النزاعات.[570]

4. الأهداف: تنظيم تعايش هذه المجموعات ورعايتها والسهر على مصالحها وتدبير ممتلكاتها الجماعية المشتركة.

5. الالتزامات: كانت تتمثل في تقديم الخدمات والعناية بالممتلكات الجماعية (العبادة، الأعمال الخيرية، التعليم، الضيافة، العلاقات الخارجية، الحرْكات، المساهمة في الأشغال الجماعية، المسؤولية الجماعية وتوزيع الثروات المشتركة، الأراضي، الري، الغنائم، الغرامات)، مع استثناء كل ما يتعلق بالأحوال الشخصية والأملاك الخاصة (الزواج، الإرث).

6. الوسائل: أعوان المؤسسة والمساهمات التبرعات النقدية والعينية للأهالي (العوائد والهبات والغرامات).

7. الأعوان: هم المصنفون كالتالي لأخذ فكرة أولية وتركيبية:

1. أبناء المنطقة والمقيمون الدائمون: رؤساء السلالات، أي إزليفن، الذين يشكلون المؤسسة التشريعية ويطابقون حسب المنظور الأوروبي، المستشارين على أساس حقهم الذاتي.

2. المنتخبون: «أيتاربعين»، والممثلون المؤقتون للمؤسسة أمام الهيئات الخارجية ومساعدوهم، و«أيت أمزيان»، والأوصياء والوكلاء والأمناء.

5. المتعاقد معهم:

- الفقيه
- المدرس أو محفظ القرآن
- «أمرّاس» أو حارس المطامير أو مخازن الحبوب في المنطقة الشرقية
- «أمزير» أو الحداد.

د. أعوان السلطة:

- المقدم أو ممثل المخزن
- الجاري أو المساعد الذي يقوم بمهمة الإخبار في حالة وجود قرى متباعدة أو أحياء خارجية.

ه. الحاصلون على عمولات أو تعويضات مقابل خدمة محددة: ويندرج ضمن هذه المجموعة كما في الحالتين السابقتين الأعضاء الذين لا يعتبرون تقليديا من أعوان الجماعة، من أمثال الطُّلبة الذين يحررون مختلف العقود، و«إقوّامن»، جمع «أقوام»،

570- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C°-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. p.1.

أي الخبير في شؤون الأرض والري الذي يستشار في حالة النزاعات حول الأرض والماء.

8.آليات الاشتغال: كانت الجماعة مستقلة في كل ما يهم شؤونها الداخلية.[571]

احتوت الهياكل الاجتماعية نظم قرابة خاصة في تشكيلها، وتتضمن التنظيمات الاجتماعية بالريف الأوسط تفاوتات طبقية، بداية من الأسرة ووصولا إلى القبيلة، غير أن هذه التفاوتات لم تكن مرتكزة فقط على الجانب المادي والاقتصادي.

ثانيا: نظام القرابة والتفاوت الاجتماعي

نظرا للطبيعة الزراعية والحربية التي يتسم بها المجتمع الريفي، فإن الروابط الاجتماعية بين الأهالي تبقى بدائية حسب بلانكو، وتضعف هذه الروابط كلما ازداد عدد أفراد هذا المجتمع. هكذا يتقلص التماسك بين أعضائه كلما انتقلنا انقساميا من مستوى الأسرة إلى القبيلة، ومجاليا من المدشر إلى منطقة أوسع[572]. وتتكتل الوحدات الاجتماعية كلما كثرت القواسم المشتركة كالمجال والمرعى والجد المشترك والمسجد وما إلى ذلك. ويميز بلانكو بين التكتلات الاجتماعية التي تتضمن جميع فئات المجتمع، والتكتلات السياسية التي تهم الرجال فقط. بينما يعتبرها دايفيد هارت وجهين لعملة واحدة، ويعكس التنظيم المجالي نظاما جينيالوجيا مختزلا إلى مستوى أدنى، يجمع بين العلاقات السياسية والاجتماعية.[573]

تعد نظم القرابة بالريف الأوسط أساس العلاقات الاجتماعية، وتلعب فيها الأسرة الصغيرة والكبيرة الدور الأساسي، وقد اكتسبت هذه النواة الاجتماعية خصوصية وتنظيماً داخلياً، وتميزت بروابطها الأخلاقية ومبادئها التربوية، وتوفرت على ميثاق قانوني محمول بواسطة الذاكرة الجماعية، يوطن جميع أفراد العائلة ضمن أدوارهم.[574]

وتمثل الأسرة مجتمع صغير[575]، وتعتبر الأسرة المبنية على قرابة العصب أصغر وحدة اجتماعية في الريف حسب كون Coon، وتتكون من الأب والأم ونسلهما، لكن الوحدة الأبرز هي العائلة الممتدة المكونة من الأب والزوجات وأبنائهن وزوجات الأبناء والإخوة وزوجاتهم وأبنائهن وزوجات أبنائهن، ويطلق عليها في الريف اسم «أزوار»، أي العرق. وبما أن المجتمع الريفي أبوي النسب وتسمى العائلات باسم الآباء والأجداد فإن البنات المقترنات بأزواج من عرق آخر غير عرق آبائهن أو أجدادهن يصبحن من ضمن المجموعة التي التحقن بها وينتمي أبناؤهن إلى «أزوار»، أو عرق أزواجهن. ويتمخض عن تجمع عدد من «إزوران»، أي العائلات الكبرى المرتبطة فيما بينها وحدة اجتماعية تسمى «إغس»، أي العظم، «إخسان»،

571- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C[a]-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. p.1.

572- David Montgomery Hart, *Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif...,* op. cit., p. 112.

573- دايفيد مونتگومري هارت، القانون العرفي الريفي...، م.س.، ص..20

574- *B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832,* Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. p.17.

575- تعتبر الأسرة أول ناقل للذاكرة الجماعية وحافظ لها، وتضمن استمرار الممارسات الاجتماعية باعتبارها مجتمعاً صغيراً داخل المنظومة الاجتماعية العامة. انظر:

- Friedrich Engels (1975), *L'Origine de la famille, de la propriété privée et de L'État,* Traduction de Jeanne Stern, Paul-Émile-Boulet de l'Université du Québec à Chicoutimi, p.17.

في صيغة الجمع، وينتج عن استقرارها في مجال ترابي محدد نشوء مدشر مستقل سياسيا، يمكن أن تنضاف إليه عائلات وافدة أخرى.[576]

ويتفرع العرق أحيانا حين يهاجر بعض الإخوة، مما قد يعرقل نمو هذا العرق ولا يبلغ مستوى العظم[577]، وقد يتمكن الأشقاء المهاجرون من تكوين عروق وحتى عظام أخرى في أماكن إقامتهم الجديدة، كما كان الشأن بالنسبة لعائلة أوشانن التي كانت تشكل عظم ثيداس بإخوانن في إگزناين. هاجر شقيقان من هذا العظم أحدهما توجه إلى ثمسمان والثاني إلى أيث سعيذ، وتمكنا من إنشاء عظمين بارزين وتثبيت مكانتهما في القبيلتين، يتعلق الأمر بالقائد بوقدور في ثمسمان والقائد موح ن عمار أوشن في أيث سعيذ. ونجد أعراقاً وعظاماً من الغرباء أو الدخلاء ذوي الأصول العربية في عدة قبائل بالريف، وقد تكاثروا بشكل كبير في أيث توزين إلى حد تشكيل قسمة هي إغاربيين. هذا بالإضافة إلى العائلات الزناتية التي انتشرت في عدة قبائل ريفية منها ثلاث تهمنا هنا هي أيث توزين وثمسمان وإگزناين.[578]

يورد بلانكو من جهته ثلاث وحدات تجمعها علاقة قرابة العصب، ويبدأ كعادته من المستوى الانقسامي الأدنى، أي من الأسرة النووية، التي تسمى «ثادارث»، أو «النوبث» في الريف، تليها السلالة الفرعية، أي «جاجْگو»، أو «أَزْوار»، في إگزناين، والسلالة العاصبة، أي «ثارفيقث». ويسهل تتبع شجرة النسب بالنسبة لكل هذه الوحدات ما دامت تنتهي إلى الجد الواحد في المستوى الأعلى هنا، أي «ثارفيقث»، وتحتفظ ذاكرة الفرد بانتمائه ونسبه، حيث لا يجد صعوبة في سرد أسماء أجداده. ورغم جواز تعدد الزوجات شرعاً في الريف، إلا أن ذلك لا يتم في الواقع سوى في حالات محدودة، حيث يقترن بعض الأعيان بزوجة ثانية، أو يضطر من كانت زوجته عاقر للزواج مرة ثانية بهدف إنجاب الأطفال، لتفادي انقراض العائلة في مجتمع يكتسي فيه الأبناء أهمية بالغة. ويعتبر بلانكو الزواج في الريف كصفقة بيع تنتقل بموجبها المرأة التي لم تكن أبدا سيدة نفسها، من مالكها وهو الأب إلى المالك الجديد أي الزوج. والجدير بالذكر أن ترسيم الزواج كان إلى حدود بداية القرن لا يستند على وثيقة مكتوبة بل يكتفي الطرفان بإعلان الزواج فيصل الخبر إلى علم «اجْماعث»، ويصبح بالتالي ملزِما.[579]

ينتسب الريفيون إلى الأب، ولم يشهد الريف نسبة كبيرة من حيث تعدد الزوجات، إذ نجد حالات قليلة في حالة عقم الزوجة الأولى ولا تُجمع الزوجتان في غرفة واحدة. يحظى الأقارب من نفس النسب باحترام كبير وتتغير أنماط السلوك تجاه الأقارب حسب معيارين أساسيين هما السن والجنس[580]. يتولى الأب أمور الأسرة باستثناء حالات هجرة الأب، حيث تتولى الأم آنذاك جزءا من مسؤوليات الزوج.[581]

576- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif...,* op. cit., p. 90.

577- تقل روابط القرابة وفق عدة عوامل أهمها الهجرة التي تضعف التواصل بالأهل المقيمين بالريف، وانخفاض التفاعل الناجم عن البعد المكاني. انظر:

- محمد الجوهري وآخرون(2003)، *الأنثربولوجية الاجتماعية قضايا الموضوع والمنهج*، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص..233

578- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif...,* op. cit., p. 91.

579- David Montgomery Hart, *Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif...,* op. cit., pp. 114-115.

580- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 370.

581- Mohamed Lazaar(1987), «Conséquences de l'émigration dans les montagnes du Rif», *Revue européenne de migrations internationales*, Volume.3, N°1, , p.97.

يعتبر الزواج بالريف أمراً في غاية الأهمية نظرا لدوره في تكوين أسر إضافية تساهم في تقوية المجتمع الريفي، وهو بمثابة مرحلة الإعداد لولوج عالم الكبار، غير أننا لا نرصد تفشياً واضحاً لظاهرة الزواج المبكر. والزواج أساس اعتبارات معنوية تعزز مكانة الفرد داخل الجماعة، ويخضع لعدة معايير منها السن المناسبة والمكانة الاجتماعية والنسب. وغالبا ما نلحظ الزواج الداخلي في بعض القبائل أهمها قبائل قلعية، ويستوجب الزواج أداء الصداق الذي يلاحظ غلاؤه في بعض القبائل كما في قلعية مثلا. ويعد التنافس حول قيمة المهر من أسس تأكيد السمعة والمكانة الاجتماعية، وتعتبر الزوجة موضوع الشرف في قبائل الريف، وتمنح الإرث لكن أقل من نسب الذكر وفق معايير شبيهة بنظام الإرث في الإسلام.[582]

تؤكد طريقة تزويج النساء أو التحاقهن بسلالات ضمن قسمة معينة على اعتبارهن كائنات سلبية تستعمل لأغراض سياسية، أو بالأحرى بيادق سياسية يقتصر دورهن على تمتين دائم للروابط في سلسلة من التحالفات المستمرة[583]، ونجد انتشاراً واسعاً للزواج ضمن نفس القسمة، أي الخمس أو القسمة الصغرى، أي الربع، يليه الزواج داخل القبيلة، ثم ضمن نفس السلالة وأخيرا الزواج خارج القبيلة، وهو الأقل انتشارا ،[584]ونجد تنوعاً فيما يخص تشكيلة الأسر، من الأسرة النووية أو الأولية، إلى العائلة الممتدة التي تتكون من أبوين وأبناء متزوجين، ثم الأسرة المكونة من رجل واحد وزوجتين أو أكثر وأبنائه من هذه النساء، وتصبح هذه الأسرة عائلة ممتدة في حالة زواج أحد الأبناء، ونجد أيضا نموذج الشقيقين المتزوجين اللذين يكونان أسرة مشتركة في حالة إن كانت أمهم أرملة وتمتد بزواج أبنائهم، ويوجد استثناء داخل هذه الأسرة إن تعددت زوجات أخ ما، وأحيانا تتكون أسرة من أقارب متزوجين.[585]

يتميز المجتمع الريفي بالديمقراطية والمساواة بين طبقاته الاجتماعية، لكن هذا لا يمنع من بروز تراتبية اجتماعية واعتبار مجموعات محددة أقل شأنا ومكانة. وإن كان أغلب الريفيين سواء منهم الأصليون أو الدخلاء من أصول صنهاجية أو زناتية أو عربية، أي إغاربيين، يعتبرون أنفسهم متساوين اجتماعياً إلى حد ما، ولا يمانعون في التزاوج فيما بينهم عندما يكون الاقتران بزوجات من خارج السلالة أو القسمة مرغوبا فيه بهدف خلق تحالفات، إلا أنهم لا يتخذون نفس الموقف من مجموعات مهنية محددة كالحدادين، أي «إمْزيرن»، والموسيقيين، أي «إمذيازن»، والمنادين في الأسواق، أي «إبارّاحن»، والكيالين، أي «إشييّارن»، بنطق أهل إگزناين، إذ يمتنعون عن الزواج من نساء هذه المجموعات، خصوصا في إگزناين وأيث عمارث وأيث ورياغر وثمسمان.[586]

تخضع فئات المجتمع الريفي لتراتب ناتج عن عدة معايير أولها الجنس، حيث يختلف وضع المرأة كثيرا في المجتمعات الزراعية والشفهية عن موقع الرجل داخلها ويتميز عنها

---

[582]- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص. 114.

[583]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..378

[584] - *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C[a]-N°412/14*, Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. p.4.

[585]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 406-407.

[586]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif...*,op. cit., pp. 92-95.

ويأخذ قدرا أرفع[587]. ويمكننا تحديد موقع المرأة الريفية في المجتمع بالرجوع إلى عدة عوامل، غير أن مركزها يبقى متدنياً مقارنة مع الرجل رغم سفورها[588]. تنحدر المرأة التي تعمل بالوسط الريفي عادة من أصول اجتماعية فقيرة، أما الأرفع قدرا اجتماعيا فهي لا تغادر بيتها أبدا، ولا يتحدد المجال بالنسبة للمرأة الريفية جغرافيا فقط، بل لها فضاء داخلي يمتد بشكل طبيعي ليتخذ بعدا علائقيا مزدوجا أكثر منه أحاديا. وبالإضافة إلى أعمال البيت والاستيقاظ باكرا للعمل وجلب الماء والحطب وإخراج الماشية وحلبها وإعداد الوجبات، تلتحق المرأة الريفية بزوجها في الحقل وتذهب للسوق لعرض المنتوج وشرائه. هكذا، تعيش حسب وضعها السوسيو-اقتصادي في مجال ذي بعدين، بعدٌ داخلي محدود، وبعد خارجي تمليه الضرورة والحاجة الاقتصادية يخترق البعد الأول دون الخروج عن السلطة الذكورية.[589]

ظهرت فئة الأعيان والتجار الأغنياء بقبائل قلعية نتيجة التجارة مع مليلة، وامتلك بعضهم السلاح وتمرد على السلطة[590]. وتعتبر مسألة الغنى بمنطقة محدودة الثروات، وفي فترة ما قبل الرأسمالية مسألة نسبية، غير أن الريفيين الذين استصلحوا بعض الأراضي تمكنوا من كسب بعض النفوذ، وبناء ثروة وامتلاك وسائل الإنتاج، وجني الأرباح من الأراضي السقوية، خالقين نوعاً من التدرج مع البقية، رغم أن الغنى لم يبلغ أوجه ليظهر شرائح اجتماعية متميزة، لأن التهديد الخارجي جعل هذه الفئات ملتحمة، ووحد سلوكهم وتقاليدهم. ويعتبر الفقر والغنى سهل الحدوث في الريف، إذ بمجرد أن يفقد أحد الفلاحين رهنا لدى فلاح آخر يصبح فاقده فقيراً ومحرزه غنياً، نظرا لبساطة الفرق المادي. يحدد عامل العصبية والشرف مسألة التراتبية الاجتماعية بالريف، لما لها من قوة معنوية نابعة من الأصل الشريف، وبإمكان الأسرة المتوفرة على أكبر عدد من الأفراد القادرين على حمل السلاح أن تفرض نفسها اجتماعيا، وهذه الفئات تحظى بالاحترام[591]. ورغم أن الاشتغال بالزراعة هو العمل الأكثر احتراما وتقديرا في الريف إلا أن حرفاً أخرى تتطلب مهارة خاصة كالنجارة والحياكة وإصلاح البنادق وإعداد البارود والبناء ليست محتقرة، والشخص الذي يزاول مثل هذه الحرف لا يعرض عائلته للنبذ من طرف المجتمع، ولا يحرم بناته من الاقتران بأزواج من عائلات محترمة، علما بأن هذه الحرف لا تتوارث كما هو الشأن بالنسبة إلى مهن المجموعات المحتقرة.[592]

شكل الريفيون صورا نمطية وأحكاما مسبقة عن مجموعات في قبائلهم، أو عن قبائل أخرى، وهي انعكاس للتنافس الشديد السائد في المجتمع الريفي عموما. تسعى كل مجموعة بالطبع إلى الرفع من مرتبتها والتقليل من مكانة الخصوم، دون ان يستند ذلك على أسس منطقية أو معطيات موضوعية واضحة، أو يعني أي نوع من التراتبية، أو يكون بنية الإساءة المقصودة وإن حدثت هذه الإساءة بالفعل. هكذا يعتبر الورياغليون الگزنائيين والعمارتيين في نفس مرتبتهم عموما، أي «أم نشنين»، من حيث الشجاعة والقتال، وإن لم تخل الصورة من بعض

587- Evans E. E. Pritchard (1971), *La femme dans les sociétés primitives et autres essais d'anthropologie sociale*, traduit par Anne et Claude Rivière, Les Presses universitaires de France, p. 43.

588- الطيبي عبد الرحمان، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 195.

589- إدريس مقبوب (2015)،«المجال الاجتماعي للمرأة القروية وأثره على بنية العائلة »،**سوسيولوجية المجتمع المغربي**، منشورات فكر، بدعم من وزارة الثقافة، الرباط، ص. 68.

590- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..22

591- David Hart (2000), *Tribe and Society in Rural Morocco*, Frank Cass, London, p. 139.

592- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif...* , op. cit., p. 95.

الهمز رغم توفر الگزنائيين بدورهم على نموذج خمس أخماس، ويقرنون تسمية إگزناين بالزنى مستغلين تشابه لفظة «إزْنايْن»، أي «إزناگن»، أو الصنهاجيون حسب نطق الگزنائيين، ولفظة «إزْنايْن»، أي الزناة. ويدعون العمارتيين بأبناء جالوت، وأعداء سيدنا داود، ويرى الورياغليون أن جيرانهم الگزنائيين شديدي الاهتمام بالسياسة عكس العمارتيين الذين يعتبرونهم همجيين، ويرد العمارتيون أن الورياغليين إخوان النصارى «أيثماثن إيروميين» وأهل القرع «أيث بوذخسايث». ويعتبر الورياغليون التمسمانيين أذكياء لكنهم ليسوا بنفس شجاعة الگزنائيين. أماصورة البقيويين لدى الورياغليين فتبقى سلبية بشكل عام، إذ يعتبرونهم قليلي الحشمة وغير موثوق فيهم، في حين يصنفون التوزينيين في أسفل الهرم باعتبارهم لا يفقهون في السياسة ويزاولون المهن المحتقرة في الريف.[593]

مثل «إمْغارن»، «أمْغار»، في صيغة المفرد، أي الأعيان قمة الهرم في السلم الاجتماعي، وكانوا يتمتعون بوضع اقتصادي جيد، ويحظون بالاحترام نظرا لشجاعتهم، وقدرتهم على توفير الأسلحة لحلفائهم والدفاع عن مجالهم. وكانوا يتصدرون الاجتماعات التي تنعقد على مستوى القسمة أو القبيلة، وترجع لهم كلمة الفصل، علما بأن سلطتهم كانت تتقوى حسب قدرتهم على تنفيذ القوانين العرفية وفرض واستخلاص غرامة «ارْحق». وعكس المناطق المغربية الأخرى فإن الأمغار الذي يصبح قائدا مخزنيا في الريف يصبح محط انتقاد باقي الأعيان على مستوى القبيلة الذين يحاولون عرقلة مهامه، ونذكر كمثال الحاج حدو أوعيسى الورياغلي المنتمي إلى قسمة أيث عري المعين بظهير شريف أيام السلطان الحسن الأول، الذي عانى كثيرا من عراقيل الأعيان، باعتبار هذا التعيين لم يخضع لمبدأ المساواة، واعتبروه تحقيرا لهم. حظيت فئة الشرفاء بالريف باحترام الجميع، نظرا لنسبهم الشريف بغض النظر عن صحة هذا النسب، وكانت لهم سلطة معنوية خاصة، إذ كانوا يُعفون من الكلف المخزنية بواسطة الظهائر السلطانية. لم يُستثْن الفقهاء أيضا من هذا الاحترام بفضل مشاركتهم في كتابة الأعراف والعقود، بالإضافة إلى الاجتهادات الشرعية. وقد شكلت العامة أغلبية سكان الريف، وتعود أصولهم إلى أجدادهم الريفيين وهو ما يشكل مصدر اعتزازهم. ونجد من ضمن هؤلاء قاعدة عريضة من الفلاحين الصغار ذوي اقتصاد الكفاف، حيث يضطر بعضهم إلى استلاف ما يكفيه، وأحيانا الاشتغال في أراضي الغير بنسبة الخمس دون الانحطاط إلى مرتبة العبيد، ولا يحظى الخماسون بعضوية داخل المجالس الجماعية. وتدخل ضمن العامة فئة الصناع والحرفيين والفلاحين البسطاء الذين بلغ الأمر ببعضهم إلى ادعاء النسب الشريف للحصول على الهبات، وهذا يدل على صراع اجتماعي خفي.[594]

احتكمت التراتبية الاجتماعية في الريف إلى محددات بعيدة نوعا ما عن الفوارق المادية، وترتكز على اعتبارات أخلاقية وسياسية، بينما تبرز الفوارق الاقتصادية في أمور بسيطة منها أثاث البيت وأطقم الشاي التي تقدم أثناء الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية.[595]

---

[593]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، صص..836-835

[594]-*B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C[a]-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. P.5.

[595]-*B.N.E.A.H., E.C.D.E.M.D.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p.3.

تتضمن كل قبائل الريف فئات اجتماعية متواضعة بسبب ارتباطها بمهن لا تحظى بالاحترام والتقدير، لعل أبرزها فئة الحدادين أو «إمْزيرن» الذين يصفهم كون بقليلي الحياء. ويسود الزواج الداخلي وسط هؤلاء، كما تتجنب الفئات الأخرى الاقتران بنسائهم، خصوصا في قبائل الريف الأوسط. هناك مهنيون آخرون يصنفون في مرتبة مشابهة للحدادين كالموسيقيين أي «إمْذيازن»، والمنادين في الأسواق أي «إبارّاحن»، والكيالين، وتقرن بهذه المهن خاصيات العلنية والإظهارية وقلة الحياء التي تتنافى مع القيم الريفية المحافظة.[596]

يمكن رصد ثلاث فئات اجتماعية وفق الدخل السنوي بالمجتمع الريفي، الأولى هي التي يوجد ضمنها «إمسعي»، أي الفقير، والثانية تتضمن من هو «وايدجي ذيمسعي ورا ذتاجا)ر(» بمعنى متوسط الدخل، والثالثة تشمل «اتاجا)ر(» وهو الغني، وذلك يُحدَّد وفق الملكية الفردية ومستوى الإنتاج، غير أن الفرق لا يكون واضحا بشكل كبير، والذي يحدث عنده عجز ونقص في المدخول يضطر إلى الاقتراض، والريفي عموما يشتغل بجد ويرد دينه بانتظام.[597]

أدى المدخول الفردي المحدود في أيث ورياغر إلى صعوبة العيش عموما، وقد ساهمت عناصر إضافية في الضائقة الاقتصادية واضطرار الورياغليين إلى الاستدانة، منها قلة خصوبة الأرض والكثافة السكانية العالية. ويقوم نظام الدين على المستوى الاجتماعي بوظيفة الحفاظ على العلاقات القائمة سواء منها علاقة القرابة بأنواعها، العاصبة، أي من ناحية الأب، والرحِمية، أي من ناحية الأم، وعن طريق المصاهرة، أو علاقات الجوار والصداقة، إلى جانب خلخلته المستمرة لتوازن مالية الأفراد. وتتسم العلاقة بين المقرض والمقترض بالتبعية، وإن كان ذلك بشكل محدود نظرا للاستقلالية النسبية للطرف الثاني، أي المقترض الفقير عادة. ورغم أن المجتمع الريفي مجتمع مساواة بامتياز، سواء في الواقع أو حسب تصور أعضائه، إلا أننا نجد دائما فئة من الميسورين الذين هم «أكثر مساواة من الآخرين»، حسب تعبير جورج أورويل. يلجأ المقترض أحيانا إلى طلب دين ليسدد الدين السابق، ما جعل المديونية بنيوية، وفي حالة كثرة الديون قد يضطر لبيع المحصول بنصف الثمن قبل موسم الحصاد، أو بيع الماشية، وكان من حق المقترض قبل 1921م، مصادرة أملاك المقترض لاسترجاع ديونه. وهناك نوع أخر من الضمانات أهمها الوديعة «ذامريست»، تكون لمدة محدودة دون فائدة، وتعاد الوديعة فور تسديد الدين، غير أن الوديعة كانت غالبا في شكل قطع أرضية يستفيد المقرض من عائداتها وبالتالي اعتبرتها الحكومة المغربية ربا وألغيت بشكل فعلي سنة 1956م.[598]

تتحدد فئات مجتمع الريف وفق عامل المهن والحرف أيضا، وإن كان من النادر اقتصار الريفيين على حرفتهم وحدها لكسب قوت يومهم، إذ يعتمدون على الزراعة أيضا، باستثناء إعكيين بأيث ورياغر الذين كانوا يفتقرون للأراضي الزراعية وتخصصوا في الخياطة والجزارة. وقد اقترنت بعض المهن كالحدادة والغناء في الأعراس والمناداة في الأسواق

596- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif*..., op. cit., p. 92.

597- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 96.

598-نفسه، صص. 102-101.

والجباية وكيل الحبوب بفئات متواضعة لا تحظى باحترام كبير. هذا في حين تنتفي مثل هذه النظرة الدونية بالنسبة لمهن أخرى لا تقل بساطة كالتجارة والنجارة والحياكة والبناء.[599]

يتسم المجتمع الريفي عموما بالمساواة والتنافس الشديد، ووحدها المجالس التمثيلية في مختلف المستويات الانقسامية القادرة على كبح سلطة الأفراد. غير أن مهنيي الطبقة الدنيا والأعضاء المنتمين إلى بعض الفئات أو الأقليات يُقصون من اللعبة السياسية فيقبعون في أسفل السلم الاجتماعي. وهذا ما نستشفه مثلا من مقولة مأثورة في الريف مفادها: «إذا توفي اليهودي يدفنه الجابي، وإذا مات الجابي سيدفنه الكيال، وإذا مات الكيال سيدفنه الجزار، وإذا توفي الجزار سيدفنه الحداد، وإذا توفي الحداد يدفنه الموسيقي، وإذا توفي الموسيقي سيدفنه عضو من إحوطشن، وإذ مات أحد من هذه السلالة سنتولى دفنه بأنفسنا». ونلاحظ كيف تسرد المهن المتواضعة كالحدادة والجزارة، والفئات المهمشة كاليهود وسلالة إحوطشن التي لا تشارك في النزاعات القبلية وتستثنى بالتالي من التمثيلية في المؤسسات السياسية.[600]

امتهن «إمذيازن»، أي الموسيقيون الغناء والرقص في الأعراس وحفلات العقيقة أو الختان مقابل بعض النقود والحبوب، وكانوا ينتقلون خلال موسم الدرس للرقص في المنازل التي تحتضن هذه الحفلات، ويروون الحكايات والقصص المسلية، ويستعملون الدفوف وآلة تسمى «الزامار»، مصنوعة من قصبتين تنتهيان بقرني ثور. لم يكن هؤلاء يحظون بالاحترام، وتعتبر مهنتهم محتقرة، كما كانوا يقومون باستيلاد البغال، ويسود الزواج اللحمي الداخلي في أوساط هذه الفئة.[601]

ينتمي أصحاب هذه المهن المتواضعة عموما إلى قبيلة أيث توزين بالريف الأوسط، وإلى قسمتي أيث برعيز وأيث عكي. ونلاحظ نفس الانتماء بالنسبة إلى سلالة إحوطشن المستقرة بثيگزيرين بأيث توريرث التي ويصنع رجالها أخراج الحمير والبغال ونساؤها الحصر. يزاول التوزينيون أنواعا أخرى من المهن والحرف البسيطة لكن لا يشملهم مثل هذا الموقف السلبي من أهالي القبائل المجاورة، ويبدو أن الاستهجان مرتبط إلى حد ما بمدى إصدار أصحاب هذه الحرف للأصوات والضجيج كما لاحظ كارلتون كون، وإلى بعض ممارساتهم المتحررة المتعارضة مع السلوك المحافظ للريفيين، باعتبارها مخلة بالحياء.[602]

يرجع كون سبب احتقار الريفيين للحدادين وممتهني حرف أخرى متوارثة كالموسيقيين والمنادين في الأسواق والكيالين يقابلون بنفس الاستهجان إلى ممارساتهم المخلة بالحياء وجرأتهم الزائدة أمام العلن، فالريفي محتشم جدا ويعتقد أنه من العار الظهور أمام العلن لأسباب غير ممارسة العمل السياسي، لذا من الطبيعي أن يحتقر المهن أو الحرف التي سيخجل هو نفسه من مزاولتها رغم أن هذه الحرف قد تتطلب ذكاء أكبر ومهارات أدق من تلك التي يوظفها في حياته اليومية.[603]

599- David Hart, *Tribe and Society* **...**, op. cit, p. 141.

600- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص..525

601- أورسولا كينغسميل هارت (2010)، **وراء باب الفناء الحياة اليومية للنساء الريفيات**، ترجمة عبد الله الجرموني، منشورات تيفراز، الرباط، ص..71

602- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص..530-529

603- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif***...**, op. cit., p. 93.

انتشر الحدادون في جل القبائل الريفية واستقروا في مراكز ببعض القبائل أو أنشؤوا حوانيت في قبائل أخرى يزورونها في فترات محددة من السنة لتقديم خدماتهم للأهالي المحليين. نذكر من هذه المراكز بوحفورة في ثفرسيث وثيزرا ن رقضا في أيث توزين وخبابة وإهروشن بإگزناين وأيث مسيتا وإجعونن بأيث عمارث. وإذا كانت كل من إگزناين وأيث عمارث تتوفران على مركزين قارين في كل قبيلة، فإن أيث ورياغر تفتقر لأي من هذه المراكز وينتقل إلى أسواقها الحدادون لتلبية حاجتهم من أدوات الفلاحة.[604]

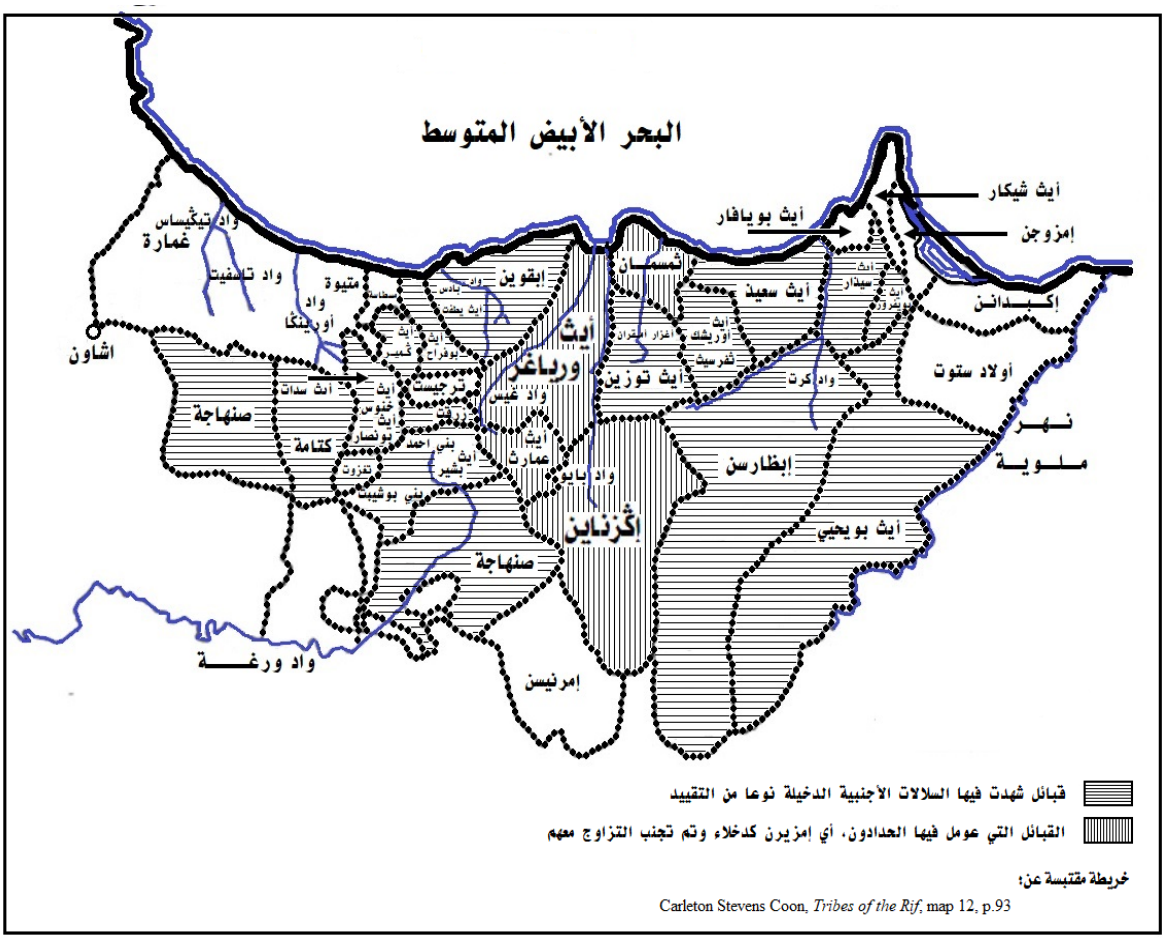

تعد الحدادة من الحرف الشاقة وتقتصر على الرجال، وقد تميزت كل من أزلاف وميضار وأيث شيكار بهذه الحرفة[605]. وارتباطا بالموقف السلبي من الحدادين السائد في قبائل الريف الأوسط، يتم تداول روايتين احتفظت بهما الذاكرة الجماعية، إحداهما في أيث توزين بالتحديد تعيد أصل الحدادين إلى سيدنا داوود، ومفادها أن هذا النبي كانت له 99 زوجة، وكان يثني الحديد بيديه ليصنع نعالا لحوافر الحمير، وفي يوم من الأيام نام مع غير زوجاته، وفي اليوم الموالي أصبح غير قادر على ثنيه واهتدى إلى تسخينه على النار وحذا أحفاده حذوه وأصبحوا حدادين. الرواية الثانية التي تختلف طبعا عن الأولى وتتضمن استهجانا واضح الأصول الحدادين، حيث تقول أن الشيطان كان يسوق أتانه في طريقه إلى السوق، وعندما أراد حثها

---

[604]- Ibid, pp. 93-94.

[605]- سعيد الأشعري، »الصناعة التقليدية بالريف الشرقي ودورها في تحقيق التنمية المحلية ،«**مجلة الذاكرة**، مركز الريف للتراث والدراسات والأبحاث، العدد الثاني، الناظور، 2017، ص..55

على السير نخسها بعصاه، فتغوطت في الطريق، وفي تلك اللحظة خرج الحداد من روثها، وبدأ يضع لها النعال الحديدية.[606]

ويعود احتقار الريفيين لأصحاب هذه الحرف المتواضعة إلى أصلهم أكثر من نوعية المهنة ذاتها، وإلى لون بشرتهم الذي يميل إلى السمرة ويختلف نوعا ما عن بشرة عموم الريفيين. يستهجن الريفيون أيضا وضع الموسيقيين لحلقة في أذنهم اليسرى مثل الغجر، بالإضافة إلى استعمال آلة الزمار والگمبري، في حين يكتفي سكان قبائل الريف الأوسط الآخرون بالدف «أدجون»، وتغني النساء دون الرجال في القبائل الريفية الخمس[607]، كما يعيب الريفيون على سكان جبالة ممارستهم للصوصية والشذوذ الجنسي.[608]

احتفظت الذاكرة الجماعية بالريف بالتراث الذي يبرز التفاوت الاجتماعي، وطبيعة الفئات المهمشة والمحتقرة ضمنه، كما أن هذا الجانب يوضح تميز الريف بالاختلاف واحتوائه للأقليات الدينية والإثنية، أهمها اليهود والسود.

تختلف الوضعية الاجتماعية لليهود بالمجتمع الريفي عن باقي الفئات، فقد استقروا في أحياء أقاموها بأنفسهم في إقرعين وبني بوفراح، ولم تكن هذه المجموعات تتعرض للمضايقات في السابق، وإن كان انتقالهم إلى منطقة ما يستوجب حصولهم على حماية أمغار نافذ. وكانت العلاقة بين الاثنين علاقة الكفيل والمكفول، ويعتبرها اليهودي مجرد عقد تجاري، يُسمَح له بموجبه امتهان حرفة ما وتسليم مداخيله لراعيه الذي يضمن له المأكل والمأوى ومبلغا من المال. كان هذا الراعي مسؤولا عن سلامة اليهودي ويضمن له الحماية من الاعتداء. وحتى في ظل هذا التعاقد لم يتمكن اليهود من الاستقرار في أرجاء الريف، باستثناء بعض المناطق الهامشية من قبيل جبارنة وأجذير بإگزناين، ولم يكن باستطاعتهم المجازفة، إلى عهد قريب على الأقل، بالانتقال إلى الجبال جنوب أيث ورياغر، أو شمال إگزناين، أو إلى أيث عمارث، لأن ذلك كان يعني السعي إلى حتفهم، فالريفيون كباقي المسلمين يعتبرون إطلاق النار على اليهودي تدنيسا للبارود ولا يستحق أكثر من الحجارة أو الخناجر كأسلحة لإنهاء حياته. تغير الوضع بالطبع في عهد الحماية الإسبانية والفرنسية وأصبح من المسموح له الانتقال إلى الأسواق للمتاجرة دون التعرض للمضايقة.[609]

استعان الريفيون باليهود في عدة مهن منها سك النقود واعتمدوا على العارفين منهم بتهيئة المفرقعات اليدوية[610]. عاش عدد لا بأس به من اليهود في الريف، حيث كان لهم معبد في قبيلة أيث بوفراح، واستقرت سبع أسر بأيث ورياغر، خمس في شمال القبيلة واثنتان في أيث حذيفة. امتهنوا صياغة الذهب والفضة وصناعة البرادع، وكانوا يقطنون داخل أو قرب الأسواق.

606- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص..531

607- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C, C°-N°412/14,* Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927. p. 6.

608- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، نفسه، ج.2، ص. .544

609- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif***...**, op. cit., p. 95.

610- أحمد سكيرج (1926)، **الظل الوريف في محاربة الريف**، إعداد محمد الراضي كنون، الجديدة، ص. 4.

سعى اليهود خلال فترة إقامتهم في الريف إلى توخي السلامة عبر التواضع، وكان المس بهم يعتبر أكبر من جريمة قتل في حق قبلي، نظرا لاستفادتهم من حماية أمغار ذي نفوذ كبير، كما كان الحال بالنسبة إلى ارحاج حدو أوعيسى في أيث موسى أوعمر وسريمان الخطابي في أجذير. ورغم احترامهم اجتماعيا إلا أن ما تحتفظ به الذاكرة الجماعية وما يتواتر من حكايات يوحي بكس ذلك. إذ يُحكى في الريف أن اليهود توفوا في الحرب وبقيت النساء دون أزواج وأذن النبي لهن بمضاجعة أزواجهن في القبور وأصبحن حوامل وحافظن بالتالي على السلالة. ويُروى أيضا أن أصل اليهود يعود إلى بغلة ميتة، ويقال أن من يجلس على عتبة الباب هم الكلاب واليهود والشياطين. وتحمل الذاكرة الجماعية بالريف الأوسط قصة ارحاج أمعاوش من بولما الذي كان يتوفر على يهودي يسمى شليمو أهكَار يصنع له البرادع، حيث أسكنه بمنزل بجواره، وعاش معه ما يقارب عشرين سنة قبل مغادرة الريف والعودة إلى مليلية التي قدم منها في الأصل.(611)

تعايش الريفيون مع الأقلية اليهودية داخل القبائل دون إفراد مكان خاص بهم، غير أن بعضهم بالغ في وصف قبح اليهود، مقابل مدح جمال نسائهم، وقيمة الحلي التي يضعنها.(612)

يعتبر وجود العبيد السود والسلافيين أمراً نادراً في الريف، ويمكننا القول أن الريف لم يعرف ظاهرة العبودية، مع تسجيل بعض الحالات منها واحدة بأجذير(613). يعود تاريخ وجود العبيد السود بالريف إلى فترة تاريخية سبقت عهد قيام الدولة العلوية، وتوطدت خلالها حيث كتب السلطان إسماعيل بخصوصهم للقائد عبد الله الريفي أن يشتري للعزاب منهم الإماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطوان ويعين لهم قوادهم ويوجههم لمشرع الرمل(614). ويعتبر السود حفدة العبيد المحررين، ولم تعرف جبال الريف تعمير السود، فقط بعضٌ منهم كانوا في أجذير تحت حماية سلالتين هما ذاروا ن ارحاج عبد الكريم التابعة لأيث عرو عيسى وإشفارن التابعة لأيث زاعة، وسلالتين من إمربظن في أزغار هما رقشوع وأندروسن. وساد بين السود الزواج اللحمي الداخلي، باستثناء حالة واحدة تزوج فيها رجل أسود امرأة ورياغلية. كان السود ينادون الريفيين بلقب سيذي أو رالاّ، ويطلق عليهم الريفيون اسما جامعا هو إسمغان متبوعا باسم الأمغار الذي يعيشون تحت حمايته.(615)

وقد عمل السود خماسين في الحقول، وتعاطت زوجاتهم لصناعة الأواني الفخارية، إذ نجد السلالة التي تحتضن عددا هاما من السود في أزغار تحمل اسم رقشوع التي تعني الأواني. وهي ظاهرة تختلف عن المناطق المغربية التي يصنع فيها الذكور الفخار. وكان السود مسالمين لا يحملون السلاح، ورغم أن الريفيين لم يعملوا على مضايقتهم إلا أنهم لا يطيقون الخضوع

611- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص..527-526

612- H.De T. D'Arlach (1856), *Le Maroc et Le Rif En 1856*, Chez Ledoyen, Paris, p. 43.

613- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif...,* op. cit., p. 95.

614- محمد أبو عبد الله بن أحمد الكنسوسي (1994)، **جيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، ، ج.1، ص..126

615- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. .528

لهم، وهو ما يستشف من موقفهم من القائد الأسود الذي كان على رأس جنود الروگي بوحمارة.[616]

تجد الهياكل الاجتماعية، والأنظمة الانقسامية، والتفاوتات الطبقية، تفسيراتها داخل السياق الثقافي للريف الأوسط، ما يستوجب منا الوقوف عند دراسة التاريخ الثقافي وعلاقته بالذاكرة الجماعية والوثيقة التاريخية لتكتمل صورة التاريخ الاجتماعي على ضوء ما هو ثقافي.

[616]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 528.

الفصل الخامس

الذاكرة الجماعية والتاريخ الثقافي

يعتبر المجتمع فضاء تخلق فيه الجماعات الإنسانية تاريخها الثقافي، ومؤطراً لذاكرتها الجماعية التي تحفظ النسق الثقافي لهذه الجماعات، والذي يغذي الذاكرة الجماعية ويعتبر مصدرها الأساسي وتعيد إنتاجه لتحفظ استمراريته عبر الأجيال.

يعرض التأريخ للجانب الثقافي في الريف الأوسط لتحديد السمات الثقافية المميزة للإنسان الريفي، والتي تحدد مواقفه من كل مناحي الحياة، وتعرض لمقاربة النوع ومواجهة الحياة والموت، والقيمة الأخلاقية التي تميز المجتمع الريفي، بالإضافة إلى ظهور مجموعة من المؤسسات التي توضح هذه المواقف الثقافية، أهمها ظاهرة الأسواق النسائية بالريف الأوسط.

يرتكز النسق الثقافي عامة على التوجه الديني، الذي يحدد أبعاده، بالإضافة إلى تأثر الدين نفسه بالثقافة المحلية التي تجعله يتحول ويأخذ طابع التدين الشعبي، بمعنى أن التاريخ الثقافي يأخذ تفسيرا لاهوتيا ويرتبط بالعوالم الخفية، والريف كغيره من المجتمعات الشفهية اعتنق الدين الإسلامي ولم يمتنع عن المعتقدات السابقة والفكر الخرافي.

يعتبر الفصل الخامس شقاً نظرياً من التاريخ الثقافي بالمنطقة، الذي يستوجب جزءًا تطبيقياً، حيث يمهد له، وهو ما سنتطرق إليه في الفصل السادس اللاحق المتعلق بتاريخ المعتاد اليومي داخل الفضاء الاجتماعي، هذا المعتاد اليومي الذي سبق أن تعرضنا له في الفصل الرابع. سنتناول في هذا الفصل أيضا أهم جوانب الإشكالية المتعلقة بالتاريخ الاجتماعي والثقافي بالريف الأوسط، وبذلك ستكتمل فصول الباب الثاني.

المبحث الأول: توظيف الذاكرة الجماعية في كتابة التاريخ الثقافي

أولا: مصادر الذاكرة الجماعية

تتشكل الثقافة بفعل إنساني داخل مجال معين وتستمد رموزها منه، والريف كان ضمن الهويات المتوسطية وعرف تكافلا وتعايشا داخليا، وثقافة مشتركة وعادات منتشرة، ومجالا مشتركا وتاريخا متسلسلا[617]. وأطرت إمارة نكور جذور الثقافة المغربية الأندلسية بالريف[618]، غير أن الريفيين ظلوا كتلة أمازيغية، حافظت على لغتها وخصوصيتها الاجتماعية[619]. ولم تفقد قبائل الريف الأوسط بالخصوص لغتها الأمازيغية بصيغتها الريفية، حيث لاحظ موليبراس مثلا أن أهالي أيث توزين يتحدثون الريفية وحدها ولا يعرفون كلمة عربية واحدة.[620]

تتميز البنية الثقافية للمنطقة بأنماط ثقافية وصور رمزية متعددة بل متعارضة أحيانا لكنها متعايشة[621]. تداخل الامتداد التاريخي للمنطقة عبر الزمن الثقافي، والذي يمكن اعتباره «زمنا متداخلا متموجا على شكل لولبي، الشيء الذي يجعل مراحل ثقافية مختلفة تتعايش في نفس الفكر وبالتالي في نفس البيئة العقلية» .[622]فالأساس في البناء الاجتماعي أو الثقافي لأي مجتمع هو الفاعلية التجريبية للإنسان، فمن خلال التجربة الذاتية للإنسان مع العالم الخارجي بجميع معطياته، تتغير لديه دلالات ومعاني بعض الرموز، وتبعا لذلك تتغير رؤيته للعالم، ومنه تتغير طبيعة علاقاته وتنظيماته في المجتمع. فهناك طرفان يتقاسمان هذا العالم، هما التحيز الثقافي والعلاقات الاجتماعية، وبتركيبهما يتكون نمط حياة معين. وبين هذين الطرفين علاقة تبادلية، فالالتزام بنماذج معينة من العلاقات الاجتماعية يولد طريقة متميزة في رؤية العالم، كما أن رؤية العالم بطريقة معينة تبرر نموذجا منسجما معها للعلاقات الاجتماعية[623]. بنت الممارسات والطقوس ثقافة الريف، وشكلت مادة أساسية للذاكرة، وخلقت ترابطاً بين الثقافة والتاريخ والذاكرة، وشكلت هذه السلسلة عنصرا أساسيا ضمن الأدوات الذهنية للمؤرخين.[624]

---

[617]- إدغار موران(1999)، «البحر الأبيض المتوسط: فضاء الاختلاف والتواصل»، ترجمة عبد المجيد السخيري، **حوليات الريف**، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 106.

[618]- أحمد الطاهري (1998)، **فصول منسية من تاريخ المغرب: إمارة بني صالح في بلاد نكور**، مطبعة النجاح الجديدة، الطبيعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 6.

[619]- Pilar De Lama Alcalde (2010), *Juegos y Deportes Tradicionales en el Norte de Marruecos*, Museo del Juego, p.7.

[620]- Auguste Mouliéras(1895), *Maroc Inconnu Exploration Du Rif,* Librairie Coloniale et Africaine, Joseph André, Paris, p. 115.

[621]- يشترك سكان الريف عموما وسكان الريف الشرقي والأوسط على وجه الخصوص في لغة واحدة هي تاريفيت، وتعزز اللغة المشتركة الانتماء القبلي للإنسان الريفي وتحدد هويته والأنماط الاقتصادية السائدة، وتقنن شروط العمل الزراعي. انظر: - محمد أوحدو (2017)، **الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية نموذج قلعية**، منشورات زمن، سلسلة شرفات، العدد 89، الرباط، ص..85

[622]- مراد جدي (2016)، **الأولياء الصلحاء وتحولات المقدس بالمغرب: دراسة في التاريخ السوسيو-ثقافي للتدين في الريفين الأوسط والشرقي**، تحت اشراف محمد استيتو وفريد لمريني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، ص. 55

[623]- مراد جدي، الأولياء الصلحاء وتحولات المقدس بالمغرب...، م.س.، ص..55.

[624]- جاك لوغوف (2017)، **التاريخ والذاكرة**، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، ص..212

يبقى المجال في نهاية المطاف «صنيعة الإنسان والجماعات الإثنية ومظهرا من مظاهر إبداعه»[625]، فالفعالية الإنسانية هي وحدها قادرة على وضع حدود المكان من خلال آليات التنظيم الاجتماعي)الأعراف والعادات والتقاليد والقوانين(، والأنظمة الرمزية المختلفة (اللغة والدين والحكاية والأدب والفنون والفلسفة(وغيرها. أفرز التشكل السكاني لمنطقة الريف الأوسط خصائص إثنية، ولسنية، واجتماعية عملت على تشكيل الذاكرة الجماعية والثقافية لسكان المنطقة وإنتاج معطياتها الرمزية، ونجد صعوبة البحث في هذه الخصائص أمام غياب المصادر القديمة المؤرخة لتعمير المنطقة، وندرة الأبحاث الأثرية المنجزة حولها، إضافة إلى الصراعات التي عرفتها المنطقة حول تملك المجال سواء بين السكان المحليين أنفسهم، أو بينهم وبين العناصر الوافدة، فقد «شكلت عمليات الدفاع عن الحيز الجغرافي وعمليات غزوه الفصول المتعاقبة للتاريخ البشري».[626]

تعتبر الذاكرة الجماعية أساس الكتابة التاريخية عامة والتاريخ الثقافي خاصة، إذ تضمن تخزين الفعل الثقافي واستمراريته عن طريق نقله بين الأجيال، واعتُمدت آلية الذاكرة لحفظ الأسطورة منذ قيام الحضارات العريقة.

بلغت أهمية الذاكرة درجة القدسية في بعض الحضارات، إذ نصبت حضارة الإغريق إلهة للذاكرة، وهي «منيموساين» أم الميوزات التسع اللواتي أنجبتهن خلال تسع ليال أمضتها مع «زيوس»، وأوصت البشر بتذكر الأبطال ومآثرهم، والتقت بالشعر الغنائي. ويعتبر الشاعر عراف الماضي، والشاهد الملهم على الزمن السالف وعلى العصر البطولي، منتج الحكمة في الحضارة الإغريقية، وكانت له مكانة بين الأسياد.[627]

تحمل الذاكرة الجماعية عناصر من الماضي الأسطوري المتسم بمفارقة زمنية، لكنه يمثل العنصر المعاش داخل العلاقة الدائمة بين الحاضر والماضي، وعلى التاريخ أن ينيرها ويساعدها على تصويب أخطائها، دون أن نغفل تأثير المجتمع على أفكار المؤرخ والمتمثلة أساسا في الصورة التي كونتها المجموعة الاجتماعية على نفسها، والتي يؤولها المؤرخ أو ينتسب إليها أو ينتمي إليها، تصوُره لأسباب التغير الاجتماعي، وآفاق التغيرات الاجتماعية القادمة التي يعتبرها المؤرخ محتملة أو ممكنة والتي توجه تأويله التاريخي.[628]

ترتقي الذاكرة الجماعية أحيانا إلى مرتبة الارتباط بالأسطورة، خاصة فيما يتعلق ببعض الشخصيات التي وسمت بالكرامات والخوارق. وتتلخص علاقة الذاكرة بالخيال في قدرة إنتاج الصور الذهنية، وتنتهي العلاقة بتوجه الذاكرة نحو الماضي الواقعي وإعادة إنتاج الذكرى، في حين يتجه الخيال نحو الإبداع المحض للصور[629]. ويمكن تعريف أحقية التخيل داخل حقل التاريخ بالتثبيت التخيلي المتجدد على أنه شكل من أشكال التفسير العقلي، وعلى المؤرخ أن

625- André Leroi-Gourhan(1965), «Le geste et la parole» , *La Mémoire et les rythmes,* 1er Volume, Albin Michel, Paris, , p. 66.

626- مراد جدي، الأولياء الصلحاء وتحولات المقدس بالمغرب...، م.س.، ص. .147

627- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..119

628- نفسه، ص..184

629- عبد العزيز الطاهري(2016)، **الذاكرة والتاريخ المغرب خلال الفترة الاستعمارية ،1912-1956** تقديم: جامع بيضا، دار أبي رقراق، بدعم من وزارة الثقافة، الرباط، ص. .81

يعيد بناء المتخيل، والوارد في الحدث التاريخي. ويسعى المتخيل إلى إحياء بُعد التأويل الثقافي الذي مات في الوثيقة، ويعبر عن الواقع التاريخي، وعن طريقة تفاعل الذاكرة الجماعية مع ماضيها.[630]

يبدو أن العالم الإسلامي يتوفر على نوع من الذاكرات التي تأسست على استذكار ثقافة شفوية وكتابية في آن واحد، واستمر الوضع إلى عام 1930م، عندما طرأ التحول الفكري الذي كشفت عنه الذاكرة الاصطناعية المكتوبة. فالوثيقة المكتوبة أو التاريخ يُطور الذاكرة ولا يدمرها، والانتقال من الذاكرة الشفهية إلى التدوينية أمر صعب الإدراك، لكن كلاهما يستطيعان إعادة بناء الحدث، فمؤسسة «مينيمون» (المتذكر) تقوم بمراقبة الحدث في إطار وظيفة اجتماعية للذاكرة وتحفظ الذكرى، وقد يقتصر دور الذاكرة على عملية ظرفية، والمذكِّر له دورٌ في الميثولوجيا والروايات الأسطورية، فهو بمثابة خادم البطل ومذكِّرُه بالتعليمات الإلهية التي إن نسيها سيموت.[631]

تعد الذاكرة الجماعية إحدى المقاربات الأساسية لمشكلات الزمن والتاريخ، وتنحصر حيالها الذاكرة تارة وتتجاوز حدودها طورا، وللتمكن من التأريخ بواسطة الذاكرة التاريخية وجب الفصل بين المجتمعات ذات الذاكرة الشفهية وذات الذاكرة الكتابية، ومراحل الانتقال بينهما حسب جاك گودي Jack Goody«مراحل تدجين الفكر الوحشي» داخل المجتمعات التي لا تعرف الكتابة.[632]

تعتبر اللغة نتاجاً للمجتمع وحاملاً للثقافة الخاصة به حسب هنري أتلان [633]H. Atlan. واستخدام لغة محكية ثم مكتوبة هو في الواقع توسع هائل لإمكانيات التخزين في ذاكرتنا، إذ تتمكن من تجاوز الحدود الفزيائية لجسدنا، لتستودع إما لدى الآخرين وإما في المكتبات، وهذا يعني وجود لغة تخزن المعلومة في ذاكرتنا، قبل التكلم بها أو كتابتها[634]. اللغة عنصر أساسي لتناقل الجانب الثقافي من الذاكرة الجماعية، والكتابة تثبيت للتعبيرات الشفهية التي تعود بالأصل إلى ممتلكات الذاكرة على دعامة مادية، والشهادة في الأصل مسموعة، وهي وثيقة المجتمعات الشفهية، والشهادة بالنسبة للكتابة بمثابة توثيق، والكتابة في حد ذاتها ذاكرة خلقت لحفظها من النسيان، وبفضلها تقوت الذاكرة الجماعية، وبواسطة الذاكرة ومرحلة الأسطورة تشكل التاريخ، وانتقاء التاريخ لأماكن الذاكرة يعرضها لخطر ضياع ما أقصاه التاريخ، وتفقد الشهادة عفويتها فور تحولها لشاهد مادي، قصد التنظيم الداخلي للتدوين والاختزال والاختصار والتأويل أحيانا.[635]

630- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..198

631- نفسه، ص..117

632- Jack Goody(1977), «Mémoire et apprentissage dans les sociétés avec et sans écriture : la transmission du Bagre» , *L'Homme,* Volume 17, p.30.

633- Henri Atlan(1956), «Les trouble de la mémoire», *Etude psychiatrique*, n°9, , volume2, p.17.

634- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..103

635- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص. .54

تتحدث قبائل الريف الأوسط الست المدروسة[636]، اللغة الريفية[637] أو الزناتية[638] التي تسود بقبائل إگزناين [639]وأيث عمارث وإبقوين، والقبائل التي لا تتحدث الأمازيغية فهي قبائل معربة منها غمارة، نظرا لقربها من المراكز الحضرية، وتأثير المراكز الدينية الكبرى بها، الأمر الذي سرى على قبيلة ترگيست التي يعود الدور في تعريب لسان ساكنتها للزاوية الخمليشية.[640]

تنبني الذاكرة الجماعة على قاعدة لغوية حاملة لقاعدة ثقافية، وفور تغيير الجماعة للغتها تصبح الذاكرة ذات مستويين، يتلمسها البحث الإثنوغرافي-الأنثروبولوجي، والصيحة القومية التي تلت حروب التحرر من الاستعمار دعت إلى توحيد مستويات الذاكرة الجماعية، واتحادها داخل شعارات إيديولوجية منفصلة عن هوية الجماعة ونهج توجه الدولة اليعقوبية[641]، وهنا

---

[636]- تقلص المعطيات اللسانية من مجال الريف بتحديده في الحيز الذي تقطنه الساكنة الناطقة بالريفية، ونقصد بالريفية، أي ثريفيث هنا، إحدى اللغات الأمازيغية الثلاث إلى جانب تشلحيت وتمزيغت. حاول هارت دراسة نسبة التباعد بين هذه اللغات وفق النظرية الگلوتوكرونولوجية Glotto-chronology، التي تسمى أيضا الإحصائيات المعجمية Lexicostatistics، وهي فرع من اللسانيات يهتم بدراسة تاريخ اللغات. وقد خلص إلى النتائج التالية: بلغت نسبة الاختلاف بين ثريفيث وتمزيغت ،%54.5مما يعني تباعدا يصل إلى ألفين وتسع مائة سنة تقريبا، أما بين ثريفيث وتشلحيت فقد بلغت نسبة الاختلاف ،%55.5 بنسبة تباعد ناهزت ثلاثة آلاف سنة. ومما لا شك فيه أن لغة الريف الأوسط كانت هي الأمازيغية قبل دخول العرب. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الريس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، الطبعة الثانية، ج.2، ص. ص. .650-649

[637]- يسمى السكان المتواصلون بالريفية داخل المجال المدروس «ءاريف» بالريفيين، واللغة التي يتواصلون بها تسمى حسب تلفظها«ذاريفيث »أو«ثاريفشث» أي «تاريفيت». انظر:

- أحمد بوكوس(1995)، «تريفيت أو تاريفيت» ، **معلمة المغرب**، المجلد السابع، ص. ص..2351–2352

[638]- اعتبر مجموعة من الدارسين، من قبيل هانوتو Hanoteau وباسيت Bassetوبايرناي Biarnay، ومن بعدهم إيميل لاوست E. Laoust، أن اللغة المتداولة في الريف ذات أصل زناتي، وهي متشابهة بين القبائل الشرقية والمتوسطية داخل الريف وتسمى تامازيخت أو تاريفيت، غير أن الباحث الإسباني بيذرو ساريوناندیا Pedro Sarrionandia اعتبر القبائل الأكثر تشابها من الناحية اللسنية هي إبقوين وأيث يطفت وأيث ورياغر وأيث عمارث وثمسمان وأيث سعيد وإقرعين وأيث وريشك وأيث توزين وإگزناين، واخذ فلنتين بنتيث كانتيروValentín Benéitez Cantero نفس التوجه باعتبار الريفية لغة زناتية مع بعض الإضافات حول القبائل المعربة، منها تخصيص لغة خاصة بقبيلة كتامة هي »الشلحة الكتامية«. انظر:

- Valentín Benéitez Cantero, *Sociología Marroquí, Tetuán*... , p. 17.

- حافظ الريف الأوسط على لغته، وتتضمن اختلافات بسيطة بين الكتلة الأولى (أيث عمارث وإبقوين وأيث ورياغر) والكتلة الثانية (إگزناين وأيث توزين)، ثم الكتلة الثالثة (ثمسمان)، غير أن التواصل بين هذه القبائل يبلغ نسبة 100% وينحصر الاختلاف في طريقة نطق بعض الحروف كاستبدال الشين بالياء مثلا في إگزناين وثمسمان مقارنة مع أيث ورياغر وأيث عمارث وإبقوين، فتنطق »أيث« بصيغة »أشث«، أو استعمال عناصر معجم مختلفة، فيقول البقيويون مثلا، »إيحوف« التي تعني »سقط« مقابل »إيوْضا« لدى الورياغليين. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. .653

[639]- تعد القبيلة الوحيدة من ضمن قبائل الريف الأوسط التي وقعت تحت السيطرة الفرنسية، وأهل إگزناين يتحدثون الريفية، وإن كان من بينهم من أصبح فقيها وتعلم اللغة العربية بالإضافة إلى لغته الريفية الأم، أما النساء فيتحدثن الريفية وحدها نظرا لعدم احتكاكهن بالعالم الخارجي. ويعتز أهالي إگزناين بأصلهم الأمازيغي ويعتبرون هذا الأصل رفيعا. وينظرون بازدراء إلى جيرانهم المعربين في قبيلة البرانس مثلا. ويمكن أن نقسم قبيلة إگزناين حسب بلانكو إلى نواتين، الأولى تقع شمال ثيزي وسري بين أزرو أقشار على علو 2010م، وبين مجال أيث توزين، تهيمن فيها العادات الطبيعية واللغوية ذات الخصائص الأمازيغية، والنواة الثانية تقع جنوب شرق هذه القبيلة وقد تعربت. ويؤكد أن الفئة الأولى لم تعترف بالمخزن وتخضع لسلطته مقارنة مع نواة الجنوب، غير أن هارت فند هاتين الفكرتين، ويعتبر إگزناين ذات أصل أمازيغي ريفي. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت(2004)، **القانون العرفي الريفي نصوص مختارة من أعمال إمليو بلانكو إيثاگا**، ترجمة: محمد الوالي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص. .82

[640]- لحسن أغزادي (.1989-1988)، **ابن عبد الكريم وحرب الريف 1921-1926م**، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية، فاس، ص. .90

[641]- اعتمدت الجمهورية الفرنسية الثالثة على خطاب قومي شامل موحد للذاكرات الجماعية المختلفة المتساكنة في المجتمع الفرنسي، وأصبحت لهجاتها مهمشة، لأن الدولة الفرنسية المركزية اليعقوبية فرضت ذاكرة موحدة من خلال التعليم والتجنيد. انظر:

تفرز لنا ظاهرة النوع إذ نجد النساء محافظات على اللغة الأصلية دون غيرها، ولها معاني يفتقد لها الرجال، لنجد فصلا داخليا بين ذاكرة الرجال وذاكرة النساء.[642]

صانت المرأة الموروث الشعبي عبر الذاكرة ومن خلال تداوله واستحضاره للتفاعل مع الواقع المعاش، خاصة ما يتعلق بشعائر العبور وانتقالات دورة مواسم الجماعة[643]. واقترنت تسمية اللغة الريفية بالمرأة التي تحمل نفس الاسم، أي «ثريفيث» وتعني اللفظة المرأة واللغة معا، ومقابلها «أريفي»، أي الرجل الريفي، والريفيون جماعة يقولون «نشين ذيريفيين»، أي نحن ريفيون متجاوزين الصراع القبلي، ومتجهين نحو هوية مشتركة وشمت الذاكرة الجماعية.[644]

انتقلت الذاكرة الجماعية والخصوصيات الثقافية بالريف عبر اللغة قبل بلوغ مرحلة التدوين، وشكلت وسيلة تعبير ونسج مجموعة من مصادر الذاكرة المتمثلة أساسا في الأسطورة والشعر والحكاية.

ساهم التاريخ الشفهي في إعادة بناء التاريخ الاقتصادي، والذي ظهر معه الجانب الكمي للتاريخ، وفتح باب التأريخ للديمغرافية وأضاف طبقات منسية من التاريخ الثقافي[645]. وتقوم المعرفة التاريخية على شروط علمية مشروطة بظروف إنتاجها، ما يفسر الاهتمام بالذاكرة وظاهرة إعادة كتابة التاريخ، والاهتمام بتاريخ التاريخ، الحقل الذي حقق تراكما في البلدان الأنجلوساكسونية. والمعرفة التاريخية تعني تنقيح الذاكرة وتقديم تاريخ يوازي تراجع الذاكرة، ما يجعل التاريخ مساهما بشكل أو بآخر في بناء الذاكرة الجماعية. وقد أصبحت الذاكرة محط

- محمد أركون(2003)، «أنثروبولوجيا وذاكرة جماعية مفهوم الكلمة الغائبة: كلمة الأمل أفكار وشعارات مغشوشة »،**كتابات معاصرة،** العدد السابع والأربعون، منشورات انتصار العقل، بيروت، ص. .124

642- نفسه.

643- عبد الحميد حواس(2010)، «الإبداع النسوي في الثقافة الشعبية » ، **مجلة الثقافة الشعبية،** العدد الحدي عشر، أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، البحرين، ص. .27

644- دايفيد مونتكّومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. .650

انظر أيضا:

- دايفيد هارت منتكّومري(1999)، «الأمازيغ: اللغة والأصول توجيهات عامة حول اللغات الأمازيغية،»**حوليات الريف،** ترجمة: عبد المجيد عزوزي، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. .117

- تعد اللغة الريفية هي اللغة الرئيسية بالقبائل الريفية، خاصة بالنسبة إلى النساء والأطفال، والريفية رغم انقسامها إلى ريفية شرقية ووسطى وغربية لا تعرقل التواصل بين القبائل الريفية لأن الاختلاف عادة يكون بسيطا، مثل إخفاء حرف الراء في قبائل إگزناين وأيث ورياغر وإظهاره عند البقيويين، كما في فعل «إسّاس » مثلا، الذي يعني «وضع»، بدل« إسارس». انظر:

- أنخيلو گيريلي(2017)، **إبقوين قبيلة من الريف المغربي،** ترجمة: عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، ص. .98

645- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..304

- تنتظم مصالح الذاكرة الجماعية في المجتمعات الشفهية حول ثلاث مصالح كبرى هي، الهوية الجمعية للفئة التي تستند إلى أساطير خاصة متعلقة بالأصول، ونفوذ العائلات المسيطرة الذي تعبر عنه لوائح الأنساب، والمعرفة التقنية التي تنتقل بعبارات عملية وتتشرب السحر الديني. وقد ارتبط ظهور الكتابة بتحول عميق للذاكرة الجماعية، وارتباط صور أسطورية بالميثولوجيا، وأتاحت الكتابة للذاكرة شكلين من الذاكرات: تمثل الأول في إحياء الذكرى والثاني في ارتباط الذاكرة بالوثيقة المكتوبة. انظر:

-جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص. ص..112-110

اهتمام المؤرخين، وأساس التطوير النظري للموضوع، أهمية الأداة الشفهية أو الكتابة، والعلاقة بين الذاكرة والزمن والسرد، والذاكرة الجماعية وأطرها الاجتماعية.[646]

يتميز التراث اللامادي بالريف الأوسط بالتوارث الشفهي اعتمادا على الحفظ والذاكرة الجماعية، حيث يذوب فيه المبدع الأول في إطار شمولي تضامني صانع للمخيال الجماعي الذي ينتج تراثا شفويا يشمل الحكاية والشعر والأمثال وغيرها ينتقل عبره التاريخ الثقافي لهذه المجموعة.

وتعتبر الحكاية الشعبية امتدادا للأسطورة التي انبثق عنها التاريخ كعلم بعدما تخلص من شوائبها بالتدرج نحو الموضوعية والمنطق. ولا تنبثق الأسطورة ذاتها من فراغ إنما من ثقافة الجماعة، وتكون أحد ثوابت الهوية أحيانا، وبالتالي فهي لبنة لبناء الذاكرة الجماعية، ومصدر للتاريخ الثقافي.[647]

أخذت الحكاية بالريف منحى دينياً خرافياً في كثير من الأحيان[648]، حيث سجلت قبيلة إگزناين رواية مرتبطة بـ«هاجوج وماجوج» على شكل أقزام، يعيشون في كهوف مغلقة وهي مخلوقات صغيرة ذات أرجل معوجة وبنان مقوسة ولحى طويلة، وعراة بلا رقبة تبدو عليهم علامات الشيخوخة حتى في صغرهم، يحفرون الأرض نهارا للخروج وفي كل مرة يتعبون ويتوقفون، وعندما يعودون في اليوم الموالي يجدون الحفر ممتلئة لعدم قولهم إن شاء الله، وإن تمكنوا من الخروج طغوا في الأرض، وخروجهم يعني انقراض البشرية[649]. بالإضافة إلى حكايات المجون المتعلقة بالفقيه العاشق، حيث تُحكى في الريف قصص كثيرة عن فقهاء استدرجوا نساء بحجة مرض أو ما شابه.[650]

تحيل الحكاية الشعبية على واقع ريفي ميثولوجي في كل مراحل تاريخه، وتعبر عن عادات الريفيين ومعتقداتهم وهمومهم. وتتجاوز الحكاية الشعبية وظيفة التسلية لإعطاء الدروس والعبر

---

[646]- عبد الأحد السبتي(2003)، «بين التاريخ والذاكرة الجماعية تشكلات ورهانات »، **مجلة البحث التاريخي**، العدد الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، صص. 29-27.

[647]- عبد الكريم مدون(2005)، «التاريخ الاجتماعي بين الأسطورة والذاكرة الشعبية محاولة قراءة في ذاكرة المجتمع الآسي»، **مجلة قراءات**، العدد الأول، أكادير، ص. 115.

[648]- عمد أيث توزين إلى رواية حكايات حول الغول لإرعاب الأطفال ليلا، والرجال أنفسهم يخافون من الجن أكثر من اللصوص، انظر:

- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu*..., op. cit., p.114.

- ويروي الريفيون حكايات على لسان حيوانات، فيعتبرون ابن آوى والقنفذ أذكى الحيوانان مثلا، وتسمى سلالة بأيث يوسف وعري التابعة لأجذير وأخرى بإهروشن التابعة لإگزناين وأخرى بأيث سعيذ بالريف الشرقي وبثمسمان »أوشانن« نسبة لبنات آوى، ولا تكتسي التسمية صفة قدحية أو تعتبر رمزا طوطميا. مضمون إحدى هذه الحكايات أن القنفذ وابن آوى كانا يتجولان وأدرك القنفذ أن أمامهما فخ فطلب من ابن آوى أن يضربه فركله ابن آوى بالفعل وتكور القنفذ، فيما تقدم ابن آوى فخورا بما فعل فوقع في الفخ، عندها أخبره القنفذ بأن الوضع سيسوء حين سيحضر صاحب الفخ. وفي قصة أخرى كان ابن آوى يحاول سرقة البرقوق ونصحه القنفذ بربط ذيله إلى الشجرة لتهتز جيدا وتسقط الثمار، عمل ابن آوى بنصيحة القنفذ لكن فاجأه حضور صاحب البستان فهرب تاركا ذيله على الشجرة، وأصبح بدون ذيل ما اضطره بخداع بنات آوى بنفس الطريقة ليصبح الجميع سواسية. نظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ص. ص. 276-274.

[649]- Stevens Coon Carleton (1904), *Tribes of the Rif*, Harvard University, The University of Michigan Libraries, pp.154-156.

[650]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 279-278.

في قالب أسطوري ورمزي. وتخضع لضوابط، أولها زمن الحكي الذي يكون عادة ليلا، لأن حكيها نهارا سيعرض الأطفال للصلع، والثاني ضابط اللازمة الموحدة التي تستهل بها الحكايات لإثارة جو من التشويق والمتعة، والضابط الأخير متعلق بالسارد، إذ غالبا ما نجد السارد امرأة مسنة تعبيرا عن تجربة حياة طويلة. وللرواية أبعاد تربوية تزود المستمع بأدوات رمزية تنمي الخيال، لانتماء نص الحكاية للعوالم العجائبية، وتستثمر وقائع وشخصيات خرافية وواقعية[651]، وتمنح لنا صوراً تفسيرية عن ذهنية الجماعات البشرية.[652]

يعتبر الشعر طبقة من طبقات الثقافة الريفية، ومرآة مرافقة له خلال كثير من مراحل حياته[653]، وارتبط الشعر بجميع موضوعات حياة الإنسان الريفي، وكان حاضرا في المسرات وفي التعبير عن المآسي، وصعوبة تضاريس المنطقة، وتعقد الأحوال الاجتماعية، وعوادي الزمن والحروب والمجاعات، ويعكس عادات وتقاليد المنطقة، والشعر الريفي يعتمد البساطة والعفوية، ويجمع بين الأسلوب التقريري الخطابي ويميل للأسلوب التصويري الرمزي.[654]

يُعرف الشعر الريفي بـ«إزْرانْ» جمع «إزْري»[655]، كنمط شعري قائم على تنظيم بيتين أو ثلاث لا يوجد بينهما ارتباط عضوي، وقد نجد بينها ملاحم طويلة تؤرخ لأهم الأحداث التاريخية الكبرى في الريف تعتمد على روابط عضوية مثل ادهار أوباران[656]. مر الشعر الريفي «إيزران» من المرحلة الشفهية واعتمد الذاكرة الجماعية لحفظه[657]. ويمكن التمييز بين شعر الأفراح في الريف الذي يتمتع بمحدودية أبياته[658]، وشعر الحروب الذي يكتسي

---

[651]- صباح علاش (2017)، «التراث الثقافي بالريف»، ضمن ندوة: **التراث الأمازيغي ركيزة للتنمية بالمغرب**، تنسيق أحمد بوضيلب-عزيز بن طالب-محمد أيت حمزة، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص. 64.

[652]- ذهب أخوان من أث عروس لحرث الأرض وأغضبتهما الشمس الحارقة، فقررا رميها بالرصاص، وبعد ترقب أخبر أحدهما الآخر أنها على جبينه فقتله، ورجل آخر أثار إعجابه بياض حمار رجل من بني بوعياش فأخبره هذا الأخير أنه يغسله بالعصا كما تغسل الصوف في نهر نكور، فأخذ الأول حماره إلى النهر واخذ يضربه إلى أن مات وظهرت أسنانه فصاح أنه يبيض بسرعة، هذه القسمة عرفت استهلاك الشاي في تاريخ متأخر، إذ اشترى أحدهم طقم الشاي وعزم آخرين، وهو يحضر الشاي طلب صاحب الطقم رجل على انفراد فخرج عنده لبرهة وعندما عاد وجد الحاضرين أكلوا الشمع واشتروا أجزاء الطقم لتغطية مصاريف الحفلة وأخبروه أن مذاق السكر سيئ. انظر:

- دايفيد مونتكومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 277.

[653]- سلام السمغيني (1992)، **ما توشيذ ءيگرحريق ءينو؟**، دار قرطبة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص..21

[654]- صباح علاش، »التراث الثقافي بالريف ،...م.س.، ص. 62.

[655]- يتغنى بـ«رالا بويا » في الريف الراعي وربة البيت والفلاح والتاجر والغني، فهي مبدأ المساواة ووسيلة للتعبير، وترفق برقصة تتكون من فريقين كل فريق يضم فتاتين إلى أربعة يتخذن منحى حركة دائرية بطيئة مع الضرب على الدفوف، يغني الفريق الأول اللازمة والثاني الأبيات «إزران» بالتناوب، وهي وسيلة للتواصل بين الجنسين وكل الفئات العمرية، وعندما تعبر فتاة عن حبها لشاب من خلال «إزري» يرد بإطلاق النار، وعندما تلقى الأبيات الاستحسان كالتي ترفع من شأن قبيلة ما، يكون رد الفعل هو زغاريد نسائها وطلقات رصاص أيضا. تعرف وصلات الغناء والرقص خلال مختلف الحفلات مرحلة الرقص وحده، حيث تحتفظ فتاتان فقط بدفيهما وقد يشارك الشبان في عملية قرع الدفوف، وتكون هذه الرقصة دون أداء «إزران»، وإن انفردت فتاة في رقصة فردية تلغي الجماعة فردانيتها لتدمج الثائرة من جديد ضمن المجموعة حسب تعبير بلانكو. انظر:

- دايفيد مونتكومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 286.

[656]- صباح علاش، »التراث الثقافي بالريف ،...م.س.، ص. 63.

[657]- جميل جمداوي (2013)، **الشعر الأمازيغي بمنطقة الريف –أنطولوجيا وببليوغرافيا**-، دار الريف للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الناضور، ص..80

[658]- Emilio Blanco Izaga(1946) , »Las Danzas Rifeñas», *África,* V.55, Madrid, p.548.

أهمية أكبر[659]. وتعتبر «أيا رالا بويا» لازمة مشهورة والأبيات المرافقة لها «إزران» إحدى أكثر القيم الريفية استمرارية، إنها أكثر من سمة ثقافية، فهي تقليد اجتماعي يحمل طابعا مؤسسيا، ويمكن القول دون مغالاة أن أية قبيلة لا تغنى فيها «رالا بويا» ليست ريفية حقا.[660]

ينحصر استعمال لازمة «أيا رالا بويا» في القبائل التي تعتبر ريفية حقا، إذ لا يُتغنى بها في تركَيست واجبالة والبرانس ومرنيسة مثلا، في حين يُتغنى بها في قبائل الريف الأوسط الست مع اختلافات بسيطة، علما بأن الصيغ النموذجية هي التي نجدها في قبائل إگزناين وأيث ورياغر وثمسمان، وتعكس حياة الريفيين وتعطي صورة تاريخية عن المنطقة، والآمال والإحباط والانتصار والحب والحياة اليومية. تتميز هذه الأبيات بسرعة الابتكار والتجدد المرتبط بتجدد الواقع المعاش وتغيره، ويعتبر إيميليو بلانكو أن إزران ورقصاتها ليست مجرد تسلية بسيطة ويشاطره مالينوفسكي الرأي باعتبار هذه الرقصات تلبية لحاجة اجتماعية، وتسمح بالتقاء الجماعات، مثل ما يسمح بذلك السوق الأسبوعي، وليس الفن هو أساس إزران مثلما ليست التجارة أساس السوق، بل عملية لتلبية الحاجات الإنسانية والاجتماعية.[661]

ترفق الأنشطة الفلاحية التي تقوم بها المرأة بأهازيج «إزران» المعتادة خلال الأيام الاحتفالية، وإن كان مضمون «إزران» يختلف نسبيا من منطقة إلى أخرى، فإن طريقة الزرع والحصاد والدرس وغيرها، ومراحل الدورة الزراعية تظل مشتركة مع باقي البوادي المغربية.[662]

ترتبط الدورة الزراعية لدى الفلاحين عموما والفلاح الريفي خصوصا، بالمطر «أنزار» الذي يفترض أن يكون بالقدر الكافي، أيلا أقل ولا أكثر من اللازم، ويطلب الريفيون المطر وفق طقسين مختلفين الأول مرتبط بصلاة الاستسقاء، والثاني يسمى «ثاسريث أونْزار» بمعنى عروس المطر. وتقوم الفتيات العذارى في قبائل إگزناين وإبقوين وأيث ورياغر مثلا، بتزيين المطرحة «ثفارا» التي تستعمل في عملية وضع الخبز في الفرن وإخراجه، وإلباسها أحسن اللباس والحلي، ثم الطواف بها من بيت لآخر مرددات عبارات طلب المطر، والدوران حول المسجد في الاتجاه المعاكس لعقارب الساعة، وتحضير الطعام للفقراء مع اللبن، والطقس مفاده انتظار الفتيات للمطر أن يأتي ليأخذ عروسه.[663]

ارتبط تطور الذاكرة بالتطور الاجتماعي، والاستقرار ضمن منظومة اجتماعية ناشئة، تنتظم وفق طقوس ومعايير اجتماعية متوارثة تشمل الحفلات والتقويم السنوي وغيرها، أي كل ما يثبت في النسق الاجتماعي، ومجمل ما يجب على الأجيال المتعاقبة توارثه ومزاولته، وشكل الزمان والمكان والإنسان مادة للاستذكار.[664]

659- H Biarnay(1987), "Notes sur les chants populaires du Rif", *Archives Berbères*, 1915-1916, fasc. I, Al kalam, 2ème édition, Rabat, p.28.

660- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 283.

661- نفسه، ج.1، ص. 284.

662- نفسه، ص. 82.

663- نفسه، ص. ص. 79-78.

664- André Leroi-Gourhan, *Le geste et la parole...,* op. cit., p.68.

عبرت الاحتفالات الريفية عن مجموعة من الطقوس التي تغطي جوانب دينية واقتصادية واجتماعية، وتؤدي أدواراً وظيفية في الحياة اليومية وتطبع الشخصية الثقافية للمنطقة، وارتبطت الطقوس الاحتفالية بفصول السنة والدورة الزراعية[665]. ويشهد فصل الصيف الممتد عادة بين 16 مايو و16 غشت، طقوسا احتفالية باعتباره مرحلة انتقالية على مستوى إيقاع الحياة والممارسة الثقافية من الجد إلى الترفيه، ويشكل نهاية السنة الفلاحية، ويعبر عن المرور بين نسقين زمنيين بواسطة الاستيعاب الرمزي، وتُعد الاحتفالات المرافقة لهذه الطقوس نوعا من التعبير عن الشكر على المحصول الزراعي السنوي. أحد هذه الاحتفالات هو «ارْعانْصا)ر(ث»، أي العنصرة الذي يُعتبر عيدا غير ديني، ويوافق يوم الانقلاب الصيفي في 24 يونيو، إذ يشكل الحد بين الحرارة والبرودة[666]. ويقوم الريفيون خلال احتفالات «العنصرة» بصبغ جذور أشجارهم بالطين الأحمر، اعتقادا منهم أن ذلك يحميها من التيبس[667]، أو يعمل على تلقيحها وتذكيرها[668]. هذا بالإضافة إلى انتشار طقوس الاستمطار التي تميزت بها المجتمعات الزراعية[669]، ويصف كارلتون كون بدوره احتفالات «العنصرة» في الريف بالحديث عن قيام السكان بقطع أغصان من الأشجار البرية والمغروسة، وجمع كمية من الأعشاب والنباتات الموجودة بالمنطقة، وبعد غروب الشمس يشكلون منها كومة كبيرة ويشعلون بها نارا، ويشترك الجميع رجالا ونساء وأطفالا في القفز فوق دخانها مرتين، وحتى الرضع تحملهم أمهاتهم أثناء القفز. وبعدها يغتسل الذكور في أقرب مجرى مائي، فيما يقوم بذلك الأطفال والنساء في المنازل. ويسمى هذا الطقس «أسيرذْ ن ثوذايْث»، أي غسيل اليهودية بمعنى التخلص من التأثيرات اليهودية.[670]

يوجد عيد ثاني تاريخي لا يكتسي طابع ديني، وله أهمية بالمنطقة وهو رأس السنة الفلاحية، أو ما يطلق عليه في الريف بـ «فوس أوسوگاس»، ويحتفل به في فاتح يناير الفلاحي، أو 12يناير الميلادي، وتسمى الاحتفالات المرافقة لهذا العيد «ارْحاگوز»[671]. ومن مظاهر هذه الاحتفالات اصطحاب الأزواج لزوجاتهم إلى بيوت أهلهن، ويبقون سبعة أيام إذا لم يكن لهم أطفال وثلاثة أيام في حالة وجود الأبناء. كانوا يأخذون معهم قدرا من اللحم الطازج أو المطهو والجوز واللوز والعسل، وفي الريف الأوسط بالخصوص كان الأهالي يحرصون على إعداد وتبادل اللحم المقدد في شكل «ثيعصْبانين»، أو «ثيمْحاگزين»، أي السقط المجفف داخل قطع من كرش الذبيحة. كما يتجول الأهالي بين بيوت الأصدقاء والأحباب مع تقديم الهدايا التي

665- ارتكزت مجموعة من المونوغرافيات على نمط عيش الجماعة، وأساسها الاقتصادي الذي يحدد بنيتها الثقافية وممارساتها الطقوسية. انظر:

- Carlo Ginzburg, *The Cheese and Worms the Cosmos of a Sixteenth Century Miller*, Translated by John and Anne Tedeschi, The Johns Hopkins University Press, Baltimore, p. viii.

666- مراد جدي (2019)، «طقوس الاحتفالات الفصلية بالريف شمال المغرب: الزمن كممارسة سوسيو-ثقافية» ، **الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة**، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، ص. 356.

667- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 308.

668- أبو العباس أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تيطاوين**، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاوين أسمير، ج.2، ص..241

669- Edward Westermarck(1926), *Ritual and belief in Morocco*, Printed in Great Britain, Vol.2, London, p.162.

670- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…*, op. cit., p. 151.

671- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 308.

تكون عادة في شكل وجبات خاصة. يتم أيضا تعليق أغصان من الصنوبر أو الأرز فوق باب كل بيت وأزهار اللوز على رافدات سقوف المنازل. كما تقدم في المساء عروض مسرحية شبيهة بتلك المقدمة خلال احتفالات عيد الأضحى، حيث يتنكر الرجال في شكل حيوانات وشخصيات نسائية ورجالية يهودية ونصرانية ومسلمة، وينخرطون في حوارات ونزاعات تعكس نظرة المجتمع الريفي إلى هذه الديانات والأجناس، وإلى العدالة والقيم الأخرى، وتقدم في شكل مسرحي ساخر. ويربط ويسترمارك بين احتفالات «رحاگوز»، والاحتفال بالسنة الفلاحية الجديدة.[672]

ويشترك الريف مع كل المسلمين في أعياد التقويم القمري، مع تسجيل بعض الاختلافات التي تعكس الخصوصية الريفية. ويعدد كارلتون كون مناسبات هذه الاحتفالات في عاشوراء وعيد المولد النبوي ورمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى، ويشير إلى ظاهرة إعداد النساء لأكلة «إيوْزان»، أي دشيشة الشعير، صباح يوم عيد المولد النبوي وحملها إلى المسجد ليتناولها الأطفال جماعة، في حين يقتني الرجال ثورا أو بقرة ويذبحون رأس الماشية في مساء نفس اليوم أمام المسجد ليسيل دم الذبيحة فوق مدخله، ثم يقسمون اللحم إلى أقساط تسمى «روزيعث»، تُوزع على جميع أسر المداشر التابعة لهذا المسجد.ويشير أيضا بخصوص رمضان إلى تشدد الريفيين الكبير والتزامهم بهذه الشعيرة إسوة بباقي المسلمين، لكن بالخصوص إلى امتناع المدخنين وشاربي الخمر وآكلي لحم الخنزير عن ذلك خلال هذا الشهر وتطهير الأواني المستعملة لهذا الغرض بالرماد. تقديم العروض المسرحية المذكورة أعلاه عند الحديث عن «رحاگوز»، خلال عيد الأضحى أيضا يعتبر من بين الخصوصيات الملاحظة في الريف.[673]

توجد مستويات ثقافية شتى ضمن الفولكلور والأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية وتاريخ التراث الشعبي والإثنولوجية، ومصطلح الثقافة يحيل إلى المواقف والمعتقدات وسنن السلوك.[674]

ترتبط وظيفة الغناء والرقص المصاحبة للاحتفالات في الريف بالنساء عموما، باستثناء الحالات التي يحضر فيها «إمذْيازن» التوزينيون، وتغني العازبات سافرات الوجه في أغلب القبائل، غير أن الورياغليات بدأن يخفين وجوههن بعد العقد الثاني من القرن العشرين[675]. إن الرقص المصاحَب بالغناء في شكل «إزْران» تتجاوز وظيفته الفرجة، ليصبح وسيلة للحفاظ

672- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…*, op. cit., pp. 150-151.

673- Ibid, p.152.

674- كارلو غينسبورغ (2018)، «الجبن والديدان عالم طحان من القرن السادس عشر مقدمة الطبعة الإيطالية»، ترجمة: ثائر ديب، **مجلة أسطور**، العدد الثامن، ص. 112.

675- تتميز المغنيات في أيث ورياغر بالتنكر مقابل كشف الوجه في قبيلة إگزناين وأيث توزين، ويحظى رقص الفتيات بمراقبة رجالية ووضع حدود ثقافية صارمة مستمدة من ثقافة البحر الأبيض المتوسط، »فالمرأة ترقص وتضرب على الدف وتغني، بينما الرجل جالس بدون حركة، صامت ومنكمش على نفسه. يخفي الجلباب جسمه كله وحتى رأسه ووجهه، لكنه كله آذان وعيون. متوتر وقلق ومترقب ومرتاب، ينتبه لمضمون الأغاني ولرد فعل الحاضرين وللتلميحات المغرضة والمتسترة وللشر والانتقام. متخوف من إبداع الأنثى الطائش الذي قد ينطوي على نية سيئة والذي قد يطيب في نفس الوقت، خاطره أو قد يوقظ في نفسه تناقضات دفينة. هكذا تبقى راحة بال الفرد أو العائلة وأفراحه وأحزانه وسمعته ونفوذه دائما تحت رحمة نزوة المرأة. وبالتالي فليس هناك احتفال بل قلق مستمر«. انظر:

- Emilio Blanco Izaga, »Las Danzas Rifeñas…, op. cit., p.549.

على التراث في المجتمع الريفي ما دامت لغته غير مدونة. ويعتبر حسب وصف بلانكو مشهدا مسرحيا عن حياة هذا المجتمع، «وانعكاسا لوجوده، وتصويرا بصيغة تعبيرية فنية لمفاهيمه الاجتماعية ورغباته وطموحاته المشتركة، وهو ربما التمثيل اللاشعوري لمشاعره الدفينة».[676]

حضر الرقص والغناء في معظم المناسبات الاجتماعية من حفل الزواج والعقيقة والختان والاحتفالات الزراعية والمواسم الدينية السنوية المنظمة قرب أضرحة الأولياء، وهي فرص لإقامة مهرجانات الألعاب الحربية والرقص. والنساء في الريف هن اللاتي يؤدين الرقصات المرفقة بالغناء الذي ينقل وضع القبيلة بطريقة شعرية تعبيرية، وهي فرصة تسمح للنساء بالتحرر في حضور الرجال، الأمر الذي لا يحدث عادة في مجتمع تبتعد فيه المسافة بين عالم الرجال والنساء.[677]

ينفرد الريف برقصة رجالية تسمى «لعبة الحرب» حرمها ابن عبد الكريم حفاظا على الذخيرة، وهذا النوع لا يعرف مشاركة نسائية، أو عزف الموسيقى أو ركوب الجياد. وتتكون الرقصة من اثنين إلى أربع راقصين، يُظهر فيها الراقص مهاراته الحربية، خلال المناسبات. إنها حسب بلانكو[678]، «يوم حفل وعيد رائحة البارود وصوت طلقات النار، ونحر الذبائح وتدفق الدماء، والنساء يلبسن ثيابا بألوان صارخة لامعة، والرجال بثوبهم القصير «شامّير» وعمائمهم البيضاء، وسط دائرة من المتفرجين المستعدين للخروج من رتابة الحياة اليومية، وأمامهم رجلان وجها لوجه، يحرك الراقصان بندقيتهما في الهواء ويتحركان في حركة دائرية، ثم يتواجهان بالخطاب ثم التهديد ويبدآن المبارزة، وتنتهي بحركة دائرية للأيدي والأرجل والبنادق وإطلاق النار، هذه الرقصة مباراة لإثبات الحب والبراعة، ويصبح هذا العرض في هذا البلد الشجاع مدرسة طبيعية رائعة تتعلم فيها الأجيال الجديدة من الكبار وتحافظ على روحهم المحلية والقبلية وتعززها بشكل فعال». شكل الرقص ساحة تباري بين الشابات لإبراز مواهبهن في الرقص وبعث رسائل مباشرة ومشفرة للشباب، وتنوعت الرقصات مثل ذفوست وأذار على شكل أحيدوس، ورقصة البارود الممثلة لمشهد إطلاق النار من بنادق الراقصين.[679]

يؤدي الرقص دور الأسواق، فهي مناسبة للفصح وإثارة مشاكل المجتمع، بينما تغني المرأة يظل الرجل في ترقب وقلق مستمر من البراعة الأنثوية، فهي بالنسبة له تخدش العادات والأخلاق والتواضع، والتخوف من فضح بعض الخبايا أهمها تزويج الفتاة بمن لا ترغب به حيث تتغنى صديقاتها قائلات: "لن أغفر لأمي التي وضعت الحناء في يدي، ودفعتني للتزوج بأرمل، ولن أغفر لوالدي الذي منعني من مقابلة شاب وزوّجني برجل عجوز".[680]

676- Emilio Blanco Izaga, »Las Danzas Rifeñas…, op. cit., p.549.

677- Pilar De Lama Alcalde, *Juegos y Deportes*..., op. cit., p.34.

678- Emilio Blanco Izaga, »Las Danzas Rifeñas», op. cit., pp. 550-551.

679- صباح علاش، »التراث الثقافي بالريف ،...م.س.، ص. 65.

680- Pilar De Lama Alcalde, *Juegos y Deportes*..., op. cit., p.35.

يرتبط النسق الثقافي الريفي بين المؤثرات المنتجة والمتمثلة في المحيط الطبيعي والمجرد، الذي يترجم على شكل فلكلور تتوارثه الأجيال، عن طريق توارثه عبر الذاكرة الجماعية وممارسته من خلال مبادئ وموقف الريفيين الذي يجعله في صيغة تعبيرية أوضح.

ثانيا: المميزات الثقافية لمواقف الريفيين.

تحمل الأمثال الشعبية بالريف قيم الحب والإيثار والصدق والعفة، وكباقي الأمثال لدى الشعوب تتميز بخصائص أسلوبية تسهل عملية حفظها وتوارثها بين الأجيال، كما تُعد بمثابة قوانين مرجعية، للتوجيه وسداد النصح[681]، وتقدم لنا لمحة عن طباع ومواقف الريفيين، أو على الأقل تمثل كيف كانت.

لقد عالجت الأمثال مواضيع متعددة ومواقف شملت جل مناحي الحياة الثقافية بالريف، وحظيت المرأة بأهمية خاصة في الأمثال، نورد هنا مثلين منها: «أ)ر(كَاز بْرا ثامْغا)ر(ث أَمْ أوخّام برا ذيمطْها (ر)ث»، بمعنى الرجل دون زوجة مثل بيت دون حمام، «ون إكسّين أَرّايْ نذمغا (ر)ث إطّسْ أَمْ ذمغا(ر)ث»، بمعنى الرجل الذي يأخذ بنصيحة المرأة يصبح كالمرأة[682]. ومن مواضيعها في مجال تقديم النصائح العملية، الحث على التحلي بالشجاعة مثلا، كما نجد في المثالين التاليين: «اشْمات ونغاياورن يدْجيسْ أو ذمجششي»، بمعنى الذي يهرب [في المواقف الحرجة] لا تتزوج ابنته[683]، «ذيشْتي سوگو)ر(سْ أورا ذاوْرا »، بمعنى رمي العدو بالطين أفضل من الهرب.[684]

تحمل الأمثال الريفية قيم الريفيين، ولعل من أهمها عزة النفس، كما نجد في النماذج التالية: «أمانْ أو گرمام وارا أغي نشْمايث»، أي شرب ماء الصهريج أفضل من تناول اللبن الممنوح من طرف الجبناء[685]، «بووارذار ورا يَوْذَانْ إمَرْذَالْ»، أي الاقتيات بأرذل النبات أفضل من الرضوخ للناس الأنذال[686]، «أَخّامْ إيخْوان عمّاسْ أوثْعمّا)ر(ن ستكمّوسينْ»، أي البيت الفارغ لن تملأه الصدقات أبدا[687]. الحث على قول الحق من القيم الأخرى التي يصبو المجتمع الريفي إلى تحقيقها عبر الدعوة إليها في الأمثال، كما نجد في النموذج التالي: «إيني ارحقْ ذي باباش ثروحذ غاس أَتمّونْسوذ»، أي كن صادقا وقل الحقيقة وإن كان ذلك ضد مصلحة والدك وزره لتناول وجبة العشاء معه[688]. تعارض المظهر الخادع مع الواقع وضرورة الاحتراس لتفادي الانخداع بهذا المظهر موضوع آخر يتكرر بصيغ مختلفة في الأمثال الريفية، كما في الأمثلة التالية: «أوتيمن ذيمسي خمي ذخسي»، أي لا تأمن النار وإن رأيتها خامدة، «أوتيمن أجنّا خمي

681- صباح علاش، »التراث الثقافي بالريف ،...م.س.، ص. .64

682- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .280

683-نفسه.

684-بوسنينا (2012)، **حكايات وأمثال أمازيغية ريفية**، مطابع الأنوار، الطبعة الأولى، وجدة، ص..93

685- محمد عائشة ميرة (2009)، **الأمثال الشعبية في الريف**، مطبعة الشرق، وجدة، ج.1، ص..63

686- نفسه، ص. .74

687- إدريس أضوض(2012)، **ألف مثل أمازيغي ومثلان**، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص..50

688- محمد ميرة، الأمثال الشعبية في الريف...، م.س.، ص. .66

يصفا»، بمعنى لا تثق بالسماء وإن كانت تبدو صافية، «أوتيمن ثاوسا(ر)ث خمي تزادْجا»، أي لا تأمن شر العجوز وإن رأيتها منهمكة في الصلاة.[689]

تتوارث الذاكرة الجماعية بالريف ثقافة المجتمع الذي يعتبر راحة البال أهم من المال كما يتضح من هذا المثل: «رهْنا يزْوار رغْنا»[690]، ويعد التعاون أرقى قيم المجتمع الريفي، كما يتضح في الأمثال التالية: «ادْقر خْ اجمْاعثْ يفْسوس»، أي الثقل على الجماعة يخف[691]، «فا)ر(ق ربْحار تيسْقّار أذ يقّار»، بمعنى إن قسمت البحر حصصاً سيجف، «ذامونت ذنق أيْراذ»، أي التضامن يقتل الأسد[692]. تُقاس مكانة الفرد في الريف بقوة عائلته وكثرة أفرادها لذا يتباهى من له عائلة كبيرة، كما يتجسد في النموذج التالي: «أويْنّان موحند أوغا)ر(س حدْ»، من قال أن موحند ليس له قريب[693]. ونذكر من القيم الأخرى المتضمنة في الأمثال رفض كل أشكال الطمع، «أوشاي أشوشغْ أودْجيغْ ذاربي أشغْنيغْ»، أي أعطيني أعطيك لست بإله لأغنيك[694]، وصون الريفي لأخيه، «أكشّوظ أورينجّار أوماس»، أي الخشب لا ينشر أخاه[695]، واعتبار الرجولة بمعنى القوة والشجاعة والحنكة سمة أساسية مهمة في الرجل الريفي، «أ)ر(گازْ نذمو)ر(ث إينسْ أ)ر(گازْ نذمورا»، بمعنى من كان يتصف بالرجولة في بلده سيصبح سيدا في البلدان الأخرى[696]، والحث على التريث، «أغا)ر(ضا إديتفْغن ذامزوارو إيتتّيث أموش»، أي الفأر المتسرع الذي يخرج قبل الآخرين يأكله القط، والنصح بعدم الإفراط في التردد لاتخاذ القرار الصحيح، «اخْضار اخْضار أتَويذْ منْضار»، بمعنى إطالة الاختيار تجعلك تأخذ الرديء[697]، وتكشف الأمثلة الريفية عن طابع العناد، الذي يتميز به أهل الريف[698]، حيث نجد المثلين التاليين: «أزدْجيف وارذي ذدْجي ذغنّانْت تاخساشْث»، أي الرأس الذي لا يعرف العناد مجرد حبة قرع[699]، «يمّاس تّاغنّانْت باباسْ ذْرعوج»، بمعنى أمه عناد وأبوه العوج.[700]

تتميز الأمثال بخاصية هامة تتمثل في استمراريتها عبر الأجيال ومحافظتها على اللغة والمضامين منذ الفترة التي أنتجت فيها، وتصبح بالتالي وسيلة للتأريخ ووصف الوضع القائم في فترات سابقة، وندرج كنموذج هذا المثل الذي يعكس نمط العيش في الريف عبر مرحلة

689- محمد ميرة، الأمثال الشعبية في الريف...، م.س.، ص. .100

690- نفسه، ص. .61

691- نفسه، ص. .91

692- إدريس أضوض، ألف مثل...، م.س.، ص..42

693- عائشة بوسنينا، حكايات وأمثال...، م.س.، ص..100

694- محمد ميرة، الأمثال الشعبية...، م.س.، ص..97

695- إدريس أضوض، ألف مثل...، م.س.، ص..22

696- Souad Moudian(2004), *Mille et un proverbes Rifains*, livre publié avec le soutien du Ministère de la Culture, p.11.

697- إدريس أضوض، ألف مثل...، م.س.، ص. .112

698- كان رجل من أيث ورياغر يحرس أشجار التين التي في ملكيته وشاهد من بعيد أحدا فوق إحداها وأنذره إن لم يبتعد فسيقتله حتى وإن كان السارق ابنه. لم يمتثل الابن لأنه لم يكن يتصور أن ينفذ والده وعيده. اقترب الأب واستعد لإطلاق النار وحاول الابن ثنيه عن قراره لكن الأب أصر بأن القرار قد اتخذ ولا مجال للتراجع، إذ قال:»ثوري ثوري «وأطلق النار عليه. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص..278-277

699- محمد ميرة، الأمثال الشعبية...، م.س.، ص..131

700- إدريس أضوض، ألف مثل...، م.س.، ص..31

طويلة من تاريخه، «سْفشْحينْ أيانبْذو سْفشْحينْ، أوخا إيناس قا ذْما(ر)س إيثْنينْغين»، بمعنى دلّلهم يا فصل الصيف ثم اتهم شهر مارس بقتلهم. المثل يلخص الوضع في الريف المعتمد أساسا على الزراعة ذات المحصول الذي لا يكفي لاستهلاك الساكنة طيلة السنة، فينفذ هذا المحصول سريعا، ويهد الجوع المزارعين خلال فصل الشتاء ثم تكثر الوفيات خلال شهر مارس. ويتزايد الاستهلاك بالطبع خلال الصيف بسبب حفلات الأعراس وإرجاع الديون ويُوفَّر ما تبقى من المحصول كبذور تستعمل في فصل الخريف الموالي. يرتبط هذا المثل بقول مأثور آخر شائع في الريف يقول: «وسْعنْ أوسّان قلّنْت ثبصْرين»، أي كثر عدد الأيام وقلّ عدد البصلات المتبقية، ففي غياب الموارد الأخرى غير الزراعية في الريف كان يقال أن من يملك أربعين بصلة سيتجاوز مسغبة فصل الشتاء، لكن عدد أيام الجوع كان دائما أكبر من الموارد المتوفرة ولا يكفي حتى ظهور السنابل الأولى للتقوت بجريش الشعير الطري «إوْزان إما)ر(مز»، ودقيقه «زمْبو»، بعد إنضاجه في الفرن.

عُرف رجال الريف عموما بالقوة البدنية والقدرة على تحمل المشاق، فهم رجال حرب وتجارة وسياسة[701]. ويعطي الورياغليون أهمية بالغة للتصويب بالحجارة والعصي والأسلحة النارية، إذ يقاس الرجل المحترم بمدى درايته بفنون الحرب، وكفاءة الرماية والمطلوب أن يكون أكثر من فلاح، أي محاربا ماهرا[702]. وكان الريفيون يتمرنون بشكل جدي على التصويب الدقيق بالحجارة والسلاح، وذلك باستعمال فزاعة يلبسونها جلباباً[703]. وقد وصف الحسن الوزان سكان الريف بالشجعان وارتدائهم للملابس الخشنة[704]. يتسم أهل أيث ورياغر بالقسوة والغيرة على نسائهم، والقوة وعدم التساهل، وفي حال نشوب نزاع في السوق يسارع «أَبَرّاحْ»، أي المنادي بإعلان حالة الاقتتال ويطالب الغرباء بمغادرة المكان لكي لا يتأذى أي عنصر خارجي، وهي عادة جرت في قبائل الريف الأوسط .[705]

يقدم موليبراس وصفاً للرجل البقيوي، ورغم عدم الدقة التي يتصف بها المؤلف ومبالغته فإن ما يورده في هذا المجال بالتحديد، ينطبق بشكل عام على الريفيين في مرحلة محددة من تاريخهم، إذ يقول أنه شجاع ومهاب الجانب بين الجيران. يرتدي جلبابا قصيرا أسود وسروالا فضفاضا أبيض مزموما عند الركبتين ونعالا من الحلفاء، ويتمنطق بحزام جلدي مليء بالرصاص لحشو بندقيته التي لا تفارقه. رأسه حليق به ضفيرة طويلة تتدلى وراء ظهره. لا يصلي كثيرا ويغتسل نادرا، ويقوم بواجب الضيافة، فهو ودي وصريح، ولا يمتلك مكر ودهاء العرب. يتميز بصرامة الأمازيغي الذي يجانب المزاح والنفاق والكذب، ويتسم بالقسوة والصراحة والوضوح والعنف. إن قساوته هذه لا تتعارض مع شغفه بالموسيقى والأنغام، وتفضيله لأصوات الناي القصبية والطبل بالخصوص.[706]

---

[701]- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 116.

[702]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..88

[703]- Emilio Blanco Izaga (2013), *El perro de Kabila y otros registros etnográficos del protectorado de España en Marruecos*, 1ª edición, Melilla, pp.93-94.

[704]- الحسن بن محمد الوزان الفاسي (1983)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، ج.1، ص. 324.

[705]- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu...,* op. cit., p. 96.

[706]- Ibid, pp. 91-92.

يقوم المزارع الريفي بنفسه بإنتاج الأدوات الخشبية التي تعتمد في الفلاحة كالمحاريث والمهاريس والمعالق الخشبية، فيما ينفرد الحدادون بإنتاج الأدوات المعدنية كالمذاري والمناجل والفؤوس والمعاول[707]. ويعتبر بلانكو إيثاگا الريفيين «شجعاناً أوفياء، ونشيطين أذكياء، ومتواضعين نزهاء، وصبورين صارمين»[708]. ويتعارض هذا التقييم الإيجابي مع النظرة السلبية لمراقب إسباني آخر وردت في تقرير له من امْنوذ بقسمة أيث بوعياش الورياغلية بتاريخ 10 يونيو 1928م، حيث اعتبر الرجل المحلي «صلبا وقاسيا وعنيدا ومخادعا ونقوما، لا يتجاوب قلبه مع نداءات حريمه ولا توسلاتهن. لا يحب التواصل مع الغير وتبقى علاقاته مع أعضاء من خارج قبيلته محدودة جدا، لأنه لا يحتمل بأي شكل من الأشكال تواجد العرب الأجانب في مجلسه، وبالخصوص حضور اليهود الذين يحتقرهم أيما احتقار».[709]

لا يحمل الريفيون عموما نظرة إيجابية تجاه جيرانهم، ويزداد هذا الموقف تشددا مع غير المتحدثين بالريفية، فيلاحظ مثلا أن أهل إگزناين لا يحبون جيرانهم من البرانس، ويرون أنفسهم مختلفين عنهم[710]، فيما يحبون جيرانهم من الريف الأوسط، حيث أن كل قسمة من هذه القبيلة حافظت على علاقاتها الخاصة معها، حسب موقعها الجغرافي، وحملت نفس معالم الذاكرة الجماعية، وربطتهم علاقة حمل السلاح[711]. يتضمن الاختلاف على مستوى اللغة تعارضا على مستوى الثقافة بشكل عام، وهو ما جعل الريفيين ينظرون إلى أهالي اجبالة بنوع من الازدراء باعتبارهم أقل حشمة والتزاما بالدين، ونجد نموذجا من هذا الموقف فيما أورده كارلتون كون بخصوص طرد الريفيين لطلاب من اجْبالة من مسجد في إگزناين باعتبارهم فاسدين يمارسون اللواط ويدخنون الحشيش ويرقصون كالنساء[712]. وهذه مؤشرات تجعل أهالي القبائل الأخرى تعتبر الريف مجتمعاً منغلقاً والريفيين متشددين.

طبعت النزاعات الداخلية حياة المجتمع الريفي بشكل عام، مما جعل الأفراد يتوجسون من جيرانهم ويعتبرونهم أعداء، وانعكس هذا الأمر، بالإضافة إلى ميلهم إلى حب الفضاء الواسع والاستقلالية، والغيرة على النساء على تشييد مساكن متباعدة كما لاحظ موليراس[713]. التخوف من أذى الآخر قاعدة عامة، لكنه محتمل حتى من أقرب المقربين، وهذا الأذى هو

---

[707]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 62.

[708]- David Montgomery Hart (1995), *Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif. Una selección de su obra, publicada e inédita, sobre la estructura sociopolítica de los rifeños del norte de Marruecos,* estudios introductores y notas de Hart, La Biblioteca de Melilla, , p. 112.

[709]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 838.

[710]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée 1er partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.10.

[711]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.11.

[712]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 116.

[713]- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu...,* op. cit., p.95.

الأكثر إيلاما، وتحمل الذاكرة الجماعية إشارات حول هذا التعارض كما نجده في المثل التالي: «ينْ إيشك يوذْسن إيگيتقسن»، أي القريب هو الذي يلدغ».[714]

اشتهر الريفيون بالشجاعة والصلابة التي رأى فيها البعض قساوة ونزعة دموية، هذه الصفات التي اقترنت بالورياغليين بشكل أكبر، فنجد موليير اس يتحدث عن عدم خشيتهم للموت واعتبارهم لحياة الأعداء دون أهمية تكاد توازي حياة الذبابة، وفي حالة موت رب الأسرة يصبح الأمر مدعاة للاحتفال تقريبا بدل الحزن، إذ يقيم أفراد عائلته مأدبة فاخرة يدعون إليها الجميع ويحتفون بالخصوص بحفظة القرآن الذين ينشدون مقاطع من قصيدة البردة في مدح الرسول أثناء مرافقتهم للموكب الجنائزي[715]. وبنفس المنطق تمجد الثقافة الريفية الاستشهاد، كما يختزنه التراث ونجده في المثل التالي: «أَذيجْ أَرربي ونيمّوثن يجيد أمزروي»، أي حفظ الله من استشهد وترك وراءه تاريخا يمجد ذكراه[716]. والموت والمآسي لا تنفي الأمل في غد أفضل والنظرة التفاؤلية إلى الحياة، كما نجد في المثل التالي: «ثوذا رثْ واخا تادجست أوشا أتنقار ذتفوشث»، بمعنى حتى وإن كانت الحياة مظلمة سنقول بل هي نور شمس ساطعة.[717]

حظيت المرأة بأهمية بالغة في التراث الشعبي الريفي، سواء كان ذلك أمثالا أو حكايات أو أشعارا، ونستشف من هذا التراث موقف المجتمع ونظرته إليها[718]. واتصفت المرأة الريفية عموما بالعفة والحشمة، والمساهمة في جميع الأنشطة بجانب الرجل، إذ كانت تقوم بأعمال الزراعة بالإضافة إلى أعمال البيت، وتشارك في التجارة بسوق النساء، وتحتفظ بعائدات البيع لنفسها. وقد خلق المجتمع الريفي مجموعة من الأعراف التي تحمي المرأة وتجنبها التورط في نزاعات الأخذ بالثأر أو المضايقة أثناء خروجها لجلب الماء أو الاحتطاب مثلا مانحة إياها حرمة خاصة. وتعتبر الوضعية الاجتماعية للمرأة الريفية أفضل من حال العربية وإن لم تصل

---

[714]- الحسن المساوي (2016)، **الجديد في الأمثال والحكم والأقوال المأثورة الأمازيغية بمنطقة الريف**، مكتبة الشيخ حسن، وجدة، ص.22

[715]- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu...,* op. cit., p.96.

[716]- الحسن المساوي، الجديد في الأمثال...، م.س.، ص. 13.

[717]- نفسه، ص. 31.

[718]- نلاحظ مثلا كيف ينظر الريفيون إلى مجموعة من الحيوانات ويقرنونها بالمرأة فتتماثل الصورتان سواء بشكل سلبي أو إيجابي،هكذا يقال أن الأرنب البرية كانت امرأة لم تغتسل بعد الحيض فمسخت في شكل أرنب، والغراب في الأصل امرأة رفضت الدخول في الإسلام، والعظاية الكبيرة شريرة دلت الكفار على مكان النبي، في حين أن الوزغة الصغيرة ولية من أولياء الله ساعدت بمعية العنكبوت النبي على النجاة، والخطاف لا يؤكل بسبب الاعتقاد السائد أنه ولية في الأصل، أما البومة التي تنذر بالموت فتعتبر ذكية حسب الحكاية المتداولة في الريف التي تحمل بين ثناياها فكرة قوة المرأة. إذ يحكى أن عجوزاً شمطاء من حزب الشيطان نصحت سيدنا سليمان أن يطلب من الطيور ريشا يصنع به سريرا بدل حصيره، فعمل بنصيحتها واستدعى جميع الطيور ونتف كل ريش الوطواط المستعجل الذي وصل قبل الطيور الباقية، وتأخرت البومة فسألها سيدنا سليمان عن السبب فأجابت »تأخرت وأنا أبحث عن أجوبة لأسئلة ثلاث، من الأعظم الحجر أم التراب؟ النهار أم الليل؟ النساء أم الرجال؟ أجابها أن الأعظم هو الأقوى وتساءل من يكون في الحالات الثلاث، فأجابت بأن الأعظم هو الأكثر عددا، لذا فالأعظم هو الحجر لأن التراب في الأصل حجر صغير، والنهار في الحالة الثانية لأن الليل يصبح بدوره نهارا في وجود القمر. وحار في جواب السؤال الأخير لأن النساء في نظره لسن أكثر عددا من الرجال، لكن البومة أصرت بأن النساء أكثر لأن الرجال الذين يأخذون برأي المرأة هم بمثابة النساء، هكذا أدرك سيدنا سليمان خطأه وكفر عن خطئته تجاه الوطواط بمنحه بركة شفائية«. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 274-273.

مرتبة الرجل، وخلافا لما هو سائد بالمجتمعات الإسلامية كانت المرأة الريفية تخرج سافرة الوجه، ومظهرة ضفائر شعرها .[719]

ارتادت النساء باستثناء المتزوجات الصغيرات السن أسواقا خاصة بهن في الريف مع إمكانية ارتياد المطلقات والعجائز لأسواق الرجال، وقد استفادت المرأة الريفية بحقها في الإرث حسب الشريعة الإسلامية، وإن سادت أعراف تسمح لأشقائها بالاحتفاظ بحصتها في حالة قبولها بالأمر. لاحظ گيريلي وهو يتحدث عن المرأة البقيوية كنموذج لعموم الريفيات أن البيئة التي تعيش فيها والعقوبات الصارمة ضد الزنى والتغرير بالفتيات سمحت بحفاظها على عفتها وتجنب التجائها إلى الدعارة، كما تقل نسب الطلاق نظرا لعلاقات القرابة التي تجمع الأزواج في الغالب، ولا تطلق إلا العاقر التي نجدها تلجأ إلى أساليب ووسائل مختلفة بحثا عن الإنجاب، منها مثلا اللجوء إلى المزارات والأولياء المشهود لهم بالكرامات، وتتزوج الفتيات عادة بين 14سنة و16سنة.[720]

تبدأ ملامح التمييز بين الجنسين منذ الطفولة، إذ يرافق الذكر أباه إلى السوق في سن مبكرة عكس البنات، وتكون له بندقية خاصة ويتعلم استعمالها منذ سن العاشرة، وتنتهي مهمة الرعي بالنسبة للجنسين في سن 12سنة، لينتقل الذكر إلى الحقل والأنثى للبيت، ليصبح التمييز حقيقيا بكل المقاييس.[721]

يميز الريفيون بين الذكر والأنثى شأنهم شأن المجتمعات الإسلامية، وإن حضرت قيمة للمرأة فذلك وراء الستار، وتهيمن المرأة على مجالات ثقافية خاصة أهمها السحر، وتشهد غياب الهيمنة البنيوية، لأنها تنتمي لسلالة أبيها قبل الزواج وتنتقل لسلالة زوجها، ويفترض أن تكون إلى جانبه في حالة نشوب صراع بينه وبين إخوتها.[722]

نظرا للوضع السائد في الريف قبل ظهور محمد بنعبد الكريم، والذي كانت تطبعه النزاعات الدموية، كان توفر الأسرة على الأبناء الذكور ضرورة ملحة لما يعنيه ذلك من قوة ونفوذ وحماية لممتلكات الأب، لذا كانت الزوجة مطالبة بإنجاب الذكور وكان الأب لا يفقد أبناءه في حالة الطلاق، حيث يستعيدهم مباشرة بعد الفطام وتسهر الزوجة الجديدة أو الجدة على تربيتهم.[723]

رافق المجتمع الذكوري في الريف وجوب عذرية الفتاة عند الزواج، فإن كانت غير ذلك تقتل للتخلص من عارها، وقد منع المجتمع الذكوري الفتاة من العيش مستقلة لما يتولد عن ذلك من إثارة للشبهات حولها، ما جعل ممارسة البغاء عادة نادرة في الريف المغربي، وفي الحالات

719- تخرج نساء أيث توزين سافرات الوجه، ويتمتعن بجرأة كبيرة ويرافقن الرجال خلال المعارك ويقمن بأشق الأعمال، يحصدن ويحطبن ويجلبن الماء من العيون، ويلبسن الحايك الصوفي الأسود، ويغطين سيقانهن بالجلد ويرتدين نعالا من الحلفاء، يعرفن بالعفة والخصوبة ويرضعن أبناءهن إلى حدود سن الخامسة أو السادسة. انظر:

- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu...,* op. cit., p.115.

720- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. ص. 115-114.

721- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 209.

722- نفسه، ص. 17.

723- أورسولا كينغسميل هارت (2010)، **وراء باب الفناء الحياة اليومية للنساء الريفيات**، ترجمة عبد الله الجرموني، منشورات تيفراز، الرباط، ص..54

النادرة جدا لثبوت الخيانة الزوجية يقتل الاثنان، أي الزوجة وعشيقها أو ينفيان إلى قبيلة أخرى، ليصبحا بدون قبيلة تحميهما، وهو ما يعتبر موتاً اجتماعياً.[724]

يستطيع القبايلي أن يفعل ما يشاء بزوجته عدا قتلها، فيما يعتبرها الريفي قطعة نقدية نفيسة يستطيع بواسطتها تسديد الدية حسب بلانكو، غير أن هارت اعتبرها وسيلة لإطفاء نار الانتقام وخلق التحالفات السياسية، ويعتبر بلانكو وضع المرأة الريفية محزناً، خاصة وأن دية قتلها تبلغ نصف دية الرجل.[725]

تتلقى المرأة الريفية معاملة سيئة حسب بلانكو، وتكاد لا ترث في الواقع رغم أحقيتها بذلك شرعا. لذا يرى أن الحماية الإسبانية قد حسنت من وضعها. وإن كان الريفيون يضعون الرجال في مرتبة أعلى مقارنة مع النساء، فذلك يعود إلى دورهم في رعايتهن وحمايتهن باستمرار وبالسلاح إن اقتضى الحال. اعتبارهن ضعيفات لا ينفي الإقرار بكونهن عنصرا ضروريا لاستمرار المجتمع. وتشكل النساء بشكل ما مجتمعا شبه مستقل عن الرجال نظرا لتوفرهن على أسواق خاصة بهن وعدم انخراطهن في النزاعات الدموية. ورغم اعتبارهن قاصرات لافتقارهن لأملاك خاصة بهن واضطرارهن للاحتماء بمساكن أزواجهن أو أقاربهن الذكور من آبائهن في حالة نشوب نزاع ما، إلا أن النساء يرتدين ملابس جديدة ويغنين ويرقصن في حفلات الأعراس، وهن قادرات على إثارة قلق الرجال وامتعاضهم بشتى الطرق[726]. طبع التشدد موقف المجتمع الريفي المحافظ تجاه الزنى، وكانت عقوبته هي القتل حسب الأعراف والسجن المحدد في فترة الحماية والمؤبد في عهد الاستقلال، لكن ذلك لم يمنع من إقامة الريفيين علاقات غير شرعية بحثا عن الحب الذي يضعف أمامه الانسان، لأن الحب والسعار علتان لا دواء لهما، حسب القولة الريفية المأثورة: «أَريظا ذوموزّار أوغا)ر(سن بوذْوا».[727]

ترسخت ثقافة الأسواق بالريف المغربي[728]، وكانت بمثابة مراكز حيوية بالنسبة للقبائل على غرار سوق أحد ثيسار بالنسبة إلى أيث ورياغر[729]، وسوق الخميس في بودينار بثمسمان، وسوق الاثنين بأيث عمارث، وسوق الخميس في ميظار بأيث توزين وسوق الأحد في ارواضي بإبقوين، وسوق الأحد بالنسبة للوليشكيين أو أيث وريشش[730]. وقد نشأت في الريف الأوسط عامة وأيث ورياغر على وجه الخصوص، أسواق خاصة بالنساء لإبعاد المرأة عن الأوساط الرجالية[731]. ولتفسير سبب خلق مثل هذه الأسواق المرتبط أساسا بالموقف

724- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. 54.

725- دايفيد مونتگومري هارت، القانون العرفي الريفي...، م.س.، ج.1، ص. 39.

726- David Montgomery Hart, *Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif...,* op.Cit., pp.119-120.

727- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 212.

728- اكتسى السوق صبغة القداسة في الذاكرة الجماعية الريفية »نهار ن سوق غا)ر(س رحو)ر(مث ،«وهي عبارة تؤكد حرمة يوم السوق، وجو الأمان والانسانية التي يجب أن تطبعه، انظر:
- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 109.

729- نفسه، ص. 113.

730- سعيد الفراد (2010)، **أيث وريشش نموذج نشأة قبائل الريف الشرقي وتطورها وامتدادها**، مطبعة الجسور، وجدة، ص. 7.

731- يعود زمن إقامة الأسواق النسائية بالنسبة للذاكرة الجماعية إلى زمن بعيد غير محدد، في حين يقف التاريخ في حدود منتصف القرن التاسع عشر، لأن الأدلة التاريخية التي بحوزتنا تأكد ذلك، والشخصيات المذكورة في الوثيقة كالحاج حدو أوعيسى، يعود تاريخ تعيينهم إلى 1875، وفي الرواية الشفوية توفي الشريف مسعود ن صديق سنة1871م، ودام الصراع عقداً من الزمن تقريبا، أي من1860 إلى 1870، وزيارة الشريف الوزاني كانت سنة1873م، انظر:

المتشدد للريفيين من النساء أورد هارت ثلاث ملاحظات دالة هي، تحريم الحاج حمادي نعمر أوزوكّاغ ارتياد النساء لسوق أربعاء ثوريرث الرجالي تحت طائلة التعرض للضرب وأداء غرامة قدرها خمسون بسيطة، والغياب الكلي للأسواق النسائية في قسمات جبل حمام الثلاث التي تشهد نسبة أكبر من التشدد والرغبة في عزل النساء ومراقبتهن والتحكم في تحركاتهن، واستهجان الورياغليين ارتياد النساء من عائلات محترمة للأسواق ولو كانت نسائية، وينطبق ذلك على منطقة السهل الأقل محافظة أيضا. ولا يستبعد أيضا أن يعود رفض قسمات جبل حمام إقامة هذه الأسواق النسائية، إلى التخوف من ممارسات السحر والشعوذة التي تروج في تلك الأسواق بعيدا عن المراقبة الذكورية.[732]

ظهرت مؤسسة السوق النسائي كنتيجة منطقية للتمييز الكبير بين الجنسين السائد في الريف الأوسط، مقابل الاعتراف بحق المرأة في بناء الصداقات والتعارف، رغم تخوف الرجال من التخطيط السري للنساء، وهذا بحد ذاته عرفانا بذكائها. وفي الأماكن التي لا تُقام فيها أسواق النساء كمنطقة جبل الحمام يقوم الرجل ببيع سلع زوجته من دجاج وبيض، ويعلم الجميع أنه يبيع لفائدة زوجته، ولا ينتقص ذلك شيئا من مكانته، علما بأنه يسلمها مبلغ السلع الذي لا تصرف منه شيئا فنفقة البيت مسؤولية الزوج بمفرده.[733]

عرفت قبائل الريف الأوسط، ونقصد بها أيث ورياغر وإگزناين وثمسمان وأيث عمارث وإبقوين وأيث توزين ظاهرة الأسواق النسائية، وهي مؤسسة قديمة قدم الأسواق الرجالية، وقد تأسست وفق أعراف الريف دون أي قاعدة شرعية أو مبرر ديني، علما بأن الذكور لا يسمح لهم بارتيادها باستثناء الأطفال دون سن العاشرة.[734]

تحظى ظاهرة الأسواق النسائية بعدة تفاسير، إذ يعيد روبير مونطاني سبب وجودها إلى فصل العالم الذكوري والنسائي[735]، في حين اعتبر سانشيث بيريث Sánchez Pérez أن إحداث الأسواق النسائية دليل على رغبة الريفيين في حماية المرأة وجعلها بعيدة عن صراعات الثأر، وتحسبا لفقدان المرأة زوجها تصبح المعيل الأساسي للأسرة، وكذا في حالة توقف السوق الرجالي عن نشاطه[736]. واعتبر أندري آدم André Adam السبب فيزيولوجياً، أي أن المرأة الحائض تفسد طقوس السوق، وبالتالي تم عزل النساء، غير أن دايفيد هارت سأل مستجوبيه

- عبد الحميد الرايس، «سوسيولوجيا الأسواق النسائية بالريف» ، **حوليات الريف**، العدد الأول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص. 60.

وانفرد الريف بظاهرة الأسواق النسائية منذ القرن التاسع عشر، وهي مخصصة للنساء غير المتزوجات، بإيعاز من أعيان القبيلة، وأسواق النساء أصغر حجما مقارنة بأسواق الرجال، ومحرمة على الرجال، ويسمح للصبيان دون العاشرة بارتيادها، وهي محكمة التنظيم، وتأسيسها راجع لحرية المرأة الريفية شريطة العزلة عن الرجال. وبالإضافة إلى وظيفتها الاجتماعية هناك الوظيفة الاقتصادية عن طريق تداول مجموعة من السلع المرتبطة بالمرأة عموما كالسواك والكحل والملابس النسائية والأواني الفخارية المحلية، وغيرها، في غياب لأي دور سياسي، انظر:

- عبد الرحمان الطيبي (2008)، **الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط ،1912-1860** منشورات تيفراز، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 161-160.

[732]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 126-125.

[733]- نفسه، صص. 129-128.

[734]- نفسه، ص. ص. 124.

[735]- Robert Montagne (1931), *La vie sociale et politique du berbère*, comité de l'Afrique Française, Paris, , p.250.

[736]- Andrés Sánchez Pérez (1943), «Zocos de Mujeres en Bni Uriaguel», *África*, Madrid, pp. 22-23.

الورياغليين عن رأيهم بخصوص فرضية آدم وكان ردهم أن هذا السبب مثير للضحك مؤكدين أن سبب إحداث هذه الأسواق هو الحفاظ على مكانة المرأة المحترمة، وجعلها في منأى عن الصراعات الرجالية[737]. ويعيد إيميليو بلانكو إيثاگا تاريخ تأسيس الأسواق النسائية في الريف الأوسط إلى ما قبل آلاف السنين[738]، غير أن دايفيد مونتگومري هارت تساءل حول مدى تأكد إيثاگا من المعلومات التي أوردها بخصوص تاريخ مؤسسة السوق النسائي بالريف، والتزم بالمنهج الانقسامي الوظيفي الذي تبناه في دراسته واكتفى بالتالي، بدراسة الظاهرة في إطارها السكوني الاستاتيكي دون الغوص في التأصيل.

تشير وثيقة شخصية في حوزة الأستاذ عبد الحميد الرايس إلى سوق نسائي قرب أگلمام أويازيظ بين قبيلتي إبقوين وأيث ورياغر، في سياق الحديث عن عقد بيع ارث، وذلك سنة 1901م[739]، كما أورد دايفيد هارت حادثة السوق الشهيرة، حيث أن إمغارن أيث عري وأيث يوسف أوعري كانوا قد قرروا منع ارتياد نساء هاتين القسمتين سوق ثمسمان النسائي[740]، لكن امرأتين من مدشر أجذير التابع لأيث يوسف أوعري خالفتا هذا الأمر وذهبتا إلى السوق المذكور، ما أثار حفيظة الحاج حدو بصفته أمغار أيث عري، وأمر بدفع غرامة قدرها دورو لكل واحدة منهما. تدخل زيان الخطابي أمغار أيث يوسف أوعلي، وسانده مسعود نصديق المنتمي إلى خمس إمرابظن، ربما لمضايقة الحاج حدو، وكان هذا الحادث سببا لإشعال فتيل حرب السبع سنوات بين اللفوف بأيث ورياغر، ما دفع بكل لف إلى البحث عن تحالفات خارجية إلى أن اتسعت دائرة الصراع الذي انتهى بانتصار نسبي للف أيث يوسف أوعلي[741]. ترسخ حادث سوق النساء في الذاكرة الجماعية بشكل مختلف إذ يروى أن الشريف سيدي مسعود دعا مجموعة من أعيان أيث يوسف أوعري إلى إقامة سوق خاص بالنساء، بعيدا عن الاختلاط، وقام السوق بمدشر أزغار، وتحدد انعقاده يوم الإثنين، وذاع صيت هذا السوق الذي كان ناجحا ومستقطبا للزائرات من كل أنحاء الريف، ما أطلق صوت المعارضة من خمس أيث عري المجاور لخمس أيث يوسف وعري، بزعامة الحاج حدو بحجة الابتعاد عن تقاليد الريفيين، ووصم القبيلة بالعار، والسوق النسائي بدعة بعيدة عن الدين الإسلامي، واستعانوا بفقهاء متشددين من قبيلة أيث توزين لتعبئة الرأي العام بإمزورن. وأمام إصرار أيث يوسف أوعري على عقد السوق الأسبوعي، أمر أعيان أيث عري فتيانهم بإحراج فتيات ثمسمان وهن في طريقهن إلى السوق، وكانت الانطلاقة الفعلية للمناوشات المسلحة، وتصارع الطرفان لكسب الأحلاف

737- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 125.

738- Emilio Blanco Izaga (1934), La Ley Rifeña, Imp. Imperio, Ceuta, p. 66.

739- عبد الحميد الرايس، »سوسيولوجيا الأسواق...، م.س.، ص. ص. 56-55.

740- نجد إشارة تاريخية خلال الخمسينيات من القرن العشرين، تخص تحويل سوق النساء بثمسمان، من الضفة الغربية لوادي النكور بأراضي أيث ورياغر إلى الضفة الشرقية بسبب تحول المجرى المائي لوادي النكور، غير أن الأحداث التاريخية المرتبطة بالأسواق تدل على أن اللبنة الأولى لهذه المؤسسة كانت بأيث ورياغر. انظر:

- François Troin Jean (1975), *Les souks marocains : marchés ruraux et organisation de l'espace dans la moitié Nord du Maroc,* Edisud, p. 113.

741- عبد الحميد الرايس، »سوسيولوجيا الأسواق...، م.س.، صص. 57.

الخارجية، غير أن قدوم الشريف عبد السلام الوزاني .[742]أدى إلى فصله في القضية لصالح حلف أيث يوسف أوعري مادام السوق يقام على أراضيهم، وأوقف الصراع القائم .[743]

توفر كل سوق للنساء على «أمينة» السوق التي يتم تعيينها لاستخلاص رسما بسيطا على الباعة يسمى «رعشور»، وتعرض في هذه الاسواق إلى جانب المنتوجات النسائية والسلع مواد طبية سحرية تعمل كموانع للحمل وتتسبب في الإجهاض، وذلك بعيدا عن أعين الرجال، لأن استعمالها أو الاشتباه في ذلك يعد سببا كافيا للطلاق. كان لهذه الأسواق أيضا حارس أو اثنان يقفان بعيدا لحماية المتسوقات، لكن لا يسمح لهما بالدخول إلى السوق تحت أي مبرر، ويعتبر فرصة لاختيار زوجات الأبناء والأحفاد بين العازبات.[744]

ظلت عائدات الأسواق النسائية بسيطة جدا مقارنة مع عائدات الأسواق الرجالية، ما يؤكد أن دورها كان اجتماعيا أكثر منه اقتصاديا، ويبقى النشاط الرئيسي لهذه الأسواق من وجهة نظر الرجال هو تسويق الوصفات السحرية والتعاويذ والتمائم لاستمالة الحبيب، وتتحمس النساء الريفيات كثيرا لارتياد هذه الأسواق ذات الخصوصية بعيدا عن عيون الرجال الذين يمنع عليهم كليا الدخول إليها وإن تجرأ أحدهم بخرق هذا العرفي حكم عليه بالغرامة والسجن.[745]

وفي حالة اجبالة كانت توجد قبل فترة الحماية الإسبانية أسواق خاصة لبيع الأطفال الذكور المختطفين بهدف استعمالهم من طرف الموسيقيين المتجولين كمتعلمين، أو كغلمان مرافقين لممارسة الشذوذ الجنسي، أو لأغراض أخرى أقل أهمية. وعندما يكبر هؤلاء الغلمان بحيث لا يثيرون أسيادهم جنسيا يسرحونهم للبحث عن سبل العيش لوحدهم. ولعل أشهر هذه الأسواق سوق الأحد في إكاون. وإذا كان الشذوذ الجنسي أمرا مقبولا في هذه المنطقة، إلا أنه يقابل بالازدراء الشديد في الريف، وقد تصل عقوبته إلى القتل كما حدث خلال الحرب الريفية، حيث أعدم رجلان حرقا[746]. وتظل مثل هذه المواقف مرتبطة في كثير من الأحيان بالتأثير الديني كما يتمثله الريفيون.

أبرزت المواقف الثقافية للريفيين نسقاً من التأثيرات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، كما لا يمكن تغييب حضور الوازع الديني الذي يكتسي عمق تاريخي بالريف، ما يدعونا للتوقف عنده.

---

[742]- الشريف عبد السلام الوزاني؛ شيخ الزاوية الوزانية في عصره، كان شخصية دينية بارزة، وهو وحيد للحاج العربي الذي أخذ البيعة من أهل تلمسان للسلطان عبد الرحمان بن هشام سنة 1830م. انظر:

- محمد ضريف(1986)،«ترجمة وتلخيص الزاوية الوزانية» ،**المجلة المغربية لعلم الاجتماع**، العدد الأول، ، ص. .80

[743]- رواية شفوية نقلها عبد الحميد الرايس عن والده محمد بودرة الرايس، الذي أخذها بدوره عن علوش حدو بن علوش من فرقة »إمحاورن« التابعة لأيث عري، وكان عمره آنذاك 90 عاما ومتمتعا بذاكرة جيدة، وعاش الحادث. انظر:

- عبد الحميد الرايس، »سوسيولوجيا الأسواق...، م.س.، ص. ص. .57

[744]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .128

[745]- نفسه، ص. .128

[746]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 110-111.

المبحث الثاني: الذاكرة الجماعية وأنماط التدين بالريف الأوسط

أولا: أنماط التدين وتأثيراتها الثقافية

حفظت الذاكرة الجماعية ديانات الجماعات وطقوسها وممارساتها، عبر الذاكرة الليتورجية التي تدور حول نفسها والذاكرة العلمانية ذات التأثير التحقيبي الضعيف، وتطور ذاكرة الأموات من رجال الدين، كلها تحولات طبعت الذاكرة.

قدمت الديانات السماوية إضافة للذاكرة، وربطتها بالدين والإنسان والإله، وهي ديانات للذكرى، وذلك واضح في النصوص اليهودية مثلا: «تذكر الرب إلهك فإنه هو الذي يعطيك قوة لتصنع بها الثروة لكي يثبت عهده الذي أقسم به لآبائك كما في هذا اليوم. وإن نسيت الرب إلهك وسرت وراء آلهة أخرى وعبادتها وسجدت لها فأنا شاهد عليكم اليوم بأنكم تهلكون هلاكا»[747]. وفي تعاليم المسيحية نجد عبارات تذكر يسوع: «ثم أخذ خبزا وشكر كسره وناولهم إياه وقال: هذا هو جسدي يُبذل من أجلكم. اصنعوا هذا لذكري»[748]، ما جعل الذاكرة المسيحية تنحو أساسا نحو إحياء ذكرى يسوع، سنويا في الشعائر التي تحتفي بذكراه، وتحتفي الذاكرة المسيحية الشعبية يوميا بالأفخارستيا التي تستقر في القديسين والأموات[749]. وتناقصت عملية تذكر الأموات في أوربا خلال عصر الأنوار ما وصف بـ«حذف الموت».[750]وتوجد نصوص في الدين الإسلامي تؤكد على حفظ الذكرى، «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين».[751]

يعرف دوركهايم Durkheim وموس Mauss وإلياد Eliade الفضاء المقدس بمثابة عنصر قار ضمن بنية الوعي البشري لا اعتباره مرحلة من مراحل التطور التاريخي، ويرتبط مع المجال ببعديه الجغرافي والاجتماعي، كما أسس لبناء الهوية المشتركة، وتراكمت الهوية المجالية بمشهد ثقافي، ساعد على بروز المواسم والاحتفالات والتجمعات الاحتفالية التي شكلت مناسبات لزيارات الأضرحة، وإعادة تملك المجال من خلال تشييد المزارات، والتردد عليها جماعة. وتعد كرامة الأولياء حماية للمجال، وهو دليل على ضعف المؤسسة القضائية، ويصعب هنا الفصل بين الخرافات والمعتقدات الشعبية والحكايات الشفهية والمعطيات التاريخية الثابتة.[752]

تتحدد المباني التي تزاوج بين الوظيفة الدينية والتربوية والاجتماعية في ثلاثة أنماط أولها المساجد[753]، وهذه نوعان، مساجد الخطبة التي تؤدى فيها صلاة الجمعة، «ثامزيذا

---

747 -سفر تثنية الاشتراع، الأصحاح، 8، صص..19-18

748 -لوقا، الفصل **22**، ص..19

749- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..129

750- نفسه، ص..149

751 -القرآن الكريم، سورة الذاريات، رواية ورش، الآية .55

752- لطفي عيسى (2015)، **بين الذاكرة والتاريخ في التأصيل وتحولات الهوية**، أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص..132

753- كان التعليم يتم بالمساجد عن طريق تلقين الأولاد القرآن من قبل الفقهاء، ويحظون بعطلة مدتها عشرون يوما بمناسبة كل من عيد الفطر وعيد الأضحى، وعشرة أيام خلال عاشوراء وأسبوع بمناسبة حاكوز. وتدفع الأسر الشعير والزبيب والزيت للفقيه المدرس، ويتحدد راتبه السنوي في مائة مد من الشعير، وحوالي 18لتر من الزيت، وما بين 20 إلى 25 مد من الزبيب، وقدر من الزبدة بالنسبة لمالكي البقر، ويمنحه التلاميذ قدرا ماليا يختلف من عطلة لأخرى قبل العطلة. وبالنسبة لحاكوز وعيد المولد النبوي يسلم له الأكل المتكون من الدجاج والعسل والزبدة والأطباق المختلفة. يستمر التلاميذ بالمسجد لكنهم يتخلصون من الجلابيب الخاصة بالدراسة ويستبدلونها بقمصان جديدة بأحزمة ملونة، ويتجولون بين المنازل ويرتلون القرآن في كل

نجخوظبث» وتهم قسمات بكاملها، وتتميز عن مساجد المداشر الأصغر حجما «ثامْزادْجوث»، وهي النمط الثاني، برفع علم أمامها، أخضر اللون صباحا وأبيض مساء. وتشكل الأضرحة «إمْروبظا»، النوع الثالث، وقد تكون على شكل بنايات بحجم ما أو مجرد كومات من الحجارة، أو أماكن لا تحمل أية إشارة لكنها معروفة لدى الساكنة، ويفترض أنها قبور للأولياء أو أماكن مرتبطة بقدرات خارقة أو كرامات كالصخور والعيون ومجموعات أشجار. ولكل من هذه الأنواع وظيفة خاصة. تبرع سكان الريف في بعض الأحيان بأراضيهم للفضاءات المقدسة وعمل بها فقراء القرى أحيانا وخصصت للدفن في أحيان أخرى، وكانت بمثابة مأوى للمسافرين من قرية لأخرى. لم يكن العرب يحظون في الماضي بنفس الترحيب في هذه المساجد والأضرحة مقارنة بالزوار الريفيين، أما اليهود والنصارى فلم يلجؤوا إلى مثل هذه الأماكن، وإن حدث أن زاروها فسيرمى اليهود بالحجارة والنصارى بالرصاص حسب راي كارلتون كون. ومن الجدير بالذكر بخصوص الأضرحة احتماء القتلة بها، حيث يمنع إلحاق الأذى بهم طالما وجدوا بداخلها.[754]

دافع اتحاد القبائل على الدين الإسلامي قبل تشكل فكرة الوطن، ومن معتقدات الريفيين أن الجنة تحت ظلال السيوف، والشهيد المدافع عن دار الإسلام تقام له حفلات وأعراس، وتحترم عائلته ولو كان من قبائل ذات عداوة. وقد تمت تقوية الوازع الديني بواسطة شيوخ الزوايا المنتشرة في ربوع الريف[755]. اعتنق سكان الريف الدين الإسلامي منذ تاريخ مبكر يعود إلى عهد إمارة النكور، ورغم ما لاحظه گيريلي من نقص في التدين في إبقوين[756]، وأيث توزين مثلا[757]، مبرزا إيمانهم بالخرافات وما أطلق عليه الجوهر الوثني الذي يطبع هذا التدين، إلا أن الريفيين تبنوا الدين الإسلامي الذي يعني بالنسبة إليهم التقوى والورع، «وحظي بقبول كامل من طرفهم، إلى درجة أصبح معها أي تلميح إلى وثنية الأمازيغيين في هذه المنطقة، وربما أكثر من أية منطقة أخرى، هو نسيج من وحي الخيال»[758]. انتشر تحفيظ القرآن في قبيلة أيث توزين، في الزوايا الثلاث، سيدي يحيى ببني حسن وسيدي احمد بوزيان بميظار وزاوية سيدي

بيت يتقفون عنده ويعطونهم أصحابها البيض والدجاج وغيرها من المواد الغذائية. وخلال الأعياد يحتفلون ويلعبون، وعند إتمام حفظ القرآن تقام لهم حفلة ووليمة تعرف بـ»زفاف الستين حزب«، أو »ارْخيتمث«، حيث يذبح والد الطالب بقرة أو رأس ماشية أخرى، ويأتيه أهل القرية بهدايا عبارة عن أكل، خاصة الشاي والسكر والشموع. ويرتكز هذا النمط من التعليم على تعلم الكتابة والحفظ ومبادئ السحر ونسخ المخطوطات بالعربية والأمازيغية، وتتمحور حول موضوع الدين والسحر وقلما نجد التاريخ والجغرافيا. ويكمل الطلاب أحيانا تدريسهم بثمسمان أو بني زروال أو القرويين بفاس لامتهان القضاء مثلا. وقد عرف عن الريفيين المتوجهين إلى مناطق أخرى للدراسة حفاظهم على آداب السلوك والأخلاق دون التخلي عن المرح، لكن بعيدا عن أشكال الانغماس في اللواط أو الإدمان على الحشيش. انظر:

- Stevens Coon Carleton,*Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 114-116.

- أنشأت الحماية الفرنسية مدارس حديثة بقبيلة إگزناين عرفت سنة 1943 تسجيل أبناء الجهاز المخزني وكان عددهم في البداية 12 تلميذا، إلى أن بلغ عددهم 63 تلميذا، وعمل بها أساتذة متطوعون كانوا يتقاضون 500 فرنك للشهر وهو راتب زهيد. انظر:
- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p.13.

[754]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 112-113.

[755]- لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم...، م.س.، ص. 95.

[756]- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. ص. 102-99.

[757]- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, pp. 56-57.

[758]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 345.

بوجداين المحاط بقبور سبعة أحفاده، وله زوار من خارج القبيلة[759]. وتعتبر إيگار ما)ر(واس بنفس القبيلة قبلة الطلاب، يتعلمون فيها مبادئ الحساب، والعلوم الدينية[760]. وأنتجت أيث بوفراح أيضا فقهاء نصوحين في الدين الإسلامي بحثوا في أصوله، وحثوا على التحلي بالقيم الحسنة.[761] واعتنق سكان أيث عمارث الإسلام كباقي القبائل الريفية واحتضنت بدورها مساجد كفضاءات للعبادة وتحفيظ القرآن.[762]

لم تشتهر قبيلة إگزناين بشدة التدين[763]، لكنها كباقي القبائل الريفية الأخرى كانت بها مساجد صغيرة في كل مدشر بالإضافة إلى مدشر الخطبة على مستوى القسمة. استعملت المساجد للصلاة ولتحفيظ القرآن للأطفال من طرف فقيه المسجد نفسه، فكان كل مسجد يحتضن ما بين عشرة وأربعين متعلما يتوقف أغلبهم عن حفظ القرآن عندما يصبحون في سن الرعي.[764]

تقبل سكان ثمسامان الإسلام بسهولة، والأمر نفسه بالنسبة لأيث ورياغر واجبالة[765]، وهذا ما يمكن استنتاجه من خلال انتشار التعليم القرآني واحترام الشرفاء، ما جعلهم على صلة بالشرع، وارتباط الجماعة الممثلة للعرف بالمسجد، واعتبار يوم الجمعة يوما استثنائيا.[766]

يعتبر الريفيون مسلمين قولا وفعلا، غير أن الاعتقاد بالأولياء وكراماتهم أمر سائد، فتتم زيارة مختلف الأضرحة والمزارات للاستشفاء، ويعالج المس من الجنون أو السحر مثلا عبر المرور عبر شق حجري ضيق، وهو ما نجده في رالا مريقة بإبقوين وسيذي بوخيار بأيث ورياغر[767]، وسيذي شعيب أومفتاح بقبيلة ثمسمان التي تسمى فيها هذه الكوة «ذبو)ر(جوث نوزرو»، أي النافذة الصخرية، ومن استطاع تجاوز مخاوفه والمرور عبر الفجوة يتخلص من علته، ويعتبر الإسلام في الريف دينا مرنا يتعايش مع الأعراف المحلية فيقبل أن تذهب المرأة

759- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu...,* op. cit., p.116.

760- Ibid, p.113.

761- عبد العزيز أبو محمد البوفراحي .(ت899هـ)، مخطوط: **الأمر المهم الأكيد فيما يلزم الإنسان من حسن الجواب والتسديد،** تراث هذا العالم حفظه أهل سوس جزاهم الله خيرا، ففي خزانة أزاريف ثلاث مخطوطات، وهذه من خزانة خاصة لمحمد علوان، والحنفي مولود، ص..154

762- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu…,* op. cit., p.126.

763- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel*, Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien, sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée 1ère partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941 p.10.

764- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo, Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p. 7.

765- تنتمي بني عروس إلى قبائل جبالة التي تعربت منذ أمد بعيد لكنها احتفظت بالأسماء الأمازيغية سواء بالنسبة للطوبونيميا الجغرافية أو أسماء المؤسسات كالمسجد مثلا، وكانت قبلة للريفيين الراغبين في مواصلة اكتساب العلوم الدينية. تحتضن أكثر من مائتي ضريح للصلحاء والشرفاء. انظر:

- Valentín Benéitez Cantero(1953), *Miscelánea Costumbrista de Beni Aaros,* A.I.E.A ., N° 22, p. 15.

766- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Fiche N° 1522/2.0, Confidentiel, Le Colonel Georges Chef du Territoire de Taza, Fiche de tribu Gzennaia, Cercle de Tainast, 17 Octobre 1952, p.22.

767- عندما سلب قطاع الطرق الورياغليين صاحب رحلة «اكتشاف المغرب » أمروه بتسليم أمتعته وإن لم يفعل سيذبحونه مستحلفين بسيدي بوخيار »وحق سيذي بوخيار«. انظر:

- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu...,* op. cit., p.94.

إلى الضريح لتنجب ويستوعب نوافل الطريقة الدرقاوية. لذا فتقديس الأولياء ظاهرة عامة، حيث يتحدث موليبراس عما يزيد عن مائة وعشرة أضرحة في إبقوين مثلا.[768]

يشير كارلتون كون من خلال حديثه عن الدين في الريف إلى أنه مزيج من الدين الإسلامي، باعتباره الدين الرسمي السائد، وعناصر وثنية وأخرى مرتبطة بالديانتين اليهودية والمسيحية، ربما كانت قائمة في المنطقة قبل مجيء الإسلام. وتبنى الريفيون الإسلام السني بحكم اعتناقهم لهذا الدين عن طريق بني صالح المتشبعين بالمذهب المالكي. وكانت خطب الجمعة في الريف تتمحور حول المواضيع الواردة في القرآن والحديث، بالإضافة إلى انتقاد السلوك المشين أو الحديث عن أمور الحياة العادية كحالة الزراعة مثلا. وكان الحضور لأداء صلاة الجمعة يقتصر على البالغين المتزوجين بالخصوص وبعض النساء العجائز اللواتي يصلين في غرفة منعزلة بعيدا عن أنظار الرجال. أما باقي النساء فلا يصلين في الغالب، وإن حدث أن قررت إحداهن الصلاة فيكون ذلك في منزلها. تفضل النساء بالمقابل إعداد الطعام في مناسبات محددة وتناوله مع أبنائهن في أحد الأضرحة. وتعكس الأساطير المرتبطة بالدين الشائعة في الريف هذا المزيج من العناصر المختلفة فتتحدث عن ابتلاع الحوت لسيدنا يونس، ونزول سيدنا عيسى في آخر الزمان وعودة سيدنا علي بسيفه المشهور، لكن في صورة شخص بهوية غير محددة سينزل من السماء من جهة الشرق في زمن لن يكون فيه سوى العشر من المسلمين والمسيحيين وسيقضي عليهم لينشر الدين الصحيح. وقد أورد من بين الأساطير الشائعة في الريف واحدة عن سيدنا آدم امتزجت بقصة سفينة نوح، ويروى أن آدم صنع قاربا لينجو من الفيضان وحمل معه زوجته وابنته وكلبته وقطته وحمارته، بالإضافة إلى سبعة رجال. وعندما رست السفينة فوق جبل اختلف الرجال حول من يتزوج بنت آدم وتحول الخلاف إلى قتال، فقلق سيدنا آدم واحتار كيف يحل المشكلة. قضى الليل يصلي ويردد الدعاء «فاتْحة»، وفي الصباح وجد سبع بنات متشابهات يستحيل التمييز بينهن بدل واحدة، في حين اختفت الكلبة والقطة والأتان، فاستنتج أن كل حيوان تحول إلى فتاتين. تزوج الرجال بالبنات السبع وأصبح كل البشر أو بني أدم ينحدرون منهم، وانقسمت النساء بالتالي إلى أربعة أصناف: المشاكسات والمشتكيات والمتدخلات في شؤون الغير، وهن المنحدرات من الكلبة، والماكرات والخادعات والغادرات، وينحدرن من القطة، والمغفلات والبليدات والخاملات وينتسبن إلى الحمارة، والهادئات والقديرات والمليحات والصادقات والأمينات، وهؤلاء ينحدرن من بنت آدم الحقيقية، وعددهن قليل بين إناث بني البشر.[769]

حظي الريفيون بشرف فردي يتعلق بالأرض والمرأة والمنزل، وشرف جماعي يخص مكانة القبيلة بين القبائل الأخرى، لذا أصبح الشرف المحرك الأساسي للمجتمع الريفي، ومن ضمن أهم الممتلكات الرمزية. حضرت البركة بقوة أيضا في المجتمع الريفي حيث عملت على إحلال السلم والشفاء من الأمراض، وساهمت في تأكيد سلطة الشريف في التحكم في عالم فوق الطبيعة، وترتبط سلطة البركة بالعنف الرمزي. وتشكل المعادلة الميكانيكية المبنية على عناصر الشرف والعنف والبركة أساس المجتمع الريفي، والبناء النظري الذي حدد التراتب

768- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu...,* op. cit., p.93.

769- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 146-147.

والصراع داخل المجتمع الريفي، وتتعزز البركة لدى الشرفاء كلما تمكن شريف من فض نزاع معين.[770]

اعتُبرت قسمة أشث عرو عيسى قسمة الشرفاء وزاوية التدين بقبيلة إگزناين، وتتضمن أكبر عدد من حفظة القرآن، ولم تختلط مع باقي عناصر القبيلة واحتفظت بخصوصيتها، ما منحها أهمية بين القسمات الأخرى[771]. وبقسمة أشث يونس بنفس القبيلة بلغ عدد الشرفاء الأدارسة 2109، لكنهم انصهروا مع عناصر مجموعة إگزناين، واشتغلوا فقهاء في مختلف دواوير القبيلة، وكانت زاوية سيدي علي بورقبة[772] الوحيدة التي تكتسي أهمية دينية ويحج إليها المريدون من خارج القبيلة قبل الحماية وتوقف نشاطها بعد ذلك.[773]

حظي إمرابظن، أي الشرفاء الذين ينتسبون إلى النبي بالتبجيل في الريف، وقد تعلو مرتبتهم فيصبحون من الأولياء إذا كانوا من أصحاب الكرامات أو حاملين للبركة، فيشفون المرضى ويتبرك بهم الأهالي، كما يتدخلون من أجل الصلح وفض النزاعات. ويكسبون رزقهم من خلال استغلال الرأسمال الرمزي الذي يتوارثه أبناؤهم، لكنهم يفقدون هذه الصفة المتميزة والبركة بمجرد المشاركة في النزاعات الدموية القبلية[774]، أو التعامل مع النصارى أو التصرف بشكل يخالف الضوابط الدينية. نذكر من بين أهم هؤلاء الشرفاء في الريف، الخمالشة الذين قدموا من فاس واستقروا في مختلف المناطق كأيث بونصار وأيث سدات وأيث بوفراح وأيث عمارث مثلا، علما بأنهم كانوا يتوفرون على زاوية في المنطقة الحدودية بين أيث عمارث وأيث مزذوي هي زاوية التفاح، وكان شيخ هذه الزاوية هو محمد ن صديق الذي قيل أنه فقد البركة في فترة من حياته لأنه تعامل مع الضباط الإسبان وربط علاقة ودية معهم.[775]

التحق بالريف عدد من الشرفاء وأتباع مختلف الطرق الدينية والزوايا واستقروا أو أنشؤوا فروعا لهيئاتهم في المنطقة، كما كان الحال مثلا بالنسبة للوزانيين في اسناذة والدرقاويين في

770- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..120

771- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Oulad Ali ben Aissa, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949, p.3.

772- من أهم الزوايا في قبيلة إگزناين، زاوية سيذي عيسى وزاوية سيذي حند أوموسى في قسمة أشث عرو عيسى، وتعتبر هذه الزاوية الأخيرة محج سكان قبائل الريف خاصة من أيث ورياغر، وزاوية سيذي علي بورقبة في قسمة أشث يونس. هذا بالإضافة إلى العديد من الأضرحة ذات أهمية أقل. انظر:

- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136*, Le Lieutenant Duhoo, Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p. 7.

773- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Anglada, Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Beni-M'Hamed, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949. p.2.

774- قُتل أب أحد إمرابظن العاديين بسبب نزاع دموي فاتجه الابن نحو ضريح شريف حقيقي قد يكون سيذي محند أوموسى، بهدف الصلاة من أجل أن ينال قاتل أبيه نفس المصير، غير أن القاتل لم يصبه مكروه، بل تجرأ وسأل ابن القتيل إن كان يصلي من أجل موته. رد الإبن بالإيجاب، واستل خنجرا وأغمده في بطن قاتل أبيه قائلا إن لم يرد الله عقابك سأفعل بنفسي. ويعتبر عامل المشاركة في النزاعات الدموية محددا يميز بين إمرابظن العاديين حاملي السلاح وإمرابظن الحقيقيين حاملي البركة. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 489.

775- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…*, op. cit., p. 148.

أشث يونس بإگزناين، والناصريين في أيث توزين الذين ينتمي إليهم سيذي بوجداين الذي كان من كراماته القدرة على التحدث مع الحيوانات، ويروى أن سلطان فاس سجنه يوما فنطقت بغلته قائلة: «هذا السلطان مجنون»، فذعر السلطان وأخلى سبيله. ونذكر من بين الشرفاء المستقرين في إگزناين أولئك المتواجدين في قسمة أشث عرو عيسى والمنتسبين إلى سيذي حند أوموسى الذي أُغمد سيف قديم في حائط ضريحه ويعتقد أن اليوم الذي سيستل فيه هذا السيف سينتصر المسلمون على النصارى ويطردونهم من ديارهم. وفي أيث عمارث، استقر سيذي عبد القادر أگناو بالمدشر الذي يحمل اسمه اليوم وأصبح ضمن المجال الترابي لأيث ورياغر، وهي القبيلة التي انتقل منها، والتي تتوفر على الآلاف من الشرفاء أو إمرابظن إلى درجة تكوين خمس من أخماس القبيلة. أما في ثمسمان فإن شهرة سيذي شعيب أومفتاح تجاوزت مستوى هذه القبيلة وأصبح ضريحه قبلة لكل من يود تعلم الموسيقى والرقص والغناء.[776]

أنشأت الطرق الدينية المعروفة فروعا لها في القبائل الريفية، ونجدهم في قسمة أشث يونس بالنسبة إلى إگزناين. وفي هذه القبيلة وبأشث عرو عيسى بالتحديد، نجد أحفاد سيذي حند أوموسى، أي سيدي أحمد بن موسى بن مشيش العلمي، وشرفاء آخرين في أشث يونس وأشث محند يعود أصلهم إلى الجزائر وتونس. غير أن القبيلة لم تشهد اشعاعا دينيا متميزا وافتقرت إلى الشخصيات الدينية الهامة. وقد اقتصرت الأنشطة الدينية ذات الإشعاع النسبي في الموسم الديني الذي كان ينظم في سيدي علي بورقبة ويحضره زوار من خارج القبيلة قبل أن يتوقف مع بداية الحرب ضد المستعمر.[777]

اكتسب العديد من رجال الدين والمتصوفة صفة الشرفاء أو إمرابظن دون انتسابهم بالضرورة إلى الدوحة النبوية، وارتفعت مكانة بعضهم لتصل إلى مرتبة الأولياء، وحظيت أضرحتهم بعد ذلك بمكانة خاصة في الريف، يحج إليها الزوار من أماكن بعيدة للتبرك والتداوي أو حضور المواسم المنظمة في الفضاء المحيط بهذه الأضرحة. وندرج كمثال المائة ولي وولية المدفونين في ثيقّيث بإبقوين الذين عرفوا بجهادهم ضد النصارى بعد احتلال صخرة بادس في القرن السادس عشر.[778]

أولى الأنثروبولوجيون أهمية كبرى للصلحاء ودور الوساطة الذي قاموا به داخل المجتمع للحد من النزاعات مستثمرين البركة التي تعتقد العامة أنهم يتوفرون عليها، وتخولهم سلطة رمزية، وتُعد هذه الوساطة عنصرا أساسيا لحفظ توازن السلطة القبلية بالاعتماد على البعد السوسيو-سياسي.[779]

تمتع المنتسبون إلى سلالة الأنبياء بالشرف والمكانة الاجتماعية، وإذا اقترنت هذه الصفة بامتلاك البركة والكرامات يصبح هؤلاء من فئة الأولياء. والملاحظ في الريف أن عدد الشرفاء

776- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 149.

777- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo, Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947. p.7.

778- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، صص. 168-167.

779- Azul Ramírez Rodríguez, «Los Santos..., op. cit., p.241.

الحقيقيين، أي الذين أثبتوا انتسابهم إلى النبي بغض النظر عن صحة هذا الإثبات، قليل جدا مقارنة مع عدد إمرابظن العاديين أو الشرفاء العاميين كما يسميهم هارت[780]، الذين يحملون لقب الشريف وإن لم ينتسبوا إلى الشجرة النبوية، وهي نفس ملاحظة گيريلي عن شرفاء إبقوين[781]، ومن أبرز هؤلاء الشرفاء العاميين الذين اندمجوا في الوسط الورياغلي نذكر، إحنّوذن القاطنين بأيث عزيز وأيث ارقاضي وأيث ابراهيم، والقادمين من غمارة، وأندروسن، أي الأندلسيون الذين يعيشون في أزغار بأيث يوسف أوعري، والذين جاؤوا من الأندلس، وإطْجّيون الذين يعيشون في أيث ابراهيم، وأصلهم غير معروف، وإمسناوين القاطنين بكمّون بأيث حذيفة، والمنحدرين من سيدي بوزكري، وأيث بواحمد الذين يعيشون في كمون بأيث حذيفة، وينتسبون إلى أيث عمارث، وذاروا نسيدي بوخيار الذين يقطنون قرب سيدي بوخيار، أشهر ولي بأيث ورياغر، ويقال أنه قدم من تلمسان، وإعزّوزن، القاطنين بزاوية سيذي عيسى، وأصلهم غير معروف، وإعبدكريمن الذين يشكلون قسما من أيث زاعة، وهي سلالة محمد بن عبد الكريم الخطابي في أجذير، وينحدرون من أحد فروع أشث عرو عيسى، أي من سلالة شرفاء سيذي حند أوموسى بإگزناين، وبالتحديد من سيدي عبد العزيز أوموسى ن سيدي عبد الحليم ن سيدي عيسى بن علي بن عيسى، وذاروا أومرابظ عري أو أيث ثيقشّارين الذين يقطنون بأيث توريرث، وينتسبون إلى شرفاء أشث عرو عيسى بإگزناين، وذاروا أومرابظ عمر القاطنين بأيث توريرث، وينتمون لشرفاء أشث عرو عيسى بإگزناين، وذاروا أومرابظ أرحسين الذين يقطنون بأيث توريرث، وينتمون بدورهم لشرفاء أشث عرو عيسى بإگزناين، وإمرابظن ن أيث بوخرف الذين يتكونون من ثلاث سلالات هي، أيث ذومريتش، وأيث تيزة أو ذاروا أومرابظ يوسف، وذاروا نياسين أو إصديقن، وقد قدموا من إبضارسن بالريف الشرقي.[782]

والجدير بالذكر أن الشرفاء في الريف يتوزعون على مجالات ترابية متعددة وينتشرون في أرجاء القبائل، كما لا يتم التمييز بين مصطلحي أمرابظ والشريف، لأنهما يعنيان نفس الشيء، أما المكانة والتبجيل وصفة الولي فهي عناصر يكتسبها الفرد بفضل ورعه وكراماته واستقامة سلوكه ودوره في إقامة الصلح بالإضافة إلى صفة الزهد واعتزال الناس وهو الأمر الذي تميز به ولي إگزناين "سيدي عيسى"[783]، ويلبي إمرابظن حسب بلانكو الحاجيات الروحية للريفيين، كما يسعون إلى عدم التورط في النزاعات للتمكن من أداء أدوار الوساطة والتحكيم، وتحقيق التمجيد الريفي للفرد ذاته مما يمنح الرفعة للمجتمع الذي لا يظهرون أبدا أي نفور تجاهه.[784]

عمل الريفيون العائدون إلى بلادهم على إدخال تعاليم الطرق الدينية المختلفة كالبخاريين والدرقاويين والناصريين والتيجانيين، حيث أصبح لها أتباع في أرجاء الريف. وكان هؤلاء «الفقراء» يرفضون الذهاب إلى الأضرحة ويجتمعون بشكل دوري في منزل مقدمهم للصلاة والذكر والإنشاد وتحريك أجسامهم بإيقاع منتظم مع تكرار عبارة «الله حي!». عُرفوا بتشددهم

780- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 522.

781- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. ص. 162.

782- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 521.

783- Azul Ramírez Rodríguez, «Los Santos…, op. cit., p.322.

784- David Montgomery Hart, *Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif...,* op. cit., p. 113.

وفتاوى التحليل والتحريم وحمل السبحات الثقيلة مع كثرة التسبيح ولم يكن يحظون باحترام كبير وسط الساكنة المحلية. ولم يكن في الريف في المقابل أتباع لعيساوة وهداوة، اللهم بعض العناصر التي كانت تزور المنطقة طلبا للصدقات.[785]

كان الريف سباقا إلى احتضان حركة التصوف وتأسيس الرباطات الدينية، إذ قامت الزاوية الحسونية بقرية أذوز بإبقوين منذ القرن الحادي عشر من الميلاد ،والتي كان لها علاقات سياسية مع الدولة المرينية، وأكدت الظهائر السلطانية الممتدة من الدولة السعدية إلى عهد محمد الخامس العلاقة الطيبة التي جمعت بين السلطة وهذه الزاوية[786]. وفي ثمسمان تأسست رابطة ثغلال من طرف المتصوف سيدي بو داود الذي تتلمذ على يد أبي مدين الشافعي[787]، ويرجع له الفضل في الإشعاع الديني الذي عرفته المنطقة خلال القرن الثاني عشر، على العهد الموحدي واستمر خلال العهد المريني. وكان من تلامذته الحاج أبو علي حسون الأذوزي الذي أصبح مسجد مدشر أذوز بإبقوين بمثابة زاوية تحمل اسمه ومركزا للتربية الدينية[788]. وبالجبل المطل على شاطئ مكرم بنفس القبيلة تأسست رابطة أم اليمن[789]. كما ظهر في هذه القبيلة عدد من الصلحاء ذوي الشهرة في مجال الإشعاع الديني، لعل أبرزهم الرجال السبعة وهم، عمران أمصول وأبو محمد المساري وعبد الملك الوجانسي وزكرياء بن يحيى وأحمد بن سوسان البوسكوري ويحيى بن مخلوف وعبدون بن يخلفتين[790]. أسس تلامذته رابطة أم اليمن ومسجدها أو زاويتها تجاوزا يوجد في رأس بوسكور القريب من الحسيمة وتسمى زاوية بوسكور، وقامت حركة سبعة رجال الذين كانوا من الصلحاء. وقد استقطبت المراكز الحضرية كمديمة بادس مثلا، متصوفة وشخصيات دينية من الأندلس وغيرها خاصة بين القرن العاشر والسادس عشر من الميلاد، واشتهر أقطاب الحركة الدينية بالريف فيما بعد، أهمهم أبو يعقوب البادسي، ولائحة طويلة برابطة بادس المسماة رابطة البحر.[791]

لعبت الزوايا دورا مهما في الريف لاسيما ابتداء من القرن الخامس عشر من الميلاد، عند انتقال البلاد من النظام الإمبراطوري إلى النظام الملكي، وادعى مؤسسو هذه الزوايا توفرهم على النسب الشريف وخولت لهم هذه الصفة امتيازات سياسية واجتماعية واقتصادية، ولعبوا دور الوساطة بين القبائل والسلطة المركزية، وبين القبائل فيما بينها. وقد سمح لهم الاحترام الذي حظوا به باستغلال الطبقات الشعبية من المجتمع الريفي، ومعارضة إصلاحات السلطة المركزية، واتخذ الريفيون أضرحتهم كملاذ إفراغ المتاعب اليومية، وتحولت أغلب الأضرحة

785- Stevens Coon Carleton, Tribes of the Rif…, op. cit., p. 147.

786- امحند البخلاخي(2006)، **الجوهر المكنون في عجائب أخبار ولي الريف سيدي الحاج حسون**، منشورات الصالون الأدبي لابن الريف، سلسلة التراجم 8 ،1 صفحات.

787- هو أبو داوود مزاحم بن علي بن جعفر بن سليمان بن علي ابن أبي عزيز بن أبي حوبيل بن ورترد بن يصليتن بن بطوي، مؤسس رابطة ثغلال الواقعة على ارتفاع 66م على سطح البحر، بساحل قبيلة تمسمان. انظر:

- عبد الحق بن إسماعيل البادسي (1993)، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، ، ص. 51.

788- علي بن أبي الحسن المراكشي، **كشف النقاب عن مناقب الشيخ الأواب الحاج حسون**، مخطوط خاص، بدون تاريخ. انظر أيضا:

- عبد الحق بن إسماعيل البادسي، المقصد الشريف...، م.س.، ص. 63.

789- نفسه، ص. 92.

790- نفسه، صص. 91 و93 و99 و120-122 و128.

791- نفسه، ص. 222.

إلى فضاءات مقدسة. وتنتمي الزوايا الريفية إلى ثلاث زوايا رئيسية هي، الزاوية التهامية أو الوزانية التي يوجد مقرها بمدينة وازان. تأسست خلال القرن الثاني عشر من الميلاد، وبلغت أوجها خلال القرن التاسع عشر من الميلاد. والزاوية الدرقاوية، ومؤسسها مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي دفين قبيلة بني زروال شمال فاس، وسببت متاعب لحركة محمد بن عبد الكريم الخطابي. والزاوية الخمليشية التي يوجد مقرها بترگيست، وصاحبها ولي صالح لا ينتسب للنسب الشريف، ورئيسها محمد الكبير لعب دورا سياسيا مهما خلال القرن العشرين، وتفرع عن هذه الزوايا مجموعة من الملحقات منها زاوية سيدي يوسف وزاوية سيدي عيسى.[792]

انتشرت بالريف العديد من الطرق الصوفية، واتبعها بعض من الريفيين، ومنهم من نظر فيها وفي إتباعها سدادا[793]، وعُرف الريف بالتصوف ونشأت به زوايا سميت بأسماء قبائله، وإن كانت تنتمي من حيث المذهب إلى زوايا أم من خارج الريف، ونذكر من ضمنها مثلا «الزاوية التوزينية» بقبيلة أيث توزين[794]، وهي نفسها الزاوية المرتبطة بسيذي بوجداين. وينتمي عدد كبير من الريفيين إلى الزاوية الدرقاوية، خاصة في إگزناين وأيث ورياغر وأيث عمارث[795]، وارتبط التصوف الريفي بالتصوف الإسلامي المغربي، وهو تصوف تقشف امتاز بالتكيف مع الحياة البدوية البسيطة، ولم ينقطع عن الواقع المعاش، وقد مارس المتصوف الريفي الزراعة وأمن عيشه واستمرار زاويته.[796]

---

[792]- لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم...، م.س.، ص. 98.

- بالنسبة للمعطيات التي وردت أغزادي تفيد في الجانب التاريخي، لكن من الإجحاف الحديث عن عدم صحة النسب الشريف للخمالشة الذي روج له الشرفاء الوزانيون بسناذة، وهو ما قاموا به ضد الشرفاء الوريا غليين أيضا. لا علاقة لزاويتي سيذي يوسف وسيذي عيسى بالخمالشة، اللهم تبني إمرابظن الوريا غليين للطريقة الشاذلية التي أخذت عنها الطريقة الناصرية التي اعتمدها الخمالشة. ابتدأت الطريقة الخمليشية في الريف في أيث بشير بصنهاجة اسراير قبل أن تنتشر في القبائل الأخرى المجاورة وتوجد أهم مقراتها في قبيلة أيث بونصار بزاوية القناطر وفي إسوژذاس، وقبيلة أيث مزذوي بزاوية التفاح وقبيلة أيث سدات وأيث خنوس وزرقت ببوغيلب التي يعتبرها البعض تابعة لترگيست. الزاوية الخمليشية الوحيدة التي يمكن اعتبارها من ترجيست هي تلك التي كانت موجودة في توريرت. لا أدري سبب الاقتصار على هذه الزوايا الثلاث وعدم ذكر الزاوية الناصرية باعتبارها الأصل بالنسبة للخمالشة، ولا الزاوية العَلّيوية المنتشرة في الريف باسم الزاوية العلوية المنشقة عن الزاوية الدرقاوية والتي ستتمخض عنها الزاوية البوتشيشية.

[793]-عبد العزيز أبو محمد البوفراحي ت899هـ، مخطوط: **رسالة تعريف المريدين لطريق التوفيق والخذلان وتعاطي كل ما فيه استعاذة والبعد عن الشنآن**، تراث هذا العالم حفظه أهل سوس جزاهم الله خيرا، ففي خزانة أزاريف ثلاث مخطوطات، وهذه من خزانة خاصة لمحمد علوان، والحنفي مولود، ص..1

[794]- أحمد الوارث، «من تاريخ التصوف المغربي: الزاوية التوزينية بالريف الشرقي» ،**مجلة التاريخ العربي**، العدد التاسع والأربعون، الرباط، 2009، ص. 207.

[795]- دايفيد مونتگومري هارت، القانون العرفي الريفي...، م.س.، ص. 31.

[796]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. ص. 223-222.

واتبع الريفيون عدة طرق أهمها الناصرية المسماة بالخمليشية في الريف[797]، والطريقة الوزانية[798]، والطريقة الحسونية[799]، وعرف الريف نشأة متصوفة ريفيين أبرزهم؛ محمد عبد المجيد بن أبي القاسم البادسي المتوفى عام 1004هـ أشهر المتصوفة[800]، الذي عرف بالزهد والورع في التصوف[801]، وينتمي لقبيلة بني يطفت من الريف الأوسط[802]، وبالضبط إلى عائلة إعاراصن التي كانت تحكم في الريف نيابة عن المخزن المركزي وكان منهم قواد متميزون، كانت لهم أدوار سياسية مهمة[803]، ذهب إلى فاس طالبا للعلم[804]، وكان له أصحاب وأتباع ومريدون كثر وكرامات.[805]

يتفاوت عدد أتباع كل طريقة في القبائل الريفية، ففي إبقوين مثلا، نجد بالإضافة إلى أتباع الزاوية الحسونية بأذوز، مريدين ناصريين تابعين للزاوية التوزينية بضريح سيذي بوجداين، ويحتفظ هؤلاء براية طريقتهم في مدشر إعثمانن. يليهم من حيث العدد أتباع الزاوية الوزانية بسناذة، ثم الدرقاويون أخيرا بعدد قليل[806]. أما في إگزناين فعدد أتباع هذه الطرق يتوزع حسب تقرير للضابط فوجيانVaugien سنة 1941 كالتالي: 1205 من الدرقاويين، و155 من التيجانيين، و887 من الناصريين، و39 من القادريين، و98 متصوف من الوزانيين[807]، وحسب الإحصائيات الفرنسية خلال يناير 1947، كان لهذه الزوايا مقدمَين، الأول خاص

---

[797]- تنتمي الطريقة الناصرية 983هـ/1575-76م إلى الطريقة الشاذلية الجزولية، وسميت بالخمليشية في الريف نسبة إلى أحد أنصارها أخمليش الصنهاجي، أحد أتباع عبد العزيز التباع الجزولي، ودفين المزاب برأس العين الشاوية خلال القرن 11هـ، وكانت وفاة جد للخمالشة بالجنوب بداية حياة الخمالشة بالريف، وعرف الريف انتشار فروع الخمالشة، إذ تردد على المنطقة أزيد من أربعة وعشرين شيخا لهذه الطريقة، انظر:

- أبو عبد الله الكتاني محمد بن جعفر بن إدريس (2004)، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ج.3، ص. 151.

[798]- تأسست الزاوية خلا القرن 17م بوزان على يد عبد الله بن شريف، وانتقلت بعد قرن من الزمن إلى الريف وبالضبط قبيلة بني كميل التي كانت متشبعة بالطريقة الخمليشية، الأمر الذي جعلها تغير الوجهة نحو بني يطفت، انظر:

- محمد المنصور(1989)، «تصوف الشرفاء المنصور»، **تصوّف الشّرفاء: الممارسة الدّينيّة والاجتماعيّة للزّاوية الوزانيّة من خلال مناقبها ،التّاريخ وأدب المناقب**، منشورات عكاظ، الرّباط، ص. 15.

[799]- أسسها الحاج علي بن حسون الأدوزي 6هـ/12م، وظلت قائمة طيلة هذه الفترة محافظة على مهامها الدينية، وجل أتباعها تجمعهم قرابة دموية مشكلين أسرة كبيرة لها إرث ديني، أنظر:

- عبد الحق بن إسماعيل البادسي، المقصد الشريف...، م.س.، صص. 64-63.

[800]- محمد الشراط بن عيشون(1997)، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، تحقيق زهراء نظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ص. 179.

[801]- محمد القادري بن الطيب (1977)، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي-أحمد التوفيق، دار المغرب، الرباط، ج.1، ص. 49.

انظر أيضا:

- محمد الإفراني بن الحاج (2004)، **صفوة من انتشر في أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 83.

[802]- محمد الشراط بن عيشون، الروض العطر...، م.س.، ص. 281.

[803]- عبد السلام ابن سودة(1997)، **سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال**، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ص. 29.

[804]- محمد الإفراني بن الحاج، **صفوة من انتشر...**، م.س.، ص. 83.

[805]- أبو عبد الله الكتاني محمد بن جعفر بن إدريس، **سلوة الأنفاس...**، م.س.، صص. 134-132.

[806]- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، صص. 168.

[807]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien, sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée 1er partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941. p. 10.

بالزاوية التيجانية هو السي عمر بن أشهبون من دوار ذاغيراست، والثاني بالزاوية الناصرية هو الحاج الهادي من دوار أولاد زيان[808]. وفي تقرير آخر للملازم دوهو Duhooسنة 1946م، ورد أن عدد الدرقاويين يفوق ألف مريد تابعين لشيخ الزاوية الدرقاوية سيدي الحاج ميمون بقبيلة أشث سعيد بالريف الشرقي، التابع لشيخهم الرئيسي السي بوبكر ببني زروال، وأن قسمة أشث عرو عيسى بها نحو مائتين من التيجانيين وعدد آخر من قسمة أشث يونس تابعين لشيخهم السي أحمد التيجاني بفاس، وأن عدد الناصريين بقسمة أشث عرو عيسى وبدوار ثاغيراست بقسمة أشث يونس، بلغ نحو مائة متصوف وكان شيخهم بقسمة أشث محند بدوار أولاد زيان، وشيخهم الرئيسي بواد درعة. وقد تقلص عدد هؤلاء بعد التهدئة، وقلت عدد الزيارات والحج وتقديم القرابين والهدايا، ومن وجهة نظر أخرى تقلص عددهم نظرا لصعوبة جمع الأموال الكبيرة المفروضة من طرف المخزن.[809]

كان الدرقاويون بقبيلة إگزناين من أتباع زاوية مولاي العربي بتافرانت التابعة لسيدي البودالي بالجزائر، أو سيدي محمد بن حبيب الفيلالي الذي كانت تخصص له زيارتان كل سنة ببويسري بقسمة إشاوين، وكان الدرقاويون يقومون بدعايات واسعة لكسب عدد أكبر من الأتباع، حيث كانوا يقيمون الموسم الكبير ببني زروال لتقديم الزيارات. أما بالنسبة للتيجانيين فقد كانوا تابعين لزاوية سيدي احمد التيجاني بفاس، ولم تكن دعايتهم على نطاق واسع. وكان الناصريون يحجون إلى زاوية سيدي أحمد بن الناصر بدرعة. وبالنسبة إلى العلويين فقد كانوا يحجون إلى زاوية سيدي محمد بن عليوي بالجزائر وكان أتباع هذه الطريقة الدينية غالبا من العمال في الجزائر.[810]

انتشرت العمارة الدينية بالريف عامة والأوسط خاصة ولعبت أدوار المدارس والمساجد في آن واحد، أهمها مسجد أذوز[811]. يتضمن المجال خرافات عجائبية رافقت المسالك الروحية، والمعد لمزاولة الأنشطة المادية، وربطت الذاكرة بين مسارات بشرية بمجالات اكتسبت رأسمالا رمزيا من خلال ارتباطها بأسماء ذات رمزية سامقة، لتصوغ «جغرافيتها الثقافية»، علما أن التاريخ الثقافي يحظى بعناية متزايدة قياسا ببقية المجالات الأخرى.[812]

زاوجت المباني الدينية بالريف بين التعاطي للدين الإسلامي من خلال المساجد، والارتباط بالخرافة من خلال الأضرحة، وهو الأمر الذي سرى على جميع مقومات التدين بالريف الذي اكتسى طابعاً خرافياً وارتبط بما هو غير معتاد في الإسلام.

808- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo, Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Taghzut, Le 15 Mai 1947. p.10.

809- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Rapport N° 82, Confidentiel, Le Lieutenant Duhoo chef de poste des Affaires Indigènes, Cercle du Haut M'soun, poste du Tizi ouzli, 10 Octobre 1946, p.1.

810- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Rapport N° 82, Confidentiel, Le Lieutenant Duhoo chef de poste des Affaires Indigènes, Cercle du Haut M'soun, poste du Tizi ouzli, 10 Octobre 1946, p.1.p. 3.

811- صباح علاش(2015)، "المساجد/ المدارس بالريف نموذج أذوز بإبقوين"، ضمن ندوة: المدارس العتيقة بالمغرب: دور القبائل في التدبير والتمويل، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص. 51.

812- لطفي عيسى، بين الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص..118

ثانيا: المعتقدات السحرية والخرافية

ارتبطت الحياة المادية للقبائل الريفية بالمعتقدات الخرافية بوجود الجن؛ الأشرار منهم والأخيار، الأمر الذي جعل لميلاد الأطفال طقوس خاصة يرجى من وراءها إبعاد الأرواح الشريرة، والإبقاء على الخيرة، تلجأ من خلالها الأم إلى مجموعة من التعاويذ لإبعاد العين اللامة.[813]

يعتبر السحر الوجه الثاني للعملة التي يمثل فيها الدين الوجه الأول، الذي يعتبر في الريف مجالا رجاليا مفتوحا، في حين يعتبر السحر مجالا نسائيا منغلقا، ويجمع بينهما «الطارب» (حافظ القرآن) أحيانا. ولا نجد أنواعا متعددة في السحر بالريف خلافا لمناطق المغرب، إذ تسمى كلها «ذيمكًا» أي عمل سحري، والسحر المرتبط بالفقيه يسمى «ذيرا»، أي الكتابة، والسحر الذي تمارسه النساء بواسطة الأعشاب وما إليه يصنف ضمن السحر الشيطاني حسب التصنيفات الغربية. يستعمل السحر عبر تعليق التمائم «رحروز»، ولأغراض متعددة منها العين وجلب الحبيب والعلاج من المس وما إلى ذلك، وأبرز نوع هو «التهجيج» الذي يحتاج الحصول على خصلة شعر أو جزء من الثياب يسلم للفقيه أو الساحرة «ذازوهريث» للقيام به، ويعلق على غصن شجرة لتحركه الرياح وبالتالي يعطي المفعول.[814]

لجأ الريفيون إلى عملية «تقاف» حين يغرم شاب بفتاة يزوجها والدها لغيره، إذ يحول «تقاف» دون وقوع أي علاقة جنسية بين الطرفين، ويطلقها فور زواجها، ليفك «ثقاف» من عند نفس الفقيه. ويتعرض الذكر لنفس التقاف عن طريق غلق شفرة مدية بمجرد أن يجيب عند مناداته باسمه. من أنواع السحر أيضا ذلك الذي يروم تمديد مدة الحمل، ويتم عن طريق التعاويذ أو تناول الحلتيت أو أعشاب أخرى أو مجرد استنشاق دخانها. استنشاق دخانه، والشائع في الريف أن الدخول في البحر يبطل السحر، ما يجعل البعض يضع التعويذة في قطع جلدية أو قطعة خبز.[815]

ارتبط السحر في المجتمعات الزراعية بموسم الحرث والحصاد أما عند أيث ورياغر، فتقوم النساء اللائي يربين الأبقار، بشراء تميمة مكتوبة على الرصاص، يتم تثبيتها على الوتد الخشبي الذي تعلق عليه جرة من الطين مخصصة للحليب (أقشرور)، وفي اعتقاد الورياغليات أن هذا الطقس يقي من أذى الأعمال السحرية طيلة السنة الجديدة.[816]

يميز كارلتون كون بين أربعة أنواع من السحر في الريف، ويرتبط الأول بالبركة ضمن الكرامات التي يتوفر عليها الشرفاء، والثاني بالتعاويذ التي يحررها الفقهاء وحفظة القرآن

---

[813]- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. ص. 115.

[814]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 247-248.

[815]- نفسه، صص. 248-249.

[816]- Edward Westermarck(1968), *Ritual and Belief in Morocco*, University Books, New York, 2ed Volumes, p. 169.

وتستند إلى المصحف الكريم، والثالث برقى مكتوبة أيضا لكنها تستحضر الجن، ويتمثل الصنف الرابع في السحر الذي تمارسه العجائز.

وتُمكن البركة صاحبها من قدرات خارقة تسمح له بالتنبؤ بالمستقبل والقيام بأفعال خارقة والشفاء وإلحاق الأذى بمجرد اللمس، أو استعمال أشياء تخصه كقطعة من ثيابه أو أخرى لثمها ككسرة خبز أو بيضة. أما التعاويذ المكتوبة، أو «ذيرا» التي يعدها حفظة القرآن اعتمادا على آيات ومفردات محددة ينسخونها من هذا الكتاب المقدس. ولكي تحقق المرغوب يُشترط أن تُكتب بحبر خاص يسمى الصمغ، أو بدم الهدهد أو البومة أو الوطواط، وذلك على ورق عادي أو عظام الثعلب أو القنفذ أو ناب الخنزير البري أو أوراق الزيتون أو الدفلى أو عيدان من شجر الزيتون البري أو الرمان، أو القصب أو البيض أو ورقة من معدن الرصاص. يشترط أيضا الحصول على شعيرات من المعني بالتعويذة لتعليق الحرز بالشجرة، أو قطعة من ثيابه لتغليف التميمة. ولكي يصبح للتعويذة مفعول فيمكن أن يُشرب سائلها بعد غمسها في الماء أو يُستنشق دخانها بعد إحراقها أو تناولها بعد مزجها بالطعام أو دفنها أو تعليقها على أغصان الأشجار أو حملها كحرز يحمي صاحبه من المرض والخطر أو يحقق له رغبة محددة. وتختلف طبيعة التعويذة وطريقة الاستعمال حسب الهدف المنشود، فيُستنشق مثلا دخان تعويذة أوراق الدفلى لعلاج الملاريا، وتمرر البيضة على محجر العين لعلاجها من الرمد، وتحمل التعويذة المكتوبة على ورق الرصاص لحماية صاحبها من رصاصات العدو أو صاحبتها من تعنيف زوجها الجسدي في حالة اكتشاف خيانتها. ومن المعلوم أن التعاويذ تفقد مفعولها إذا عبر حاملها مجرى مائيا، وأن كتابة التمائم التي تلحق الأذى بالغير تبقى سرية وقد تعرض الفقيه إلى الطرد إذا انكشف أمره. وتتميز تعاويذ الجن، أو «ذيرا نجنون» عن السابقة باعتمادها على كتب السحر بالإضافة إلى الآيات القرآنية، وتعمل على استحضار الجن، وتروم إلحاق الأذى في الغالب، كاستخراج الكنوز المدفونة، أو إيجاد الممتلكات المسروقة، أو التسبب في العجز الجنسي أو منع العلاقة الجنسية بين الزوجين للحصول على الطلاق[817]، أو التحايل والغش، مثل تزوير العملة.[818]

سحر العجائز أو «اسْحور» بالمقابل، لا يتضمن كتابة التعاويذ وتمارسه النساء المسنات وحدهن، ويقتصر على طقوس تتسبب في تحقيق رغبات النساء بالخصوص، كالعجز الجنسي لدى شاب رفض الاقتران بفتاة محددة واختار أخرى، فتنتقم منه والدة الفتاة المخذولة عبر دعوة الشاب إلى المنزل ولدى حضوره تضع قليلا من الصوف غير المغسولة وسط ممشطين أو «أقا(ر)ضاش» وتناديه باسمه ثلاث مرات، وكلما أجابها تطبق الممشطين ثم تضعهما فوق إحدى الرافدات في البيت، هكذا لن يتحقق لديه الانتصاب وسيبقى عضوه رخوا كالصوف المحبوسة بين الممشطين، وهذا طيلة مدة بقاء الممشطين فوق الرافدة. وعادة ما تتنافس العازبات خلال حفلات الأعراس وتحاول كل مجموعة إبراز مهاراتها في الرقص والغناء،

817- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 157-161.

818- من الخدع السحرية التي شهدتها المنطقة ما قام به فقيه من إخوانن بإگزناين، حيث كان يحول ورقة عادية لورقة من فئة 100 بسيطة يصرفها بسوق أربعاء ثوريرث بالمنطقة الإسبانية، وبعد أن انكشف أمره قام قدمت السلطات الإسبانية شكوى لمكتب الشؤون الأهلية ببورد، وحكم عليه بالسجن، ما يوضح أن حدود فرنسا وإسبانيا في الريف الأوسط كانت أيضا مقرا للغش والتحايل بالإضافة إلى التهريب. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 249.

وعندما يصل حسدُ مجموعةٍ ما حد الرغبة في التخلص من المنافسات، تقوم عجوزٌ من عائلة إحدى المجموعات بمضغ الملح والزيت ثم البصق على النار المستعملة لتسخين الدفوف، مما يتسبب في إثارة الخلاف بين عازبات المجموعة المنافسة ومغادرتهن للحفل.[819]

يورد هارت بدوره بعض ممارسات السحر لدى النساء في منطقة أيث ورياغر بالخصوص، علما بأنها تتشابه في الريف الأوسط عموما، ولعلاج سحر الثقاف أو الربط لدى العازبة تقوم بارتداء ثياب بالية والاتجاه إلى البحر لإحراق جناحي غراب وحرباءة وجمجمة سلحفاة مع قليل من البخور. وتلجأ النساء إلى السحر لعلاج حالات العقم أو تجنب الحمل أو درء الأذى والحسد والعين اللامة.[820]

تسود في أيث ورياغر أيضا طقوس دون أساس سحري بل خرافي، فحين يتزامن هطول الأمطار مع حفلات الزفاف ترغب النساء في توقفها فتقوم العروس بوضع الكحل حول عيني القطة، وتغرس إبرة في البيدر، وتضع هناك مرآة موجهة نحو السماء لتعكس أشعة الشمس.[821]

يعتقد الريفيون بوجود الجن لثبوت الأمر دينيا وورود ذكرهم في القرآن، وفي اعتقاد الناس في إگزناين، كما في باقي المناطق الريفية أن الجن يأخذون صفة بنات آوى لحراسة كنز الكهوف، وأنه بإمكانهم تقمص كل الصفات، ويصيبون الناس بأمراض الحمى والصرع والنزيف الدموي. ويعتبر الريفيون أن الأضرحة والمقابر خالية من الجن، مقابل ارتيادها للأماكن المهجورة. وعلى غرار باقي مناطق المغرب فالجن أنواع خيرون وشريرون ولهم ألوان، ولا يذكرون بأسمائهم لكي لا يحضروا فعلا، ويعشقون الدم والماء ويكرهون المعدن والملح. يهدد الجن الأطفال حديثي الولادة، خصوصا الجنية في صورة غولة، أو «الغولة ذات العصي»، أي «ذامْزا م ثْغا(ر)يا». ويُعتقد في إبقوين مثلا، أن الجن باستطاعتهم استبدال العروس بجنية. من المعتقدات حول الجن أيضا أنهم يُحبسون خلال رمضان مقابل انتشار أعمال الشعوذة خلال نفس الشهر. وتوضح نظرة الريف إلى الجن الوضع الاجتماعي غير المرئي، وسوسيولوجيا الوضع الإنساني بالمجتمعات المسلمة، باعتبار الجن مرآة للإنس.[822]

يؤمن الريفيون إلى جانب الله والأنبياء والصحابة بوجود تسعة كائنات أخرى، حسب كارلتون كون[823]، اثنان منهم مرتبطان بالدين هما الملائكة والجن. ويسود الاعتقاد بأن الجنية أو «ذَجْنّيث» تظهر على هيئة امرأة جميلة تلتقي بالرجال ليلا في الأماكن القفرة وتغويهم وتستدرجهم إلى غرفة تحت المجاري المائية، وقبل أن يغادر الرجل تجعله يعدها بعدم الكشف عن مخبئها، وإن أخلف الوعد يموت بمجرد النطق بالسر. والجن الذكور الذين يزعجون الإنس حسب اعتقاد الريفيين هم الذين يأخذون شكل الكلاب أو بنات آوى، ويختص الجن في شكل بنات آوى الشرسة بحراسة الكنوز المخبأة في أعماق الكهوف.

819- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 162.

820- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 252-251.

821- نفسه، ص. 79.

822- نفسه، صص. 259-254.

823- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 154-156.

الكائن الثالث هو «رخْيار»، أو الخيال أو الشبح، ويظهر ليلا، خصوصا قرب المقابر، في صورة رجل نحيل وطويل جدا، وبإمكانه إيذاء الناس بلسانه الناري، ويظهر ويختفي متى شاء. الكائن الرابع هو «ذَاسَا)رْ(ذُونْدْ إِمظْرَانْ»، أي بغلة المقابر ذات الأجراس التي تخرج من المقابر وتأكل الناس. الكائن الخامس هو «را)ر(ياح»، أي أرياح الجن وهو كائن روحاني مؤذ يدخل جسم الانسان خلال الصيف بالخصوص، فتظهر عليه أعراض شبيهة بمرض الصرع. الكائن السادس هو «ذامْزا»، أي الغولة ويصفها الريفيون كامرأة قبيحة بثديين متدليين يلامسان الأرض وينسكب منهما الحليب وشفتين يسيل بينهما اللعاب وشعر طويل مجعد ومتشابك، لكن باستطاعتها الظهور في شكل امرأة حسناء تستدرج الرجال إلى مخبئها وتأكلهم متلذذة بنهش عظامهم. الكائن الآخر هو «أمْزيوْ»، أي الغول ويشبه زوجته الغولة قبحا وباستطاعته الظهور في شكل الرجل العادي أو العجوز أو الزنجي ويستدرج الناس لأكلهم. الكائن الثامن هو «بوسبعة إجدْجيفن«، أي الوحش ذو الرؤوس السبعة الذي يتوفر على جسم دابة وسبعة رؤوس بشرية. تنتهي رجلاه الأماميتان بيدي إنسان يمسك بهما بضحاياه. والكائن التاسع والأخير هو «هاجوج وماجوج»، الذين يتم ذكرهم في صيغة الجمع ووصفهم كأقزام يفوق عددهم عدد الناس على الأرض، عراة معوجي الأرجل وطويلي اللحى، ويعيشون في كهوف تحت الأرض ليس لها مخرج، ويعتقد الريفيون أنهم سيفسدون في الأرض إن خرجوا يوما من مخابئهم، في توافق مع ما ورد في القرآن.

يعتبر الريفيون العين الشريرة كمظهر من مظاهر الشعوذة بدل السحر، وهي خاصية يمتلكها بعض الأشخاص الذين باستطاعتهم إلحاق الأذى بالآخرين أو بممتلكاتهم بمجرد النظر، ولتفادي هذا الأذى يتخذون احتياطات من قبيل تثبيت جمجمة بغل أو حمار على عمود ووضعه خارج المنزل، أو وضع قدر شديدة السواد فوق سطح منزل حديث البناء، أو تعليق ناب الخنزير البري حول عنق الفرد المراد حمايته[824]. ويضيف كارلتون كون طرقا أخرى لتجنب أذى العين اللامة كتعليق قطعة قماش بلون أسود، أو تعليق براز الماعز في حقل الفلفل الأحمر وقت إزهاره، أو ربط قرني معزاة بشجرة الرمان حتى لا تسقط أزهارها، أو تعليق القواقع بحزام النساء.[825]

يفسر الريفيون أحلامهم وفق ذهنية خاصة، ويعتبرون من رأى عروسة تغادر بيته فسيموت أحد أفراد عائلته ونفس التفسير لمن فقد أسنانه، ومن رأى مياهًا صافية سيصبح غنيا ومن رآها عكرة أصابه المرض أو ساء حاله أو تعرض للحبس، ومن حلم أنه سقط من منحدر أو تهدم منزله، فذلك يعني مرض أو موت أحد أقاربه، وإن كان الحالم طفلا صغيرا فمعناه أنه سينمو بسرعة، ومن حلم أنه يكتب فذلك دليل على عمره الطويل، ومن رأى رجلا ذا لحية فهو بشارة خير، ومن حلم أن حيوانات تلاحقه فهناك من يحاول عرقلته، ومن رأى نفسه يبكي في المنام سيعيش سعادة غامرة، ومن اشترى بغلة أو جوادا أو برنسا سينال سلطة وغنى، ومن أكل البيض في الحلم كان الموسم الفلاحي جيدا، ومن رأى في الحلم شخصا عاريا فذلك يعني أن هذا الشخص سيصبح فقيرا، ومن رأى ميتا وجب التصدق باسمه، ورؤية موكب العروسة تعني موت أحد الأقارب، وقد يُستنتج أن الأحلام لها رمزان متعارضان، الكتابة والبرانس

---

[824]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 253.

[825]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 164.

والمياه الصافية واللحى فأل حسن، في حين أن سقوط الأسنان وموكب العروسة والمياه العكرة والعري نذير شؤم[826]، يميز الريفيون أيضا بين أحلام الصيف وأحلام الشتاء، فالأولى غالبا ما تتحقق عكس الثانية.[827]

وسادت بالريف أعراف ملزمة، باعتبار من لم يخضع للقاعدة طاله عقاب إلاهي، وهي غير مرتبطة بالسحر أو الشعوذة لكنها تنبني على مبدأ الخزي والعار لضمان الحماية للفرد الذي يكون في موقع ضعف، ويُعرف "العار" في هذا السياق باللعنة المشروطة بانتقام أو عقوبات القوى الغيبية، ويُعتقد بلحاق الأذى بمن لا يستجيبون بكيفية مرضية للطلبات المرتبطة بالعار[828]. ويُعرفه كارلتون كون كما عاينه في الريف كنوع من الإكراه خوفا من الخزي، حيث يقوم المتوسِل بعمل محدد حسب الطقوس المألوفة، تتمثل عادة في نحر ذبيحة أمام بيت المتوسَّل إليه أو باب المسجد، بهدف إرغامه على تلبية طلب المتوسِل ضدا عن رغبته، والخزي هنا أو العار أو اللعنة هو ما سيلحق بالمتوسَّل إليه في حالة عدم تلبية الطلب، مما يعني أن اللعنة مشروطة برفض تلبية الالتماس. ويقارن هذا العرف بكرم الضيافة، حيث من العار حسب الأعراف الريفية رفض إطعام الضيف. ويقدم كون أمثلة تعكس طبيعة المجتمع الريفي في مرحلة من تاريخه كانت تطبعها النزاعات. فعندما تستنفذ مجموعة متنازعة قوتها مثلا، وتبحث عن مجموعة أخرى كحليف، تتوجه مجتمعة رجالا وأطفالا ونساء إلى مسجد هذا الحليف المفترض وتنحر ذبيحة بباب المسجد لإرغام تلك المجموعة على التحالف مع المجموعة المتوسِلة، وقد تُستبدل الذبيحة بفتاة جميلة تزين كعروسة وتقدم كزوجة لأحد أعيان الحليف المفترض. وعندما تُفرض غرامة الدم على قاتل يعجز عن توفيرها يحمل سكيناً بين أسنانه ويطرق أبواب مساكن قسمة ما، ويصبح القاطنون بتلك المنازل مرغمين على منحه قدرا من المال حتى يوفر ثمن الغرامة[829]. ويورد هارت الذي يعتبر العار كنوع من التوسل وطلب الشفاعة عبر نحر ذبيحة، أمثلة أخرى نقتصر على ذكر حالة إقالة قائد أيث بوعياش بأيث ورياغر بفضل أسلوب العار، تمثل في نحر مجموعة من الريفيين المستائين من تصرفات القائد لثور أمام باب كنيسة تطوان، وذلك بهدف التأثير على المندوب السامي حتى يصدر قرار الإقالة، وهو ما حدث بالفعل.[830]

العرف الثاني السائد في الريف الذي كان يُتوخى منه ضمان وفاء حليف أو صديق وبالتالي تحقيق الأمان هو «ارْعاهذ»، أي العهد بمعنى الاتفاق أو التعهد بين شخصين أو مجموعتين. وقد اعتبره كارلتون كون كنوع من القسم الذي كان يتم في أحد الأضرحة في الغالب دون استعمال القرآن[831]. يتحدث هارت الذي أجرى دراسته في الريف في مرحلة لاحقة عن التوجه إلى المسجد أيضا للتعاهد مع وضع اليد على المصحف لضمان التزام أكبر عبر استحضار الجانب الديني والخوف من غضب الله في حالة نقض العهد[832]. وعندما كان طرفان يقرران

826- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 263-264.

827- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 164.

828- ديل إيكلمان (2015)، **الإسلام في المغرب**، ترجمة محمد أعفيف، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ص..240

829- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 162-163.

830- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 571-572.

831- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 163.

832- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 575-576.

التعهد بعدم الإساءة إلى بعضهما مثلا، يقفان بجانبي قبر الولي وهما متقابلان ويضعان يديهما في يدي بعض وأصابعهما متشابكة مع ترديد عبارة بالريفية مفادها، «أعاهدك الله وأشهد بذلك النبي رسول الله». وإذا كان العهد يشمل مجموعتين فقد يقتسم أفراد المجموعتين كسرات الخبز، أما في حالة تعاهد قسمتين قبليتين متحالفتين على الوفاء وعدم الخيانة فقد يستوجب الأمر ذبح ثور بجوار الضريح وتناول لحمه في عين المكان.[833]

تبنى الريفيون الدين الإسلامي بشكله البسيط، وهو الأمر الذي لم يمنعهم من الإيمان بقدسية الأضرحة والكهوف والأحجار والأشجار والعيون والكائنات الروحانية، وقد التجؤوا إليها لحماية أنفسهم وحل مشاكلهم والاستفادة من قدراتها الاستشفائية. ورغم عدم فهم غالبيتهم لمعاني الآيات القرآنية التي يحفظونها وعدم التزامهم الشديد بالشعائر الإسلامية وإيمانهم بالخرافات، وهو ما اعتبره البعض استمرارا للعبادات الطوطمية الوثنية[834]، فإن ذلك لم ينتقص من إيمانهم. كان البقيويون إسوة بباقي الريفيين يتوجهون إلى عيون خاصة تسمى «ثَمْزيزْذگّث»، قريبة من أضرحة الأولياء في الغالب يعتقدون بأن لها قدرات استشفائية، إذ تشفي من الأمراض الجلدية والعيون، وحتى العقم ببركة الأولياء القربين منها. وتصبح الأشجار المحيطة بالأضرحة والتي يحرم قطعها مقدسة بدورها فتمرر أغصانها على العلة بعد نقعها في ماء العين، كما تعلق عليها الخيوط وقطع القماش أو الملابس التماسا لشفاعة الأولياء لتحقيق الأماني واتقاء الشرور .[835]

ازدهر الطب الشعبي بقرية أذوز بقبيلة إبقوين في أواخر القرن التاسع عشر، حيث كان عدد الفقهاء وحفظة القرآن الذين يكتبون التمائم كبيرا جدا، وكانت هذه الحرز تباع عند الحاجة بأثمنة باهظة، وتُحفظ في جيب جلدي يوضع على موضع الداء. وكان الأكثر جرأة من هؤلاء الفقهاء يقومون بعمليات جراحية مؤلمة، في فضل السكان التمائم ويرفضون العمليات الجراحية، وبصفة عامة يعتقد أن الحجاب هو دواء كل ريفي أمام غياب التطبيب، ويحقق الإيمان القوي لدى القبليين بمفعول هذه التعاويذ معجزات أحيانا.[836]

كان علاج الأمراض في الريف يتم في الغالب عبر التداوي بالأعشاب أو الكي أو الجراحات البسيطة غير أن الريفيين كانوا يعتقدون أن البركة هي التي تشفي المرضى، ويجب أن يكون المعالج شريفا يبتدئ اسمه عادة بلقب مولاي أو سيدي[837]. قد تنتج الأمراض عن اختراق قواعد الدين كشتم الوالدين أو عدم احترام المسجد أو الزاوية أو التشكيك ببركة الشريف، وتأخذ سمة عضوية كالشلل والحمى، وتعتبر بالتالي كسخط إلهي أو شريفي. نجد أيضا من بين الأمراض الشائعة تلك الناتجة عن السحر كالعجز الجنسي، أو المس كالخلل العقلي والصرع، وتعالج هذه الأمراض من قبل الفقيه أو الشريف أو الساحر بواسطة التمائم وإجلاء الجن والبخور. ولا يتعامل الشريف مع الجن لكنه يمنح البركة الاستشفائية من خلال

833- Stevens Coon Carleton*, Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 164.

834- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، صص. 99.

835- نفسه، ص. 100.

836- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu*, op. cit., p. 92.

837- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص..98

تلاوة القرآن، ما يمنح الشرفاء مكانة داخل التراث الاجتماعي القبلي، وبإمكانهم الزواج خارج سلالتهم ولا يحق للنساء من نسب شريف الزواج من غير الشريف.[838]

يعود أصل وجود المياه المعدنية الساخنة ذات القدرات الاستشفائية في الريف إلى اعتقاد أسطوري مرتبط بمولاي يعقوب، إذ بفضل كرامة هذا الولي الذي كان يجوب منطقة الريف في القرون الوسطى وطلب الضيافة من الساكنة المحلية، ولمكافأتهم على حسن الضيافة فجر مثل هذه العيون ليستخدمها مضيفوه للاستحمام والاستشفاء.[839]

ارتبطت المعتقدات الغيبية والممارسات الخرافية بالإنسان الريفي الذي ساهم في إنتاج جزء منها واحتفظ بها عبر آليات تخزين الذاكرة الجماعية، ليضمن حضورها ضمن ممارسات الحياة اليومية، مساهما في إبراز بعض الجوانب التاريخية المغيبة من قبل المؤرخ التقليدي، والأوراش التاريخية المعتادة، والتي تعد تركيبة الإنسان الريفي ومبادئه أهم أجزائها ومكوناتها.

بصفة عامة أدت عزلة منطقة الريف وفقر سكانه، وانعدام مركزية سياسية قوية وانتشار البدع، إلى ظهور فكر غيبي، وإفراز توجه نحو السحر والتدين الشعبي باعتباره فعل خلاص ومنقذ من الواقع السيء، ورغبة في الحصول على أمل في عالم أفضل أو قدرة خارقة تغير عالمهم الحالي.

كما حفظ لنا التراث الشعبي وعلى رأسه الأمثال والأشعار قيم الإنسان الريفي ومميزاتها عبر التاريخ، ونظرته إلى الحياة وموقفه من الموت، وكيفية تصنيف أولوياته وفقها، الأمر الذي ارتكزت عليه ممارسة حياته اليومية، وكانت موجها أساسيا لتاريخه الثقافي والاجتماعي والسياسي.

838- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..122.

839- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu...,* op. cit., p. 92.

الفصل السادس:

إعادة تركيب نمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط

ظلت المواضيع المرتبطة بالمعتاد والحياة اليومية بعيدة عن متناول المؤرخ، رغم أنها جانب تاريخي مهم، نظرا لما يمكن أن تقدمه من إجابات عن إشكاليات ضمن التاريخ الجغرافي والديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي، لأنها تمثل روتيناً يوميا يعيشه الإنسان ضمن مجال معين عبر الزمن، وبالتالي تتوفر فيها الشروط الموضوعية والعلمية لعلم التاريخ.

يعتبر موضوع تركيب الحياة اليومية المعتادة بالريف الأوسط إشكالية كبرى بحد ذاتها، لأنها تستوجب دراسة مقومات الإطار العام والفضاء الذي تجري فيه هذه الأحداث، وبالتالي فهو إبراز للثقافة المادية للمنطقة، التي تحمل نمط عيش الساكنة من خلال بنية المسكن والملبس والمأكل، وتراثها اللامادي المتمثل بالأساس في قيمها وممارساتها الروحية واعتقاداتها العميقة. والبحث في الموضوع ليس بالسهولة التي يبدو عليها، لأنه نقل لورش اجتماعي أنثروبولوجي محض إلى الميدان التاريخي، بمعنى مزاوجة لمناهج علم الاجتماع والأنثروبولوجية تحت رقابة المنهج التاريخي.

يعتبر هذا الفصل تركيباً للفصلين السابقين -اللذين يعتبران مادة أساسية له-، وتطبيقاً للنظام والتراتبية الاجتماعية وحضور السمات الثقافية، التي ربما يصعب استيعابها بشكل مجرد دون وضعها في سياق ممارستها من خلال الأحداث اليومية.

المبحث الأول: فضاءات الحياة اليومية وتقسيم الأدوار بين الفاعلين الاجتماعيين

أولا: فضاء الحياة اليومية

عرف الريف تعميرا بشريا قديما[840]، ونعتت المصنفات الجغرافية إمارة نكور ببنيان الجبابرة[841]، والمدينة القديمة الأزلية، رغم أن الأبحاث الأثرية لم تواكب النمو الحضاري الفعلي الذي تحدثت عنه المصادر.[842]

وشهد الريف أيضا انتشار القصبات ما قبل الاستعمار التي تعود إلى عهد السلطان إسماعيل[843]، أهمها قصبة سنادة ببني يطفت، وقصبات كولونيالية منها التي شيدها إميليو بلانكو إيثاگا بأربعاء توريرت[844]، بالإضافة إلى انتشار العمارة الدينية بالريف عامة والأوسط خاصة.[845]

ظلت بنية السكن الريفي قارة[846]، وارتبطت بها أحداث الحياة اليومية منذ القرن السابع عشر إلى منتصف القرن العشرين، رغم الاستقرار المبكر الذي يظهر من خلال درجة استغلال

---

[840]- انظر على سبيل المثال:
- مجهول(1985)، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، منشورات سعيد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، ص. 136.
- الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ص. 128.

[841]- جاء تصميم المدينة مربعا بعيدا عن نمط المدن التقليدية، ووفق تنقيح تصميمين هندسيين جعلا من حي فندق فلوريذو أقدم حي بالمدينة، وقام كل من Alvares Claro, Miguel Gómez, Bernardo Figueredo, Francisco, Pimente,بتشييد المنازل الأولى بالمدينة، وتزايدت وتيرة المباني فيما بعد وفق النمو الديمغرافي، ما بين 1928م-1930م انتقل عدد المباني من 86 مبنى على مساحة 35860م^2 إلى 138 على مساحة 50000م^{2}مقابل الانتقال من 2000ساكن إلى 3800 ساكن، وضمت المدينة سنة 1930م ثلاث منتزهات وخمسة أسواق و34 شارع على أكثر من 700 بقعة أرضية، بالإضافة إلى التجهيزات العسكرية، وحي العمال والصيادين Barrio Obrero، بالإضافة إلى حي الريفيين وفق تصميم Blanco Izaga، وحي للبرجوازية الصغيرة وحي آخر للبروليتاريا، حيث كان التمييز واضحا في نمط بناء الأحياء الخاصة بالإسبان والأحياء الخاصة بالريفيين. انظر:
- Enrique Guerra(1994), »Alhucemas: El nacimiento de una ciudad», *Al jamia,* N° 5/4, Casa blanca, p. 8.
- عرفت نكور عمارة إسلامية خلال مرحلة وجودها، منها المسجد، ومرافق اجتماعية، منها الحمامات، واقتصادية أهمها الأسواق، وكان للمدينة سور به أربع أبواب باب سليمان بالجهة الشرقية وفي جهة الشمال الشرقي باب بني وريا غل، والجهة الغربية باب المصلى، والجهة الشمالية باب اليهود، بالإضافة إلى الأرباض والقلاع والحصون والرباطات. انظر:
- عبد الله بوصوف (2017)، **جوانب من تاريخ إمارة نكور**، منشورات ملتقى الطرق، الدار البيضاء، ص. 92.

[842]- أحمد الطاهري(1998)، «بواكير العمران الحضاري ببلاد نكور بين الأركيولوجيا والتوثيق «،**حوليات الريف**، العدد الأول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 10.

[843]- غير أن بيوت العامة تتمثل في بيوت حقيرة مكونة من الطابق الأرضي ومبنية بشكل الإسطبلات التي نراها في أرياف أوربا، سقوفها من القش أو لحاء الشجر. انظر:
- الحسن الوزان (1983)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، ج.1، ص..324

[844]- صباح علاش(2017)، «التراث الثقافي بالريف«، ضمن ندوة: **التراث الأمازيغي ركيزة للتنمية بالمغرب**، تنسيق أحمد بوضيلب-عزيز بن طالب-محمد أيت حمزة، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص. 60.

[845]- صباح علاش(2015)، المساجد/ المدارس بالريف نموذج أذوز بإبقوين، ضمن ندوة: **المدارس العتيقة بالمغرب: دور القبائل في التدبير والتمويل**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص. 51.

[846]- عرف الريف الأوسط طابع الاستقرار نتيجة اعتماد نشاط الزراعة، مع تسجيل بعض العائلات التي قامت على الرعي والترحال الموسمي مع قطعانهم «رعزايب«، ولا توجد بيوت القش أو«نوالا،« والمنتجعون أنفسهم بقسمة أشث محند من قبيلة إگزناين يسكنون منازل خاصة، وأغلب المنازل تتكتل في قرى صغيرة وبعضها معزولة ومشتتة بجانب الوديان. انظر:
-A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel, Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien, ur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée 1ère partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941. p.7.

الأرض والتحكم في المجال. ويعكس السكن الريفي المستوى الاقتصادي والاجتماعي، وهذه المنازل المعلقة تعطي صورة واضحة عن الوضع السياسي، يتخذ طابع التكتل في أماكن الاستقرار القديمة والتجاذب العرقي وطابع التشتت في أماكن الاستقرار الحديثة، لكنها تتميز بنفس بساطة مواد البناء، وضعف التجهيز وتعدد وظائف الغرفة الواحدة، واحتفظ هذا السكن بخصائصه دون تسجيل أي تحولات بسبب ضعف مداخيل الأسرة والعزلة.[847]

يأخذ المنزل الريفي شكلا مربعا على العموم، وهو عبارة عن مجموعة من الغرف المفتوحة على فناء مكشوف، أو «أزقاق»، مربع الشكل أيضا، علما بأن مواد البناء هي الطوب والطين والحجارة[848]. وتقسم كل غرفة إلى مجموعة من المرافق لها وظيفتها المحددة، هكذا نجد في نفس الغرفة ثلاثة مستويات، الأعلى الذي يستعمل كسرير للنوم، أي «ثاذوكاند»، أو «أرْفّيظ»، الأوسط، أي «ذيسي»، على مستوى سطح الأرض، وهو بمثابة بيت الجلوس، والأسفل، أي «أفيثار»، أو «أفشثار»، حسب نطق إگزناين وثمسمان، الذي يستعمل كإسطبل للبقرة على الخصوص، وفوق هذا الاسطبل توجد شرفة تخصص لحفظ الأغذية تسمى «أريثو»، أو «أروف».[849]

قد تتوفر هذه الغرفة في جزئها الأوسط بجانب الباب على موقد أي «ثيغا)ر(غا)ر(ث»، تستعمل للطهي والتدفئة، وهي عبارة عن حفرة محاطة بالأثافي، ينفذ دخانها عبر الباب ذاته أو من خلال الكوة الصغيرة في الجدار، أو ثقب صغير في السقف يسمى «التفريج». أسقف الغرف تمتد عادة بما يقارب المترين في اتجاه فناء الدار وتشكل بالتالي سقيفة تحيط بالفناء وتستعمل لمختلف الأغراض، خصوصا خلال فصلي الربيع والصيف. لا تتوفر غرف المسكن الريفي على نوافذ كبيرة، أي «ثيبورجْوين»، باستثناء بيت الضيوف، ويتم الاقتصار على كوة صغيرة لكل غرفة للإضاءة والتهوية تتموقع عادة بجانب الباب. يتم بناء السقف بالخشب ويتكون من رافدة رئيسية طويلة وعريضة تُنحت في بعض المناطق لتصبح سداسية الأضلاع تسمى «أساثور»، وتوضع فوقها بشكل متعامد عارضات، أي «ثيحنْيا»، تمتد أحيانا جهة الفناء لتشكل سقيفة. يوضع فوق هذه الرافدات المتقاربة سريرٌ من القصب أو أجزاء خشبية صغيرة متراصة، أي «أرّصْ»، قبل تغطيته بالطين أو الطوب. والجدير بالذكر هو تخصيص سقف خاص لبيت الضيوف حيث تتم الاستعاضة عن «ثيحنيا»، بعارضات منحوتة مربعة الأضلاع تسمى «ثافجّاجث»، وعن سرير القصب أو الأجزاء الخشبية الصغيرة بلوحات منشورة تسمى «ثاوريڤْث». قد يتوفر منزلٌ على غرفة علوية، أي «ثغو)ر(فت»، وهو أمر نادرٌ ودليل على

---

[847]- علال زروالي(2004)، «السكن الريفي القديم بالريف الشرقي ،**مجلة حفريات مغربية** ،العدد الثالث، مطبعة جسور، الطبعة الأولى، وجدة، ص..57.

[848]- إذ اعتاد أهالي أيث وریاغر على بناء منازلهم بالطوب والحجارة مع اقتصار استعمال الطوب بشكل محدود في منطقة السهل، أما في المناطق الجبلية كجبل حمام مثلا، فيستعملون الطين والحجارة. نجد لدى قبائل الريف الأوسط بناء موحدا عبارة عن غرف مفتوحة نحو الفناء المفتوح نحو السماء. وأسطح المنازل مسطحة باستثناء بعض المناطق في قبيلتي إگزناين وأيث عمارث التي تعرف تساقطات ثلجية منتظمة، وعادة ما يكون سقفها خشبيا يستعمل كمنصة لتجفيف الفواكه، وكل المنازل تتكون من طابق واحد، مع استثناءات قليلة وتكون دليلا على غنى صاحبها. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أيث وریاغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الريس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، الطبعة الثانية، ج.1، ص. .55

[849]- Emilio Blanco Izaga (2010), *La vivienda rifeña ensayo de características e interpretación con ilustraciones del autor (1930),* Vicente Moga romero, segunda edición, Melilla, p. 139.

غنى صاحب المنزل[850]. يتوفر كل منزل على باب رئيسي خارجي كبير يتموقع عادة جهة الشرق لاستقبال أشعة الشمس وتفادي الرياح الغربية الباردة خلال فصل الشتاء، ويؤدي مباشرة إلى الفناء المكشوف أو إلى الإسطبل، أي «أرْوا»، وبعد ذلك إلى الفناء. لبيت الضيوف باب جانبي صغير، أي «ثاخوخْث»، يخصص للزوار حتى لا يمروا عبر الفناء حيث توجد النساء.[851]

تظهر المنازل الريفية من المرتفعات متناثرة، بمظهر النجوم في السماء «إثران أوجنا»[852]. وهذا التشتت المورفولوجي الملاحظ حول المنازل الريفية يعتبر حرية ومتنفساً للعائلة، وهو بمثابة طابع اجتماعي يحفظ خصوصية كل عائلة، وترتبط هذه الظاهرة بمفاهيم العرض والعار[853]. كما تميزت البيوت الريفية بسياجاتها الشوكية.[854]

تتمثل الوظيفة الأولى للبيت الريفي في حماية الأسرة والماشية[855]. وتتباين أحجام المساكن حسب المناطق والإمكانيات المادية لصاحب الدار وعدد أفراد العائلة، ويتراوح طول السور الخارجي في أغلب الأحيان ما بين 15مترا إلى 20، وعلوهما بين ثلاثة أمتار وخمسة أمتار، ويتغير هذا العلو حسب نسبة الانحدار. ويوضع الباب الخارجي عادة في الاتجاه المعاكس لهبوب الرياح، وينفتح داخليا على الفناء الذي يتوفر عادة على خزان للحبوب، أي «ثاسْرافث» الذي يتندر الريفيون بشأنه قائلين أن الأعراب يستعملونه لقضاء حاجتهم[856]. ورغم توفر كل قبيلة ريفية على مخزن جماعي أو أكثر، إلا أن غالبية الريفيين يفضلون المطامير الفردية، عكس الجنوب المغربي[857]، قد يكون الموقد داخل الغرفة فيستعمل للتدفئة والطهي معا خلال فصل الشتاء، أو في الفناء، ونفس الأمر بالنسبة إلى الرحى اليدوية التي توضع في زاوية تحت السقيفة في حالة اختيار الفناء كموقع لها وتجنيب النائمين الإزعاج الذي يسببه هدير ها ليلا. وتتوفر غرف النوم على مغسلة بها ثقب لصرف المياه، وكل الغرف تتوفر على مدفئة في البيوت الجبلية. تقوم النساء بطلي أرضية البيت بنبات البطم والصلصال والماء،

850- Stevens Coon Carleton (1904), *Tribes of the Rif,* Harvard University, The University of Michigan Libraries, pp. 68-69.

851- المنازل الريفية مبنية بالطوب والحجارة وتتميز عموما بالانخفاض وهي مربعة الشكل، وسقفها منبسط، وغالبا ما يضع الريفيون بابان لغرفة الضيوف، الرئيسي ينفتح إلى الخارج لضمان حرية خروج الرجال دون اختلاط والثانوي ينفتح على الفناء الداخلي المكشوف الذي تنفتح عليه كل الغرف، وبما أن نوافذ الغرف صغيرة جدا فإن الأسرة تستعمله لجل الأعمال المنزلية، عدا في حالة البرد الشديد. تحيط بهذا الفناء سقيفة مشكلة من سرير من القصب المتشابك يوضع فوق رافدات هي عبارة عن جذوع أشجار الزيتون تسند بدورها إلى أعمدة خشبية، وتوفر هذه السقيفة حماية من المطر في فصل الشتاء وظلا يحمي من أشعة الشمس الحارة صيفا. يوجد في زاوية الفناء اسطبل للبغلة التي تتوفر عليها أغلب العائلات (المتواجدة بأغلب المنازل) الريفية ويوضع حاجز في هذا الإسطبل لإيواء المعز، أما الدجاج فيظل في الفناء. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت(2010)، **وراء باب الفناء الحياة اليومية للنساء الريفيات**، ترجمة عبد الله الجرموني، منشورات تيفراز، الرباط، ص..36.

852- غالبا ما تكون المنازل في الريف المغربي منعزلة ومتفرقة وتقليدية جدا، ومحاطة جزئيا بنبات الصبار. وغالبا ما يعود تشتت المنازل وانعزالها إلى توجس الريفي وغيرته الشديدة مما يدفعه إلى عزل النساء وإبعادهن عن الأنظار. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. .31

853- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .49

854- Marquis De Segonzac, *Voyages au Maroc 1899-1901...,* op. cit., p. 32.

855- Emilio Blanco Izaga, *La vivienda rifeña...*, op. cit., p. 113. (9)

856- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .55

857- أنخيلو گيريلي (2017)، **إبقوين قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، ص. .83

وتبيض الجدران بالجير المحلي. تعتبر غرفة الضيوف أهم وأكبر مرفق في المنزل الريفي ويتوفر على عدد ملائم من النوافذ وله باب منفرد[858]، ونجد بجانب البيت الفرن التقليدي المخصص لطهي الخبز، أي «ذاينّورث»، ويُبنى على شكل قبة شبيهة بخلية النحل، وتتوفر كل امرأة متزوجة على واحد منها[859]، وتستعمل في بنائه عادة أجزاء الأواني الفخارية[860]. وفي موقع أبعد نسبيا نجد مكان رمي الفضلات وتجميع السماد الطبيعي، إضافة إلى مكان قضاء الحاجة خارج سياج الصبار الذي يتم تنظيفه عبر حرق جذوع نبات الذرة. وتجدر الإشارة إلى مرفق آخر هو ذلك البرج الصغير المخصص للمراقبة، أي «أشْبار» الذي أمر محمد بن عبد الكريم الخطابي بهدمه سنة 1922م، بعد أن قضي على عرف الثأر، وهو بناء مربع الشكل به فتحة صغيرة تستعمل لإطلاق النار في حالة نشوب صراع دموي. لقد جرت العادة على أن تقدم ذبيحة عند بناء أساس المنزل وأخرى بعد وضع السقف.[861]

تختلف بيوت الجبل عن بيوت السهل بتوفر بعضها في المناطق الباردة على سطوح مائلة لتسهيل سيلان الماء وذوبان الثلج، ولها في بعض الحالات شرفات، كما في قسمة إجعونن بأيث عمارث[862]، وهي قليلة تراها على القمم والطلوع، وتربط بينها الممرات الجبلية.[863]

---

858 _*I.P.A.E.B.I., Mosaico Rifeño cuaderno de acuarelas de Emilio Blanco Izaga,* Vicente Moga Romero, Instituto de las culturas, Uned Melilla. 1929, p.6.

859- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص..36

860- يعد الفخار من ضمن الثقافة المادية بالريف، واختصت النساء في صناعته، علما أن الريفيين يصنعون العديد من الأدوات للاستعمالات اليومية المصنوعة من الخشب والحلفاء والدوم. انظر:

- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif...,* op. cit., pp. 74-75.

861- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. .58-57

862- Emilio Blanco Izaga, *La vivienda rifeña...,* op. cit., pp. 114-115 y 10-11

863- أمين الريحاني (1952)، **المغرب الأقصى: رحلة في منطقة الحماية الإسبانية**، ص..455

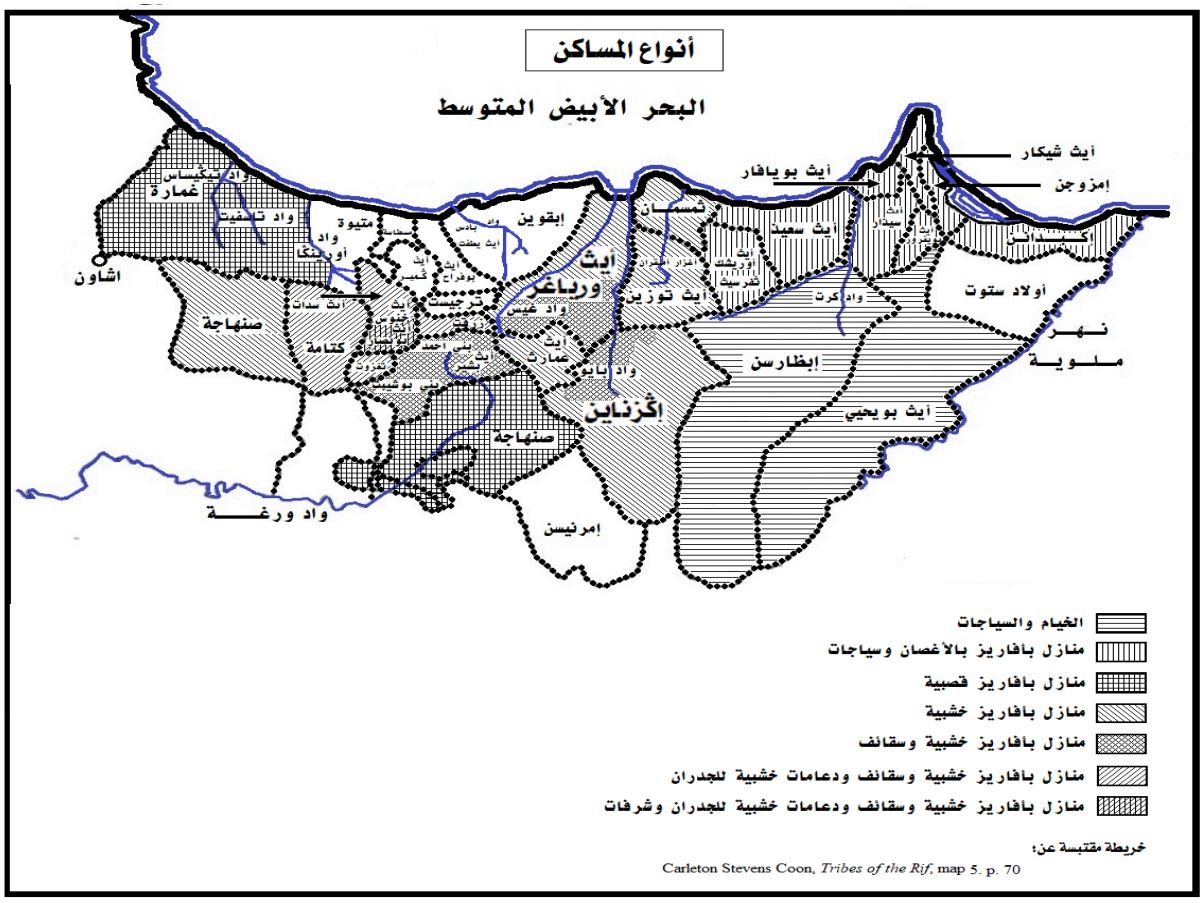

لم يكن يوجد في الريف أثاث منزلي بالمفهوم الغربي للكلمة، حيث كان يقتصر على الأساسي والبسيط، من قبيل الحصر، أي «أجا(ثير»، وفراء الغنم والماعز، أي «أهيظور»، والبطانيات الصوفية، والمهاريس الخشبية، أي «إذيذگ»، أو «إذيذي»، والمدقات الخشبية، أي «أهْروك»، أو «أهْروش»، والأواني الخشبية والفخارية والسلال القصبية والقفاف والأطباق المصنوعة من الحلفاء أو الدوم. وكانت تستعمل في المناطق الجبلية حيث يكثر الخشب، كأيث عمارث وإگزناين وأيث ورياغر، كراسي قصيرة دون مسند أو أرجل، تسمى «ثيمنْجا(ر(ث»، وهي عبارة عن قطعة خشبية واحدة مأخوذة من جذع شجرة، لها تجويفان جانبيان ليسهل حملها، وسطح مقعر مريح. والجدير بالذكر أن مثل هذا الأثاث لا يبعث على الافتخار، بل بالعكس يسرع الريفيون إلى إخفائه حالما ظهر ضيف بالجوار. ولا يخلو المنزل الريفي من الأوتاد المثبتة في الجدران، أي «إجاجّن»، مفردها «جيج»، تستعمل لتعليق كل شيء من الثياب والأفرشة والبنادق وقلال السمن والعسل واللحم المقدد والأكياس والتوم والبصل والفلفل.[864]

يعتبر امتلاك الأثاث المنزلي الفاخر دليلا على غنى ومكانة الفرد الريفي، وهو ما يضعه عادة في غرفة الضيوف، ويتمثل هذا الأثاث في الوسائد المزركشة والزرابي والبطانيات والستائر الحائطية وطقم الشاي المنمق والراديو، فيما أثاث الغرف الأخرى بسيط وعملي[865]، كالحصر والأواني المنزلية والمجمر وقلل الماء والسمن والعسل وجرار الزيت والأوعية

[864]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 73.

[865]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 57.

الأخرى، وجلها مصنوع محليا بمواد كالطين والخشب والدوم والحلفاء والقصب[866]. ويسري استعمال المواد المحلية على الأغذية أيضا .[867]

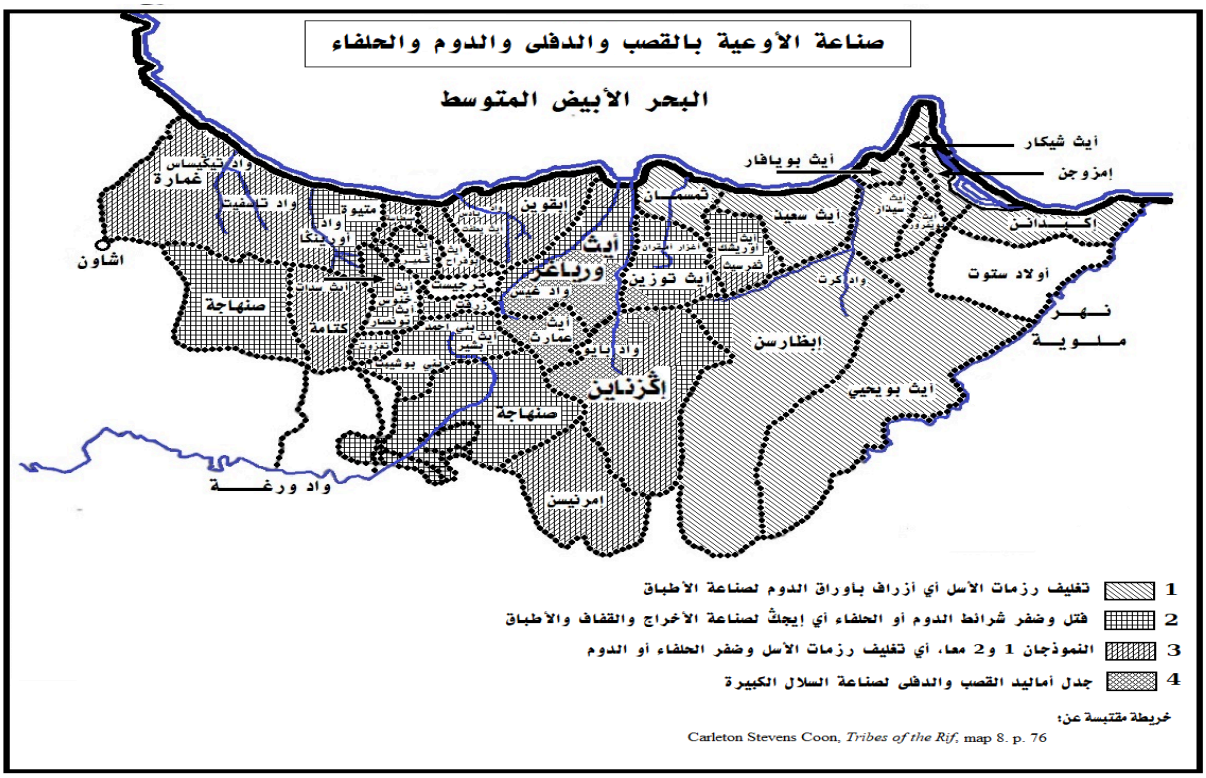

866- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. 36.

867- يتناول الورياغليون بكثرة الفول والعدس والحمص والفواكه والسمك، بالإضافة إلى طرائد القنص الوفيرة، وخلال الأيام الاحتفالية يتناولون اللحم المشوي. انظر:

- Auguste Mouliéras (1895*), Maroc Inconnu Exploration Du Rif*, Librairie Coloniale et Africaine, Joseph André, Paris, p.104.

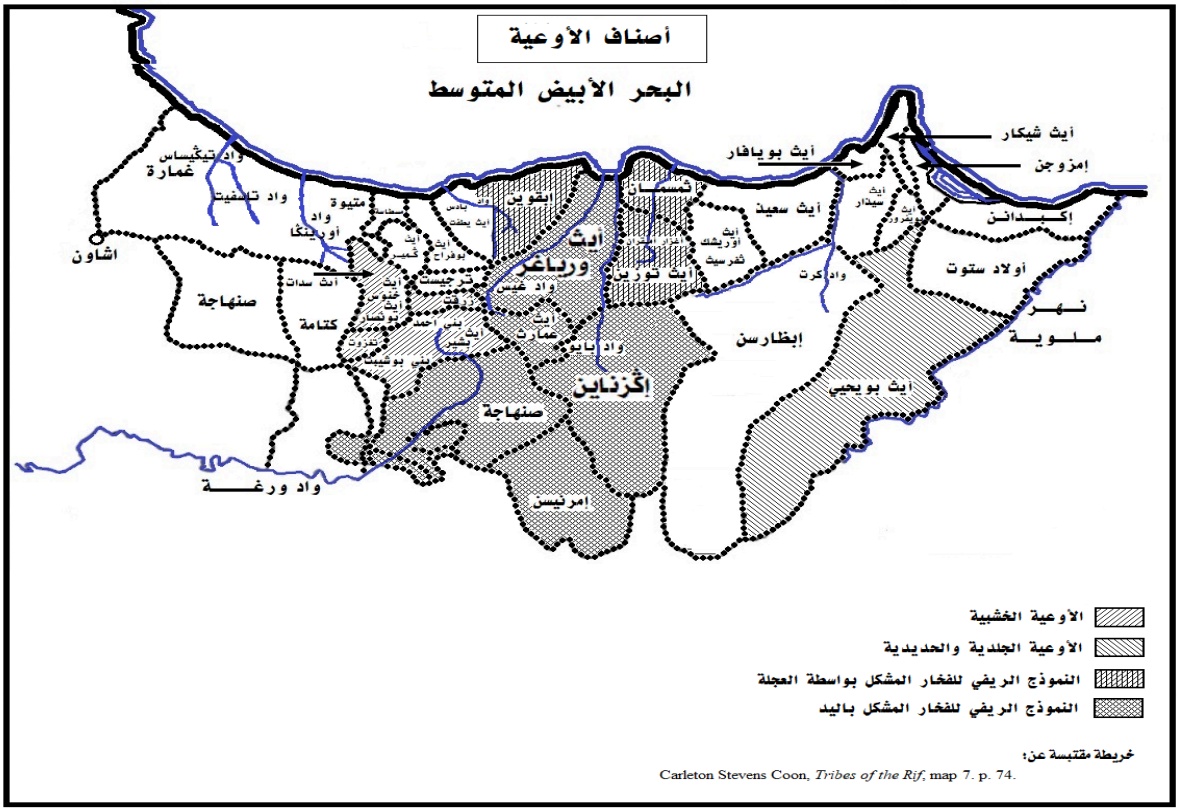

أدى الانفتاح على العالم المتوسطي إلى تدفق المواد الأوروبية، خاصة الشاي والسكر والقهوة، وعلى سبيل المثال كانت قبيلة أيث يطفت تستقدم هذه المنتوجات من حاكم بادس، بالإضافة إلى الخمر والتبغ[868]. وظهرت أطباق جديدة نتيجة الاحتكاك مع العنصر الأوربي، وتعددت الصحون فوق موائدهم، غير أن القبائل الداخلية ظلت وفية للعادات الريفية.[869]

شهد الريف مختلف أصناف الطعام وشكلت الحبوب والخضروات أساس التغذية المعتمدة في الماضي. ويمكن تصنيف أنواع الأطعمة كالتالي: الحبوب، الخبز، الخضروات، اللحم، السمك، البيض، الحليب ومشتقاته، والعصائر[870]. تختلف ثقافة الطعام بالريف باختلاف طرق تحضيرها، ومن بين أهم أصنافها؛ تحضير الحبوب وطقوس صنع الخبز وأطباق الخضر ومستحضراتها وأطباق تحتوي على اللحوم وأطباق السمك، وأخرى من البيض، وأطباق معتمدة على الحليب ومشتقاته، كما اعتمد الريفيون المكسرات في غذائهم، هذا بالإضافة إلى ثقافة آداب المائدة.

---

[868]- محمد أحميان (2018)، **الريف والبحر الأبيض المتوسط،1830-1926** مجلس الجالية المغربية بالخارج، الطبعة الأولى، الرباط، ص. 596.

[869]- نفسه، ص. 597.

[870]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 57-56.

عمد الريفيون إلى إعداد أطعمة مختلفة من حبوب الشعير والذرة والقمح بالأساس. هكذا، عملوا على تحميص الشعير قبل نضوجه، ثم طحنه لتحضير «زمبو»[871]، أو جرشه لإعداد «إوزان»[872]، أو خلط «زمبو» مع الزبيب والجوز أو اللوز والسمن لتحضير «ثاعصت»[873]، وتستعمل نفس الحبوب دون طحن أو جرش لإعداد أكلات أخرى نذكر منها «إمشيخن»[874]، و«ثيغواوين»[875]، ولم تعد مثل هذه الأكلات تعرف انتشارا كبيرا في الوقت الراهن، وأصبح استهلاكها يقتصر بشكل عام على المناطق الجبلية في إگزناين وأيث عمارث وأيث ورياغر.[876]

مثل «أغْروم»، أي الخبز غذاء أساسيا في المجتمع الريفي، وقد تم إعداده بالخميرة ودونها، وسواء في الفرن أو المقلاة. استعملت في تحضيره مختلف أنواع الحبوب، منها الشعير والقمح بالأساس، بالإضافة إلى حبوب أخرى استعملت بشكل أقل كالذرة والخرطال، أو في فترات المجاعة كالبلوط والكرسنة[877]. اعتمد الريفيون دائما على الخميرة المعدة في المنزل، حيث يحتفظون بقليل من العجينة لاستعمالها في المرة اللاحقة، وفي حالة استنفاذ امرأة لما لديها من خميرة أو «أمثون»، تطلبه من جارتها، ونادرا ما يتم إعداد خميرة جديدة، وإن دعت الضرورة إلى ذلك يخلطن الدقيق بمادة حامضة كاللبن أو عصير الليمون أو العنب مثلا. أرغفة الخبز في قبائل الريف الأوسط في شكل أقراص، وكانت المرأة الريفية تحصل على نحو عشرين خبزة بعد طحن مد من الشعير ونحو خمس وعشرين بالنسبة إلى القمح، علما بأننا نتحدث عن المد في إگزناين الذي كان يعادل ستة عشر كيلوغراما، وليس الورياغلي الذي كان يعادل أربعين كيلوغراما، أو التوزيني بثلاثة عشر، أو العمارتي بخمسة وثلاثين. يطهى الخبز في الريف الأوسط في الفرن، وفي حالة استعمال المقلاة الطينية يصبح حجم الرغيف أكبر وأقل سمكا من خبز الفرن، ويحمل اسم «ثافْظيرث»، أو «ثاخْنيفث»، إن كان مخمرا، و«أفْظير»، إن كان دون خميرة .[878]

871- هي أكلة من الشعير أو الذرة المحمصة في فرن أو مقلاة، تطحن الحبوب المحمصة بالرحى اليدوية، ويخلط الدقيق بالسمن أو زيت الزيتون، ويُقدم في شكل كرات للأطفال كطعام شهي أو زاد يحمله المحاربون أو المسافرون خلال رحلاتهم الطويلة. انظر:
- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 57.

872- تحضر هذه الأكلة بجريش الشعير المحمص الذي يُسلق حتى ينضج ويتشرب الماء، ثم يؤكل بعد إضافة زيت الزيتون أو دونها. انظر:
- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 57.

873- هي أكلة تحضر من نفس دقيق «زمبو»، سواء من الشعير أو الذرة، يضاف إليه الزبيب أو الجوز إذا كان سيقدم للنساء أو اللوز بالنسبة للرجال. يُسحق الخليط في المهراس الخشبي ويضاف إليه السمن ليسهل تجميعه ثم يُضغط ويترك ليجف. تشكل هذه القطع الصلبة طعاما مغذيا صالحا طيلة السنة ويتم التزود به خلال الحج والسفر والحرب. انظر:
- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 57.

874- ارتبطت هذه الأكلة باحتفالات رأس السنة الفلاحية حيث يتم سلق مختلف الحبوب من قمح وذرة وعدس وفول وحمص ثم تقدم بعد خلطها مع السمن أو زيت الزيتون أو دونهما. انظر:
- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 57.

875- تحضر الأكلة عن طريق تحميص الشعير وجرشه في المهراس الخشبي لإزالة قشرته، وهي من الأكل التي يمكن حفظها لمدة طويلة، وتفيد في الحرب والسفر وتؤمن الغذاء عندما تشتد الأزمات. انظر:
- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 57.

876 -Ibid, p. 57.

877- عرف أهل أيث توزين بصناعة خبز من دقيق البلوط الحلو وحتى المر بعد تحليته عبر ترقيده في الماء لمدة شهر. انظر:
- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu…,* op. cit., p.116.

878- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 57-58.

تعتبر «ذامريقث» من الأكلات الأكثر انتشارا في الريف الأوسط، وهي عبارة عن عصيدة أو حساء ثخين يُحضر بالقطانى الجافة كالفول والبازلاء والعدس، ويُقتصر في حالة طهي الفول والبازلاء على إضافة زيت الزيتون أو السمن، أما العدس فقد يُطهى مع البصل. تستعمل هذه الأكلة خلال فصل الشتاء بالخصوص نظرا لخاصيتها الغذائية الغنية وبسبب غياب الخضر الطرية. يتغذى الريفيون أيضا على البقول البرية أو «إغدّيون» التي تجمعها النساء وتسلقها وتمزجها بزيت الزيتون أو السمن. ونظرا لعدم توفر الحبوب والخضر طيلة السنة، فإن الريفيين يعتمدون كثيرا على الفواكه الجافة التي يتناولونها في كل الأوقات داخل وخارج المنزل، ونذكر منها التين والزبيب والمشمش واللوز والجوز.[879]

تناول الريفيون اللحم ضمن وجبة الكسكس، أو مع الخضر في طبق الطاجين، أو وحده كشواء[880]. ويمكن حفظ اللحم لاستعماله في وقت لاحق عن طريق تجفيفه تحت أشعة الشمس أو تقديده في شكل نقانق تسمى «ثيمْحاگزين»، أو «ثيعصبانين»، يتم تناولها خلال «الحاگوز»، و«عاشوراء». لا يستهلك الريفيون القاطنون بالمناطق الداخلية السمك بشكل كبير، عكس إخوانهم في المناطق الساحلية. ويُعتمد في طهيه على القلي والشي ويستهلك السردين بالخصوص. ويحفظ السمك إما عبر تمليحه أو طهيه في الفرن حتى يجف.[881]

استهلك الريفيون البيض المسلوق بكثرة[882]، غير أن قلي عدة بيضات في السمن وجبة مألوفة أيضا. وبما أن الريف كان دائما مجتمعا قرويا زراعيا، فإن الحليب، وحليب البقر على وجه الخصوص، كان ذا أهمية بالغة. استهلكه الريفيون طازجا، لكن الطريقة الأكثر شيوعا هي ترويبه وتناوله كلبن مخثر، أو مخضه لاستخراج زبدته واستعمالها طرية أو تحويلها إلى سمن، وشرب اللبن مع الخبز أو التين المجفف.[883]

كان الريفيون القاطنون في المناطق الجبلية الباردة حيث يوجد العنب، يستهلكون عصير هذه الفاكهة التي تسمى «الصامْث»، غير أن تحويل هذا العصير إلى هلام العنب عبر غليه مع العسل واستعماله كمشروب كحولي، قد اقتصر على قبائل صنهاجة سراير. ويسري نفس الأمر على استهلاك الكيف الذي كان يعتبر عادة منبوذة في قبائل الريف الأوسط.[884]

879- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 59.

880- يأكل الريفيون لحم البقر أسبوعيا، أي يوم السوق الأسبوعي، أو عند استقبال الضيوف، ويعتبر اللحم وجبتهم المفضلة والراقية. وتتمثل الوجبات في الريف الأوسط في الفطور الذي يتكون عادة من الخبز والقليل من القطاني أو الخضر المطهوة مع القهوة المحلاة أو الشاي، ثم الغذاء البسيط النباتي في أغلب الأحيان، وأثناء العمل يأكل الفلاح الخبز والتين المجفف، وتبقى الوجبة الرئيسة هي وجبة العشاء التي يقدم فيها طاجين اللحم والخضر، أو الخضر فقط مرفقة بزيت الزيتون، ويكون الأكل أفضل في حالة حضور الضيوف. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 70.

881- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 60.

882- النظام الغذائي موحد بين الجنسين رغم الاعتقاد السائد ظنهم بأن اللوز والشاي يزيدان من فحولة الرجال، والجوز والقهوة يزيدان من خصوبة النساء إلا أن الجميع يأكلون اللوز والجوز ويشربون الشاي والقهوة، ويسود نفس الاعتقاد بخصوص البيض المقلي بالنسبة للرجال، وذلك لربط البيض في المجتمعات المتوسطية بالخصيتين. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 71.

883- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 61.

884- Ibid, p. 62.

يتميز الريفيون بطبع كرم الضيافة الذي يغير من نوعية أطباقهم اليومية[885]، إذ يخرج الريفي ليستقبل ضيفه، ويدخله إلى غرفة الضيوف ليقدم له الشاي ويرفقه باللحم المشوي.[886]

دأبت قبائل الريف الأوسط على كرم الضيافة وإطعام الفقير وابن السبيل، وإن كان بنسب متفاوتة، وهذا ما عاينه في أيث عمارث مثلا، الدرويش الذي اعتمد عليه موليبراس لتأليف كتابه[887]. وحظى الضيوف المدعوون في مختلف المناسبات بوجبات متميزة تتضمن الشواء والطاجين والكسكس والسمن والعسل والفاكهة والشاي.[888]

لا تختلف آداب الطعام في الريف كثيرا عما هو سائد في المجتمعات المتوسطية المسلمة، إذا استثنينا طابع الحشمة الذي يفرض إبعاد أنظار الغرباء عن النساء. وعادة ما تجتمع الأسرة مع الأب لتناول الطعام، ولا يتغير الأمر خلال حضور الضيوف المقربين. أما في حالة حضور ضيوف غرباء أو لا تجمعهم علاقة قرابة بصاحب البيت، فيُقدم لهم الطعام في غرفة الضيوف وتكون منفصلة عن الغرف المعتادة التي تتناول فيها الأسرة طعامها. ولا يشارك المضيف ضيوفه الطعام إلا إذا دُعي لذلك، ويقوم رفقة أبنائه بخدمة ضيوفه وإدخال الطعام الذي أعدته النساء. يتميز الريفيون مع ذلك، عن العرب في نقط محددة نذكر منها حرص الريفيين على غسل اليدين بالماء والصابون إذا توفر، وتنشيفهما بفوطة أو أية قطعة من القماش، قبل وبعد الأكل، مع تجنب كثرة الغرغرة والبصق أثناء الغسل. يميل الريفيون أيضا إلى استعمال الملاعق الخشبية بشكل أكبر عند تناول الكسكس مثلا، بدل الأيدي وحدها.[889]

---

[885]- يتميز كرم الضيافة بالريف الأوسط بضوابط تحبب الضيف القريب عن الغريب، بخطوط تحدد مناحي الحياة اليومية. انظر:
- Emilio Blanco Izaga (2013), *Perro de kábila y otros registros etnográficos del protectorado de España en Marruecos*, Vicente Moga romero, Melilla, pp.67-68.

[886]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 70.

[887]- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu …,* op.cit., p. 124.

[888]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 71.

[889]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 63.

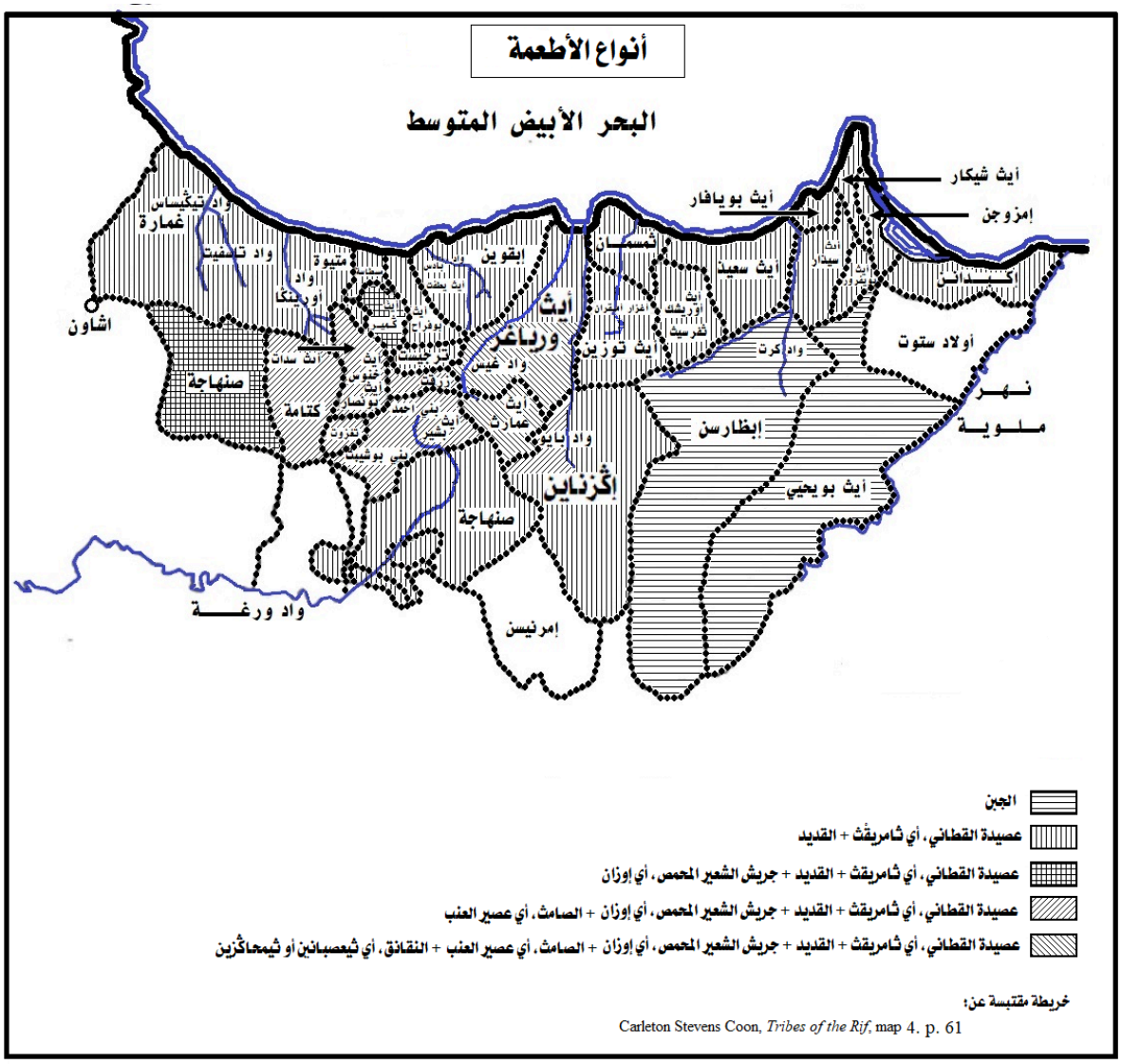

اتسعت مواضيع تاريخ الحياة اليومية التي تتطرق إلى الأسرة والتغذية واللباس مثلا، عن طريق الانتقال من ذاكرة الحكام إلى ذاكرة المنتجين والفاعلين، ومن تاريخ الدولة إلى تاريخ الروتين اليومي، ما استدعى توسيع دائرة الأرشيف والمصادر التاريخية لتشمل عناصر مغيبة من قبل كالرواية الشفوية والتراث الشعبي. تقوم المعرفة التاريخية على شروط علمية مشروطة بظروف إنتاجها، ما يفسر ظاهرة إعادة كتابة التاريخ، والاهتمام بتاريخ التاريخ، وهو الحقل الذي حقق تراكما في البلدان الأنجلوساكسونية. كما تعني المعرفة التاريخية تنقيح الذاكرة وتقديم تاريخ يوازي تراجع الذاكرة، ما يجعل التاريخ مساهما بشكل أو بآخر في بناء الذاكرة الجماعية.[890]

[890]- عبد الأحد السبتي(2003)، «بين التاريخ والذاكرة الجماعية تشكلات ورهانات ، **مجلة البحث التاريخي**، العدد الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، صص. 27-29.

تتمثل أهم الملابس الرجالية الريفية القديمة في الجلباب أي «أجدْجاب»[891]، والسلهام الصوفي القصير بالقب ودون أكمام المسمى «ثاخيذوسْث»، و«شامير»، ذلك القميص الطويل الذي كان يلبس تحت الجلباب وكان صوفيا حتى بداية القرن العشرين ثم أصبح قطنيا أبيض. أما غطاء الرأس فقد كان حتى فترة الحماية يتمثل في العمامة الصوفية القصيرة التي لا تغطي مجموع الرأس، والمسماة «ثاغْرافث»[892]، وهي نفسها التي كان يستعملها أفراد الجيش النظامي الريفي بألوان مختلفة تميز رتبة القواد والجنود[893]. انتشرت بعد ذلك العمامة القطنية ذات اللون الأصفر أو الأبيض والتي تحمل اسما جامعا هو «ثاعْمانت». ومن قطع الملابس المألوفة لدى الريفيين في الماضي، الحزام الجلدي العريض، أي «ثاعگّاط»، والمحفظة الجلدية التي تعلق على الكتف خارج الجلباب، أي «ثازعْبوثْش»[894].

استعمل الريفيون الأقمشة القطنية والحريرية المستوردة بعد أن كانت ثيابهم صوفية، حيث كانوا ينسجون القماش الصوفي اللازم لثيابهم وأغطيتهم بطريقتين مختلفتين، الأولى بواسطة طريقة تقليدية تسمى «أزطّا»، وتختص بها النساء اللواتي يتعلمن النسج في سن مبكرة نظرا لأهمية هذه المهارة كعامل يضاعف حظوظهن للزواج، والثانية باستعمال منسج أكبر وأكثر تعقيدا، ويختص الرجال بالنسج في هذه الحالة، علما بأن هذه الطريقة غير منتشرة في كل قبائل الريف الأوسط.[895]

اعتاد الورياغليون والعمارتيون قبل دخول الإسبان لبس نعال الدوم لها خيط يمر بين أصبعي القدم، بينما نعال إگزناين قبل دخول فرنسا تميزت بخيوط متقاطعة، وفي المناطق الشديدة البرودة انتعل الريفيون أحذية مصنوعة من جلد البقر، وبعد الاحتلال اختفت هذه النعال تدريجيا لتحل محلها أحذية خفيفة من القماش والمطاط.[896]

---

[891]- لبس الريفيون قبل تاريخ 1926م جلابيب قصيرة إلى الركبتين مزينة على الصدر والكتفين بالطرز والشرابات، ومع دخول الإسبان تعددت ألوان الجلابيب وزاد طولها، وارتدوا سراويل قصيرة واسعة بيضاء وزرقاء اللون وقمصان طوية تحت الجلباب، كانت صوفية وأصبحت قطنية بعد دخول الإسبان، بالإضافة إلى الأحزمة الجلدية لحمل السلاح، ومحفظة جلدية كانت توضع خارج الجلباب. اعتاد الريفيون بخصوص غطاء الرأس الاعتمار بعمامة قطنية طويلة بيضاء بعد الحماية، أما قبلها فكانت صوفية قصيرة لا تغطي قمة الرأس التي كانت تتدلى منها خصلة الشعر الطويلة المسماة «ثامزورث»، هذه الخصلة التي كانت محددا للانتماء القبلي للشخص، حيث تتدلى من وسط مؤخرة الرأس بالنسبة إلى الورياغلي ومن الجانب الأيمن لدى أهالي أيث عمارث وإگزناين. وكانت عمامة الشرفاء قبل ظهور ابن عبد الكريم، ذات لون أخضر. بدأ الشبان الريفيون في فترة الحماية في اعتمار القبعات والطرابيش كالطربوش المغربي الأحمر أو القبعة الصوفية التي كانت تحمل اسم قلنسوة إبقوين. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص.68-66.

- كان الزي الرجالي متميزا قبل التأثير الأوربي، ففي أيث عمارث، وإسوة بباقي الريفيين، كان الرجال يرتدون الجلباب الصوفي القصير المعتاد والسروال الفضفاض المزموم عند الركبتين، وكانوا يحلقون رؤوسهم تاركين ضفيرة طويلة تنزل حتى الحزام من الجهة اليمنى للرأس، كما كانت توضع في أذن الطفل في سنته الأولى أو الثانية أقراط نحاسية تُلمَّع بعناية للحفاظ على بريقها.

- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu…,* op. cit., p. 125.

[892]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 80-81.

[893]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي، ترجمة وتقديم وتعليق محمد أونيا -عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الرايس، نشر جمعية صوت الديموقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى، 2016، ج.2، ص. ص..740-738

[894]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 81.

[895]- Ibid, pp. 77-78.

[896]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .68

تأثر الريفيون الساحليون باللباس الأوروبي في بعض جوانبه مثل الجوارب والأحذية، وبعض الأقمشة المسماة محليا «حياتي-ملاكة-توبيت-ملف...»[897] . وقد شكلت الأزياء قبل فترة الحماية عنصرا يساعد على تحديد الانتماء القبلي للفرد، لكن هذا الأمر أصبح صعبا في فترة الاستعمار، ثم شبه مستحيل بعد الاستقلال نظرا للتأثر الكبير بالنمط الغربي.[898]

اعتمد الريفيون لفترات طويلة على الملابس الصوفية قبل ظهور الأقمشة القطنية والحريرية[899]، هكذا ارتدت المرأة الريفية رداءها الصوفي الأبيض الذي كان عبارة عن قطعة مستطيلة من النسيج الصوفي، يُمرر طرفها تحت الإبط الأيسر وتُلف حول الجسم ثم تُثبت فوق الكتف الأيمن بمشابك فضية أو من القصدير تدعى «إسْغْناس»، وهي من صنع اليهود كما كان الشأن بالنسبة لجميع أنواع الحلي[900]. وفي فترة لاحقة أصبحت هذه الكسوة التي استمرت في حمل نفس الاسم، أي «ثايذوا)ر(ث»، قطنية وذات ألوان زاهية .[901]

ترتدي النساء الريفيات خلال المناسبات الخاصة، ثوبا يسمى الدفين، وتكون هذه الأثواب مموجة ومطرزة وفوقه ثوب شفاف مطرز بخيط ذهبي، أو حريري ملون، ويضعن في أعناقهن قلادات لامعة من العقيق الملون، وتضع النساء المتزوجات على الجبين خيطا به قطع ذهبية أو فضية، ويغطين رؤوسهن بمناديل من حرير، أما العازبات فيستعملن مناديل من قطن مثبتة بشريط واسع وصلب يشبه التاج.[902]

---

[897]- محمد أحميان، الريف والبحر الأبيض المتوسط...، م.س.، ص..598

[898]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .68

[899]- حافظت النساء بالريف الأوسط على الخصوصية في لباسهن أكثر من الرجال، وكانت المتزوجات منهن يرتدين كسوة صوفية طويلة بيضاء، مثبتة عند الكتفين بمشابك فضية ثقيلة. وقد ظهرت في فترة الاستعمار كسوة حريرية طويلة بألوان زاهية، تسمى «ثايذوا)ر(ث»، وسراويل قطنية، وترتدي النساء خلال الحفلات ثوبا أرق من السابق فوقه ثوب شفاف ينسجم معه في اللون يسمى «دْفين»، ويحطن خصورهن بحزام قطني أحمر. وتضع النساء العازبات والمتزوجات مناديل حريرية، وعلى جباههن شريطا يصنع من ذيل البغال تتخلله قطع فضية. ويمكن التمييز بين المتزوجة والعازبة، إذ تضع العازبة شالا مطرزا مشدودا خلف الرأس ويبدو كشريط عريض فوق الجبين يسمى «أحارّاز»، في حين تربط المتزوجة خيوطا صوفية سوداء على مستوى القفا الذي لا يظهر منه أي شيء وتتدلى هذه الخيوط إلى الخلف على شكل ضفيرتين. وكانت الريفيات يمشين حافيات داخل البيت، أما خارجه فيلبسن بلغات جلدية ملونة ومطرزة ذات صنع محلي. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .69

[900]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…, op. cit.,* p. 82.

[901]- ترتدي النساء الريفيات غالبا ثيابا ذات ألوان زاهية ولامعة أحيانا ويغطين رؤوسهن بمناديل جذابة ويربطنها بحلي فضية لامعة، انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص..32

[902]- نفسه، ص..56

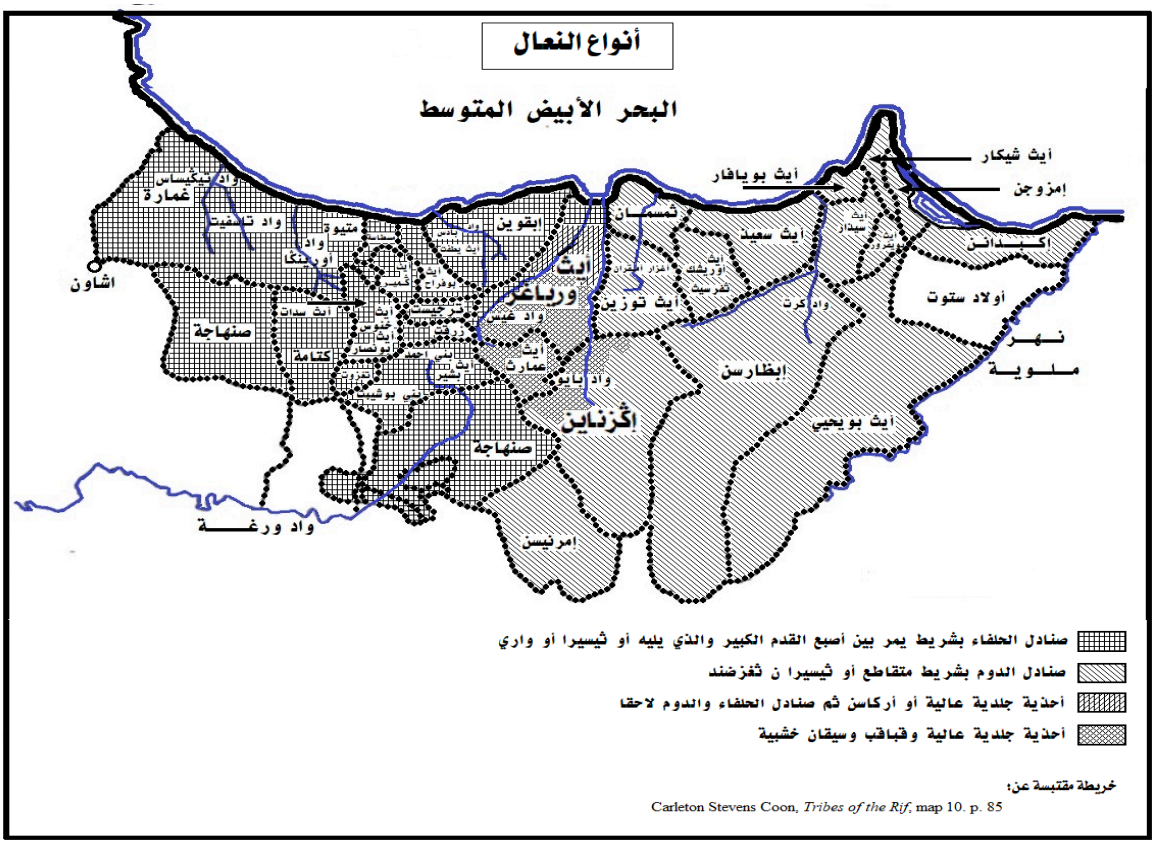

تتنوع الحلي النسائية في الريف بين الرخيصة والثمينة من حيث القيمة الرمزية، فالجديدة تظل رخيصة، والثمينة تكون متوارثة عادة، ومكونة من المشابك والخلاخل الفضية التي لا تترك للاستعمال إنما للذكرى. ولم تعد صناعة الفضة حاضرة بالريف لارتباطها باليهود الذين غادروا إلى إسرائيل بعد الاستقلال. ومن المألوف في الريف الأوسط أن تتجمل المرأة المتزوجة لزوجها بالكحل والحناء، ويعتبر الوشم على الذقن والجبين من متطلبات الزواج[903]. وتقوم النساء الريفيات المسنات بمهمة وضع الوشم بطرق تقليدية عن طريق وخز الجلد بإبرة ووضع محلول مصنوع عن طريق مزج الهباب المتجمع تحت القدر وأوراق الفول. ويعتبر الوشم في الريف طقسا من طقوس العبور إذ تضعه الفتيات المقبلات على الزواج، ويعد من تحضيرات الزفاف، لذا كان من العار أن تُزف العروسة إلى زوجها دون وشم، ومن العيب أيضا أن تشم العازبة جسدها دون أن تكون مقبلة على الزواج.[904]

تستعمل الريفيات الكحل الممزوج أحيانا بقليل من القرنفل والفلفل الأسود لتزيين الجفون والرموش، وكوسيلة لتجنب أذى العين الشريرة، ويستعملن مادة حمراء مستخرجة من حبات

---

[903]- تذكر الذاكرة الجماعية بالريف أن الوشم عادة قديمة جدا، إذ قامت النساء بوشم أوجههن وأذرعهن تعبيرا عن العار الذي لحق بهن عندما فر الريفيون أما الغزاة الرومانيين. انظر:
- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 69.

[904]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 86-87.

نبات الدروة، أي «ثيجغْثْ»، لتزيين الخدود، أما بالنسبة للشفتين فيدعكن لحاء شجرة الجوز المجفف، أي «السواك»، أو قشرة حبة الجوز الطرية.[905]

ويعتبر الكحل، أي «ثازوتش» منتوجا محليا، إذ تبحث النساء عن قطع من حجر الإثمد التي يسحقنها جيدا، ويستعمل الكحل لإعطاء الرموش والجفون ذلك اللون الأسود الجذاب والبريق للعين ذاتها. رغم إمكانية وضعه كلما رغبت المرأة في أن تظهر أجمل إلا أنه يرتبط أكثر بحفلات الزفاف، وتضع العروس الكحل قبل الذهاب إلى بيت زوجها، ويضعه العريس في اليوم الأخير من زفافه في منطقة صنهاجة وغمارة وأيث بوفراح وأيث بويحيي وإشاويين من إگزناين[906]. ويتم وضع أحمر شفاه مصنوع محليا. وتعتبر الحناء طقسا تزينيا مقدسا بالريف وبكل مناطق المغرب، ولا تخلو منها حفلات الأعراس حيث تُخضب يدا وقدما العروس إلى الرسغين والكاحلين، بينما يكتفي العريس بتخضيب اليدين ولا توضع الحناء في الريف على أشكال هندسية كما هو حال العرب ويهود الأطلس، بل تُغطى الأطراف بأكملها إلى أن يصبح لونها بنيا يميل إلى الحمرة. استعملت في الريف أوراق التفاح وقشرة حبة الجوز الطرية بدلا من أوراق الحناء في البداية، وهذه المادة أساسا يجلبها الريفيون من دكالة. وكان للحناء في الريف استعمال بعيد عن خاصية التجميل، بل بهدف التشهير، حيث كانت النساء يعمدن إلى تمزيق قميص من يظهر جبنه في الحرب ويلطخن ظهره بعجينة الحناء.[907]

اختلفت أدوار الرجال والنساء بالريف الأوسط باختلاف مظهرهم من حيث الهندام والزينة، إذ يعتبر الريف كغيره من المجتمعات الإسلامية والمحافظة، والتي تخلق للجنسين مجالين منفصلين، ضمن مبدأ الاختلاف والتكامل عن طريق التعاون الاجتماعي.

ثانيا: الأعمال المنزلية (توزيع الأدوار)

حدد إميل دوركايم من خلال دراسته حول ظاهرة تقسيم العمل، العلاقات بين الشخصية الفردية والتعاون الاجتماعي، وكيف حدث أن أصبح الفرد أشد خضوعا للمجتمع، في حين كان أكثر ميلا نحو الاستقلال وكيف يصبح في آن واحد أكثر فردية وأشد تبعية[908]؟

ترتبط عادة ظاهرة تقسيم العمل بالمجتمعات الانقسامية لأنها تتألف من جماعات متشابهة في ما شبهها دوركايم بحلقات الدود، ونقول عن هذه المجموعة «عشيرة» لأن هذه الكلمة تعبر تعبيرا جيدا عن طبيعتها المختلفة العائلية والسياسية معا. أنها عائلة بمعنى أن كل الأفراد الذين يؤلفونها يعتبرون أنفسهم أقرباء بعضهم لبعض، وهم في الحقيقة في أكثريتهم أقرباء بالدم، وهذه الوشائج التي تنشئها وحدة الدم هي الأساس الذي يجمع بينهم.[909]

يقترح دوركايم لفهم هذه المفارقة مفهومين كان لهما تأثير كبير على فرع الانثروبولوجيا الوظيفية، هما مفهومي: التعاون الآلي، أو التعاون عن طريق التشابه والتعاون

---

[905]- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص..59

[906]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 89.

[907]- Ibid, p. 88.

[908]- إميل دوركايم (1986)، **في تقسيم العمل الاجتماعي**، ترجمة: حافظ الجمالي، مجموعة الروائع الانسانية، الأونيسكو (السلسلة العربية)، الطبعة الثانية، ص..49

[909]- نفسه، صص. .203-202

العضوي وما يخصنا نحن في هذا الصدد، وما يجب التركيز عليه هو المجتمعات ذات التعاون الآلي، التي وصفها دوركايم بالانقسامية. بالإضافة إلى المفهوم المحدد لهما والمتمثل في تقسيم العمل الذي لا يتردد دوركايم في نسبته لآدم سميت الذي ابتكر هذه الكلمة، التي أعارها العلم الاجتماعي في ما بعد إلى علم الحياة (البيولوجيا).[910]

اعتمد المجتمع الريفي مبدأ تقسيم العمل الذي اعتمدته مجموعة من المجتمعات الزراعية المستقرة[911]. ويتم انجاز الأعمال في المجتمع الريفي وفق مبدأ الدور، وذلك سواء لتقديم الهدايا في الأعراس، أو في ممارسة السلطة، أو في الانتفاع بمياه السقي، أو في تويزة والأعمال الجماعية، أو الانتفاع بالمرعى والحيوانات خلال موسم الحرث، وبالتالي يمكن القول أن المجتمع الريفي مجتمع دوري، ويطلق مصطلح الدور في الريف، أي «النوبث»، على العائلة النووية أو الأسرة، وهي أساس تقديم وجبة الفقيه اليومية ومشارطته، بل حتى أداء ضريبة الترتيب .[912]

تسود ظاهرة تقسيم العمل داخل مجتمعات الريف الأوسط باعتباره مجتمعا انقساميا، وتدور أحداث الحياة اليومية داخله بين البيت والحقل والمرعى، التي تعتبر إطار الواقع المعاش الذي يضع حدا فاصلا بين العالم الأنثوي والذكوري، إذ تحتوي المنازل الريفية على فناء داخلي منغلق ومنعزل تماما عن الخارج، يشكل الفضاء الرئيسي الذي تعيش فيه المرأة، وتوجد غرف محيطة به[913]. غالبا ما يضع الريفيون بابين لغرفة الضيوف، الرئيسي ينفتح إلى الخارج لضمان حرية خروج الرجال دون اختلاط، والثانوي يؤدي إلى الفناء الذي تنفتح عليه كل الغرف، وهو فناء مكشوف لا تغطى منه سوى أجزاء السقيفة المحيطة به. وبما أن نوافذ الغرف صغيرة جدا فإن نسبة الإضاءة والتهوية ضعيفة بها، لذا تستعمل الأسرة هذا الفناء للقيام بجل الأعمال المنزلية[914]. وقد انعكس النسق الاجتماعي السائد على تقسيم العمل بين النساء والرجال وعلى بنية العائلة في الوسط القروي، لاسيما على المرأة التي أصبحت ملزمة بأداء مجموعة من الأدوار حسب هذا النسق الذي يحدد أيضا واقعها المعيشي.[915]

ترتبط البنية الذهنية بممارسات الحياة اليومية، وتعكس حضور المجموعات الاجتماعية من خلال هذه التمثلات[916]. وتستحضر هذه البنية قرونا مضت من ثقافة المجتمعات الإنسانية،

910- إميل دوركايم، في تقسيم العمل الاجتماعي...، م.س.، ص. 50.

911- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Taghzut, Le 15 Mai 1947, p.5.

912- دايفيد مونتگومري هارت(2004)، **القانون العرفي الريفي**، ترجمة محمد الولي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص. ص. 28-27.

913- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص..32

914- نفسه، ص. 36.

915- إدريس مقبوب(2015)، «المجال الاجتماعي للمرأة القروية وأثره على بنية العائلة »،**سوسيولوجية المجتمع المغربي**، منشورات فكر، بدعم من وزارة الثقافة، الرباط، ص. 65.

916- يعتبر لوسيان گولدمان Lucien Goldmanأبرز الرواد لهذه النظرية وتبناها في مشروعه البنيوي، انظر:
- Plusieurs écrivains(1977), »Le structuralisme», *Collection Médiations*, n° 159, *Denoël*, Paris.

وأنماط التمييز التي لم تستطع الذاكرة الذكورية التخلص منها، وأدلت بهذه الخلفيات من خلال وتيرة تقسيم العمل والأدوار.[917]

نجد داخل المجال الاجتماعي فضاء خاصا بالنساء[918]، ويتسم بالروتين اليومي للمرأة القروية الطامحة لغزو المجال الاجتماعي الرجولي، وتخطي الخطوط الحمراء التي يمتلك الرجل وحده حق بلوغها، وللمرأة فضاء خاص بها، ومجال تحركها منفصل عن مجال الرجل تماما. ونلاحظ في المجتمع الريفي تقسيم العمل حسب الجنس، وتقتحم المرأة الأعمال المخصصة للرجل من حين لآخر، وتنتقل من المربية والمعدة للأكل، إلى المرأة المنتجة اقتصاديا والفاعلة في ميدان الإنتاج.[919]

يمكننا إعادة بناء نمط عيش المجموعات وماضيها من خلال التاريخ الشفهي، وكيفية تشكل ذاكرتها الجماعية التي تجد فيها هويتها[920]. ومن الممكن أيضا تشكيل الروتين اليومي بالريف من خلال هذا التاريخ، فالريفي يستيقظ فجرا ويصلي، ثم يشرب كأس الشاي أو القهوة من إعداد الزوجة، ويأخذ الخبز والتين المجفف لينطلق إلى الحقل للقيام بالأشغال الزراعية حسب فصول السنة، كالزرع والدرس والحصاد وعصر الزيتون وإعداد الفحم، وما إلى ذلك. يتناول طعامه في مكان عمله ظهرا استغلالا للوقت، ويعود للبيت حين يحل الظلام، وفي أيام الفراغ يجلس أمام بيته يستريح ويرتشف القهوة أو يشرب الشاي، والوقت والزمن لا ينظر إليهما حسب المعايير المغربية بمعنى شيء يجب الحفاظ عليه واستغلاله، فهو يقوم بعمله على أكمل وجه ثم يستريح في انتظار العمل الموالي.[921]

وضمن مجموع المجال المدروس، لم يختلف اليومي المعتاد في القبائل الريفية الواقعة تحت سيطرة الحماية الإسبانية[922]، عن مثيله في قبيلة إگزناين التي احتفظت بتاريخها الشفهي المتناقل من طرف النساء والمتقدمين في السن، وتمسكت بعاداتها وممارساتها اليومية، ولم تتغير ملامحها التنظيمية رغم حضور الجهاز المخزني باسم القائد والشيخ والمقدم، حيث

---

[917]- فاطمة كدو(2015)، «الدلالات الدونية لبارة «أنئى» في الذاكرة الجماعية بين الوضوح والغموض »،«**سوسيولوجية المجتمع المغربي**، منشورات فكر، بدعم من وزارة الثقافة، الرباط، ص. .10

[918]- انقسمت الآراء حول مكانة المرأة في التراث الشعبي بين ثلاث مواقف، فهناك من قال أن التراث مجدها داخل الأسرة والحياة الاجتماعية والسياسية، وانتهى الموقف الثاني إلى تثبيت قيم تبعية المرأة ولاحقيتها بالرجل، وعمل الموقف الأخير على إبراز معالم الصورة المتدنية للمرأة، سواء على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الخلقي وضعف القدرة وذلك من خلال الأمثال والأشعار والحكايات. انظر:

- عبد الحميد حواس(2010)، «الإبداع النسوي في الثقافة الشعبية »،«**مجلة الثقافة الشعبية**، العدد الحادي عشر، أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، البحرين، ص. . 25

[919]- ادريس مقبوب، المجال الاجتماعي للمرأة...، م.س.، ص..66

[920]- جاك لوغوف (2017)، **التاريخ والذاكرة**، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، ص..165

[921]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .74

[922]- *B.N.E.A.H., A.F.C.a7172-21, R. 71677,* Diario de un soldado en la campaña de Marruecos 1921-1922, Juan Sánchez Rodrigo, El cronista, Cerradilla, 1922. p. 18.

حافظت على استقلاليتها وخصوصيتها الجماعية، وكان يصعب على فرد منهم العيش بدون سلاح في اليد.[923]

عاش أهالي إگزناين عموما حياة الفلاحين الجبليين الذين يعتمدون في زراعتهم على قطع أرضية صغيرة «الفدان»، يحيطونها بالحجارة لتشكيل حدودها الخاصة، ولكل منهم أشجار زيتون وأخرى مختلفة الثمار، وبقرة وعدد من رؤوس الماعز متفاوت من فلاح لآخر، وبالنسبة للفلاح الذي ليس له ما يكفي من الأبناء للقيام بالأشغال الزراعية يستعين بخماس[924]. ولكل فلاح خماس.

للرجال وحدهم حق التمثيلية في المجالس القبلية، ويعود إليهم واجب حماية الأسرة والجماعة وتدبير شؤونهما، في حين يقتصر دور النساء على المساعدة وتقديم المشورة وطاعة الرجل. والرجل حر في اتخاذ قراراته وعمله أساسي ومرتبط بالعالم الخارجي، فيما المرأة تابعة وعملها ثانوي مرتبط بعالم المنزل الداخلي. وإذا كان الرجل يتحكم في أملاكة ويتصرف فيها حسب رغبته، فإن المرأة لا يحق لها امتلاك شيء لنفسها أو تفويته باستثناء البيض والدجاج. ولا يحق للمرأة مغادرة المنزل لأي سبب من الأسباب دون إذن مسبق من زوجها. ولا ترتاد النساءُ أسواقَ الرجال سوى إذا كن عجائز او أرامل، ولا تجرؤ من تعتبر من عائلة محترمة ارتياد السوق. لذلك خصصت لهن أسواق لا يدخلها الرجال، ويتعذر بالتالي على عالم الأنثروبولوجيا الذكر معرفة ما يحدث هناك. لكن يتساوى الرجل والمرأة في عقوبة الزنا حسب الثقافة المحلية، إذ يقتل الطرفان إذا ضبطا متلبسين.[925]

نعلم أن التمييز بين الجنسين واقع اجتماعي بالريف عامة والريف الأوسط خاصة، الواقع الذي يعيده أغلب الدارسين إلى تشبث الريفيين بالإسلام، ويعتبره آخرون خاصية متوسطية، وتقسيم العمل في هذه المجتمعات يكون بشكل صارم، لأن أماكن عمل كل من الرجل والمرأة متباعدان، ولكل منهما عمل خاص به، ويثبت كل طرف جدارته وقدرته على القيام بالعمل الذي يسند إليه. إذ تعتبر الفلاحة عملا رجاليا، بما في ذلك الري والتسميد، بالإضافة إلى البناء وتحضير الفحم وتشغيل المعصرة، ويشارك الرجال في الأعمال التضامنية التي تخص شق الطرق، والصناعات اليدوية المختلفة، ويقومون بعملية استيلاد البقرات، ويعدون الشاي للضيوف.[926]

ومن مهام النساء في الريف الاعتناء بالأطفال والقيام بجميع أشغال البيت وطحن الحبوب بالرحى اليدوية والاحتطاب وجلب الماء من العيون والبحث عن الكلأ وتنظيف الملابس وإعداد

923- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Monographie sur les Jemaas en Tribu Gzennaia, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 21 Mai 1930, p.1.

924- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Fiche N° 1522/2.0, Confidentiel, Le Colonel Georges, Chef du Territoire de Taza, Fiche N° 1522/2.0, Fiche de tribu Gzennaia, Cercle de Tainast, 17 Octobre 1952. p.11.

925- David Montgomery Hart (1995), Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif. Una selección de su obra, publicada e inédita, sobre la estructura sociopolítica de los rifeños del norte de Marruecos, estudios introductores y notas de Hart, La Biblioteca de Melilla, p. 116.

926- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 72.

الطعام[927]، بالإضافة إلى المساهمة في أشغال الزراعة كالحصاد وتنقية الحقول من الأعشاب الضارة وجلب التبن من البيدر. أما مهام الرجال فتنحصر في مجالات عامة هي الحرب والزراعة والدين والبيع والشراء، وتتمثل في بناء المنازل والقنص وصيد الأسماك وصناعة الفحم ومختلف الأدوات والأوعية من الخشب والقصب والحلفاء والدوم، بالإضافة إلى المشاركة في الطقوس الجنائزية.[928]

يعتمد النظام السوسيو-اقتصادي في الريف على توسيع دائرة الأسرة، حيث يزوج الآباء أبناءهم الذكور، مع بقائهم تحت سلطته والتزامهم رفقة أبنائهم بمساعدته في الأعمال الزراعية وإعالته مستقبلا[929]. ويقوم الأطفال بأداء أدوارهم داخل المجتمع الريفي ويأخذون نصيبهم من الأعمال التي تبدأ منذ سن السادسة، حيث يقومون بمهام الرعي حتى سن الثانية عشرة، فيلتحق الذكور والإناث بالأعمال المنوطة بهم مجتمعيا حسب جنسهم[930]. تعد المرأة القروية عادة ابنتها الكبرى لتحمل المسؤولية وتربية الأطفال[931]، لتعوضها عند قيامها بأعمال الحقل، وتظل المرأة تحت تصرف الرجل الذي يُعتبر الآمر والناهي في أوقات مزاولتها لهذه المهام، وهو استمرار للسلطة الأبوية البطريركية، غير أن المرأة المسنة لا تخضع لهذه المعايير فهي تختلط بالرجال دون استشارة ولا تردد، تستقبل الضيوف وتقوم بواجب الزيارة وتقديم التهاني والتعازي، وبذلك يصبح المجال الاجتماعي للمرأة أضيق مقارنة مع المرأة المسنة.[932]

تقوم المرأة بثلاث أنشطة زراعية بمعزل عن الرجال، منها الحصاد، وجني التين والعنب، وتقتصر عملية طحن الحبوب بالرحى اليدوية على المرأة، بالإضافة إلى إعداد الطعام والقيام بالأعمال المنزلية وإحضار الماء، وطلي أرضية البيت وتبييض الجدران، والاهتمام بكل ما يتعلق بالماشية، وإعداد الشاي لأنفسهن، وترفق الأنشطة الفلاحية التي تقوم بها المرأة بأهازيج «إزران» المعتادة خلال الأيام الاحتفالية.[933]

تقوم المرأة الريفية بأنشطة مكثفة طيلة اليوم، ومن وجهة نظر المجتمع الريفي يجب على المرأة أن تعمل أطول وقت ممكن، تستيقظ فجرا وتشعل القنديل، وتحضر ماء الوضوء والشاي لزوجها، وتطحن الحبوب وتفطر الأطفال قبل إرسالهم للمرعى، ثم تنظف البيت وتذهب لجلب الماء، وهي فرصة لملاقاة النساء الأخريات وتبادل الحديث معهن دون إزعاج من طرف الرجال الذين يتفادون العيون والممرات المؤدية إليها. تُعد بعد ذلك الغذاء الذي لا يجتمع حوله

927- من المعروف أن إعداد الطعام خلال حفلات الأعراس في الريف يقوم به الرجال نظرا للكمية الكبيرة من الطعام التي يجب توفيرها وضرورة إعداد مواقد كثيرة خارج المنزل. انظر:
- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص..69.

928- David Montgomery Hart, *Emilio Blanco Izaga...,* op. cit., pp. 115-116.

929- *M.E.D.A., La Maison rurale du pré-Rif,* L'Union Européenne, 23-02-2001, p.2.

930- دايفيد مونتكَومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .73

931- تتولى الفتاة بالمجتمع الريفي مهام الأم من غسيل وطبخ وكنس وتربية الأطفال وجلب الماء والحطب والكلأ للماشية، بينما يعوض الفتى مهام أبيه المتمثلة في أغلب الأحيان في الأعمال الفلاحية لأنها النشاط الأكثر انتشارا بالمنطقة، ويعوضه في أعمال التجارة والصناعة إن كان أبوه يمتهنها. انظر:
- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 8.

932- إدريس مقبوب، "المجال الاجتماعي للمرأة...، م.س.، ص..67

933- دايفيد مونتكَومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .75

كل أفراد الأسرة، نظرا لانشغالهم، وتجلب الكلأ للبقرة وتهيئ الخبز، ثم تطهو وجبة العشاء، في انتظار عودة أفراد الأسرة، تقسيم العمل بين الجنسين دليل على تقسيم عوالمهما، إذ يعتبر عالم المرأة خاصا وسريا ومرتبطا بالبيت، فيما يعتبر عالم الرجل مفتوح وعلني.[934]

تعيش المرأة القروية في المخيال الذكوري القروي وضعية دونية كرستها الثقافة الشعبية المتجسدة في التراث الشفوي في شكل حكايات وأساطير وأمثال ومستملحات. ويتضمن هذا التراث حمولة تنطوي على نوع من التعسف تجاه المرأة التي تخضع لسلطة الرجل. أما تأثيرها فينحصر في الوسط العائلي ويصبح أقوى كلما كان سنها أكبر، إذ يشمل الأقل منها سنا فتقسم العمل بين النساء الأخريات وتستبد برأيها، نظرا لاعتبارها أكثر حكمة في حل المشاكل. وقد رسخت الثقافة السائدة مفهوم علو شأن الرجل ودونية المرأة من منطلق أن لا سلطة تعلو على سلطة الرجل، وانغرس هذا المفهوم في الذاكرة الجماعية منذ أجيال، حيث يعاد انتاجه عبر قنوات مختلفة، مع ما يحمله من عنف رمزي وخضوعه لمنطق الهيمنة.[935]

يعتبر الفصل بين الجنسين أساساً ثقافياً في المجتمع الريفي، ليس بصورته السلبية وإنما بطاقته الفاعلة التي تحدد لكل طرف دوره في المجتمع، والتي يأخذها الإنسان الريفي بشكل بديهي لأنه محضر من أجلها منذ الميلاد، وعلى ضوء الفضاء العام للحياة اليومية ومبدأ تقسيم العمل يمكننا تركيب الروتين اليومي بالريف الأوسط.

المبحث الثاني: إعادة تركيب دورة الحياة

أولا: من الميلاد إلى تكوين الهوية الجنسية

استمر الحوار بين التاريخ والعلوم الإنسانية، ونتج عن نهله من الأنثروبولوجيا، اقتحام التأريخ لمجال الحياة اليومية للإنسان، والثقافة الشعبية، ونزوعه إلى الاهتمام بالجماعات أكثر من الأفراد، وبالعادات أكثر من الأحداث، وأصبح يتطرق إلى مواضيع جديدة همت التغذية والجنس والعائلة والطفولة والموت والمواقف من الحياة.[936]

وتقع على عاتق المؤرخين والأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع مهمة جعل الذاكرة أكثر موضوعية، وتجاوز المصادر النخبوية، والاتجاه صوب الإنسان العادي لكشف الذريات العائلية والقصص المحلية والشعائر، وإلى منجم المعلومات غير الرسمية وغير الخاضعة للمؤسسات، والتي تعد حاملا للوعي الجماعي للأسر والقرى. ولا تسعى الذاكرة التي ينهل منها التاريخ إلى إنقاذ الماضي، بل إلى الاستفادة منه، إذ يجب العمل على أن تستخدم الذاكرة الجماعية لتحرير البشر، لا استعبادهم.[937]

934- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 75.

935- إدريس مقبوب، "المجال الاجتماعي للمرأة...، م.س.، ص..69

936- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..311

937- نفسه، ص. 168.

سعت استعارة معنى القبيلة إلى تبيان قضية عودة الجماعات ذات الميزات المشتركة في المرحلة المعاصرة، مثل التجذر في الأرض، وتقاسم العواطف المشتركة والانفعالات مهما كانت عابرة، والبعد اليومي والطقسي، وإعادة تقييم الجسد والجوانب المظهرية باعتبارها غاية في حد ذاتها. وكل ما يطبع روح الجماعة يبرهن عن وجود بناء إنساني داخل المجتمع القبلي، ويشكل أصل الرموز الثقافية، فقيمة الحياة المعاشة من يوم إلى يوم تسير جنبا إلى جنب وسلسلة مؤشرات البعد «البدائي» للإنسان الذي يرفع من قيمة الجسد بالعودة إلى الطبيعة، وإعادة كشف الجانب الحسي، الملامس للاجتماعية والجمعاتية «للمشهد» الاجتماعي، وتجدد التضامن العضوي في الجماعة. ونستطيع الإقرار بوجود عناصر ثابتة في عمق التكوين القبلي للمجتمع، أهمها الشعور بالانتماء، والرغبة في الانضواء داخل جماعة مهما كانت غايتها، والمساهمة في الاتحاد العضوي للإنسان.[938]

يُبرز التكرارُ الدوري المشكِّل لأحداث الحياة اليومية أهمية المظهر الطقسي الذي تحوزه الممارسة اليومية للجماعات. إنه غريبٌ عن جميع المفاهيم الغائية للزمن الاجتماعي، لأن الوعي الجماعي يجد في التكرار الطقسي ترياقاً للزمن الهارب نحو الموت، والبعد المشترك للمخيال الجماعي والفضاء اليومي ثريٌ بسلسلة من الصور النمطية المكررة التي لها جذرها في النماذج الأصلية الأولية. وتعطيها رموز الأساطير المشتركة البعد المعاش الجماعي في آن واحد، مع كونها أيضا أساسا للوجود المجتمعي. ويحفز البعد الأسطوري الحماسة التي تنتج عنها المهرجانات الشعبية والتجمعات الموسيقية، وهي أعراض تدل على رسوخ البعد الأسطوري للجماعات المنصهرة ضمن العالم التخيلي.[939]

رسخت الذاكرة الجماعية المغربية رصيدا تاريخيا هاما، غير أنه يتميز بظاهرة الانقطاع وفقدان بعض حلقاته، وغالبا ما تبدأ ببداية العصر الإسلامي، وفي بعض الأحيان تستحضر تاريخا ممزوجا بالأسطورة فيما يخص ما قبل الإسلام لإثبات الهوية. وتؤدي قلة التأريخ لهذه المرحلة إلى بتر الذاكرة والتجربة التاريخية المحلية في خصوصيتها وتفاعلها مع كيانات جهوية متعددة. وفي المقابل تعتبر قلة الدراسات ردة فعل ضد عدم التمييز بين منطق التعدد الثقافي، ووهم الهوية الإثنية، والذاكرة اللاتاريخية. وقد شهد القرن التاسع عشر مع ذلك، قفزة نوعية من حيث التدوين التاريخي وانتعاش الذاكرة، وذلك بفضل الوثائق المخزنية التي تتضمن شواهد غير مقصودة للتاريخ الثقافي والاجتماعي، ما يجعلها تحظى بمصداقية أكبر، وتنتج ذاكرة جماعية نمطية يغيب فيها الحاكم وراء الحاكم المثال، والفقيه وراء الفقيه المثال، وتغيب بشكل مأساوي وجوه الفلاحين والرعاة والصناع، وأصداء الحياة اليومية، إذا ما استثنينا بعض الإشارات التي يمكننا استشفافها من كتب الحسبة ونصوص الفتاوى وأدب البدع.[940]

938- فالنتينا غراسي (2018)، **مدخل إلى علم اجتماع المخيال نحو فهم الحياة اليومية**، ترجمة: محمد عبد النور وسعود المولى، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، ص..114

939- نفسه، ص. .48

940- عبد الأحد السبتي(2003)، «بين التاريخ والذاكرة الجماعية تشكلات ورهانات ،«**مجلة البحث التاريخي**، العدد الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، صص. .31-30

عندما تبدأ آلام المخاض الأولى وتشعر المرأة بقرب وقت الولادة[941]، يتم الاتصال بالمولدة التي يجب أن تنتمي بالطبع إلى نفس الجماعة وتكون متقدمة في السن وتمارس مهمة التوليد. ولا يتوقع في الوقت الراهن الاتصال بالطبيب أو بأخصائي التوليد، لأن ذلك يفترض ثقة أكبر في الطب، وألا يكون هؤلاء الأطباء أو المولدون من جنس مغاير للمعني بالعناية الطبية. تتكفل العائلة بإخبار النساء في الجوار لمرافقتها في هذه اللحظات الحرجة وتقديم المساعدة المناسبة في هذه الحالة.[942]

تستمر هواجس المرأة الحامل في الريف، أولا من جنس المولود، وثانيا من الحياة الصعبة التي ترافق الولادة، وإن وضعت امرأتان تعيشان تحت سقف واحد، لا يجب أن تلتقيا لمدة أربعين يوما، خشية موت أحد الطفلين.[943]

تنطلق الزغاريد المألوفة المعبرة عن الفرح والابتهاج مباشرة بعد الولادة إذا كان المولود ذكرا[944]، أما في حالة الأنثى فلا يحدث نفس الأمر لأنها لا تستحق هذا التعبير عن الرضى حسب الاعتقاد السائد. ويدل هذا الموقف على وجود قناعة بأنهم سيجدون في الرجل دائما ذلك المعيل والسند، وتلك الحماية في الأوقات الصعبة، في حين لا ينتظرون شيئا من المرأة نظرا لإدراكهم لضعفهن وهشاشتهن[945]. ويمنع الأكل والشرب على المرأة حين يقترب موعد الوضع، لأنه يجلب سوء الحظ، وتشرب قليلا من البابونج بعد الوضع لأنه مدر للحليب[946]. يُقدم للأم بعد الولادة خليط من الدقيق والزبدة وزيت الزيتون، والكثير من القهوة ولحم الدجاج، ويسمح لها بأكل ما تشاء ما عدا الحليب.[947]

يأتي الأقارب وجميع سكان الجماعة إلى منزل المولود الجديد خلال الأسبوع الأول، لتقديم الهدايا للمرأة النفساء تتمثل في الدجاج والبيض واللحم والعسل والزبدة. الخ، وتكون كل هذه الأطعمة جاهزة للأكل. ويعود سبب تقديم هذه الأطعمة جاهزة إلى افتراضهم بأنها لن تتوفر

941- ترسل المرأة في طلب إحدى قريباتها لمساعدتها، وذلك لأن الريف لم يعرف مهنة المولدة المحترفة وتلد عن طريق التمسك بالحبل المستعمل لمخض الحليب، وتمتنع المرأة عن الأكل لأن التغوط أثناء الولادة يعتبر نذير شؤم. ويمنع الرجال منعا كليا من حضور طقوس الوضع، وعند وضع الطفل يحفظ دون تنظيفه، وتدفن المشيمة بعيدا عن البيت كي لا تأكلها الكلاب ويحدث العقم، وتقوم المرأة المساعدة بربط ناب الخنزير ووضعه في عنق المولود، لإبعاد العين الشريرة، وتضع بعض الملح على السكين وتضعه جنب الأم لطرد الجن، لضعف كل من الأم والطفل أمام العين الشريرة والجن في هذه الفترة، ولا يجوز لهما الخروج من الغرفة، كما لا يجوز للطفل لباس ثياب مخيطة إلا بعد مرور ثلاثين يوما، وفي حال ميلاد توأمين فالفرح يكون أكبر وتشتد الحيطة من العين اللامة. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 196.

942- ***B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,*** Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 5.

943- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. 153.

944- إذا كان المولود ذكرا تقطع المولدة الحبل بالمقص، وإن كان أنثى تقطعه بالمنجل ليحالفها الحظ في المرة المقبلة وتضع مولودا ذكرا، وتدلك المولدة خدود النفساء بالدم لتسترجع قواها، وتُدفن المشيمة في التراب كي لا تنهشها الكلاب وتصبح المرأة عاقرا. ولم يكن أجر المولدة قبل الاستقلال وخلاله يتعدى دوروين. ويوضع علم أبيض على سطح المنزل الذي شهد ولادة طفل، مما يذكرنا بوضع علم أبيض أيضا فوق سطح منزل العروسة. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، صص. 152-151.

945- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 5.

946- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. 152.

947- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ص. 197.

على من يعد لها ما ستتغذى به خلال تلك الفترة، ويلبون هذه الحاجة حتى لا تفتقر المرأة النفساء لأي شيء لضمان استمرار حياتها وحياة المولود الجديد الذي شاءت الأقدار أن يأتي إلى هذا العالم. يأتي جميع أقارب الزوجين إلى المنزل في اليوم السابع من ميلاد المولود الجديد، وخاصة الأقارب المنتمين لعائلة الزوجة ليقدموا لها هداياهم التي تسمى باللغة الأمازيغية «أرْواحْ إيوا)رْ(ذان». وتتكون هذه الهدايا من الدواجن الجاهزة لتستهلكها المرأة النفساء واللحم النيئ الذي يتم تحضيره بعد ذلك والاستمتاع بتناوله جماعة.[948]

يتم إطلاق اسم على المولود الجديد في اليوم الثامن من ميلاده[949]، وذلك عن طريق نحر كبش أو معزاة أو خروف أو جدي حسب الإمكانيات المادية للأسرة، ويوفر رب الأسرة هذا الرأس من الماشية وينحره هو نفسه أو الجد أو أحد الأصدقاء أو فقيه المسجد. ويقوم هذا الأخير في معظم الحالات بعملية النحر مرددا العبارة المألوفة: «بسم الله، الله أكبر، هذه عقيقة فلان بن فلان». هذه هي الصيغة المستعملة لتسمية الطفل حسب ما اتفق عليه الزوجان في أغلب الحالات. ويتم اختيار اسم الوليد أيضا عبر اعتماد طريقة «الفال»، أي الفأل أو الحظ، وتتمثل في إعطائه اسم أول شخص زار المنزل، أو أول اسم سمعه الزوجان بعد مناداة المعني من طرف شخص ثالث[950]. يوم العقيقة، حيث تتم تسمية الطفل في قبائل الريف الأوسط، هو اليوم السابع بعد الولادة، أو اليوم الأخير من الاحتفالات المصاحبة لميلاد الطفل. قد يتأخر هذا اليوم في القبائل الأخرى عل ألا يتجاوز الطفل شهره الأول أو الثاني على ابعد تقدير.[951]

يدعو الأب الأقارب والأصدقاء وجميع الجيران المنتمين للجماعة يوم العقيقة. وبطبيعة الحال، إذا كان الشخص محدود الموارد المالية، فإنه يقتصر على دعوة المقربين من العائلة والأصدقاء ويستغني عن الجيران. ونظرا لاعتبار يوم العقيقة كنوع من الاحتفال، فإنه لا يخلو من الرقص والغناء بالنسبة إلى الذين يتوفرون على الموارد اللازمة لذلك، وفي حالة العكس، يتم الاقتصار على إطعام الضيوف. غير أن هذا لا يمنع من وجود فقراء ينفقون بسخاء أكبر مقارنة بالميسورين. ويجب أن نستحضر دائما، أنه كلما كان المولود ذكرا يشمل هذا السخاء في الإنفاق كل جوانب الاحتفال، في حين يتم استصغار المرأة لمجرد كونها أنثى. يجب ألا ننسى أنه كلما كان المولود ذكر، تكون الاحتفالات أكثر روعة من جميع الجوانب، بينما يتم تأجيل ذلك بالنسبة للمرأة، بمجرد كونها أنثى.[952]

لا يغسل الطفل في سنته الأولى، لأن ذلك يذهب عنه قوته، وفي السنة الموالية يغسل مرتين أو ثلاث فقط لأن كثرة الاستحمام تضعف الطفل حسب رأي ريفيات الريف الأوسط، ولا يخرج

948- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1*, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.p. 7.

949- ورد عند دايفيد هارت أن حفل العقيقة ينظم بعد سبعة أيام ويعطى اسم للمولود، وعادة ما يقدم رأس الكبش وجلده للمساعدة في التوليد، وعادة ما يستمر الحفل ليومين، مليئة بالفرح والسرور والغناء «إزران». وإذا كان المولود ذكراً يكون الفرح أكبر ويعلق علم أحمر «باندو»، وتطلق نيران البنادق. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص.198-197.

950- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1*, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.p. 7.

951- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 124.

952- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. 8. p. 8.

إلى الضوء في الأسبوع الأول، ويلف في القماش جيدا لأن الأرواح الشريرة تلف حوله، ولا يظهر لكل النساء، لأنه إن رأته عين غيورة تمسه العين ويموت.[953]

ويعتبر يوم الحلاقة الأولى للطفل الريفي في الماضي من المناسبات الهامة في حياته، الأولى الذي كان مناسبة للاحتفال ويتم حسب طقوس محددة. جرت العادة في قبائل الريف الأوسط أن يحلق شعر الولد بعد إكمال سنته الأولى، حيث يقدم الأب رأس ماعز لحفظة القرآن في مسجد الخطبة كهدية وأجر لعملية الحلاقة. يعود أحد هؤلاء مع الأب ويحلق شعر الطفل مع ترك خصلة في مؤخرة الرأس أو الجانب الأيمن أو الأيسر حسب الانتماء القبلي. ويصنع بجزء من هذا الشعر قلادة يضعها حول عنق الطفل ويأخذ الباقي معه ليدفنه في مكان سري. ومن المعلوم أن هذه الخصلة لا تحلق طيلة حياة الفرد وتستعمل عند الممات، حيث يمسك بها المغسل لقلب جثمان الميت دون لمس جسده. وتحمل في الريف أسماء مختلفة حسب موقعها في رأس الفرد، فتسمى «ثاجطّويث»، إذا كانت في الجانب الأيسر كما في قسمتي إشاوين وجبارنة بإگزناين مثلا، و«ثاعيّاشْث»، إذا كانت في الجانب الأيمن كما في ثمسمان وباقي إگزناين، و«ثامْزورث»، إذا كانت وسط مؤخرة الرأس كما في أيث ورياغر وإبقوين.[954]

[953]- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. 153.

[954]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 127.

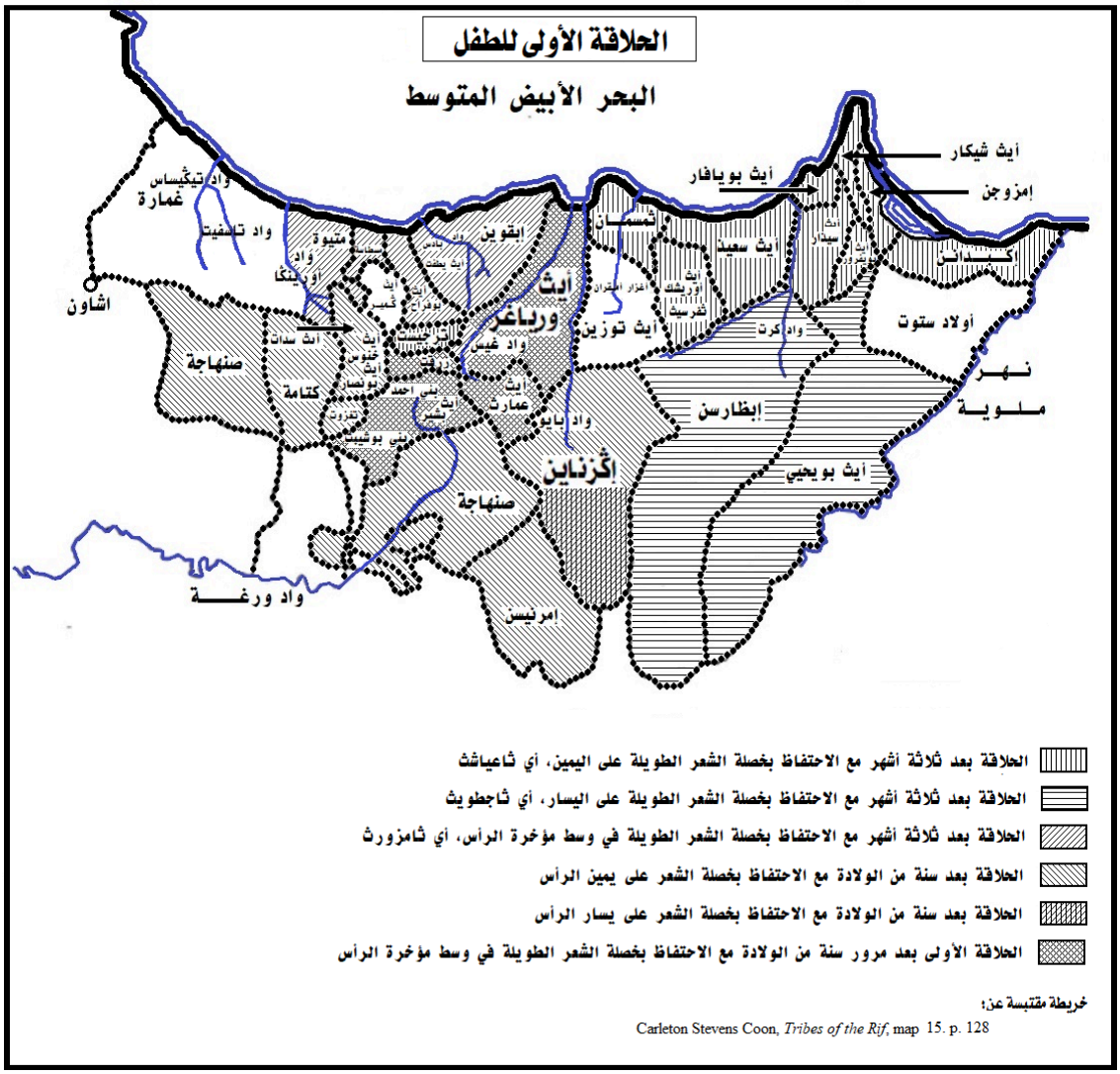

تعد تربية الطفل من واجبات الأم، وأكثر من الواجب هو التزام لن تفشل في الوفاء به إلا لأسباب قاهرة. وفي هذه الحالة الأخيرة أو بسبب الوفاة الناجمة عن الولادة، تقوم إحدى القريبات بإرضاعه، وإن تعذر ذلك يسلم لامرأة أخرى من نفس الجماعة. علما بأنه يستحيل اللجوء إلى الرضاعة الصناعية التي أصبحت موضة شائعة في وقتنا الراهن.[955]

يخضع المولود الذكر لعملية الختان عندما يبلغ نحو العامين من العمر. ويتولى الأب مسؤولية دعوة أقاربه وأصدقائه وجيرانه المنتمين إلى الجماعة، على اعتبار أنه يتوفر على الإمكانيات المادية التي تسمح له بالقيام بذلك. وتستوجب هذه المناسبة حضور حفظة القرآن أو «الطُّلبة» المنتمين إلى الجماعة و«المعلم الحجّام» الذي سيجري عملية الختان بطبيعة الحال. الذي يتوجب عليه تنفيذ هذه العملية. وغني عن القول أن الأمر يتعلق برجل مشهود له بخبرته في هذا المجال، إذ لا يمكن تكليف أي شخص قد يتسبب افتقاره للمهارة والخبرة في حوادث مؤسفة قد تؤدي إلى عواقب وخيمة. وتتم عملية الختان في بيت الأب، كما هو الحال بالنسبة

955- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 9.

لحفلة العقيقة، وذلك بين وقتي الضحى والظهر. ترفق عملية الختان بتنظيم وليمة، تليها الأغاني والرقصات، دائمًا في حدود ما تسمح به الموارد المالية للعائلة.ومن عادة البقيويين إجراء عملية الختان يوم عيد المولد النبوي بضريح سيدي الحاج عبد الله بإزمورن، مما يسمح للعديد من الأسر التي تختار هذه الطريقة بتجنب نفقات الاحتفال بهذه المناسبة.[956]

الختان ظاهرة منتشرة في بلاد المغرب وتختلف طقوسه من قبيلة إلى أخرى، فعند قبائل الريف الأوسط كما هو الحال في مجموع شمال المغرب، وما يلاحظ من اختلاف فيرتبط بسن الختان، وفترته خلال السنة، والأشخاص الذين تسند إليهم هذه المهمة. ومن المألوف في قبائل الريف الأوسط عموما إعذار الأطفال قبل إتمام سنتهم الأولى، وفي فترتين محددتين من السنة هما شهر شتنبر ومنتصف فصل الشتاء تجنبا للالتهابات والتعفنات. أما الشخص الذي يقوم بإعذار الأطفال فهو عادة فقيه معروف أو أحد حفظة القرآن، الذي يقوم بجولة عبر المداشر والقبائل خلال الفترتين المحددتين. يرافق الفقيه المدعو لختن الطفل ثمانية إلى عشرة من حفظة القرآن يتمثل دورهم في تلاوة القرآن في الوقت الذي ينجز فيه عملية الختان. يضع الفقيه علما أبيض فوق سطح منزل عائلة الطفل المعني ويأخذه معه بعد إتمام العملية والانتقال إلى منزل آخر. ويشترط حضور حفظة القرآن وحدهم في الغرفة إلى جانبه أثناء الختان، حيث يدهن حشفة وقلفة الطفل بالزبدة حتى تصبح القلفة ناعمة فيدخل بين ثناياها حبة براز الماعز ويلويها ثم يقطعها بالمقص حيث تنقسم حبة البراز إلى نصفين. يثقب بعد ذلك بيضتين ويحتفظ بمحهما فقط ثم يدخل قضيب الطفل في البيضتين لدهنه بالمح بهدف تسريع عملية التئام الجرح. تدخل بعد ذلك امرأة مسنة إلى الغرفة، هي جدته في الغالب، وتحمل الطفل على ظهرها. يقدم الطعام للفقيه ومرافقيه والمدعوين الآخرين وهو بمثابة مكافأةٍ له ولحفظة القرآن، ونوعٍ من الاحتفال بالحدث.[957]

956- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.p. 9.

957- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 129-130.

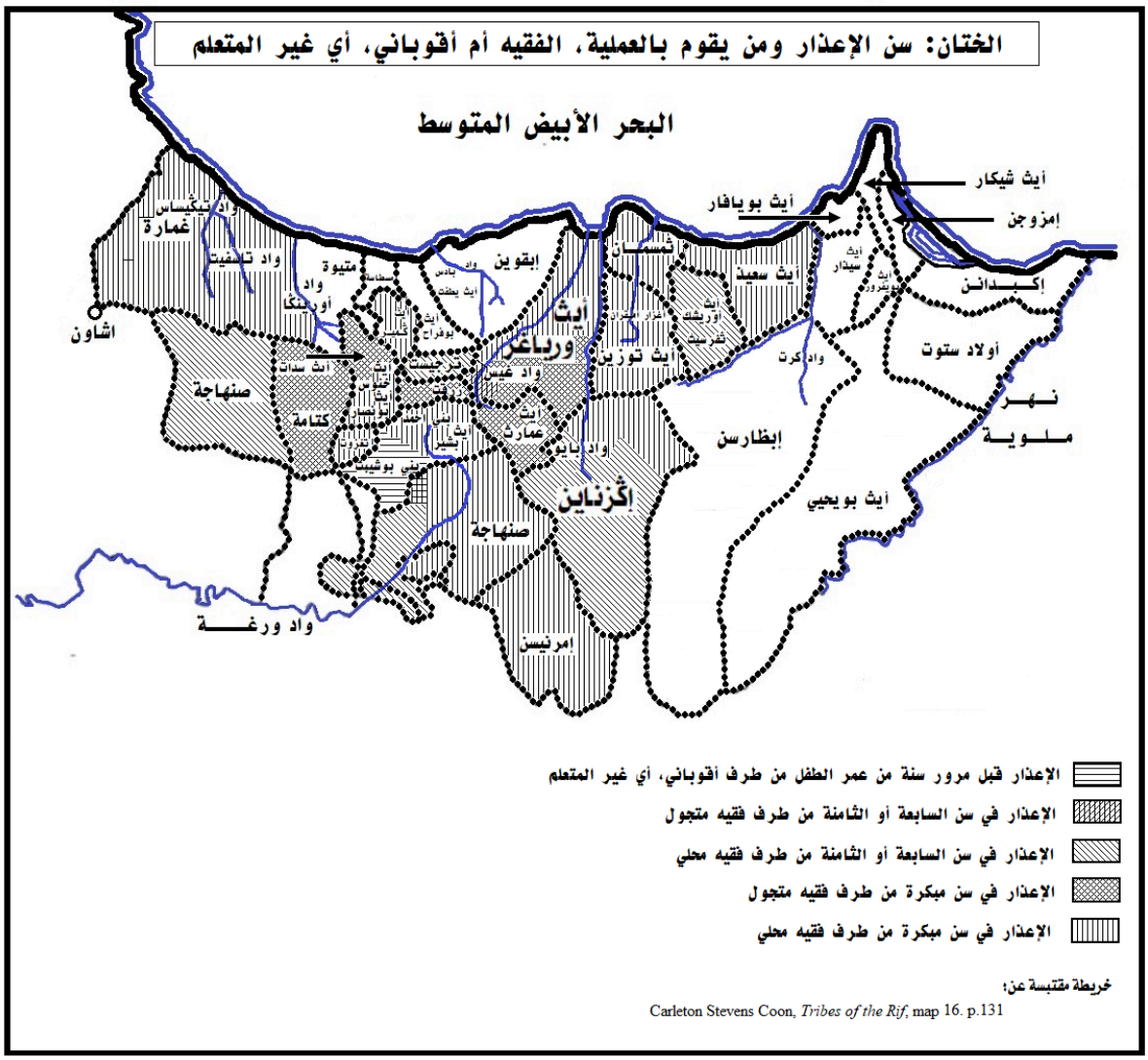

عندما يبلغ الأطفال ست سنوات يتم إرسالهم إلى المسجد لحفظ القرآن الكريم، أو تكليفهم برعي قطعان الماشية. وهذا يتوقف على الوضع المالي للوالدين، وحتى إذا افتقرت الأسرة لقطيع ترسل أبناءها لرعي مواشي الآخرين. وهذا لا يعني عدم وجود أسر تتوفر على الموارد المادية وقطعان الماشية، لكنها ترسل أبناءها لرعي ماشية الغير، في الوقت الذي تستعين فيه برعاة مأجورين يسرحون قطعانهم من طلوع الشمس إلى غروبها. يستمتع هؤلاء الأطفال في هذه الحالة بحياة مريحة كلها لهو ومتعة. يتغذى الرعاة الصغار خلال هذه الفترة الممتدة من طلوع الشمس إلى غروبها على قطعة خبز فقط، يحملها الذكور في قب الجلباب والإناث في كيس قماشي صغير مربوط بالخصر. وفي فترة نضج التين الشوكي اللذيذ، تراهم يحملون قفات من الحلفاء مليئة بهذه الفاكهة لقضاء النهار مع قطعة الخبز المعتادة[958]. وتعتبر مطارحة

[958]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1*, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.p. 19.

الأحاجي ورواية القصص والحكايات وسيلتين شائعتين للتسلية وتدور كلها حول موارد ريفية متعارف عليها.[959]

ليس من الغرابة إذًا، أن آخر ما يمكن أن يشغل بال الأطفال في هذه السن هو الاعتناء بالماشية، إذ من الطبيعي أن تُترك الماشية لوحدها بمجرد الوصول إلى المراعي ويبحث الرعاة عن رفاقهم لتكريس كل وقتهم للألعاب التي تتميز بها هذه المرحلة من الطفولة. لا تعرف قطعان الماشية بالتأكيد حدود المراعي فتتجاوزها إلى الحقول المزروعة بحثا عن الكلأ، مما يتسبب في العديد من الشكايات المقدمة يوميا إلى السلطات المعنية. والأمر يعود إلى الإهمال، أو بالأحرى إلى صغر سن المكلفين بمراقبة هذه القطعان. والجدير بالذكر بالنسبة للأطفال الذين يتفرغون للدراسة[960]، هو مرافقة الطفل في اليوم الأول لالتحاقه بمسجد الجماعة بهدف حفظ القرآن، من طرف والده أو أحد الأقارب حاملا معه وجبة طعام هي بمثابة عطية أولية تقدم للفقيه، تسمى «الفتوح». ويشترك في تناول هذه الوجبة زملاء الطفل وباقي حفظة القرآن في المسجد الذين ينهلون من علم هذا الفقيه[961]، يبتدئ التعلم بحفظ الأبجدية بشكل تدريجي عند الفقيه الذي يتم التعاقد معه بعد عقد جمع عام لأعضاء الجماعة[962]، وتختلف أوقات الدراسة

---

[959]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص..281

[960]-وهي المهمة التي يقوم بها زملاؤه في المسجد، قبل بدء رسم تلك الحروف على لوحته الخشبية التي تسمى «اللوح»، أو «ادْجوح»، بالريفية. وبعد تمكنه من الحروف الأبجدية ومن تكوين الكلمات يملي عليه الفقيه أولى آيات القرآن. تتمثل المرحلة اللاحقة في حفظ السور الأخيرة في القرآن إلى حدود سورة الأعلى التي تُسمى سبِّح، مع الإشارة إلى خصوصية عدم متابعة حفظ السور التي تلي الفاتحة حسب الترتيب الوارد في القرآن، بل الانتقال إلى سورة الناس بمجرد حفظ الفاتحة، والاستمرار في حفظ باقي السور بطريقة معكوسة إي من السور الأخيرة القصيرة إلى الأولى، عندما يكمل المتعلم حفظ السور القصيرة الأولى حتى سورة سبح، يظهر امتنانه عبر تقديم عطايا للفقيه ولزملائه في المسجد، وذلك حسب الإمكانيات المادية لعائلته. عندما يبلغ سورة الرحمن، يدعو معلمه وزملاءه مرة أخرى لتناول وجبة غذاء. ويقوم بنفس الشيء بعد حفظ نصف القرآن. عند ختم القرآن، وللاحتفال بهذه المناسبة السعيدة بكل ما تستحقه من تقدير، لا يقتصر مختتم القرآن على إكرام الفقيه وزملائه، بل يدعو بالإضافة إلى جميع حفظة القرآن في مسجده، المتعلمين في المساجد الأخرى غير البعيدة. ويتم بهذه المناسبة ذبح رأس من الماشية حسب ما تسمح به إمكانيات عائلته المادية. بعد إنهاء الختمة الأولى يواصل «الطالْب»، أو حافظ القرآن الجديد عملية الحفظ حتى التمكن الجيد من كل أحزاب المصحف الكريم. وإن قرر عدم الاكتفاء بحفظ القرآن يمكنه مواصلة طلب العلم بالانتقال إلى مستويات أعلى، تبتدئ حصص حفظ القرآن في المسجد مع شروق الشمس ويعود المتعلمون إلى منازلهم قرابة العاشرة أو الحادية عشرة صباحا لتناول وجبة الغذاء. وتتجدد هذه الحصص بعد الزوال، أي ما بين الثانية عشرة والنصف والواحدة، وتستمر حتى غروب الشمس، ليعود المتعلمون إلى منازلهم وتنتهي بذلك عملية الحفظ خلال الأيام العادية. تختلف مدة التعلم خلال أيام الإثنين والجمعة، حيث يأخذ كل «المحاضْرية»، أو «إمحظا)ر(ن»، بالريفية، أي المتعلمين هدية عبارة عن بيضة واحدة أو بيضتين، أو خمسة سنتيمات إلى الفقيه عندما يعودون إلى «المعمرة»، أي الغرفة المخصصة لحفظ القرآن في المسجد بعد الزوال نحو الثانية عشرة والنصف. وتسمى هذه الهدية «التحرير»، لأنها ستحررهم من التعلم، إذ يمنحهم الفقيه عطلة أو فترة استراحة تبدأ مباشرة بعد موعد صلاة العصر، ويخصصها المتعلمون الصغار للعب. وتنتهي حصص التعلم يوم الأربعاء بعد صلاة العصر. أما يوم الخميس فيقتصر التعلم على الفترة الصباحية يقوم خلالها حفظة القرآن بمحو ما حفظوه في اليوم السابق ويكتبون الآيات الواجب حفظها في اليوم الموالي، أي الجمعة، حيث تنطلق الحصة بعد صلاة الظهر وتستمر إلى موعد صلاة العصر بعد الاستفادة من «التحرير». نظر:

- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, op. A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.p.10.

[961]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.p. 11.

[962]- بعد نقاش مستفيض للاتفاق حول عدد أمداد الشعير التي سيحصل عليها الفقيه سنويا مقابل خدماته. ويُقسم عدد الأمداد المتفق عليه على عدد الأسر في الجماعة، وبناء على عدد هكتارات الأرض التي تتوفر عليها كل أسرة. وفي حالة عدم توفر أسرة على أراض زراعية، لكنها تكسب موارد مادية بفضل تعاطيها لنشاط صناعي أو تجاري، فإنها تساهم بحصتها حسب إمكانياتها. يتم التداول أيضا حول مسألة «نوبة» الفقيه، أي دور كل أسرة لتوفير وجبة طعامه اليومية، هكذا تعرف كل أسرة توقيت دورها فتصبح ملزمة بحمل رغيف خبز وطبق من الطعام إلى المسجد وقت الظهيرة. اعتادت الجماعة في بعض المناطق على التعاقد مع الفقيه من أجل تحفيظ القرآن للأطفال وخياطة جلابيب أعضاء الجماعة مجانا. يكتسي الاتفاق المتوصل إليه مع الفقيه صبغة شفوية ويختتم بقراءة الفاتحة وطلب المغفرة للجميع وابتغاء الصالح العام. عندما يحين وقت جمع حصة

خلال العطل[963]، ومن المعلوم أن الأطفال في الريف لا يعاملون بلطف كبير من طرف الكبار، إذ يفترض أن يطيعوا آباءهم ويقبلوا كل قراراتهم، وألا يتفوهوا بما يخل بالآداب في حضورهم، مما يجعل الأطفال كثيري الخجل.[964]

أما الأنثى، فحال بلوغها سن السادسة تُسند إليها أشغال البيت كالاحتطاب وتوفير الكلأ للماشية والتوجه نحو العين بقلتها لجلب الماء، ذلك السائل الثمين الذي يطفئ العطش ويستخدم أيضا في الأشغال المنزلية. ومن الواجب عليها بالطبع مساعدة والدتها في كل ما يجب القيام به في المنزل كالغسيل والطبخ والكنس، وغيرها. أثناء المرور عبر المسالك والطرق المستعملة من طرف الراجلين تلوح من وقت لآخر جرات موضوعة بجانب الممرات حرصت القلوب الرحيمة التي تتوخى الخير والإحسان على ملئها بالماء لإطفاء ظمأ العطشى المحتاجين لهذه المادة الثمينة، وهي دائما قلوب النساء اللواتي يتحملن هذه المسؤولية عن طيب خاطر ويقمن بهذه المهمة بحماس ورضى، فكما هو معلوم يوجد فقط في قلوب النساء ذلك الحنان اللازم للتخفيف من مآسي وأحزان المحتاج[965]. تبدأ ملامح التمييز منذ الطفولة، إذ يرافق الذكر أباه إلى السوق في مبكرة عكس البنات، وتكون له بندقية خاصة ويتعلم استعمالها منذ

الفقيه السنوية، يقوم مقدم الجماعة بدعوة عدد من أعضاء الجماعة لمساعدته في عملية تحصيل كل المقادير المتفق عليها، وتسمى «الشرط»، أو «اشّارْظْ»، بالريفية، إي شرط تعاقد الفقيه. انظر:

- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1*, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 11.

[963]- يعتبر يوم عاشوراء عطلة، واليوم السابق له حيث يحمل المتعلمون البيض واللحم المقدد إلى المسجد لتقديمه للفقيه. يستفيد المتعلمون من عطلة المولد النبوي، يحضر كل طالب في اليوم الأول من العطلة إلى الفقيه مبلغًا معينًا نقدًا، يتراوح قدره بين بسيطتين وخمسين سنتيما، وأولئك الذين ليس لديهم نقود تقتصر عطية «التحرير»، بالنسبة إليهم على خمس إلى عشر بيضات. فترة العطلة هذه لا تعني الغياب الكلي عن المسجد، إذ يواصل المتعلمون الحضور كل صباح باستثناء أيام الجمعة، لاستظهار ما حفظوه من سور وتصحيح الفقيه لأخطائهم. أما اليوم الثاني عشر من ربيع الأول الذي يصادف عيد المولد النبوي فهو يوم عطلة. ويوم عيد المولد النبوي، لا يذهبون إلى الفصل، لا يتوجه المتعلمون إلى المسجد ثلاثة أيام في منتصف شعبان. وحسب هذا الاعتقاد الديني يجازي الله المؤمنين حسب سلوكهم وتسجل حسناتهم في الكتاب أو اللوح المحفوظ الذي تحفظ فيه مجريات حياة المؤمنين خلال السنة الموالية وكل ما سيحدث في الكون. وعطلة شهر الصيام وكما هو الشأن بالنسبة لعطلة المولد النبوي، يتوجه المتعلمون إلى المسجد في الفترة الصباحية فقط من كل يوم لاستظهار السور التي تم حفظها. أما اليوم السابق لعيد الفطر الذي يسمى «العيد الصغير»، ويوم العيد واليومان اللاحقان فهي أيام عطلة لا تشهد الحضور إلى المسجد لحفظ القرآن ويقتصر المتعلمون على حمل عطايا للفقيه مماثلة لما تمنحه له عائلاتهم خلال عيد المولد النبوي ،تبدأ عطلة «العيد الكبير»، أي عيد الأضحى في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة، وتنتهي ثمانية عشر يوما بعد العيد. يستفيد المتعلمون خلال هذه الفترة أيضا من أربعة أيام من العطلة الكاملة تبدأ يوم عرفة، أما خلال الأيام الأخرى فيتوجهون إلى المسجد في الفترة الصباحية لاستظهار السور المحفوظة سابقا. يزور «المحاظْرة»، أي حفظة القرآن مجتمعين خلال هذه العطل جميع منازل الجماعة، طالبين المؤن من أجل الفقيه، والتي تتكون من البيض والقديد والزبدة والعسل، وعند الانتهاء من عملية الجمع يتم تقديمها للفقيه ليتمكن من الاحتفال بالعيد. إذا كانت المؤن التي قاموا بجمعها وفيرَة، فإن الفقيه يعطي جزءا منها لأولئك الذين قدموها له، في التفاتة كرم من جانبه، أما إذا لم تكن بالوفرة المطلوبة، فعادة ما يحتفظ بكل شيء لنفسه. وفي حالة وجود حفظة في المسجد يرغبون في مواصلة التعلم مع الفقيه، بشرط موافقة هذا الأخير، لأن الأمر يرضي الله، ويجب عليهم أن يعيشوا على ما تمنحه لهم الجماعة للقيام بذلك. وعندما يحين وقت المغرب وبعد أداء الصلاة، يطوفون على المنازل بشكل منفصل، ويعودون مع ما يجمعونه إلى المسجد. يأكلون منه وجبة العشاء في تلك الليلة ويوفرون الباقي لليوم التالي. انظر:

- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1*, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 12.

[964]- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الريف...، م.س.، ص. 31.

[965]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.p.12.

سن العاشرة، وتنتهي مهمة الرعي بالنسبة للجنسين في سن 12 سنة، لينتقل الذكر إلى الحقل والأنثى للبيت، ليصبح التمييز حقيقيا بكل المقاييس[966].(128)

بعد ترعرع الطفل الذكر بالشكل الكافي وتجاوزه مرحلة الرعي، وفي حالة انعدام الرغبة لديه في التعلم وحفظ القرآن، يقوم بمساعدة والده في الأشغال الزراعية من البذر والحصاد والدراسة وإعداد الحقول الجديدة للإنتاج الزراعي. هذا هو المسار الطبيعي للرجل ما دام كل الرجال في المنطقة مزارعون، وفي حالات استثنائية فقط، كما هو الحال بالنسبة إلى أية قاعدة، نجد البعض وبنسبة محدودة ليسوا كذلك.(967)

ثانيا: طقوس العبور من الزواج إلى الممات

تندرج قوانين تنظيم الزواج ضمن القوانين الإنسانية عموما، وتترك الأثر الأكبر في حضارة وأخلاق أي شعب. فنشوء الأسرة يمر عبر الزواج. ونظرا لوجود التزام طبيعي بضرورة إطعام الوالدين لأبنائهما تعززت مؤسسة الزواج التي يتحدد عبرها من سيتكفل بهذا الواجب. يمكن رعاية الأطفال بشكل تدريجي رغم اختلاف وجهة نظر هؤلاء. وتربيتهم لا تعني فقط إطعامهم بشكل يومي، بل يجب توفير ما يكفي من التوجيه والإرشاد، وإذا كانت التغذية ستمكنهم من العيش فلن تسمح بالتحكم في تصرفاتهم.(968)

يرى الريفيون كباقي المسلمين أن الزواج فعل ديني يقترن بموجبه المسلم الذكر بأنثى واحدة أو أكثر، تكون عذراء أو مطلقة أو أرملة(969)، والهدف من الزواج هو التناسل(970)، فيما يبقى إشباع حاجيات الجسد مجرد عامل إثارة وجاذبية. غير أن التشريع الإسلامي هو نوع

966- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ص.209.

967- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.p. 13.

968- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 13.

969- لا يتم زواج المطلقة بنفس حرارة زواج العذراء، وتقل الطقوس في الصنف الثاني، ما يدل على أن البكارة لا تعني الموضوع الرئيسي للزواج فقط بل كل ثقافة المنطقة، وكذا المطلق لا يتمتع بكل طقوس زواجه الأول، ما يعني أن مفهوم البكارة في الريف الأوسط تشمل الجنسين، وفي حالة زواج عازب من امرأة مطلقة فالعرس يكون كامل الطقوس للطرفين. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص.231.

970- لم يعرف الريفيون تحديد النسل بالشكل الحديث إلى حدود الخمسينات من القرن الماضي، وكانت النساء يلجأن إلى الطرق التقليدية والشعوذة سواء للإنجاب أو الحد منه، كوضع التمائم في حالة العقم، وتناول الخلطات التي تعدها النساء المسنات لما لها من بركة. كما تقدم النساء القربان للأضرحة، ويأخذن تمائم من الفقيه القائم بالفضاء المقدس. ويرتبط الشفاء ببركة الولي، وعادة ما تشك النساء الريفيات أن العقم حصل معهن نتيجة تعرضهن لسحر من طرف غريماتهن. وإذا أرادت امرأة أن لا تنجب، عليها أن تشد قماشا طويلا وتتركه على المهبل حين يبدأ حيضها، ولا يجب أن تنظر إليه لمدة ثمانية أيام، وحين تغتسل عليها أن تقوم بذلك وعيناها مغمضتان كي لا ترى القماش الذي يجب أن يبقى هناك ثمانية أيام أخرى، وتزيله دون فتح عيناها، وتربط به عدد العقد بعدد السنوات التي ترغب أن تظل دون إنجاب، وتتلو تعزيمة أثناء ربط العقد، وإن أخطأت عليها أن تنتظر الحيض المقبل لأن السحر يكون قد بطل، وإن نجحت في تلاوة التعويذة دون خطأ، تلف القماش في قطعة من جلد وتخبئه بعينين مغمضتين كي لا يجده أحد، إذ أن فتح الأعين هو السبب الرئيسي لبطلان السحر لصعوبة ذلك، ويبطل كذلك إن وجد أحد القماش المخبأ. وإن أرادت الإنجاب تخرجه من جديد، وتفك عقده بتلاوة تعويذة أخرى ثم تحرق القماش، وإذا وجدت القماش معفنا يعني أن صاحبته أصبحت عاقر، والله عاقبها لأنها كثيرة الطلب، تعتبر النساء الريفيات هذه الطريقة مقرفة، ما يجعلهن يلجأن لوضع قليل من الثوب به خل داخل المهبل، وتباع في الأسواق النسائية نبتة تسمى الحنتيت أو الحلتيت، تستعمل في الإجهاض ومنع الحمل. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. ص. .113-109

من التفكير السلس الذي يطاوع الطبيعة الإنسانية، لذا لم يشأ فصل فكرتين مترابطتين بشكل قوي تتأصلان في الثنايا الغامضة للقلب البشري والحاجيات الملحة لجسد الرجل. ولا تعتبر الشيخوخة عقبة أمام الزواج، وإن كانت غير مناسبة لعملية الإنجاب، لكن إذا كان الزوج عاجزا جنسيا فإن الأمر موجب لطلب الطلاق. لهذا السبب يحظر القانون الزواج إذا كان أحد الطرفين «على فراش الموت»، وفي حالات المرض الخطير، بما أن مثل هذا النوع من القران لا يؤدي إلى الإنجاب. حيث لا يمكن أن يحدث الإنجاب في هذا النوع من الزيجات.[971]

تعتبر أهم الشروط الزواج، القدرة على تلبية احتياجات المرأة، وحضور ولي أمر المرأة الذي لديه ما يكفي من الحقوق والسلطة ليكون قادرا على التعاقد نيابة عنها، ومقدم الزواج[972]، والتقدم لطلب الزواج، والقدرة على المعاشرة، وتقديم الشهود، وعدم وجود أي موانع تبطل الزواج. ويشترط في الزوج أن يكون حرا أو تم عتقه، ويستدعي الزواج موافقة الأشخاص ذوي السلطة على الزوجين بغض النظر عن صفتهم: الأب، الولي، الوصي، القاضي، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم وجود روابط القرابة التي يحظرها الشرع.[973]

يعتبر الآباء في منطقة الريف ملزمين أخلاقيا بتزويج أبنائهم، بدءا من سن الثالثة عشرة[974]. ولا يكتسي هذا الإلزام بالطبع صبغة قانونية بل أخلاقية. وعلى الرغم من عدم وجود ما يجبره على ذلك، إلا أن الأب سيسعى بكل الوسائل في حدود استطاعته لتنفيذ الالتزام المذكور، ويسري هذا الالتزام على الجميع، سواء منهم الذين يتمتعون بوضع مادي مريح أو أولئك الذين يعيشون في حالة مادية حرجة. ويصل هذا الأمر إلى درجات قصوى، ففي حالة تزويج أبٍ لعدد من أبنائه وبقاء آخرين دون زواج، يحرص على ترك وصية شفوية أو مكتوبة تُخصص بموجبها كل أملاكه لمصاريف زفاف أبنائه العزاب. وفي حالة عدم وجود أملاك كافية لتغطية كل هذه المصاريف يتم تقليص نسبة استفادة المتزوجين من أملاك العائلة وتحويل

971- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 14.

972- كان ثمن الصداق خلال عهد الحماية يقارب خمس مائة بسيطة، لكنه لا يقدم نقدا بل يقدر الفقيه أو العدل ثمن رؤوس الماشية المقدمة لوالد العروسة والحلي والملابس المقتناة للعروسة، فثمن البقرة مثلا، يتراوح ما بين 250 و500 بسيطة، وثمن عشرة رؤوس من الماعز من ألف إلى ألف وخمس مائة بسيطة. في حين كان المهر قبل الحماية بسيطا يتراوح بين ثلاثين وخمسين دورو، حسب حال أسرة العريس، وتقل قيمة الصداق إن كانت الزيجة الثانية للعروس، غير أن الصداق في قبيلة إگزناين كان جد مرتفع، إذ لم يكن يقل عن مائة ألف فرنك وقد يصل إلى ثلاثة مائة ألف فرنك، يمكن أن تؤدى على دفعات. وقد دفع هذا الفارق أهالي إگزناين للزواج بالورياغليات مقابل قلة الورياغليين المتزوجين بالگزنائيات. إمكانية استعادة المهر المدون في العقد كاملا في حالة الطلاق جعل الورياغليين يقولون بأن الزواج من إگزناين سيفقرهم. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص.215-214.

973- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 15.

974- اعتبر الزواج بالريف مرحلة ولوج عالم الكبار، غير أننا لا نرصد تفشيا واضحا لظاهرة الزواج المبكر، والزواج أساس اعتبارات معنوية تعزز مكانة الفرد داخل الجماعة، والزواج يخضع لعدة معايير كالسن المناسب والمكانة الاجتماعية والنسب، وغالبا ما نلحظ الزواج الداخلي في بعض القبائل أهمها قبائل قلعية، ويستوجب أداء الصداق ويلاحظ غلاؤها في بعض القبائل منها قبائل قلعية، والتنافس حول قيمة المهر يعد تنافسا أساسه السمعة والمكانة الاجتماعية، وتعتبر الزوجة موضوع الشرف في قبائل الريف، وتمنح الإرث لكن أقل من نسب الذكر وفق معايير شبيهة بنظام الإرث في الإسلام. انظر:

- محمد أوحدو (2017)، **الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية نموذج قلعية**، منشورات زمن، سلسلة شرفات، العدد التاسع والثمانون، الرباط، ص..114.

- ويعتبر الزواج بالريف بشكل عام طقسا من طقوس العبور. انظر:

- Arnold Van Gennep(1969), *Les rites de passages étude systématique des rites*, Picard, Paris, p. 20

المداخيل المترتبة عن هذا التقليص لفائدة العزاب. وإذا شاءت الأقدار أن يموت الأب ولا زال بعض أبنائه غير متزوجين، يتعذر تقسيم الإرث طالما لم يقدم الأبناء المتزوجون ضمانات كافية بالمساهمة بنسبة من حصة ميراثهم، سواء كانت هي الربع أو الخمس أو السدس ويكتسي هذا العرف طابع الإلزام رغم عدم التنصيص عليه في الشريعة الإسلامية، بل حتى في حالة تعارضه مع هذا التشريع ذاته على اعتبار التنصيص على تحريمه.[975]

عندما يصل الشاب إلى سن الخامسة عشرة[976]، يبدأ الأب في التفكير في المرأة التي سيزوجها لابنه، حيث يستحضر في مخيلته كل الفتيات المنتميات إلى الجماعة واحدة واحدة بهدف اختيار الأنسب حسب اعتقاده. ولا تستخف الأم بدورها بهذه المسألة، حيث لا تتوقف عن تذكير زوجها بمنافع تزويج ابنهما وتدله على التي تعتقد أنها ستسعده، خصوصا وقد أتيحت لها الفرصة في مناسبة ما لمعاينة مزايا التي ستصبح كنتها. وبما أن الفتيات في الريف يخرجن سافرات فإن هذا يسمح للشاب برؤية الفتاة التي سيختارها بعدما فتنه جمالها. وفي هذه الحالة، يخبر الابن والدته عبر شخص ثالث بأمر التي اختارها لتكون رفيقة العمر. وتسند هذه المهمة إلى العمة أو الخالة أو الأخت أو شخص آخر موثوق به من بين المنتمين إلى الجماعة، حتى يتمكن من الاقتران بالتي اختارها قلبه. تخبر الأم زوجها باختيار ابنهما ليبدأ الاثنان النقاش حول أخلاق الفتاة. وإذا كانت دون مستوى تطلعاتهما لظروف محددة يرفضان هذا الاختيار فتتحطم آمال الشاب المحب، لكنه يمتثل لقرار أبويه من باب الخضوع والطاعة الواجبين تجاههما.[977]

وفي الحالات النادرة التي لا تحظى فيها الفتاة المختارة من طرف الأب برضى الابن، ولتفادي حرج إخبار عائلتها بعدم استعداد ابنه الاقتران بها، يختار الأب طلب يد التي كان يفترض أن تصبح زوجة ابنه لنفسه. بمجرد اختيار الشابة التي يريدها الأب لابنه، يذهب لرؤية والدها أو وصيها الشرعي، لتقصي الأوضاع ومعرفة ما إذا كان هناك أي مانع يعيق تحقيق المراد. وإذا ظهرت خلال النقاش مؤشرات دالة على احتمال التوصل إلى اتفاق، تقوم النساء من الطرفين بالمثل لمعرفة ما إذا كن موافقات على هذا القران. بعد الحصول على هذه الموافقة الأولية، يقوم الأب باصطحاب صديقين أو ثلاثة إلى منزل أصهاره في المستقبل، حاملا معه قدرا من اللحم والسكر والشاي والشموع ليقضي الليلة هناك. بعد تناول وجبة العشاء، وأثناء

975- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1*, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 16.

976- يختار الآباء الزوجات المناسبات لأبنائهم وغالبا ما يكون الفرق بين العريس والعروس سنة أو سنتين، وكان فقيه المسجد هو الذي يحرر عقد زواج في زمن الريفوبليك، وبعد الحماية أصبح يحرره عدلان، حيث يتضمن العقد معلومات عن الزوجين والصداق. ويبدأ العرس بتقديم الهدية، أي «اذْفوع «التي تسمى «باركوكس «في إگزناين، و«أعبان «في أيث توزين. يلي هذا الطقس ما يسمى «ارحني أمزيان «الذي يتم في اليوم الأول من حفلات الزفاف، و«ارحني أمقران «في اليوم الموالي، وكانت أعراس الريفوبليك تبدأ يوم الأحد وتستمر سبعة أيام إلى 15 يوما، وخلال الحماية تقلصت المدة إلى ثلاثة أيام وكانت تبدأ يوم الإثنين أو الثلاثاء. كانت الأعراس أهم مناسبة في الريف الأوسط. نظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص.219-218

977-*B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 16.

الاستمتاع بشرب الشاي يتحدث الجميع حول مواضيع عامة قبل التطرق بشكل حذر إلى الموضوع الذي يهمهم، ويقرر الأب أخيرا طلب يد الفتاة للابن الذي يريد تزويجه.[978]

قد يحدث ألّا يوافق والد الفتاة على هذا القران ويعترض عليه بسبب عدم إتمام كل التحريات القبلية والتأكد من نجاحه، أو إجراء هذه التحريات وعدم الرضى بنتائجها. وقد أدى مثل هذا الرفض إلى نشوب العديد من النزاعات بين العائلات، نظرا لاعتباره نوعا من الخزي والعار الذي لحق بالعائلة التي تم رفض طلبها، وأدى بالتالي إلى مقتل العديد من أعضاء العائلتين. وتعمل العائلة المتضررة من هذا الرفض على تقصي الموضوع لمعرفة العائلة التي تريد الاقتران بتلك الفتاة وعرقلت بالتالي مشروعها، وحالما تعرفت عليها تخبر رب الأسرة بضرورة التراجع عن نيته هذه لأن المعنية أصبحت خطيبتها. وإذا كان الخاطب الجديد شخصا ضعيفا ينسحب من حلبة الصراع. أما إذا كان قويا ومستعدا لمواجهة كل المخاطر المحتملة، فإنه يرفض التخلي عن طلبه ويؤكد على نيته التشبث به مهما كلفه الأمر. ويؤدي مثل هذا الموقف بالطبع إلى نشوء عداء بين العائلتين المستعدتين للقتال، ينتج عنه دائما سقوط ضحايا من الجانبين. أما إذا حظي طلب يد الفتاة بالقبول، فيقوم أب أو ولي العريس بتقبيل رأس والد أو ولي العروسة ورأس باقي أقارب هذا الأخير الحاضرين خلال مناسبة الخطبة هذه. ويقوم مرافقو الخاطب بالمثل للتعبير عن شكرهم واحترامهم للعائلة التي رحبت بطلبهم.[979]

ينتشر الخبر السعيد في المدشر في اليوم الموالي ويتحدث الناس عن «تقبيل فلان بن فلان لرأس فلان الفلاني»، أي أنه طلب يد ابنته لولده. وتمر هذه المناسبة في جو من التحفظ والسرية. وبعد وقت معين، يتحدد حسب التاريخ المقرر لإقامة حفل الزفاف، يخبر أبُ الخاطب والدَ الخطيبة بتاريخ زيارة عائلته لمنزله لتناول وجبة العشاء معا.[980]

يزداد عدد الأقارب المرافقين من الجنسين خلال هذه الزيارة الثانية، وتحمل معها عائلة الخاطب كل ما يلزم من طعام للاحتفال بهذه المناسبة. قد يتم إعداد الطعام مسبقا أو العكس، حسب توقيت وصول الزائرين وما إذا كان الوقت سيسمح بتحضير وجبة العشاء. تحرص عائلة الخاطب على أن يرافقها خلال هذه الزيارة فقيه المسجد وحفظة القرآن الذين سيتم اعتمادهم كشهود لاحقا. عندما يصلون إلى منزل الخطيبة يجتمع الرجال بالرجال والنساء بالنساء. والجدير بالملاحظة أن الخطيب يحجب نفسه عن أنظار عائلة خطيبته إلى حدود هذه اللحظة ويبقى بعيدا عن هذه الطقوس الأولية. بعد تناول وجبة العشاء يتم طلب يد العروس للمرة الثانية، غير أن من يقوم بذلك في هذه المناسبة ليس هو والد العريس أو وصيه الشرعي، بل هو فقيه المسجد، وفي الحالات القصوى التي تشهد غيابه تُسند هذه المهمة إلى شخص ثالث.

978- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 16.

979- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 17.

980- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.p. 18.

وفي بعض الحالات القصوى إن لم يتمكن من القيام بذلك يتم من قبل طرف ثالث أو شخص آخر.[981]

توضع ثلاثة إلى أربعة كيلوغرامات من دقيق القمح في طبق ويوضع وسط هذا الطبق فوق الدقيق دملج فضي، ويُحمل إلى حيث يجتمع الرجال. يُبقي والد الخطيبة رأسه مطأطأ ويناديه الفقيه باسمه ثلاث مرات لكنه يتجاهل نداءه فيصلي حفظة القرآن المرافقون له على النبي. يكرر الفقيه النداء ثلاث مرات دون نتيجة ويصلي حفظة القرآن على النبي مرة أخرى. تتكرر المناداة للمرة الثالثة حينها ينطق والد الخطيبة بلفظة «نعم»، أي «ماذا تريد؟»، فيجيبه الفقيه: «لقد جئنا نطلب يد كريمتك فلانة للزواج بفلان الفلاني على سنة الله ورسوله». فيرد والد الخطيبة بأنه لا يمانع في تزويج بنته لمن يرغب في الاقتران بها إن كانت تلك مشيئة الله. يرفع الجميع بعد ذلك أكف الضراعة إلى الله لينعم على الزوجين الجديدين باليمن والبركات والرفاه ثم يقرؤون الفاتحة.[982]

ينهض والد الخطيب على الفور بمعية الأقارب المرافقين له ويقبلون رأس والد الخطيبة وأقاربها والفقيه وحفظة القرآن الحاضرين. بعد إتمام هذا الطقس، يستمرون في الحديث حول مواضيع عامة لا علاقة لها بالمسألة المهمة التي تطرقوا إليها للتو. وعندما يرون أن الوقت مناسب يخلدون للنوم في انتظار اليوم الموالي للعودة إلى منازلهم. تتمثل الخطوة اللاحقة في زيارة والد الخطيب لوالد الخطيبة عندما يرى أن الوقت مناسب، وذلك بهدف الاتفاق حول تاريخ حفل الزفاف[983]، وفي هذا اليوم المتفق عليه، يرسل والد العريس إلى منزل العروسة المواد اللازمة لإعداد الطعام، وتتمثل في هريش الفول المجفف وذبيحة يختلف نوعها حسب إمكانياته المادية. ويرسل قبل ذلك مبعوثين إلى أقاربه وجيرانه يدعوهم لحضور حفل الزفاف. يرسل والد العريس في اليوم الذي تم تحديده، وتحت تصرفه، إلى منزل العروس، طحين الفول وفي حالة كانت عائلة العريس ميسورة يبعث لهم بذبيحة. ويرسل مبعوث إلى العائلة والجيران لتذكيرهم بموعد زفاف ابنه.[984]

يحضر المدعوون في اليوم المحدد يحملون معهم عددًا معينًا من أرغفة الخبز أو الدقيق اللازم لإعداده. وعند حلول الظهر، وهو الوقت المألوف الذي يجتمع فيه المدعوون، يقدم صاحب المنزل الطعام للجالسين في مجموعات، مع الحرص على عدم اختلاط الرجال بالنساء، عند الانتهاء من تقديم الوجبة، يقوم والد العريس بإعداد الأخراج ووضعها على ظهور العدد الكافي من الدواب القادرة على حمل مائتي رغيف من الخبز تم تحضيره مسبقا، ورؤوس حية من الماشية، والقمح والشعير والزيت والزبدة والعسل وغيرها من المواد الغذائية، حسب ما

981- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 18.

982- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. P.18

983- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p.19.

984- تقام الأعراس في المجتمعات الزراعية عامة وفي المجتمع الريفي خاصة في أواخر فصل الصيف وبداية فصل الخريف، وإن كان موليراس يتحدث عن أواخر فصل الخريف عندما تكون المطامير مليئة بالحبوب والفواكه الجافة. انظر:

- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu…,* op. cit., p. 115.

تسمح به إمكانياته المادية. ينطلق بعد ذلك الموكب في الوقت المناسب حتى يتزامن وصوله إلى منزل أهل العروسة مع غروب الشمس. تغني النساء طوال الطريق، بينما يطلق الرجال نار بنادقهم كما كان في السابق، أو يشعلون المفرقعات. لدى وصول الموكب إلى المنزل يخرج جميع القاطنين به وأقارب العروس لاستقبال الزوار.[985]

يخرج العريس في اليوم الأول إلى الفناء ويغطي رأسه بغطاء الجلباب، وينقسم المرافقون إلى قسمين يقول القسم الأول «سبحان الرازق سبحان الخالق» والقسم الثاني يردد «سبحان الباقي ما بعد الخلائق»، ثم يطوفون سبع مرات من غرفة العريس إلى باب المنزل يغنون «ارحمنا يا ألله وارحم والدينا- هما رباونا ورضاو علينا- هما لبسونا الجديد والبالي-هوما وكلونا بالرخيص والغالي»، والملاحظ أن الرجال فقط من يتغنون بالدارجة المغربية في حين أن الفتيات يتغنين بالريفية، وفي اليوم الثاني يحضر الطبالة «إمذيازن» من أيث توزين، أو «إغياطن» من صنهاجة سراير.[986]

يتوجه العريس الذي بقي في منزل أحد رفاقه أو أقاربه إلى حدود تلك الفترة في نفس الليلة، إلى منزل عائلته رفقة أصدقائه العزاب المقربين الذين يتراوح عددهم بين أربعة وعشرة أفراد. يحيط هؤلاء بالعريس الذي يجلس في الوسط ويتم تخضيب يديه بالحناء ووضع خيط من الصوف في كلا معصميه. ويجب أن يوضع هذا الخيط الذي يسمى«إغوذْوان» من طرف امرأة، بغض النظر عن كونها من أقاربه أم لا. بعد الانتهاء من هذا الطقس يعود العريس رفقة وصفائه إلى نفس المنزل الذي قدم منه، وتستفيد العروسة في منزل أهلها من نفس الطقس الذي تشارك فيه كل النساء الحاضرات معها، سواء كن عازبات أو متزوجات. وتستغل هؤلاء الفرصة لتخضيب أياديهن أثناء تخضيب يدي ورجلي العروسة[987]، وإذا كان العريس يضع «إغوذْوان» حول معصميه فقط، بما أنه يخضب يديه وحدهما، فإن العروسة تضع هذه الخيوط الصوفية أسفل قصبة الساق قرب الكاحل أيضا.[988]

تضع المرأة الريفية الوشم ،[989]مباشرة بعد تأكدها من تاريخ زواجها فتدعو امرأة مسنة لوشمها، وتحرص أن يتم ذلك بحيث تكون جراح الوشم قد اندملت كليا في اليوم الأخير من حفلات الزفاف[990]. يدعو والد العروس عائلته وأصدقائه وجيرانه المنتمين لنفس الجماعة،

985- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 17.

986- دايفيد مونتكَومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 224-221.

987- تعتبر ليلة الحناء الليلة الأكثر حميمية في الزفاف، وتقام مراسيمها خلال اليوم الثاني من الزفاف، ليلة تضم طقوسا بديهية بالمغرب، غير أن الريف يتفرد في الغناء الحزين الذي يرافق تخضيب يدي ورجلين العروس بالحناء، وتكون ليلة دموع تبكي فيها كل النساء. وتقام الطقوس في غرفة قليلة الإضاءة، فقط ما ينبعث من الشمع والجمر. تُخلط الحناء مع بيضتين دلالة على الرجولة والخصوبة للزوجين، وتوضع قصعة الحناء وسط الغرفة وتغني النساء أهازيج ساحرة وحزينة لمغادرة العروس، ترافقها دموع جميع المشاركات، وبعد وضع الحناء للعروس، تستعمل الوصيفات ما تبقى لجلب السعد، ويمشط شعرها، ويلف حول رأسها، ولا يجب أن تمس رجلاها الأرض إلى أن تمس أرض بيت زوجها، وتبقى بمعية الوصيفات وحمايتهن. انظر: - أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، صص. 78-75.

988- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 19.

989–*I.P.A.E.B.I., Mosaico Rifeño cuaderno de acuarelas de Emilio Blanco Izaga,* Vicente Moga Romero, Instituto de las culturas, Uned Melilla, 1929.p. 21

990- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 86-87.

لتناول العشاء في منزله والاحتفال بزفاف ابنته. بعد تسليم كل الأحمال التي جلبها موكب العريس، يدعو والد العروسة الحاضرين لتناول وجبة العشاء، ويجلس هؤلاء كما جرت العادة في مجموعات للنساء وأخرى للرجال، لكن في نفس الفضاء. بعد تناول العشاء تبدأ النساء في الغناء والرقص، بينما يستمتع الرجال بمشاهدتهن[991]. يختلي بعد ذلك والدا العروسة والعريس بمعية ستة أفراد أو أكثر في إحدى الغرف، فيقرر آنذاك والد العريس بدء التداول للاتفاق حول «ذوشوث»، من فعل «إوْشا»، أي «أعطى»، بمعنى العطايا التي سيقدمها لوالد العروسة بالإضافة إلى صداق زوجة ابنه. ينطلق التداول بعبارات ينطقها والد العريس مفادها: «أنت المقص وأنا القماش»، أو «أنت السكين وأنا اللحم». يبدأ عدّ القطع النقدية[992]، ويضع الواحدة فوق الأخرى إلى أن يصل إلى الخمسين أو الستين، فيتوقف ويطلب من والد العروسة الاكتفاء بهذا القدر، ويشاركه في هذا الالتماس باقي الحاضرين. ويعلن والد العروسة موافقته إذا اعتبر المبلغ كافيا، وإلاّ يضطر والد العريس لمواصلة العد حتى يرضي صهره بالمبلغ المتراكم. يصل أقصى هذا المبلغ في الغالب إلى مائة دورو، وفي الحالات النادرة، إلى مائة وعشرين. ويتنافى هذا العرف مع أحكام الشريعة، بل كان محرما في السابق، إلاّ إذا كانت هذه العطايا ومستلزمات الزفاف المتفق حولها خلال هذا العرف تدخل ضمن مجموع مبلغ الصداق، فتصبح شرعية آنذاك.[993]

يندرج هذا المبلغ، بالإضافة إلى القمح والشعير والعسل والزبدة والذبيحة ضمن العطايا التي تحدثنا عنها، وإذا اعتبر والد العروسة أن مقدار أحد هذه العناصر التي تم جلبها غير كاف، يطلب منه أن يزيد من كمية العنصر الناقص. يطلب أيضا أن تتضمن الهدايا بلغات للرجال ومناديل الرأس الحريرية والأحزمة لنسائه وبناته وزوجات أبنائه. ويجب أن يتناسب كل هذا بالطبع مع إمكانيات والد العريس المادية. يستمر الرقص والغناء طوال الليل حتى صباح اليوم الموالي. وعند شروق الشمس يدعو والد العروسة مدعويه لتناول الفطور قبل مغادرتهم فلا يبقى في منزله سوى أقارب العروسة ونحو عشر من وصيفاتها العازبات المنتميات إلى الجماعة، واللواتي سيرافقنها حتى آخر يوم تمضيه في منزل والدها.[994]

---

[991]- كانت الفتيات يغنين مع الرجال في الفناء بينما لا يسمح للمتزوجات بذلك، فقط النساء المسنات هن من يختلطن بالرجال. وتتغنى العازبات بأهازيج مرتبطة ببيئتهن، وهي أبيات، أي «إزران «من نظمهن وتدور حول أحداث العام، مع تكرار لازمة ثابتة بالريف المغربي هي، »أيا رالا بويا«. تنتظم كل مجموعة من الفتيات في صف، كل واحدة بجانب الأخرى، وبدل الرقص يتقدمن إلى الأمام ثم يتراجعن إلى الوراء حسب إيقاع بطيء، وعند تغيير الإيقاع عبر نقر سريع على الدفوف من طرف الرجال، تستجيب الفتيات لمستوى سرعة الموسيقى. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، صص. 69-68.

[992]- لا تعتبر هذه العطايا أو «ذوشوث«، من ضمن الصداق، بل هي عطايا إضافية تسمى في ثمازيغت زكا بأيث ورياغر مثلا، «انْفاقي«. علما بأن باقي الورياغليين يكتفون بالمهر. ونشير أيضا أن والد العريس في إگزناين يُحضر معه ذبيحة، أي «ذاڤّار سْث«، عندما يتقدم لطلب يد العروسة. ويقوم الأب بشراء مستلزمات العروسة في أيث ورياغر في حين يقوم بالأمر الزوج والأب معا في إگزناين، وتعتبر قسمة أيث توريرث أن من العار أخذ فرنك واحد من مهر العروس الأمر الذي يقدم عليه بعض الآباء في أيث ورياغر وإگزناين. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 216.

[993]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 18.

[994]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 18.

تتم دعوة العروس من قبل جميع إخوانها وأخواتها وأقاربها وأصدقائها بدءًا من اليوم التالي[995]، وترافقها خلال هذه الزيارات وصيفاتها، أي «ذيوْزيرين»، حيث تمشي وسطهن ويطفن من منزل إلى آخر وهن يغنين. وإذا كانت مساكن المضيفين بعيدة تستعين ببغلة فيما تمشي الوصيفات بجانبها. وقد يتطلب الأمر مرافقتها من طرف عدد من الرجال لحماية العازبات بالنسبة للأماكن القصية. بعد وصولهن إلى البيت المقصود، تستقبلهن صاحبة البيت وتقدم لهن الطعام. وبعد تناول الوجبة تودعهن السيدة التي تكرمت بدعوتهن وتقدم للعروسة هدية صغيرة عبارة عن مبلغ مالي لا يتجاوز في الغالب قطعتين نقديتين. ينتظرها في مدخل نفس المنزل من سيستضيفها بعد ذلك، لكي تشرفهم بقبول الاستضافة. يتشكل الموكب بنفس الطريقة، وينتقل إلى المنزل الموالي حسب نفس الطقوس إلى أن يصل عدد الزيارات عشرا في نفس اليوم.[996]

تعود العروسة قبل حلول الظلام إلى منزل والدها برفقة وصيفات الشرف اللواتي لا يتركنها وحدها ولو للحظة. وتتكرر الزيارات لمساكن أخرى في المدشر في الأيام الموالية بنفس الطريقة حتى اليوم السابع. قد يحدث ألا تتوفر العروسة على صديقات وأقارب لاستضافتها رفقة وصيفاتها، وفي هذه الحالة يستضيف والدها جميع وصيفاتها مع الحرص على توفير كل ما يحتجنه وخدمتهن على أحسن وجه حتى يمر كل شيء في جو احتفالي. وكما هو الشأن بالنسبة للعروسة تتم دعوة العريس من طرف جميع أقاربه وأصدقائه، ويطوف بنفس الطريقة رفقة ثمانية إلى عشرة من وصفائه أو «إوْزيرن»، لزيارة منازل مضيفيه. وإذا كانت العروسة تمنح هدية نقدية لدى توديعها، فإن العريس لا يتوصل بأي شيء. هكذا يراه أعضاء الجماعة إلى حدود اليوم السابع الذي يشهد المرحلة الثانية من حفلات الزفاف.[997]

ومن ضمن مظاهر الاحتفال رفعُ علم أحمر فوق سطح منزل العريس، مع تسجيل خصوصية استعمال قصبة كعمود له، ويبقى هذا العلم فوق السطح حتى اليوم الموالي، حيث يُسحب ويتم الاحتفاظ به، ليُرفع مرة أخرى في اليوم السابع ويُسحب في اليوم الثامن. تتم نفس العملية في منزل العروس، مع وجوب رفع علم أبيض بدل الأحمر. يذبح والد العروسة عددا من رؤوس الماشية حسب ما تسمح به حالته المادية ويدعو أقاربه وأهالي الجماعة[998]، حيث يتناولون وجبتي الغذاء والعشاء ويستمتعون بالغناء والرقص طيلة الليلة. وبالمثل يقوم والد

995- تقوم العروس بمعية وصيفاتها العازبات، تلبيةً لدعوة الأقارب والجيران والأصدقاء، بجولة لزيارة منازل هؤلاء، الأمر الذي كان يستغرق يوما كاملا، وقبل وصول موكب العروس إلى منزل ما يكون صوت الأهازيج قد أن أنذر أصحابه، الذين يبدؤون في تحضير الشاي وتقديم العسل واللوز للموكب، وترافق الموكب عازبات المنزل لإكمال الجولة. انظر:
- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، صص. 61.

996- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 19.

997- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 20.

998- لا توجد قاعدة عامة عن نوعية الماشية وعدد رؤوسها الواجب نحرها خلال حفلات الزفاف، إذ يرتبط ذلك بالحالة المادية للمعنيين وحجم الاحتفالات وعدد المدعوين، غير أن عائلة العروسة التي تتوصل بمستلزمات الحفل عشية تاريخ الزفاف الأساسي، تنحر معزاة ذلك اليوم لإطعام أفراد عائلة العريس والمقربين من الأهل، وصبيحة يوم الزفاف الذي سيشهد حضور كامل المدعوين ومغادرة العروسة لبيت والدها، يتم ذبح العجل أو رؤوس الماشية المخصصة للحفل الرئيسي. وتجدر الإشارة إلى عادة رش عتبة المنزل بدم الذبيحة لجلب السعد والرفاهية. انظر:
- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، صص. 50-47.

العريس بدعوة عائلته وأصدقائه. جرت العادة أن يحمل المدعوون من الأقارب والأصدقاء «لهدية»، أو «ذيوْسي»[999]، لوالد العريس تتمثل في رأس من الماشية وكميات من الخبز والطحين والزيت وغيرها من المواد الغذائية التي تحمل على ظهر الدواب. ويحق لصاحب هذه الهدية أن يصطحب معه جيرانه إلى الحفل لتزداد هيبته. ويحاول كل واحد من هؤلاء المدعوين إظهار سخائه مع بذل كل ما في وسعه لتكون هديته أفضل من هدية الآخرين. ويغني أفراد هذا الموكب ويرقصون أثناء انتقالهم إلى مكان الحفل ثم يسلمون الهدية لوالد العريس الذي يتولى أمر كل شيء. مع حلول الظلام حيث يُفترض وصول جميع الذين عليهم تقديم هديتهم للعريس، تتم دعوة الحاضرين لتناول وجبة العشاء قبل الاستمتاع بالغناء والرقص طيلة الليل حتى صباح اليوم الموالي.[1000]

وفي اليوم الثامن من احتفالات الزفاف يتوجه والد العريس رفقة عدد من أقاربه وأصدقائه الموثوق بهم إلى منزل العروسة حاملا معه الثياب والأقمشة التي سيسلمها لصهره. وقبل الدخول إلى المنزل وفي حضور الفقيه وحفظة القرآن المنتمين إلى نفس الجماعة وعدد من الشهود، يقدم هذه الملابس قطعة بعد قطعة، يحصيها الفقيه ويقدر ثمنها مضاعفا تقريبا كما جرت العادة. يقوم والد العروسة بنفس الشيء حيث يعرض القطع التي يود أن تُمهر بها ابنته ويحيط الفقيه علما بذلك، ويتم تقدير أثمانها بنفس الطريقة. ويشكل ما تم عرضه وتحديد ثمنه صداق العروسة أو «اصْذاق»، وهو ما سيتضمنه عقد الزواج أو «الزُّوجية». والجدير بالذكر أنه لم يكن من اللازم في أغلب الحالات تحرير هذا العقد ليصبح وثيقة تثبت في أي وقت اقتران الزوجين، لأن امتلاك هذه الوثيقة لم يكن ذا أهمية في الواقع بالنسبة إلى المعنيين، نظرا لإمكانية العودة إلى الشهود عند الحاجة لإثبات شرعية هذا الزواج. غياب عقد مكتوب لم يكن يهم غير المتعلمين الجاهلين بأهميته الوثيقة، بل المتعلمين أيضا، مما أدى إلى أضرار ومشاكل عندما كان من الضروري تقديم هذه الوثيقة الهامة لإثبات شرعية الحصول على حق معين. ولم يعد هذا الأمر قائما في الوقت الراهن بعد صدور التوجيهات السليمة التي تبرز مزايا استيفاء شرط التدوين الضروري.[1001]

بعد تقييم قطع جهاز العروسة، يدخلها والد العروسة إلى البيت ويسلمها للنساء لاختيار أجملها لتتزين بها ابنتهم. يتم إلباس العروسة بأفخر ثيابها وهي عبارة عن أقمصة خفيفة ترتديها

---

[999]- من المعروف أن عائلة العريس تتوصل من طرف الأقارب بهدية خاصة للمساهمة في تغطية مصاريف الاحتفالات تسمى «ذيوسي»، وتسمح الأعراف لصاحب هذه الهدية بدعوة من يشاء إلى الحفل، حتى دون دعوة من عائلة العريس، وكان وصول موكب «ذيوسي» يُستقبل بالزغاريد ويتقدمه في فترة الريفوبليك عجل يوضع على رأسه حزام أحمر، وقد تم التخلي عن هذه العادة في عهد الحماية في أيث ورياغر وإن استمرت في أيث توزين وثمسمان. وفي اليوم الأخير تستقدم العروس على بغل مزين في موكب يتقدمه «إمذيازن»، وتزين العروس وتضع إزارا فوق الملابس تتغطى به كليا، وتضع «ارقوبث «ذات الدلالة الطقسية الهامة التي تصنع بغصني دالية تربط بشريط أحمر يؤخذ من حزام الأم، وتغلف بقماش قرمزي. وتضفر العروسة شعرها للدلالة على دخولها مرحلة الزواج، ويرافقها أقاربها وإخوتها إلى بيت زوجها، وفي إگزناين يركب الأخ مع أخته كي لا تسقط من على ظهر البغل، في حين يبقى الأب والأم في البيت. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 225.

[1000]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 21.

[1001]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 22.

بدون حزام ،[1002]كما تعمل الوصيفات على تشكيل قوس من أغصان الأشجار التي يتم ربطها وتغليفها بالشكل المناسب قبل تثبيتها فوق رأس العروسة بحيث تستند إلى كتفيها. ونشير في هذا الصدد إلى أن الوصيفات يتسلين أحيانا بوضع دبابيس في هذا التبطين لتتسبب في وخز أصابع العريس عندما يحين وقت نزعها فيضطر للتخلي عن ذلك .[1003]

يستعمل القوس المشكل بالأغصان لإعداد القبة المناسبة للعروس، حيث يتم تغليفها وتزيينها بشرائط تؤخذ من حزامها، [بالأحرى من حزام أمها] وتوضع على رأسها بحيث تحجب عنها الرؤية كليا وتتسبب لها في العديد من الحالات في مشاكل في التنفس نظرا لنقص الهواء. وفي الوقت الذي تنشغل النساء بمثل هذه الأمور يتولى والد العروسة خدمة المدعوين إلى حفل الزفاف. بعد الانتهاء من تزيين العروسة يدخل الأقارب إلى غرفتها لتوديعها[1004]. وكما يحدث عموما في مثل هذه الحالات، ينخرط الجميع في البكاء، وهو مزيج من الفرح والحزن لأسباب لا تخفى على أحد. لكن ما يعتبر خصوصية هنا، هو أن العروسة مجبرة على البكاء، ولا تقتصر على البكاء وحده بل يتحول هذا البكاء إلى العويل الشديد.[1005]

يتم إعداد بغلة بالشكل الذي يليق بالمناسبة وإركاب العروسة فوقها داخل فناء المنزل. ويقوم بهذه المهمة شقيق العروسة أو أحد أقاربها، وعند عبور عتبة المدخل تضطر لإحناء رأسها نظرا لانخفاض مستوى ارتفاع الباب. يغادر موكب العروسة المتكون من مرافقين من الجنسين منزل والدها، وهؤلاء هم أشقاؤها وشقيقاتها وأقاربها وجيرانها ووصيفاتها اللواتي رافقنها طيلة الأيام السابقة. وقد تم إنزال العلم الأبيض الذي كان يرفرف فوق سطح منزل العروسة وحمله أحد أقاربها ضمن هذا الموكب. أما والد ووالدة العروسة فلا يغادران المنزل، ويمكن أن ينضم والدها إلى الموكب فقط في حالة عدم توفره على ابن بالغ يرافق شقيقته. تغني النساء اللواتي يرافقن العروسة طيلة مسار الرحلة نحو منزل العريس، في حين يقوم الرجال بإشعال المفرقعات، بدل إطلاق نار بنادقهم كما في الماضي.[1006]

يقود شاب من عائلة العروسة البغلة التي تركبها، فيما يمشي شقيقها أو قريب آخر بجانبها لتجنب سقوطها في حالة إصابتها بدوار نتيجة ضيق التنفس بسبب القبة التي تغطي رأسها. يصل موكب العروس عند الغروب إلى منزل العريس، وهي لحظة يتم الإعلان عنها مسبقا

1002–*I.P.A.E.B.I., Mosaico Rifeño cuaderno de acuarelas de Emilio Blanco Izaga,* Vicente Moga Romero, Instituto de las culturas, Uned Melilla, 1929.p. 21

1003- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 22.

1004- من المعروف أن محمد بن عبد الكريم قد أمر بتقليص أيام حفلات الزفاف من خمسة عشر يوما أو ثمانية أيام إلى ثلاثة فقط، وفي اليوم الأخير من هذه الحفلات تُحضر الوصيفات العروس لمغادرة بيت أهلها نحو بيت زوجها. ويجهز صندوق خاص بأغراضها ملون بألوان مميزة، وتوضع فوقه بيضتا الحناء اللتين سيتناولهما العريسان، ويحمل على ظهر إحدى البغلات المرافقة للموكب. أما العروسة فتوضع على ظهر بغلة مزينة ويوضع زوج بلغات مطرزة في قدميها، وينطلق الموكب تحت إيقاع موسيقى إمذيازن وأهازيج المرافقات. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، صص. 81-79.

1005- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 23.

1006- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 24.

عبر إشعال المفرقعات أو إطلاق النار في الهواء كما كان الأمر في الماضي. يخرج العريس لاستقبالها عند باب المنزل، وبعد تحريك لجام البغلة التي تركبها العروسة يدخل إلى غرفته. تستقبل العروسة أيضا امرأة تحمل طبقا به كمية من القمح والشعير والفول[1007]، وأخرى تحمل في يدها شمعة أو قنديلا. وعندما يُقدم الطبق للعروسة تأخذ حفنات من ذلك الخليط وتنثر الحفنة الأولى إلى الخلف فوق كتفها اليمنى، والثانية فوق كتفها اليسرى، والثالثة فوق رأسها، والرابعة أمامها، ثم يُسحب الطبق. ويُؤدى هذا الطقس للتيمن بقدوم موسم جيد ومحصول وفير.[1008]

يُسحب العلم الأحمر الذي كان يرفرف فوق سطح منزل العريس ويُحمل إلى الفناء قبل إلقائه خارج المنزل، ويُرمى في المقابل بالعلم الأبيض الذي كان في منزل العروسة، إلى داخل منزل العريس. تتكرر هذه العملية ثلاث مرات قبل رفع العلمين أمام الموكب الذي تتقدمه العروسة. ويوضع العلمان في الغرفة المحددة لإقامة العروسة. عندما تدخل العروسة إلى فناء الدار ينزلها شقيقها عن ظهر البغلة ويحملها إلى غرفتها، فيحصل على مكافأة من طرف العريس تتراوح بين بسيطتين وخمس بسيطات. بعد إنزال العروسة عن البغلة يركبها الشاب الذي قادها إلى منزل العريس ويطوف حول هذا المنزل ثلاث مرات، فيحصل مقابل هذه المهمة رغيف خبز وبيضتين. بعد استقبال العريس لعروسه يختلي في غرفته رفقة صديق يثق فيه، فيما يقوم وصفاؤه بمهمة الحراسة الشرفية في فضاء قريب. وعندما تُحمل العروسة إلى غرفتها من طرف شقيقها يلتحق بها العريس ويغلق الوصفاء الباب.[1009]

يقترب الزوج من الزوجة وينزع عنها القبة التي طالما آلمتها ويكسر الغصنين اللذين تم تشكيل القبة بهما ويكسرهما إلى سبعة أجزاء ليبين للعروسة مدى قوته. وبعد معانقتها وتقبيلها يغادر الغرفة. تستغل العروسة فرصة اقتراب العريس منها وتحاول تمرير كمي قميصها على وجهه بمهارة مقصودة دون أن ينتبه لذلك. ويسود الاعتقاد بأن نجاحها سيعني التحكم في زوجها وفشلها سيجعله سيد البيت. وسيحاول العريس بالطبع تجنب السقوط في الفخ لما سيترتب عن ذلك من عواقب. عندما يخرج العريس من الغرفة يجد في انتظاره كل الرجال الحاضرين في الحفل، فيرمونه بالبلغات ويلكمونه ويشبعونه ضربا، فيما يحاول وصفاؤه حمايته والتخفيف

[1007]- وخلال النصف الأول من القرن العشرين بدأت تقدم أم العريس للعروس عند وصولها صحن به قمح وقطع من السكر، تأخذ منه وترمي حول عتبة الباب ثم إلى الخلف ثم إلى الهواء، وتأكل الوصيفات قليلا منه أملا بتعجيل الزواج. أما إذ كانت مطلقة فلا تضع «رقوبث»، وتقوم أم العريس بإفراغ المهراس الخشبي المليء بالحبوب أمامها. ثم ينزل الأخ العروس من فوق البغل، ويحملها إلى غرفتها، وتجلس الوصيفات في مكان العروس لتعجيل زواجهن، ويخرجن بدخول العريس الذي يزيل غطاء وجهها وتحاول أن تمسح وجهها بجلبابه وعليه صدها لأنها إن نجحت ستكون هي المتحكمة في العلاقة بينهما، ويزيل قبة العروسة ويكسر غصني الدالية إلى سبعة أجزاء، ويحتفظ بها لغرض استشفائي فيما بعد حيث يستنشق دخانها لعلاج الحمى. وعندما يخرج العريس تضربه الوصيفات في الباب. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. 231-227.

[1008]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 24.

[1009]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p.23.

من حدة الضرب. ورغم عدم إصابته بجروح فستبقى تلك الليلة موشومة في ذاكرته. ينتقل العريس بعد ذلك للمبيت في منزل أحد وصفائه.[1010]

بعد مغادرة العريس للمنزل تدخل وصيفات العروسة والنساء المرافقات لها إلى غرفتها[1011]، بالإضافة إلى نساء عائلة العريس كالأم والأخوات وغيرهن، والأطفال الصغار للترحيب بها. وتقوم امرأة مسنة من بين مرافقات العروسة بتقديم الطعام الذي حملته معها من بيت العروسة لكل المهنئات، وهو عبارة عن لحم مشوي وبيض وفطائر. يدعى جميع الحضور من طرف والد العريس لتناول طعام العشاء ويمضون الليل كله في أجواء من الغناء والرقص حتى صباح اليوم الموالي. يفطر الجميع عند شروق الشمس، سواء منهم مرافقو العروسة أو ضيوف والد العريس. ثم تبدأ عملية توزيع الهدايا، حيث تقوم والدة العريس أو إحدى قريباته بتقديم ما بين بسيطتين وخمس بسيطات لكل فرد من أفراد عائلة العروسة نساء وأطفالا، وما بين خمسة وعشرين وخمسة وسبعين سنتيما لكل وصيفة من وصيفات العروسة، أما أفراد عائلة العريس وضيوفهم الذين أحضروا «ذيوْسيوين»، أي «لهديات»، فلا يستفيدون من مثل هذه العطايا.[1012]

يغادر ضيوف العريس مكان الحفل للعودة إلى منازلهم، ويتوجه مرافقو العروسة مجتمعين نحو منزل والدها الذي يقدم بدوره ما بين خمسة وعشرين وخمسة وسبعين سنتيما لكل واحدة من وصيفات العروس اللواتي رافقنها طيلة الأيام السابقة، ثم يعود الجميع إلى منازلهم. إذا كان والد العريس في المنزل خلال يوم الزفاف، فلن يجرؤ العريس على عبور عتبة الباب، أما إذا كان يتيم الأب، فيمكنه الدخول إلى المنزل والتوجه إلى الغرفة حيث تكون العروس بصحبة الأقارب. يدخل العريس الغرفة ويجلس بجانب العروس ويحييها. تقدم له يدها بعد ذلك لإزالة «إغوذْوان» من معصميها ثم من ساقيها. تفعل الشيء نفسه مع تلك التي يحملها. يتم جمعها والاحتفاظ بها بعناية، بمثابة ذكرى توثق مثل هذا الحدث السعيد. في حالة إحساس العروسة بالعطش ورغبتها في شرب الماء، يعدون لها كوزاً جديدًا ويضعون داخله قطعة نقدية فضية قبل ملئه بالماء.[1013]

ينتظر الجميع في صباح اليوم الموالي تأكيد خبر عذرية العروسة[1014]. ولإشباع هذا الفضول تنزع العروس قميصها الملطخ بالدم ليراه هؤلاء كدليل قاطع على عذريتها وشرفها. جرت العادة في الماضي عندما كان الريفيون يتوفرون على البنادق، أن يطلق الزوج رصاصة

[1010]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 24.

[1011]- تبقى الوصيفات مع العروسة حتى صباح اليوم الموالي حيث يستلمن هداياهن من عائلة العريس. أما العروسة فتغير رمز العزوبية، أي «أحارّاز»، وتضع بدله منديلا من حرير يسمى «ثاسْبْنيث»، وتتزين بالكحل والسواك والحلي. انظر:
- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، صص. 81-80.

[1012]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 25.

[1013]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 24.

[1014]- نجد بعض الاستثناءات إذ تظل العروس عذراء سبعة أيام في بيت زوجها بقبيلة أيث توزين. انظر:
- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu…,* op. cit., p. 115.

في الهواء ليعلم الجميع أنه أمضى الليلة مع زوجته دون مشاكل وأن عروسته عذراء[1015]. ويعتبر عدم سماع صوت إطلاق نار البندقية دليلا على عدم عذريتها أو دخوله بها. يعاين جميع أقارب العريس قميص العروسة الذي تطبعه بقع دم العذرية، قبل إرساله إلى والدتها لتطمئن على عذرية وشرف ابنتها. وتستقبل الأم قطعة الثوب هذه بفرح كبير، كما هو مفترض، ثم تتوجه نحو العين لتنظيفه متباهية به حتى ينتشر خبر عذرية بنتها على أوسع نطاق. يترقب الأهالي وصول قميص العروسة بقلق، إذ أن عدم إرساله سيفتح المجال للقيل والقال، وسيكون مصدرا للتأويلات المغرضة حول عذريتها وإمكانية تعرض العريس والعروسة لعمل سحري من طرف فقيه أو عجوز تسبب في فشل الدخول بها ومعاشرتها. وفي هذه الحالة يغادر الزوج الجديد غرفته في الصباح الباكر ويتوجه إلى منزل أحد أصدقائه لإخفاء العار الذي لحق به.[1016]

أما في حالة ثبوت عدم عذرية العروسة، وهو أمر نادر الحدوث، يقوم الزوج بإرسال إشارة لوالديه يخبرهم بذلك. يلتزم الجميع الصمت ليبقى الأمر سراً ويتوجه والد العريس على الفور نحو منزل صهره لإخباره بحالة ابنته مطالبا بإرجاع جميع نفقات الزواج التي سلمها له. وبعد التداول حول مختلف الجوانب التي يمكن أن تترتب عن اكتشاف مثل هذا الأمر وانعكاساته المحتملة على العائلتين المعنيتين، وحسب مكانة المتدخلين الاجتماعية وأهميتهم، يتم في غالب الحالات منح الطرفين مهلة لإخفاء العار. وبعد مرور بعض الوقت يقوم الزوج بتطليق زوجته[1017]. وبعد افتضاح الأمر يُطلب من العروسة الكشف عن هوية المتسبب في هذا العار. وفي حالة إفصاحها بذلك يدفع الفاعل حياته عقابا على هذه الإهانة، وهو ما حدث في الكثير من الحالات. هكذا يبحث والدا العريس والعروس عن ذريعة لقتل الفاعل والانتقام منه ومحو العار الذي لطخ سمعة العائلتين. ويرتبط هذا بالطبع بأهمية العِرض لدى المعنيين بالأمر.[1018]

ترسل والدة الزوجة الجديدة الطعام للزوجين خلال الأيام السبعة الأولى لزواجهما، وهو مبرر أيضا تستغله الأم لتعرف كيف تسير الأمور بالنسبة إلى ابنتها في حياتها الجديدة. وفي اليوم الثامن الذي يلي حفل الزفاف تعد عائلة العروسة وأقاربها كل ما يلزم من طعام من لحم ودجاج وخبز، ويتوجه الجميع إلى منزل ابنتهم الجديد لزيارتها وتناول وجبة العشاء معا وقضاء الليلة مع أصهارهم[1019]. يدعو العريس بدوره أقاربه لحضور هذه المناسبة، وتتناول

[1015]- يرغب أغلبهم بالزواج من فتاة صغيرة السن وعذراء ذات خصوبة مضمونة وغير مطلقة، وقد سادت في المجتمع الذكوري الريفي فكرة وجوب عذرية الفتاة عند الزواج، فإن كانت غير ذالك تقتل للتخلص من عارها. كما يمنع هذا المجتمع الفتاة من العيش مستقلة، لما يثيره ذلك من شبهات حولها، ما جعل ممارسة البغاء عادة نادرة في الريف المغربي، وفي الحالات النادرة جدا لثبوت الخيانة الزوجية يقتل الاثنان، أو ينفيان لقبيلة أخرى، ليصبحا بدون قبيلة تحميهم، ما يعتبر موتاً اجتماعياً. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. 35.

[1016]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 25.

[1017]- نسب الطلاق غير كبيرة في الريف، ويعتبر العقم السبب الرئيسي لحدوث الطلاق، أو حتى عدم إنجاب الذكور الذي يعتبر من مسؤولية المرأة، بالإضافة إلى أمور أخرى، منها الطاعة والاندماج داخل أسرة الزوج. وحتى حالات التعدد تبقى قليلة نسبيا في الريف. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. ص. 54-53.

[1018]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 26.

[1019]- تزور أسرة العروس بيت الزوج في اليوم السابع بعد الزواج وفي اليوم الثالث بالنسبة إلى المطلقة، وهي بمثابة أول زيارة رسمية لبيت الزوجة تسمى «أوا‌ژ‌ذي». أما في إگزناين، فيمكن أن يحدث العكس، أي يزور العريسان والدي العروسة في منزل عائلتها، أو تقوم

العائلتان العشاء معًا، عن طريق تشكيل مجموعات خاصة بالنساء وأخرى بالرجال كما في المناسبات السابقة. بعد تناول العشاء يقوم الزوج بتقبيل رأس حماه، علما بأنه لا يجرؤ على مقابلته قبل ذلك. يذهب بعد ذلك لتحية حماته التي توجد بين النساء، لكن ليس قبل إخبارها بالأمر. ويُؤدى هذا الطقس بالطريقة التالية: تدخل الحماة إلى غرفة الزوجين وتجلس وسط أربع أو خمس نساء يخفين كلهن رؤوسهن ووجوههن بحايك. يقوم الزوج بتقبيل رؤوسهن واحدة تلو الأخرى دون تحديد هوية حماه، ثم يغادر الغرفة[1020]. وفي الكثير من الحالات تكون زوجته نفسها من ضمن هؤلاء النساء المتخفيات بالحايك.[1021]

يفطر الجميع معا في صباح اليوم الموالي قبل مغادرة أقارب الزوجة الجديدة لمنزل أصهارهم والعودة إلى منازلهم. وعند توديعهم تقوم والدة العريس بتقديم هدايا نقدية لأصهارها من النساء والأطفال تتمثل في دورويين إلى أربعة دورويات لوالدة العروس، ودورو واحد إلى ثلاثة لكل واحدة من شقيقاتها، وما بين خمسين سنتيماً وبسيطة واحدة لكل طفل، وتجدر الإشارة إلى أن الزعيم الريفي محمد بن عبد الكريم ألغى عرف «ذوشوث»، وأبقى فقط على الصداق حسب الشرع، وهكذا كان أولياء الزوجين يتفقون حول مقدار الصداق بحضور عدلين. وقد ألغى أيضا «لهدية»، والرقص في المنازل باعتبارهما منافيين للشريعة الإسلامية. أعطى أوامره أيضا بالتخلي عن «القبة»، لما تسببه من معاناة للعروس، واقتصار عدد المرافقين للعروسة على رجلين إلى أربعة، وخمس أو ست نساء. وكان الهدف من كل هذه الإجراءات هو تقليص النفقات وتفادي تعارض الأعراف مع ما جاء به القرآن. ولنفس الغرض ألغى عرف «رغْرامْثْ»، السائد في أيث ورياغر، حيث كان أصدقاء العريس يقدمون له هدايا نقدية[1022]. كما قلص عدد أيام احتفالات الزفاف وأصبحت ثلاثة أيام فقط.[1023]

الأم بزيارة ابنتها، لكن فقط في غياب الزوج، إذ لا يسمح لها برؤيته قبل الزيارة الرسمية. ويعتبر يوم «أوا‌ڕذي« المناسبة الأولى التي يرى فيها العريس حماته، حيث تجلس في غرفة العروسة رفقة باقي النساء ويدخل أخ الزوج أولا ليسلم عليهن بتقبيل جبهتهن، ومن بعده الزوج ورأسه مغطى بقب الجلباب وتكون الحماة آخر امرأة يسلم عليها، ويضع في حجرها هدية غالبا تكون قدرا ماليا، عندها فقط يكشف رأسه، ويقدم هدية لجميع الحاضرات، ويتجه للغرفة الأخرى ليسلم على حماه دون تقديم أي هدية انظر:

- دايفيد مونتكَومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 232.

[1020]- يذكرنا هذا الطقس بآخر مشابه عندما تزور عائلة العريس منزل العروسة حاملين مستلزمات حفلة الزفاف وهدايا أخرى، ويُستقبل الموكب بقرع الدفوف، ويجب على أم العريس وعماته أن يتعرفن على العروس من بين أربع نساء غطين أجسادهن بثوب أبيض، ومعرفتها من الوهلة الأولى يجلب الحظ والتفاؤل، وعدم معرفتها سيرغمهن على تقديم غرامة صغيرة، وتكون هذه آخر لحظات الطيش بالنسبة للعروسة في آخر يوم من عزوبيتها. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. 72.

[1021]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 26.

[1022]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p.26.

[1023]- تتكفل عادة عائلة العريس بكل مصاريف حفلات الزفاف في بيت العروس، إلا في الحالات الاستثنائية التي يمكن لعائلة العروسة الميسورة المساهمة بقسط من هذه النفقات. ومنذ تقليص عدد أيام الزفاف إلى ثلاثة أيام من طرف الزعيم الريفي ضمن إصلاحاته لم تتغير هذه العادة التي استمرت إلى عهد الاستقلال. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. 53.

الزواج في الريف هو مجموعة من العمليات التي تتطلب وقتا وجهدا وموارد مالية، ويتضمن كما كبيرا من الطقوس مقارنة بأية مؤسسة اجتماعية أخرى. وقبل حدوثه فعلا، يجب الحسم في النقط التالية: هوية الزوجين، وموافقة الأطراف المعنية، ومقدار التعويضات من صداق ومصاريف الزواج، وتاريخ حفلات الزفاف. للزوجين نظريا حرية اختيار شريك الحياة، ونظرا لخروج الفتيات سافرات، فإن فرص اللقاء وبلورة الاختيارات تبقى واردة وتتجسد بعد موافقة الوالدين. يتباين سن الزواج حسب الظروف، لكن المتوسط الملاحظ عموما هو السادسة عشرة أو السابعة عشرة بالنسبة للذكور، والرابعة عشرة أو الخامسة عشرة بالنسبة للإناث. عندما يستقر رأي الشاب ويحدد اختياره، أو يقبل باختيار والديه تفاتح أمه والدة البنت أولا في الموضوع، ثم يأتي دور والده لمعرفة مدى استعداد والد الفتاة مصاهرته. يلي ذلك الاتفاق حول قيمة المهر التي تدرج في عقد الزواج. ومباشرة بعد ذلك يتم وشم الفتاة المخطوبة. للمعنيين بالزواج حق اختيار تاريخ حفلات الزفاف، لكن الفترة المعتادة في قبائل الريف الأوسط هي شهر شتنبر الذي يتزامن مع موسم جني العنب. وإذا كان عدد وصفاء العريس

ووصيفات العروسة كبيرا في أيث ورياغر وثمسمان، فإنه يبقى محدودا في باقي قبائل الريف الوسط.[1024]

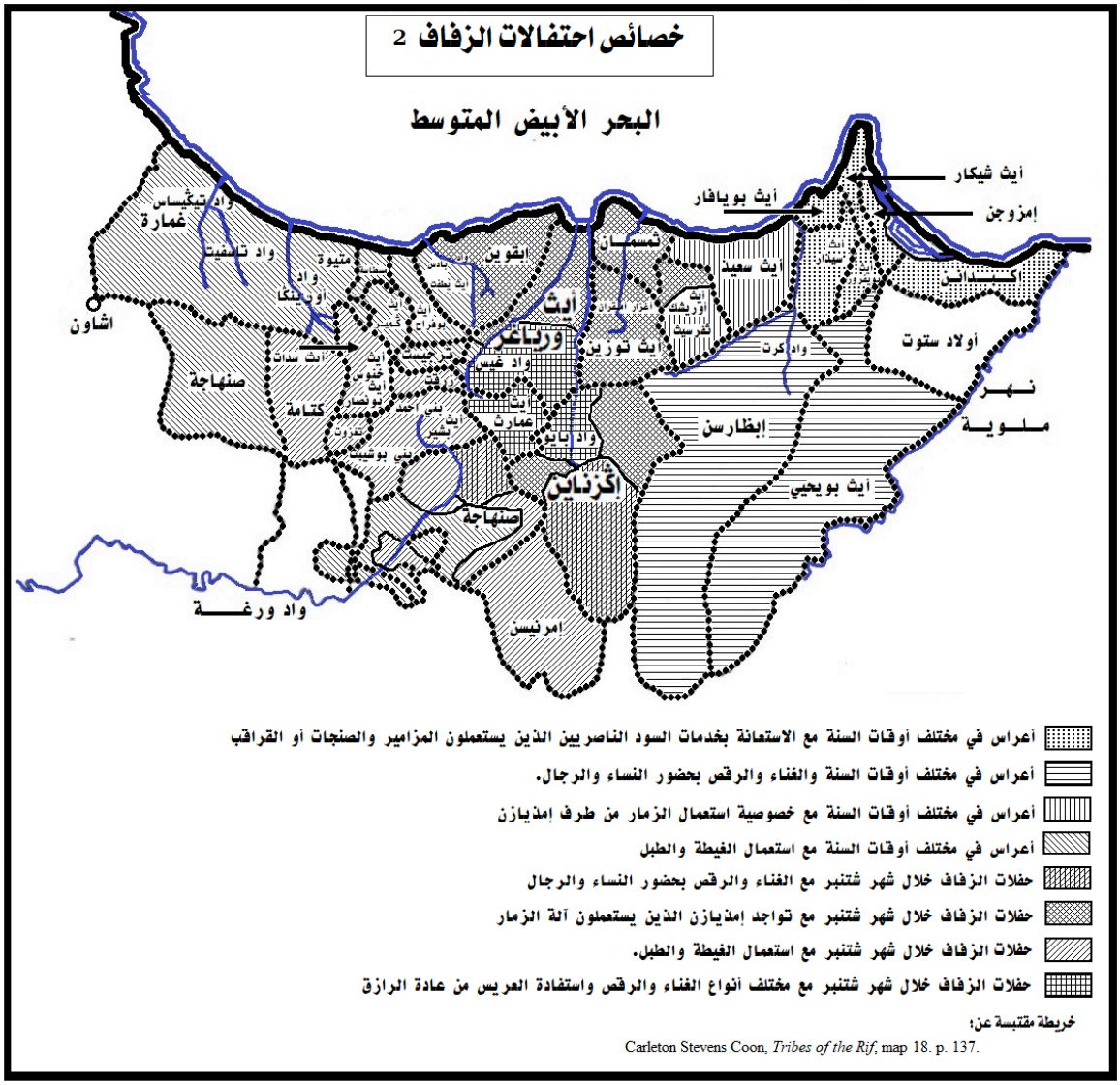

بعد مرور الوقت الكافي الذي يسمح بالإنجاب وتأكد الزوج بأنه بقي بدون ذرية، يفكر في الزواج مرة أخرى لأنه لا يستطيع التأقلم مع وضعٍ لا يتوفر فيه على أبناء. لذلك يسعى بكل الوسائل إلى تحقيق هذا المبتغى حتى يتأكد بشكل نهائي أن سبب عدم الإنجاب يعود إليه بدل زوجته. ويمكن بالطبع أن يقترن الرجل بنساء أخريات بغض النظر عن هذا السبب، ما دام الشرع يسمح له بإضافة حتى ثلاث نساء أخريات. وإذا تزوج الرجل مرة أخرى خلال فترة شهر العسل التي تتراوح مدتها في الريف ما بين أسبوع وشهر، يقضي كل مدة شهر العسل الجديد مع الزوجة الأخيرة، وبعد انصرامها يخصص ليلة لكل زوجة بالتتابع. لذا عندما يستيقظ في اليوم الموالي يحمل أغراضه إلى غرفة الزوجة الأخرى، كأدوات العمل مثلا. وكانت

[1024]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 132-136.

البندقية في الماضي علامة دالة على نية الزوج قضاء الليلة مع الزوجة المعنية. تعيش كل امرأة بشكل مستقل في غرفتها رغم وجود الزوجتين في نفس المنزل. وتلبي كل واحدة حاجياتها على نحو منفصل، لذا من النادر أن تعيش زوجتان في وئام وانسجام، مما يتطلب تدخل الزوج بطرق حاسمة لإصلاح الوضع.[1025]

نسب الطلاق محدودة في الريف نظرا لمجموعة من العوامل، لعل أهمها اقتصار حق التطليق على الزوج وحده. ويحق للزوجة طلب الطلاق نظريا في حالة العجز الجنسي للزوج فقط، لكنها لا تجرؤ على ذلك. من النادر في الريف أيضا تطليق الرجل لزوجته ضدا على رغبتها، إذ حتى في حالة عدم قدرتها على الإنجاب التي تنسب إليها وحدها، يقترن الرجل بامرأة ثانية ويحتفظ بالأولى. كان الطلاق سهلا في الريف في حالة اتفاق الزوجين على الانفصال، إذ يكفي تحرير ورقة الطلاق من طرف فقيه أو أحد العدول. أما في حالة رغبة الزوجة في الطلاق ورفض زوجها، فبإمكانها الالتحاق بمنزل عائلتها، وإذا بقيت هناك لمدة خمسة عشر يوما ولم تعد إلى بيت زوجها، فتعتبر في وضع المطلقة في انتظار ترسيم الطلاق بوثيقة. لكن ما يحدث في الواقع هو إرغام عائلة المرأة للراغبة في الطلاق على العودة إلى زوجها قبل انصرام تلك المدة، أو في حالة تشبث الزوج بزوجته إرساله لمبعوثين لإقناعها بالعودة، وفي الحالات القصوى نحر ذبيحة أمام منزل عائلتها، ويصبح ذلك نوعا من رمي العار يصعب عدم الاستجابة له.[1026]

عندما تتدهور الحالة الصحية لأحد ما ويشعر بأن مرضه قد يؤدي به إلى الوفاة يطلب حضور جميع أفراد عائلته ويستدعي عدلين لكي يوصي بوصيته. وهذا بالطبع إن كان لا يزال في حالة تسمح له بذلك. يدعو العدلين لإحاطتهم علما بما له من ديون على الآخرين وما عليه من ديون. ثم يوصي والده أو شقيقه أو أحد الأقارب برعاية أبنائه بعد مماته. كما يحدد مقدار ما سيتصدق به خلال كمصاريف لجنازته، ومكان الدفن مع الحرص دائما على أن يكون ذلك قرب قبر والده أو أحد أفراد عائلته، أو في فناء مسجد، أو داخل ضريح معين. يحدد أيضا من سيقوم بغسله بعد موته والمبالغ التي ستمنح لحفظة القرآن الذين سيشيعون جثمانه. ولن يغفل النطق بالشهادة قبل تسليم روحه للبارئ عز وجل ضمانا لحسن الخاتمة.[1027]

وبعد موته يقتصر أفراد عائلته وأقاربه وأصدقاؤه على البكاء عليه[1028]، ولا يخمشون وجههم كما يحدث في بعض المناطق. يتم ذبح عدد من رؤوس الماشية لإطعام الحاضرين في

[1025]- يُلاحظ في الوقت الراهن أن عادة تعدد الزوجات تختفي تدريجيا، لما تتسبب فيهمن خلافات في الحياة الزوجية، وبعدما أصبحت مصدرا لمزيد من النفقات وحافزا لخلق العداوة بين الإخوة، هذه العداوة التي تغرسها الأمهات في نفوس أبنائهن، خصوصا منهن اللواتي يعتبرن أنفسهن مهمشات ويشعرن بقلة الاهتمام من طرف زوجهن. في الماضي كان الأب يحتفظ بأبنائه بعد الطلاق وتعود الأم للعيش مع أهلها. أم في الوقت الراهن فيمتثل الزوجان لقواعد الشريعة الإسلامية، حيث تبقى الإناث العازبات بشكل عام مع أمهاتهن حتى يتزوجن، إلا في الحالات القاهرة التي تحول دون ذلك. انظر:

- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1*, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 27.

[1026]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., p. 142.

[1027]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1*, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 24.

[1028]- لا يعبر الورياغليون عن مشاعر الحزن بشكل كبير عند وفاة أحد أقاربهم نظرا لاستخفافهم بالموت، ويدعون أفراد المدشر إلى تناول الطعام الذي يعد بمثابة صدقة. انظر:

مراسم الدفن وتقديم العزاء، وذلك حسب مقدار الصدقة التي أوصى بها الميت قبل وفاته، والتي تنسجم مع إمكانياته المادية ومدى سخائه وكرمه. يدعو أهل الميت حفظة القرآن لإعداد الكفن، حيث يسلمونهم نحو عشرين ذراعا من القماش القطني الأبيض لهذا الغرض كانت الأكفان صوفية في الماضي قبل أن تصبح قطنية، ويتم إعدادها بنفس الطريقة المعهودة في المناطق الإسلامية. ويتم تسخين الماء لغسل الميت، وهي المهمة التي يقوم بها الشخصان اللذان حددهما المتوفى. وفي حالة تعذر حضورهما تُسند المهمة إلى اثنين من حفظة القرآن، وهؤلاء وحدهم المخول لهم تغسيل الميت، اللهم إذا غاب كل هؤلاء فيمكن آنذاك لأي رجل بالغ القيام بذلك. يُجرد الميت من ملابسه ويوضع فوق «المغسل»، وفي حالة عدم توفره تتم الاستعاضة عنه بأي باب، بشرط ألّا تلتصق الشوائب والأدران بجثمانه. يستعمل من يقوم بغسله قطعة صوف ويبدأ بتنظيف الفم ثم الأنف والوجه، والذراع اليمنى فاليسرى، وفروة الرأس والأذنين، ثم نصف الجسد الأيمن فالأيسر، بصفة عامة تتم العملية المعتادة لغسل الميت في الاسلام. يتم تخصيص قطعة من القماش للجزء العلوي من الجسم تسمى «القميص»، حيث توضع بها فتحة كافية ليمر منها الرأس وفتحات جانبية صغيرة يُمرر فيها شريط يُقطع من طرف الكفن نفسه بهدف ربط طرفي القميص. تُخصص قطعة أخرى من القماش الأبيض لغطاء الرأس تسمى «العمامة». القطعة الثالثة هي بمثابة سروال توضع فيه فتحات صغيرة لتمرير شريط من نفس القماش وتجميع طرفيه قبل ربطه بخصر جثمان الميت. يتم إعداد نعلين بقطعتين إضافيتين من القماش وخياطتهما بنفس الطريقة السابقة. يُلف جثمان الميت بعد ذلك بواسطة قطعة كبيرة تسمى «اللفافة»، حيث يغطى جسمه بالكامل، ويربط طرفاها عند الرأس والقدمين مما يسمح بحمله.[1029]

بعد تناول جميع الحاضرين للطعام، يتم نقل الجثمان إلى «المحمل» الخشبي في حالة توفره، أو الاستعاضة عنه بالحصيرة أو الزربية[1030] . وفي حالة استعمال الحصيرة أو الزربية تمرر حبال أو عمائم تحتها لحمل الجثمان. تُشيع جنازة الفقيد إلى مثواه الأخير من طرف جميع أقاربه وأصدقائه الذين علموا بوفاته، فيما تبقى النساء في المنزل. منذ اللحظة التي يغادرون فيها المنزل إلى أن يصلوا إلى المكان المخصص لدفنه لا يتوقفون عن التهليل والصلاة على النبي بصوت مرتفع عبر تكرار عبارة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وعند الوصول يضعون الجثمان بجانب قبره، وهو عبارة عن حفرة عمقها نحو خمسة وسبعين سنتمترا. يقوم الفقيه وحفظة القرآن والمرافقون الذين توضؤوا مسبقا بأداء صلاة الجنازة.[1031]

بعد صلاة الجنازة يوضع الجثمان في القبر، ويتم حل الشريطين اللذين رُبط بهما طرفا الكفن عند الرأس والقدمين. توضع يدا الميت إلى جانبه بشكل سليم ويمدد على جانبه الأيمن، بحيث يوجه وجهه نحو القِبلة. توضع صفائح حجرية فوق الجزء العلوي الأوسع من القبر لتغطية القبر بالكامل. وتُملأ الفجوات الصغيرة بين الصفائح الحجرية بالطين حتى لا يتسرب

- Auguste Mouliéras, *Maroc Inconnu…,* op. cit., p.95.

[1029]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 27.

[1030]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 239.

[1031]- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1*, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 26.

التراب إلى داخل القبر. تتم بعد ذلك إهالة نفس التراب المستخرج من القبر فوق تلك الصفائح. ولا يتوقف حفظة القرآن عن ترتيل آيات حزب من أحزاب القرآن طيلة مدة عملية الدفن.[1032]

يتم في الأخير وضع الشاهدين عند رأس وقدمي الميت، وهما عبارة عن صفيحتين حجريتين، مع الحرص على أن تكونا متقابلتين ما دام الأمر يتعلق برجل. ويغطى القبر بالأغصان والأشواك والأحجار لمنع الحيوانات المفترسة من حفر القبر ليلا وأكل لحم الميت. يتم بعد ذلك الدعاء بالصبر والسلوان لعائلة الفقيد والمغفرة له والتجاوز عن سيئاته، قبل عودة الجميع إلى منازلهم. يسلم المكلف بدفع أجرة حفظة القرآن لأحد هؤلاء الذي يوزع المبلغ على زملائه بالتساوي، ثم ينصرفون إلى المداشر التي قدموا منها. يزور حفظة القرآن قبر الفقيد عند شروق شمس اليوم الموالي لقراءة سور أخرى من القرآن، ويكررون نفس الشيء لمدة ثلاثة أيام متتالية. يدعو أهل المتوفى حفظة القرآن إلى منزله لتناول وجبة العشاء وتلاوة ما تيسر من الذكر الحكيم للترحم على روح الفقيد، ويحصلون مقابل ذلك على قدر من المال.[1033]

وفي الذكرى الأربعينية للفقيد تتم دعوة حفظة القرآن مرة أخرى لزيارة قبره لتلاوة القرآن والدعاء له بالمغفرة، وهي المناسبة التي يتم فيها إزالة ما سبق تغطية القبر به من أغصان وحجارة لحمايته حتى لا تعبث الحيوانات بالجثمان. وقد جرت العادة أن تزور النساء مقابر ذويهن كل جمعة، وهو ما لا يقوم به الرجال. تجب الإشارة إلى أن عملية الدفن تتم دائما في نفس يوم الوفاة، اللهم إذا وافت الفقيد المنية بعد غروب الشمس فيؤجل الدفن إلى اليوم الموالي.[1034]

بعد ممات الفرد في الريف يكون أول هاجس بالنسبة لأهله هو غسله ودفنه بأسرع وقت ممكن، لذا يدفن في نفس اليوم إن تمت الوفاة قبل العصر. وتتم عملية الغسل في الغالب من طرف الفقيه وحفظة القرآن بالنسبة للذكور والنساء المسنات بالنسبة للإناث. يستعمل قماش صوفي لغسل الميت ولا يعاد استعماله، كما هو الأمر بالنسبة لوعاء الماء أيضا. وفي حالة

1032- *B.N.E.A.H., C.E.M.T., Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 27.

1033- وفي حالة وفاة امرأة يتم اتباع نفس الإجراءات المذكورة بالنسبة إلى الرجل، مع الفارق الوحيد المتمثل في ضرورة قيام النساء بعملية الغسيل. لا يختلف كفن الرجل عن كفن المرأة باستثناء تعويض العمامة بالخمار على شكل منديل يربط إلى العنق، واستعمال أربع قطع لتشكيل اللفافة بدل اثنتين، وعدم إعداد النعلين. ثياب الكفن متشابهة باستثناء أنه بدلاً من وضع «العمامة« يضعون «الخمار«، وهو نوع من المناديل التي تستعمل على الوجه، ووضع أربع لفافات بدلاً من وضع اثنتين بالنسبة للرجل، دون وضع «السباط«. وأثناء وضع الفقيدة في القبر يبتعد المشيعون الأخرون ويبقى أفراد العائلة وحدهم. وعندما يقوم فرد مقرب من عائلتها بفتح الكفن عند الرأس والقدمين، ولتفادي نظرات الفضوليين يتم بسط حايك أو إزار فوق جثمانها لحجبها عن الأنظار. يتشابه شاهدا الرجل والمرأة مع اختلاف وضع شاهد القدمين بالنسبة إلى المرأة الذي يجب أن يكون متعامدا مع الآخر وليس متوازيا كما هو الشأن بالنسبة للرجل. انظر:

- *B.N.E.A.H.,C.E.M.T.,Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 27.

-بالإضافة إلى طقوس الغسل والدفن المعتادة في كل المجتمعات الإسلامية، يضفر في الريف شعر المرأة الميتة ويلف حول رأسها، ويدق القرنفل وحبات الزهر وأوراق الريحان والشب ويضاف للحناء، وتوضع على جثتها كاملة عدى وجهها، وتلبس قميصا عريضا وسروال من نفس ثوب الكفن، ويخيط أكمام القميص ورجلي السروال بإبرة خشبية، وتوضع داخل الكفن الذي لا يغطي العينين والأنف، وتحمل في اللحد من قبل رجال الدوار، وتذكر فضائل الشخص الميت طوال فترة الحداد. انظر:

- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، ص. ص. 163-162.

1034- *B.N.E.A.H., C.E.M.T.,Ca 7187-1,* Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948. p. 28.

تأجيل الدفن إلى اليوم الموالي يبقى الجثمان المكفن في غرفة مضاءة مع قراءة القرآن طيلة الليلة حتى استكمال أحزاب القرآن الستين. ويمكن للنساء المسنات فقط المشاركة في الجنازة، لكن دون حمل النعش أو الصلاة أو وضع الجثمان في القبر. يتناوب على حمل النعش كل أفراد المدشر، وقد جرت العادة في إگزناين استعمال باب المسجد المحلي لهذا الغرض. كان هذا الباب يتفكك بسهولة، فيضطر الموكب الجنائزي للتوقف لإصلاحه وتوضع حجرة مكان التوقف على طول المسار نحو المقبرة. ولا يفترض أن يرتدي أهالي الميت أي لباس خاص للتعبير عن الحزن على فراق الفقيد، باستثناء العادة الملاحظة في أيث عمارث، حيث تحدث الأرملة المعزين عن فضائل زوجها.[1035]

ارتبطت الذاكرة الجماعية الريفية بطقوس مراحل الحياة من الميلاد إلى الممات، وصانت المرأة الموروث الشعبي من خلال تداوله واستحضاره للتفاعل مع الواقع المعاش، خاصة ما يتعلق بشعائر العبور وانتقالات دورة مواسم الجماعة[1036]، إذ رافقها «الرقص المغنى» الذي يعتبر تجسيدا لواقع الحياة اليومية ويعكس وجوده.كما يعد هذا الرقص والغناء تعبيرا فنيا عن المفاهيم الاجتماعية وتمثيلا لا شعوريا لمشاعر المجتمع الدفينة[1037].يعد الاحتفال بالمناسبات الاجتماعية من الزواج والعقيقة والختان والاحتفالات الزراعية والمواسم المنظمة لزيارة الأولياء، فرصا لإقامة مهرجانات للألعاب الحربية والرقص، وفي الريف النساء هن اللاتي يؤدين الرقصات المرفقة بالغناء الذي ينقل وضع القبيلة بطريقة شعرية تعبيرية، وهي طريقة للتحرر في مجتمع تبتعد فيه المسافة بين عالم الرجال والنساء.[1038]

تكتسي العادات والمناسبات الاجتماعية والمعتقدات والممارسة اليومية، نوعا من العلاقة بالجسد والطبيعة، لأن المجتمع ليس مكونا من مجموعة من الأفراد وأرض يشغلونها والأنشطة التي يقومون بها، إنما يتعدى ذلك إلى الحمولة الفكرية التي يكونها عن نفسه (الكيان اللامادي)، وهو ما يعزز الحياة الاجتماعية (الوعي الجماعي) وتنتج عنه الصور والأحاسيس والأفكار التي تكون بمجرد الولادة خاضعة لقوانين خاصة بها، تأخذ تسميتها وتتصارع ثم تنصهر تتجزأ وتتكاثر، حيث تنتظم الحياة اليومية والطقوس التي تشكل جزءا منها حول الصور التي تترتب في قالب كلي، وتتناغم مع الحركة البنيوية للحياة اليومية.[1039]

تعتبر طقوس الميلاد والعقيقة والختان والزواج والوفاة بالنسبة للريف الأوسط من بين الشعائر الأكثر دلالة، سماها بيتي Beattieالطقوس الانتقالية، مقتبسا المفهوم الشهير Rites de passages لـفان گينيب Van Gennep[1040]، وهذه الطقوس تخضع لتأثيرات دينية وروحية قوية واجتماعية وانسانية بامتياز.[1041]

[1035]- Stevens Coon Carleton, *Tribes of the Rif…,* op. cit., pp. 143-145.

[1036]- عبد الحميد حواس، "الإبداع النسوي...، م.س.، ص. 27.

[1037]- Emilio Blanco Izaga (1946), »Las Danzas Rifeñas», *África*, Volume55, Madrid, p.550.

[1038]- Pilar De Lama Alcalde (2010), *Juegos y Deportes Tradicionales en el Norte de Marruecos*, Museo del Juego, p. 34.

[1039]- فالنتينا غراسي، مدخل إلى علم اجتماع...، م.س.، ص. 49 ص.103.

[1040]- Arnold Van Gennep, *Les rites de passages…,* op .cit., p. 19

[1041]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 195.

تكيف الإنسان الريفي مع معطيات بيئته المحلية وأنتج حياة اجتماعية خاصة، زادت بنيتها التضاريسية من عزلتها[1042]، وحرص الريفيون على النظافة البدينة، خلافا لما تم رصده في العالم القروي المغربي، حيث ينتشر القمل والبق والطفيليات الأخرى[1043]. احتكم الريفيون إلى مبادئ مستمدة من الدين الإسلامي وأخرى من طبيعة المجتمع المحافظ أطرت حياتهم اليومية خاصة في التعامل مع الجنس الآخر، وعرفوا بالكرم وحسن الضيافة والترحيب[1044]، وكان لباسهم محتشما. وعرف الرجال بالريف بالقوة أيضا، ومعاملة النساء بلباقة دون المبالغة في ذلك[1045]. تتميز مواقفهم الأخلاقية تجاه المرأة بالصارمة ووجهة نظرهم حول الحشمة أكثر صرامة، ولا يمتنع الرجال عن مصافحة النساء ولا يبالغون في ذلك ويتجاهلون وجودها أحيانا في حال وجود زوج أو أب أو أخ، الذي يصبح مركز الحوار، وعادة ما يسلم على الرجل أولا ثم المرأة، وتقبيل يد الراشد من طرف الأطفال واجب.[1046]

أنتجت المقاربة المخيالية إعادة تأهيل صريح لكل ما يتعلق بالحياة اليومية، والعلاقات الاجتماعية ومختلف المظاهر. وتعد الأحداث المجهرية اليومية جوهر الحياة في المجتمع والميدان الذي يتجذر فيه المخيال وموروث الصور الأسطورية، رغم أن تلك الأحداث مهملة زمنيا، إذ ببعدها المبتذل واليومي تبرز الحقائق الراسخة في البناء المجتمعي، وفي تقاسيمها الكثيرة تزاوج في روابطها الحميمية بين المجرد والمحسوس، والتي وجب تفكيكها وتحليلها، وابراز عناصرها المشتركة، التي تتغذى عليها الحياة اليومية ويعاد هيكلتها معها.[1047]

يمكن للمؤرخ استثمار الذاكرة الجماعية وجمع ما تبقى بها من الماضي المعاش وما يتمثل بشأنه، وهي آلية تأريخ لجماعات عريضة على مستوى النطاقات الثقافية، عبر سلاسل محصورة من الأجيال، وتظل إرثا غير قابل للتصرف. وتحتفظ الذاكرة الجماعية بذكرى التجربة غير قابلة للانتقال، وتراهن بصورة إرادية على إعادة بناء قواعد المخيال وعودة المكبوت[1048]. كما يحتاج علم الاجتماع إلى وسائل لتحليل ثوابت الحياة الاجتماعية التي يعاد إنتاجها ضمن الحركية العفوية للحياة اليومية، وعلى علم الاجتماع التوجه إلى الواقع اليومي الذي يتكون من أحداث صغرى ذات دلالة كالإيماءات، والمحادثات، والانفعالات. ويجب على التاريخ أيضا الإنصات إلى الأصوات الصادرة عن بيئة الحياة اليومية، وفهم الأوضاع والأحوال في أبعادها الغامضة وشحنتها التخيلية.[1049]

1042- لحسن أغزادي(.1989-1988)، **ابن عبد الكريم وحرب الريف 1921-1926م**، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية، فاس، ص. .80

1043- دايفيد مونتكّومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .57

1044- يستقل الريفيون الضيوف بفصل الرجال عن النساء، ومهما كان وقت الزيارة وجب إكرامهم وتناول وجبة ولو بسيطة، مع ضرورة تقديم الشاي، وحسب الطقوس يجب شرب ثلاث كؤوس. انظر:
- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، صص. .37-36

1045- نفسه، ص. .28

1046- أورسولا كينغسميل هارت، وراء باب الفناء...، م.س.، صص. .37-35

1047- فالنتينا غراسي، مدخل إلى علم اجتماع...، م.س.، ص. .108

1048- بيير نورا(2015)، «الذاكرة الجماعية»، ضمن **الكتابة التاريخية**، ترجمة: محمد حبيدة، أفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، بدعم من وزارة الثقافة، الدار البيضاء، ص. .86

1049- فالنتينا غراسي، مدخل إلى علم اجتماع...، م.س.، ص. .45

تسعى الذاكرة الجماعية إلى استرجاع الماضي الاجتماعي المتأصل، والتاريخ اليوم يكتب تحت ضغط ذكريات اجتماعية ذات مستويات لسانية وديمغرافية وبيولوجية واقتصادية وميتافيزيقية وثقافية[1050]. وترتبط الذاكرة الجماعية بالتفاعلات بين سيميوطيقة التمثل وتاريخ التمثل الاجتماعي[1051]. ويشكل ماضي الجماعات وأنشطتها الذاكرة الجماعية التي يسعى التاريخ الجديد توظيفها لإنتاج تاريخ علمي، وهو ما يفسر بثورة الذاكرة. ويتم الاعتماد أيضا على دراسة اللغة والديموغرافيا والاقتصاد والثقافة، بالإضافة إلى الأماكن والأزمنة والأوساط الاجتماعية والسياسية.[1052]

في معظم الثقافات التي تفتقر إلى الكتابة[1053]، وفي مجالات عديدة من ثقافتنا، نرى أن تراكم العناصر في الذاكرة يشكل جزءا من الحياة اليومية، وتتبني ذاكرة الحياة المعتادة لإعادة بناء أجيالية، وليس استذكارا آليا، إنما على مستوى البنى العميقة، ويتجسد ذلك في بعض العادات الاستذكارية يتمثل أهمها في الغناء، مع احتمال خمول الاستظهار وضمور الذاكرة.[1054]

الواقع اليومي ومجرى الحياة في كل يوم غنيان بفوران يثبت بصورة دائمة في الصيرورة الاجتماعية، وفي التحليل الديني الذي يغذي من جهة أخرى الفكر الأسطوري، ويوجد نسق يحكم الوعي والحياة الاجتماعية، وهو مكون من ثوابت تتحول إلى رموز في مختلف الثقافات، من أجل دراسة حقيقة الموضوعات المعاشة قيمها ومقاصدها، ولخلق انجذاب بين المظهر العقلاني والعاطفي للحياة العفوية، ومنح المظهر العقلاني دورا مركزيا لاقتحام المعتاد المعاش، ومن أجل شرعة سلطة اللاوعي الجماعي. بالنسبة للتقمص العاطفي للحياة المعاشة

[1050]- بيير نورا، "الذاكرة الجماعية...، م.س.، ص..90

[1051]- بول ريكور(2015)، «التاريخ والذاكرة»، ضمن **الكتابة التاريخية**، ترجمة: محمد حبيدة، أفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، بدعم من وزارة الثقافة، الدار البيضاء، ص. .107

[1052]- Pierre Nora (1984), *Les Lieux de mémoire I*. La République, Gallimard, Paris, p. 57.

[1053]- يسعى المؤرخ إلى استثمار الأسطورة التي تشكل خطابا يتضمن موضوعات ونماذج أصلية ورموزا، والبنية الحركية للأسطورة. ويشير تكرار الرموز إلى وجود حكايات أسطورية بمثابة أجزاء داخل الأسطورة الكبرى، وكل أجزائها والطقوس المرتبطة بها هي حاملة للمعنى الذي تحمله مجمل الأسطورة. وتعتبر التجارب الدينية والأسطورية الخاصة بالجماعة الأكثر حملا للمعنى، وفق المسعى المنهجي إلى الفينومنولوجيا وتفكيك المظاهر المتعددة للمقدس أو تجليات المقدس من خلال أسسها التاريخية، لأن عمله يقوم على تأويل المعطيات إلى أرض الواقع. تعيد الأسطورة الاعتبار بصورة إشكالية إلى طموحاتها ورغباتها، ومخاوفها وهواجسها. وفترة الحياة والقدرة الإنتاجية لأسطورة ما على المستوى الاجتماعي هي حوضها الدلالي. وتمر عبر ست مراحل، هي الانسيالات (تنشأ تيارات ضمن الثقافي)، وتوزع المياه (يأخذ كل تيار مجرى خاصا به)، وتلاقي المجرى (التيار الثقافي بحاجة إلى اعتراف السلطة)، وتسمية النهر (تحمل اسم شخصية من الواقع أو نسج الخيال)، وتأهيل الضفاف (نظريات تعطي الحوض الدلالي الإطار النسقي)، ونضوب الدلتا (يمكن للنهر أن يأخذ ثلاثة تفرعات هي إعادة البناء ضمن سياق جديد، وتضخم أحد العناصر، والنسيان). وتحمل الأسطورة توضيحا للحياة ولها علاقة بالواقع، ولها دور من الدرجة الأولى إلى المكون الأسطوري في العلاقات الاجتماعية وفي الحياة اليومية، وتظل عناصر الأسطورة حية في الذاكرة الجماعية، وتتغير مع الزمان. والتاريخ الثقافي هو إذًا عبارة عن علاقة متبادلة بين الدوام والتغير، والمخيال الاجتماعي هو قاعدة لما هو شامل، وأيضا للأحداث المجهرية في الحياة اليومية التي يمكن أن تكشف عن الآليات الرمزية للحياة الجماعية. والمتخيل ينسى أصله الأسطوري ويصير متماهيا مع التاريخ. انظر:

- فالنتينا غراسي، مدخل إلى علم اجتماع ...، م.س.، ص. ص. 41-38، وص. .114

- ويلجأ المؤرخ إلى استثمار الذاكرة الجماعية لمعرفة مكانة المقدس داخل الحياة اليومية، وإعادة بناء علاقات الفرد. كما أسست الذاكرة الجماعية لنفسها قانونا ثابتا يحكم علاقتها بالمجتمع، وتطرح إشكاليات تاريخية من خلال تفاعلاتها الاجتماعية مع الواقع عبر الزمن. انظر:

- عبد الكريم مدون(2005)، «التاريخ الاجتماعي بين الأسطورة والذاكرة الشعبية محاولة قراءة في ذاكرة المجتمع الآسي »،**قراءات** ، العدد الأول، أكادير، ص..119

[1054]- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م.س.، ص..311

هو مسلمة الحياة اليومية، وتتراجع الموضوعية العميقة بوصفها معيارا منهجيا في الميدان الذي هو جزء من أفق الحياة المعاشة يوميا.[1055]

يمكننا اعتبار البعدين التخيلي والأسطوري عاملين لصيقين بالذاكرة الجماعية، ولهما دور في حفظ جزء من التاريخ الاجتماعي والثقافي الذي يمكننا من تركيب نمط العيش المعتاد بالريف الأوسط، ويسمح بتكوين صورة واضحة عن الإنسان الريفي، وتركيبته الثقافية التي جعلت منه عنصرا فاعلا في تاريخ المغرب، ومكونا رئيسيا في وعيه السياسي.

تعتبر البيئة الثقافية كفيلة بتفسير بعد التاريخ السياسي بالريف الأوسط، الذي يجد تفسيره في مواقف وأخلاقيات الإنسان الريفي، الذي صنع تاريخاً قل نظيره خاصة على عهد الدولة العلوية، والذي ارتبط بأسطورة ومخيال الذاكرة الجماعية والكتابة التاريخية.

[1055]- فالنتينا غراسي، مدخل إلى علم اجتماع...، م.س.، ص. 108.

الباب الثالث

التاريخ السياسي بالريف الأوسط.

أثار المجتمع الريفي فضول الدارسين في مختلف حقول العلوم الإنسانية، وذلك بدافع استعماري أو لأهداف علمية، وتمخضت عن هذه المساعي دراسات سوسيولوجية وأنثروبولوجية هامة سواء قبل الاستعمار أو خلاله أو بعده. وقد لامست هذه الدراسات الجوانب الثقافية والنظم الاجتماعية للمجتمع الريفي، ونظرا للمقاومة الشديدة التي أبداها وصده للتدخل الاستعماري ازدادت رغبة الأجنبي في فك شفرات هذا المجتمع داخل إطاره الطبيعي، والكشف عن هويته داخل إطاره الطبيعي الذي حدد معالم شخصيته، والكشف عن هويته الثقافية التي كانت وراء تشكيل وعيه السياسي. وهنا تكمن نقط التقاطع بين الإشكالية المحورية للأطروحة فيما يخص العلاقة بين الإطار الجغرافي والنسق الثقافي والبنية الاجتماعية والتاريخ السياسي، والتي تعبر عن تسلسل منطقي لكتابة التاريخ المونوغرافي.

يعتبر التاريخ السياسي نتاجاً للبعد الطبيعي والثقافي والاجتماعي ومحدداته الأساسية، دون إغفال وضع الأحداث السياسية ضمن السيرورة الجغرافية والتاريخية، مما يستوجب تحليل التاريخ السياسي بالريف ضمن مجال المغرب ككل، ونظام الريفوبليك ضمن سلطة المخزن، والنظر في الأنساق السياسية القائمة بالمنطقة، بالإضافة إلى نظام القضاء السائد.

كان للريف الأوسط ظهور سياسي مهم داخل الدولة المغربية منذ بداية الدولة العلوية مع السلطان المولى الرشيد، واستمرت الأدوار السياسية مع تعاقب السلاطين العلويين على تولي العرش، لكن يبقى الدور السياسي الأهم الذي لعبه الريف هو انتظام قبائله لمواجهة الأطماع الأجنبية، والمساهمة في تحرير البلاد، ثم بلوغ مستوى تركيب أهم أحداث التاريخ السياسي بالريف الأوسط من خلال التاريخ المكتوب ورواسب الذاكرة الجماعية المستمرة.

ومن هذا المنطلق يشكل الباب الثالث من الأطروحة القسم الأخير من الإشكالية العامة، والجزء المتمم لمونوغرافية الريف الأوسط. ويزاوج البحث التاريخي في الميدان السياسي بين أنماط متعددة من المتن المصدري المتمثل في الوثيقة المكتوبة بأنواعها، والذاكرة الجماعية المستمرة، هذه الذاكرة التي تم تغييبها في المصنفات التاريخية رغم دورها الهام في إضاءة مجموعة من الجوانب التي يتم تغييبها عادة في المصنفات التاريخية، علما بأن الاستفادة من معطيات الذاكرة تستوجب إعمال المنهج التاريخي الذي من شأنه تخليصها من شوائبها.

يتكون الباب الأخير من ثلاثة فصول، الأول حول الريف الأوسط بين سلطة المخزن والريفوبليك، والفصل الثاني حول الريف الأوسط والأطماع الأجنبية، والثالث وهو الفصل التاسع والأخير في الأطروحة ككل، حول التاريخ السياسي بالريف الأوسط من خلال الذاكرة الجماعية المستمرة.

الفصل السابع

الريف الأوسط بين سلطة المخزن والريفوبليك

يعتبر الوعي السياسي بالريف جزءاً لا يتجزأ من الحياة الثقافية للإنسان الريفي الذي يتخذ من هويته واستقلاليته شرطاً أساسياً لتحقيق العيش الكريم، ولم يكن الفكر السياسي بالريف الأوسط منعزلا عن السياق العام للسياسة المغربية، لأن السلاطين العلويين اعتبروا الريفيين أهلاً للثقة ومصدر قوة، وجعلوهم يتولون مجموعة من المهام القيادية والجهادية، واعتمدوا عليهم لمواجهة الثورات الداخلية والتدخل الأجنبي، وفي نفس الوقت كان الريف معقل المضطهدين والثوار، ومثل الريف عبر التاريخ منطقة توتر كانت دائما في مد وجزر مع السلطة المركزية.

كانت للمخزن عبر أزمنة مختلفة تمثيليات متعددة بالريف الأوسط، وقد شكلت هذه التمثيليات حلقة وصل بينه وبين المركز، غير أن ذلك لم يمنع من استمرار التنظيمات المحلية والمستقلة عن الجهاز المخزني. ورغم كونها وليدة النسق الثقافي الريفي، وارتكاز دورها بالأساس على التنظيم الاجتماعي، إلا أنها تمكنت من بسط نوع من السيطرة السياسية التي سمحت بتنظيم الحياة السياسية، وخلق أجهزة خاصة للقيام بذلك.

عاش الريف مراحل سياسية مختلفة، تصنفها الكتابات التاريخية ضمن التحقيب التاريخي المغربي، وتصنفها الذاكرة الجماعية بزمن الريفوبليك أي ما قبل الاستعمار، وزمن الريبوبليك الذي عرف تنظيم المقاومة الريفية تحت قيادة الزعيم الريفي محمد بن عبد الكريم الخطابي، ورافقت هذه الأزمنة السياسية تحولات عدة أهمها كان على مستوى التنظيم العرفي الذي تجاذبه الشرع الإسلامي وغير من معالمه الشيء الكثير.

يشكل هذا الفصل توطئة شاملة لأحداث التاريخ السياسي بالريف الأوسط، في علاقته مع المخزن والأنظمة السياسية المحلية، وذلك بالاعتماد على المنهج التاريخي والمصادر التاريخية، من أجل وضع أساس قابل للتحليل والتأويل في الفصول الموالية.

المبحث الأول: علاقة الريف والمخزن

أولا: حضور السلطة المخزنية

تعد الأحداث السياسية بالريف جزء لا يتجزأ من تاريخه الثقافي وتقسمه ونسقه الاجتماعي، وتشغل حيزا مهما من ذاكرته الجماعية وتحضر بشكل غير واعي في روتينه اليومي. إن استحضارنا للتاريخ لن يكون عبارة عن رواية لما حدث بل هو بالأحرى بحث في أسباب وحيثيات الوقوع وكيفية الرسوخ بالذاكرة، إذ لا يوجد حدث سياسي إلا وبداخله تاريخ إشكالي، ما يقتضي نزاهة واستقامة المؤرخ ما دامت الذاكرة رهانا من رهانات السلطة، والتاريخ شأنه شأن العلوم الأخرى قائم على معيار الحقيقة، وينحرف المعيار فور مناصرة المؤرخ لتوجه سياسي، كما يظل السرد التاريخي خاضعا لثقافة المؤرخ.[1056]

تتجاذب تاريخ الريف السياسي من جهة، الذاكرةُ المتسمة بالتضخيم الأسطوري والتناسي المقصود للأحداث الأليمة ومدوني هذا التاريخ أحيانا، ومن جهة ثانية الإسطوغرافيا التي تمثل إلى حد كبير الشق الواقعي من الحدث التاريخي رغم الفراغات التي تتخلله، والتي لا يمكن لغير الذاكرة ملأها، بعد إخضاعها بالطبع لمعايير التنقيح والاستقراء وعرضها على قوانين المنطق. ويستوجب الطرح الإشكالي لهذا التاريخ إطارا تاريخيا شاملا يعود لتأصيل أدوار الريف التاريخية داخل سياسة الدولة المغربية بين الاندماج والاستقلالية.

اختلف المؤرخون حول الوضع السيادي للريف قبل فترة الحماية، فثمة فريق يقول أنه كان مستقلا تماما عن سلطة السلطان، وهو رأي يتماشى مع نظريات السوسيولوجيين[1057]، والأنثروبولوجيين[1058]، الذين اعتبروا الريف ذا نظم قبلية خاصة[1059]. وأوضح جرمان عياش

[1056]- جاك لوغوف (2017)، **التاريخ والذاكرة**، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، ص. 189.

[1057]- أشارت أغلب الدراسات الاستعمارية إلى أن سلطة السلطان لا تتجاوز حدود ضواحي المدن الكبرى، والقسم الأكبر قبائل سائبة لا تعترف بسلطة أحد، وليست للسلطان المستبد القدرة على تقييد بعض الأعراف الديمقراطية القبلية، ويظل المخزن وفق هذه النظرية عامل تخريب للنظم الجماعية التي كانت تشكل نسقها السياسي، وكانت تلك الأنظمة القبلية الديمقراطية تتدهور بقدر ما كان الحكم الشخصي للقواد المخزنيين يستتب على حسابها. انظر:

- Robert Montagne (1930), *Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc essai sur la transformation politique des berbères sédentaire*, Librairie Félix alcan, Paris, p.411.

[1058]- وإن كان المغرب موحدا نظريا تحت قيادة السلطان تتجاذبه ثلاثة محاور هي أولا، المحور العربي/الأمازيغي، وتنتمي القبائل الريفية الزراعية المستقرة إلى الصنف الثاني وتتكلم تاريفيث، علما أن العنصر الأمازيغي يشكل نسبة 85% من مجموع سكان المغرب، وهم السكان الأصليون والأكثر مقاومة للتغيير. وثانيا، المحور الحضري/القبلي، وهو محور سوسيواقتصادي. ونظرا لتقارب خاصيات هاذين المجالين قبل الحماية، فقد كان بمثابة نسيج متصل تحت راية الاسلام، التي يمثلها أمير المؤمنين دون استثناء الأقلية اليهودية. وثالثا، محور المخزن/السيبة أو الحكومة/ الانشقاق، وهو محور ذو طبيعة سياسية دينية، الطبيعة التي هيمنة على المغرب بأسره، وكان الشرفاء الأحياء منهم والأموات يلبون حاجيات السكان الدينية. وهنا نلاحظ أن مستوى المحور الثاني ينعكس على المستوى الثالث.انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، الطبعة الثانية، ج.1، ص. 10.

[1059]- مصطفى أعراب (2019)، **الريف والسلطة المركزية مقاربة تاريخية لأسباب التوتر**، مطابع الرباط نت، الطبعة الأولى، الرباط، ص. 13.

من جانبه كيف اختصت المجالس القبلية في الريف بتنظيم الحياة الاجتماعية واستحوذ المخزن على الجانب السياسي[1060]. فيما اعتبر لحبابي سلطة الحاكم مجرد جهاز تنفيذي أو مصدر تشريع رغم كونها حقيقة تاريخية فرضت وجودها سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، أما الحاكم الفعلي، وإن كان السلطان نفسه، فهو الأمة المغربية المتمثلة في الفقهاء وأصحاب المشورة.[1061]

اعتبر السوسيولوجيون الفرنسيون بلاد الريف ضمن بلاد السيبة (الريفوبليك)، التي لا تشملها سلطة المخزن، بينما اعتبر ميشو بيلير منطقة الريف الغربي منطقة وسط، لا هي خاضعة كليا ولا مستقلة كليا عن السلطة المركزية أطلقت عيها الوثائق توصيف «أرض متروكة لحالها»، تعترف بالسلطان ومكانته الدينية وجمع الضرائب بشكل موسمي دون تمثيل دائم لسلطة المخزن بهذه المناطق، مع إرسال الحركات ضد القبائل الريفية الثائرة، وهذا راجع للواقع التضاريسي بالريف، والنظام القبلي الرافض للخضوع لأي سلطة.[1062]

يعتبر المجتمع المغربي عامة مسلماً سنيا، وسلطته وراثية مرتبطة بآل البيت[1063]، متمركزة في شخص السلطان المنتمي للشرفاء، وبجانب السلطان نجد حاشية مخزنية سياسية عريضة، وجيشا ونظاما خاصا بالجبايات، غير أن موقف التشكيك الذي تميزت به القبائل جعل سلطتهم منسقة بدون زعيم Organized acephaly، وتلخص زعامة السلطان في الجانب الروحي.[1064]

كان السلطان حذرا كل الحذر من طمع الشرفاء في ترجيح الكفة لصالحهم، الشرفاءُ الذين كانوا قادرين على استغلال سذاجة السكان ببركاتهم، والتمرد على المخزن، ولجأ السلطان إلى العنف الرمزي وربط سلطته السياسية بالسلطة الدينية، وحث الريفيين على الجهاد باعتبارها فريضة دينية[1065].من الطبيعي أن تتضارب الآراء والتأويلات باختلاف منظورات أصحابها حول طبيعة الحكم المخزني وحول الديمقراطية القبلية،ما دامت لم تتوفر الدراسة المكثفة والمستندة إلى وثائق تلقي الضوء على نماذج من الوقائع التاريخية أغنى من الشوارد التي اعتمدت عليها الاستنتاجات التي تم استخلاصها إلى حدود الآن.[1066]

وإذا وضعنا إشكالية علاقة قبائل الريف الأوسط بالمخزن المغربي في سياقها التاريخي في ظل تعاقب الدول الحاكمة، لا نجد صفحات واضحة حول المرحلة المرابطية باستثناء بعض الإشارات الموجودة في مصادر معدودة، منها قوة المقاومة التي تلقوها من طرف هذه القبائل،

1060- جرمان عياش (1986)، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 193.

1061- Mohammed Lahbabi (1975), *Le Gouvernement Marocain à l'Aube du XXème siècle*, Maghrébines, 2éme Edition, Rabat, p.65.

1062- محمد أوحدو (2017)، **الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية نموذج قلعية**، منشورات زمن، سلسلة شرفات، العدد التاسع والثمانون، الرباط، ، ص..29

1063- ونجد جرمان عياش يبالغ في هذا الجانب، إذ ذكر أن الريفيين كان لهم شعور بالولاء يظهر في التقوى الدينية، يظنون أن السلطان غاضب عليهم إن تأخر نزول المطر ويرددون «سيدنا السلطان غاضب علينا»، غير أننا لا نجد إشارة تؤكد القول ضمن رواسب الذاكرة الجماعية ولا ضمن أسطر الوثائق المكتوبة. انظر:

- جرمان عياش، دراسات...،م. س.، ص..207

1064- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 12.

1065- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...،م.س.، ص..30

1066- محمد توفيق (2011)، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر إينولتان ،1850-1912** منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، ص..468

ثم اعتراض الموحدين مجموعة من الصعوبات قبل إرساء قواعدهم في الريف، إذ سلك الموحدون جبال الريف ليحققوا سيطرة أشمل من السيطرة المرابطية، قصد الاستيلاء على الثروة المعدنية منذ عام 1139م، وقبل الريفيون الوجود الموحدي رغم التعارض المذهبي، وظلت بقاياهم شواهدهم في الريف خاصة بكل من بادس والمزمة. وشهدت الدولة المرينية مساندة بدل المعارضة خاصة من طرف قبائل الريف الشرقي، وخلال هذه الفترة عاش الريف رخاء اقتصاديا جعله يستقطب مجموعة من العائلات خارج منطقة الريف، كما عرف الريف خلال العهد الوطاسي والسعدي هجمات متكررة من قبل قشتالة والبرتغال، بالإضافة إلى أطماع الأتراك، وأمر فيرديناند الثالث (1199-1252م) Saint Ferdinand III بمحاربة الريفيين لأنهم يجنون أرباحاً من وراء اندفاعهم وراء سواحل غرناطة.[1067]

أجمع سكان الريف على قبول الحكم السعدي بعد رفضهم لأبي حسون الذي استنجد بإسبانيا، واستنكروا تجاوزات الأتراك، غير أن إثقالهم بالضرائب من قبل القواد السعديين، جعل إجماعهم يعرف نوعا من الفتور، وحسب التقارير الإسبانية فضل بعض السكان الدخول في الدين المسيحي بدل الرضوخ للدولة السعدية، غير أن السكان بصفة عامة تحت قيادة علي أعراص رابطوا على طرد الإسبان من الثغور الريفية والاعتراف بالدولة السعدية، إلى أن تراجع السعديون وتنازلوا عن الحصن للإسبان خوفا من دخول الأتراك. وحاولت إسبانيا بسط السيطرة على حوز الريف سنة 1563م، لكن الأمر كان صعبا أمام مقاومة أهل الريف، رغم وفاق الملك الإسباني والملك السعدي. وأرسل السلطان السعدي سنة 1564م حركة تحت قيادة ابنه محمد السعدي، ليظهر أنه مقاوم للمد المسيحي، وحاول الريفيون مقاومة الاسبان دون جدوى، وحاولت الدولة المغربية والإسبانية التوصل لهدنة، عن طريق حاكم الجزيرة دييغو دي بريث Diego de Perez وقائد حوز بادس المنصور بن إبراهيم، اللذين توصلا إلى هدنة 40يوما، تنص على توقيف الغارات خلال هذه المدة والسماح بالتجارة لليهود والريفيين داخل الحصن وعودة السكان إلى منازلهم ببادس وتهيئ فصول الاتفاقية لتوقع من قبل الطرفين. وتكون المشروع الإسباني من 11بندا، تجسدت في إحياء معاهدة سنترا، وحرية تجول الجنود بأسلحتهم بالريف، وبقاء برج الساحل وبادس تحت سيطرة الاسبان، وعدم السماح للسكان الريفيين بالقيام بأي إصلاح معماري، والسماح لإسبانيا ببناء برج ساحلي ليصبح مستودعا للبضائع وسوق في الآن نفسه، وإقامة إدارة للجمارك بين المسلمين والمسيح للحصول على عشر المبيعات والمشتريات الرائجة ببرج الساحل، وتقديم قائد المنطقة لهدية سنوية تتمثل في فرسين مجهزين، الأمر الذي لقي رفضا من طرف عبد الله الغالب سنة 1565م. تبقى مسألة تنازل عبد الله الغالب عن منطقة الريف للإسبان غامضة إذ لا يمكن أن يحاول استرجاعها إن تنازل عنها فعلا. وبعد مرور عشر سنوات استنجد محمد المتوكل بالإسبان سنة 1577م، وابن عمه عبد المالك بالأتراك ليعود الصراع لنقطة الصفر، ولاحق عبد المالك ابن عمه إلى جبال الريف. ولم يقبل السكان المحليون حسب الإسبان عبد المالك حاكما على الريف، ربما لتبرير مساعدتهم للمتوكل ولبسط سيطرتهم في الريف[1068]. ولما قدم السلطان أحمد الذهبي (1578-

---

[1067]- عبد الرحمان الطيبي (2008)، **الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط** 1912-1860، منشورات تيفراز، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، صص..41-35

[1068]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، صص..49-47

1603م) من سجلماسة أقبلت عليه وفود أهل المغرب لمبايعته، غير أن أهل فاس لم يأت منهم أحد، وكذلك الباشا أحمد الريفي وقبائله.[1069]

برز أبناء الريف إلى جانب مؤسس الدولة العلوية السلطان المولى الرشيد 1672-1666م، إذ بايعه أولاد حمامة[1070]، أصهار المرينيين وبالتالي اعتبروا أخوال السلطان، وحاول السلطان استمالة أهل بطوية ومن حولها إلى جانبه على خطى المرينيين لتتعاظم شوكته بالمنطقة، ولم يقتصر دورهم في الانخراط بالخدمة العسكرية، واعتبار المنطقة خط امتداد للحملات العسكرية نحو الشرق، إنما تمكن أهل بطوية من بسط نفوذهم ضمن الدائرة المقربة للسلطان، عسكريا وبالتالي اقتصاديا، من خلال التحكم في المعاملات التجارية لمنطقة الريف مع الضفة الشمالية للمتوسط عن طريق شركة المزمة التي أسسها أحمد أعراص البطوئي، الذي انضم إلى جيش محمد بن شريف سنة 1664م[1071]، وناصره بحصاره لقبيلة تمسمان التي بايعت أخاه الرشيد، وعين السلطان المولى الرشيد عبد الله أعراص وزيره ومعاونه. ومن الحماميين عين عمر بن محمد الحمامي وزيرا، وعقد هدنة مع أهل الريف واعتمد عليهم ليحقق السيطرة على تازة وفاس سنة 1665م، وشيد المزيد من القصبات والقلاع بالريف، وأمر القائد يحيى أعراص أن يقيم قصبة على حجرة نكور، وشن هجومه على جهة الشرق.[1072]

عمد سلاطين المغرب على التقرب من العائلات الريفية التي عرفت بالوجاهة، إذ متن زواج السلطان المولى الرشيد من ابنة أعراص أواصره بأهل الريف، وعقد الصلح بينهما بعد صراع الحكم بين الرشيد وأخيه، واستعان بالنكوريين أيضا بتعيين أحمد بن يكور ولياً على سلا، وتعاظم نفوذ العائلات الريفية ومثّل الريف في بيعة السلطان المولى إسماعيل 1684-1727م بفاس، وشكل جهازين عسكري وسياسي وشكل الريف نواتهما، ولم يشهد الريف المغربي فوضى انتقال الحكم.[1073]

1069- أحمد أبي القاسم الزياني (1884)، **الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين من أولاد مولانا الشريف بن علي من كتاب الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، مطبعة الجمهورية، باريس، ص..33

1070- كان السلطان الرشيد أول من تبعه على حاله وأمره في عسره ويسره، أهل الأحلاف وأولاد الحاج وأولاد حمامة ربعا من الأرياف، وبايعوه سنة 1074هـ، وفتح جبال وسهول گارت، وكانت بينه والقائد أحمد أعراص وقعة مشهورة بقصبة تفرسيت، فهزمهم وقتل منهم خلقا، وسير دار سكناه بـابن مشعل، وتزوج بنت الشيخ اللواتي، ونهض إلى الريف والتقى بالنكور مع أعراص، وهزمهم وقبض على ولده عزوز أعراص بعد مقتل جمع منهم، وتم الصلح بين أعراص والسلطان ووقعت مصاهرة بينهما أعطاه القائد إبنته طامة مقابل إطلاق سراح ابنه. انظر:

- عبد الكريم بن موسى الريفي (1992)، **زهر الأكم**، تحقيق: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص. .127

1071- قصد السلطان الرشيد الريف للثورة ضد أخيه محمد سنة 1663م، إذ لعب الريف دورا حاسما في انبثاق الدولة العلوية، وواجه السلطان الرشيد ثورة أعراص في نفس السياق الذي رفض منح إسبانيا الرخص لتجار مرسيليا، لإقامة مركز تجاري بالمزمة، وانهزم أمام جيش السلطان، وتم الصلح بعد المصاهرة، الصلح الذي لم يدم طويلا، ففور ثورة الأمير أمحمد الذي قتل سنة1664م، وهدم السلطان الرشيد قصبة تلا بادس، ظل عبد الله أعراص تحت حماية الإسبان، واستقبل السلطان الرشيد تجارا فرنسيين، وأذن لهم بإقامة شركة مقابل تزويده بالسلاح، وأفلست الشركة سنة 1670م، وخلفتها شركة أخرى، قبل احتلال الجزيرة من قبل الإسبان سنة 1673م، عقب وفاة السلطان. انظر:

- خديجة الخديري (2018)، **التراث الأثري لساحل بلاد الريف**، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، ص. .66

1072- علي مزيان(2017)، »بطوية ودورها في الحياة السياسية بالمغرب خلال العصر الحديث ،«**مجلة الذاكرة**، مركز الريف للتراث والدراسات والأبحاث، العدد الثاني، الناظور، ص. .38

1073- علي مزيان، »بطوية ودورها في الحياة...، م.س.، ص. .40

انطلق السلطان المولى امحمد من تافيلالت ضد السلطان المولى الرشيد، واستولى على گارت وأحوازها، ونكث أعراص ونقض عهده للسلطان الرشيد وانضم إلى السلطان المولى امحمد حين أدركه، وعزموا على فتح ثمسمان، وتراجع أتباع السلطان المولى الرشيد إلى بني يزناسن، ليستعدوا للقتال، فكانت بينهم حرب عظيمة ظفر بها امحمد وهرب السلطان المولى الرشيد إلى تلمسان، وكان سنده أخوه السلطان المولى اسماعيل، ولحقهما السلطان المولى امحمد إلى بلاد أنگاذ، ودارت حرب بينهما بوهرية، قتل هناك السلطان المولى امحمد ورجع ولده محمد مفلولا 1665م، وعاد السلطان المولى الرشيد إلى حكمه، ونهض إلى الريف وهزم أعراص، وقتل ألوفا من جنوده، وفر الباقي إلى بادس، واعتصموا بالنصارى والأسوار فهدم قصبة تلا بادس، ونهب أموالهم، وبايعوا السلطان المولى الرشيد، وأحسن إلى الخاصة والعامة، أجرى عليهم الأنفاق وأحبهم، بعد أن ساروا إلى الرئيس غيلان، وأقاموا عنده، وكان ضمن وزراء وكتاب السلطان المولى الرشيد الشيخ عمر بن محمد الحمامي، وعبد الله أعراص.[1074]

بسط السلطان المولى الرشيد العلوي سيطرته مرة أخرى على الريف وسهر على إحياء التجارة بالساحل الريفي مع التجار الفرنسيين[1075]، وتبادل السلطان والملك الفرنسي رسائل بخصوص ذلك، وكانت فرنسا تنوي تحويل مرسى المزمة إلى قاعدة عسكرية لمواجهة نفوذ الإسبان بالمتوسط، حيث تم الترخيص لشركة الشرق بنقل العتاد الحربي من طرف السلطان سنة 1670م، إلى أن فشل المشروع المراد إنشاؤه من طرف فرنسا، بعد أن كشف السلطان تصميم القاعدة العسكرية واعتبرت حامله التاجر فاليني Valinyبمثابة جاسوس، وأعطى السلطان أوامره لبناء قصبة حجرة نكور، لحماية المنطقة[1076]. وبعد وفاة السلطان المولى الرشيد عام 1672م، بايع جنده من أهل الريف السلطان المولى إسماعيل، وأولاد حمامة والأعارصة، وكان السلطان المولى الرشيد قد أمر قائده يحيى أعراص قبل وفاته ببناء قصبة على حجرة النكور من بلاد الريف، مع داهية الأشياخ أبي حفص عمر بن حمامة، بنوها وشحنوها بالأقوات، وعمروها بالرجال والعدة، وظلت هذه القصبة سنتين بعد وفاة السلطان، إلى أن باعها الباشا الخطيب الذي كان عاملا على الريف للنصارى، حسب ما روى كثير من أهل الريف، وأصبحت دار كفر سنة 1673م. وبعد عزل الباشا عبد الكريم الخطيب عن الريف أخذ النصارى البرج الذي كان بالبر المقابل للحجرة التي في البحر، ويقال أن الباشا عبد الكريم هو الذي باع البرج للنصارى، والريفيون الذين اشتكوا لم يظهر لهم خبر، وكانوا يقولون أن الباشا باع البرج وقبض ثمنه.[1077]

[1074]- عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، م.س.، ص. 129.

[1075]- عاش الريف خلال هذه المرحلة العصيبة سياسيا من تاريخ المغرب رواجا اقتصاديا، بفضل التجار الفرنسيين الذين استغلوا حرب السبع سنوات القائمة بين فرنسا وإسبانيا، واستهواهم شاطئ المزمة للمبادلات التجارية، وحاول التاجر كاردينال إلى مبادرة احتلال الجزر الريفية بطريقة سلمية وخصص 100.000 ليرة لكسب قائد المنطقة أعراص، الذي أبدى رغبته في التعاون معهم، وتم تعيين مازرين Mazarinقنصلا لجزيرة نكور، لتحقيق المشروع التجاري، ورغم عدم اكتماله ظلت المبادلات التجارية بين الريف والتجار الفرنسيين، وتوصل أعراص بخطاب من لويس الرابع عشر، يهنئه على حفاوة استقباله للتجار الفرنسيين، وطلب منه الترخيص ببناء شركة بالمزمة، ما جعل السلطان الرشيد يدخل في مفاوضات دبلوماسية مع ملك فرنسا، لتجاوز خطورة أعراص. انظر:

- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 51.

[1076]- نفسه، ص. 52.

[1077]- عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، م.س.، ص. 143.

كان أهل الريف عمدة جيش السلطان المولى إسماعيل في أول خلافته، وكانت له جماعة الوزراء من أهل الريف وغيرهم، وولى على الريف عمر بن حدو الريفي سنة 1673م، وعمر بن حدو الريفي على اجبالة، غير أن أهل الريف بعثوا إلى السلطان أحمد بن محرز ليدعموه ويدخل تازة فكان له ذلك بفضل القائد المبخوث ورؤساء الريف، وقتل السلطان أولاد المبخوث، فحاصر السلطان تازة وقتل الفارين إلى جبال الريف، وقبض على كل من الشيخ المريني بن محمد حمامي وابن عمه الشيخ عبد الكريم، واعتقلهم أشهر عديدة وعمل السلطان المولى إسماعيل وقائده عمر بن حدو الريفي، وأهل الريف على تمهيد قطر الفحص منذ 1673م، واستولوا عليه منذ ذلك الحين، وقتلوا غيلان وطردوا البقية[1078]. عرفت المنطقة احتلالات جديدة خلال هذه الفترة منها احتلال نكور سنة 1673م، أمام عجز المقاومة، مقابل قوة المعدات الحربية، وصمم خوان الثاني على احتلال مناطق أخرى في الساحل الريفي، لمكاسب اقتصادية، في وقت كان فيه السلطان المغربي منشغلا بإخماد الثورات الداخلية.[1079]

ظل الريف بعيدا عن تصفية السلطان المولى إسماعيل التي شملت المتمردين إلى حدود سنة 1692م[1080]، ووفروا جهدهم لصد الخطر الخارجي وتحرير الثغور، وكل ما استشهد ريفي خلفه ابنه لإتمام المهمة. وبعد أن بسط السلطان سيطرته على المجال الحضري حول ممتلكات المجال القروي ما لديهم من فرسان وسلاح إلى ملكيته ليتجاوز خطرها، واستثنى بعض المناطق أهمها الريف المغربي، وأنزلهم منزلة الغزاة (سمح لهم السلطان بامتلاك السلاح). تفرغ السلطان للأمور الداخلية للمنطقة وعزز قوة أهل الريف، إذ أوكل إليهم مهمة الدفاع عن الثغور[1081]، حيث أبلوا البلاء الحسن ولعبوا دورا دبلوماسيا، إذ أبرم عمر بن حدو المستقدم من قبل السلطان من القصر الكبير اتفاق سلام مع المبعوث الإنجليزي بمكناس 29مارس 1681م، وتوجه لطنجة وحاصرها وبعد وفاته خلفه ابن عمه علي بن عبد الله وتمكن من

1078- عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، م.س.، ص. 150.

1079- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 54.

1080- غير أننا نجد إشارات تاريخية تدل على أن السلطان عمل على تصفية من خالفه من أهل الريف، حيث ترد هذه الإشارة لدى بن موسى:»تهيأ السلطان في حركة إلى مراكش سنة 1675م، واحتل رباط الفتح، وبعث عامله موسى الجراري لثغر أزمور، وعاد السلطان أحمد بن محرز إلى مراكش ولحقه القائد يحيى أعراص حين خاف على نفسه، وخرج السلطان إسماعيل بنفسه للحرب، دخل دكالة وقتل من فيها من أهل الريف من أولاد حمامة وأولاد أعراص، وقتل صناديدهم، وحاصر ابن أخيه أبي العباس أحمد بن محرز بمراكش، وقتل أعراص بتارودانت«. انظر:

- عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، م.س.، ص. 161.

1081- خص السلاطين مناطق الثغور المحاذية للعدو بأهمية بالغة منذ العصر الوسيط إلى العصر الحديث، ومن ضمن أهم هذه الثغور ثغر الريف المقابل للبحر الرومي، إذ خصها السلطان إسماعيل (1672م-1727م) بخطط، فالقائد عمر بن حدو الريفي (ت. 1682م) كان قائد القصر وعامل الثغور والمراسي المغربية، وبعد وفاته عين السلطان ابن عمه أبا الحسن علي بن عبد الله الريفي على بلاد غمارة والفحص والريف بأكمله. وقد دفعت وضعية ثغر الريف السياسية الدولة زمن السلطان إسماعيل إلى إعفاء السكان من نزع السلاح، ما أدى إلى ظهور زعامات محلية من قبيل «أولاد الريفي«، وامتد نفوذهم إلى مدينة فاس. انظر:

- سعيد بنحمادة(2016م)، »الحياة العامة لبلاد الريف خلال القرن 12هـ/18م من خلال كتاب زهر الأكم لعبد الكريم بن موسى الريفي ،« ضمن ندوة **الحركة العلمية بالريف من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الهجريين مميزاتها وإسهاماتها**، منشورات المجلس العلمي المحلي لإقليم الدريوش، الناظور، ص. 76.

- ارتكز نظام الحراسة بالريف على نظام النوبة، منذ بداية التهديد الإسباني، خاصة مع السلطان إسماعيل، وكانت قبائل الريف تمول مراكز الحراسة المسماة بمراكز العسة، وتفاوت عدد المتطوعين من قبيلة لأخرى، وتفاوتت الحصص من فرقة لأخرى، وكان الغرض منها حماية المجال من التدخل الأجنبي، ووضع حد لتجارة التهريب من قبل المخزن. انظر:

- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 290.

تحريرها سنة 1684م، وكان لهؤلاء الريفيين الدور الكبير في تسيير شمال المغرب سياسيا، وحاول أحمد بن حدو تحرير سبتة سنة 1694م بإرغام أهل تطوان على المشاركة في الحصار الذي دام ثلاثين سنة دون نتيجة إيجابية.[1082]

تحركت عزائم السلطان المولى إسماعيل لاستعادة ثغر الحلق سنة 1681م من يدي النصارى، وولى منصور بن الرامي باشا على تازة وبلاد الريف وغمارة، فجهز عساكره بقيادة قائده عمر بن حدو الريفي، وحين اشتد الحصار استسلم النصارى وخرجوا منها أسرى، ونزل قائد السلطان بن حدو على طنجة، وأخذ قصبة مرشان وخرب سورها، وأخذ برج الصفيحة وبرج البحر، وأخذ نساءهم وسلاحهم، وطرد الروم منها. توفي القائد بنفس السنة بمكناسة، وقيل أنه قتل مسموما، ودفن بضريح سيدي عبد الله خارج المدينة. وولى السلطان محله ابن عمه علي بن عبد الله الريفي على جميع بلاد غمارة والفحص والريف، وفتح طنجة وبنى بها مسجدا سنة 1684م، وأسكن فيها أهل الريف، وبعد وفاة ابن أخ السلطان المولى إسماعيل بايعه أهل تارودانت، وولى أمورها للباشا عبد المالك الخطيب، وأخرج أهل الريف من فاس لتعمير تارودانت.[1083]

جرد السلطان المولى إسماعيل القبائل المغربية من السلاح، مستثنيا قبائل الريف، ووجد فيهم السند القوي لتثبيت سلطته المركزية والمبايعين الأوائل، واعتمد عليهم في تحرير الثغور، ومن أشد القواد الريفيين الذين اعتمد عليهم عمر بن حدو الريفي، ثم ابن عمه القائد علي بن عبد الله وبعده أحمد بن علي الريفي. وعين يحيى أعراص قائدا على مراكش، إلى أن ثار على السلطان المولى إسماعيل بمعية الثائر أحمد بن محرز وطائفة من بني حمامة، واعترض سبيلهم السلطان أثناء عودتهم إلى جبال الريف وقتل منهم عددا، وقبض على بعضهم وسجنوا بفاس. وظل السلطان متشبثا ببعض الأسر الريفية ليكلفها بقيادة تحرير الثغور، وأبرز من كسب ثقة السلطان المولى علي بن عبد الله المرابط على مدينة سبتة وكلفه بتحرير ثغر بادس سنة 1702م، واستعاد الحصن الذي هدمه السلطان كي يجنبه المطامع الأجنبية.[1084]

فتح السلطان المولى إسماعيل العرائش سنة 1690م على يد القائد علي بن عبد الله الريفي، وأطلق سراح أعيان النصارى وأفدى بها ألف أسير من المسلمين، وفي سنة 1692م وقعت معركة على ضفاف ملوية بين الأتراك والأمير زيدان، توفي فيها خلق من أهل فاس، وشن السلطان المولى إسماعيل عليهم حربا، وفاز بالحرب وعفا عنهم، وتوفي في المعركة أمين بيت المال محمد الخطيب الريفي، وتوفي القائد علي بن أحمد بن حدو الريفي، بعد حصاره على سبتة 1694م واستمر إلى 1716م نظرا لسوء أحوال الطبيعة، وتولى مكانه ابنه الباشا أحمد الذي توفي سنة 1718م، وتوفي أيضا الوزير الأعظم يحيى المريني الريفي 1710م ودفن خارج مدينة مكناسة.[1085]

[1082]- علي مزيان، "بطوية ودورها في الحياة السياسية...، م.س.، ص. 42.

[1083]- عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، م.س.، ص. 168.

[1084]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 53.

[1085]- عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، م.س.، ص. 186.

أمر السلطان المولى إسماعيل قائده علي بن عبد الله الريفي بترك من يثق به على سبتة وينهض لحصن بادس، وترك ابن عمه أحمد بن حدو واتجه لبادس معتمدا على وجوه من الريف وأخلاط من الناس، وأخذ برج البرعونة الذي وجد به النصارى، وولى أمور بادس لخليفته البرنوصي في جمع عظيم من أهل الريف.[1086]

يمكن تلخيص علاقة السلطان المولى إسماعيل بالريف والقواد الريفيين في ثلاث إشارات وردت كثيرا في المصادر التاريخية، حيث ائتمنهم على الثغور المحتلة المحاذية للريف، «عقد السلطان المولى اسماعيل للقائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي على جيش المجاهدين ووجه لحصار طنجة، فضيقوا على من بها من نصارى، وطالوهم إلى أن ركبوا سفنهم وهربوا في البحر سنة 1664م، وشرع قائد المجاهدين في بناء ما تهدم من أسوارها ومساجدها، أعقاب هذا القائد لا زالوا اليوم بطنجة وكثيرا ما تكون فيهم الرياسة هناك»[1087]. وعمل على توليتهم أمورا خارجة عن منطقة الريف،«كتب السلطان المولى إسماعيل إلى القائد أبي الحسن بن عبد الله الريفي صاحب بلاد الهبط أن يشتري للأعزاب منهم الإماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطاوين ويعين لهم قوادهم ويبعث بهم إلى المحلة، فصار المجموع ثمانية آلاف، وهذا العدد هو الذي نزل أولا به وألزم قبائل تمسنا ودكالة أن يأتوا بعبيد المخزن الذين عندهم فلم يسعهم إلا الامتثال»[1088]. و«كتب السلطان المولى إسماعيل للقائد عبد الله الريفي أن يشتري للعزاب منهم الإماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطوان ويعين لهم قوادهم ويوجههم لمشرع الرمل»[1089]. واعتمد على الريفيين لتعميد المناطق التي بسط عليها سيطرته حديثا، «أسكن السلطان المولى إسماعيل أهل الريف العرائش، وأمر قائدهم أن يبني بها مسجدين وحماما وداره بقلعتها»[1090]. و«فتح السلطان سنة 1691م أصيلا وعمرها أهل الريف أيضا، وبنى بها قائدهم مسجدين ومدرسة وحماما وبنى داره بقلعتها»[1091]. و«قدم على السلطان ولده محمد العالم مع علماء فاس يهنئونه بالفتح وقدم عليه وفود أهل المغرب للتهنئة وأمر بخروج أهل الريف الذين بفاس يأتون لسكنى تارودانت».[1092]

بايع الباشا أحمد بن علي بن عبد الله الريفي السلطان المولى أحمد بن إسماعيل 1729-1727م، وأحضر له الهدية وقدم مع أصحابه من الرماة والخيل، وقامت بعد البيعة معارك بين أهل تطوان والريف، وأصلح بينهم السلطان غير أن أهل تطوان هاجموا وطردوا الريفيين من بلادهم، وقتلوا فيهم ونهبوهم وأطلقوا النار في دار البارود، ودخلوا عليهم عنوة، فاستأصلوهم ونفوهم، فبلغ الأمر السلطان الذي استنكر الوضع، وانتقم أهل الريف من أهل تطوان بقيادة

1086- عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، م.س.، ص. 192.

1087- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري (1997)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ج.7، ص..67

1088- نفسه، ص. 57.

1089- محمد أبي عبد الله بن أحمد الكنسوسي (1994)، **جيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، ، ج.1، ص..126

1090- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..74

1091- نفسه، ص. 77

1092- أحمد أبي القاسم الزياني (1884)، **الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين من أولاد مولانا الشريف بن علي من كتاب الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، مطبعة الجمهورية، باريس، ص..21

الباشا أحمد الريفي الذي تمكن من بسط السيطرة على قبائل الشمال سنة 1728م، وغزا الباشا تيطاوين وطنجة وغنم أهل الريف مالهم.[1093]

استولى القائد أحمد بن علي الريفي على بلاد غمارة وجميع تلك الجبال وكل الريف سنة 1730م، على عهد السلطان المولى أبي مروان عبد المالك بن السلطان المولى اسماعيل 1728م، بعد خلع أخيه أحمد، وتمكن القائد الأعظم الباشا أحمد بن علي السيطرة من فتح غمارة وبلاد الريف، وكان سفاكا للدماء، ظالما مع الطغاة ورؤوفا بالمساكين والضعفاء.[1094]

عاش الريف مرحلة تقلب الحكم، والأزمة السياسية التي عاشها المغرب بعد السلطان المولى اسماعيل، والتناوب السريع لأبنائه حول الحكم، وظل القياد الريفيون مسيطرين على بلاد غمارة والريف، وظلوا مبايعين للسلطان علي بن اسماعيل 1735-1736م بعد خلعه من قبل أخيه عبد الله 1729-1735 و1736 و1740-1745م، واعتصموا معه بقصبة تفرسيت، ثم انتقلوا إلى قصبة تلا بادس، بعد أن قبض عليهم، وأطلق الباشا أحمد بن علي الريفي سراحه[1095]، الذي انضم من بعده إلى صف المستضيء 1738-1740م ضد أخيه عبد الله، حيث استطاع إخضاع القبائل الشمالية سنة 1731م تحت سلطته، إلى أن وقع خلاف بين الباشا أحمد والسلطان المولى عبد الله، ونفر منه وعدل عن بيعته، وقضى عليه السلطان سنة 1743م، ولم يتمكن الريفيون من كسب ثقة السلطان مرة أخرى، وقام بقتل مجموعة من المجاهدين الريفيين بطنجة، الأمر الذي انعكس سلبا على أهل الريف، الذي لم يدخل طاعة السلطان إثر ذلك، تزامنا مع المجاعات والقحط الذي عاشه المغرب بصفة عامة خلال هذه الفترة[1096]، قدم ثلاثمائة من المجاهدين من الريف من أجل ترقيع الخرق الذي بينه وبين الباشا أحمد بن علي الريفي، فقتلهم موسى الجراري جميعا، فكان سببا في نفور الباشا الريفي من السلطان المولى عبد الله وتأييد أخيه المستضيء.[1097]

أوقع الباشا أبي العباس الريفي بقبائل الغرب ونهب أموالهم، فبعث السلطان المولى عبد الله جيشا كثيفا إلى القصر الكبير لحراسته وحراسة أعماله، نهض إليهم الريفي ورجع الجيش، وبلغ السلطان أن الريفي والجيش اتفقوا على خلع السلطان وتولية أخيه زين العابدين، الذي ذهب عنده إلى طنجة وبايعوه هناك اهل طنجة وتيطاوين.[1098]

ورد سنة 1742م، كتاب من عند القائد أبي العباس الريفي إلى أهل فاس يدعوهم إلى بيعة مخدومه المستضيء، فصموا عن ذلك ونبذوه، وقصد فاس راود أهلها للانحراف على طاعة السلطان المولى عبد الله فأبوا، اندهش الناس من هول هذا الريفي الذي جاء في استعداد لم يعهد

1093- عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، م.س.، ص. 220.

1094- نفسه، ص. 236.

1095- نفسه، ص. 247.

1096- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 57.

1097- أحمد أبي القاسم الزياني، الخبر عن أول دولة...، م.س.، ص..39

1098- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..153

مثله، غير أن السلطان المولى عبد الله هزم الريفي والمستضيء[1099]، وقد قتل محمد ابن المستضيء في الحركة الأولى للقائد الريفي، إذ حسبوه من أهل الريف.[1100]

عاود الريفي غزو فاس بعد أن أقسم أن لا يأكل ولا يشرب حتى يدخل فاس وينهبها كما انتهبوا محلته، وذلك سنة 1743م، وقتل الريفي في المعركة التي جمعت بين جيشه وجيش السلطان المولى عبد الله الذي علق رأسه بباب المحروق، وقد خلف هذا الريفي أثارا كثيرة بطنجة وتيطاوين وأعمالها من أبنية وغيرها تشهد بعلو همته رحمه الله.[1101]

زحف السلطان المولى عبد الله إلى طنجة وحجز متاع أحمد الريفي وماله، واستصفى مال وذخيرة كل من كانت له علاقة بالريفي، وجمع من طنجة الكنوز القارونية التي جمعها أحمد الريفي ومن قبله والده[1102]. ورد على أثرهم جماعة من أهل الريف يزيدون على مائة ومعهم زوجة الباشا أحمد الريفي وولداها منه بهدية كبيرة فقبض الهدية وقتل الولدين ومن معهما وسجن المرأة وذلك خلال الدولة الخامسة للسلطان عبد الله.[1103]

تقدم السلطان المولى المستضيء إلى محلته في طنجة سنة 1744م، فسجنه القائد عبد الكريم الريفي وأخذ ماله فوثب عليه أهل الريف وقبضوا عليه ونهبوا خيله وأثاثه وسلبوا أصحابه وامتحنوه وأوثقوه وبعثوا به إلى أخيه عبد الله، الذي عفا عنه وأسكنه أصيلا.[1104]

ذهب السلطان المولى المستضيء إلى أحواز طنجة فانشغل بظلم المساكين وتكليفهم مالا يطيقونه ونهب أموال الناس إلى أن قبض عليه القائد عبد الكريم بن علي شقيق الباشا أحمد بن علي فسجنه وأخذ ماله وسمل عينه، فخرج له أهل الريف فقبضوا عليه، ونهبوا مضاربه وخيله ومتاعه، وسلبوا أصحابه وسجنوه وامتحنوه.[1105]

بعد شغب السلطان المولى المستضيء في مكناسة توجه إلى طنجة وأقام بها شهرين عند أحمد الريفي، وبعدها توجه إلى مراكش، والباشا أبو العباس الريفي صاحب طنجة يفتل للعبيد في الذروة والغارب إلى أن بايعوه ثانية بعد أخيه المولى زين العابدين، وبعد خلع السلطان المولى عبد الله[1106]. وبويع السلطان المولى عبد الله الرابع 1745-1757م فلم يقدم عليه منهم واحد ولا بايعوه وكذلك الباشا أحمد الريفي وأهل الريف[1107]، بينما بايع الباشا أحمد ومن معه من أهل الفحص والثغور والجبال عام 1745م السلطان المولى زين العابدين.[1108]

1099- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص. .157

1100- محمد أبي عبد الله بن أحمد الكنسوسي، جيش العرمرم الخماسي...، م.س.، ج.1، ص..188

1101- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..165

1102- نفسه، ص. .166

1103- أحمد أبي القاسم الزياني، الخبر عن أول دولة...، م.س.، ص..58

1104- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..190

1105- محمد أبي عبد الله بن أحمد الكنسوسي، جيش العرمرم الخماسي...، م.س.، صص. .204-203

1106- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، صص. .151-150

1107- أحمد أبي القاسم الزياني، الخبر عن أول دولة...، م.س.، ص..48

1108- نفسه، ص. .51

عرف الريف خلال هذه الفترة هجرات فردية وجماعية، وتفرعت تجمعات سكنية مهمة، إلى أن اجتمعت كلمة الريف على السلطان المولى محمد بن عبد الله 1757-1790م سنة 1766م[1109]، الذي كان أكثر عدلا من أبيه، إلى أن دخل أهل الريف في حرب مع السلطان بعد فرض أداء ضريبة الأعشار بين 1765-1766م. وفي سنة 1768م أرسل السلطان جيشه لتأديب أهل الريف وإرغامهم على تأدية الضرائب، وإجبارهم على قطع العلاقات التجارية مع الإنجليز عبر جبل طارق، الأمر الذي عدل عنه السلطان بعد أن أرسل الريفيون هدية لخليفة فاس. وعندما أسر أهل الريف ثماني عشرة إسبانيا سنة 1769م، جعل السلطان يرسل جيوشه، لكنه لم يتمكن من وضع حد لتمرد الريفيين إلا في الحملة الثالثة، وأعلن الجهاد ضد إسبانيا سنة 1770م، بالاعتماد على الريف.[1110]

دخل المغرب في صراع سياسي مرة أخرى بعد موت السلطان وتنازل السلطان المولى اليزيد 1790-1792م وأخيه عن الحكم، وكان الضعف المغربي فرصة للتوغل الأجنبي، إلى أن تولى السلطان المولى سليمان الحكم سنة 1792م. وبمجرد أن أنهى صراعات الحكم مع إخوته، وطرد أتراك الجزائر من الريف الشرقي، وجه اهتمامه للمنطقة الريفية، وأجبرهم على تأدية الضرائب، ومنعهم من التجارة مع الأجانب عبر المراسي غير المرخصة حسب الاتفاقية التجارية المغربية الإسبانية، التي تفاداها الريفيون من أجل تفادي دفع الأعشار. وأمام سياسة الانغلاق التي نهجها السلطان، وتفكيك الأسطول البحري، كان السبيل الوحيد للأوربيين في تدوين تقارير حول المغرب عن طريق الجواسيس، الذين لم يتجرؤوا على وضع أقدامهم بالريف لما عرف عن أهله من شجاعة ورفض للأجنبي.[1111]

هزم السلطان المولى سليمان أخاه مسلمة فسار إلى الريف وأهملوه، فصعد إلى جبال أيت يزناسن فطردوه[1112]، وبلغ السلطان المولى سليمان أن الريفيين يبيعون الزرع للنصارى سنة 1812م، فعقد لعامله على الثغور أبي عبد الله السلاوي على جيش كثيف، وسرب إليهم العساكر فنهبوا أموالهم وحرقوا مداشرهم، وانتسفوا أراضيهم وديارهم، وتركوهم أفقر من ابن المدلق، فجبوا القبائل واستوفوا زكواتها وأعشارها، ثم دخل سنة 1813م ثانية بعد أن سمع أنهم يبيعون الزرع والماشية للنصارى، وأمر رؤساء قراصينه أن يذهبوا إلى جهة الريف ومراسيها، فأسروا النصارى، وأمر بغزو الريف وعزم على النهوض إليهم بنفسه مع القائد السلاوي، فاتجه إلى الريف من تازا،ونفذ إلى بلاد الريف فنهبوهم وحرقوا مداشرهم واستخرجوا أمراسهم ودفائنهم، وولى السلطان عليهم أحمد بن عبد الصادق الريفي وترك في بلادهم حصة من العسكر يستخلص منهم الأموال.[1113]

[1109]- مثل القائد عبد الصادق بن أحمد بن علي الريفي بين يدي السلطان محمد بن عبد الله، أكرمه وأمره أن يبعث أخاه عبد الهادي للوقوف على إنشاء الغلائط بتيطاوين. انظر:
- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..12

[1110]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، صص..58-57

[1111]- نفسه، ص. .59

[1112]- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..92

[1113]- نفسه، صص..129-128

عرف المغرب خلال عهد عبد الرحمان بن هشام 1822-1859م تزايد الأطماع الأجنبية، وعدم التكافؤ بينه والدول الأجنبية، خاصة وأن الفترة التاريخية تزامنت مع الاستيطان الفرنسي بالجزائر سنة 1830م، ومبايعة أهل تلمسان السلطان المغربي، وبعد استشارة الفقهاء قبل السلطان البيعة، وانضم الريف إلى جانب الأمير عبد القادر ضد فرنسا منذ انطلاق الثورة الجزائرية 1832م إلى أواخر 1847م. ولم يتوقف الريف الشرقي بدافع الدفاع عن الإسلام والجهاد، عن مساندة الثورة إلى أن توقف عبد القادر نفسه واستسلم أمام رغبة فرنسا في الاستحواذ على دول المغارب. وجند الريفيون طاقتهم في معركة إسلي ضد الفرنسيين سنة 1844م، وأمام استمرار توغل فرنسا بالمغرب اعتمد عبد القادر والسلطان المولى عبد الرحمان بن هشام على القبائل الريفية للوقوف أمام الهجمات الفرنسية، إلى أن قرر السلطان طرده بعد مجموعة من الإشاعات التي لحقته حول رغبته في إقامة دولة مستقلة بالريف المغربي، وبعد معاهدة طنجة 1844م التي التزم فيها السلطان بالتخلي عن مساندة الأمير عبد القادر، وبعدها معاهدةلالة مغنية لتكريس الهيمنة الفرنسية، وبدأت الدول الأوربية تتدخل في الشؤون الداخلية للمغرب، وفرضت عليه مجموعة من المعاهدات أهمها مع إنجلترا 1856م، ومع إسبانيا بعد هزيمة تطوان 1860م.[1114]وكان الريفيون إلى جانب السلطان في حمايته لعبد القادر الجزائري، الذي قدم إلى الريف الشرقي سنة 1847م، ووفر له الريفيون الحماية.[1115]

نظر السلاطين العلويون إلى الريف بعيون الإجلال، لكون الريف في نظرهم كان محل رباط المجاهدين المدافعين عن حمى الإيالة الشريفة[1116]. من ناحيته كان السلطان مولانا الحسن 1873-1894م[1117]، من بعد السلطان المولى محمد الرابع 1859-1873م يؤدي من ذخائر الملك الذعائر التي يطلبها الإسبان من الريفيين[1118]، فيما يوقعونه به برا وبحرا»[1119]. رغم ما كان ينسب لهم من السلب والنهب وما قدمه المخزن من الأموال الباهظة، عسى أن يكنف تشكيه الذي ما وراءه إلا حب الانتقام من الريف.[1120]

وجه المخزن أوامره للريف بالكف عن الإسبان، وتعددت الحركات باتجاه الريف، لتهدد بالوعيد العاجل والآجل إن لم يكفوا عن الإسبان، مع ذلك لم نسمع عن المخزن ردع الريف

1114- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 62.

1115- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..37

1116- على عهد السلطان الحسن حدثت حرب شديدة بين زناتة الريف والاصبنيول فمحقتهم زناتة محقا وشردوا بهم من خلفهم استئصالا وقتلا، وذلك لما طلبوا توسيع منطقة مليلة، من ناحية سيدي ورياش. انظر:

- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..206.

1117- نجد عند المخبرين أن الريف بايع السلطان الحسن الأول، وطاف السلطان الحسن إلى أن بلغ قصبة سلوان واجتمع عليه أهلها وأهل القرى المجاورة وازدحم عليه المكان. انظر:

- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..144.

1118- هذا لا ينفي عقاب السلطان لأهل الريف في فرص عديدة، فقد وصل السلطان الحسن إلى الريف مرتين ودوخه كرتين، وطاف على أممه المحشورة وقبائله المذكورة على اتساع اقطاره وكثرة أوعاره، وعلو مناره فثقف أطرافه ووطد أكنافه، وولى عليه وعزل بمعونة من عز وجل، ووجه إليه الحركة وجبى من هنالك شيئا كثيرا من الأموال. انظر:

- الحسن بن الطيب بن اليماني (1994)، **التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب**، تقديم محمد المنوني، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ج.1، ص..24.

1119- محمد أزرقان، الظل الوريف، مخطوط، جزانة خاصة. ص..5.

1120- أحمد سكيرج (1926)، **الظل الوريف في محاربة الريف**، إعداد محمد الراضي كنون، الجديدة، ص..5.

بقوة أو حسم، مع كون الريف من رأيه الميلان إلى المخزن، بتعظيمهم بيت المملكة العلوية الشريفة.[1121]

ساءت نية الريف في أمر الدولة العلوية بعد ما صار المخزن ينتصر لأعدائه، على السلطان المولى عبد العزيز 1894 -1908م، وتوجيه الحملات التأديبية صوب الريف، مرة بعد مرة[1122]، ومنها الحملة التي ترأسها الشريف المولى أبو بكر بن الشريف والقائد محمد بن البغدادي قصد الانتقام من قبيلة بقيوة. وتطييبا لخاطر إسبانيا، أظهرت الحملة أن هؤلاء خرجوا عن الطاعة[1123]، ما جعل الريفيين يستقبلون السلطان المولى محمد بعد أن تمرد على أخيه السلطان المولى عبد العزيز ما بين -19031902م[1124]، ولم يكن الثائر الوحيد الذي توجه إلى الريف من أجل كسب التأييد، إذ اعتمد رواد نظرية استقلالية الريف على حدث لجوء الجلالي الزرهوني إلى الريف الشرقي[1125]، وعدم دعم السلطة المركزية لمقاومة الشريف أمزيان، غير أننا نجد مواقف معارضة تؤكد حصول الشريف أمزيان على موافقة أعضاء المخزن من أجل تقديم الولاء للسلطان عبد الحفيظ[1126]، بالإضافة إلى تنسيق الشريف أمزيان مع المخزن عبر النائب الطريس بطنجة.[1127]

تعتبر علاقة قبائل الريف بالمخزن شبيهة بعلاقة أي قبيلة جبلية مع السلطة المركزية[1128]، وعاش الريف مرحلة الريفوبليك (بمفهوم السيبة أي أرض مهملة وخارجة عن النظام). وكان الوضع نفسه في كل مكان قبل الرأسمالية، أي التأرجح بين السيبة والخضوع للمخزن. وكان موقف الريفيين من السلطان مرتبطا بموقفه من الجهاد، كلما كان ضد الاستعمار الأجنبي كلما التحم حوله الريفيون، فبعد أن انحاز السلطان المولى عبد العزيز نحو المستعمر تشبث الريفيون بالسلطان المولى عبد الحفيظ 1908-1912م، بناء على شروط البيعة التي تضمنت حماية

1121- أحمد سكيرج، الظل الوريف في محاربة الريف...، م.س.، ص..2

1122- نهض السلطان عبد العزيز إلى الريف من تازة ونواحي وجدة، فتملك ذلك القطر في أقل من طرفة العين، وحاصر قبائل الريف لتدويخ تلك الأقطار. انظر:

- الحسن بن الطيب بن اليماني، التنبيه المعرب...، م.س.، ص. ص..88-80

1123- أحمد سكيرج، الظل الوريف...، م.س.، ص..9

1124- *B.N.E.A.H., D.E.B.H.J.M.B.R., Dossier 47/610008, N°1240440,* El Problema Rifeño, por Cándido Lobera, Donativo, Melilla, 1909, p.11.p.6.

1125- تقدم الجيلالي بن عبد السلام اليوسفي الزرهوني بصفته السلطان امحمد بن السلطان الحسن، في فترة حرجة من تاريخ المغرب، وبالريف على وجه الخصوص بعد أحداث مليلة سنة 1893م، واختار الشمال الشرقي لانفتاحه الخارجي وقربه من الزاوية الدرقاوية بالجزائر ليتلقى المساعدات من شيوخها، الأمر الذي لقي استحسان فرنسا، وحاول أن ينشر سياسته بالريف، وتقمص شخصية الزاهد المصلح، وعمل المخزن جاهدا على عرقلة استمالته لقبائل الريف، وحاولت جعل هذه القبائل تحت السلطة المخزنية ومحاربة الجيلالي الزرهوني، وأمام سقوط هيبة المخزن وانتصارات الزرهوني مالت بعض القبائل الريفية صوبه، وعوقبت هذه القبائل بأمر سلطاني، ورفضت الزوايا الخضوع للجيلالي الزرهوني وأبرزها الزاوية الخمليشية. انظر:

- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م. س.، ص. .296

1126- *B.N.E.A.H., D.E.B.H.J.M.B.R., Dossier 47/610008, N°1240440,* El Problema Rifeño, por Cándido Lobera, Donativo, Melilla, 1909, p.11.p.7.

1127- Jean Wolf (1994), *les secrets du Maroc Espagnole*, Balland-Eddif, p.96.

1128- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Fiche N° 1522/2.0, Confidentiel, Le Colonel Georges Chef du Territoire de Taza, Fiche de tribu Gzenaia, Cercle de Tainast, 17 Octobre 1952, p.20.

استقلال البلاد، وتحرير المناطق المحتلة، وبعد توقيع معاهدة الحماية قاوموا الاستعمار[1129]، وكلف السلاطين المغاربة الريفيين بالدفاع عن السواحل ومنه عن الوطن، ودعموهم ماديا وسياسيا وديبلوماسيا إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر، واعتبرهم المقاومون سلطة زمنية وروحية.[1130]

اعتمد السلاطين العلويون على الريف في مواجهة الأجنبي، وتولى أفراد من الريف مساعدتهم في تدبير الشؤون الداخلية للبلاد، إذ كان أبو العباس أحمد بن علي الريفي يتولى رئاسة المجاهدين وأبوه من قبله بالثغور الهبطية أيام السلطان المولى إسماعيل، وكان له ولأبيه اليد البيضاء في فتح طنجة والعرائش، والذي جمعت بينه وبين حفص عمر الوقاش منافسة أوجبتها المجاورة، إلى أن توفي السلطان وضعف الجيش، فانتهز الريفي الفرصة خلال فترة أحمد الذهبي غير أن الوقاش حاربه وهزمه[1131]. غير أن الريفي عاد وهزم الوقاش فاستحكمت العداوة بينهما وبقي الريفي يتربص به الدوائر ويترصد له الغوائل إلى أن بويع السلطان المولى المستضيء[1132]، وبأمر منه دخل أحمد بن علي الريفي إلى تطوان ونهبها وقتل من أعيانها، ووظف على أهلها مالا كثيرا ولم يقبلوا ولايته.[1133]

شغل الريفيون مناصب سياسية مهمة، منهم زيان بن محمد بن عبد الكريم الذي كان قائدا على أيت يوسف وعلي من بني وريا‌غل على عهد السلطان المولى الحسن الذي رقاه إلى القيادة العامة على الريف الغربي، والذي كانت له علاقات طيبة مع المخزن[1134]، بعد أن تبينت استقامته ونزاهته. ودرس محمد أخ عبد الكريم الخطابي أولاد السلطان المولى الحسن، بعد أن أتم دروسه بجامع القرويين[1135]، كما تولى عبد الكريم الخطابي خطة القضاء على عهد السلطان المولى الحسن[1136]، ومن بعده السلطان المولى عبد العزيز والسلطان المولى عبد الحفيظ.[1137]

تمتع الريفيون الذين انتموا للجهاز المخزني بقدر كبير من السلطةعبر فترات مختلفة من مراحل الدولة العلوية، وخلال الفترة المعاصرة قدم القاضي عبد الكريم الخطابي نصائح للسلطان ولولاته، خاصة خلال ثورة الجيلالي الزرهوني، حيث سعى للقضاء عليه بمعية محمد بن حدو أوعزوز بزاوية سيدي عيسى، وأنفق ماله من أجل إعادة نفوذ السلطان بالريف إلى أن أنهى أمر الثائر بعد انكساره ببني وريا‌غل على عهد السلطان المولى عبد الحفيظ -1908

1129- محمد أقضاض، »الريف بين بلاد المخزن وبلاد السيبة ،«**مجلة حفريات مغربية**، العدد الأول، دار النشر جسور، وجدة، 2001، ص..(109-113) .109

1130- نفسه، ص. .110

1131- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..116

1132- نفسه، ص. .150

1133- محمد أبي عبد الله بن أحمد الكنسوسي، جيش العرمرم الخماسي...، م.س.، ج.1، ص..179

1134- عبد الرحمان بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، الطبعة الثانية، ج.1، ص..346

1135- محمد بن عبد الكريم الخطابي (2017)، **مذكرات لاريونيون**، تحقيق تعليق وتقديم: عبد المجيد عزوزي-محمد أونيا، عبد الحميد الرايس-جمال أمزيان، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية الرباط، ص. .51

1136-جعلنا ماسكه الطالب عبد الكريم الخطابي أمينا على إخوانه ببني وريا‌غل ورابطة خير بينهم وبين جانب المخزن« رسالة من السلطان عبد العزيز إلى القاضي عبد الكريم بتاريخ 4 فبراير. انظر:
- محمد بن عبد الكريم الخطابي، مذكرات لاريونيون...، م.س.، ص..52

1137- نفسه، ص..51

1912م، ومن سداد رأيه ساعد إسبانيا على تطبيق بنود مؤتمر الجزيرة الخضراء وسعى إلى رضوخ الريفيين لهذا المؤتمر بما فيه من مصلحة[1138]، ونجد فقهاء من الريف كانوا إلى جانب بسط السلطة العلوية ووضعوا أسس استقبال السلاطين[1139]. عين السلاطين المغاربة عمالا وقيادا وقضاة لضبط أمور الريف، وكانت سلطتهم رمزية لا يتدخلون في الشؤون الداخلية للقبيلة إلا إذا استفحل الأمر، وتعود الأمور الداخلية لأعضاء الجماعة المختارة.[1140]

غير أن العلاقة بين المخزن والريف تمثلت في كثير من المراحل بالتوتر خاصة مع قبيلة أيث ورياغر وإبقوين نتيجة امتهان القرصنة رغم استفادة المخزن من ذلك أحيانا[1141]، وتمثلت مواجهة قبيلة أيث عمارث والمخزن خلال فترات استخلاص الضرائب، أهمها حملة سنة 1930-1929م[1142]. وأدرك سكان قبيلة إگزناين جيدا وضعية البلاد السياسية، وهم على دراية بمكائد المفاوضات السياسية، رغم أن الگزنائيين لا يتحدثون فيما هو سياسي في حياتهم اليومية، وذلك خوفا من الانشقاقات السياسية المرتقبة. ويستعمل كبار السن بالمنطقة عبارة المخزن بكثرة في كلامهم، وهذه المؤسسة حاضرة بقوة داخل الذاكرة الجماعية، باعتبارها سلطة عليا.[1143]

اختزنت الذاكرة الجماعية العديد من الوقائع المرتبطة بالمخزن (من خلال الحكايات المأثورة والقصص الشعبية مثلا)، والتي انتقلت من التداول الشفهي إلى التدوين، وتمكنت الذاكرة الجماعية بعفويتها وبساطتها من نقل ما اتسمت به من عنفوان وحدة وغليان اجتماعي، ما أدى إلى نسج علاقة بين المخزن والتشكل الجنيني للذاكرة الجماعية والسياسية.[1144]

ثانيا: أشكال التمثيليات المخزنية بالريف.

عرف الريف التمثيل المخزني وأشكال متعددة لحضور السلطة المخزنية داخل مجاله الجغرافي، وأولها القواد المعينين من قبل السلاطين المغاربة بالمنطقة والمنتمين إليها في الآن ذاته، والذين عاشوا صراعات مريرة أحيانا مع المخزن.

مارس العمال والقواد السلطة المباشرة للسلطة المخزنية، وترجع أهمية الجهاز المخزني المحلي إلى شخص القائد الموجود في القبيلة مع تشبث الجماعة بتنظيمها، بمعنى وجود قوتين

[1138]- محمد بن عبد الكريم الخطابي، مذكرات لاريونيون...، م.س.، ص. .53

[1139]-عبد العزيز أبو محمد البوفراحي(ت899هـ) ،مخطوط: رسالة فيما يستحسن من تهنئة الأمير إذا قدم من السَّفر، تراث هذا العالم حفظه أهل سوس جزاهم الله خيرا، ففي خزانة أزاريف ثلاثة مخطوطات، وهذه من خزانة خاصة لمحمد علوان، والحنفي مولود، ص..1

[1140]- محمد أقضاض، »الريف بين بلاد المخزن وبلاد السيبة...، م.س.،ص..111

[1141]- مارس الريفيون الجهاد البحري أو القرصنة، وكان المخزن يستفيد منه ماديا وسياسيا. انظر:

- محمد أقضاض، »الريف بين بلاد المخزن وبلاد السيبة...، م.س.، ص..109

[1142]- Emilio Blanco de Izaga (2010), *La vivienda rifeña ensayo de características e interpretación con ilustraciones del autor 1930,* Consejería de cultura, E.2, Melilla, p.47.

[1143]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136***,** Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.10.

[1144]- لطفي عيسى (2015)، **بين الذاكرة والتاريخ في التأصيل وتحولات الهوية**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ص..69

سياسيتين مختلفتين أصلا واتجاها يتوقف عليهما مصير القبيلة، إحداهما خاصة بالقبيلة وتنتهي إلى القاعدة ولها توجه اجتماعي، بينما تأتي الأخرى من الخارج أي سلطة المخزن، عن طريق القائد الذي يعينه السلطان، وتعتني بما هو سياسي محض.[1145]

يعتبر القائد السلطة الأولى في القبيلة من بعد المخزن، وظن السلاطين العلويين أنهم يطبقون الشرع في القبائل ويسهرون على تنفيذه، ولم يكونوا أحرار في أحكامهم بقدر ما كانوا أحرارا في تأويل النصوص الشرعية، عمال المخزن كانوا يمثلون عدله الشرعي، لا سيما ما يخص تنظيم علاقة الحاكم بالمحكومين.[1146]

مثل المخزن السلطة الشرعية لدى القبائل الريفية، لما لشخصية السلطان من اعتبارات دينية، واستثمر المخزن هذه الاعتبارات لفرض سلطته عبر ثلاثة محاور، هي احتكار العنف والضرائب والتجارة الخارجية، بالإضافة إلى تدخل المخزن في القبيلة لموجهة الزوايا الثائرة التي ترغب باستثمار نفس الرأسمال الرمزي، والفئات الثائرة من المجتمع الريفي.[1147]

استمرت الصلاحية الدينية للسلطان في شكلية تكليف القواد والعمال بمهامهم، فالظهير لم تكن له صبغة صك امتياز باسم الشخص الذي يتم توليته من طرف السلطان بل كان رسالة[1148]، يتصدرها الطابع السلطاني الكبير موجه إلى الرعية المولى عليهم يخاطبهم فيها السلطان بصفة خدامنا الأرضين أو خدامنا الأنجاد، وبعد أن يدعوا لهم بالتوفيق ويسلم عليهم ويخبرهم أنه قد ولى عليهم خادمه الأرضى فلانا وأسند إليه النظر في أمورهم، ثم يأمرهم بالسمع والطاعة لذلك الوالي ويحدد مجال تلك الطاعة، فيما أوليناه من الأمر والنهي في أمور خدمتنا الشريفة، فمهمة العامل لها جانبان: الأول النظر في أمور الرعية والثاني السهر على الخدمة الشريفة التي على الرعية القيام بها[1149]. العملية التي اعتبرتها القبائل جورا واستبدادا تعترض ديمقراطية المجالس.[1150]

تعتبر مؤسسة القياد جامعة بين الجماعة القبلية والنظام المخزني، وبؤرة مواجهة الاثنين، غير أن القائد الذي يحتاج رد الاعتبار من قبل المخزن في حال تعرضه لمعارضة من السكان، يجد تهميشا من قبل المخزن، ويهان أحيانا أمام الساكنة والقياد الآخرين من طرف رؤساء المحلة، الذين كانوا يراقبون القياد ويشتكون من عدم بسط تعاليم السلطان بالريف، كما حدث للقائد حمو الوليشكي مثلا.[1151]

1145- أحمد توفيق، المجتمع الغربي...، م.س.، ص. 468.

1146- نفسه، ص. 478.

1147- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..10

1148- كانت الرسائل وسيلة لبسط السيطرة المخزنية على الريف، وإبلاغ الأوامر السلطانية من خلالها، ورابطة لتمتين الصلات، وتمثل دور السلطة الدينية للسلطان في ردع السكان، خوفا من العقاب الإلهي لانتماء السلطان لسلالة النبي، عن طريق ممارسة العنف الرمزي على الريف، والرسائل السلطانية كانت مفعمة بالعبارات الدينية، من قبيل فنيل البركة والأجر مقرون بالطاعة للأوامر. انظر:
- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 276.

1149- أحمد توفيق، المجتمع المغربي...، م.س.، ص..479

1150- Robert Montagne, *Les berbères et le Makhzen,...* op. cit.,p.411.

1151- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 275.

هناك في المقابل من القواد من تطاولوا على سلطة المخزن، كأبي العباس الخضر غيلان الجرفطي المقدم على الفحص الذي وصل إلى قصر كتامة، واقتحم القصر عنوة وقتل جماعة وافرة من أعيانه وفر الكثير منهم إلى فاس على عهد المولى الشريف[1152]، ومن بعده القائد محمد أعراص على عهد السلطان المولى الرشيد[1153]، ومن بعده أبي محمد عبد الله أعراس الذي سار على السلطان المولى الرشيد، فكانت بينهما وقعات، وحاصره في بعض حصونه إلى أن قبض عليه فعفا عنه ورجع إلى فاس.[1154]

كان الريف الأوسط منذ عهد السلطان المولى اسماعيل تابعا للقائد علي بن عبد الله الريفي التمسماني[1155]، ومن بعده ابنه الباشا أحمد إلى غاية حكم السلطان المولى عبد الله الذي قدم له كل الولاء، وبعد أن ألحق السلطان الأذى بوفده بمدينة طنجة، جعل الباشا يستحوذ على غمارة وكل قبائل الريف وصولا إلى كرسيف، إلى أن قتل سنة 1743م، ولم يذكر أي حضور مخزني بعده، إلى فترة حكم سيدي محمد بن عبد الله الذي ولى القائد عبد الكريم لوقش سنة 1787م، ومن بعده عبد الرحمان قردناش، ومن بعده ولى السلطان المولى اليزيد الحاج عبد الرحمان أشعاش، وعزله السلطان المولى سليمان وولاه مرة أخرى، وعزله مرة أخرى سنة 1809م، وعوضه ب محمد السلوي البخاري، بالإضافة إلى قواد آخرين، وظلت قبائل الشمال تابعة لعمالة تطوان، إلى غاية فترة حكم المولى الحسن.[1156]

ظل أمر تعيين القواد على الريف ساري المفعول على عهد سلطة السلاطين المغاربة من المولى عبد العزيز إلى المولى عبد الحفيظ رغم تداعيات ضعف السلطة المركزية، إلى أن بدأت المرحلة الفعلية للاستعمار، حيث تغيرت الوضعية السياسية بقبائل الريف الأوسط خاصة في إگزناين التي طالتها السيطرة الفرنسية، حيث أصبحت تابعة للحي الإداري بدائرة مسون العليا، التي شكلت جزءاً من قيادة تيزي وسلي، التابعة بدورها لمكتب دائرة أكنول، الذي تمت إعادة إنشائه خلال يوليوز 1941م، بعد أن تم التخلي عنه بتاريخ 8 فبراير من نفس السنة، وشغل رؤساء الشؤون الأهلية قبيلة كزناية حسب الترتيب التالي: ما بين -19261925م الملازم غوتيه Gautier، ما بين 19281926-م الملازم لويزيت Luizet. من 1929م إلى حدود 1941م على التوالي: الملازم تيفول Tivole، الملازم فلي سان ماري Flye Sainte Marie، الملازم دو موديت De Mauduit، الملازم بيرترونذ Bertrand، الملازم بوكيت Bouquet، الملازم كوربنت Corbenti، الملازم لومبارد Lombard، ثم الملازم هوبيرت Hubert، وما بين -1941 1945 الكابتان فالاش Valache، وما بعد سنة 1945الملازم دوهو.[1157]Duhoo

---

1152- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..28

1153- أحمد أبي القاسم الزياني، الخبر عن أول دولة...، م.س.، صص. .12-11

1154- أحمد أبو العباس بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج.7، ص..34

1155- من أشهر قياد العهد الإسماعيلي، ورأس الجيوش ضد قوى الاحتلال، وكان حاكما مفوضا بتطوان، وكان له تفويض سلطاني بعزل من يشاء، انظر:

-محمد داود، (1963)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، عدد 4، تطوان، ص. .33

1156- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. .267

1157- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 9.

لم تكن في الريف سلطة قارة في يد حاكم أو قائد، إذ أن في قبيلة إبقوينانقسم السكان إلى تيارين، الأول تزعمه الرايس مسعوذ الملقب بـ«سيبيرا» الذي دعم التعامل مع الإسبان، لأنه سبق أن استفاد من هدايا إسبانية (مركب بحري بالعلم الإسباني)، غير أنه انضم إلى مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي، والتيار الثاني تمثل في الإخوة أنگيطا الذين رفضوا إقامة أي علاقة مع الإسبان.[1158]

استمر الحضور الشكلي للجهاز المخزني في ظل السلطة الفعلية للاستعمار ببلاد الريف[1159]، ونعطي كمثال على ذلك قبيلة إگزناين، التي صارعت المخزن، رغم حضور تمثيلياته[1160]. وتتمتع هذه القبيلة بتاريخ عريق في ظل هذه المواجهات، وزادت جغرافيتها من شراسة أهلها الذين وقفوا في وجه المخزن والاستعمار مع تسجيل بعض العلاقات الودية معهم من قبل القائد المذبوح مثلا، الذي ساعد المستعمر على بلوغ باب مروج سنة 1917م، ومنذ هذا التاريخ أصبحت منطقة لوطا تابعة لقسمة إشاوين[1161]. خصصت إدارة الحماية منذ 1934م شيخين وخليفة لتسيير أمور قسمة أشث محند، وشغل الشيخ محمادي بن أكواس هذا المنصب قبل الحماية ثم تقلد منصب الخليفة والشيخ معا بدوار بني بوجطو سنة 1932م، ثم شيخ قسمة بني محمد ورئيس حربسنة 1939م وعينته إدارة الحماية بشكل رسمي في 26دجنبر 1944م.تم تعيين الشيخ موحند عبد الله من طرف قائد المنطقة لكن تمت تنحيته لقربه من المنطقة الإسبانية. عين شيخان بقسمة أشث يونس هما الشيخ بوطهار بن عبد القادر شيخ دوار أزرو وتحول لشيخ القسمة بأملها سنة 1934م، وعلي بن عبد القادر على دوار حضرية وتحول إلى مقدم بعد أن أصبح الأول الشيخ الوحيد. وُضع شيخ على رأس قسمة أشث عرو عيسى، وهو الشيخ السي علي بن أحمد منذ 1940م، حيث خلف الشيخ عبد القادر، لكنه لم يتمكن شغل منصب رئيس الحرب، وعُين محند نعلي مقدم على دوار الدوايار.[1162]

وأصبحت المهام التمثيلية متوارثة بعد ذلك[1163]، ففي قسمة أشث محند نجد: الشيخ محمد أكواس، بالنسبة للمقدمين موح بن الحاج بوغازي والحاج أحمد بن مزيان بدوار أشث بوجطو، بن عيسى بن حدو بدوار ولاد الطاير، عمر بن مختار بدوار ولاد زيان، وشغل بها كل من

1158- أنخيلو گيريلي (2017)، **إبقوين قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، ص. 154.

1159- ضمن المجال المدروس خمس قبائل هي أيث ورياغر وثمسمان وأيث توزين وأيث عمارث وإبقوين وقعت تحت الحماية الإسبانية باستثناء قبيلة إگزناين التي عادت إلى فرنسا بعد القضاء على مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي.

1160- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.10.

1161- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée Première partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p. 8.

1162-*A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, pp. 1-2.

1163- أحمد توفيق، المجتمع المغربي...، م.س.، ص..480

الحاج السي الصديق والسي أحمد بن السي علي منصب العدلين[1164]. وبقسمة أشث عرو عيسى كان: الشيح محند أخياط، والمقدمين محمد أمزيان أحمد بدوار تينمرار وعبد الله بن محمد بدوار سيدي عيسى، موحمادي بن مزيان بدوار واونكورت، السي عمر بن محمد بدوار دوايار، ومحمد بن محمادي بدوار ذيغزا، وشغل حدو بن السي بوطهار والسي الحسن بن السي حدو منصب العدلين[1165]. وبقسمة أشث يونس وجدنا: الشيخ عبد القادر بن بوطهار، ومحمد أشياع مقدم بدوار أزرو، والسي محند أشهبار بدوار ذاغيراست، وفقير عليبو دور بدوار حضرية، ومحمد بن دريس بدوار ذستيت، وعلوش بن عمر بدوار العرقوب، ويوسف أمعظشو بدوار أشث حازم، ومحمد بنحمادي بدوار خبابة، وشغل منصب العدول كل من السي عبد السلام بن السي حدو والسي محمد بن السي بوطهار.[1166]

حافظت قبيلة إگزناين على تماسكها ووحدتها الجغرافية والتنظيمية، رغم أن فرنسا قسمت القبيلة إلى سبعة أقسام[1167]، يسيرها الشيوخ باستثناء أشث عاصم التي قسمت إلى ثلاث مشيخات. وقد أولت فرنسا أهمية لهذه القبيلة باعتبارها خط الاختراق بين الريف الأوسط وقبائل الغرب الشرقي.[1168]

ساهم العامل الجغرافي في بعد الريف عن المخزن، ما جعله لا يؤدي الضرائب بشكل منتظم، ولم يكن بوسع المخزن إخضاع هذه القبائل بشكل كلي، وضعف السلطة المركزية نظرا لتراجع هيبته، مما دفع ساكنة بلاد الريف إلى الانخراط في حماية مجالهم جنبا إلى جنب الجهاز المخزني لصد الخطر الخارجي.[1169]

وأمام قوة وشراسة القبائل ببلاد الريف حاول المخزن إضعافها عن طريق الجبايات، فعرفت بذلك علاقات بلاد الريف مع المخزن الشريف تأزما عبر محطات تاريخية أهمها، فترة قيادة حدو الورياغلي (1875-1898م) والقائد الحاج علي الورياغلي (1880-1898م)، إذ وجد كل

1164- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Tableau de Commandement des trois Fractions, Tizi Ousli, Le 1 septembre 1955, p.1.

1165- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Tableau de Commandement des trois Fractions, Tizi Ousli, Le 1 septembre 1955, p.3.

1166- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Tableau de Commandement des trois Fractions, Tizi Ousli, Le 1 septembre 1955, p.2.

1167- قسمة اجبارنة: أشث حمو أوعمر-إعثمانن-ثروا حدو-وجبارنة إسويح تحت قيادة بوطهار بن المقدم السايحي.

- قسمة إشاوين: ثروا عبد الله-ثاروا نثونزا-بويسري-إمرابظن ن واويزغث-أكنول-إحموشن-إزمورن، تحت قيادة بوشتى بوهوش.

- قسم مارار: ثغزراثين-ثاشربانت-ثرو نعري-ثغمبوين-ثيرمامين-أشث الحسين أوموسى-أفرزاز، تحت مشيخة محمد بوتوييس.

- قسم أشث محند: أشث بوجطو وأشث زيان، تحت مشيخة محمد كاوس.

- قسم أشث يونس: أزرو-أشث حازم-ثاغيراست-إحضريين-الرعاقوب-إخبّابن.

- قسم أشث عرو عيسى: دوايار-تغزا-جبر سيدي عيسى-واونكورث-ثنمرار، تحت مشيخة عبد القادر نموحند أقضاض.

- قسم أشث عاصم: إفران-إقرّوعن-إهراسن، تحت مشيخة عبد الله نزمبب، وأشث بوريد-ثمجوند-إهروشن، تحت مشيخة موح نمسعود، وبالنسبة لـ إنحناحن- إحرشريين-تارا ذازگاخث، تحت مشيخة موح نبقيش. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت (2004)، **القانون العرفي الريفي**، ترجمة محمد الولي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، صص. 91-92.

1168- دايفيد مونتگومري هارت، القانون العرفي الريفي...، م.س.، ص. 91.

1169- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 266.

من حدو وعلي صعوبة لتطبيق الأحكام المخزنية بالريف الذي لا تناله أحكام المخزن، خاصة الأعيان منهم، والذين ينازعون القائد على الحكم بالمنطقة، وهو ما يعود بالأساس إلى رفض الإنسان الريفي للوقوع تحت سيطرة الآخر خاصة وإن كان من نفس المنطقة. لقد أدى تعدد القياد إلى صراعات مريرة وصلت إلى حد انتقام عناصر القبيلة من القياد، واعتراضهم على أداء الضرائب، إلى أن اضطر السلطان المولى الحسن إلى إسناد مهام القيادة للعربي الوليشكي [1170]. واختص القواد في العلاقة الجبائية بين السلطة المركزية والريف، إذ جاء إحصاء القبائل الريفية وفروعها، باعتبارها وحدات جبائية، وبلغ عددها 21قبيلة 6منها ضمن الريف الأوسط، منها قبيلة إگزناين وأيث عمارث التي وردت بصيغة بني عمارط.[1171]

تماطلت معظم قبائل الريف عن تأدية الضرائب الشرعية من زكاة وأعشار، وهدايا المناسبات والزيارات، خلال فترة السلطان المولى الحسن وعلى عهد السلطان المولى عبد العزيز، بسبب فترات القحوط التي عرفتها المنطقة، وبعدما أدركت القبائل بأن القواد الذين عينهم المخزن يختلسون أموالهم، مما اضطر السلطان المولى الحسن حينها إلى غض الطرف عنهم جراء ذلك، بل أمر في عهده خلال سنة 1884م أمناء تطوان وطنجة بتسويق الحبوب إليها .[1172]

وفرت الذاكرة الجماعية بعض النتف الضنينة من خلال الروايات المتداولة شفهيا، وبعض المعلومات حول تأدية الضرائب المفروضة من قبل المخزن .[1173] غير أن تأدية الضرائب عرفت استمرارية خاصة في قبيلة إگزناين، حيث استخلصت ضرائب هذه القبيلة عن سنوي عن طريق القايد الذي يمثل الجهاز المخزني بالمنطقة. وكانت العملية يستغرق وقتا طويلا من أجل التنقب بين فروع القبيلة وفخداتها وإقناعهم بتأدية واجباتهم الضريبية. وفي حالة تعنتهم يضطر الجهاز المخزني إلى تجريد الرافضين من ثلاثة أرباع مواشيهم وقطعانهم، فارتفعت بذلك مداخيل بين المال وتصاعدت المستخلصات، فبلغ مجموعها من قبيلة إگزناين سنة 1939م، حوالي 614395.26 فرنك، وما مجموعه 761034.25سنة 1940م فرنك[1174]. وحسب إحصائيات 1946-1945م، سجلت سنة 1945م بقسمة آشث يونس حوالي 347.747,00فرنك، وعند آشث محند ما قدره 189.705,00 فرنك، وأما عند آشث عرو عيسى فقد بلغ مجموعها 146.917,00فرنك، أي بمجموع عام وصل إلى 684.369,00فرنك. وسجلت سنة 1946بقسمة آشث يونس حوالي 781.977,00فرنك، وبقسمة آشث محند نسبة 182.748,00فرنك، أما بقسمة آشث عرو عيسى فقد ارتفعت إلى 297.833,00 فرنك، أي بمجموع عام وصل إلى 1.262.558,00فرنك.[1175]

1170- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 274.

1171- التقييد مخطوط بالخزانة الحسنية، كناش رقم **192**، يتضمن 5صفحات، الرباط، 1890.

1172- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 285.

1173- لطفي عيسى، بين الذاكرة والتاريخ...، م.س.، ص..74

1174- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Série 12MA/900/136,* Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, Confidentiel, Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, p. 11.

1175- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 4.

لقد كان امتناع سكان الريف عن تأدية الضرائب سببا مباشرا في تجريد الحملات التأديبية ضدها لإجبار القبيلة على العدول عن تمردها ورفضها لتأدية الضرائب التي كانت بمثابة مصدر هام لإنعاش بيت المال. وكانت هذه الحملات ترمي في جانبها الرمزي إلى تفكيك البنية القبلية عبر آليات مضادة، وترسيخ الصورة المركزية، وإجبار القبائل على أداء الوظائف المخزنية، حيث استهدفت الحركات بلاد الريف، وقد عرف زمن السلطان المولى إسماعيل 11حَرْكَة تأديبية .[1176]

وزاوجت سلطة السلطان بين ما هو روحي وسياسي، واعتبره أهل القبائل أمير المؤمنين، ورغم الحملات التأديبية التي كانت تستهدفهم، حين تتوفر القوة الكافية لاستخلاص الضرائب[1177]. تتعارض أطروحة النسب الشريف للسلاطين العلويين ونبذ العنف، وحضورهم الزجري بهذه القبائل، ونذكر أهم حملة جباية على عهد السلطان المولى سليمان خلال سنتي 1811 و1813م، والتي هزم خلالها أهل الريف[1178]، بالإضافة إلى الحركات التي قادها ابن عم السلطان السيد محمد الأمراني سنة 1884م، لجباية سكان الريف وتهدئة الأوضاع بعد امتناعهم على ذلك، وحركة السلطان المولى عبد العزيز لتأديب البقيويين إثر أعمال القرصنة التي قاموا بها.[1179]

سبقت الحرْكات مجموعة من الإجراءات أهمها تعبئة القبائل للالتحاق بالمحلة المخزنية، التي رفض أغلب الريفيين الالتحاق بها، مما أجبر المخزن على اللجوء إلى إجراءات زجرية لإرغامهم على ذلك. فكان للحملة عدة وظائف أهمها؛ إغناء بيت المال؛ وإرساء القوة المخزنية؛ والتعاون مع القواد في بعض الأحيان؛ وتعيينهم والتنكيل بهم أحيانا، فجمعت الحركة بين الوظيفة الاقتصادية والسياسية، والتأديبية، ووسيلة لإضفاء المشروعية على القبائل الطائعة والمنتفضة بالريف.[1180]

ومن ضمن أهم أسباب الحملات المخزنية أيضا الجهاد القبلي، إذ اعتبر المخزن جهاد الريف هرجاً وفتنة في كثير من الأحيان، خاصة بعدما تقدمت إسبانيا سنة 1891م بعدد من الشكاوى ، احتجاجا على ما كانت تقوم به قبائل الريف ضد الإسبان والذي كان يدخل في نظرهم التأثير على علاقات حسن الجوار التي تربط المغرب ببلاد إسبانيا والتي تفرض على المغرب الحفاظ عليها، مما اضطر المخزن إلى ضرب الجهاد القبلي ونزع الشرعية عنه، فعرض الريف لحملات تأديبية عقابية كان أهمها خلال سنوات 1864م و1871م و1893م و1898م، بسبب الصراع الريفي- الإسباني.[1181]

هذا بالإضافة إلى أسباب القرصنة وافتكاك الأسرى، إذ كانت الحملات المخزنية إلى بقيوة بقيادة عبد السلام الأمراني، لغرض فك الأسرى النصارى الذين بحوزتهم، وجمع القائد حمو

1176- سعيد بنحمادة، »الحياة العامة لبلاد الريف...، م.س.، ص. 76.

1177- دايفيد مونتكومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 12.

1178- Bernard Lugan (1992), *Histoire du Maroc des origines à nos jours*, Criterion, Paris, p.186.

1179- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 278.

1180- نفسه، ص. 280.

1181- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص.33.

الوليشكي المتطوعين لمحاصرتهم، وأثناء هذا الحصار قدم القنصل الفرنسي علال العبدي، الذي زاد من تعميق الأزمة بين المخزن وأهل بقيوة، لسعي فرنسا أن تضعف قوة حضور سلطة المخزن بالمنطقة، أمام جشع القائد حمو الذي كان منشغلا بطلب المؤن وجمع الأموال، وترك سبل حصول أهل بقيوة على الأسلحة عن طريق تجارة التهريب عبر جبل طارق، ما أدى إلى فشل الحملة.[1182]

وتظل الحملة المخزنية بقيادة بوشتى البغدادي أبشعها، إذ بدأت الاستعدادات لها منذ شهر يناير 1898م لتأديب القبيلة، وامتنعت القبائل المجاورة رغم نداء السلطان، عن الهجوم على بقيوة نظرا للتحالف الذي كان بينهم. لقد ساهم ضعف تمويل المحلة وضعف المخزن أمام قوة قبيلة بقيوة وصعوبة تضاريسها وأسلحتها الحديثة في صعب المواجهة بين الطرفين، ما أدى إلى التفاوض مع بقيوة من طرف عم السلطان بوبكر بن شريف والقائد بوشتى البغدادي، ليوهموا أهلها بأن هدف الحملة هو التواصل مع القبيلة ولا يتعلق الأمر بالهجوم عليها، في أفق كسب وقت أكبر من أجل الاستعداد لهجوم موفق. لم يقتنع أعيان قبيلة بقيوة بالخدعة التي كانت عبارة عن رسالة سلطانية مزورة، اعتبروها مكيدة ضدهم، فاتصلوا على إثر ذلك بالقنصل الفرنسي ببادس وأصروا على المواجهة. إلا أن الباشا البغدادي فاجأهم بالهجوم فجردهم من السلاح وقبض على بعضهم وقتل 15 فردا من أهل بقيوة، فيما قُتل جندي واحد وجرح آخرون، حسب أحد المصادر، وتابع المخزن حملته التأديبية بينما تمكن البعض من بقيوة للفرار إلى القبائل المجاورة قبل اجتياح المخزن للقبيلة، حيث تمكن في الصباح الموالي للهجوم من التوغل إلي قلبها فمارس جميع أنواع العنف على ما تبقى من عناصرها، وانتهك العساكر حرمة ضريح علي بن حسون، رغم خروج شيوخ الزوايا والنساء والصبيان بالرايات البيضاء، فكانت من أبشع مت بصم ذاكرة بقيوة بالريف الأوسط، ودافعا لتوطيد العلاقات بين أهل بقيوة وإسبانيا.[1183]

كما ساهمت حملة البغدادي في تراجع نفوذ قبيلة إبقوين، وتكريس تبعيتها لقبيلة آيث ورياغر تحت سلطة محمد بن عبد الكريم الخطابي.[1184]

وشكلت الحصون والحاميات إحدى وسائل الحضور المخزني، إذ أقامت القبائل الريفية الساحلية بفضل طبيعتها الوعرة حصونا لمراقبة تحركات الإسبان، أهمها حصن المجاهدين المقابل لجزيرة نكور الذي شيد على علو 130م بفرقة أجذير بآيث ورياغر، على إثر هجوم إسباني، وذلك سنة 1673م. والموقع منفتح على الجزيرة وشديد الانحدار، ويبلغ طول البرج ستين مترا وعرضه عشرين مترا، ويعتبر مركزا للمجاهدين لصد الهجمات الأجنبية. وشيدت قصبة سنادة بقبيلة أيث يطفث على يد السعديين لمباغتة الاسبان، وعرفت باسم عين بادس، ورممت سنة 1702م، ولعبت أدوارا تاريخية مهمة منذ إنشائها. وهناك عدة مواقع دفاعية على طول الشريط الساحلي لقبائل الريف، منها برج الريح Castillo de viento، وبرج جبل بابا Punta baba، وحظيت هذه الحصون بعناية من قبل المخزن، لما لها من دور لصد

[1182]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 278.

[1183]- نفسه، ص. 318.

[1184]- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 153.

الأجنبي، غير أن هذه المراكز كانت تتأثر بالأزمات السياسية التي تجمع سكان الريف بالمخزن من جهة وبالإسبان من جهة أخرى، ما اضطر السلطان في كثير من الأحيان إلى إضافة العسكر إلى هذه الحصون للسيطرة على الوضع. وكان دور العسة يضعف كلما قلّ عدد المتطوعين، وضعف دعم السلطة المركزية، بالإضافة إلى إهمال الأمناء وضعف مداخيل ديوانة مليلة نتيجة تجارة التهريب، وظهور الثائر الجيلالي الزرهوني.[1185]

يتضح أن حضور المخزن بالمنطقة نسبي ومتباين حسب الظروف والسلاطين ويكون تدخل السلطة المركزية اضطراريا في حال فشلت الجماعة في حل أمر ما، وتحل مجالس القبيلة محل المخزن في حال ضعف هذه السلطة. ويلاحظ توافق بعض الأعراف المحلية معالأوامر المخزنية كما تشهد على ذلك معاملة الجاسوس المتعامل مع الإسبان، أي «أحناش».[1186]

المبحث الثاني: أنساق السلطة بالريف الأوسط زمن الريفوبليك

أولا: الريف زمن الريفوبليك

أحب الريفيون الحرية باعتبارهما جزءاً من ثقافة البحر الأبيض المتوسط، وكانوا مستعدين لمواجهة أي عنصر يهدد حريتهم التي يعتبرون من أشد الغيورين عليها[1187]، والتي كانت مهددة من قبل الاستعمار. وهو الأمر الذي اعتبره الأنثروبولوجيون توجها اجتماعيا-ثقافيا يتميز به هذا المجتمع ذو الطابع الانقسامي[1188]، وإن لم يتفقوا حول الأسباب الكامنة وراء ذلك، فإنهم اعتقدوا أن الخروج من الوضعية التي كانت تسمى «بالريفوبليك» والتي تعادل ما يسمى «بالسيبة» في قبائل الأطلس كانت اختيارا ونمط عيش خاص ما بعد الاستعمار.[1189]

ولم تكن قوة المخزن بالريف تضاهي قوة حضور المجالس المحلية التي تسهر على تسيير شؤون القبيلة قبل وبعد الاستعمار[1190]. إذ عاشت القبائل الريفية وفق تنظيم سياسي بمثابة نظام تمثيلي، ينطلق من الرؤساء إمغارن-إزدجيفن، الذين يشكلون مجلس اجْماعث أو القسمة الصغرى، ومن بينهم يعين ممثلهم في الجمع العام أي أگراو، الذي يتمخض عنه مجلس القبيلة، فشكلت بذلك القبائل الريفية نظاما سياسيا اجتماعيا، تتمثل عناصره في الجماعات المنتظمة في

1185- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. ص..291-286

1186- نفسه، ص. .210

1187- *B.N.E.A.H., D.E.B.H.J.M.B.R., Dossier 47/610008, N°1240440,* El Problema Rifeño, por Cándido Lobera, Donativo, Melilla, 1909, p. 22.

1188- David M. Hart(1970), »Conflicting Models of a Berber Tribal Structure in the Moroccan Rif: the Segmentary and Alliance system of the Aith Waryaghar«, *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, n°7, p. 95.

1189- دافيد مونتغمري هارت، «من الريفوبليك إلى الريبوبليك، المؤسسات الاجتماعية-السياسية الريفية وإصلاحات عبد الكريم »، **مجلة أمل**، العدد 12، الدار البيضاء، 1997، ص. .47

1190- *B.N.E.A.H., D.E.B.H.J.M.B.R., Dossier 47/610008, N°1240440,* El Problema Rifeño, por Cándido Lobera, Donativo, Melilla, 1909, p. 12.

قسمات مستقلة تحل كل ما تعلق بالحياة اليومية، وتقام اجتماعات تشمل كل المجالس المحلية من أجل مناقشة القرارات القبلية.[1191]

عرف الريف خلال الفترة التاريخية التي سبقت الاستعمار مجموعة من المظاهر منها صناعة الأسلحة محليا ،[1192] وتهريب الأوروبية منها إلى داخل الأوساط الريفية عن طريق السواحل الريفية غير المحروسة بالعناصر المخزنية، وقد كانت حيازة السلاح في بلاد الريف رمز للرجولة والشهامة، لأن من لا يحمل سلاح في نظر الريفيين لا يعتبر رجلا، مما أجبر الكثير منهم إلى بيع أراضيهم ومواشيهم لاقتناء سلاح يحميهم.[1193]

يمكننا تصنيف التحالفات الريفية إلى قسمين، أولهما دائم نسبيا، تتصف به المستويات الانقسامية العليا، ويقسم القبيلة إلى جزأين متعاديين ومتساويين تقريبا. وثانيهما اللف المؤقت على مستوى القسمة أو السلالة. أما على المستوى القبلي فيطرح كل من كون ومونطاني الذي يتحدث عن شبكة التحالفات التي يشبهها برقعة الشطرنج، عن وجود تحالفين رئيسيين متعارضين في الريف هما صنهاجة وغمارة، فكانت قبائل إبقوين وأيث عمارث، وثمسمان من ضمن لف غمارة، في حين انضمت قبائل إگزناين وأيث ورياغر وأيث توزين إلى لف صنهاجة، وهو ما يفسر حسب كون انتصار لف صنهاجة في الحرب. وتحتفظ الذاكرة الجماعية في إگزناين بفكرة امتداد نظام التحالفات من قبيلتهم حتى الساحل المتوسطي.[1194]

سجلت التقارير الاستعمارية في قبيلة إگزناين قلة الأسر المنضوية تحت نظام اللف ما قبل الاستعمار (باستثناء دوار بني بوجطو المنتمي لقسمة أشث محند)، وارتكاز سلطة القبيلة حول دور ومهام الشيخ والمقدم اللذان عوضا سلطة الأمغار والمجالس القبلية.[1195]

لا ينطبق نظام اللفوف في قبائل الريف الأوسط مع النسق الانقسامي المتجسد في بنية الأخماس على المستوى الأعلى بشكل آلي، إذ قد نجد قسمات تنتمي إلى نفس الخمس تنتظم داخل لفين

[1191]- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. .125

[1192]- ونذكر نموذجا من التاريخ المعاصر، إذ بلغ عبد المالك الجزائري الريف ونزل بغمارة ثم توجه إلى إگزناين، عن طريق صنهاجة السراير، وصار يجمع الناس حوله للجهاد، وتكونت محلته من نحو 1500 بين مشاة وخيالة، ثم قدم إلى تفرسيت من أيث توزين، حيث أخبره أعيانها أنه لا حاجة لهم بمقاتلة فرنسا في حين تترصد بهم إسبانيا، وأخبروه أن مساعيه تطابق مساعي القنصل الألماني هرمان، وعاد إلى محلته بإگزناين. وقع نزاع بين هرمان وعبد المالك حيث رفض الأول رغبة الأخير في الهجوم على فرنسا، وأفضى النقاش إلى مغادرة كاتب عبد المالك عبد الرحمان البلغيثي، ودخل هرمان إلى مطالسة ثم مليلية وقبض عليه حاكمها فسجنه، ولما سمع عبد المالك بالخبر فر بنفسه، فقبض عليه أهل صنهاجة وسلبوه، فاعترضوهم بني ورياغل وأحرقوا من اعترضهم وخيروه في الذهاب إلى حيث شاء فاختار غمارة. تقوت محلة عبد المالك في قبيلة مرنيسة وكان فيها عدد من قبيلة إگزناين، منهم الحاج الشيخ بقيش الگزنائي، الذي كان عبد المالك يعتمد عليه كثيرا، بالمحل المعروف بالكيفان بوسط القبيلة، وساعدوه في حربه إلى جانب مرنيسة ضد بني ورياغل، ما جعل امحمد أخ الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي يهجم على قبيلة إگزناين انتقاما منها، ونزلوا بتاوريرت التي تفصل بين القبيلتين، في وادي النكور وقع الصلح بين القبائل المذكورة وحل أهل أجذير بمحلهم. انظر:
- أحمد سكيرج، الظل الوريف...، م.س.، صص. .14-13

[1193]- محمد أحميان (2018)، **الريف والبحر الأبيض المتوسط** 1926-1830، مجلس الجالية المغربية بالخارج، الطبعة الأولى، الرباط، ص..530

[1194]- دايفيد مونتگومري هارت (2016)، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي، ترجمة وتقديم وتعليق محمد أونيا -عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الرايس، نشر جمعية صوت الديموقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى، ج.2، صص..606-602

[1195]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Taghzut, Le 15 Mai 1947, p. 9.

متعارضين، أو قد تنقسم نفس القسمة إلى طرفين في لفين مختلفين داخل القبيلة الواحدة وخارجها. وتبحث اللفوف دائما عن توازن مفترض داخل القبيلة، وإذا تعذر ذلك يتم اللجوء إلى القسمات المجاورة في القبائل الأخرى.[1196]

كان نظام المجالس التمثيلية في قبيلة إگزناين التي تسمى أشث أربعين[1197]، الأقرب إلى نظام الممالك الأمازيغية، إذ يعتمد على الساكنة ويوافق نمط عيشهم العنيف والفوضوي، والأكثر استقلالية وديمقراطية، تتكون هذه المجالس على المستوى القبلي من ممثلين من كل المداشر في قبيلة إگزناين وكانت لها سلطة سياسية قوية، غير أن تجربة القواد منذ فترة محمد بن عبد الكريم الخطابي حدت من هذه السلطات. وقد حافظت اجماعث مع ذلك، على استمراريتها وروح الاستقلالية وقوة الأخلاق والاحترام السياسي الذي وافق مبادئ قبيلة إگزناين.[1198]

نشير إلى أن قبيلة إگزناين انفردت بوضع أعضاء مراهقين ضمن المجالس القبلية لاكتساب التجربة، ونلاحظ أن عدد المرشحين للعضوية في هذه المجالس أكبر من عدد المناصب الفعلية.[1199]

عرفت قبيلة إگزناين تنظيمات اجتماعية وسياسية فضفاضة ومتشنجة منها أشث بو ربعة، التي عرفت ترددا خلال فترات متكررة، والتي كانت أكثر شعبية وديمقراطية. ووفق هذا التنظيم يختار رؤساء الدواوير الأكثر غنى والمتمتعين بسعة النظر، والمنتمين لعائلات ذات نسب معروف بالقتال، ما يخول لهم أحقية تمثيل الجماعة، وهؤلاء ملزمون باحترام قوة السكان الذين يجمعون منهم مساهمات متنوعة مقابل الدفاع عنهم وحمايتهم. ويقوم هؤلاء أيضا بتمثيل الدواوير أمام الجماعات الأخرى، ويتولون مسؤولياتها ومصالحها في نفس الوقت، وكانت ولايتهم سريعة الزوال، إذ فور ظهور أي ضعف على مستوى الحربية أو أي مرض يتنحون فورا، ويستبدلون بالأفضل، ويعقد ممثلو الدواوير اجتماعاتهم كل ما دعت الضرورة إلى ذلك

[1196]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص.607-606

[1197]- اعتبر المجلس التمثيلي، أو »أيتاربعين« في الريف الأوسط ككيان سياسي ومؤسسة قائمة في ثلاث مستويات، أيتاربعين ندشار، أيتاربعين ناربع، أيتاربعين ندقبيتش أو أشتاربعين حسب نطق إگزناين، وأعضاؤه يسمون إمغارن، واجتماعاتهم تسمى»إگراون«، مفردها »أگراو«، وعندما يفرض أعد الأعضاء موقفه لشخصيته الوازنة أو لنفوذه أو لصواب رأيه يسمى أمغار أمقران أي كبير الأعيان، وعملية اختيار الأعضاء تبدأ بالمدشر، حيث يتم تحديد رؤساء السلالات الأقل فاعلية لتمثيل المدشر على مستوى القسمة، واختيار البارزين من هذه المجموعة لتمثيل مجلس القسمة، وعادة ما يكون هناك عضوان في حالة انقسام المدشر إلى لفين متعاديين، ويسري نفس الأمر على مستوى القبيلة، حيث يتم اختيار عضوين أو ثلاثة على مستوى القسمات، للحصول على العضوية في المجلس القبلي، ومبدأ الاختيار يسميه إرولا » Erolaقانون الأقوى la ley del más« «fuerte، وتتمثل عناصر القوة في القوة الجسمانية وشجاعة الأمغار وعدد أقربائه وأصهاره وعدد البنادق التي يمكنه توفيرها، ثم ثروته وأملاكه، وتعتبر العضوية في المجلس القبلي دائمة ما لم يقتل صاحبها لشدة التنافس حول هذا المنصب السياسي، والأمغار الضعيف يضل دائما على مستوى المدشر فقط. انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص.534-533

[1198]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Confidentiel, Monographie sur les Jemaas en Tribu Gzennaia, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 21 Mai 1930, p.2.

[1199]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...،م.س.، ج.2، ص.534

في المساجد مع جماعة القسمة، وكانت لهم مهمة تنظيم الحروب وتوزيع الأسلحة، واتخاذ القرارات المهمة، بالإضافة إلى الاهتمام بالعلاقات بين القسمات والجماعات.[1200]

نلاحظ حضور سلطة الجماعة في قبائل الريف أمام غياب السلطة الفردية، وحضور القياد الذين كانوا يعانون في بسط سلطتهم هم تمثيل للمخزن، وخضع الريفيون أحيانا لسلطة بعض الثوار مثلا الجيلالي الزرهوني الذي عين بعض القواد بالمنطقة، وبسط قوة عسكرية، لكنها تبددت بسرعة، لأنها لم تعبر على سلطة الجماعة، كما نشير إلى أن الانتخاب وانتقال العضوية في اجْماعث لا تتم وفق شروط مضبوطة؛ لا من حيث المدة المحددة للحكم ولا شروط الانتقاء.[1201]

كانت المجالس التمثيلية في الريف هي المعنية بإصدار القوانين وتطبيقها، فتفرض الغرامات الثقيلة على القتلة وغرامات أقل على المتسبب في الجرح، وفي حالة السرقة التي كانت نادرة جدا في الريف، تكون الغرامة رمزية فقط.[1202]

تنبسط سلطة الأمغار الصغير في إگزناين على حيز جغرافي صغير[1203](148)، بينما تعود أمور القسمة بأكملها إلى أمغار الجماعة بالنسبة لقبائل الأطلس[1204]. يسهر إمغارن في الريف الأوسط على تنفيذ مهام وقرارات الجماعة .[1205]

لا نجد نموذج الضمانة بالريف بمعنى الضمانة في الأطلس المتوسط، والتي تتمثل في اضطرار من أراد ارتياد سوق قبيلة أخرى أن يبحث عن حامي، ففي الريف كان الورياغليون يرتادون أسواق إگزناين بكل حرية، لكن أداء عمولة «ذازطاط» للإمغارن كانت ضرورية في حالة السفر خارج القبيلة دون غرض التسوق، حيث يوفر الأمغار الحاصل على العمولة مرافقين يحمون مقدمها. ويُستثنى اليهود والمنتمون إلى المجموعات المتواضعة كالحدادين والموسيقيين من أدائها، لأنهم غير مقاتلين ولا يشاركون في العمل السياسي. وكانت الزطاطة

[1200]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Monographie sur les Jemaas en Tribu Gzennaia, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 21 Mai 1930, p. 4.

[1201]- أنخيلو گيريلي، إبقوين...،م.س.، ص. 125.

[1202]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. 22.

[1203]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Monographie sur les Jemaas en Tribu Gzennaia, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 21 Mai 1930, p. 4.

[1204]- حُددت مهام »أمغار« في تطبيق وتنفيذ الأحكام والقرارات، ويعتبر رئيس »اجْماعة« وفي نفس الوقت زعيم المجموعة، وعلى عكس »إجمعان« فهو شخص منتخب، وعلى عكس ما سيتبادر إلى أذهاننا فالتصويت لا يتم بطريقة منعزلة وسرية وإنما بطريقة مختلفة تماما، فهو تصويت على الطريقة الأمازيغية، فـ »أمغار« القبيلة كان يتولى المهام بالتناوب حسب المجموعات، وينتخب من الدوار من أجل انتقاء »أمغار« المجموعة الصغرى، ومن بين العائلات (إريسان أو ألماسيتين) من أجل انتخاب »أمغار« خاص بالدوار. أمغار إذن هو ممثل مجموعة يختاره مجموع »إجمعان« ليكون رئيسهم ومنفذ الأحكام، والعرف لا يشمل أي شيء بخصوص الصفات التي يجب أن تتوفر في »أمغار«، كما هو الشأن بالنسبة لـ »أجْمعا«، فصفاته تأتي من تركيبة وطريقة عيش المجتمع الأمازيغي، تماما كما هو الشأن بالنسبة لـ »أجْمعا« لكن هنا وجوب توفر على حق الانتماء بقانون الدم أكثر ضرورة. انظر:

-A.D.N., Fonds Maroc- Protectorat, série1MA/200/285, Dossier n° 73, Etude du Droit Coutumier Berbère des AIT HADDIDOU- AIT YAZZA de l'Assif Melloul, par le Capitaine DENAT, p.20.

[1205]- *B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832,* Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. p. 31.

شرطاً لمن أراد العمل خارج قبيلته، ومقدار العمولة كان يتراوح بين 10 و20 دورو، وللزطاطة جانب آخر في الريف، إذ تشمل المبلغ الذي يدفع للقاتل المأجور، غير أن هذه الحالات محدودة إن لم نقل نادرة.[1206]

هناك من اعتبر حالة الريفوبليك التي عاشها الريف كمخطط للدول الاستعمارية عبر زرع الفوضى بالريف خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من خلال إشاعة الأسلحة وعزل الريف عن سلطة المخزن، وشراء ذمم بعض إمغارن وزعماء العشائر عن طريق تزويدهم بالمال والعتاد الحربي، وتأسيس ظاهرة «أصدقاء إسبانيا» ثم تجنيد الأهالي، وإتباع سياسة «فرق تسد» عن طريق منع أداء الغرامات المفروضة من الجماعة القبلية، والتجويع الممنهج للريفيين، وهو ما خلق ظاهرة الريفوبليك.[1207]

غير أن نظام الريفوبليك سبق المد الاستعماري وكانت له أسس لم تجعل منه فوضى مطلقة، بقدر ما امتص نظام الجماعة بالريف السلط الأخرى، وحالة التفكك والمعارضة، خاصة التي كانت خلال فترة حرب الريف، وكانت لها سلطة قضائية وفق الأعراف المحلية، وتتكلف بكل الأمور التنظيمية، وكل ما تعلق بالغرامات والضرائب.[1208]

تضمن ظهير 21شتنبر 1916م أسساً جديدة للجماعة، لكن لم يطبق أي شيء منها، ولم تتغير أساليب الجماعة القبلية التقليدية، وعادت إدارة الحماية لإصدار ظهير بهذا الخصوص في وقت متأخر يعود إلى 8 يوليوز 1944م، وذلك للتحكم في عدد أعضاء الجماعة والشيوخ والقواد ورؤساء الحرب. كانت إدارة الحماية على وعي تام أن التدخل في شؤون القبيلة يعني الاستعمار الفعلي، لكنها شعرت أن الأمر في غاية الصعوبة.[1209]

خضعت قبيلة إگزناين لنظام الجماعة ولقياد الحرب بصفة عامة، باعتباره وسيلة لحل النزاعات الداخلية المؤقتة[1210]، ومثلت الجماعة هالة السلطة بقبيلة إگزناين، وعددها كان يتحدد في الاجتماعات المنعقدة في مناسبات مختلفة، ودور كل عضو كان واضحا، ولم يكن رئيس الجماعة أو أمغار هو القائد الوحيد، إنما الكل يدلي برأيه ويختار الصواب. يتكون جهاز السلطة القبلية أساسا من رئيس الجماعة الذي كان يشغله خلال فترة الحماية كل من الشيخ بوطهار بن أبركان بقسمة أشث يونس، وبقسمة أشث محند الشيخ محمد بن أكواس وخلفه عبد

[1206]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص.569-568

[1207]- محمد أقضاض، »الريف بين بلاد المخزن وبلاد السيبة...، م.س.، ص..113

[1208]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Monographie sur les Jemaas en Tribu Gzennaia, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 21 Mai 1930, p. 5.

[1209]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Le Chef de Bataillon Noix Chef du cercle du Haut-M'soun, Carnet-D'itinéraire A cheval Région de Tizi Ouzli, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 27 Janvier 1947, p.1.

[1210]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 8.

الله بوزلماط بتاريخ 26 دجنبر 1944م، أما بالنسبة لقسمة أشث عرو عيسى فقد شغل المنصب الشيخ السي علي أحمد وخلفه عبد القادر بن أقوضاض بتاريخ فاتح أكتوبر 1940.[1211]

استمر نظام الجماعة في قبيلة إگزناين، غير أن هذا النظام تقلصت فعاليته شيئا فشيئا فور توطيد سلطة الحماية لأجهزتها بهذه القبيلة، غير أنها لم تفقد أهميتها الثقافية[1212]. وظل مجلس القبيلة يكتسي أهمية كبرى في تحديد العلاقة بين القبائل، وفي تحديد علاقة القبائل مع المخزن، وكان هذا المجلس يبت في الجرح وإلحاق مختلف أنواع الأذى، وحالات القتل والثأر والزنى.[1213]

كان المكلفون لجمع الضرائب يسمون «إمذاومن» دوامين Douamen، ويشكلون حلقة وصل مع المخزن وإدارة الحماية، ويسهرون على تلاحم القبيلة وقسماتها، إلى أن اختفى هذا التنظيم شيئا فشيئا، ومنذ 1944م انتهى أمر الجماعة ظاهريا، لكنه ظل ثقافة راسخة تحتكم لها الساكنة، واستمرت أنشطتها، وهو ما جعل إدارة الحماية تفكر في تقديمها في قالب جديد، لكنها اصطدمت بواقع أن أعضاء الجماعة رفضوا العمل تحت المراقبة والسلطة الاستعمارية، وتحويلهم إلى مقاتلين قدامى، ووفق محاولات جادة لإدارة الحماية لاحتواء هذا التنظيم، وإجراء تحريات حول الأعضاء المكونة له، تبين أن هؤلاء يرفضون تدخل أي عنصر في أمور زراعتهم وغرسهم وأمورهم الداخلية.[1214]

يعتبر التوفر على النسب الشريف عنصرا تمثيلياً للسلطة، كما كان الشأن بالنسبة إلى العائلة الخطابية[1215]، خاصة وأن المجتمع الريفي أيضا يعرف تعمقاً على مستوى النفوذ السياسي والديني للأولياء، ويتعاظم هذا النفوذ حسب تأثيرهم وعدد أتباعهم ونسبهم، واعتقد الريفيون أن الأولياء خلفاء للآلهة الأسطورية عند الأمازيغ القدامى. وقد ترسخ التأثير الديني في الريف عبر الصلحاء والأولياء والزوايا والطرق الدينية، كنموذج الزاوية الوزانية مثلا.[1216]

يعود دور الشرفاء في فض النزاعات بالأساس إلى ارتباط الإنسان القروي بعمق ديني، يجعله دائما ينظر إلى الشرفاء نظرة الإطار المرجعي في تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية، ويصبح أداة مخزنية مفادها رغبة السلطان في ترسيخ السلطة المركزية من خلالها، لما للشريف من سلطة روحية أخلاقية تخول له دور التحكيم، ووساطتهم تعتبر عنصر ضبط يحفظ توازن السلطة، ونفوذ الشرفاء لا يتعدى مجالهم، إلا في حالات استغلال نزاع معين من أجل

1211- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 7.

1212- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947,p. 2.

1213- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص.540.

1214- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel, Le Chef de Bataillon Noix Chef du cercle du Haut-M'soun, Carnet-D'itinéraire A cheval Région de Tizi Ouzli,* Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 27 Janvier 1947, p. 6.

1215- محمد العلمي(2009)، **زعيم الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي**، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص. 18.

1216- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. 161.

بسط السيطرة.وفي حال ما إذا نجحوا في ذلك يحصلون على نفوذ أكبر خارج المجال، وندرج مثال الزاوية الوزانية بين قبيلة أيث بوفراح وأيث يطفت بعد ضعف سلطة الشرفاء العمرانيين الذين كانوا مكلفين بحل هذه النزاعات قبل القرن 19م.[1217]

كان للشرفاء أيضا دور إخماد الثورات التي يعجز السلطان عن محاصرتها، أهمها ثورة أيث ورياغر على عهد السلطان المولى سليمان، عقب منع وسق الزرع والماشية للنصارى، وبعد أن فشلت المحلة المخزنية من الصمود أمام الورياغليين سنة 1805م، وبعد وصول فوج آخر من المخزن بقيادة ولد الكابدة من قلعية، توسط الشريف التوزيني بين الطرفين لوقف الصراع. وعقب هذه الوساطة ولاّه السلطان أمر القبائل الريفية جميعها، لما له من سلطة على المنطقة. ونجد المرابط محمد الحضري الذي أمره السلطان المولى الحسن بوضع حد للصراع الدموي الذي جمع بين أيث ورياغر وثمسمان، إثر مقتل قائد ثمسمان من قبل الورياغليين.[1218]

ثانيا: الريف الأوسط بين العرف والشرع

كان العرف سائدا في تنظيم الحياة اليومية، انطلاقا من وضع ميثاق الأسرة الذي يقر بمدى اهميتها داخل المجتمع الريفي، غير أن الزواج والطلاق والملكية العقارية كانت تتم وفق مبادئ إسلامية[1219]. كانت مختلف الرسوم والوثائق والقوانين العرفية في الريف تدون من طرف الفقهاء والعدول والقضاة في حالة توفرهم، ويطلق على هذه الوثائق اسم جامع هو، «ركواغظ»، بمعني الأوراق أو القوانين. نجد نماذج من القوانين العرفية لدى بلانكو في المرجع المذكور، وأخرى عرفية وشرعية[1220]، وتضم المجموعة الأولى رسوم الزواج والطلاق والملك العقاري أي ما هو مرتبط بالشريعة، والمجموعة الثانية مرتبطة بالقاعدة العرفية. ونستشف منها أن العرف لا يتعارض مع الشرع في الريف بل هما وحدة مجتمعة، باستثناء عرف القسم الاجتماعي الذي ألغاه محمد بن عبد الكريم الخطابي، والعرف الآخر الذي يقال أنه كان يسمح للفرد بالاقتران بعدد غير محدود من الزوجات شرط أن تكون الخامسة سوداء.[1221]

ارتبطت القوانين العرفية في الريف بمهام مختلف المجالس القبلية، على مستوى المدشر أو القسمة أو القبيلة، فيتضمن القانون جردا للغرامات والعقوبات التي تفرض على كل من أخل بالنظام، هكذا كان مجلس أيت اربعين ن دشار يعالج القضايا الجنائية المحلية البسيطة، من قبيل سرقة البيض والذرة، والدخول إلى البستان عنوة، وكسر أغصان الأشجار المثمرة، وجمع

[1217]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 211.

[1218]- نفسه، ص. 212.

[1219]- *B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832,* Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. p. 18.

[1220]- تمكن هارت من جمعها، يقارب عددها سبعين وثيقة، أربعون منها بأيث ورياغر وثلاثون بإگزناين، بالإضافة إلى القوانين العرفية التي جمعها إيميليو بلانكو إيثاكا. أنظر:

_*B.N.E.A.H., A.C.D.E.E.M.D.D.A.I.C.D.E.M., N°1/98832*, Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. pp.34-35.

[1221]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، صص.536-535.

ما أسقطه الريح من الزيتون، وسرقة الزيتون، والشجار بين النساء، ودخول مقبرة أو ضريح به نساء، والذهاب إلى سقاية تجتمع بها النساء، وتنظيم عملية حضور الصلاة، والفصل في عملية جمع محصول الذرة في حقلين متجاورين، خاصة إذ نضج محصول قبل الآخر، وتعيين حراس للبساتين حين تثمر الأشجار، وتحديد تاريخ جمع العنب.[1222]

لقد أسندت سلطات الحماية الإسبانية للجماعة مجموعة من هذه المهام، في حين أدرجت أخرى ضمن القوانين المخزنية. واستمرت اجماعة في تدبير الشؤون المحلية كصيانة المقبرة، وإصلاح قنوات الري، وتحديد حقوق الاحتطاب .[1223]

شملت القوانين العرفية مجالات أوسع عندما انتقلت إلى مستوى القسمة أو القبيلة، من قبيل الاهتمام بالمعاملات التجارية وتدبير الشؤون الاقتصادية للقبيلة[1224]. ترتقي بعض القضايا إلى مجلس القسمة الذي يجتمع أسبوعيا في السوق، وتكتسي اجتماعات هذا المجلس جدية أكبر في غياب البروتوكولات عدا احترام رأي الآخر، وحضور سلالة الشرفاء الحقيقيين كرمز للحفاظ على السلم، ومهام هذا المجلس أقل من مهام مجلس المدشر، لأنها أخطر وأكبر، وكانت أهمها سرقة الماشية، ونزاعات السلالات والمداشر، وارتياد سوق النساء أو محادثتهن داخل سوق الرجال، والشك في اقتراف الزنى، وغرامات الدم في بعض الحالات، وحضور حفل الزفاف خارج المدشر، لأن دور المجلس في الأعراس هو ردع الخصومات.[1225]

كانت أسباب النزاع بالريف تدور حول الأرض والعِرض في الغالب، وفي حال تفاقم النزاع، تتدخل الجماعة لعقد اجتماع "أگراو" أو "أيراو" للفصل بين المتنازعين. وفي حال وصول النزاع إلى حد القتل، يؤدي الجاني غرامة السوق، ويتم حجز أملاكه.[1226]

كانت القوانين العرفية بالريف تكتب وتلف وتوضع في القصب ثم في صناديق خشبية. وتبدأ كلها باسم الله أو باسم الله وحده، والعنصر الثاني يبدأ بالموضوع، وأسماء المعنيين بالموضوع، وأسماء الأعيان الذين بثوا في الموضوع، والحكم يأخذ طابع الشمولية في الأخير، والعنصر الثالث هو المحتوى ذاته، والعنصر الرابع قد يكون فيه جرد للأشخاص الضُمّان، والعنصر الخامس هو تاريخ تحرير الوثيقة، ثم العنصر الأخير المتمثل في مصادقة القاضي، وهذا أمر

[1222]-*B.N.E.A.H., A.C.D.E.E.M.D.D.A.I.C.D.E.M., N°1/98832*, Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. P..56

-*B.N.E.A.H., A.C.D.E.E.M.D.D.A.I.C.D.E.M., N°1/98832,* Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. Pp.34-35.

[1223]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. .538-537

[1224]- *B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832,* Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. p. 18.

[1225]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص.540-539.

[1226]- جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، ترجمة محمد أمين البزاز وعبد العزيز التمساني خلوق، الشركة المغربية المتحدة، الطبعة الأولى، ص..15

نادر لقلة القضاة في الريف. ومن مجموعة الوثائق نجد فقط وثيقتين موقعتين من طرف قاضيين من إگزناين، وذلك قبل مرحلة محمد بن عبد الكريم الخطابي .[1227]

تتضمن هذه الوثائق محاولة لترجمة المرادفات الريفية الصادرة من إمغارن، غير أنها غير ناجحة إذ نجد الربع مثلا يترجم بالقبيلة، وكانوا يكتبون بخط فقهي ويسمى خط القاضي، ولتدوين القانون يجب أن يمر بأربع مراحل هي: اتفاق الإمغارن، وحضور أحد شرفاء المنطقة كشاهد على الاتفاق، وتحرير القانون من طرف فقيه، ثم إبلاغ العامة بمضمون الوثيقة في السوق من طرف البراح. وتكتب القوانين على شكل نفي تقابله الغرامات من الجرم الخطير نزولا إلى الأقل خطورة، وتبقى جرائم السرقة نادرة ومحتقرة عكس جرائم القتل والثأر المنتشرة بأيث ورياغر على وجه الخصوص، ولم تنجح المجالس التمثيلية في الحد من جرائم الثأر لأنهم كانوا مشاركين فيها.[1228]

تتميز هذه القوانين بالصرامة، سواء كان الفعل متعمدا أو عرضيا، ونجد في قانون أيث عبذ الله مثلا، أن من اقترف جرم القتل داخل السوق يقتل فورا، وإذا هرب لقبيلة أخرى تفرض عليه غرامة 2000دورو، ويحرق بيته، وإذا كانت جريمة مشتركة يدفع كل الشركاء نفس الغرامة، وحددت غرامة الجرح في 1000دورو، وغرامة إطلاق النار دون إصابة المستهدف 500دورو، ومن أرغم أحدا بالقوة على استرجاع دين يغرم 50دورو، ونفس الغرامة يؤديها من هاجم شخصا في طريق السوق، و10 دورو لكل من تسبب في شجار، و65 دورو لكل من استل سكينا في السوق أو ضرب بحجارة أو شارك في ذلك. ونجد قانونا مختلفا نوعا ما بمدشر واونكورث بقسمة أشث عرو عيسى بقبيلة إگزناين، يحمل تاريخ 1914م، إذ نص على تقسيم الغرامات إلى ثلاثة أقساط يأخذ إمغارن حصتين وتوزع الثالثة على اجماعة. وتعتبر القوانين صارمة، إذ لا يطالب أحدا بالعفو أو تقليص الغرامة، ولا نلاحظ في القوانين أي قسم على القرآن أو في المسجد إلى حدود سنة 1917م، مثل ما لاحظنا أن هناك قبائل لا تتوفر على غرامات تخص السرقة، كقانون أيث عبد الله بأيث ورياغر مثلا.[1229]

جرت العادة أن تقدم ذبيحة في حالة بلوغ صلح بين طرفين دون اللجوء إلى القانون، وهناك بعض الاختلافات من حيث قيمة الغرامات من قسمة لأخرى ومن قبيلة لأخرى، وفي حالة خرق الصلح واقتراف جريمة القتل تفرض نفس الغرامة المحددة في المنطقة المعنية بخصوص هذه الجريمة، وهي 4000دورو في أيث ورياغر مثلا، ويحرص الورياغليون على تقسيم الغرامة على المعنيين بالتساوي[1230]. للحديث عن دور الضامن نشير إلى إحدى وثائق أيث توريرث التي لا تحمل أي تاريخ، والتي تتحدث عن إلزام سلالة أيث يحيي من أيث توزين بأداء غرامة «ارحق» قدرها 1000دورو لأيث بوخرف، وتطلب الوثيقة من ضامنهم موح نعمر أوزوكَاغ، أن ينوب عنهم في أداء الغرامة ماداموا عاجزين عن أدائها، وحددت الوثيقة

[1227]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص. 541-542.

[1228]- نفسه، ص. 543.

[1229] -*B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832,* Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. p. 26.

[1230]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 547.

خمسة عناصر من أيث بوخرف قبضوا 836دورو، والباقي عاد للضامن بمثابة عمولة على خدماته.[1231]

يورد هارت وثيقة ضمن مجموعة ثمارزگا بتاريخ 1912م، تحمل معلومات حول دفع سلالة أيث موسى أوعمر من أسرافير لغرامة "ارحق" لقتل أحد أعضائها لرجلين من سلالة تابعة لإگزناين، تقطن بين القبيلتين، والقتل تم قرب سوق سبت ثيزمورين بأيث توريرث، وكان مقدار الغرامة لا يتجاوز 200دورو، ولم تستطع سلالة ثمارزگا أداء "ارحق" وتنازلت عن الأرض الفاصلة بين القبيلتين لصالح مدشر إخوانن بإگزناين.[1232]

وللحديث عن خاصية ينفرد بها إمغارن قبيلة إگزناين بارتباط مع استخلاص الغرامات، نشير إلى وثيقة أخرى بتاريخ ماي 1908م، تتطرق إلى حالة قتل رجل من إبظارسن من قبل فرد من إگزناين، واجتمع أشث أربعين كل من القبيلتين، وتم الاتفاق على أداء دية لعائلة القتيل قدرها 280ريال، وأداء 12عضوا من أقارب الجاني القسم في ضريح سيدي علي بورقبة في أشث يونس بإگزناين يلتزمون بموجبه بدفع غرامة الحق للمجلس القبلي لإگزناين قدرها 200دورو ورأسين من الماعز وخمسة لترات من زيت الزيتون لأيث أربعين، واحتفظ المجلس بثلثي الغرامة وخصص الثلث الباقي لتنظيم مأدبة مشتركة لأعضاء المجلس، وهو ما لا يحدث في القبائل الأخرى.[1233]

تؤدى غرامة القصاص «ارقيساس» في الريف على حالات الجرح، التي تتغير حسب خطورة الجرح، فقد تصل إلى 1200دورو في حالة فقدان العين مثلا، ونورد مثال حالة تحطيم الأسنان في وسط الشرفاء العاديين، لضحيتين في إگزناين بمدشر أشث يونس المنتمي لقسمة سيدي علي بورقبة، الوثيقة الأولى بتاريخ 2ماي 1919م تتحدث عن تقديم الجاني 85ريال قصاصا، والثانية بتاريخ 13دجنبر 1919م، تشير إلى إلزام الجاني المنتمي إلى أشث عرو عيسى بإگزناين بتقديم 57ريال للضحية، وهذا نص الوثيقة الأولى:

«الحمد لله وحده، شاءت الأقدار الإلهية أن يحطم بيده محمد بن عمر نوحو البورقباوي اليونسي الكَزنائي أسنان علي بن عبد الرحمان بن سيدي احمد بن الحضري اليونسي، وقام سيدي عبد الرحمان بصفته نائبا على الابن المذكور بطلب القصاص وسوى الخلاف مع أخ الجاني البويحيي أحنوش بن عمر وعمه الفقير بوعزة بن أحمد بن بوعزة وشقيقه محمد أوحدّاش بن نوحو وأخيه يوسف بصفته نائبا عنه في هذه النازلة، حيث اتفقوا أن تؤدي هذه المجموعة خمسة وثمانين ريالا دراهم دفعوها وقبضها الأول. عرف قدره وشهد به عليهم في

[1231]-*B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832,* Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. p. 24.

[1232]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. 548.

[1233]- نفسه.

أوائل جمادى الأولى عام سبعة وثلاثين وثلاث مائة وألف، عبد ربه تعالى علي بن يوسف الرحوتي».[1234]

تتفاوت نسبة غرامة الدم المسماة بغرامة الدية المنتشرة في العالم الإسلامي من منطقة لأخرى، وتعادل دية الأنثى نصف دية الذكر، وإذ كانت حاملا تدفع فيها ديتان. ونسجل انتشار غرامة «ارحق» في كل من أيث يطفث وإبقوين وأيث عمارث وإگزناين، في حين تسمى الغرامة نفسها بكل من تمسمان وأيث توزين ب «رانصاف». وفي حالة العجز عن أداء الغرامة يتجه القاتل إلى قبيلة أخرى ويسمى«أظريب»، إذ يطلب حماية الأمغار في القبيلة التي لجأ إليها، وذلك بالاستجارة بزوجته «إستحورم» من خلال إجراء رمزي يتمثل في لمس يد الرحى، التي تعتبر من أملاك المرأة.[1235]

يعاقَب القاتل بالريف الأوسط بالقتل عكس الأعراف السارية في القبائل المغربية، وذلك لرفض عائلة القتيل لغرامة الدم وتشبثها بحقها في الثأر، هذا بالإضافة إلى غرامة مالية تقدم لمجلس القبيلة، وإذا حكم على المتهم بغرامة الدم وعجز عن دفعها يحرق منزله وتصادر ماشيته وتقطع أشجاره، ويقتل في حالة ما لم يلجأ هربا لقبيلة أخرى.[1236]

تتحدث وثيقتان أوردهما هارت، تحملان تاريخ 20مارس 1905 و9 10-أكتوبر 1862م، عن حالتين الأولى بواونكورث بأشث عرو عيسى، حصل فيها القاتل المأجور على مقدار من الفضة يعادل 60دورو، والثانية حصل فيها القاتل المأجور من إزكريثن على 300مثقال من أجل قتل رجل من إخووّانن، وهو ما يشهد بلجوء بعض السلالات إلى استئجار القتلة، خصوصا تلك التي لا تشارك عادة في النزاعات الدموية، كسلالة إزناگن بأيث توريرث مثلا، حيث اشتهرت بدفع «ذازطاط» لأعضاء من السلالات المعروفة بمشاركتها في نزاعات الأخذ بالثأر لتصفية أفراد من نفس سلالتها .[1237]

تحدد طبيعة الغرامات طريقة توزيعها، فالدية تسلم لعائلة القتيل، والقصاص للمتضرر، وغرامة السوق للمشاركين في السوق المعني، وغرامة القبيلة لأخماسها أو القسمات المشكلة لها، علما بأن من لا يشارك في النزاعات الدموية لا يستفيد من مثل هذه الغرامات. كما كان بعض الشرفاء ذوي الشأن ينأون عن قبض حصتهم الزهيدة على أي حال للحفظ على هيبتهم وبركتهم. لقد كان الشرع والعرف وحدة متكاملة في المجتمع[1238]، الريفي ولم يتعارضا، رغم تفضيل القبائل إتباع أعرافها، وبعد فترة محمد بن عبد الكريم الخطابي بدأ الشرع يسيطر مع إلغاء بعض الأعراف، وهناك بعض القبائل الريفية التي احتفظت بأعرافها مكتوبة، وكل فرقة

1234- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص. .550

1235- نفسه، صص. .553-552

1236-*B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832,* Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. p.38.

1237- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص.570-569

1238- يورد إيميليو بلانكو وثائق خاصة حول الأعراف الريفية الخاصة بقسمات قبيلة أيث ورياغر بيد "الطلبة" وممزوجة بأحكام الشرع. أنظر:

-B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832, Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939. p.39.

امتازت بأعرافها الخاصة التي سميت بـ«ارْحق»، تمر هذه الأعراف بمجموعة من الشروط بعد تدوينها، وتحقق الإجماع حولها بحضور عضو شريف، والإعلان عنها يتم بواسطة «براح» في الأسواق الأسبوعية.[1239]

كان الريفيون يؤدون القسم من أجل تبرئتهم من جريمة بسيطة بوجود شهود يتراوح عددهم ما بين 5 و11 حسب حجم التهمة و49 رجلا في حالة جريمة قتل خارج القبيلة، غير أن القبائل المغربية الناطقة بالعربية تؤدي القسم على القرآن، وحظي القسم عموما بأهمية بالغة في قبائل الريف، إذ يمكن أن يُبرئ الشخص أو يثبت أو ينفي عنه التهم.[1240]

وخضع الريف عامة والمنطقة الإسبانية خاصة لإصلاح المنظومة العرفية، إذ كان من الصعب أن يحصل الإجماع على شخص في الريف الأوسط، الأمر الذي تأتى لابن عبد الكريم الذي لم يلقب بلقب سيدي، بل الأمير، والسي في بعض الأحيان نظرا لمرتبته العلمية .[1241]

آمن ابن عبد الكريم أن الإصلاح لا يتم إلا عن طريق الإصلاح من الداخل عبر المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وتمكن من خلال فهمه البنيوي للبيئة الريفية من تطبيق الإصلاح، واقتلاع جذور الثأر بعد أن رفض الثأر من قاتل والده، وحول العداء كله ضد الخونة وعملاء الاستعمار، وأمر بإعدامهم فورا، وألغى القسم الجماعي الذي كان يعد نوعا من التآزر داخل السلالة نفسها أو القسمة، إذ أصبح القسم فرديا على القرآن، أي أصبح القسم شرعيا. ورغم أن زواج بن عبد الكريم كان حفاظا على نظام اللف لخدمة مصالحه، إلا أنه سرعان ما أعلن عداءه إليه لارتباطه بالثأر، وتجاوز فعلا هذا النظام بضمه لما يزيد عن 88قبيلة .[1242]

كان محمد بن عبد الكريم الخطابي عبارة عن نقلة في مجتمع الريف، استطاع أن يؤسس الريبوبليك ليضع حدا لفترة طويلة من التاريخ الريفي أو ما عرف محليا بالريفوبليك، والتي تعني تاريخيا الفترة ما قبل التهدئة، وتشير سوسيولوجيا إلى حالة من الانشقاق القبلي السياسيوالاجتماعي، وتعني أيضا حالة من الانشقاق الهامشي تجاه السلطة المركزية.[1243]

تعتبر قبيلة إگزناين الواقعة تحت سلطة إدارة الحماية الفرنسية، أكثر قبائل الريف الأوسط محافظة على النظم السياسية المحلية التقليدية، وأكثر تطبيقا للعرف الريفي، الأمر الذي أعادته التقارير الفرنسية إلى عدم بلوغ السيطرة الفعلية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي على هذه القبيلة[1244]. باعتبار أن ابن عبد الكريم الخطابي يشكل نقلة نوعية على المستوى السياسي

[1239]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. .200

[1240]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، صص. .23-22

[1241]- نفسه، صص.723-721

[1242]- دافيد مونتغمري هارت، »من الريفوبليك إلى الريبوبليك...، م.س.، ص. .54

[1243]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.1، ص. .47

[1244]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 9.

- رغم كسب تأييد إگزناين الواقعين تحت الحماية الفرنسية (حرب 1925م)، وكسب ود قبائل البرانس وتازة، عين ابن عبد الكريم كبار القبائل كقواد على رأس قسماتهم بشكل متساولكي لا يتعرض للمعارضة كعمر ن صديق من إحدوثن على قسمة أيث حذيفة، وموح أمزيان أوخياظ بأشث عرو عيسى بإگزناين مثلا. انظر:

والقانوني بالمنطقة الإسبانية التي لم تكن تعرف مفهوم القائد الكبير أو الزعيم على مستوى القبيلة، وكل ما يتذكره الريفيون قبل فترة ابن عبد الكريم هو إمغارن وأيتاربعين.[1245]

لم يعرف الشرع تجذرا بالمنطقة، وحاول عبد الكريم الخطابي نشره بين قبائل الريف، باعتباره جزءاً من الدين الإسلامي، وحكم القضاة به بعد نظام أشث أربعة في قبيلة إگزناين، غير أن العرف لم يعرف اندثارا كليا في هذه القبيلة[1246]. يعتبر بلانكو أن ابن عبد الكريم لم يغير تقليدانية المجتمع الريفي، إنما تحايل عليها وبنى فوقها تركيبة حربية بدل علاجها، وهو ما حاول بلانكو نفسه القيام به عبر تقسيم القبيلة إلى ثلاثة قيادات هي غيس والنكور ولوطا، أي روظا بالريفية. إذ أشكل عليه تعقيد البنية الورياغلية التي لا تختلف عن مثيلاتها في القبائل الريفية، ولم يدرك سر عدم التطابق الانقسامي والمجالي في هذه القبيلة، ولم يفهم كيف تتواجد نفس المجموعة في مجالات مختلفة، من قبيل إكتشومن وإصريحن وثماسينت[1247]. غير أن الزعيم الريفي حافظ على نفس البنية الانقسامية ونفس الزعامات تفاديا للنزاعات وبهدف خلق التوافق والانسجام خدمة لقضية المقاومة.

أملت الظروف الاجتماعية الخاصة بكل قبيلة في الريف وحتى بالنسبة للقسمات، نوعية القوانين العرفية التي سنتها لتدبير شؤونها الحياتية ونزاعاتها، وتعرضت هذه القوانين لتعديلات فرضتها المستجدات. هكذا طبع التشدد بعض القوانين مقارنة مع أخرى، فبلغت غرامة القتل أربعة آلاف دورو في بعض المناطق بدل ألف أو الفين، وألغت قبائل بند الإعدام في قوانينها، وسمحت قبائل بعودة القاتل إلى دياره بعد سنة من النفي، في حين حافظت أخرى على حق الأخذ بالثأر وتصفية القاتل.[1248]

بالإضافة إلى العرف الذي اعتمد كأساس لتنظيم الحياة الاجتماعية في الريف، تم توظيف الشرع المستمد من القرآن والسنة في مجالات محددة كالإرث والزواج والطلاق، وكانت العقود تحرر من طرف الفقهاء في الغالب وتحال على القضاة الشرعيين في حال تواجدهم. وكانت فاس بدءاً من القرن السابع عشر المقر الرئيسي لقاضي المنطقة، فيما استقر نائبه المعني بقبائل الريف الأوسط في قصبة اسناذة. وقد حرص الريفيون على المزاوجة بين الأعراف والقوانين الشرعية حفاظا على توازن المجتمع.[1249]

عمد سكان أيث توزين كباقي قبائل الريف إلى تطبيق الشرع الإسلامي في المجالات التي تسمح بذلك، غير أن العرف الأمازيغي ظل حاضرا بقوة، وشهدت هذه الأعراف تشددا

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، صص.734-733

[1245]- دايفيد مونتگومري هارت، القانون العرفي الريفي...، م.س.، ص. .60

[1246]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Le Chef de Bataillon Noix Chef du cercle du Haut-M'soun, Carnet-D'itinéraire A cheval Région de Tizi Ouzli, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 27 Janvier 1947, p.5.

[1247]- دايفيد مونتگومري هارت، القانون العرفي الريفي...، م.س.، صص.72-68

[1248]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. .207

[1249]- نفسه، صص. .209-208

بخصوص الزنى والتغرير بالنساء، حيث تتم تصفية الجاني، بالإضافة إلى الإخلال بالصلح أو عدم الالتزام ببنود الاتفاقات المبرمة بين العائلات أو القسمات.[1250]

احتكم السكان للقانون العرفي في أمورهم اليومية، واحتكموا إلى الشرع فيما يخص العقود، وصاغت كل مجموعة قبلية قوانين عرفية خاصة بها، غير أن أشد العقوبات طالت جرائم القتل والتطاول على حرمة النساء، ونلاحظ في الريف أن عقاب الاغتصاب والزنا هو القتل. وفي إطار التضامن يحق لأفراد الجماعة تطبيق الحد حيث أن عدم تطبيقه في حالة ثبوت الجنحة يعتبر إخلالا بواجب التضامن تجاه فرد أو جماعة من نفس المجموعة. وتعاقَب جنحة إحراق أو سرقة المحاصيل الزراعية بفرض غرامات مالية متفاوتة بين القبائل، لكنها تبقى خفيفة مقارنة مع غرامات القتل الثقيلة، سواء كانت دية تقدم لعائلة الضحية، أو ارْحق التي يستخلصها إمغارن. ومن وسائل تبرئة متهم بالقتل كانت تنتشر ظاهرة القسم الجماعي الذي يؤديه الشهود أو أقارب المتهم بالمسجد أو بالضريح الأقرب، إلى أن ألغى هذه الظاهرة محمد بن عبد الكريم الخطابي. ومن الأعراف السائدة لحل النزاعات ظاهرة العار التي تلجأ إليها عائلة الجاني عن طريق نحر ثور أو كبش أمام مسجد أو ضريح مقابل الصفح.وفي بعض مناطق الريف مثل قبيلة إگزناين يخصص جزء من غرامة الدم لوليمة يتقاسمها الجميع مع إمغارن.[1251]

من ضمن إصلاحات محمد بن عبد الكريم الرامية إلى إحلال القوانين الشرعية محل القوانين العرفية، إدخال مفهوم السجن الغائب كليا إلى حدود عهده، هكذا نص قانون بأشث عرو عيسى بإگزناين سنة 1925م حرر في مرحلة أوج ابن عبد الكريم ويخص غرامات سرقة الخضروات والفواكه، ومن ترك ماشيته ترعى ملك الغير، وقدرت ب دورو واحد وفرنك واحد، ومن امتنع يسجن لمدة 8أيام. ومن ضمن ما جاء في هذا القانون: «...لا شك في هذا، فالغرامات يجب أن تدفع، ويجب على الجميع أن يتبع ما سنه مولانا وما شرعه أهل الكتاب والسنة وما اتفق عليه المخزن فيما يخص حقوق أصحاب الأشجار المثمرة، على كل واحد أن يلتزم بحدود أراضيه ويتجنب انتهاك أملاك الغير. ومن لم يتقيد بهذه القوانين سيحبس لمدة ثمانية أيام، لقد سن هذا القانون من طرف العقلاء وأقره أهل العدل والاستقامة والسلام» الباشا القائد محمد أمزيان أخياظ ومحمد بن الحسن.[1252]

خضعت قبيلة إگزناين للشرع منذ زمن بعيد قبل التهدئة الفرنسية، وكان هناك قاضي على كل قسمة، وكان يحرر العقود في صغتها العتيقة ويبعث بها إلى فاس، وبعد الحماية لم يخضع النظام القضائي بالمنطقة لتحولات عميقة، حيث كان القاضي والعدول يقومان بواجبهما، وبكل

1250- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* por Ángelo Ghirelli, Monografía de la cabila de Beni Tuzin, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934, pp.60-61.

1251- أنخيلو گيريلي، إبقوين...، م.س.، ص. .108

1252- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص..747

قسمة عدول تحت مراقبة القاضي الذي يتولى أمور قبيلتي إگزناين وإبظارسن، حيث يجتمع المعنيون على رأس كل أسبوعين.[1253]

همت إصلاحات ابن عبد الكريم أيضا حلق خصلة الشعر الطويلة التي تسمى ثمزورث أو ثاعياشث أو ثجطويث حسب الانتماء القبلي، وقلص فترة حفل الزواج من سبعة إلى ثلاثة أيام، ومنعت الهدية «ثيوسي»، ومنعت مرافقات العروس من الرقص خلال نقلها لبيت زوجها، وأنهى عرف وضع رقوبث المصنوعة من أغصان الدالية على رأس العروس، وهي العادة التي تم إحياؤها بالريف الأوسط بعد ابن عبد الكريم، ولم تعد طلقات البنادق تعبيرا عن فرح الزفاف، كل هذه التغييرات وجهت من أجل توفير الذخيرة الحربية، ومنع الريفيون من التهليل في ساحة الحرب، وحرم تدخين الحشيش أو الكيف، وقرر بشأن جبالة إعدام كل شاذ جنسي.[1254]

سرّع ابن عبد الكريم من وتيرة تعريب وأسلمة الريف، عن طريق ترسيخ مبادئ الشريعة بدل القاعدة العرفية، وعن طريق تنظيم قوات الجيش وفق المعايير العربية والمخزن المغربي، وأحال كل الجرائم على القضاء الشرعي بدل الحكم العرفي، وجعل الشمال المغربي معربا ومأسلما عكس ما وقع في المناطق الفرنسية، وشملت إصلاحاته جل المؤسسات الاجتماعية الريفية، وجوانب الحياة الدينية والطقوسية، إذ أصبحت الصلاة إلزامية، وفرض الغرامة على النساء غير المصليات المتمثلة في دفع دجاجة، وحث الطوربة إلى حفظ القرآن وتعليمه بالمداشر، وصرف النظر عن مهنهم الإضافية المتمثلة في خياطة الجلابيب.[1255]

نخلص إلى أن التاريخ الحدثي بالريف الأوسط يتضمن تاريخا إشكاليا في العمق، مرتبطاً بالذاكرة الجماعية التي تحتاج إلى مقاربة تاريخية تخلصها من التضخيم الأسطوري، وإعادة إنتاجها على ضوء المصادر المكتوبة، والتي تكشف عن مجموعة من خبايا تاريخ الريف السياسي، خاصة فيما يخص الأدوار التي كانت له خلال تعاقب الدول على حكم المغرب.

قاربت المصادر الإخبارية الوضع السيادي للريف على مستوى الاستقلالية السياسية النسبية عن المخزن، بالإضافة إلى الدور الاجتماعي والسياسي الذي تولته الأنساق العتيقة المتمثلة في المجالس القبلية الساهرة على تنظيم الحياة العامة وتدبير الاختلاف بين قبائل الريف، بالإضافة إلى وجود مجموعة من الإشارات حول أشكال الحضور المخزني بهذه المنطقة، مع رصد مجموعة من ملامح التوتر التي طبعت العلاقة بين هامش الريف ومركز المخزن قبل وبعد الاستعمار الأجنبي، والتي تطلبت تمثيلية مخزنية متنوعة، من أجل فرض السيطرة واستخلاص الضرائب وتجنب الصراعات الدولية التي كان يثيرها الريف من خلال أعمال القرصنة والجهاد.

[1253]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947,p.11.

[1254]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص..748

[1255]- نفسه، ص. .747

الفصل الثامن

الريف الأوسط والأطماع الأجنبية

تفاعل الريف الأوسط في ظل الدولة المغربية مع كل ما مرت به من أحداث سياسية مصيرية، وكان له دور في إنتاج عدد مهم منها، إذ رغم ضيق مجال الريف جغرافيا، إلا أنه كان ذا وعي سياسي عميق، تمثل في تشبث الإنسان الريفي بأرضه والمحاربة ضد أي تدخل أجنبي يهدد البلاد منذ القرن السادس عشر إلى حدود فرض الحماية على المغرب.

كانت معالم التاريخ السياسي خلال فترة ما قبل الاستعمار بالريف الأوسط واضحة، وكانت للريف أدوار حاسمة، ومواقف واضحة، غير أن دوره في مرحلة ما بعد الاستعمار أصبح أكثر أهمية. فقد مر الريف بظروف استثنائية في ظل المضايقات المبكرة على السواحل الريفية، وتفاعل مع مجموعة من حيثيات السياسة الاستعمارية على المستوى الدولي شملتها السيرورة التاريخية، والتي حولته لمنطقة تجاذبها استعمار مزدوج. وقد تطلب استقراء هذه المعالم اعتماد المصادر التاريخية المكتوبة ورواسب الذاكرة الجماعية في بعض الجوانب التي لم تطلها الوثيقة المكتوبة.

تكمن أهمية الفصل في وضع إطار عام للتحولات التي طرأت على التنظيم السياسي داخل القبائل الريفية إثر تطبيق بنود معاهدة الحماية، والسياسة الاستعمارية التي اعتمدها المستعمر بهذه المنطقة، والكشف عن جذور الاستعمار الأجنبي بالريف الأوسط، وكيف تمكن من الكشف عن قوة اتحادية كامنة داخل كيان قبائله، استطاع من خلالها مواجهة قوى التحالف الاستعماري الفرنسية الإسبانية.

المبحث الأول: بداية التوغل الأجنبي بالريف

أولا: حيثيات السياسة الاستعمارية

قسمت معاهدة الحماية قبائل الريف الأوسط إلى قسمين، إذ أخضعت قبيلة إگزناين لإدارة الحماية الفرنسية وظلت القبائل الخمس، أيث ورياغر وثمسمان وأيث توزين وأيث عمارث وإبقوين تابعة للإدارة الإسبانية، وعرف هذان النمطان الاستعماريان تباينات على عدة مستويات.

يمكننا الحديث عن تغيرات الحدود الإدارية للريف خلال هذه الفترات التاريخية، وتحت ضغط الأحداث الداخلية والهجمات الخارجية[1256]، إذ أن التقسيم الاستعماري الذي فصل قبيلة إگزناين عن باقي قبائل الريف الأوسط خلق شرخا في الهوية، إلى أن أصبح البعض يعتبر هذه القبيلة غير منتمية إلى مجال الريف الأوسط، ورغم مقاومة الطرفين فإن المنافسة وعدم الانسجام كانا واضحين في كثير من مراحل فترة المقاومة.

سيرت إدارة الحماية الإسبانية الريف وفق تقسيم حاولت من خلاله فرض سلطتها السياسية، حيث حلت في أيث عمارث مثلا أربع قسمات إدارية محل القسمات الأصلية، وفي إگزناين أنشأ الفرنسيون سبع قسمات بدل خمس وهي: اجبارنة، وإشاوين، ومارار، وأشث محند، وأشث يونس، وأشث عرو عيسى، وأشث عاصم، القبيلة التي أخذت مبادرة قيادة حرب التحرير في الريف بفعالية أكبر، وتسلمت زمام الأمور خلال الخمسينيات.[1257]

خضعت قسمتا أشث يونس وأشث محند للحماية الفرنسية سنة 1925م، وذلك بعد بسط السيطرة على الشريط الممتد من بوعنقود وصولا إلى سيدي علي بورقبة وواد كرت، وشملت المحطة الثانية من بسط السيطرة على إگزناين سنة 1926م كل أجزاء أشث يونس، الأمر الذي لم ينطبق على قسمة أشث عرو عيسى التي عرفت اضطرابات مستمرة وانشقاقاً في ظل أوضاع حرب الريف، وناضل أهاليها ضد إسبانيا خلال سنة 1925م، وواجهوها خلال 1926م بمعية قبائل المنطقة الخليفية، وعقدوا مشاورات بإزكريثن خلال شهر ماي من نفس السنة وخضعوا للحماية الفرنسية تحت قيادة زعيمهم الحاج أخياظ.[1258]

[1256]- لحسن أغزادي (1989-1988)، **ابن عبد الكريم وحرب الريف 1921-1926م**، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية، فاس. ص. 72.

[1257]- دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة وتقديم وتعليق محمد أونيا -عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الرايس، نشر جمعية صوت الديموقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى، ج.2، صص..795-794

[1258]- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.8.

شكلت قبيلة إگزناين جزءًا من دائرة مسون بعد بسط السيطرة الفرنسية عليها، وكان مجالها تابعاً إداريا لمكتب أكنول الذي يجمع بين مركزي بورذوثيزي وسري اللذين تأسسا بتاريخ 8 فبراير م.[1259]1941

عينت إدارة الحماية الفرنسية السي بوطاهار في منصب المقدم على قسمة إشاوين وخليفة للعميد نيان Néantوفق ظهير 26يناير 1935 كما عينت في منصب الشيخ، بوشتى بن موحوش على أكنول، ومحمد بن عبد السلام على منطقة لوطا، وأحمد بن حموش بوتوياق على مرار، ومحمد نالحاج بقيش على إمزذورار، وعينت عبد السلام بن الحاج مزيان ومحمد بن مسعود شيخين على قسمة أشث عاصم.[1260]

أخذت كل من الحماية الفرنسية والإدارة الإسبانية على عاتقهما وظيفة المخزن المغربي بالريف بطريقة أكثر عنفا وسرعة، مع إحداث مؤسسات إضافية، أثبتت قوتها السياسية بشكل أكبر، ونهجت الإدارة الاستعمارية سياسة التقرب من القبائل، محاولة منها اختراق الحياة العامة للريفيين، والهيمنة على أراضيهم عن طريق إصدار قوانين التوثيق، والسيطرة على المنابع المائية وتبسيط طرق الري، وإرساء قاعدة المبادلات النقدية، من أجل تجديد بنية الاقتصاد وتحديث نمط الإنتاج وفق ما يخدم مصالحها، وتثبيت مرتكزات الدولة الحديثة، وهيكلة المجال الإيكولوجي عن طريق التشجير والاهتمام بالفلاحة العصرية، بالإضافة إلى تشييد الطرق والممرات لتسهيل استغلال المجال، وخلق القروض الصغرى للفلاحين، وتحويل الأسواق وإضافة بعضها.[1261]

لم يكن استعمار قبائل الريف من قبل السلطات الإسبانية ذا هدف نفعي قصده التقدم بمجتمع فقير "شبه إقطاعي"، خلافا للمنطقة الواقعة تحت سلطة فرنسا، وإنما هدفها الأساسي هو السيطرة على أراضيها. وكان الاعتقاد السائد في أوساط المتعاونين مع إسبانيا أن جهودها التمدينية ربما ستمنح الريف بعض أسس الاستقلال، ما دفع بأسرة الخطابي في البداية لمناصرة الإسبان اعتقادا منها أن هذا قد يجلب بعض منافع التقدم المفيدة للريف. وقد استفاد آل الخطابي من تعاونهم مع الإسبان، في شكل عطايا مالية سخية أو عبر حصول الابن الأصغر امحمد على منحة لمتابعة دراسته في شعبة هندسة المعادن بمدريد، ومنح الابن الأكبر محمد منصب شغل كرئيس التحرير للقسم العربي في جريدة تليغرامة الريف *El Telegrama del Rif* بمدينة مليلة، ومدرس اللغة العربية للضباط الإسبان، حيث نسج من خلالها علاقات وطيدة يمع

1259- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée premiere partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.8.

1260- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée premiere partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p. 9

1261- محمد أوحدو (2017)، **الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية نموذج قلعية**، منشورات زمن، سلسلة شرفات، العدد التاسع والثمانون، الرباط، ، ص..12.

البعض منهم. واستفادت الأسرة الخطابية من عملية بيع حقوق استخراج المعادن واستكشاف حقول البترول في أراضيها، لتستغلها فيما بعد لتمول الثورة ضد اسبانيا.[1262]

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الجنود الإسبان أثاروا الحديث عن الريف بحب، ووصفونه كما لو أنه امتداد لبلادهم بالقارة الإفريقية، ولا يتحدثون عن عدو بل عن صداقات نسجوها مع الإنسان الريفي الذي يصفون تعاسته ونبله وقدرته على مواجهة الصعاب، ما جعلهم يشعرون أنهم يملكون نقطاً مشتركة تجعلهم أقرب من بعضهم إلى السلطة الحاكمة.[1263]

لم يكن هناك تفاوت كبير بين المعمر والمستعمر خاصة على المستوى الاقتصادي، ما جعل المنطقة الإسبانية غير نامية أصلا، فإلى حدود 1955م أنجزت إدارة الحماية أقل من 1000كيلومتر من الطريق المعبدة بالشمال كله[1264]. كما لم تكن إسبانيا ذات القوة العسكرية المطلوبة والقادرة على الوقوف أمام المقاومة الريفية،رغم عدة محاولات إصلاحية طالت هذا الميدان، خاصة خلال فترة القيادة العسكرية لأودونيل[1265]O'Donnell. وكانت هزيمة أنوال بمثابة كشف عن مكامن ضعف السياسة الإسبانية وانعدام أخلاقيات المهنة داخل الميدان العسكري الإسباني.[1266]

كان لهزيمة إسبانيا في كوبا وقع كارثي على نظامها السياسي والعسكري، لذا سعت إلى استعادة هيبتها، واحتلت مباشرة بعد ذلك مناطق الفحص والريف والأنجرة، فيما احتلت فرنسا مدينة فاس. وقد دفعت الاضطرابات التي أحدثتها القبائل إسبانيا إلى تطبيق الفصل الثالث من الاتفاقية التي أبرمتها مع فرنسا بتاريخ 3أكتوبر 1903م بشأن تقسيم المغرب، والذي جاء فيه «...ففي حالة انعدام السلطة الشرعية بالمغرب أو في حالة عجز الحكومة المغربية عن مقاومة الفوضى والاضطرابات، فإنه يمكن لإسبانيا إطلاق يدها في المناطق الخاضعة لنفوذها»[1267]، وتعتبر أفكار مجموعة من الجنيرالات أمثال فرانكو Franco، وسانخورخو Sanjurjo، ومولا Mola، وگوديد Goded، وكيبيوذي يانوQueipo de Llano، الذين قادوا العساكر لاحتلال الريف عادية ويمينية بدائية.[1268]

خسرت إسبانيا الكثير في الريف من أجل ربح القليل، عكس فرنسا التي نمت بورجوازيتها بالمستعمرات، فالإسبان اكتفوا باستغلال بعض المناجم التي تحتاج لثروة بدورها للاستغلال وبعض الأراضي الضيقة، الأمر الذي أثار غضب الشعب الإسباني الذي تضيع ثروات بلاده

1262- سيباستيان بلفور (2016)، **العناق المميت من حرب الريف إلى الحرب الأهلية الإسبانية**، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، منشورات تيفراز، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص.ص..117-116

1263- Román Bayo Ayala (1907), *El combate en el Rif, Memoria escrita,* Capitán del Regimiento Infantería de Melilla núm. 59,por Disposición del Excmo. Sr. General Gobernador Militar de Melilla, p.11.

1264- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي ،...م.س.، ج. ،2ص..776

1265- ماريا روسا دي ماداريا‌غا (2006)، **مغاربة في خدمة فرانكو**، ترجمة: كنزة الغالي، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص.ص..20-19

1266- نفسه، ص. .33

1267- لحسن أغزادي، ابن عبد الكريم...، م. س.، ص. .62

1268- ماريا روسا ذي ماداريا‌غا، مغاربة في خدمة فرانكو...، م.س.، ص..30

من أجل خدمة مصالح بريطانيا المنافسة لفرنسا، وبعد التقسيم الفرنسي الإسباني للمغرب، حصلت إسبانيا على أفقر المناطق المغربية وفق اتفاقية 03أكتوبر 1903م.[1269]

احتلت إسبانيا نسبة 5%من مجمل مساحة البلاد، واكتفت بالمناطق غير النافعة، في حين كان لإدارة الحماية الفرنسية حق التصرف في مجمل المناطق الأخرى، ولم تكن في حصة إسبانيا سوى بعض المناجم الريفية التي تحتاج إلى ثروة من أجل استغلالها، بالإضافة إلى وجودها أمام فئة مقاومة لم يتمكن المغرب نفسه من إخضاعها في الكثير من الفترات التاريخية.[1270]

كانت الحماية الإسبانية مرنة وسهلة وأكثر ارتباطا بطبيعة حياة العامة، خلافا لما كان عليه الاستعمار الفرنسي، وطبع الهدوء المرحلة التي تلت الحرب الريفية باستثناء بعض الانتفاضات المحلية المتفرقة التي تعكس طريقة الحماية الإسبانية، ومحاولة تقربها من السكان، ما يدل على هامش الحرية الذي قدمته إسبانيا للريفيين، ليتسنى لهم استغلالها على الصعيدين الداخلي والخارجي، وأفرزت ظواهر متعددة، منها هجرة الريفيين نحو الجزائر جراء ضعف مراقبة الحدود، ولم تكن قبضة إسبانيا محكمة على الريفيين، رغم وضع بعض القواعد العسكرية المتفرقة، ومحاولة تجنيد الريفيين ضمنها، خاصة خلال مرحلة فرانكو الذي استفاد من الريفيين لكسب حربه الأهلية[1271]. وهذا دون أن نغفل أن النظامين الاستعماريين كانا على بينة من تأثير الزوايا على الساكنة، ما جعلهم يرغبون بقربهم واستمالتهم، خاصة بعض الزوايا التي كانت ذات وزن سياسي داخل الريف مثل الزاوية الخمليشية.[1272]

ساعد الجفاف الذي طال قبائل الريف القوات الإسبانية على التغلغل داخلها، إذ عمد كاسترو خيرونا Castro Girona إلى نهج نفس طريقة سيلبيستري في مساعدة القبائل المتضررة عن طريق توزيع بعض المواد كالقمح والشعير، إلا أنه كان أكثر ديبلوماسية وحذرا، وتوصل إلى استمالة الريسوني، قائد جبالة إلى جانبه سنة 1922م، إلا أن قبائل الريف الغربي انضمت إلى محمد بن عبد الكريم الخطابي وثارت ضده، كما تعرضت سياسة بريمو ذي ريبيرا في المغرب إلى الانتقاد من طرف الكولونيل فرانسيسكو فرانكو، وذلك من خلال مقال له صدر سنة 1924م بعنوان: «استسلام وجمود»، معتبرا أن سياسته تتلخص في الدفاع تاركا مجال مبادرة الهجوم دائما للعدو.[1273]

استمرت الحماية الإسبانية مع أسوء عام فلاحي عاشه الريف، أي موسم 1945-1946م، والذي شهد نزوح عائلات ريفية نحو المدن المغربية، خصوصا إلى مدينة طنجة التي استقبلت الآلاف

1269- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..24.

1270- Juan José López Barranco (2006), *El Rif en armas La narrativa española sobre la guerra de Marruecos*, MareNostrum, Madrid, p.15.

1271- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..36.

1272- محمد جحاح (2015)، **الزاوية بين القبيلة والدولة في التاريخ الاجتماعي والسياسي للزاوية الخمليشية بالريف**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ، ص. .335

1273- ماريا روسا دي ماداریاغا، مغاربة في خدمة فرانكو...، م.س.، صص..29-27

منهم[1274]، وسميت إقامتهم ب «الريفيين الجدد»، وعاد بعضهم إلى الريف بعد الأزمة التجارية التي حدثت بطنجة سنة 1951م. وعرفت منطقة أيث ورياغر إقالة مجموعة من القياد بعد شكوى الساكنة من سوء التدبير من بينهم حدو ن موح أمزيان الذي استبدل ب أحمد بودرة 1953م.[1275]

تعتبر التعديلات والتغييرات التي أقدمت عليها إدارة الحماية الفرنسية في الريف وجه آخر من أوجه الاختلاف بين الاستعمار الفرنسي والإسباني، مقابل البنية العتيقة التي حافظت عليها إسبانيا، رغم أن الريف بشقيه ظل عرضة للتهميش ولم يكن مشروع تحديث وتحسين.

لم تتضح معالم السياسة الاستعمارية الإسبانية في الريف الأوسط، إذ لم تغير من البنية التقليدية لقبائله، وأبقت على نظامها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، باستثناء الإصلاحات والتعديلات الإدارية التي قام بها إيميليو بلانكو، والتي مست أيث ورياغر فقط ما بين -1934 1935م، بالإضافة إلى محاولة التعديل الجادة التي قام بها رافاييل كارثيا باليينيو Rafael Garcia valiño، والتي شملت منطقة الحماية الإسبانية بأكملها، وخلقت مجالس القسمات وأدركت إسبانيا أن أساس الحياة الجماعية والقوة الداعمة للبنية السياسية القبلية هي القسمة، ما دفع بالإدارة الإسبانية إلى خلق 287مجلسا للقسمات Juntas defracciónسنة 1952م بدل نظام أيث أربعين، وتغير النظام الضريبي، إلى نظام قار خص عائدات بطاقات الهوية والأسواق والأراضي منذ 1953م.[1276]

غير محمد بن عبد الكريم الخطابي نمط عيش الريفيين وعدل الكثير من الفراغات السياسية، وأكمل الإسبان المهمة بعد نفيه، فيما استمر توسيع الهوة بين الناطقين بالأمازيغية والعربية في المناطق الخاضعة لفرنسا، الأمر الذي شمل قبيلة إگزناين التي كان أهاليها أول الثائرين وهاجموا المواقع الفرنسية الثلاث في بداية الخمسينات، لتتبدد الفكرة الزائفة لدى الفرنسيين والمتمثلة في أن الأمازيغ سيظلون أوفياء للحكم الذي أسسه الگلاوي.[1277]

حاولت إدارة الحماية الفرنسية إدخال تغييرات في قبيلة إگزناين في بعض المجالات، وكان من أهمها إحداث مدارس حديثة خلال سنة 1943م، بهدف تسجيل أبناء الأعيان فحسب، حيث بلغ عدد المسجلين بها في البداية اثني عشر تلميذا، قبل أن يصل هذا العدد بعد التعميم إلى ثلاثة وستين تلميذا، وعمل بها أساتذة متطوعون كانوا يتقاضون 500فرنك فقط.[1278]

1274- تجدر الإشارة إلى أن مدينة طنجة كانت الوجهة الأولى للريفيين خلال مرحلة الأزمات، وسعد الريفيون لاحتلال اسبانيا لطنجة الدولية 1940-1945م، المدينة التي طالما أحسوا أن انتماءها لمجال الريف، منذ أن دخلوها تحت إمرة السلطان اسماعيل 1684م، انظر:

- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ج.2، ص..799

1275- نفسه، ص..800

1276- نفسه، ص. .803

1277- نفسه، ص. .25

1278- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes,série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p. 13.

وقد اهتمت سلطات الحماية الفرنسية أيضا بوضعية ملكية الأراضي وفق الأعراف التي تفتقر للتوثيق بغرض تسهيل استغلالها، بالإضافة إلى الإصلاحات العرفية الاجتماعية التي رأت أن من شأنها تسهيل اختراق القبيلة[1279]. أما إسبانيا فقد اكتفت بإحصاء مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في المنطقة الخليفية، واهتمت بتوزيع ملكيات الأراضي التي اعتبرت ثلثها فقط صالحا للاستغلال.[1280]

ثانيا: التدخل الإسباني الفرنسي بالريف.

رغم اعتبار توقيع معاهدة الحماية هي البداية الفعلية للتدخل الفرنسي والإسباني بالمغرب عامة والريف الأوسط خاصة، إلا أن التمهيد للاحتلال انطلق منذ عهود سابقة، وبرر الإسبان إقدامهم على احتلال أجزاء من الشمال المغربي بالتهديدات التي تشكلها القرصنة الريفية وصناعة السفن، وكانت بادس المزود الرئيسي بالخشب للمراسي على الساحل المتوسطي. هكذا، سبق التخطيط للسيطرة الإسبانية على المنطقة منذ العهد الوطاسي والسعدي، ولم يكن دافعها الوحيد هو القرصنة الريفية ومحاربتها، بل الهدف الأساسي هو تعزيز الوجود الإسباني بمليلية وغساسة. ونظرا للموقع الاستراتيجي الذي كانت تحتله بادس بالنسبة لمالقة وفاس، وعملت غرناطة سنة 1508م على تأجيج حماس الإسبان بقيادة بيذرو نبارو Pedro Navarro لاحتلال جزيرة بادس، باعتبارها منفذا إلى مملكة فاس.[1281]

عمل الإسبان بعد احتلال هذه الجزيرة على تحصينها وبناء مرافق تسمح باستمرار تواجدهم بها، وصد هجومات الريفيين. ورغم المساحة الضيقة للصخرة، فإنها كانت تتوفر على أزقة وكنيسة وسجن ومخزن للأسلحة ومستشفى ومنزل للحاكم، وكانت المؤن تبعث من مالقة، بما في ذلك المياه الصالحة للشرب، نظرا لافتقار هذه الجزيرة للمنابع المائية، كما هو الحال بالنسبة لحجرة النكور. وقد اقتصر تواجد الإسبان على الجنود والسجناء وعدد محدود من المدنيين.[1282]

لم يقتصر الاحتلال الإسباني على صخرة بادس، إذ بعد السيطرة على الحصن في 23يوليوز 1508م، قامت بقصف مواقع الريفيين بواسطة المدفعية من السفن الحربية الراسية قبالة بادس، فاضطرت الحامية الريفية مغادرة المنطقة. حصنت إسبانيا المدينة بالأسوار والقلع ونصبت المدافع للدفاع عن الجزيرة من المجاهدين الريفيين. وحاولت بسط نفوذها على المناطق المجاورة لبادس، حسب معاهدة سنترا[1283]Sintra، غير أن الإسبان عجزوا عن التوغل داخل

[1279]- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Le Colonel Georges Chef du Territoire de Taza, Fiche N° 1522/2.0, Fiche de tribu Gzenaia, Cercle de Tainast, 17 Octobre 1952, p.23.

[1280]- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..70.

[1281]- عبد الرحمان الطيبي (2008)، **الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط ،1860-1912**منشورات تيفراز، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 43.

[1282]- إيلي دو لابريمودي (1999)، «المدن البحرية بالمغرب تجارة ملاحة وجغرافية مقارنة»، ترجمة عز الدين الخطابي، **حوليات الريف**، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 28.

[1283]- معاهدة سنترا Sintra: معاهدة موقعة بين البرتغال والإسبان سنة 1509م، أي سنة بعد احتلال بادس من طرف إسبانيا، وقد سطرت فيها الأهداف الأساسية من وراء احتلال الريف، بعد احتجاج البرتغال على احتلال بادس، بالرجوع إلى التقسيم الذي وضعه

البر الريفي نظرا لشراسة المقاومة الريفية التي دامت زهاء أربعة عشر سنة، وتوجت باسترجاع الصخرة ذاتها سنة 1522م، حيث تم ذلك باستخدام الحيلة. فبعد أن يئس قائد الحامية الإسبانية خوان ذي بييالوبوس Juan de Villalobosمن بادس وضواحيها، وبعد أن كشفت المقاومة مكامن ضعف هذا القائد، إذ قبل إغراءات أمير بادس المتعلقة بترويج العملة المزورة، مما مكن الريفيين من نقل أخبار عتادهم ومعداتهم، وعن طريق جندي إسباني حاقد على قائده، تمكن الأمير البادسي من الفتك بالقائد بييالوبوس والسيطرة على القلعة وما تحتويه من ذخيرة.[1284]

ظلت إسبانيا عازمة على استرجاع القلعة، وقامت بمحاولات فاشلة، كانت أهمها سنتي 1525م وسنة 1563م، إلى أن استرجعت الجزيرة سنة 1564م. وقد ساعد التنافس الوطاسي السعدي على التوغل الأجنبي بالمنطقة، وظهر الأتراك ضمن المتنافسين على احتلال الريف، وكانوا سند أبي حسون آخر ملوك الوطاسيين، الذي لم يستطع مقاومة المد السعدي في شمال المغرب. سيطر محمد الشيخ السعدي على فاس، ولجأ أبو حسون إلى بادس ثم إلى إسبانيا مستنجدا، بعد أن رفض علي أعراص[1285]، قائد حصن بادس استقباله سنة 1549م. وقد أثارت استعانة أبي حسون بالإسبان والبرتغال غضب السعديين الذين حاولوا جعل الأتراك إلى جانبهم لمواجهة الإسبان وأبي حسون. اعترف قائد حصن بادس بالدولة السعدية، لكنه رفض التنازل عن الحصن، إلى أن عينه محمد الشيخ قائدا على حوز بادس سنة 1552م، واستمر في هذا المنصب حتى سنة 1554م، حيث تمرد عليه سكان بادس واضطر لمغادرة الحصن. تمكن أبو حسون من استرجاع فاس بمساعدة الأتراك، مما سمح لهؤلاء باحتلال جزيرة بادس في نفس السنة، الأمر الذي شكل صدمة للسعديين والإسبان. وقد أصبح مرسى بادس بعد ذلك من أشهر مراكز القرصنة في البحر المتوسط. حاول الإسبان استرجاع جزيرة بادس بكل الوسائل، بما في ذلك الدخول في مفاوضات مع الحكام المغاربة، كما فعل كارلوس الخامس مع محمد الشيخ السعدي سنة 1556م، لكن هذه المفاوضات لم تفض إلى النتائج المرجوة نظرا للشروط الإسبانية المجحفة، حيث كانت ترغب في الحصول على جميع المراسي الريفية الصالحة لإيواء السفن مقابل مد السعديين بالعتاد الحربي ووسائل الدفاع .[1286]

وجب ذكر أهم الهجمات الأجنبية على الريف الشرقي التي ساهمت في السيطرة الإسبانية الفعلية على الريف واجتماع كلمة المقاومة، وردود فعل المقاومة الريفية من أجل استرجاعها، خاصة الصراع الذي دار بين الريف وإسبانيا حول مليلة سنة 1563م و1697م، حوصرت خلالهما المدينة عدة أشهر، عانى خلالها الإسبان جراء الهجمات الريفية. فلم تتوقف هذه الهجمات خلال السنين اللاحقة، إذ تلتها سلسلة من الحصارات، خاصة من جبل أكركور، الذي

البابا الاسكندر السادس بين الدولتين سنة 1494م الذي يعتبر بادس ضمن نفوذ مملكة فاس التي هي من نصيب البرتغال. وقد رد الملك الإسباني بأن بادس لم تكن واضحة في التقسيم، والهدف وراء احتلالها هو إيقاف القرصنة الريفية، ما أدى إلى عقد معاهدة سنترا لتجديد الاتفاق بين الطرفين للسواحل الريفية. انظر:

- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 42.

[1284]- نفسه، ص. 44.

[1285]- عائلة أعراص من أصل صنهاجي كان أعضاء منها قد عبروا إلى الأندلس ثم عادوا إلى بادس، واشتهروا بالجهاد البحري، وكسبوا من التجارة، وأصبحوا يمتلكون أراضي شاسعة في قبائل الريف. انظر:

- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 75.

[1286]- نفسه، صص..46-44

أصبح يحمل اسم گوروگو، المرتفع الاستراتيجي الذي يطل على مليلة، ويسمح للريفيين بمراقبة تحركات الإسبان. وقد أدى هذا الجبل دورا عسكريا محوريا وشهد ملاحم حفظتها ذاكرة المقاومين وذاكرة المكان ضد جنود الإسبان.كان حصار 1775م الأطول والأشد وطأة على الإسبان، وتلته هجمات أخرى سنوات 1858م-1859م-1860م-1890م-1893م. وقد شهدت هذه السنة الأخيرة معارك ضارية على إثر انتهاك الإسبان حرمة ضريح سيدي ورياش، وسميت هذه المعارك باسم هذا الولي. وقد قتل خلالها حاكم مليلة الجنرال مارگايو Margallo وعدد من الضباط. وضعت هزائم الإسبان أمام القلعيين خلال هذه المعارك حكومة ماورا Maura في موقف حرج، وعارض الرأي العام الحرب الإسبانية ضد الريف، واستمرت إسبانيا في مضايقة السواحل الريفية حفظا للمصالح البريطانية بالحوض المتوسط، ولاستغلال خيرات الريف.[1287]

كانت فترة القيادة العسكرية لأودونيل O'Donnellما بين 1858-1866مرحلة توسع واستعمار بامتياز، إذ حظي الجيش بأهمية قصوى وارتفع عدد العسكريين واستفاد الضباط من الترقيات والامتيازات والألقاب النبيلة. وقد أفرزت حرب تطوان مثلا، أحد عشر ماريشالا، وسبعة وعشرين جنرالا، بالإضافة إلى مناصب أخرى، الأمر الذي اعتبر مسكناً لآلام الانقلابات والحروب الأهلية التي عرفتها إسبانيا، غير أنها لم تكتس الطابع التوسعي بامتياز، مما أدى إلى قيام موجة أخرى من الانتفاضات تم تنحية على إثرها الملك ألفونسو الثاني عشر عن العرش سنة 1874م.[1288]

شهد التدخل الاستعماري الإسباني في الريف محطات رئيسة، تمثلت أولاها في حرب تطوان 1859-1860م، رغم أن الصراع الريفي الإسباني كان قد بدأ قبل هذا التاريخ. وتميزت الثانية بالصراع حول مليلة والريف الشرقي، وذلك خلال معارك سيدي ورياش سنة 1893م، ومقاومة الشريف محمد أمزيان ما بين 1909 و1912م[1289] . أما الثالثة فترتبط بمعارك أنوال وما تلاها مع مقاومة محمد بن عبد الكريم.[1290]

يعد اتصال أعيان قبيلة إمزوجن بالحاكم العسكري لمليلة الجنرال مارگايو، للتعبير عن رفضهم إدخال ضريح سيدي ورياش والمقبرة المحيطة به ضمن مجال مليلة ومطالبين إياه بالابتعاد عن هذا الفضاء المقدس، حدثا ذا أهمية في توتير العلاقة الإسبانية الريفية. وقد دافع الريفيون عن أنفسهم وفضائهم هذا في البداية بوسائل سلمية لوعيهم بعدم التكافؤ بين الجيشين، وكتبوا ملتمسا إلى ملكة إسبانيا Doña María Cristina De Asturias، يطلبون منها أن تحول دون تشييد سور يشمل الضريح، لكن الملكة سلمت الأمر لجنرال مليلة وأعطته حق التصرف، فأرسل من يبدأ أشغال تشييد السور، تحت حراسة كتيبة من الجنود سنة 1893م. كما بعثت السلطات الإسبانية رسالة إلى المخزن المغربي تؤكد على وجوب معاقبة الريفيين المعيقين لأشغال البناء، وأرسلت رسائل أخرى للدول الأجنبية لاطلاع الرأي العام حول واقع الحدود

[1287]- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..22.

[1288]- ماريا روسا دي ماداریاغا، مغاربة في خدمة فرانكو...، م.س.، ص. ص..20-19

[1289]- Juan José López Barranco, *La guerra …*, Op.cit, p. 170.

[1290]- Ibid., p. 233.

بفرخانة. ورغم نزوع الريفيين نحو السلم اختارت إسبانيا التصعيد، وقام الفرخانيون بدور الوسيط بين الإسبان وقبائل قلعية الجبلية، نظرا لمجاورة فرخانة لمليلة وبُعد القبائل القلعية الجبلية عن هذه المدينة.[1291]

بلغ خبر هزيمة الجيش الإسباني في موقعة سيدي ورياش إلى الحكومة بمدريد، فقررت الانتقام من قبائل قلعية عبر إرسال قوات إضافية لمليلة خلال يومي 27 و28 أكتوبر 1893م. حاول الإسبان استئناف بناء الحصن، وقتل على إثر هذا الإصرار الحاكم العسكري لمليلة، بينما كان يتفقد حفر الخنادق في حصن Cabrerizas Altas، علما بأن الحصون كانت محاصرة من قبل المقاومين الريفيين.[1292]

استمرت إسبانيا في عدائها للقبائل الريفية المحيطة بمليلة التي شاركت في هذه المعارك، إلى أن وقعت اتفاقية بين الطرفين بتاريخ 5مارس 1894م، وانتهت المواجهات بتدخل المخزن المغربي وتعويض الإسبان. لكن رغم هذا أرسل الإسبان قوات عسكرية للثأر لموت الجنرال مارگايو، تحت إمرة الجنرال مارتينيث كامبوس Martínez Camposالذي طالب بإعدام ميمون المختار وعلي الروبيو، وشيخ الزاوية الدرقاوية، باعتبارهم زعماء المعركة. وتعرضت قبائل قلعية لحملة تأديبية في ظل ه\ه الظرفية التاريخية[1293]. ورغم أهمية هذه المعركة؛ باعتبارها أول مؤشر على البداية الفعلية للاستعمار الإسباني بالمغرب، وشهدت وفاة العديد من الجنود والضباط الإسبان، بمن فيهم حاكم مليلية نفسه الجنرال مارگايو، إلا أنها كانت في الواقع مجرد مناوشات مع بعض رجال الريف.[1294]

استأنفت إسبانيا توسعها بالمغرب سنة 1908م بضمها جزيرة «بوقانة»، ومنطقة البرج «رأس الماء» بقبائل كبدانة دون أي رد من قبل الزرهوني، وكان هذا التواطؤ مع المستعمر أحد أسباب معاداة الريفيين له وطرده من قصبة سلوان حيث كان يقيم، وينتهي أمره سريعا بعد ذلك.[1295]

اعتبر الجيش الإسباني منذ سنة 1909م المغرب مجالا جديدا للجيش لكي يستعيد أمجاده الضائعة خلال حرب كوبا، وتجاوز مجموعة من خروقات الفساد التي طالت الميدان العسكري، إذ حاول تيار من الجيل العسكري الجديد المتخرج سنة 1908م تطهير هذه الممارسات. فتم إنشاء «مجالس الدفاع» سنة 1917م، بينما استمر تيار آخر في الجيش في الطموح إلى تسلق المناصب والترقيات دون عناء.كان أغلب هؤلاء ينشطون في المغرب وسيشكلون فيما بعد ما يطلق عليهم العسكريون الأفريقانيون[1296]. لم تتحسن أحوال الجيش

[1291]- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..42.

[1292]- Juan José López Barranco, *La guerra* …, Op.cit, p. 170.

[1293]- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..47.

[1294]- ماريا روسا ذي ماداریاغا، مغاربة في خدمة فرانكو...، م.س.، ص..20.

[1295]- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..49.

[1296]- ظهرت هذه الفئة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ومن أبرز روادها خواكين كوستا Joaquín Costa، وكان يدعو إلى التغلغل السلمي بالمغرب بالاعتماد على الاستعمار الثقافي والاقتصادي دون اللجوء إلى الحرب، وتكاثر عدد أفراد هذه الفئة بعد توقيع الحماية سنة 1912.ورغم ادعائهم بأنهم يدرسون ثقافة المجتمع الريفي إلا أن أغلبهم اتصف بالجهل، باستثناء عدد قليل نذكر منهم إميليو بلانكو إيثاگا Emilio Blanco Izagaالذي أقام بالريف نحو عقدين من الزمن، إذ شغل منصب المراقب العسكري وانكب في

الإسباني، وكشفت هزيمة أنوال سنة 1921م كل مساوئه، مما دعا إلى ضرورة إخضاعه لإصلاح جذري.[1297]

تنافس الجنرالات لاحتلال الريف، حيث توغل الجنرال بيرينگر Berenguerفي الريف الغربي وضيق الخناق على مقاومة الريسوني، بالمقابل قام سيلبيستري Silvestreبالهجوم من مليلة على قبيلة أيث ورياغر، واحتلال دار الدريوش خلال شهر ماي سنة 1920م، ثم تفرسيت في غشت من نفس العام، وتوجه نحو أنوال بتاريخ 15ماي 1921م، وعبر نهر أمقران ليتقدم إلى ادهار أوباران يوم 31ماي ويشعل شرارة المقاومة، حيث شهد هذا المرتفع في اليوم الموالي أولى معارك أنوال، تلاها حصار سيدي إبراهيم، ثم بالخصوص حصار موقع إغريبن الذي يعتبر فشل الإسبان في الحفاظ عليه السبب الرئيسي لسقوط مركز أنوال يوم 21يوليوز وموت سيلبيستري. ما جعل المقاومون يحاصرون موقع إغريبن ويستعيدون أنوال يوم 21 يوليوز ما دفع بسيلبيستري إلى الانتحار .[1298]

لم يتم الإعداد من جانب الريفيين لخوض معركة ثفرسيث، إذ توجه المجاهدون لقطع التوريد، أي منع الإسبان من التزود بالماء، كعادتهم في كل المعارك السابقة، والتقوا مع الجنود الإسبان فانطلقت المواجهة التي دامت عدة أيام، استعمل خلالها الإسبان القنابل السامة بواسطة المدفعية،[1299] علما بأن القصف الجوي بالأسلحة الكيماوية سيبدأ في أمزاورو في ثمسمان، ثم ثيزي عزّا.[1300]

أمام الانتصارات الريفية المتتالية طالب بعض أعضاء البرلمان الإسباني، باستعمال الغازات الكيماوية منذ شتنبر 1921، كما دعا بعض المغاربة أنفسهم الإسبان إلى استعمال القصف الجوي لردع المقاومة الريفية، كما فعل مزيان الطيب Mizzian el bueno، كما يسميه الإسبان، وهو أب المارشال أمزيان، تمييزا له عن الشريف أمزيان قائد المقاومة الريفية -1909 1912م[1301]، والريسوني قبيل اندحاره أمام قوات ابن عبد الكريم.[1302]

وحصلت إسبانيا على غاز الخردل القاتل من ألمانيا التي ساعدتها أيضا على إنتاج كميات كبيرة منه في إسبانيا والريف، وهو الذي استعملته بكثافة خلال الحرب الريفية.[1303]

نفس الوقت على دراسة البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الريفي، وشكل مصدرا للأنثروبولوجي دايفيد مونتگومري هارت فيما بعد. ينظر:

- ماريا روسا ذي ماداریاغا، مغاربة في خدمة فرانكو...، م.س.، صص..27-25

1297- نفسه، ص..21

1298- مصطفى المرون (2016)، **التاريخ السري للحرب الكيماوية ضد منطقة الريف وجبالة** ،1927-1921 دار القلم، الطبعة الأولى، الرباط، ص..33

1299- محمد بن عبد الكريم الخطابي(2017)، **مذكرات لاريونيون**، تحقيق تعليق وتقديم: عبد المجيد عزوزي-محمد أونيا، عبد الحميد الرايس-جمال أمزيان، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، ص..100

1300- سيباستيان بلفور، العناق المميت...، م.س.، ص. .304

1301- مصطفى المرون، التاريخ السري للحرب الكيماوية...، م.س.، ص..36

1302- سيباستيان بلفور، العناق المميت...، م.س.، ص. .219

1303- نفسه، صص.295-292 .

تم الاتفاق على استعمال الغازات السامة مباشرة بعد حرب أنوال، غير أن تطبيق ذلك لم يتم نظرا للظرفية التاريخية التي تلت الحرب العالمية الأولى، والتي حرمت استعمال الغازات السامة مجددا، تريثت إلى أن زودتها ألمانيا وفرنسا بالعتاد، حيث راسل القايد حدو بن حمو إلى محمد بن عبد الكريم الخطابي يخبره بوصول باخرة فرنسية تحمل الغازات السامة إلى مليلة لصالح الإسبان، وطالبه باستيراد الأقنعة المضادة للغازات الكيماوية، وإطلاق الأسرى الإسبان درءا لقصف الريف بالغازات السامة، بتاريخ 16يونيو 1922م.[1304]

شرع الإسبان في تعبئة القذائف بالغازات السامة إلى أن بلغوا 1000قذيفة بتاريخ 14يوليوز م[1305]1922، أمر المخزن المجاهدين بالاستعداد، لأن القصف بالغازات السامة قريب، وبعث لهم بالزاد إلى تيزي عزة، وفي نفس اليوم قصفهم جيش الإسبان بغاز خانق أعمى أبصارهم.[1306]

تدخلت كل من فرنسا وأمريكا وألمانيا، وساعدت إسبانيا في القصف الجوي وتطبيق الإنزال بخليج مليلة، الأمر الذي أوضح أن القوانين الدولية التي حرمت استعمال الغازات السامة حبر على ورق، وهي سبب نداءات محمد بن عبد الكريم الخطابي حول التواطؤ الدولي المكشوف.[1307]

عانى الريفيون من وقع الغازات السامة المستعملة من قبل الإسبان، التي هدفت إلى إبادة الإنسان والحيوان والنبات، والتي استعملوا فيها مواد فتاكة، دفعت الريفيين إلى الاستعانة باليهود العارفين بتهيئة المفرقعات اليدوية والكي عليها بالقصدير والرصاص المذاب، وكانت لهذه الغازات نتائج بعيدة المدى حيث رفعت من نسبة مرضى السرطان والأمراض التنفسية.[1308]

دأبت إسبانيا على اتهام الريف بمعاملة أسرى الحرب معاملة سيئة، غير أن ابن عبد الكريم نفسه صرح أن الريفيين كانوا يطعمون الأسرى مما يأكلون، ولم يسيئوا معاملتهم، ودفعت إسبانيا فدية 4ملايين بسيطة مقابل إطلاق سراحهم يوم 28يناير 1923م.[1309]

انطلقت المباحثات بشكل رسمي يوم 17يونيو إلى غاية 25يوليوز 1925م، وكثفت فرنسا الجهود مع إسبانيا للقضاء على المقاومة الريفية، من خلال منع تهريب الأسلحة نحو الريف، في أفق صلح محتمل مع الريفيين من خلال منحهم استقلالا ذاتيا وفق المعاهدات الدولية والعفو عن «المتمردين»، مقابل تراجعهم عن المنطقة الفرنسية، والسماح لإسبانيا باحتلال خليج

1304- *M.A.E.E., Série D.A., Direction des Archives,* Courneuve(Paris), La Correspondance Politique et Commerciale, série M.Maroc 1917-1940, Volume 111-112, Lettre du Caïd Haddou Ben Hammou à Mohammed Ibn Abdelkrim du 31 août 1921.

1305- *Servicio Histórico Militar,* Legajo 302, Carpeta n°7. p.1.

1306- اليعقوبي، الأخبار الريفية في الحروب الاصبانية، مخطوط بالخزانة الوطنية18 ، جمادى الثانية عام 1347 هـ الموافق لـ 2 دجنبر 1928م.

1307- مصطفى المرون، التاريخ السري للحرب الكيماوية...، م.س.، ص..110

1308- نفسه، ص..154

1309- محمد بن عبد الكريم الخطابي، مذكرات لاريونيون...، م.س.، ص..113

الحسيمة والسهل المرافق له، وتبادل جميع الأسرى، وإنشاء شرطة أهلية تعنى بضبط انتشار الأسلحة، غير أن الريفيين لم يوافقوا على هذه الشروط.[1310]

تقوت إسبانيا بدعم من فرنسا، وقامت بعملية الإنزال المعروفة في شاطئ إجذاينيوم 8شتنبر 1925م، واحتلت العابد «ارعابث» وسهل أجذير. وقد دام الاستعداد لهذا الإنزال ستة أشهر، واتضح زيف الأقوال التي تقول أن الريفيين كانوا مدعومين من قبل السوفيات، والألمان، والعالم الإسلامي، وكذا الإنجليز والإيطاليين والاشتراكيين الفرنسيين، واستمرت الحماية والسيطرة الإسبانية-الفرنسية على الريف الأوسط، وبعد مرحلة المقاومة الممتدة ما بين -1921 1926م، بدأت أنواع أخرى من الانتهاكات أهمها تجنيد المغاربة عامة، والريفيين خاصة لخوض الحرب الأهلية الإسبانية -19391936م.[1311]

انطلقت الحرب الأهلية الإسبانية من شمال المغرب بقيادة فرانكو ضد النظام الجمهوري الاشتراكي، وتم تجنيد الريفيين بمختلف الوسائل التآمرية، الأمر الذي اعتبره عبد الخالق الطريس والمكي الناصري، حبا من الريفيين للدين ضد الشيوعيين، ولم يكن تجنيدهم لمحاربة الفقر، إنما انتقاما من فرنسا[1312]، وربحا للوطنية المغربية[1313]. ورغم أن القائدين استفادا من الحركة الفرنكوية، إلا أن إيراد آرائهما أمر لا بد منه، والواقع أن كبار القواد (منهم أحمد الرهوني التطواني) بالمنطقة الإسبانية هم من عملوا على إرسال المجندين للحرب باتفاق مع فرانكو.[1314]

جندت إدارة الحماية الإسبانية حوالي أربعين ألف رجل تابع للمنطقة الخليفية بدءاً من يوم 18 يوليوز 1936م، سبعة عشر ألف كانت وفق التجنيد الإجباري، وبموجب ظهير شريف 18 نونبر 1936م خصص مندوب شؤون الأهالي 3.328.838 بسيطة، لإنشاء محلات خليفية جديدة وتقوية الفرق الموجودة، وإضافة عشرين رجل في كل مجموعة، وإنشاء جهاز قوات متنقلة من الرماة الريفيين والقوات المساعدة برئاسة القياد.[1315]

تمخض عن الحرب الأهلية التي دارت رحاها ما بين -19391936م حوالي 165000قتيل مغربي، و1700 مفقود، و 5300موتى نتيجة الجروح، و 4500معطوب، و 39125مجروح، و26500 عائد من الحرب، و26000 ظلوا في صفوف الجنود بعد الحرب، في المجموع 268152جندي، وشكل التابعون للاستعمار الإسباني نسبة 26%من أصل 46%مغربي.[1316]

[1310]- Richard Pennell (1986), «A Country with a Government and a flag», *The Rif War in Morocco 1921-1926,* , p.198. 196-226.

[1311]- محمد بن عبد الكريم الخطابي، مذكرات لاريونيون...، م.س.، ص..120

[1312] -جريدة الحرية، تطوان، العدد، .2/4/1939

[1313]-جريدة الوحدة المغربية، عدد .8/3/1939

[1314]- أحمد الرهوني (1937)، **الرحلة المكية،** منشورات معهد الجنرال فرانكو، تطوان، ص. .213

[1315]- ماريا روسا دي ماداريغا، مغاربة في خدمة فرانكو...، م.س.، ص..109

[1316]- مصطفى الغديري (2009)، »مشاركة أبناء الريف في الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939م من خلال الشعر الأمازيغي بالريف ،« **الريف موضوعات وقضايا،** الطبعة الأولى، وجدة، ص. .57

يمكننا القول أن الاستعمارين الفرنسي-الإسباني بالريف كانت لهما استراتيجيات ومخططات كبحتها المقاومة، ما جعله يمارس مجموعة من التجاوزات التي تتنافى والمواثيق الدولية، تمثل أهمها في استعمال الأسلحة المحظورة دوليا منذ 1921م، واعتبار الريف مختبر تجارب للقوى الاستعمارية، بالإضافة إلى استغلال فرانكو الطاقة البشرية بالريف لكسب الحرب الأهلية الإسبانية -19391936م.[1317]

المبحث الثاني: المقاومة الريفية للاستعمار الأجنبي

أولا: اتحاد قبائل الريف ضد المستعمر

تميزت قبائل الريف بطابعها الحربي منذ القدم واحترافيتها في استعمال الأسلحة، وتمتعوا بالقوة والعزيمة[1318]، وكان أهل بطوية من أقوى المحاربين ضمن أهالي غمارة، قبل أن تمتلئ المنطقة بسلالات صنهاجية[1319]. فاتحدت قبائل الريف من أجل الحفاظ على قوتها وتماسكها وتجنب السيطرة الأوروبية[1320]. التحق الريفيون بالمحلة المخزنية، نظرا لأن الدفاع ضد الأجنبي كان من خصوصية المنطقة، غير أن المجاهدين سجلوا نوعا من التأخير الراجع إلى توقف الشريف أخمريش لحل نزاع بين قبيلتين ناتج عن نشوب صراع داخلي، بالإضافة إلى عدم توفر المؤن لبعض القبائل، ما أدى إلى تأخر الشريف محمد أخمريش الذي تلقى الأمر السلطاني بجمع مجاهدين من الريف، ووصولهم بعد توقف حرب تطوان وتوقيع المخزن المغربي على اتفاقية الصلح، بما يرضي الاسبان.[1321]

كانت معركة سيدي ورياش التي هزم فيها القلعيون إسبانيا بداية لمواجهة حقيقية مع الإسبان، إلى جانب حرب تطوان التي شارك فيها أزيد من 2500محارب ريفي[1322]، وتعد مواجهة الأجنبي أهم فترات الاتحاد بين قبائل الريف والمخزن، الذي كانت له تمثيليات داخلها خاصة ما بين -19001835م، ونذكر من بين ممثلي المخزن في الريف القائد السي زيان على عهد السلطان المولى الحسن، والقائد بن عبد القادر أگناو والقائد موش والقائد محند نحدو والقائد بوبكر والقائد عمر نمحند على عهد السلطان المولى عبد العزيز، وكل هؤلاء حفظتهم الذاكرة الجماعية بالريف، وحفظت دعوتهم للريفيين للجهاد ضد المد الأجنبي.[1323]

[1317]- ماريا روسا دي ماداریاغا، مغاربة في خدمة فرانكو...، م.س.، ص..109

[1318]- *B.N.E.A.H., H.2284094,* El combate en el Rif Memoria escrita, por Disposición del Excmo. Por Sr. General Gobernador Militar de Melilla, por Román Bayo Ayala Capitán del Regimiento Infantería de Melilla número 59, 1907. p.11.

[1319]- أنخيلو گيريلي (2017)، **إبقوين قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، ص. 12.

[1320]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر ...، م. س.، ج.2، ص. 678.

[1321]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. .331

[1322]- عبد الرحمان بن زيدان (1931)، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الرباط، ج.3، صص..430-429

[1323]- يؤكد هذه الرواية مجموعة من المخبرين منهم المساوي حمادي من قبيلة أيث ورياغر. ينظر:
- أحمد سراج (2017)، **آيت ورياغل التاريخ، المؤسسات، العلاقات مع السلطة**، منشورات ملتقى الطرق، الدار البيضاء، صص.-126 127.

وصل الجيلالي الزرهوني إلى الريف الشرقي سنة 1902م، خلال هذه الظرفية، مستغلا ضعف المخزن المغربي، وادعى أنه مولاي امحمد بن المولى الحسن، الوريث الشرعي للعرش، واستقر بقصبة سلوان باعتبارها عاصمة له. وقد كشف أمره الشريف أمزيان الذي كان يتمتع بمكانة لدى القبائل الريفية، وفضح تواطؤه مع الأجانب، وصفقاته التي استهدفت مناجم الريف.[1324]

لقي الزرهوني حتفه سنة 1909م، بعد اعتلاء السلطان عبد الحفيظ العرش، غير أن الإسبان ظلوا متشبثين بالصفقات التي وقعت مع هذا الثائر التي تجيز استغلال مناجم الحديد في الريف، فقاموا بتشييد خط السكة الحديدية بين مليلة وجبل إكسان لتصدير المعادن بسهولة إلى إسبانيا، وقاوم القلعيون هذه الأشغال بقيادة الشريف أمزيان.[1325]

عرفت قبائل الريف الشرقي نوعين من المواجهات، أولهما أمام الجيش الإسباني، بالإضافة إلى مواجهة مخطط الجيلالي الزرهوني[1326]، الذي كان يشكل خطرا حقيقيا على قبائل الريف، خاصة بعد أن هزم جيش السلطان المولى عبد العزيز سنة 1902م، وحاول بسط سيطرته على كل من قبيلة أيث ورياغر وإگزناين، قبل أن يتجه إلى قصبة سلوان.[1327]

بقيت صفحات تاريخ إگزناين فارغة إلى حدود احتلالها من قبل الجيلالي الزرهوني الذي بلغ منها مسون في قسمة روظا، وولى عليها القياد التابعين له وهم محمد ولد علال، والمذبوح، وموحوش قهوي، وبوحود العاصمي، وعلال نحدو. وبعد تصفية الجيلالي الزرهوني ومناصريه، وجد عبد المالك محيي الدين القبيلة على حالها سنة 1915م، وفاز بدعم المقاومين بالمنطقة، واعتنق قضية إگزناين ضد فرنسا. وكان من أقرب مناصريه بهذه القبيلة الحاج بقيش من إخوانن، وأحمد أبرشان، والشيخ أحمد نعمر من أشث يونس.كان عبد المالك يحشد الريفيين للقتال لفائدة ألمانيا ويتلقى التمويل مباشرة من العميل الألماني هيرمان، هكذا عقد اجتماعات، أي إگراون في الأسواق لهذا الغرض، كسوق إثنين أزرو وسوق آخر على ضفاف نهر مسون، لكن وقت المواجهة مع الفرنسيين خذله المذبوح وأتباعه، فيما حاول الحاج بقيش حشد المقاتلين حوله.[1328]

تلقى المقاتلون الريفيون خسائر فادحة أمام الفرنسيين، فانفضوا حول عبد المالك، ورفض الحاج بقيش مواصلة التعاون معه، واختار بدل ذلك القتال تحت إمرة الحاج محمد المامون الشنقيطي. وقد بلغ قمة السيادة على قبيلته وجزء من أيث ورياغر باعتباره قائد حرب سنتي 1913-1914م. وتمكن بفضل هذه الريادة من مراكمة الثروات وبناء منزل فخم ومسجد في أفوزار بإخوانن، وكباقي زعماء القبائل في الريف وغمارة واجبالة أراد أن يحظى بدور الريادة بدل المقاومة تحت إمرة محمد بن عبد الكريم، مما أدى بالأمير إلى حبسه في أجذير قبل إطلاق

1324 - أحمد سراج، آيت ورياغل التاريخ...، م.س.، ص..109.

1325- محمد أوحدو ، الريف الشرقي ...، م.س.، ص..39.

1326- نفسه، ص..43.

1327- الخديري (2018)، **التراث الأثري لساحل بلاد الريف**، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، ص. 71.

1328- دافيد مونتگومري هارت (2004)، **القانون العرفي الريفي نصوص مختارة من أعمال إيميليو بلانكو إيثاگا**، ترجمة: محمد الوالي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ص. 98.

سراحه سنة 1925م، ليعود إلى إخوانن، لكنه توفي وهو في الطريق بسبب تسميمه كما أشيع آنذاك. وأُسند لابنه موح بقيش منصب الشيخ، لكنه التحق بصفوف جيش التحرير سنة 1955م [1329]

كما ساهم تهريب الأسلحة في تقوية الإمكانيات العسكرية الريفية، إذ لم يحمل الريفيون السلاح فقط من أجل طرد المستعمر، إنما كان التجول به شيئا معتادا واستعماله بالنسبة لهم أمرا بسيطا، وبإمكان أي ريفي استخدام السلاح ببراعة. [1330] هكذا، وجد الشريف محمد أمزيان القبائل مهيأة للقتال سنة 1909م، ونجح في استقطاب مهربين من جنسيات مختلفة، واستمر امتلاك السلاح رغم انتهاء مقاومة أمزيان سنة 1912م، لتظهر من جديد مع مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي، وليتصل بجهات مختلفة لتزويده بالمزيد، غير أنه بعد إرغامه على الاستسلام[1331]، تشددت الحراسة على السواحل الريفية، التي كانت معقل مراقبة من قبل الريفيين. [1332]

بعد أن عقد الجيلالي الزرهوني اتفاقيات مع الفرنسيين والإسبان تخول لهم استغلال مناجم الرصاص والحديد بالريف، وبناء ميناء مليلة ووضع سكة حديدية تربط بين الميناء والمناجم، انصرف الريفيون عن الزرهوني، وقامت حركة الشريف أمزيان ضده بالريف الشرقي وحاربه إلى أن غادر المنطقة، وفشل حاكم مليلة في اقناع الريفيين بقيادة الشريف على اتمام المشروع المتمثل في السكة الحديدية، وبعد أن أصر على اتمامها بالقوة سنة 1909م، تمكن الريفيون من طردهم بالقوة، الأمر الذي أخذته إسبانيا ذريعة للتدخل عسكريا في نفس السنة، ولبت كل القبائل الريفية نداء الشريف أمزيان للالتحاق بالمقاومة ومساندته ضد اسبانيا. انهزمت إسبانيا في عدة معارك منذ بداية المواجهات، فرغبت في رد الاعتبار، وقامت بهجوم آخر بأحسن جيشها تحت قيادة الجنرال بينتوس Pintos، وانتصر الريفيون مرة أخرى في إغزار أوشن قرب مليلة، وخسروا معركة إجذياون بساحل البحر من قبيلة أيث شيكار مرة أخرى. وقد دفعت هذه السلسلة من الخسائر إسبانيا إلى إغراء بعض القبائل ماديا لتفكيك قواهم. [1333]

اعتمد الجيلالي الزرهوني البعد الديني في حركته من أجل كسب مشروعيتها، وتقمص دور السلطان المدافع عن الرعية، مقابل إظهار السلطان عبد العزيز في صورة المتواطئ مع الاستعمار. وكان ذلك واضحا في مراسلاته لقبائل قلعية، غير أن وعده بالجهاد ضد الإسبان سرعان ما انقطع فور تهدد مصالحه بالريف من قبل المخزن والإسبان، ما جعله يلجأ للدول الاستعمارية، وهو ما أجج الوضع وجعل الشريف أمزيان ومحمد بن حدو الورياغلي، وعبد

[1329]- دافيد مونتگومري هارت، القانون العرفي...، م.س.، ج. 1، ص. 98.

[1330]- *B.N.E.A.H., H.2284094*, El combate en el Rif Memoria escrita, por Disposición del Excmo. Por Sr. General Gobernador Militar de Melilla, por Román Bayo Ayala Capitán del Regimiento Infantería de Melilla número 59, 1907. p.6.

[1331]- محمد أحميان (2018)، **الريف والبحر الأبيض المتوسط، 1830-1926** مجلس الجالية المغربية بالخارج، الطبعة الأولى، الرباط، ص.533.

[1332]- Paul Pascon et Herman Wusten, *Les Beni Bou Frah*…, Op.cit, p.84.

[1333]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية ...، م.س.، ص. 332.

الكريم الخطابي، يرغمون الزرهوني على إخلاء قصبة سلوان كرها، وحكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص، وقطعت رؤوس مساعديه وعلقت في أهم مداخل مدينة فاس.[1334]

كان للجيلالي الزرهوني موقع متميز وسط قبائل قلعية، نظرا للظروف السياسية التي عرفتها المنطقة، ونشره لإشاعات تخص عجز المخزن عن تسيير أمور البلاد، وتجاوزات حاجبه «با احماد» رفقة الضابط الإنجليزي «ماك لين». وقد بايعت قبائل غياثة الزرهوني على أساس أنه ابن السلطان المولى الحسن، وابنه البكر المولى امحمد بالتحديد، لما يعنيه النسب الشريف لدى هذه القبائل، ووقع اختياره على استهداف قبائل الريف لصعوبة الوصول إليه من طرف المخزن، وتقلص نفوذه بعد احتلال وجدة من قبل فرنسا عام 1907م، وتمدد الوجود الإسباني داخل المناطق التي تخلت عنها جيوش السلطان مقابل 80.000 بسيطة، ومداهمة الريفيين للزرهوني بمنطقة كبدانة بقرية أركمان. اضطرت الجيوش السلطانية أن تتراجع وتنتقل إلى طنجة عبر مليلة بمساعدة الجيش الإسباني، ما جعل الزرهوني يفكر في كسب الإسبان لصالحه، إذ قدم لهم مناجم الريف من أجل دعمه عسكريا، ما أثار غضب قبائل قلعية التي حاصرت الزرهوني بقصبة سلوان، التي احتلها الإسبان فيما بعد بتمهيد من الزرهوني[1335]. شكل هجوم الجيلالي الزرهوني أول تضامن عضوي بين قبائل الريف متجاوزة التضامن الآلي، ولم يستطع السيطرة على قبيلة أيث ورياغر، وذلك لتوفرهم على أسلحة متنوعة حصلوا عليها عن طريق التهريب.[1336]

كما قاوم الشريف أمزيان الإسبان بمساعدة القبائل الريفية التي سبق أن اتحدت ضد الجيلالي الزرهوني، وأكمل عمله محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي وحد قبائل الريف، ولم يتمكن الإسبان من القضاء على هذه المقاومة إلا بتدخل فرنسا، ولجوء المستعمر إلى استعمال الأسلحة الكيماوية ضد الريف[1337]، غير أن الريف الأوسط ظل مرتبطا بمقاومة آل الخطابي باعتبارها شاملة لقوة مسلحة ووعي سياسي متكامل، سبقه التخطيط وتحديد الأهداف قبل بداية أية عملية، واتسمت هذه المقاومة بالتنظيم ومعنى التحدي والمجد الذي كان شعارا لكل الشعوب المستضعفة متجاوزا مجال الريف.[1338]

كان القاضي عبد الكريم شخصية قيادية، وقد تزعم في صيف 1920م حركة ريفية للتصدي للتوغل الأجنبي في منطقة ثفرسيث وثمسمان، لكنه قتل مسموما من طرف عبد السلام التفرسيتي الذي رشاه الإسبان. وقد تمكن الجيش الإسباني من التقدم عبر تمسمان بقيادة سيلبيستري Silvestre، نظرا لأسباب الجفاف والهجرة. حمل ابنه محمد بعد ذلك مشعل المقاومة، وأبرز حسه القيادي عندما منع الريفيين من استقبال القواد الإسبان في جزيرة النكور.كان ذلك

1334- محمد أوحدو ، الريف الشرقي ...، م.س.، ص..53.

1335- نفسه، ص..52.

1336- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م.س.، ج.2، ص. 696.

1337- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..26.

1338- عبد الحميد الرايس(2018)، «تشكل الوعي الوطني والسياسي لدى النخبة الريفية في بداية القرن العشرين آل الخطابي نموذجا » ، **مجلة الربيع: الريف؛ التاريخ والذاكرة والتراث**، العدد الثامن، الدار البيضاء، ج.1، ص..55

عندما عزم المندوب السامي الإسباني الجنرال بيرينگَر Berenguer زيارة هذه الجزيرة في أبريل من سنة 1921م .[1339]

لقد تعذر على الجنرال بيرنگَر الانتقال بحرا من تطوان إلى الجزيرة، فناب عنه سيلبيستري الذي تلفظ بكلمات نابية في حق الريفيين، أثارت حفيظة واستياء حتى الأعيان الذين خالفوا أوامر محمد بن عبد الكريم، وتنقلوا إلى الجزيرة لاستقباله. دفع هؤلاء غرامة فرضها الأمير باستثناء سليمان ن موحند الخطابي الذي انضم إلى صف الإسبان وسيصبح من ألد أعداء المقاومة.[1340]

نظم محمد بن عبد الكريم مباشرة بعد هذه الزيارة أول مؤتمر لقبائل الريف في مرتفع ارقامث بثمسمان، بحضور نحو مائتين من المجاهدين الورياغليين أساساً وتمسمانيين وتوزينيين، لتتشكل على إثره حرْكة بنحو 300متطوع، ستشارك في الفاتح من يونيو من نفس السنة في أول معركة ضد الإسبان في ادهار أوباران. انتصر الريفيون في هذه المعركة التي توفي فيها عمر أوفقير الحبقوشي التمسماني الذي أبلى البلاء الحسن، وكان الانتصار عامل ثقة بالنسبة للريفيين الذي انضموا بكثافة إلى المقاومة. تلت هذه الموقعة المعارك المرتبطة بحصار إغريبن الذي حاول سيلبيستري فكه بكل الوسائل دون جدوى، والذي شهد وفاة عبد الكريم بن الحاج بودرة ومحمد بن السي علي أوبارو وغيرهما .[1341]

شبه هارت الريفيين بآلة الأكورديون الموسيقية، إذ أن تضامنهم ينتج موسيقى منتظمة، وفي حالة الاختلاف تصبح مفاتيح الآلة جامدة وتتعرض للشد والجذب وتتمزق في نهاية المطاف وتصدر صريرا نشاز، وأضاف أن أحسن من عرف كيف يعزف على هذه الآلة هو محمد بن عبد الكريم. فنظام الريف يطبعه التوازن الفعلي الدائم ونظام غريب من اللاتوازن في حالة التوازن، نظام أثرت فيه عناصر التعارض عمليا، على التوازن في جميع المستويات الانقسامية.[1342]

لم يكن لمحمد بن عبد الكريم أي مطلب في السلطنة، ولم تقم الصلاة باسمه أبدا في المساجد، وقد سير الريفيون شؤونهم بأنفسهم، وصنع ثورة الريف بعبقرية، وأصلح القانون العرفي في بعض جوانبه وحولها إلى تشريعات إسلامية.[1343]

رفض محمد بن عبد الكريم الخطابي الخضوع لسلطة الإسبان، واستلم مشعل المقاومة سنة 1920م، وأحرز انتصارات منها ادهار أوباران، المعركة التي كان يقودها رامون ويلبا من الجانب الإسباني[1344]، وسيدي براهيم، وإغريبن، وأهمها معركة أنوال التي كانت بتاريخ 22 يوليوز 1921م، حيث أنها قوت المقاومة وقلصت من المد الاستعماري بالريف، بالإضافة إلى

1339- عبد الحميد الرايس(2018)، «تشكل الوعي الوطني...، م.س.، ص..55

1340- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر ...، م.س.، ج.2، ص. .712

1341- أحمد سكيرج (1926)، **الظل الوريف في محاربة الريف**، إعداد محمد الراضي كنون، الجديدة، ص..24

1342- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م.س.، ج.2، ص. .834

1343- نفسه، ص. .706

1344- Victor Ruiz Albéniz (1994), *España en el Rif 1908-1912*, colección La biblioteca de Melilla, p.211.

بعث الرسل إلى بعض الدول الأجنبية لإقناعها بعدالة قضية المقاومة، وتمكن من أسر الريسوني الذي سعى الإسبان إلى استمالته، ما دفع بفرنسا إلى دخول المعركة والتحالف إلى جانب الإسبان، مستعملين أقسى الأسلحة، واستسلم الزعيم حقنا لدماء المقاومين، ونفي خارج البلاد.[1345]

أقنع الريسوني بن عبد الكريم الخطابي أن يمده بالسلاح لقتال الإسبان، غير أنه كاتب بريموذي ريبيرا، وأخذ يشيع أن الريفيين يعملون لصالح فرنسا ويأمر بقتلهم، وقتلهم فعلا، غير أن الجبليين انقلبوا ضده وحال الريفيون دون قتله، ونقلوه وأولاده إلى الريف، إلى أن مات هناك في 3أبريل 1925م.[1346]

انتقلت قوات ابن عبد الكريم يوم 15يونيو 1921م قرب الموقع الإسباني بإغريبن شرق ثمسمان، التابعة لقسمة أربع الفوقاني، وتلت المرحلة هدنة دامت مدة شهر، حاصر بعدها المقاومون موقع إغريبن. حاول الإسبان بكل الوسائل فك هذا الحصار وإرسال التموين من مركز أنوال دون جدوى، وتمثلت المحاولة الأخيرة في إرسال سيلبيستري لطابور لنجدة المحاصَرين عرفت نفس المصير، إلى أن سقط المركز يوم 21يوليوز، تلاه في اليوم الموالي قرار إخلاء مركز أنوال وبداية الهزيمة النكراء التي ستحمل نفس الاسم. شهدت المعركة موت سيلبيستري وصديق محمد بن عبد الكريم الجنرال موراليس، ووفاء منه لهذه الصداقة أمر بالبحث عن جثمانه وإرساله إلى مليلية ليدفن هناك.[1347]

تفاعلت القسمات الشمالية من قبيلة إگزناين (أشث عرو عيسى وأشث يونس وأشث محند) مع الدعاية السياسية بالمنطقة الإسبانية، ورغبت الشخصيات البارزة من هذه القبيلة في تلبية متطلبات الإدارة الفرنسية دون التأثير سلبا على علاقاتهم مع السلطات الإسبانية[1348]، ولم يكن لها تاريخ استعماري فعلي قبل نهاية حرب الريف بأيث ورياغر، ولم تشجع حالة البؤس الدائم بهذه المنطقة عموما، الجزءَ الشمالي من القبيلة على الرغبة في الانضمام إلى الحماية الاسبانية.[1349]

حصل ابن عبد الكريم على تأييد الريفيين، وتغلبوا على الإسبان ما بين 19231921-م، وسجنوا الأسرى في أول سجن بأيث ورياغر، وتعددت الزيارات الإسبانية الدبلوماسية حول الأسرى إلى شمال المغرب، وأطلق سراح الأسرى مقابل فدية، من هنا بدأ انطباع الإسبان حول الريفيين بأنهم نبلاء وشهام، «Los caballeros del Rif»، وأعلن ابن عبد الكريم فور إطلاق سراح الأسرى

1345- خديجة الخديري، التراث الأثري ...، م.س.، ص. 73.

1346- محمد بن عبد الكريم الخطابي، مذكرات لاريونيون...، م.س.، ص.110.

1347- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر ...، م.س.، ج.2، ص. 713.

1348- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée premier partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.8.

1349- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947, p.8.

عن قيام مقاومة ريفية منظمة أول فبراير 1923م ،وقد كان تأسيس هذا التنظيم ضرورة حربية.[1350]

اجتمعت كلمة قبائل الريف حول محمد بن عبد الكريم الخطابي، فبدأ التنسيق بينها من أجل تنظيم المقاومة امتثالا لأوامره. وتم إطلاق سراح كل الأجانب الذين كانوا يودون الدخول إلى الريف فيُلقى عليهم القبض ولا يتم توجيههم إلى أجذير سوى بعد تلقيهم أمرا بذلك من الأمير محمد بن عبد الكريم، نورد مثال الأمريكي فانسينت شين Fancet Shane الذي قبض عليه في إبظارسن، أو الإنجليزي جون أرنال John Arnall الذي احتجز في سيدي علي بورقبة بإگزناين، فانتقل عدد من الورياغليين بمعية محمد ازرقان إلى عين المكان لاستطلاع الأمر قبل اجتماعهم مع أعيان قبيلة إگزناين الذين كان على رأسهم القائد أحمد أبركان، في ضريح سيدي بوجداين بأيث توزين، فسلموا الإنجليزي، امتثالا للأمر الوارد في رسالة محمد بن عبد الكريم.[1351]

تعني توحُّد كلمة القبائل والتفافُها حول المقاومة وامتثالها لأوامر الأمير، غياب الخلافات، خصوصا في القبائل البعيدة عن المركز مثل غمارة وجبالة وإمرنيسن وإگزناين. لقد رفض زعماء مثل هذه القبائل لعب دور التابع، كما كان الشأن بالنسبة للريسوني في جبالة وعمر بن احميدو في إمرنيسن والحاج بقيش في إگزناين. وقد استُقدم كل من عمر بن احميدو والحاج بقيش إلى أجذير للتصالح مع المقاومة، فعينهما الأمير قائدين على قبيلتهما، لكن عمر بن احميدو خان العهد مرة أخرى وانحاز إلى جانب عبد المالك، وحرض قوادا آخرين من إگزناين وآيث عمارث وآيث حذيفة ضد محمد بن عبد الكريم الخطابي. لم ينجح عمر بن احميدو في مسعاه والتحق بالفرنسيين في تازة، في حين التجأ عبد المالك إلى الإسبان في مليلية، حيث وضعوه على رأس محلة لمحاربة الريفيين استقرت في "رعزيب ن ميظار". أرسل الأمير كوموندو بقيادة القائد محمد أزذاذ، تمكن من تصفية عبد المالك، وانتهت بذلك مغامراته في الريف.[1352]

كان شيوخ الزوايا من ألد أعداء محمد بن عبد الكريم، خصوصا الزاوية الدرقاوية التي ما فتئت تحرض أتباعها على معاداة المقاومة واستقوت بالفرنسيين، فاضطر ابن عبد الكريم إلى مهاجمة مقر الزاوية وشيخها في بني زروال، وشكل هذا الهجوم بداية المواجهة مع الفرنسيين. جاء دخول الريفيين إلى بني زروال في جزء منه تلبيةً لطلب أعيان هذه القبيلة ذاتها لتخليصهم من المستعمر الفرنسي وأذنابهم شيوخ الزوايا، وقد تمكن المقاومون من إخضاع هذه الزوايا، بما فيها زاوية مولاي بوشتى الخمار، والسيطرة على المراكز الفرنسية خلال معارك عديدة أشهرها معركة البيبان، ما أدى إلى تحالف الإسبان والقوى الفرنسية، ومنه تسليم قيادة الجيش الفرنسي للمارشال بيتانPétain ، بعد إقالة المقيم العام ليوطي، فتقلص بذلك نفوذ المقاومة الريفية تدريجيا وتراجعت قوة وتحكم ابن عبد الكريم في القبائل البعيدة عن المركز. وظهرت القيادات المحلية المتمردة على ابن عبد الكريم، وشوشت على المقاومة وأضعفتها، وكان من

1350- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر ...، م.س.، ج.2، ص. 720.

1351- أحمد سكيرج، الظل الوريف...، م.س.، ص..17

1352- نفسه، صص..15-14

بينها في الريف الأوسط الحاج بقيش[1353] في إگزناين ضمن قبائل الريف الأوسط، ما جعله يجرده من جزء من أنصاره في قبيلته في إهروشن وأشث عرو عيسى، وأرسل أعضاء من الجماعة لإحراق منازله في مدشره. أرغمه على أداء غرامة بمبلغ 15000بسيطة وتم حبسه في أجذير رفقة أحد أبنائه خلال مدة محددة قبل إطلاق سراحهما.[1354]

تعاون القايد المذبوح -حسب ما تؤكده التقارير الاستعمارية- مع الفرنسيين لتهدئة قبيلة إگزناين، وتحدثت عن صداقته ووفائه لهم، وقدرته على إقناع الجماعة بما يريد، وبمساعدته تمكنت إدارة الحماية من إرساء قواعدها بالقبيلة قبل 1930م، الأمر الذي يتطابق وما تحمله الذاكرة الجماعية حول شخصية القايد المذبوح، كونه بايع الفرنسيين ونصرهم على أبناء قبيلته.[1355]

أمر محمد بن عبد الكريم الخطابي عمر بن احميدو بالحركة إلى تفرسيت، وحضر هو وأخوه الذي استشهد هناك، وورد المذبوح بعدة من الخيالة فاندهش الجميع، وقالوا أن فرنسا غدرت بنا، ووقع البارود وعلى إثره رجع المذبوح وهرب معه عمر بن احميدو.[1356]

خضعت قبيلة إگزناين للاستعمار سنة 1925م، وتأخرت منها قسمات الشمال التي خضعت لسلطة ابن عبد الكريم ضد سلطة القايد المذبوح، وعارضت عبد المالك، وفي سنة 1926م وبعد نهاية المقاومة، أصبحت كل قسمات القبيلة تحت إدارة الحماية الفرنسية[1357]، إذ وصلت قوات الاحتلال الفرنسي خلال شهر أكتوبر من سنة 1925م، بعد تحالفها مع القوات الإسبانية للقضاء على مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي. وقد قامت سلطة الحماية بتقسيم القبيلة إلى ثلاثة مراكز إدارية وعسكرية، المركز الرئيسي بأكنول عين فيه ضابط عسكري برتبة رائد «كومندار» الذي له سلطة على المناطق الثلاث، إلى جانب ضابط الشؤون الأهلية من أصل فرنسي، وقائد محلي وقاض عربي للفصل في القضايا الشرعية والأحوال الشخصية، ثم مركز بورد الذي عين فيه حاكم عسكري برتبة نقيب «الكابتان»، ومركز ثيزي وسري تحت حكم ضابط عسكري برتبة ملازم «يوطنان».[1358]

تزامن استعمار إگزناين مع فترة القضاء على المقاومة الريفية، وبدأت فيما بعد مرحلة العمل السياسي بالمدن، إذ تجاوب المغاربة مع حزب الاستقلال بالمراكز الحضرية داخل المنطقة

[1353]- غير أن الأمريكي كارتلون ستيفنس كون أنصف الحاج بقيش واعتبره قائد عسكري متميز جمع كلمة قسمات قبيلة إكزناين حول المقاومة، وحقق نصر موقعتي العروي وتفرسيت، وكان سند محمد بن عبد الكريم الخطابي، قبل أن يسجنه لنفرد بالقيادة.
- كارتلون ستيفنس كون (2020)، **لحم الثور البري**، ترجمة عبد المجيد عزوزي، الطبعة الأولى، سليكي أخوين، طنجة، ص.302

[1354]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر ...، م.س.، ج.2، قصص. .763-760

[1355]- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Monographie sur les Jemaas en Tribu Gzennaia, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 21 Mai 1930, p.6.

[1356]- محمد بن عبد الكريم الخطابي، مذكرات لاريونيون...، م.س.، ص..105

[1357]- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,* Confidentiel, Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée premier partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.8.

[1358]- عبد العزيز أقضاض الدوائري (2008)، **مذكرات مؤسس وقائد مقاتل في صفوف جيش التحرير**، إعداد وتقديم محمد لخواجة، دار أبي رقراق، الرباط، ص..23

الفرنسية، ومع الحزب الوطني داخل المنطقة الإسبانية. وفي سنة 1947م نزل محمد بن عبد الكريم بمصر وهو في طريقه إلى فرنسا بعدما قضى زهاء عشرين سنة في المنفى بجزيرة لاريونيون، وهو ما سيشكل بداية مقاومة جديدة وفق مبدئه، ما أُخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، غير أن هذه المرة لم يكن مركز العمليات هو قبيلة أيث ورياغر، وإنما قبيلة إگزناين التي عرفت انطلاق عمليات جيش التحرير.[1359]

أسس محمد بن عبد الكريم الخطابي لجنة تحرير شمال إفريقيا، وبادر إلى التعبئة من أجل الكفاح المسلح الذي اعتبره الحل الأنجع ضد الاستعمار، واستقطب عناصر جديدة من المشاركين في حرب فلسطين من المغاربة والجنود الفارين من صفوف القوات الفرنسية بالهند الصينية والطلبة المغاربة بالمشرق، وبعض الحجاج الذين عبروا مصر، وكون مجموعة من الأطر مثل حمادي العزيز وحدو أقشيش والهاشمي الطود، بمعنى أن ابن عبد الكريم استأنف ما بناه خلال بداية العشرينات.[1360]

دون إغفال الأوضاع التي كانت تعاني منها فرنسا التي خرجت منهكة من الحرب العالمية الثانية، وإصدارها بيان 19يناير الذي يوضح عدم لجوئها إلى العنف، وهو بمثابة رد على وثيقة 11يناير 1944م، ما دفعها إلى رغبة تفكيك علاقة الوطنيين بالسلطان، التي تلتها محادثات إيكس ليبان التي اعتبرها الريف دخولاً في مفاوضة المستعمر وخيانة للمقاومة من أجل الحرية، الأمر الذي جعلهم أمام ضرورة إعادة بناء المقاومة المسلحة.[1361]

تمتعت قبيلة إگزناين بموقع جغرافي استثنائي، حيث إنها تغلق وتتحكم في الشمال الغربي لمدينة تازة، وتشكل ممراً إلى قلب الريفَيْن الأوسط والشرقي، الأمر الذي ساعد مقاومي هذه القبيلة على الوقوف في وجه الحركات المخزنية والاستعمار الفرنسي[1362]، إذ قال جندي فرنسي بالقبيلة: "إن الله لما خلق حرب العصابات قال لجبال الريف كوني فكانت".[1363]

مثلت عمليات جيش التحرير استمرارية للمقاومة الريفية المنظمة الأولى بالريف الأوسط، نظرا لاستمرار العائلات المقاومة في أداء وظيفتها، إذ شارك محمد بن محند بن عملا أوختّو في عمليات 2أكتوبر 1955م، بينما والده محند بن عمر كان مقاوما في صفوف مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي وتوفي سنة 1946م.[1364]

1359- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م.س.، ج.2، ص. 807.

1360- محمد لخواجة (2007)، **جيش التحرير المغربي 1951-1956م ومذكرات للتاريخ أم للتمويه؟**، دار أبي رقراق، الرباط، ص. 39.

1361- عبد الحميد الرايس(2018)، »تشكل الوعي الوطني والسياسي لدى النخبة الريفية في بداية القرن العشرين آل الخطابي نموذجا «، **مجلة الربيع: الريف**؛ التاريخ والذاكرة والتراث، العدد الثامن، ج.1، الدار البيضاء، ص. 207.

1362- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée premiere partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.8.

1363- عبد العزيز أقضاض الدوائري، مذكرات مؤسس وقائد مقاتل في صفوف جيش التحرير...، م.س.، ص..5

1364- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée premiere partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.8.

تدرب جيش التحرير بالناظور واستقبل أسلحة بشكل سري، من مصادر متعددة أهمها مصر، وتولى أمرها بن عبد الله الوكوتي وعبد الله الصنهاجي، وتكونت المجموعة الأولى من 28 فردا في كل خلية تعاهدوا على المقاومة، والتحق بهم عباس لمساعدي، ومن الأسباب التي عجلت بهجوم جيش التحرير تأخر ميزانية 400000فرنك لبناء سور سوق ثيزي وسري، وأشغال أخرى، بالإضافة إلى تدهور الوضع الاقتصادي، وإغلاق باب الهجرة، وكثرة البطالة[1365]. انطلقت عمليات جيش التحرير بجبال إگزناين في اليوم الثاني من شهر أكتوبر 1955م، بعد إعداد ميداني سري وتعبئة شعبية محكمة، والذي كان وقعه كبيرا على القوات الفرنسية.[1366]

استهدفت عمليات جيش التحرير مراكز بورد وثيزي وسري وأكنول[1367]، إذ تم تطبيق مخطط هجومي ضد المراكز الفرنسية بإگزناين، خلال اليوم الأول والثاني من شهر أكتوبر سنة 1955م، وكان فيه انخراط كلي لريفيي إگزناين مع انخراط ضعيف للعمارتيين، وشملت العمليات منطقة مرموشة بالأطلس المتوسط. ومن غير المستبعد أن يكون تأثير مراقب منطقة أجذير خوسي إيرولا الذي استغل علاقته الجيدة بالورياغليين، قد حال دون انخراط أكبر لهؤلاء. والجدير بالذكر أن المندوب السامي الإسباني في تطوان گارثييا بالينيوكان على علم بتحركات جيش التحرير، بل حظيت مساعي الفدائيين بتشجيعه الضمني، وقد كافأه أعضاء جيش التحرير بتسليمه خنجرا كهدية رمزية سنة 1956م[1368]. ورغم قلة أبناء قبيلة إگزناين، إلا أنهم تمتعوا بالقوة الحربية وحسن التأطير.[1369]

ارتبط تاريخ المقاومة الريفية خلال الفترة المعاصرة بالجيلالي الزرهوني وحرب الريف الأولى بقيادة الشريف محمد أمزيان ما بين 1909 و1912م، وحركة عبد المالك الجزائري بقبيلة إگزناين ضد فرنسا 1916م، وحروب التهدئة بالمنطقة الفرنسية -19341926م، وحرب الريف الثانية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي -19261921م بعد إرغامه على الاستسلام. هذا بالإضافة إلى الانتفاضة ضد إدارة الحماية الفرنسية، إذ بعد إنزال محمد بن عبد الكريم الخطابي بمصر سنة 1947م، بدأت خلايا المقاومة تظهر بقبيلة إگزناين تحت قيادة علي بوطاهر أقضاض سنة 1951م، وتشكل منهم وفد ذهب لزيارة ابن عبد الكريم الخطابي بالقاهرة للتداول في انطلاق عمليات جيش التحرير، ثم وصول باخرة دينا بتاريخ 30مارس 1955م، وتوجه عبد العزيز أقضاض لمدينة تطوان لشراء الأسلحة، وبعدها التحاق عباس لمساعدي بمركز الناظور في نفس السنة، وانطلاق عمليات جيش التحرير خلال بداية أكتوبر 1955م.[1370]

1365- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر ...، م.س.، ج.2، ص. 812.

1366- محمد أمزيان(2018)، **لعنة عبد الكريم**، تيفراز أريف، الطبعة الأولى، تطوان، ص..144

1367- عبد العزيز أقضاض الدوائري، مذكرات مؤسس وقائد مقاتل في صفوف جيش التحرير...، م.س.، ص..23

1368- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر ...، م.س.، ج.2، ص. 810.

1369- *A.D.N, Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,* Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée premiere partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941, p.7.

1370- محمد لخواجة، جيش التحرير المغربي...، م.س.، صص..6-5

ثانيا: موقف المخزن والمستعمر من المقاومة ووقعه على الريف.

كان الريف محط صراع بين المخزن وإسبانيا، وحاول كل منهما استمالته لصالحه[1371]، كما شكل الريف بؤرة صراع بين المخزن والدول الأجنبية، إذ لم ترق مقاومة الريف السلاطين المغاربة في كل مراحلها، واعتبرتها اندفاعاً وخرقاً للمواثيق الدولية.

جعل الريف الأوسط المخزن في كثير من الأحيان أمام ضرورة دفع غرامات وتعويضات للإسبان جراء الخسائر التي كلفها لهم المقاومون الريفيون، كما عمل الريفيون على استمالة السجناء الإسبان الذين فروا إلى الريف، ما جعل المخزن أمام ضرورة تشديد الحراسة من أجل إرضاء القوى الاستعمارية[1372]. تحدثت إسبانيا في كثير من الأحيان عن سياستها الاستعمارية بالريف الأوسط التي قوبلت بالسلمية من طرف المخزن، وبالمقابل تلقت معارضة شديدة من قبل الريفيين.[1373]

اعتاد المخزن قبل توقيع معاهدة الحماية على تأديب الريفيين المعادين للإسبان، إذ حوكم مقاومو موقعة سيدي ورياش بالريف الشرقي، ووقع المخزن مع إسبانيا اتفاقية مراكش وذلك يوم 5مارس 1894م، التي ألزمت من خلالها الريفيين بدفع غرامة مالية قدرها 20مليون بسيطة، كما التزم المخزن بتأديب القلعيين، بالإضافة إلى حماية حدود مليلية، وفي سنة 1895م تنازلت إسبانيا عن الضريح والمقبرة، مقابل التوسع في مناطق أخرى.[1374]

لجأ سكان الريف الأوسط إلى طلب هدنة من إسبانيا التي استغلت فراغ المنطقة، نتيجة تلبية نداء الشريف أمزيان، ووضع الضعف الذي كانت تعيشه. واشترطت إسبانيا وقف المواجهات مقابل التخلي عن الشريف أمزيان. فبرز تياران، أحدهما يساند اقتراح حاكم الجزيرة، والثاني يعارض أي تعامل مع الإسبان، وهو الذي كان يشكل الأغلبية.[1375]

كان الانضمام إلى جيش أمزيان سبب هجوم الإسبان على قبائل الريف الأوسط، والتي استنجدت بالسلطان المولى عبد الحفيظ الذي لم يجب أهل الريف وأخذ أصحاب التيار الأول مكافآت مادية، وانتهى الصراع بتوقيع معاهدة 1910م القاضية بوضع الريف الشرقي تحت مراقبة المخزن وإسبانيا، بمعنى القضاء على المقاومة الريفية، وقام الشريف أمزيان بإقناع

[1371]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 301.

[1372]- عرفت هذه الظاهرة منذ القرن السادس عشر، إذ حوصروا بثغر بادس ولم يتخطوا الحصون نظرا للمقاومة الشديدة للريفيين، وبعد سنة 1578م، تمكن أزيد من 92 جنديا من دخول القبائل الريفية وبعضهم اعتنق الإسلام، لأنهم وجدوا أنفسهم مسجونين دون مؤن ودون شروط العيش الكريم، واللامبالاة من قبل الحكام وأمام شراسة مقاومة القبائل، واستمرت الظاهرة إلى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وأمام هذا الوضع شددت إسبانيا على المخزن وألحت عليه أن يشدد الحراسة، ويمنعهم من الدخول. نظر:

- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م.س.، ص. 308.

[1373]- *B.N.E.A.H., D.E.B.H.J.M.B.R.,* Dossier 47/610008, N°1240440, El Problema Rifeño, por Cándido Lobera, Donativo, Melilla, 1909, p.11.

[1374]- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..48

[1375]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية ...، م.س.، ص. 333.

مجاهدي الريف الأوسط مرة أخرى، ما اضطر إسبانيا إلى شن هجوم بحري وبري على الريف لقي دفاعا شرساً، واستحال اقتحام الريف، وقام الريفيون بهجمات أخرى ضد الإسبان سنة 1911م.[1376]

تمكن الإسبان بقيادة گارثييا ألْدابي G.Aldaveحاكم مليلة من تجنيد المقاتلين القلعيين وإدماجهم ضمن جيش الريگولاريسRegulares الذي كان يتضمن عناصر إسبانية وريفية، وقام بكل العمليات العسكرية الإسبانية المرتبطة بالتدخل في الريف، سواء ضد الشريف أمزيان، أو ضد محمد بن عبد الكريم، فعناصر هذا الجيش هي التي احتلت أعروي مثلا، وأحد أفرادها هو الذي قتل الشريف محمد أمزيان يوم 15ماي 1912م. ولم يسلم مساندو الشريف أمزيان في القبائل الريفية من أذى الإسبان، كما حدث لمحمد بن حدو العزوزي من ثماسينت الذي اغتيل بإيعاز من الإسبان.[1377]

رفض الريفيون الشرعية الإسبانية داخل الريف ما دفعهم إلى الاستمرار في المقاومة بعد فرض الحماية[1378]. تعرضت إسبانيا لمقاومة شرسة داخل قبال الريف، واعتبرت قبيلة أيث ورياغر بؤرة التمرد **el foco de la rebelión**، وشاعت قولة لوبيرا Lobera، «بخضوع أيث ورياغر سيسود السلم في منطقة الريف».[1379]

راكمت إسبانيا ذاكرة خاصة بالخسائر التي لحقتها بالريف، واحتفظت ببصمات الحروب التي عاشتها بالمنطقة، واعتبرتها عقاباً لها، ودماراً كان من المفروض أن يكون مكسبا لها، نتيجة ذلك أصدر الإسبان كماً هائلاً من الكتابات حول الموضوع، إذ لم يسبق لحدث أن أثار اهتمام الباحثين بهذا الشكل من قبل[1380]، واستهدفت الجانب الإنساني قبل التكتيك السياسي، والكبرياء الوطني الذي كان متعطشا لانتصارات العساكر.[1381]

تمثلت ردة فعل إسبانيا بعد المقاومة الريفية في الرغبة في الانتقام، خاصة من القبائل التي تعرضت فيها إلى مجموعة من أشكال التعذيب والإهانة، وكلفتها عددا كبيرا من جنودها، ما نتج عنه اختراق مجموعة من مبادئ حقوق الإنسان المتمثلة في استعمال الغازات السامة والقصف الجوي، لإحداث الخسائر المادية والضغط النفسي، وذلك راجع لسببين الأول الانتقام أمام جثث الموتى بعد معركة أنوال، والثاني إنهاء الحرب بأقصى سرعة ممكنة.[1382]

اختلف موقف الإسبان من المقاومة الريفية، إذ رغم ردة الفعل التي اتسمت بالانتقام وصنعت حقدا دفينا بين الطرفين، إلا أننا نجد من بين الإسبان من كان أكثر نزاهة واعترافاً بتفوق مقاومة

1376- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية ...، م.س.، ص. 334.

1377- نفسه، ص. 335.

1378- وثائق المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، المحفظة «37» رقم الوثيقة 155.

1379- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر ...، م. س.، ج.2، ص. 778.

1380- Juan José López Barranco, *El Rif en armas...,*op.cit., p.339.

1381- *B.N.E.A.H., R.667.470,* Dossier N°3/92275, Verdaderas Amargas la campaña de 1909 en el Rif, Relato y juicios de un testigo, Madrid, 17 Mai 1910. p.7.

1382- ماريا روسا دي ماداریاغا، مغاربة في خدمة فرانكو...، م.س.، ص.39 وص. 41.

الريف بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي، لولا تكتل القوى الاستعمارية ضدها[1383]، غير أن السلطان المولى محمد بين يوسف ظهر بشكل مناصر للمقاومة المسلحة بعد عودته من المنفى، إذ خصص منطقة مثلث الموت المتمثلة في تيزي وسلي بورذ أجذير بزيارة خاصة وذلك خلال يومي 14 و15 من شهر يوليوز 1956م، إذ انطلقت الرحلة من أكنول وتيزي وسلي إلى مركز القيادة بالناظور .[1384]

لقد أولى الدارسون الذين أجروا أبحاثهم حول الريف اهتماما زائدا لظاهرة العنف في منطقة الريف، متأثرين بالنموذج الانقسامي ذي الطابع الوظيفي البنيوي الستاتيكي الذي يغيب عامل التاريخ، والذي وظفه إيفانس بريتشارد عند دراسته لقبائل النوير، أو نموذج كلود ليفي ستراوس الذي أضفى طابع العنف على هذه المنطقة، مثل دايفيد هارت الذي قام بالتعميم النظري دون الحرص المطلوب، ودون إعمال المقاربة التاريخية باعتبارها فاعلا حيويا في دينامية المجتمعات وتطورها. فقد شهدت قبائل الريف تاريخيا حصاراً تمثل في المد الإسباني الفرنسي وضغوط المخزن بموجب الاتفاقيات المبرمة، ما استوجب مقاومة شرسة من قبلها، وجعلها تظهر على أنها قبائل عنيفة، ومنطقة صراع متداخل، وشهدت هشاشة متنوعة، أفرزت تمرد قبائل الريف بعد تعرضها لمساومات بين المخزن والسلطات الاستعمارية، ثم أطماع إدارة الحماية الإسبانية، والصراعات التي تضمنتها معاهدة حرب تطوان، وكانت بداية لتأكيد الوجود الإسباني بالريف، بالإضافة إلى مخطط الجيلالي الزرهوني، الذي استغل ضعف المخزن واستياء القبائل من مختلف المساومات.[1385]

كانت مؤسسة الزاوية تلعب دورا رئيسيا في ضبط ظاهرة العنف داخل الريف، وتشكل طرف فض النزاع وتتدخل في أمور التحكيم، في ظل ضعف تمثيلية المخزن، خاصة خلال الفترة الاستعمارية، وذلك بفضل مزاوجتها بين العنف الرمزي والدهاء السياسي الخاص ببعض الشيوخ.[1386]

وتعرضت قبائل الريف لحصار غير مباشر فجر العنف داخلها، عن طريق الإدارة الفرنسية، منذ تعاطف هذه القبائل مع عبد القادر الجزائري، وخلال ظهور ثورة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، ومساعدة فرنسا لإسبانيا من أجل القضاء عليها[1387]، وكان انتشار هذا العنف داخل القبائل الريفية تعبيرا عن سخط واضح بخصوص الأوضاع السياسية التي عاشتها، وهو الطابع العدواني الذي ركزت عليه الأبحاث السوسيولوجية التاريخية والأنثروبولوجية.[1388]

لم يتمكن المخزن من مسايرة رغبة الريف في التخلص من الاستعمار، وظلت مواقفه متذبذبة ولم تكن ذات سيادة كاملة، نتيجة الضغوطات الخارجية وضعف موقفه، ما دفع بسلاطين الدولة

1383- منويل ليغينيثي(2018)، »نكسة إسبانيا في الريف: أنوال 1921م«، ترجمة: هناء الدراوي، **مجلة الذاكرة** ملف التربية والتعليم بالريف، العدد الثالث، الناظور، ص. 139.

1384- عبد العزيز أقضاض الدوائري، مذكرات مؤسس وقائد مقاتل في صفوف جيش التحرير...، م. س.، صص..300-299

1385- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..57

1386- محمد جحاح، الزاوية بين القبيلة والدولة...، م.س.، ص. 312.

1387- محمد أوحدو ، الريف الشرقي...، م.س.، ص..59

1388- نفسه، ص..54

العلوية في كثير من الأحيان إلى تأديب قبائل الريف لإرضاء السلطات الاستعمارية، وما جعلهم أيضا يعتذرون لها عن الخسائر التي ألحقتها بها المقاومة الريفية.

من هنا نستشف حيثيات استعمار الريف وتعديل تقسيمه الإداري، وتكريس طابع التهميش والاستغلال داخل هذه المناطقمن قبل المستعمر، منذ البدايات الأولى للتغلغل الأجنبي التي بدأت منذ القرن السادس عشر، وتكللت بتوقيع معاهدة الحماية في 30مارس 1912م، ثم محاولات الإقرار الفعلي للاستعمار الذي أفرز مقاومة ريفية حقيقية، كلفت المستعمر عدة خسائر، وجعلته يعيد النظر في مخططاته، أهمها مقاومة شريف أمزيان -19121909م ومقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي -19261921م.

كما دفعت الهزائم التي تعرض لها الإسبان في مجال الريف إلى التحالف مع فرنسا، رغبة في الانتقام وتحقيق النصر وجاء على إثرها مجموعة من التجاوزات التي تتنافى وحقوق الإنسان [1389]، والتي امتدت من بداية حرب الريف سنة 1921م إلى استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1926م.

أثارت المقاومة الريفية "الرأي العام" وحققت نجاحا نسبيا، وصدر عنها مجموعة من ردود الأفعال كانت الأولى عن المخزن التي وقفت ضد موجة العنف التي واجه بها الريف المستعمر، والتي تعارض الاتفاقيات الدولية التي وقع عليها المغرب، خاصة بعد توقيع الحماية، والثانية صدرت عن المستعمر الفرنسي والإسباني وكانت عبارة عن رغبة في الانتقام وبسط السيطرة.

[1389]- نجد مجموعة من الدراسات التي عالجت قضية استعمال الغازات السامة بالريف من قبل المستعمر على الأراضي الريفية، واعتبرت هذا الاستعمال من ضمن الجرائم ضد حقوق الإنسان وخرقاً للمواثيق الدولية، وذلك نظرا للانعكاسات التدميرية الوخيمة التي كانت لها على المنطقة، وعرفت طابع الاستمرارية، وبالتالي طالبت تعويضات لضحايا حرب الريف عامة وضحايا حرب الغازات السامة خاصة. نذكر من بين هذه الدراسات كتاباً كان في الأصل أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في مسلك القانون برسم السنة الجامعية 2010-2011م:

- Mustapha Ben Cherif (2014), *Crimes Internationaux et Droit des Victimes a Réparation les cas de la guerre du Rif 1921-1926,* Najah El Jadida, p. 489.

-خاض نفس التجربة الأستاذ محمد الغلبزوري من خلال أطروحتهلنيل شهادة الدكتوراه في مسلك القانون العام، بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بجامعة عبد المالك السعديبتطوان برسم السنة الجامعية 2013-2014م، وأصدرها في صيغة كتاب فيما بعد، غير أن ما يعاب على هذا الكتاب هو أن فصوله تطابق معطيات وخلاصات فصول الكتاب الأول الذي يعود للأستاذ مصطفى بن شريف:

- محمد الغلبزوري (2019)، **إشكاليات التسوية الأممية والدولية للجرائم والجنح الدولية حالة حرب الريف الكيماوية** 1926-1921، مطبعة سليكي أخوين، الطبعة الأولى، طنجة.

الفصل التاسع

التاريخ السياسي بالريف الأوسط والذاكرة الجماعية المستمرة

يعتمد المؤرخ لإعادة بناء التاريخ السياسي عامة، والتاريخ السياسي بالريف خاصة، على رصيد وثائقي مهم ومتنوع، يجمع بين ما هو محفوظ في دور الأرشيف، وبين المصنفات التاريخية، باعتبار هذا الرصيد شواهد ذات مصداقية تؤرخ لأحداث واقعية، وفق مناهج أقرب للحقيقة التاريخية التي تظل نسبية، خاصة وإن عاينا بعض أساليب التهويل التي تتميز بها بعض المصنفات. وقد عملنا في هذا الفصل على إضافة عنصر داعم سعينا من خلاله إلى سرد وقائع تاريخ الريف المعاصر، من خلال رواسب الذاكرة الجماعية المستمرة، وفق ضرورة مقارنتها مع الوثيقة المكتوبة، واستنباط ما بها من معلومات، وإضافات تفيد تنقيح صفحات التاريخ السياسي.

وجب علينا أول الأمر عرض أهمية الذاكرة في حقل التاريخ السياسي، وفاعليتها في مجال حفظ الهوية، والكشف عن ميكانيزمات عمل آلياتها لتخزين الأحداث التاريخية، وأشكال استحضارها واستثمارها في استقراء الحدث؛ وطبيعة تأثيرها على الجماعات الإنسانية، وذلك طبعا بعد أن تم تحديد أبعادها الثقافية، والاجتماعية التي تعتبر محدداً أساسياً لتوجهات الذاكرة الجماعية.

يأتي الشق التطبيقي بعد تحديد الإطار النظري للفصل الأخير من الأطروحة، الذي يعد بمثابة خلاصة تركيبية، لرصد أهم الأحداث التاريخية المؤثرة في التوجه السياسي بالريف الأوسط، ثم تصنيفها بين ما يسترجع ويروى لدوافع فخرية، تحفظها الذاكرة الجماعية بالريف وتسترجعها باعتزاز، وبين الأحداث التي تسترجع بحرقة، ويمتنع أحيانا عن تداولها نظرا لما تثيره من ألم وذكريات تسيئ للجماعة والإنسانية بصفة عامة.

المبحث الأول: آليات حفظ استمرارية الذاكرة السياسية

ليس من السهل وضع حدود واضحة من الوهلة الأولى؛ بين مدلول مجموعة من المصطلحات المترابطة، التي تصب في مفهوم الذاكرة الجماعية؛ من قبيل الشاهد أي المدلي بشهادته التاريخية والمذكرات، التي أصبحت وثيقة مكتوبة، تحمل ثقافة وذاتية كاتبها التي تجعله يدون أحداثاً دون أخرى، ويبالغ في إبراز أهمية بعضها، مقابل التقليل من أهمية أحداث محددة، ثم الرواية الشفهية الفردية التي من شأنها تحقيق الذاكرة الجماعية، إن تمكنت من خلق انتشار أكبر.

ويعتبر الشاهد وجهاً من أوجه المجتمعات المعاصرة، وحافظاً للذاكرة الجماعية الخاصة بها، وأصبحت الشهادات رهانا حاسما لتحليل وتأويل الماضي، وأصبح الشاهد ينتج نوعا من المعرفة التاريخية المحصورة في سياج الذاكرة وتمثلاته، أو تحت ضغط مصالحها الجماعية، ما يجعل الشهود يقعون في التناقض أحيانا، وتنحصر شهاداتهم أحيانا في الآراء والتأملات التي تفتقر للقواعد العلمية. ويمكن اعتبار شهادة الشهود مادة أولية للمؤرخ، غير أن الشاهد يعتبر شهادته كتابة تاريخية تامة وموضوعية، ومنهم من يخلط بين الذاكرة والتاريخ، ومن الشهود كذلك من يعتبر معايشة الأحداث أفضل طريقة للتدوين، ويقحمون الذات في الكتابة التاريخية، ما يجعلهم يعارضون المؤرخ الذي يعارض روايتهم.[1390]

يدلي بالشهادة التاريخية عادة من عايش الحدث، ومن أخذ وضع الطرف الثالث لا مصلحة له في تحريف الوقائع، وحين يروي الشاهد أحداثاً بعيدة، أو لم يشارك فيها تحضر «الذاكرة المستعارة»، إذ ينقل ما سمعه ويعرضه لتحليل تاريخي منطقي، بالإضافة إلى مقارنة الرواية المنقولة بالكتابات الأكاديمية والأرشيف.[1391]

تشوب الشهادة الشفهية عدة انفعالات نفسية ووجدانية، تكون واضحة في لحظة إدلاء الشاهد بها، وتعتبر هذه الخصائص من سمات الذاكرة، منذ مرحلة التخزين إلى حين استرجاعها، لبناء الهوية الجماعية، فالذاكرة هي التي تمنحنا خصوصيتنا الفردية ثم الجماعية.[1392]

يجعل العامل النفسي الشاهد يمجد أحداثا تاريخية بعينها أو شخصية معينة، وذلك عن طريق إعطائها رمزية خاصة من خلال تضحياتها وتعذيبها أو نفيها من أجل بلوغ هدف يخدم الجماعة، ويخفي كل الأخطاء التاريخية والمصالح الفردية التي كانت لدى الشخصية الممجدة، ويدخل الشاهد مع هذه الشخصية في علاقة قداسة، وبالتالي يعيد الشاهد اعتبار الذات في الذاكرة الجماعية.[1393]

[1390]- عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية ...، م. س.، ص. 153.

[1391]- نفسه، ص. 48.

[1392]- نفسه، ص. 85.

[1393]- نفسه، ص. 87.

يرتبط التاريخ السياسي بالرواية الشفهية في الكثير من الأحيان، إذ عاد الحدث بعودة الشهادة لصناعة التاريخ، وأصبح الفرد بطل الحدث بدل القوى الاجتماعية، بعد أن ارتكز البحث عن البنى الثقافية والاقتصادية والاجتماعية. ونشير إلى أن الذاكرة تضمنت هذه المواضيع وتجاوزتها لما هو سياسي عسكري، وعند دراسة الشهادة المنبثقة من الذاكرة لإغناء مواضيع التاريخ وجب استحضار سياقات الذاكرة وأهمها، الإطار التاريخي والاجتماعي، والفاصل الزمني بين الحدث والتذكر والتدوين. وترضي الذاكرة المجتمع الذي تنتمي له، وتبني رأسمالا معنويا ورمزيا له.[1394]

بينما تعتبر الرواية الشفهية مرحلة أولى في مراحل بناء الذاكرة الجماعية، وأهم المراحل التي تسبق التدوين التاريخي[1395]، إذ نشأ التاريخ الشفهي وأقسامه الكبرى على الأرجح بين عامي 1959-1952في الولايات المتحدة الأمريكية، وصولا إلى جامعة Essex ببريطانيا التي أنشأت مجموعة عنوانها «تاريخ الحياة»، وأُسست جمعية التاريخ الشفهي The Oral History Society، ومن نتائجها تلميع التاريخ الاجتماعي، وعقدت على إثرها مؤتمرات أهمها «التاريخ الشفهي» في حي شعبي في تورينو، والمصادر الشفهية والعمل الريفي. وقد اهتم التاريخ الشفهي بالكشف عن التحوير الذي تقوم به الذاكرة لظاهرة تاريخية قام التاريخ التقليدي بدراستها، وعلى إثر هذا التوجه أعاد جورج دوبيG. Duby كتابة تاريخ معركة جبل الجليد، من خلال نظره إلى الذاكرة نظرة عالم الأنثروبولوجيا، في سلسلة من الاستذكارات مصير ذكرى في داخل مجموعة متحركة من التصرفات الذهنية.[1396]

يمكننا من خلال التاريخ الشفهي أو الرواية الشفهية إعادة بناء نمط عيش المجموعات وماضيها، وكل ما يتعلق بتاريخها السياسي، وكيفية تشكل ذاكرتها الجماعية التي تجد فيها هويتها[1397]. ويذكر مارك بلوخ تنوع الشهادات التاريخية، فبالنسبة إليه كل ما له علاقة بالإنسان، وكل ما يلمسه يمكن أن ينقل لنا أخباره.[1398]

يتخلل التاريخ الشفهي مجموعة من الشوائب أهمها الخيال الذي يمكن تعريفه داخل حقل التاريخ بالتثبيت التخيلي المتجدد على أنه شكل من أشكال التفسير العقلي، وعلى المؤرخ أن يعيد بناء المتخيل، والوارد في الحدث التاريخي، والمتخيل يسعى إلى إحياء ما مات في الوثيقة التي تعبر عن الواقع التاريخي، وعن طريقة تفاعلها مع ماضيها.[1399]

بالإضافة إلى ظاهرة النسيان التي يمكننا تقسيمها إلى نوعين، نسيان طبيعي غير إرادي، ونسيان مقصود، يمكن إجمال النمطين في «استراتيجية النسيان». والنسيان عامة هو عدم القدرة على تشكيل المعلومة بعد مرور الزمن، وغير مرتبط بالتذكر، ويعود إلى مرحلة

1394-الطيبي عبد الرحمان، الريف قبل الحماية ...، م. س.، ص. 96.

1395-André Leroi-Gourhan, *Le geste et la parole…,* Op.cit., p.65.

1396- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م. س.، ص.162.

يُنظر أيضا:

- G Duby (1214), *Le Dimanche de bouvines,* 27 Juillet, Gallimard, Paris, 1973.

1397- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م. س.، ص.165.

1398- Marc Bloch (1959), *Apologie pour l'histoire ou métier d'histoire,* Armand Colin, Paris, p.49.

1399- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م. س.، ص.198.

الانطباع والتخزين. والأحداث التي تنساها الذاكرة بشكل طبيعي تفتقد إلى العواطف لحظة مرورها الأول، ولعامل الزمن دور مهم في إحداث فجوات وفراغات في تشكيل المعلومة المرتبطة بالذاكرة، ويجد الأشخاص المسنون صعوبة في الترميز لإعادة بناء الحدث. ويتخذ النسيان المتعمد عدة أشكال أهمها، الانتقائية والتهميش والحذف والإقصاء والتحريف والصمت، وهذا النمط محكوم بأبعاد ذاتية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية، ويرى التحليل النفسي أن الذكريات المؤلمة تحتمل التخلص والنسيان، نظرا للتهديد الناجم عن تذكرها، وتستبعد حالة الهزيمة، والمجتمعات تميل إلى زخرفة ماضيها، وتذكر الأحداث الأليمة لجبر الضرر، وتخلد الذكريات المجيدة التي تعتبر فخرا لها، كمعركة أنوال مثلا.[1400]

تعمل الذاكرة الجماعية على ترسيخ بعض الأعلام دون غيرهم، وترقى بهم إلى مرتبة الأسطورة، مقابل تهميش البعض وفق النسيان المتعمد أو النسيان الطبيعي، ونجد أبرز الأعلام بالريف الأوسط محمد بن عبد الكريم الخطابي. وتحتفظ الذاكرة الجماعية ببعض مظاهر الصراع بين هؤلاء الزعماء، فنجد بالريف مثلا، حالة الصراع بين أتباع الشريف أمزيان ومحمد بن عبد الكريم الخطابي، هنا تنشط ذاكرة من أجل إلغاء ذاكرة أخرى.[1401]

تحمل الذاكرة الجماعية ماضي أسطوري متسم بمفارقة زمنية، لكنه يمثل العنصر المعاش داخل العلاقة الدائمة بين الحاضر والماضي، وعلى التاريخ أن ينيرها ويساعدها على تصويب أخطائها، دون أن نغفل تأثير المجتمع على أفكار المؤرخ والمتمثلة أساسافي الصورة التي كونتها المجموعة الاجتماعية على نفسها، والتي يؤولها المؤرخ أو ينتسب إليها أو ينتمي إليها، وفي تصوره لأسباب التغير الاجتماعي، وآفاق التغيرات السياسية القادمة التي يعتبرها المؤرخ محتملة أو ممكنة، والتي توجه تأويله التاريخي.[1402]

تعتبر المذكرات تدويناً من قبل أشخاص عاشوا أحداثاً تاريخية أو سياسية، أو شاركوا فيها، أو عايشوا تجارب علمية مهمة، وهي عبارة عن تدوين للذاكرة على شاهد مادي بواسطة الكتابة.[1403]

ترتكزت المذكرات على الشهادة التاريخية، والشاهد وجه من أوجه المجتمع، حيث يدلي بشهادته التاريخية وفق هيكلة مؤسساتية أو غير مهيكلة، في ظل توفر شروط أهمها الحقيقة والصدقوالحيادية والمطابقة للواقع، وتعتبر المذكرات شهادات تاريخية قصدية.[1404]

كما تعتبر المذكرات بصفة عامة نوعا من تدوين الذاكرة الذي يتميز بحضور الذاتية. وتفيدالمذكرات المؤرخ في المسار التاريخي الذي قطعته السيرة، أو التعرض لوقائع شارك فيها صاحبها، وبعض الأحداث المهمة التي قد يتعرض لها السارد دون أي دافع لتحويرها.

[1400]- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م. س.، ص.63.

[1401]- نفسه، ص. 65.

[1402]- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م. س.، ص.184.

[1403]- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م. س.، ص. 33.

[1404]- Marc Bloch(2006), *L'Histoire La Guerre La Résistance*, Quarto Gallimard, France, , p. 829.

وتُكتب السيرة الغيرية وفق نفس الخطوات لكتابة ذاكرة غيرية، وتحضر فيها ذاتية المدون وتفتقد لدقة الصنف الأول، لغياب الذاكرة الأصلية، خاصة في حالة وجود فرق زمني بين صاحب الذاكرة ووقت تدوينها، وشأنها شأن الكتابات الصحفية والسياسية تفيد المؤرخ إذ ما قرأت وفق المنهج الصحيح.[1405]

عاد موضوع الذاكرة والمذكرات ليشغل حيزا مهما من النقاش في الساحة الثقافية والإعلامية والسياسية المغربية، خاصة بعد إصدار مجموعة من الفاعلين لمذكراتهم، وإذا كان هناك شبه إجماع على اعتبار الإصدارات المدونة لتجارب ومسارات أصحابها تعد شهادة حية من موقع الفاعل أو على الأقل الشاهد الحي على أحداث ووقائع عرفتها البلاد، فمن المهتمين من اعتقد أن ما تم تقديمه شكل فرصة لإماطة اللثام عن حقائق ظلت مغيبة، وفرصة لتمكين الباحثين خاصة المؤرخين من مادة للاشتغال في تفاعل منتج بين الذاكرة والتاريخ، بينما ذهب فريق آخر إلى القول، إن الأمر لا يتجاوز في أحسن الأحوال، تبييضا لصحائف اسودت وتلميعا لصورة تلطخت، أو تكريسا لوهم الزعامات والقيادات، أو تصفية لحسابات والبحث عن إعادة تموقع الذات، أو على الأقل إعادة الاعتبار لها، بقطع النظر عما إن كانت في أوج الطموح أو مالت للأفول وبلغت من العمر أرذله.[1406]

يزداد عمل منهج الذاكرة تعقيدا حين تتحول إلى مذكرات، لأنها تتحول إلى شاهد مادي بعد تدوينها، وتهدف إلى تخليد الماضي، وتعتمد سرد وتحليل الذاكرة، وتعتبر شكلا من الرواية الشفهية غير قابل للتحريف. وتعتمد المذكرات على شهادة الفاعلين التاريخيين المتعهدين بقول الحقيقة، وتلجأ إلى الكتابة باعتبارها آلية للتذكر واستحضار الماضي وتمثلاته.[1407]

تثير المذكرات علاقة عميقة بين الذاكرة لاستحضار الماضي وحفظها من النسيان رغم الفاصل الزمني الحاصل، والأدب لاستعمال التعبير والبلاغة والجمالية اللغوية، والخيال لتجاوز نطاق المعقول أحيانا، ويعترض سبيل تدوين الذاكرة مجموعة من المشاكل المنهجية التي تؤثر على تمثلاتها، أهمها الاكراهات الذاتية والنفسية والسياسية والسياقات الاجتماعية.[1408]

الكتابة مثل أي سلوك بشري واع ومفكر فيه لا تأتي اعتباطا، وتوقيتها وزمن إخراج التدوين من حضن اليراع إلى سوق القراءة لا يترك للصدفة، فمونتسكيو المؤسس الحقيقي لعلم السياسة لم يصدر كتابه عن تاريخ الرومان من أجل ترف فكري أو حبا في التاريخ، إنما موجها من خلاله رسالة إلى لويس الرابع عشر، مفادها البحث في تجربة روما عن نموذج بديل لواقع غير راض عنه. وعندما قررت فرنسا في 8 غشت 1840م تكليف المستشرق الشاب من أصول إيرلندية بارون دوسلان بترجمة أعمال عبد الرحمان ابن خلدون، ورصدت له ميزانية قدرت بثمان مائة ألف فرنك، لم يكن تكريما لصاحب المقدمة بل لحاجة ماسة من أجل فهم مبدأ

[1405]- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م. س.، ص.39.

[1406]- الطيب بياض، الصحافة والتاريخ...، م. س.، ص. 92.

[1407]- عبد العزيز الطاهري، الذاكرة والتاريخ...، م. س.، ص. 21.

[1408]- نفسه، ص. 22.

العمران البشري ببلاد المغارب التي بدأ احتلالها، والمشروع الذي تكلل بالبعثة العلمية مع مطلع القرن العشرين .[1409]

كتابة المذكرات لا تخرج عن هذا المنحى، فهي محكومة بكل تأكيد بهواجس أصحابها وانتظاراتهم، ناهيك عن تعقيدات الذاكرة وعبورها التي ترخي بظلالها على الشهادة/الرواية التي قد يتوهم صاحبها أنه خلع عباءة الراوي/ الشاهد وارتدى جلباب المؤرخ/ المحقق، تلك إحدى المعيقات الأساسية وجوهر الالتباس، خاصة عندما يعمد الشاهد إلى مطالعة كتب التاريخ، أو مذكرات من سبقوه إلى الكتابة من مراحل عاشها شاهدا أو فاعلا، فيعمد للكتابة من موقع ملتبس ذاكرة/تاريخ.[1410]

المبحث الثاني: الأحداث السياسية الراسخة بالذاكرة الجماعية

تحمل الذاكرة الجماعية بالريف الأوسط أحداثاً تاريخية ذات طابع سياسي، وتتقاسمها جميع فئات وشرائح المجتمع الريفي، ونسجت بخصوصها حكايات وأشعار ذات دلالة ثقافية واجتماعية وسياسية، ويمكننا فصل هذه الأحداث من حيث النوعية وطريقة استرجاعها بين نوعين، الأول ذو طابع فخري، حيث يفتخر بهذه الأحداث كل ريفي أمام العناصر الأجنبية، وتشعره بقوة أمجاده، والثاني يرتبط بأحداث أليمة، غالبا ما يتداولها الريفيون فيما بينهم دون التشهير بها، غير أنهم لا يحاولون نسيانها ويعتبرونها شكلا آخر من أشكال القوة والكفاح من أجل البقاء رغم كل الصعاب.

أولا: الذكريات الفخرية

عرف سياق «المجمع المركب» و«العهد الجديد» أمام وضعية «انتقال مركب»، حيث تتقاطع مستويات الاستمرار مع مستويات التغيير، ما أدى إلى إخصاب الحوار حول ذاكرة الماضي القريب، فيما كان الخطاب السائد يدور حول استمرارية الدولة المغربية، وحول أمجاد الحركة الوطنية. وبفضل التراجع النسبي لمنطقة المحرمات، حصل التقاء بين الفاعل السياسي والفضاء الصحفي المتنامي، وأعيدت رواية فصول من الكفاح المسلح، وتراجعت مساحة المسكوت عنه بالنسبة لأحداث ما بعد الاستقلال وما عرفته من تناقضات سياسية، وظهرت رموز جديدة بالذاكرة الجماعية (الشهداء-الملحمة-المأساة-صك الاتهام-طي صفحة الماضي-اتهامات متبادلة زعزعت الاستقرار). وتظل هذه الرموز خاضعة لتحوير الذاكرة وفق ما يخدم منظور الجماعة[1411]، غير أن التاريخ القريب يظل مجالا تتجاذبه أقلام السياسيين والصحافة[1412]. يبقى المؤرخ هو الوحيد القادر على كشف ثراء وتناقض الذاكرة، وفق مناهج علمية، بالإضافة إلى قدرته على الفصل بين ذاكرة الحاكم وذاكرة المناضل المغمور وذاكرة المواطن العادي، وقد يساعد ذلك على الانتقال من ذاكرة الإثارة والألغام، إلى تمثل متكامل لتحولات حقبة معينة

1409- الطيب بياض، الصحافة والتاريخ...، م. س.، ص. 92.

1410- نفسه، ص. 93.

1411- عبد الأحد السبتي (2003)، «بين التاريخ والذاكرة الجماعية تشكلات ورهانات»، **مجلة البحث التاريخي**، العدد الأولى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، ص. 32.

1412- بوميان كرزيستوف، «الكتابة التاريخية بين الهوية والاحتراف»، **مجلة فكر ونقد**، العدد الرابع والثلاثون، الرباط، 2000، ص..32

ورهاناتها. ويجب التمييز بين ثلاث مستويات على الأقل، التاريخ باعتباره وقائع، والتاريخ بمثابة ذاكرة جماعية، والتاريخ في صلب المعرفة القائمة على التحليل لكل من الوقائع والذاكرة. ولن يتم هذا التمييز إلا بتجاوز ذاكرة سلطة القبيلة والأسطورة واكتساب وعي تاريخي، وصيانة الذاكرة الجماعية عبر صيانة الوثائق التاريخية المكتوبة والشفوية، وتوفير أدوات تنقيح الذاكرة الجماعية.[1413]

ارتبط تنظيم المجتمع بالفعل السياسي داخل مجال الريف، وظل لصيقا بالنسق الثقافي المشترك والنظام العلائقي الذي يكون المجموعة[1414]. تخزن الذاكرة الاجتماعية «الشعبية» أو «الفولكلورية» بشكل كامل تقريبا، بينما الذاكرة الجماعية التي تشكلها الطبقات الحاكمة في المجتمع تعرضت لتحولات عميقة، يرتبط قسمها الأكبر عن انتشار الديانات[1415]. والذاكرة عموما ذات اهتمام أخلاقي وسياسي «لواجب الذاكرة»، ولا ينفصل عن النزعة السيكولوجية وأهمية الذاكرة الجمعية، والمقاربة الروحانية التي تعد من الأطر الاجتماعية المكونة للتاريخ.[1416]

تعتبر المعارك التي تجمع بين المسيحية والإسلام أهم ما يعلق بالذاكرة الجماعية، ونلحظ تنافر الذاكرات ارتباطا بالنصر والهزيمة، ويمكننا ربط المسألة بالذاكرة المتفجرة "éclatée" التي تبنى لدى كل مجتمع عاش حدثاً مأساوياً، أو أزمات فرضت مراجعة الذات، وإحداث انحراف في الذاكرة ينتج عنه كتمان الذكريات أو تضخيمها، لخدمة ذاكرة جماعية مشرقة مدعاة للفخر وبناء وعي تاريخي[1417]. وتحتفظ الصور الشعرية الريفية بدور المقاومة في نصر الإسلام على المسيحية،كما يلاحظ في النموذج التالي:

«ثوريد طيارة ثوريدأگذويديم، أذسيدي محمد أون إيمنعن الدين، كنيو ذيمجاهذن زي ربدا، ذجاهذم سوفوس نومجاهذ ندرا تينيبا، سيقذواح نوامان تاريند أگيسورا»[1418]، بمعنى: صعدت طائرة فوق الجبل= سيدي محمد هو من تمسك بالدين، وأنتم مجاهدون منذ الأزل جاهدتم بأيديكم، وجاهدت حتى النساء بحمل الماء على ظهورهن لإرواء عطش المجاهدين.

من بين الذكريات التي يفتخر بها الريفيون انتماء بعض الشخصيات الفاعلة في التاريخ إلى منطقة الريف، وهي نفس عملية بناء الذاكرة التي مرت بها أوروبا، وتناقصت عملية تذكر الأموات في أوروبا خلال عصر الأنوار، ما وصفه ميشيل فوفيل بـ«حذف الموت»[1419]، بينما نجد بالريف الأوسط تعظيم بعض الشخصيات لدرجة أسطورية أهمها، شخصية الشريف

[1413]- عبد الأحد السبتي، «بين التاريخ والذاكرة الجماعية...»، م. س.، ص.33.

[1414]- Joseph Roger and Joseph Terri Brint (1987), *The Rose the Thorn Semiotic Structures in Morocco*, the university of Arizona Press Tucson, p.133.

[1415]- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م. س.، ص.124.

[1416]- دانيال هيرفيهليجيه (2005)، **سوسيولوجيا الدين**، ترجمة: درويش الحلوجي، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، ص.260.

[1417]- محمد جادور(2003)، «الذاكرة وبناء الخطاب التاريخي (معركة الملوك الثلاثة)»، **مجلة الثقافة المغربية**، العددين العشرين والواحد والعشرين، الرباط، ص.191.

[1418]- جميل حمداوي (1997)، صورة عبد الكريم الخطابي في الشعرين العربي والأمازيغي، **جسور**، الطبعة الأولى، وجدة، ص.51.

[1419]- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة...، م. س.، ص.149.

أمزيان، كما نجد في هذه الأشعار من التراث الشفوي:«سيدي محمد أمزيان ءيحاش أوشا يوظا-ءيفارحاس أوروميي يسيث ذي كاروسا-يوض أزرو همار (قرب زغنغان بالريف الشرقي) يوثا ارموسيقا/إيسوض ذي كورنيطا- تسرياس حبيبة ذنهمار سو مطا». بمعنى: نظم سيدي محمد أمزيان حرْكة ضد النصارى لكنه سقط شهيدا. فرح المستعمر لموته ونقل جثمانه في عربة. عندما وصل الموكب إلى أزرو أهمّار أطلق الجنود صوت موسيقى النشيد العسكري. سمعته حبيبة وبكت بحرقة[1420]. الشخصية الهامة الثانية هي محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي يحضر بالذاكرة الجماعية باسم عبد الكريم الخطابي، «عبد كريم أيا رياز نثاريازين، واريتوگد إيذورار واثقهّا)ر(ن أيْراذن، عبد الكريم يغرا ذي فاس، السعذ ومي يعنا السعذ أومي ديتاس»[1421]، أي عبد الكريم سيد الرجال، لا يخشى الجبال ولا تقهره الأسود، درس في فاس وهو صاحب اليمن والجدير بالتوفيق.

ترسخت المعارك الأولى ضد قوى الاحتلال في ذاكرة الريفيين، وكانت أغلب هذه المعارك بالريف الشرقي. وقد دفعت الإسبان إلى دراسة مقومات الريف بشكل أكبر للكشف عن مكامن قوة المحاربين الريفيين، ودراسة القرية الريفية بصفة عامة وباعتبارها مجال حرب بصفة خاصة[1422]، ما جعلها تطبع الذاكرة الإسبانية التي أطلقت على المنطقة تسمية الأرض المحرمة)La Tierraprohibida[1423]، لأنها تعرضت بها لهزائم عديدة كبدتها خسائر فادحة، أهمها معركة «إغزار أووشن»، أي خندق الذئب، وذلك يوم 27يوليوز 1909م بقيادة الشريف أمزيان، وغنم فيها الريفيون وسجلت خسارة في العدة والأرواح في صفوف الإسبان، وتوفي خلالها الجنرال بينتوس، هذه المعركة كانت امتدادا لمعركة سيدي موسى من 20إلى 25يوليوز من نفس السنة)1424(. وتداولت الصحف الإسبانية خبر هذه الأحداث التي اعتبرتها «انسحابا من الحرب» أي انسحاب إسبانيا من الريف) 1425 (، بالإضافة لطرح مسألة استمرارية الحرب بالريف وأن النتائج لم تحسم بعد.[1426]

تتقاطع الذكريات التي تفتخر بها الذاكرة الجماعية بالريف والكتابات الأجنبية، خاصة الإسبانية منها التي اهتمت بتدوين ملاحظات مهمة حول الوعي السياسي للريفيين، والتي

[1420]- بالإضافة إلى أشعار أخرى منها مثلا: غاب الهلال وغابت معه نجومه، غاب سيدي محمد وظهر حصانه، يا سيدي محمد أمزيان أيها المجاهد الحر حزن علك الهلال فلم يتحول بدرا، يُنظر:
- محمد أقضاض، محمد الوالي (2007)، **ملحمة ادهار أوبارّان أنشودة المقاومة الريفية**، مطبعة المناهل، الطبعة الأولى، صص.42-44.

[1421]- جميل حمداوي، صورة عبد الكريم الخطابي...، م. س.، ص.49.

[1422]-*B.N.E.A.H., A.F.G.F.C. 521, Reflexiones acerca de las enseñanzas de la campaña del Rif en 1909, por Don Carlos Banús y Comas, Memorial de Ingenieros del Ejército, Madrid, 1912. p. 9.*

[1423]- *Juan Díez Sánchez*(*1990*), *"Monográfico: campaña del Rif 1909", Revista del centro Asociado de la UNED de Melilla, N°15, p.115.*

[1424]- María Rosa Madariaga (2005), *En el Barranco del Lobo, Las guerras de Marruecos, Madrid, p.17.*

[1425]- *Retirando por Guerra, Heraldo Militar***,** Periódico independiente de la tarde, Número 5.294, Año XVI, Madrid 19 Marzo de 1910, p.1.

[1426]- *La Guerra En El Rif ? Continúa el combate?, El Pais, Diario republicano,* número 8.085, Año XXIII, Madrid, Lunes 4 octubre 1909, p.1.

اعتبرت أن الريف استطاع بناء مجد امتد من انتصار ادهار أوباران وباقي المعارك اللاحقة التي عرفت داخل الأوساط الإسبانية بـ«كارثة أنوال».[1427]

احتفظت الذاكرة الجماعية بالريف بذكرى الشريف محمد أمزيان باعتباره شهيد الحرب الريفية الأولى -19121909م، وإن كانت بالريف الشرقي إلا أن سكان الريف الأوسط يتحدثون عنه بفخر الانتماء، رغم قصر مقاومته حيث استشهد في قبيلة آيث سيدال في 15ماي 1912م.[1428]

كان الشعب الإسباني على دراية تامة بالوضع السياسي الإسباني بالريف، إذ تداولت الصحف اليومية مخططات العمليات العسكرية المطبقة بالمنطقة الإسبانية، ما جعلها تنتشر بالأوساط الاجتماعية، وتكون لهم مواقف منها.[1429]

انعكست الأحداث التي مثلت فخر الريفيين سلبا على ذاكرة الإسبان، واعتبرت انتصارات الريف تربصا جبانا من قبل المغاربة[1430]، وهذا نموذج من الأشعار المأثورة التي كانت متداولة بين الإسبان بعد معركة خندق الذئب:

En el Barranco del lobo hay una fuente que mana,	في خندق الذئب توجد عين تتدفق
Sangre de los españoles que murieron por la patria,	بدم الإسبان الذين ماتوا دفاعا عن وطنهم
Pobrecitas madres como llorarán,	من المحزن معاينة أسى ودموع الأمهات البائسات
Al ver que sus hijos a la guerra van.	وهن يشاهدن أبناءهن يذهبون للموت في الحرب.[1431]

تمثل الريفيون مقاومة محمد بن عبد الكريم كامتداد لمقاومة الشريف محمد أمزيان، ونوع من التحدي للإسبان[1432]، وتكللت بانتصار «أنوال» 21يوليوز من عام 1921م، وتحرير جبل أكركور أو گوروگو الاستراتيجي، ولم يحرر مليلة رغم توفر الشروط لتحقيق ذلك، واعتبرها الأمير من الأخطاء الفادحة التي مر منها، وترسخت هذه الأحداث بالذاكرة الريفية.[1433]

1427- *B.N.E.A.H., R.667.852,* El Expediente Picasso, De Annual A La República Las responsabilidades de la actuación española en Marruecos Julio 1921**,** por Picasso Juan, Javier Morata Editor, Madrid. p.13.

1428- محمد زاهد(2019م)، **الريف التاريخ والذاكرة**، أين برانت، الطبعة الأولى، الرباط، ص.10.

1429-*Nuestra acción en África Las operaciones en el Rif, La Correspondencia Militar,* Número 10.407, Año XXXV, Madrid, Sábado 6 de Enero de 1912, p.1.

1430- *Episodios de la campana* «*Cobarde emboscada de los moros « Ocho muertos y tres heridos el fusilamiento de Ferrer,La Correspondencia de España,* Número 18.872, Año LX, Madrid, Miércoles 13 de Octubre 1909, p.1.

1431- محمد أقضاض، محمد الوالي، ملحمة ادهار أوبارّان...، م. س.، ص.32.

- يُنظر أيضا:

- María Rosa de Madariaga, *España y el Rif crónica de una historia casi olvidada*, ciudad autónoma de Melilla, 1999, p. 284.

1432- أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحررية ومراحل النضال**، نشر عبد السلام جسوس، ج.1، ص.78.

1433- محمد أوحدو (2017)، **الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية نموذج قلعية**، منشورات زمن، سلسلة شرفات، العدد التاسع والثمانون، الرباط، ، ص.60.

تداولت تقارير إدارة الحماية الفرنسية أخبار التفوق الريفي على القوات الإسبانية الاستعمارية، منذ سنة 1921م خاصة التي وردت في الجرائد الرسمية الإسبانية[1434]، والتي تحدثت عن الريف باعتباره قوة عسكرية حقيقية تهدد الوجود الاستعماري الفرنسي والاسباني.[1435]

تصدى الريفيون لتقدم الإسبان نحو ادهار أوباران واحتلاله وإنشاء مركز عسكري في أعلى قمته، وكانت الحامية الإسبانية تحت قيادة رامون ويلبا[1436]. وقد هاجم الريفيون هذا المركز في نفس يوم إقامته وقتلوا أغلب جنوده، وغنموا الزاد والعتاد، الحدث الذي رسخ في الذاكرة الجماعية[1437]. يعتبر التراث الأدبي الشفوي والمكتوب وسيلة هامة للحفاظ على الأحداث التاريخية ودعامة للذاكرة الجماعية[1438]، وتندرج ملحمة ادهار أوباران ضمن هذا التراث الغني، وهي من أكثر الأشعار تعبيرا عن افتخار الريف بالمقاومة الريفية، ويتكون النص الشعري من مئات من الأبيات، أغنته الأجيال من مختلف القبائل الريفية. وقد عمل أقضاض والولي على جمع 138بيتا من هذه الملحمة وتحليلها، حيث تؤرخ بأمانة لكل حيثيات هذه المعركة من موقعها ودوافعها وأبطالها ونتائجها.[1439]

يتذكر الريفيون بكل فخر مقاومة الاستعمارين الإسباني والفرنسي، والتي سعت إدارة الحماية الفرنسية إلى القضاء عليها وتطلب الأمر منها تكتيكاً حربياً ودراسة مسبقة، وعلى حد تعبير الفرنسيين «يجب أن نواجههم كما واجه محمد بن عبد الكريم الاستعمار بالحذر والتريث والتفكير على مستوى التخطيط والقوة على مستوى التطبيق» .[1440]

واحتفظت الذاكرة الجماعية باعتماد الكفاح المسلح لمواجهة المستعمر، وتوسيع قاعدة المقاومين، بالإضافة إلى قضية مشاورات إيكس ليبان وموقف حركة المقاومة وأعضاء جيش التحرير منها، واستمرار تداعيات ردود أفعالهم، خاصة التي تجلت في مواقف محمد بن عبد الكريم الخطابي المعارضة لهذه المشاورات وطريقة الاستقلال، وبالتالي تعارض الموقف الوطني والموقف القومي، وتدخل بعض الأطراف المؤثرة مثل مصر وإسبانيا وجبهة التحرير الجزائرية في مسار هيئة المقاومة وجيش التحرير بالمغرب.[1441]

[1434]- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.2530,* Tierras de Abd-el-Krim, El Sol, Diario Independiente, Número 1.310, Año V, Madrid, jueves 20 de octubre de 1921, Volumen 1. p.1.

[1435]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Série 1MA/100*, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, Dossier XVIII, Rapport Renseignements, Réflexions sur les événements du Riff, le 15 septembre 1921, p.2.

[1436]-Victor Ruiz Albéniz (1994), España en el Rif 1908-1912, colección La biblioteca de Melilla, p.211.

[1437]- دايفيد مونتگومري هارت (2016)، **أبث ورياغر قبيلة من الريف المغربي**، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الريس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، الطبعة الأولى، ج. 2، ص.718.

[1438]- *B.N.E., M.S.S./14157/4, Los Moros del Rif, en tres actos, espaah.96*, Madrid, Volumen. 3, p.141.

[1439]- محمد أقضاض، محمد الوالي، ملحمة ادهار أوبارّان...، م. س.، صص. 221-226.

[1440]- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, Série 1MA/100,* Dossier D.A.I. 196, Les photos N° 73350 et N° 343423, Commandant la Région de Fez (Etat Major), Objet secret, Le 14 Février 1925, pp. 3-4.

[1441]- محمد القبلي، تقديم لأعمال ندوة «الذاكرة والمقاومة...، م. س.، ص. 9.

أما خلال فترة المقاومة والتصدي للقوتين الاستعماريتين الإسبانية والفرنسية، فقد ظل الريفيون متفائلين بالانتصار، ومن الأشعار المخلدة لهذا التفاؤل ندرج هذين النموذجين: أيا موراي موحند الزعيم أسياس، يجّودج حتا أومي يارا أفرانسيس أر دْساس، بمعنى؛ مولاي محند ذلك الزعيم المحنك /السياسي، لقد أقسم على أن يعيد فرنسا إلى الحضيض. وأيضا: أيا رحمام إينو يطاون أور يتروس، راح سيوضا سسرام يا رايس نوفرنسيس، إنياستدوكر نعبد كريم دامنحوس، سوگنغارگنوس يرسا دايي أومنوس، أيها الحمام الذي يطير دون توقف، طر بلغ سلامي للرئيس الفرنسي، وأخبره أن لقاء عبد الكريم نحس عليه، هجمت علي الدول فسكن في كياني القلق.[1442]

وشم انطلاق عمليات جيش التحرير في إگزناين بالتحديد ذاكرة أهالي هذه القبيلة وقبائل الريف المجاورة، إذ يعتبرها الجزنائيون مفخرة لهم. وقد فاجأت هذه العمليات الفرنسيين وجعلتهم يتذكرون زمن حرب الريف ما بين 1921-1926م. ولا يقتصر الربط بين مقاومة العشرينات والعمليات الفدائية في منتصف القرن العشرين على هذا العنصر فحسب، بل يتعداه إلى دور محمد بن عبد الكريم في تأطير عمل أعضاء جيش التحرير، وارتباط مجموعة من هؤلاء الأعضاء بحرب الريف. فعبد القادر شطاطو قد قتل والده لارتباطه بالخطابي، والحسن الزكريتي كان قائد المائة خلال حرب الريف، ومحمد عمر أختو ابن أمغار القبيلة الذي جرح خلال سنوات المقاومة، وعمر الريفي ردد كثيرا أنه فاتته الشهادة مع ابن عبد الكريم وانتظر ثورة ضد المستعمر، وعبد العزيز أقضاض قائد هجوم بورد يوم 2أكتوبر 1955م، سبق لأبيه أن حارب بمعية الورياغليين.[1443]

غير أن جهاد الجزنائيين، الذين أدوا واجبهم الوطني وعادوا إلى حقولهم، قوبلوا بالتهميش ولم تلتفت إليهم أنظار مغرب بعد الاستقلال. لقد تُرجمت بطولاتهم في مذكرات تاريخية تنم عن ما قاموا به وما حققوه من منجزات في المقاومة والتحرير، رغم أنها في بعض الأحيان لا يعكس حقائق واقعية، إذ تحكمت في مجلها مزايدات سياسية وغيبت فيها المصلحة العليا للوطن وللمؤسسين الحقيقيين والفعليين لحركات التحرر الوطني، بما فيها الفئات الشعبية من حرفيين وفلاحين وصناع ومهنيين. وظهرت بالمقابل أعمال مصححة حاول تبني الأمانة التاريخية من أجل ترميم صورة النضال الوطني والشعبي، وحركات جيش التحرير الحقيقية، منها مذكرات حمادي العزيز، والهاشمي الطود، وعمل محمد لخواجة. وهؤلاء، بالإضافة إلى قواد ميدانيين لجيش التحرير ينفون تلقيهم أوامر من قيادات الناظور وتطوان، ولا يخجلون عند حديثهم عن التصريح بارتباطهم بمحمد بن عبد الكريم الخطابي وبتوجيهاته واستشاراته خلال معارك 2 أكتوبر 1955.[1444]

تعتبر عمليات جيش التحرير بجبال إگزناين التي انطلقت في اليوم الثاني من شهر أكتوبر 1955م، بعد إعداد ميداني سري وتعبئة شعبية محكمة، ووقعها الكبير على القوات الفرنسية،

[1442]- محمد أقضاض، محمد الوالي، ملحمة ادهار أوبارّان...، م. س.، ص.127.

[1443]- محمد أمزيان (2018)، **لعنة عبد الكريم**، تيفراز أريف، الطبعة الأولى، تطوان، صص.143-151.

[1444]- نفسه، صص.147-149.

أهم ما وشم الذاكرة الجماعية بالريف الأوسط، وحفظت ذكرى قائدها عباس لمساعدي ولحسن ن حموش المنتمي إلى آشث عاصم بإگزناين. كان مصير عباس لمساعدي مأساويا.

لقد عرفت آيث ورياغر خلال هذه الفترة انتفاضة ضد أحمد بودرة، وأمر الإسبان بإطلاق النار على المحتجين وعزل القائد من منصبه، وحصل المغرب على الاستقلال في نفس السنة، وقد خلدت الأهازيج الشعبية هذا الحدث بأبيات مثل: أفرانسيس قايْشمض أم ونيسشمضن كَارو، ذاɣروا ننبي وسن إيجارّي والو، بمعنى احترق الفرنسيون كما تحترق السيجارة وأبناء المسلمين لن يمسهم سوء.[1445]

ثانيا: الذكريات الأليمة.

ترسخت الأحداث التي سبقت الاستعمار بالذاكرة الريفية، خاصة ما تعلق بالحملات التأديبية التي شنها المخزن على الريف، وكانت حملة بوشتى البغدادي عام 1898م هي الأكثر ثقلا وحضورا في هذه الذاكرة. ومن الأحداث المؤثرة الأخرى نذكر تلك المرتبطة بظروف تقسيم المغرب من قبل الاستعمار وفق اتفاقية الجزيرة الخضراء 1904م، والتدخل الاستعماري للأفريقانيين الإسبان، وامتدت الذاكرة الريفية إلى عمق أكبر من ذلك، حيث شملت حرب تطوان 1859-1860م، واحتلال الجزر الجعفرية سنة 1848م، وتصنف كلها ضمن الأحداث العنيفة من قبل المستعمر.[1446]

ترسخت أيضا في الذاكرة الجماعية هجمة الجيلالي الزرهوني على الريف، الثائر الذي أطلق عليه اسم الروگي لادعائه أحقيته بالعرش، الادعاء الذي سبقه إليه أحد المنتمين لقبيلة رياگة، وأخضع قبائل الريف الشرقي بعد فشل مقاومة البشير بن سناح 1903م، وهو قائد سابق للمخزن المغربي بفرخانة. وبسط الجيلالي سيطرته على الريف الأوسط وعين بها عددا من القياد أهمهم في قبيلة إگزناين: بوحوت أرعاصمي من بورد على رأس قمة آشث عاصم، محمد ن أحمد من ثارا ثازوگاغث على رأس قسمة إمزذورار، أحمد أو برشان من أزرو على قسمة آشث يونس، علال ن دحو على رأس قسمة آشث محند، والقايد المذبوح على قسمة آشث روضا، الذي أصبح قائد إگزناين بأكملها بعد الحماية الفرنسية[1447]. واعتبر الريفيون أن عدم حماية المخزن لمنطقة الريف هي التي جعلته يقع تحت سيطرة الجيلالي الزرهوني.[1448]

تحمل الذاكرة الجماعية عادة بقايا وآثار ما تعرضت له من هجومات، ومظاهر انتهاك حقوق الإنسان بها من قبل قوى الاستعمار الأوروبية[1449]، ومن طرف ممثلي المخزن إذ يشعر

[1445] - دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م. س.، ج.2، ص. 813.

[1446]- Badiha Nahhass (2014), *La mémoire et ses usage : Le cas du Rif,* Thèse du Doctorat, sous la direction de Mohamed Tozy, en formation doctorale sciences sociales, Université Hassan II, Casa Blanca, p.24.

[1447]- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م. س.، ج.2، ص. 692.

[1448]-Badiha Nahhass, *La mémoire et ses usage…,* op.cit., p.28.

[1449]- كلود ليوزو (2007)، **العنف والتعذيب والاستعمار من أجل الذاكرة الجماعية**، ترجمة الصادق عماري وآخرون، دار الفضيلة للنشر، الجزائر، ص. 9.

الريفيون أنهم تعرضوا للاستغلال من قبل أجهزته التي سمحت للمستعمر باستغلال مناجمه، وهو الأمر الذي تم بتسخير جيش الأفريقانيين الإسبان.[1450]

وافق السلطان المغربي على الاتفاق الإسباني الفرنسي حول تقسيم المغرب الموقع بمدريد يوم 27نونبر 1912م، بظهير شريف صدر يوم 13ماي 1913م، ولم تتمكن إسبانيا من بسط سيطرتها على هذه المنطقة إلا بعد أن تم القضاء على المقاومة الريفية سنة 1927م[1451]. وقد رافق هذا الاحتلال استغلال الموارد الطبيعية المحلية، ويسترجع الريفيون بهذا الصدد ذكريات وضع البنيات التحتية من أجل استغلال مناجمهم.[1452]

ظل الإسبان في الذاكرة الريفية قوة استعمارية هامشية رسخت تهميش الريف، رغم مجموعة من الدراسات التي اعتبرت الريف مجالا خصبا للاستغلال الاستعماري[1453]، عكس الاعتقاد السائد حول الاستعمار الفرنسي، غير أن حرب الغازات السامة ارتبطت بالإسبان في الذاكرة الريفية.[1454]

يتذكر كل ريفي بحرقة مظاهر التعذيب الاستعماري، غالبا عن طريق الذاكرة المتواترة، والتي تتضمن انتهاك مبادئ حقوق الانسان، وفق مجموعة من الممارسات التي عمد إليها الاستعمار الإسباني بالخصوص في حق الريفيين، والتي تتمثل في قطع الآذان مثلا.[1455]

احتفظ الشعر الريفي بتأريخ مأساة الحرب، وهذه بعض الأشعار المخلدة لهذه المأساة «مّي أذرار نرحمام امّي أورنوفي رهْنا، أمان ديسماضن سرقاحن ذاسطا، سبانيا يا سبانيا يا ثن يارغين أشْعّار، سيغد فوس نم أذام إنيغْ شْحار»، أي بمعنى: يا ابني يا جبل الحمام نحن لا نعيش في سلام، المياه فيك باردة تنعش الأشجار اليافعة، إسبانيا يا إسبانيا يا تلك التي أشعلت النار في كل شيء، مدى لي يدك أعد لك كم من الضحايا.[1456]

أفرز التقسيم الاستعماري لقبائل الريف الأوسط إلى منطقة فرنسية وأخرى إسبانية، ذاكرتين استعماريتين حيث أن أهالي إگزناين يسترجعون باستمرار ذكرى استبداد الجنرال ليوطي، والاضطهاد الفرنسي الذي طالهم منذ 1925م، بينما تحتفظ المنطقة الإسبانية بكل أنواع التدمير الاستعماري الإسباني، خاصة خلال المرحلة الفرانكوية، لكن من بين الأحداث المرتبطة بالاستعمارين معا، وتحتفظ بها الذاكرة الجماعية في قبائل الريف الأوسط، النصر الفرنسي-الإسباني على الريف، بعد أن عبر الفرنسيون مدينة تازة، مرورا بمناطق قبيلة إگزناين يوم

1450- Momoun Aziza, *La sociedad rifeña...,* op.cit., p.24.

1451- Badiha Nahhass, *La mémoire et ses usage…,* op.cit., p.28.

1452- Momoun Aziza, *La sociedad rifeña…,* op. cit., p.100.

1453-*B.N.E., 47/613266, Marruecos El Rif Melilla,* Nociones de Política Hispano-Marroquí, por G. Reparaz, Biblioyeca de Emilio Bonelli y Hernando y de Juan María Bonnie y Rubio, Madrid, 1893. P.7.

1454- Mimoun Aziza, « Le Rif **…**, op.cit., p. 34.

1455- كارتلون ستيفنس كون (2020)، **لحم الثور البري**، ترجمو عبد المجيد عزوزي، الطبعة الأولى، سليكي أخوين، طنجة، ص. 237.

1456- محمد أقضاض، محمد الوالي، ملحمة ادهار أوبارّان...، م. س.، ص. 122.

14شتنبر 1925م بقيادة الجنرال بواشو Boichut Le généralوبتنظيم المارشال بيتان Le maréchal Pétain، بالتزامن مع العنف الممارس في المنطقة الإسبانية بداية من تطوان، حيث عرف الريف خسائر وأحداث وشمت الذاكرة الجماعية[1457].

تعرض الريفيون لضغط الحرب الاستعمارية التي ظلت عالقة بأذهانهم، رغم أن أغلب نتائجها كانت مدعاة للفخر بالنسبة لهم، إلا أنهم خسروا أيضا الكثير، وسجلوا خسائر في الأرواح. وتبقى فظاعة الحرب مرتبطة بالمعاناة من الأسلحة الكيماوية المتمثلة في غاز الخردل القاتل ذي التأثير السيئ على الإنسان والمجال، غير أن الإسطوغرافيا المغربية تجاهلت مسألة استخدام الغازات السامة من قبل الجيش الاستعماري. أما بالنسبة للريفيين فقد كان استخدام «أرهاج» أي الغازات السامة بالريفية، أمرا معروفا، بحيث صرح أحد الشاهدين «شيء يشبه الكبريت كان ينزل من السماء، أصيب الناس بالعمى، واكتست جلودهم اللون الأسود ثم تتساقط، أما المواشي كانت أجسادها تنتفخ قبل أن تنفق، فجأة أضحى النبات يابسا، وظللنا أسابيع لا نشرب الماء من الجداول. قيل لنا إن الماء كان مسمما».[1458]

وشم الضغط الفرنسي الإسباني على الريف الذاكرة الجماعية بذكريات مؤلمة، وتبقى أبيات ملحمة ادهار أوباران نموذجا لطريقة حفظ هذه الذاكرة لمآسي الحرب عموما، «أيا ربي مامشغاگغ إخدوج نعمي خمي ذاييغاذرقا؟ خمي ذاييغاذيني موح ماني يكّا؟، موح أمجاهذ ذنغيث حارّاقا. أيا ربي مامشغاگغ إوابر أبارشان إمهوباد سومطا؟ أيا حنا يما خيفادن إنو إديوطا.أموراي موحند شحار أومي غانصبار، طيارا ثزگجنا فارگاطات زي ربحار»، بمعنى: إلهي كيف سأتصرف حين ألتقي بخدوج بنت عمي وتسألني عن سبب عدم عودة موح؟ هذا المجاهد الذي قتلته رصاصات الرشاش، ربي كيف سأتحمل رؤية دموعها المنهمرة التي تنساب عبر أهدابها السوداء وتسيل على ركبتاي؟ يا مولاي موحند إلى متى هذا الصبر؟ الطائرات تقصفنا من السماء والغواصات من البحر.[1459]

لم تحقق إسبانيا النتائج المرجوة رغم لجوءها إلى استعمال السلاح المحظور دوليا، ولم تنته المقاومة الريفية إلا بتحالف الدولتين فرنسا-إسبانيا وضرب حصار دولي على الريف بحجة منع تهريب الأسلحة.[1460]

ارتبط تكالب التحالف الفرنسي الإسباني ضد الريف بأحداث أليمة وشمت الذاكرة الجماعية، كان أهمها استسلام الأمير الخطابي الذي كان اضطراريا من أجل وقف نزيف الحرب اللامتكافئة، وما رافقه من أحداث محورية، أهمها مؤتمر وجدة أو ما يسمى بالمؤتمر الريفي الفرنسي الإسباني للسلم، الذي شارك فيه محمد أزرقان وحدو بن حمو وأحمد شيدي من الجانب

[1457]- Emile Auguste Marie Laure(2017), *La Victoire franco-espagnole dans le Rif*, Dar Al Aman, mémoire retrouvée, Rabat, pp. 82-83.

[1458]- محمد أمزيان، لعنة عبد الكريم...، م. س.، صص.131-132.

[1459]- محمد أقضاض، محمد الوالي، ملحمة ادهار أوبارّان...، م. س.، ص. 142.

[1460]- محمد أمزيان، لعنة عبد الكريم...، م. س.، ص.125.

الريفي[1461]، وتزامنت هذه الأحداث مع استعمار قبيلة إگزناين من قبل السلطات الفرنسية التي أدرجتها ضمن منطقة الحماية الفرنسية بدل الحماية الإسبانية كما كان مخططا له سابقا.[1462]

وتعد أحداث الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939م من أهم ما رسخ بالذاكرة الجماعية الريفية[1463]، حيث جندت إدارة الحماية الإسبانية حوالي أربعين ألف رجل تابع للمنطقة الخليفية يوم 18يوليوز 1936م، سبعة عشر ألف كانت وفق التجنيد الإجباري، وبموجب ظهير شريف 18نونبر 1936م خصص مندوب شؤون الأهالي 3.328.838بسيطة لإنشاء محلات خليفية جديدة وتقوية الفرق الموجودة، وإضافة عشرين رجلا في كل مجموعة، وإنشاء جهاز قوات متنقلة من الرماة الريفيين والقوات المساعدة برئاسة القياد.[1464]

رغم أن أحداث الحرب الأهلية لم تكن على أراضي الريف، إلا أنها استنزفت الطاقات البشرية الريفية، واستعملتها في حربها. وتمخضت الحرب الأهلية عن 165000قتيل مغربي، و1700 مفقود، و5300 من المتوفين لاحقا نتيجة الجروح، و4500 معطوب، و39125 مجروح، و26500 عائد من الحرب، و26000 ظلوا في صفوف الجنود بعد الحرب، أي ما مجموعه 268125 جندي. وشكل التابعون للاستعمار الإسباني نسبة 26%من أصل 46%مغربي .[1465]

دعت إسبانيا المحميين الريفيين لحمايتهم، الأمر الذي نجح فيه المجندون نجاحا منقطع النظير، وأصبح عدد من الورياغليين حراسا شخصيين لفرانكو وعائلته، وهذه بعض النماذج من الأشعار التي احتفظت بها الذاكرة الشعبية الريفية المرتبطة بالحرب الأهلية: «عگظر حزام انّم أ)ر(ني خاس رمضمث، نشين نگور غاسبانيا أنمث»، أي؛ شدي حزامك وضعي فوقه نطاقا آخر، فنحن ذاهبون لإسبانيا لنموت.«سبانيا غاس رعذو ابطان ذبيلاجن، فرانكو ذا روخو خس تمعواجن»، أي؛ إسبانيا تعيش عداء قسمها لمداشر، فرانكو والشيوعيون حولها يتنازعون.«سبانياذشورمذريذ إعمّار إيسيغ رهم إشم يا بوحبر يا رعمار»، بمعنى: رغم أن إسبانيا ومدريد تعجان بالناس فأنت الوحيدة من تشغل بالي يا روحي ويا عمري .[1466]

انطلقت الحرب الأهلية الإسبانية من شمال المغرب بقيادة فرانكو ضد النظام الجمهوري الاشتراكي، وجند الريفيين بمختلف الوسائل التآمرية، الأمر الذي اعتبره عبد الخالق الطريس والمكي الناصري، حبا من الريفيين للدين ضد الشيوعيين، ولم يكن تجنيدهم لمحاربة الفقر، إنما انتقاماً من فرنسا[1467]، وربحا للوطنية المغربية[1468]، رغم أن القائدين استفادا من الحركة

1461-*A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Série 1MA/100,* Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, Dossier D.A.I. 196, Le Capitaine Bertot, Pour La Paix Rifaine, le 3 Mai 1926, p. 3.

1462- Harris Walter B. (1927), *France Spain And the Rif*, Edition Edward Arnold and Co., London, , p.332.

1463- Mimoun Aziza, «Le Rif …, op.cit., p. 32.

1464- ماريا روسا دي مادارياغا (2006)، **مغاربة في خدمة فرانكو**، ترجمة: كنزة الغالي، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص.109.

1465- مصطفى الغديري(2009)، «مشاركة أبناء الريف في الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939م من خلال الشعر الأمازيغي بالريف»، **الريف موضوعات وقضايا**، الطبعة الأولى، وجدة، ص. 57.

1466- دايفيد مونتگومري هارت، أيث ورياغر...، م. س.، ج.2، ص. 798.

1467-جريدة الحرية، تطوان، العدد، 1939/4/2.

1468 -جريدة الوحدة المغربية، عدد 1939/3/8.

الفرانكوية، إلا أن إيراد آرائهم أمر لا بد منه، والواقع أن كبار القواد (منهم أحمد الرهوني التطواني) بالمنطقة الإسبانية هم من عملوا على إرسال المجندين للحرب، باتفاق مع فرانكو.[1469]

حفظت الذاكرة الجماعية جميع مراحل الحرب الأهلية والمشاركة الريفية بها، وعبر الشعر عن سرعة التسجيل في التجنيد وإرسالهم إلى جبهة القتال، كهذا النموذج؛ «ربي مرمي نورا ربي مرمي نزوا ربي مرمي ننا الله إهنيكآيما»، أي: إلهي متى سُجلنا إلهي متى عبرنا البحر إلهي متى ودعنا أمهاتنا، وسجل أيضا مسألة تجنيد الفتيان الصغار (25-15سنة) الذين يفتقدون التجربة، «أمونمد أيحنجيرن اساسمد السينيث، نشين أقانويار غاسبانيا أنمث»، بمعنى: اجتمعوا يا صبيان حول الصينية، فنحن ذاهبون لنموت بإسبانيا، وخلَّد الشعر يأس المجندين، وفقدان الأمل في العودة أحياء من الحرب، «أغارابو أورومي ذي مريش يتراجاي رالا ذامو)ر(ث إينو عماص ذزريظاي»، أي: سفينة النصارى بانتظاري بمليلة، أرضي الحبيبة لن تريني بعد اليوم»، وأشار أيضا إلى أسباب التجنيد في صفوف الإسبان: «نشين نويو)ر(نزوا ودنجي بو ذازوا)ر(ث، رالا ذامو)ر(ث انغ ازّون ذايم ذزوكَا)ر(ث»، أي:رحيلنا عن أرضنا وعبورنا إلى الضفة الأخرى للقتال لا يعني الخزي والهوان، فقد اضطررنا لذلك نظرا لتفقير أرضنا المزروعة بالسدر.[1470]

الفقر إذاً، من الدوافع الأساسية لانخراط أبناء الريف في الجندية والمشاركة في الحرب الأهلية الإسبانية، وهو ما تضمنته وثائقية الشعر الريفي كما نلاحظ في هذه النماذج:«جاي أيما أجاي أذبوليسغ، إشت تبويوت أتتغ إشت أمتيد سقاذغ»، أي:دعيني أمي أنخرط في الجندية أكل خبزة وأبعث لك بالأخرى، «أذمغارث أوبوليس تارزا فوذ ذي تاسا، ذقاز إيرني ذي رعوظن باطاطا»، أي: زوجة الجندي غرست ركبتها وتقوم بالبحث عن ثمار الدغفول عوض البطاطس، «والله ماذاشسامحغ أباب إيمندي، ذميجا إنو ذحارشا سحرشيد ايرني»، أي؛ لن أسمح لك يا مالك الشعير لأن حنجرتي تأذت بشوك الدغفول، «إگعد أوبوليس إگعد إنْطّو، يويد كيلو ندرايشيت أوفرطو»، أي؛ عاد الجندي سعيدا يحمل كيلو غراما من الذرة التي نخرها الدود، «إگعد أوبوليس إگعد إخيق، يويد كيلو ندرا ذكيلو نصارباو إنق»، أي؛ عاد الجندي حزينا يحمل كيلوغراما من الذرة والنخالة القاتلة .[1471]

وصف الريفيون تراجيديا الحرب الأهلية في صور شعرية متداولة، كما يتضح في هذه الأمثلة: «أروح سكاساسرام إيما ما ذدار، إناس إكساس أفوس إيناس إكساس أوضار»، أي: بلغ سلامي لأمي إن كانت على قيد الحياة، وأخبرها أني فقدت يدي وفقدت ساقي. «أذمغا)ر(ث أوبوليس شفايا مزيرم سمن، أقا أرياز انم ذي اسبانيا يسمم»، أي؛ كفاك يا زوجة الجندي من إعداد وتناول الفطائر فزوجك تعفن بإسبانيا. «أثمغارث أوبوليس مايتعجيبام أوضير، أقام أرياز انم سبعيام واينضير»، أي:يا زوجة الجندي كيف تستمتعين بتناول العنب وزوجك مات في الحرب وظل سبعة أيام دون دفن. «أيا رالا يما مانا رهنا يا نهنا أقا رعيذ أمقران نسعدوث ذي

1469- أحمد الرهوني (1937)، **الرحلة المكية**، منشورات معهد الجنرال فرانكو، تطوان، ص.213.

1470- مصطفى الغديري، «مشاركة أبناء الريف في الحرب الأهلية الإسبانية...»، م. س.، ص. 64.

1471- نفسه، ص. 65.

فيلا»، أي؛ لسنا مرتاحين أبدا فقد أمضينا عيد الأضحى في صفوف المعركة. «أيا رعيذ أمقران نعيذ سوبوري، أرامي موثن رعسكار ينغيثن أورومي»، أي؛ ضحينا يوم العيد بسمك البوري لما مات جنودنا قتلهم النصراني.«حد يكساس أوفوس حد يكساس أوضار، أسبانيا ذيرفث إذانغ يجّين ذيمعذا)ر(»، أي؛ فقد جندي يده وفقد الآخر ساقه، إسبانيا الخنزيرة هي التي جعلتنا معطوبين.«غزو ذايي ذگا سبانيا ذي مالاغا، رامي ذايي ذوي ذاروا ن عمي مارا»، أي؛ أبشع ما ارتكبته إسبانيا في حقي في مالقة، عندما أخذت جميع أبناء عمومتي.«ربو)ر(قي نزاج ذي سبانيا إهدم، مين يويذارومي مين يويذامسرم»، أي: القنابل الزجاجية تنشر الخراب في إسبانيا، فكم قتلت من النصارى ومن المسلمين. «اسوكار أزوگاغ إذامن نرخو إعانيثيذ أوليمان إمورو أثيسو»، أي؛ السكر الأحمر كدم الشيوعيين الذين أرسلهم الألمان ليشرب دمهم المغاربة، «سوگد أياليمان نيغ أدسوگغ انيث أروخو بوشنكوك يخس أذيحكم انيث»، أي؛ تقدمي يا ألمانيا أو نتقدم نحن، الشيوعيون/الجمهوريون يريدون حكم إسبانيا بمفردهم، «بيس أبياس اينمعذراس أزيار، أبوليس نمدريد والله عماص يظهار»، أي؛ أربطي حزامك بإحكام فمجند مدريد لن يظهر مجددا، «أذيبريغين انغ وقطعند بورياس توسيد إجنتبرات زي سبانيا لا باس»، أي: لا تيأسن يا فتيات، فقد وصلت رسالة من إسبانيا تقول بأن جنودنا بخير. «أغاربو إقلع فارياطا تارسا، أيا للا يما نومرو فورسا يقضى»، أي: انطلقت السفينة وتوقفت البارجة تم الإعلان عن نهاية أرقام الجنود.[1472]

كما تَعْرض الأشعار التي تؤرخ للحرب الأهلية موقف المرأة من هذه الحرب، «أيا رالا يما ميممي السعذ إينو عيسى أقا يويار مايمي ذودارث إينو»، أي: أماه ما هذا الحظ بعد أن غادر عيسى، إذ لم يعد لحياتي أي معنى. « وارتيويغ أبوليس واخا غاييري ذنور، واخا غاييري احكم زي مريتش أر الناظور»، أي؛ لن أتزوج بالجندي وإن كان زهرة وإن كان يحكم من مليلة إلى الناظور.« واتيويغ أبوليس واخا ذاي غايوزن، ذبويوت نوغروم إفرقيت خوزين»، أي؛ لن أتزوج بالجندي وإن قدم لي وزني ذهبا، رغيف خبز يقسمه لحصتين. «عاماين إكيغ خوباذو نربحار تراجيغ، أبوليس ذي الحسيمة أديظّار»، أي؛ داومت الجلوس على شاطئ البحر لمدة سنتين أنتظر نزول الجندي بميناء الحسيمة، لكن دون جدوى. «أسبانيا ذيرفث وكَصبحنثيوآشث، ذجّا إوْسّورا زنوزان ذاهندشث»، أي: تركت إسبانيا الشيوخ يبيعون التين الشوكي».[1473]

انعكس التوتر الذي عاشه الريف أثناء الحرب الأهلية الإسبانية على الإسبان المتواجدين بالريف، والذين نجدهم يسجلون مذكرات بخصوص وضعية الريف خلال هذه الفترة، وعدد المشاركين من كل قبيلة.[1474]

تستحضر الذاكرة الجماعية الأحداث التي تلت الحرب الأهلية، وانطلاق عمليات جيش التحرير، بفضل شهادات حية لأفراد عاشوا المرحلة، إذ تعد أهم قضايا التاريخ الراهن الراسخة

[1472]- مصطفى الغديري، «مشاركة أبناء الريف في الحرب الأهلية الإسبانية ...»، م. س.، صص. 68-71.

[1473]- نفسه، ص. 72.

[1474]- Dionisio Pereira (2019), *Desvelando una memoria incómoda la represión Franquista en Alhucemas tras el golpe militar de 1936,* Vicente Moga, Melilla, p.10.

في الذاكرة، والتي تفجر ظاهرة الصراعات غداة الاستقلال في عمق المقاومة، وما أدت إليه من اغتيالات واختطافات في ظروف ظلت غامضة إلى الآن، مع أنها تظل في حاجة إلى استجلاء الدوافع الموضوعية أو الذاتية التي وقفت وراء تفاحشها، مع محاولة التعرف على الأطراف المتدخلة في الصراع، بالإضافة إلى التعرض إلى مسألة دمج أعضاء جيش التحرير في الجيش الملكي.[1475]

رغم الفخر الذي يشعر به الريفيون عند ذكر حيثيات جيش التحرير، تصاحبه آلام هجرة إگزناين العزل نحو المنطقة الإسبانية سنة 1955م، أو ما يطلق عليه «أسوگاس ن الهجرة»، مستغلين الفترة العصيبة التي جمعت بين إسبانيا وفرنسا، وتخصيص أماكن خاصة بهم للإقامة هناك طيلة فترة الحرب. وبخصوص هذه الفترة نجد مجموعة من الروايات التي يمكن تقسيمها إلى صنفين: الأول يعود إلى الشهادات النسائية التي تروي واقع الألم بعد أن تركن كل شيء خلفهن، وعدم تكيفهن مع طبيعة عيش قبيلة آيث توزين ومنطقة بوعرمة بالتحديد التي كانت وجهتهن، بحيث لم يكن باستطاعتهن ممارسة حياتهن الطبيعية رغم معاملتهن بطريقة حسنة وطيبة[1476]. حكت بعضهن عن واقع الحرب واقتراب الطائرات من منازل إگزناين، ما جعل خيار الهجرة أمراً محتوما/ لا مفر منه، وأجبرهن بالتالي على الهجرة الجماعية نحو المنطقة الإسبانية[1477]. ووصفت أخريات بؤس المشهد أثناء تحميلهن لمتاعهن البالي على أبقارهن، حيث فقدت بعض الأسر ماشيتها في الطريق[1478]، ما جعل إگزناين موضع سخرية القبائل الأخرى، إذ حفظت الذاكرة الجماعية هذا البيت الشعري مثلا؛ «أيبريغن نّغْ أيازرو ن دساس، أيا يث عرو عيسى أجاثير خوفوناس»، أي: يا رجالنا يا حجر الأساس، هل بلغكم خبر أهالي آيث عرو عيسى الذين حملوا أمتعتهم على ظهور البقر[1479]. والصنف الثاني من الروايات حول أحداث هجرة إگزناين كما يتذكرها الرجال، حيث يبرز الوجه المشرق والإيجابي ويغيب الإفصاح عن الوجه المؤلم للوقائع. هكذا، نجد من بينهم من يروي قوة وبأس أبناء إگزناين ومواجهتهم للاستعمار الفرنسي، وعمق تنظيم مقاومتهم، وفخرهم أثناء رفع العلم المغربي بعد العلم الفرنسي، ويسترجعون ذكريات أقرب إلى الخيال من قبيل حضور السلطان سيدي محمد بن يوسف في عملية إعادة دفن عباس لمساعدي بإگزناين بعد نقله من فاس.[1480]

بصفة عامة يعتبر تاريخ الريف حاملاً لنسق ثقافي، وبيئة اجتماعية تحدد هويته، ويبدو ذلك أكثر وضوحا حين نستقيه من الذاكرة الجماعية، التي تعاد مقارنتها بالوثيقة المكتوبة، والتي تكشف عن ذاتية عميقة تضيف وتنفي كلما اقتضى الأمر.

[1475] - محمد القبلي، تقديم لأعمال ندوة «الذاكرة والمقاومة...، م. س.، ص. 10.

[1476] - شهادة خديجة البوبكاري، مواليد 1931م، تم تسجيل المعلومات يوم 17 فبراير 2019، بتيزي وسلي.

[1477] - شهادة الوازنة بودرة، من مواليد 1929م، تم تسجيل المعلومات يوم 17 فبراير 2019، بتيزي وسلي.

[1478] - شهادة سعدية بوبكري، من مواليد 1940م، تم تسجيل المعلومات يوم 17 فبراير 2019، بتيزي وسلي.

[1479] - شهادة تميمونت قوبع مواليد 1955، تم تسجيل المعلومات يوم 26 مارس 2020، بتيزي وسلي.

[1480] - شهادة عمر المساوي مواليد 1939م، تسجيل الشهادة تم يوم 29 نونبر 2018م، وأضاف في شهادته أن الضابط الفرنسي الذي أنزل العلم ليقوم عمر المساوي برفع العلم المغربي، أخبره أن عنف الاستعمار الفرنسي سيكون ألطف من جفاء المخزن تجاه الريف.

خاتمة

ارتبط البحث في موضوع «الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية» بالإشكالية المحورية المتمثلة في كيفية استثمار معطيات التاريخ المكتوب ورواسب الذاكرة الجماعية، وذلك بهدف إعادة تركيب تاريخ الريف الأوسط وفق عمل مونوغرافي يلامس الجوانب المجالية والإنسانية والسياسية، وفق إطار منهجي أملى علينا ضرورة تفكيك عناصر الإشكالية الرئيسية، حيث تم تناولها بالدراسة عبر مباحث الأطروحة التي انتظمت ضمن تسعة فصول داخل ثلاثة أبواب. والآن بعد اختتام العمل، يمكننا القول أننا قدمنا إجابات إيجابية فاقت الإخفاقات.

وقد اعتمادنا الرواية الشفهية والذاكرة الجماعية المستمرة، رغم تميز التاريخ السياسي بالريف الأوسط بكم وثائقي هائل، قصد وضع مقارنة بين محتوى المصدرين التاريخيين المكتوب والمروي، للكشف عن المغيب والحاضر في تاريخ الريف الأوسط، ومنه في تاريخ القسم الشمالي للمغرب الحديث والمعاصر.

أدركنا من خلال اعتماد المصادر المكتوبة التي تعرضت للمسار التاريخي للريف الأوسط، وتنقيح رواسب الذاكرة الجماعية على ضوء المنهج التاريخي، لتفادي أسطرة الماضي وتهويل أحداثه مقابل كتمان بعضها، أن الذاكرة الجماعية تحفظ إطار الريف الجغرافي وأسس نشوئه، ولها قدرة على حمل أنساقه الثقافية وأطره الاجتماعية، ونقل الممارسة الثقافية والفعل الاجتماعي ضمن هذا الإطار العام ذاته، كما رسخت تاريخه السياسي الذي طالما اعتبر جزءاً من ثقافته.

عملنا على استقراء وتركيب النقط المشتركة في تاريخ المجال المدروس المكون من ست قبائل منتمية للريف الأوسط، منها ثلاث قبائل جبلية داخلية، وثلاث ساحلية. وأكبر القبائل الداخلية هي إگزناين، التي تمثل بداية الريف الأوسط، وتحدها جنوبا قبيلة البرانس، وشرقا قبيلة أيث توزين، كما أنها قبيلة حدودية تتوسط الريف الأوسط والشرقي، ثم أيث عمارث التي تقع شمال غرب إگزناين، والتي تعتبر أصغر قبيلة داخلية. أما أكبر القبائل الساحلية ضمن المجال المدروس فهي قبيلة أيث ورياغر التي تحدها إگزناين شمالا وأيث توزين غربا، فيما تتوسط كلاً من ثمسمان غرباً وإبقوين شرقاً.

جمع هذه القبائل الست تاريخٌ مشترك، ضمن مجال بلاد الريف الأوسط، وتقاسم سكانه المستقرون موارده المحدودة لبلورة نمط اقتصاد الندرة، الأمر الذي اضطرهم في كثير من الأحيان إلى مزاولة القرصنة وتجارة التهريب والهجرة. وقد أفرز نمط عيش هذه الساكنة ثقافةً شبه موحدة لدى الفاعلين الاجتماعيين بهذه المنطقة. كما أن معايشة الريف الأوسط لنفس الأحداث السياسية أدى إلى تشكل أبعاد ذاكرة جماعية مشتركة، فيما ساعد توفر هذه القبائل على قاعدة لغوية موحدة إلى حد بعيد مع استثناءات بسيطة في النطق، على توارث هذه الذاكرة من قبيلة لأخرى ومن جيل لآخر.

تعرضنا لفترة زمنية تقارب أربعة قرون لنتمكن من إنتاج عمل مونوغرافي، يجمع بين الأزمنة التاريخية المختلفة، تستوعب التاريخ المجالي وتشكل التضاريس، وتقارب التاريخ

الاقتصادي لتلامس أهم جوانب السمات الثقافية الموغلة في القدم، والتي تعرف استمرارية ضمن الممارسة الاجتماعية المتوارثة عبر الأجيال. وحددنا المدة التاريخ السياسي منذ قيام الدولة العلوية، وبالضبط بعد وفاة المولى الشريف سنة 1658م وتولي السلطان المولى الرشيد الحكم بعد نهاية الصراع ضد أخيه المولى امحمد حول السلطة سنة 1664م، وذلك راجع إلى بروز الريف على الساحة السياسية على عهد هذا السلطان، واستمرار هذا الدور السياسي الرئيسي إلى القرن العشرين. ومن هذا المنطلق غطت الأطروحة تاريخ الريف الأوسط خلال العصرين الحديث والمعاصر، أي من النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى حدود النصف الأول من القرن العشرين.

أجبنا من خلال بحثنا في أطروحة الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية على مجموعة من تمفصلات الإشكالية الرئيسية، استخلصنا منها مجموعة من الخلاصات التركيبية، يمكن إجمالها فيما يلي:

تعرفنا على مجال الريف الأوسط وتضاريسه، وتاريخ تكونه وتسميته والمحددات التي تهم ذاكرة تأسيس الريف وتوجهاتها، والتي تمثل مجموعة من الثوابت التي تتبناها الساكنة، وتشكل حدوده المتغيرة التي يمكن أن نستشف منها صورة واضحة عن الوضعية السياسية بالمنطقة. وتجد إشكالية تكون وتمثل مجال الريف الأوسط عبر التاريخ في الإسطوغرافيا من خلال الإشارات الواردة في المصنفات التاريخية وغيرها من الرصيد الوثائقي المكتوب، ومجموعة من رواسب وتمثلات وروايات وصور محفوظة بالذاكرة الجماعية لسكان المنطقة الذين يمتلكون تقييماً خاصاً للبنية التضاريسية، والذي قد يتنافى أحيانا مع الحقائق الجغرافية، كما يحتفظون بتاريخ التغيرات المناخية وطبيعتها في علاقته مع معاناة السكان من الجفاف وتردد موجات المجاعة، ويعتبر الإنسان بحد ذاته أهم عناصر الإشكالية الرئيسة للأطروحة، وأحد أهم العناصر المنهجية للمنهج التاريخي.

واستكملنا شق الجغرافية الطبيعية بالتعرض للجغرافية البشرية من خلال دراسة تاريخ الإنسان ضمن مجال الريف الأوسط، لما له من أهمية في البحث التاريخي ككل والبحث المونوغرافي على وجه الخصوص. وتوصلنا إلى أن الريف الأوسط عرف استقراراً بشرياً مبكراً سبق مرحلة التدوين التاريخي، ما جعل الأركيولوجيا تغطي صفحات تاريخ الريف المفقودة في هذا الشأن، وأهم ما يمكن أن نستخلصه من هذا الاستقرار هو إفراز تنوع على مستوى الخصائص الإثنية بالريف الأوسط، ما أدى إلى حركية مستمرة للساكنة عبر التاريخ، خاصة خلال العصرين الحديث والمعاصر، وتشكل خريطة سكانية متحركة بالريف الأوسط، وذلك راجع لعدة أسباب اقتصادية وسياسية، رغم طابع الاستقرار الذي اتصفت به القبائل الريفية.

كما تعرفنا على التحولات والطفرات وكذا الانهيارات التي طرأت على البنية الديموغرافية بالريف الأوسط، ما أثر على الجانب الاقتصادي والسياسي، ومنه ما يعود لإكراهات ومتغيرات فرضها الواقع التاريخي والوضع القبلي، وأنتجت مجموعة من المشاكل الاجتماعية، خاصة ما تعلق بالهجرة التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر، والتي عرفت

أوجها خلال القرن العشرين، ونقلت لنا الذاكرة الجماعية حيثياتها وتأثيراتها على المهاجرين وذويهم بالريف، وذلك بمزاوجتها مع المعطيات التاريخية حول الظاهرة.

شمل البحث العلاقة الإنتاجية بين الإنسان الريفي والموارد الطبيعية ونمط الاقتصاد المتاح بالريف الأوسط، باعتبارها علاقة تفاعلية جمعت الإنسان الريفي بمحيطه العام وحتمت عليه نمط إنتاج معين، وطريقة تدبير الموارد الطبيعية الضعيفة والتعامل مع محدودية الماء وندرة إنتاجية الأرض المجزأة نتيجة وعورة التضاريس وضعف توثيق ملكيتها.

ورصدنا أيضا الموارد الأخرى بالنسبة للقبائل الساحلية المتمثلة في الثروة السمكية التي شكلت نشاطاً اقتصادياً تكميلياً، بالإضافة إلى بعض الموارد المعدنية التي جمعت بين الحقيقة وتمثلات الذاكرة الجماعية. وبما أن الريف مجتمع ذو نمط اقتصادي قائم على الزراعة وتربية الماشية، فقد عرف مجموعة من الصناعات المحدودة المرتبطة بهذا النمط، والمخصصة للاستعمال اليومي، مع تسويق الفائض محليا، وتتمثل أهمها في الأواني الفخارية ومنتجات الدوم والخشب.

وقد لاحظنا كيف عجزت الأنشطة الفلاحية عن توفير الموارد الكافية لعيش السكان، لذا تم البحث عن أنشطة تكميلية لتعويض هذا العجز، نذكر من ضمنها تجارة التهريب المقننة داخل الأسواق. وعلى العموم، استطاع الإنسان الريفي تجاوز صعوبة التضاريس والإكراهات المناخية وقلة الموارد الطبيعية من أجل بلورة نمط إنتاج خاص بالمنطقة اتسم بالندرة والكفاف، واستمرار استعمال وسائل إنتاج عتيقة، لكنه كان مصدر عيش السكان عن طريق إرفاقه بمجموعة من الأنشطة مثل تربية الماشية والصيد البحري بالإضافة إلى الصناعة والتجارة.

وعملنا على جعل آليات الذاكرة الجماعية في خدمة إعادة تركيب بنية المجتمع والثقافة ونمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط، والتطرق للتاريخ الاجتماعي بالريف الأوسط، والذي يعتبر أساس الأطروحة ،خاصة وأن الريف من ضمن المجتمعات الشفهية التي تعرف فقراً على مستوى التأريخ بشكل عام والتاريخ الاجتماعي بشكل خاص. وهذا ما جعلنا ننفتح على نتائج العلوم المساعدة ونوسع دائرة الرصيد الوثائقي، إلى أن بلغنا أسس استثمار رواسب الذاكرة الجماعية التي تتوفر على آلياتٍ بإمكانها إعادة تركيب بنية المجتمع والثقافة ونمط الحياة بالريف الأوسط. هكذا خلصنا إلى تقديم معطيات حول الهياكل الاجتماعية من الأسرة إلى القبيلة الريفية نعتقد أنها ذات أهمية.

ركزنا توجهنا نحو استخلاص التاريخ الثقافي من رواسب الذاكرة الجماعية الريفية، حيث أن الذاكرة الجماعية تحفظ الممارسات الثقافية من الاضمحلال، وتضمن استمراريتها بين الأجيال، عبر توارث الذاكرة التي يسعى المؤرخ إلى استثمارها في كتابة التاريخ الثقافي. وتعتبر ثقافة المنطقة مصدرا من مصادر الذاكرة الجماعية ومؤطرها الأساسي، وحاملاً للمميزات الثقافية لمواقف الريفيين، دون أن نغفل أن الذاكرة الجماعية تُوجَّه وفق أنماط التدين السائدة وتأثيراتها الثقافية والمعتقدات السحرية والخرافية، وذلك بالاحتكام للمنهج التاريخي الذي يعتبر أساس الأطروحة، بالإضافة إلى مقارنة معطيات ما علق بالذاكرة الجماعية مع النص المكتوب باعتباره أكثر مصداقية بشكل نسبي.

عمدنا إلى تركيب خلاصات التاريخ الاجتماعي والثقافي من خلال إعادة تركيب نمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط بشكل تطبيقي، وذلك بالاعتماد على نماذج من الواقع التاريخي بالريف الأوسط، إذ تعتبر إعادة تركيب نمط الحياة شقاً تطبيقياً لكل ما سبق ذكره بخصوص الهياكل الاجتماعية والأنساق الثقافية بالمنطقة، ذلك لأن روتين الحياة اليومية بإمكانه أن يجعل الممارسات الثقافية والاجتماعية أكثر وضوحا. ويتعين بهذا الخصوص تحديد نوعية الفضاءات التي تدور فيها أحداث الحياة اليومية الريفية المتمثلة في البيت والحقل، والوقوف على طابع تقسيم الأدوار بين الفاعلين الاجتماعيين، أي تقسيم الأعمال والأنشطة الحياتية التي يأخذ من خلالها كل فرد موقعه ومهامه داخل المجتمع. وتأخذ هذه البنية مدة زمنية طويلة لتتغير، أو تعرف تحولات جزئية فقط، وذلك راجع إلى كونها إرثاً ثقافياً يضمن استمراريته عبر الأجيال، رغم أن المؤرخ الكلاسيكي لا يجد أهمية تاريخية في هذه المواضيع التي لا تحتوي على تواريخ دقيقة، إلا أنه أصبح من واجب المؤرخ الاهتمام بالحياة الاجتماعية للإنسان الذي يعتبر أساس البحث التاريخي. من هنا جاء سعينا من خلال هذا العمل إلى نقل ورش خاص بعلم الاجتماع ودراسته وفق الضوابط التاريخية.

أتممنا أركان عملنا المونوغرافي بالبحث في حيثيات التاريخ الحدثي والسياسي بالريف الأوسط، وكشفنا من خلاله العلاقة الكائنة بين سلطة المخزن والريفوبليك، أو علاقة الريف بالسلطة المخزنية، ووضعية الريف السياسية ما قبل الاستعمار، وكيفية احتفاظه بأنظمة محلية تحكم علاقاته الاجتماعية والاقتصادية وتضمن السير العادي للسياسة الداخلية عن طريق تطبيق الأحكام العرفية، علما بأن القبائل الريفية عرفت في نفس الوقت، تمثيليات مخزنية كانت تربطها بالسلطة المركزية، وتسهر على استخلاص الضرائب وتطبيق الأحكام الشرعية، مع وجود فترات نزاع بين الطرفين بطبيعة الحال.

تجنبنا التفصيل والإطالة في موضوع الريف الأوسط والأطماع الأجنبية، لما شهده من دراسات مكثفة ومعمقة سابقة، واخترنا التطرق لجوانب محددة مثل إدراك السلطة المركزية لقدرة الريف على حماية البلاد من الأطماع الأجنبية، ما جعل هذه المنطقة تنال تقدير السلاطين العلويين الذي اعتمدوا على الريفيين في حماية السواحل الشمالية من المد الاستعماري منذ بداية التوغل الأجنبي الأول بالريف خلال القرن السادس عشر، إلى حدود بداية الاستعمار الفعلي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. هذا التغلغل الذي رافقته حيثيات سياسة استعمارية تجسدت في التدخل الإسباني الفرنسي بالريف، والذي أثار مقاومة شرسة من طرف قبائل الريف التي اتحدت ضد الاستعمار وتجاوزت كل نزاعاتها الداخلية، باعتبار أن العدو واحد، والقضية مشتركة، فتصدت للمستعمر وقاومته تحت قيادة الشريف محمد أمزيان 1909-1912في البداية، ثم محمد بن عبد الكريم الخطابي 1921-1926فيما بعد. وقد وضعت المقاومة الريفية المخزن في بعض الأحيان أمام ضغط خارجي بخصوص التزامه بالاتفاقيات والمعاهدات الموقعة، وأثارت رغبة المستعمر في الانتقام من المقاومة الريفية، ما جعله يستعمل المحظور والمباح للقضاء على الريفيين بأساليب تتنافى والمواثيق الدولية.

أملنا أن نكون قد نجحنا إلى حد مقبول في الإجابة على العلاقة الجدلية التي تجمع التاريخ والذاكرة الجماعية، وآليات تطويعها لجعلها في خدمة التاريخ الجغرافي والديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، على الأقل في الجانب النظري، لأن الجانب التطبيقي

يحتاج إلى المزيد من الدراسة وتوسيعه على نطاق جغرافي أكبر، وأن نكون قد تمكنا من تصنيف مادة الذاكرة السياسية التي تحمل الآمال والمآسي، واستثمرناها بالشكل السليم وفق المنهج التاريخي.

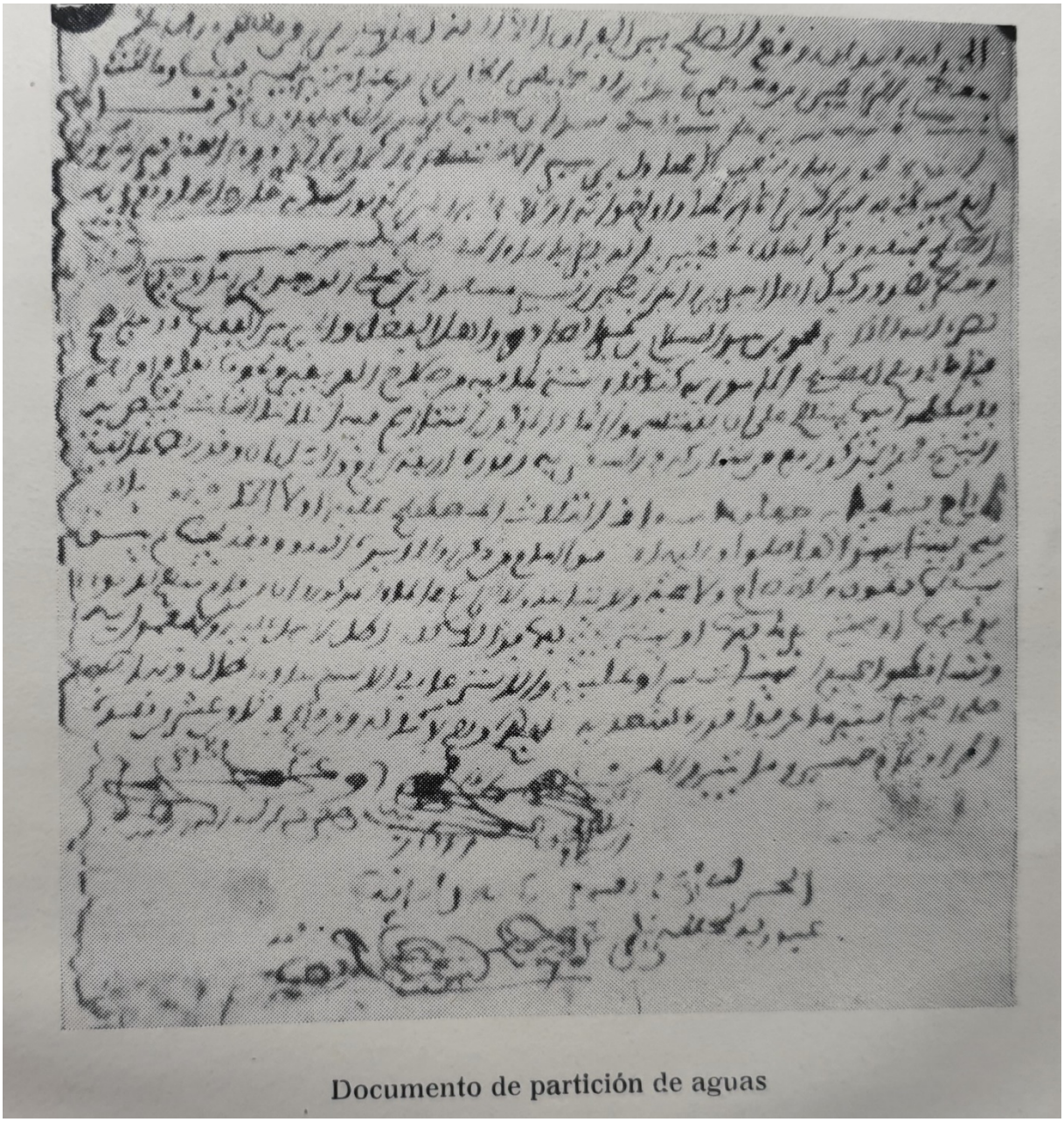

Documento de partición de aguas

الملحق رقم (1): وثيقة تقسيم المياه بقبيلة أيث ورياغر.

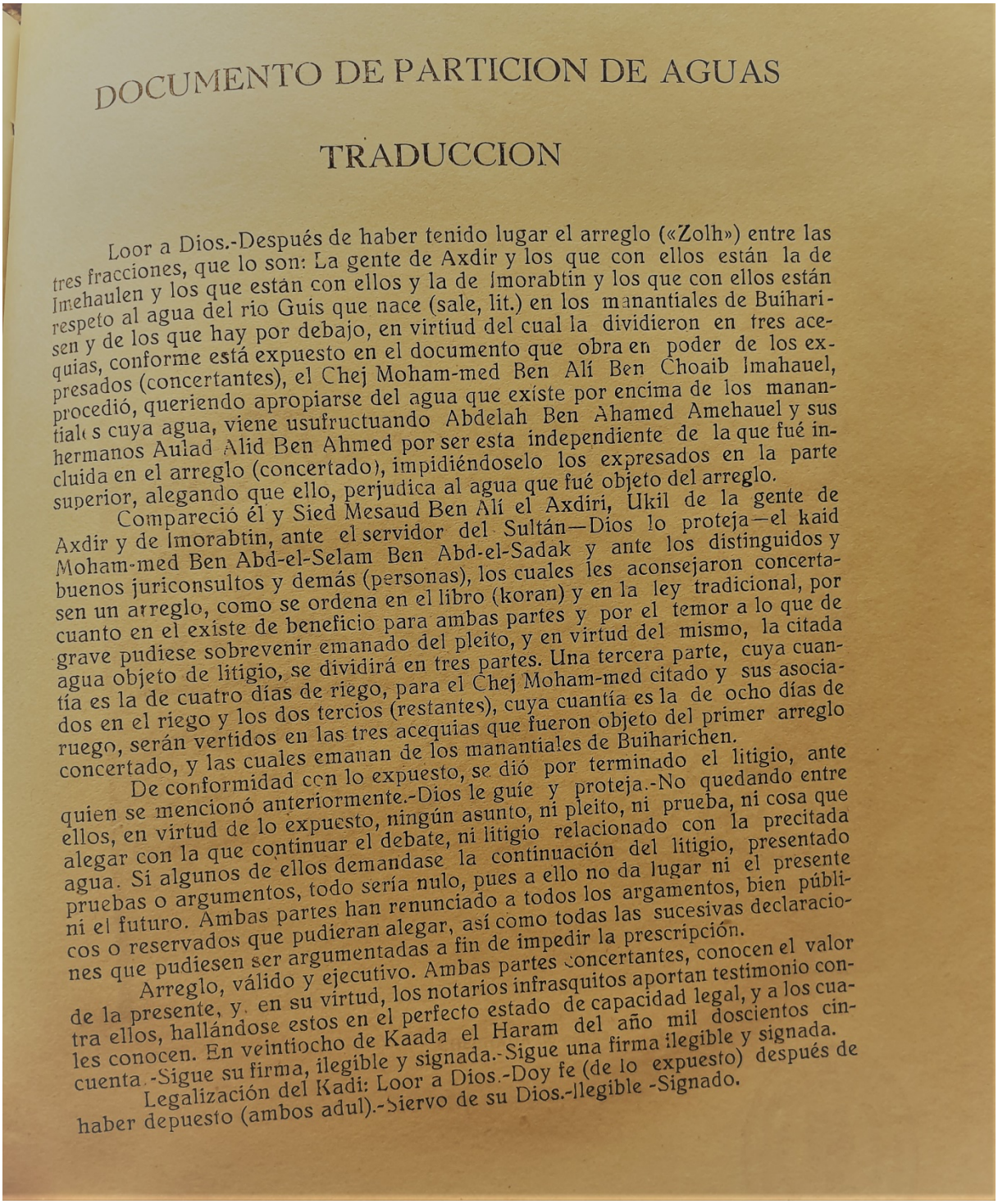

DOCUMENTO DE PARTICION DE AGUAS

TRADUCCION

Loor a Dios.-Después de haber tenido lugar el arreglo («Zolh») entre las tres fracciones, que lo son: La gente de Axdir y los que con ellos están la de Imehaulen y los que están con ellos y la de Imorabtin y los que con ellos están respeto al agua del rio Guis que nace (sale, lit.) en los manantiales de Buiharisen y de los que hay por debajo, en virtiud del cual la dividieron en tres acequias, conforme está expuesto en el documento que obra en poder de los expresados (concertantes), el Chej Moham-med Ben Alí Ben Choaib Imahauel, procedió, queriendo apropiarse del agua que existe por encima de los manantiales cuya agua, viene usufructuando Abdelah Ben Ahamed Amehauel y sus hermanos Aulad Alid Ben Ahmed por ser esta independiente de la que fué incluida en el arreglo (concertado), impidiéndoselo los expresados en la parte superior, alegando que ello, perjudica al agua que fué objeto del arreglo.

Compareció él y Sied Mesaud Ben Alí el Axdiri, Ukil de la gente de Axdir y de Imorabtin, ante el servidor del Sultán—Dios lo proteja—el kaid Moham-med Ben Abd-el-Selam Ben Abd-el-Sadak y ante los distinguidos y buenos juriconsultos y demás (personas), los cuales les aconsejaron concertasen un arreglo, como se ordena en el libro (koran) y en la ley tradicional, por cuanto en el existe de beneficio para ambas partes y por el temor a lo que de grave pudiese sobrevenir emanado del pleito, y en virtud del mismo, la citada agua objeto de litigio, se dividirá en tres partes. Una tercera parte, cuya cuantía es la de cuatro días de riego, para el Chej Moham-med citado y sus asociados en el riego y los dos tercios (restantes), cuya cuantía es la de ocho días de ruego, serán vertidos en las tres acequias que fueron objeto del primer arreglo concertado, y las cuales emanan de los manantiales de Buiharichen.

De conformidad con lo expuesto, se dió por terminado el litigio, ante quien se mencionó anteriormente.-Dios le guíe y proteja.-No quedando entre ellos, en virtud de lo expuesto, ningún asunto, ni pleito, ni prueba, ni cosa que alegar con la que continuar el debate, ni litigio relacionado con la precitada agua. Si algunos de ellos demandase la continuación del litigio, presentado pruebas o argumentos, todo sería nulo, pues a ello no da lugar ni el presente ni el futuro. Ambas partes han renunciado a todos los argamentos, bien públicos o reservados que pudieran alegar, así como todas las sucesivas declaraciones que pudiesen ser argumentadas a fin de impedir la prescripción.

Arreglo, válido y ejecutivo. Ambas partes concertantes, conocen el valor de la presente, y, en su virtud, los notarios infrasquitos aportan testimonio contra ellos, hallándose estos en el perfecto estado de capacidad legal, y a los cuales conocen. En veintiocho de Kaada el Haram del año mil doscientos cincuenta.-Sigue su firma, ilegible y signada.-Sigue una firma ilegible y signada.

Legalización del Kadi: Loor a Dios.-Doy fe (de lo expuesto) después de haber depuesto (ambos adul).-Siervo de su Dios.-Ilegible -Signado.

ترجمة إيميليو بلانكو إيثاكا للوثيقة العرفية التي تخص تقسيم المياه

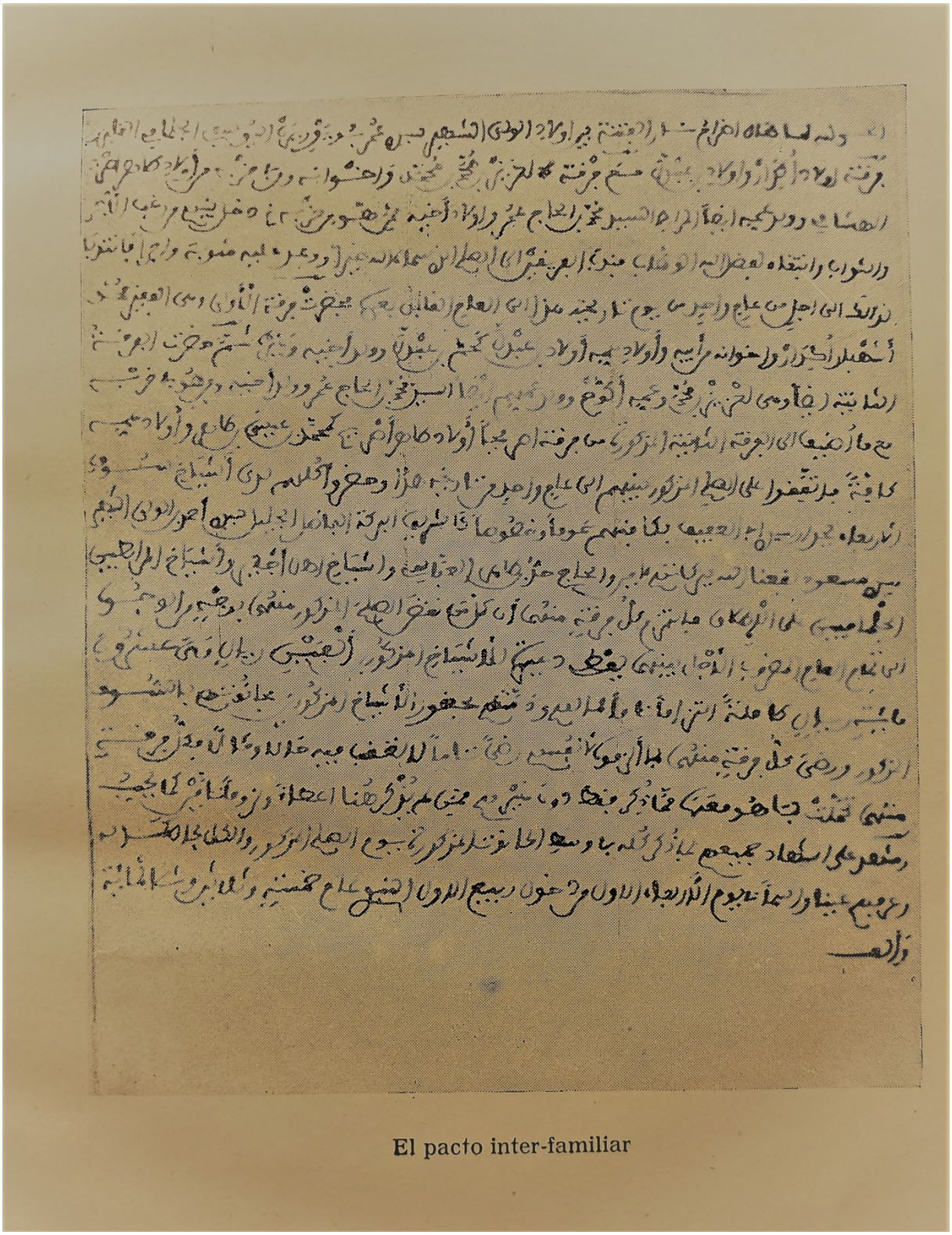

El pacto inter-familiar

الملحق رقم (2): نموذج التعاقد العائلي بالريف

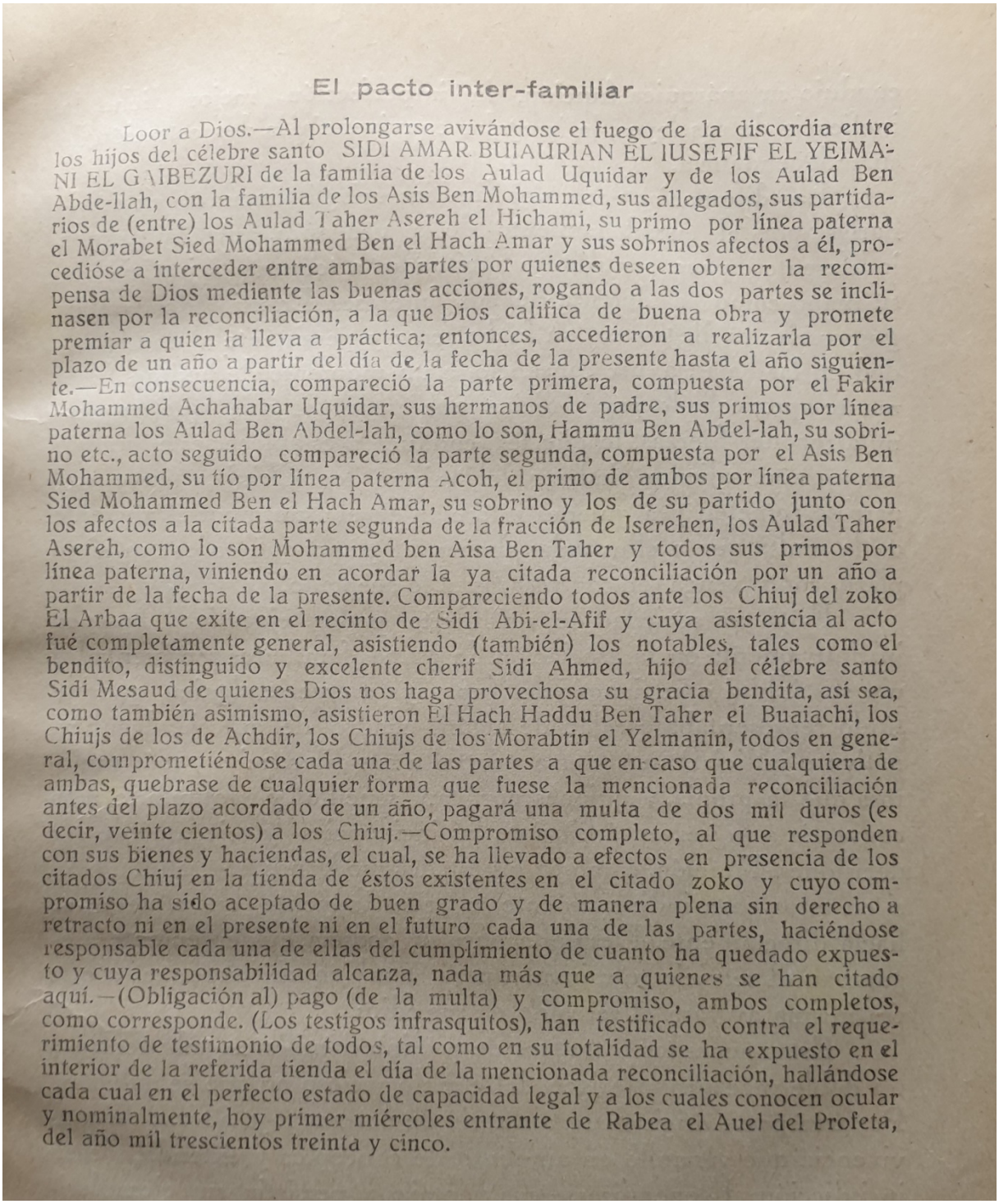

El pacto inter-familiar

Loor a Dios.—Al prolongarse avivándose el fuego de la discordia entre los hijos del célebre santo SIDI AMAR BUIAURIAN EL IUSEFIF EL YEIMANI EL GAIBEZURI de la familia de los Aulad Uquidar y de los Aulad Ben Abde-llah, con la familia de los Asis Ben Mohammed, sus allegados, sus partidarios de (entre) los Aulad Taher Asereh el Hichami, su primo por línea paterna el Morabet Sied Mohammed Ben el Hach Amar y sus sobrinos afectos a él, procedióse a interceder entre ambas partes por quienes deseen obtener la recompensa de Dios mediante las buenas acciones, rogando a las dos partes se inclinasen por la reconciliación, a la que Dios califica de buena obra y promete premiar a quien la lleva a práctica; entonces, accedieron a realizarla por el plazo de un año a partir del día de la fecha de la presente hasta el año siguiente.—En consecuencia, compareció la parte primera, compuesta por el Fakir Mohammed Achahabar Uquidar, sus hermanos de padre, sus primos por línea paterna los Aulad Ben Abdel-lah, como lo son, Hammu Ben Abdel-lah, su sobrino etc., acto seguido compareció la parte segunda, compuesta por el Asis Ben Mohammed, su tío por línea paterna Acoh, el primo de ambos por línea paterna Sied Mohammed Ben el Hach Amar, su sobrino y los de su partido junto con los afectos a la citada parte segunda de la fracción de Iserehen, los Aulad Taher Asereh, como lo son Mohammed ben Aisa Ben Taher y todos sus primos por línea paterna, viniendo en acordar la ya citada reconciliación por un año a partir de la fecha de la presente. Compareciendo todos ante los Chiuj del zoko El Arbaa que exite en el recinto de Sidi Abi-el-Afif y cuya asistencia al acto fué completamente general, asistiendo (también) los notables, tales como el bendito, distinguido y excelente cherif Sidi Ahmed, hijo del célebre santo Sidi Mesaud de quienes Dios nos haga provechosa su gracia bendita, así sea, como también asimismo, asistieron El Hach Haddu Ben Taher el Buaiachi, los Chiujs de los de Achdir, los Chiujs de los Morabtin el Yelmanin, todos en general, comprometiéndose cada una de las partes a que en caso que cualquiera de ambas, quebrase de cualquier forma que fuese la mencionada reconciliación antes del plazo acordado de un año, pagará una multa de dos mil duros (es decir, veinte cientos) a los Chiuj.—Compromiso completo, al que responden con sus bienes y haciendas, el cual, se ha llevado a efectos en presencia de los citados Chiuj en la tienda de éstos existentes en el citado zoko y cuyo compromiso ha sido aceptado de buen grado y de manera plena sin derecho a retracto ni en el presente ni en el futuro cada una de las partes, haciéndose responsable cada una de ellas del cumplimiento de cuanto ha quedado expuesto y cuya responsabilidad alcanza, nada más que a quienes se han citado aquí.—(Obligación al) pago (de la multa) y compromiso, ambos completos, como corresponde. (Los testigos infrasquitos), han testificado contra el requerimiento de testimonio de todos, tal como en su totalidad se ha expuesto en el interior de la referida tienda el día de la mencionada reconciliación, hallándose cada cual en el perfecto estado de capacidad legal y a los cuales conocen ocular y nominalmente, hoy primer miércoles entrante de Rabea el Auel del Profeta, del año mil trescientos treinta y cinco.

ترجمة إيميليو بلانكو إيثاكا للوثيقة العرفية التي تخص التعاقد العائلي

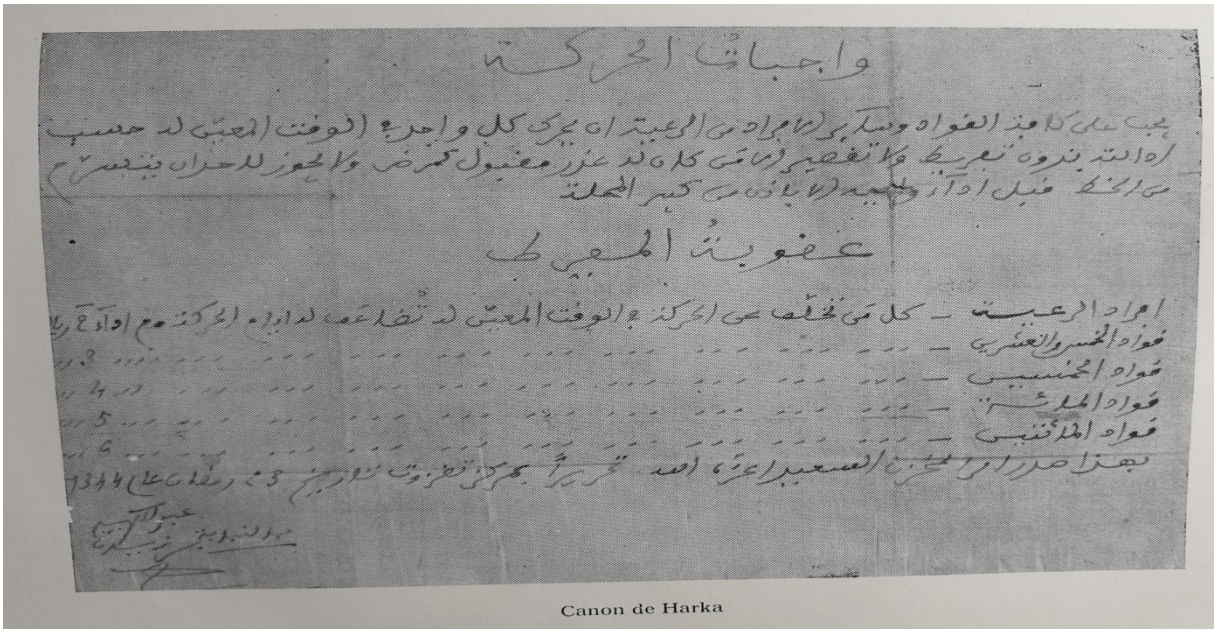
واجبات الحركة

عقوبة المخالف

Canon de Harka

الملحق رقم (3): نموذج قانون الحركة

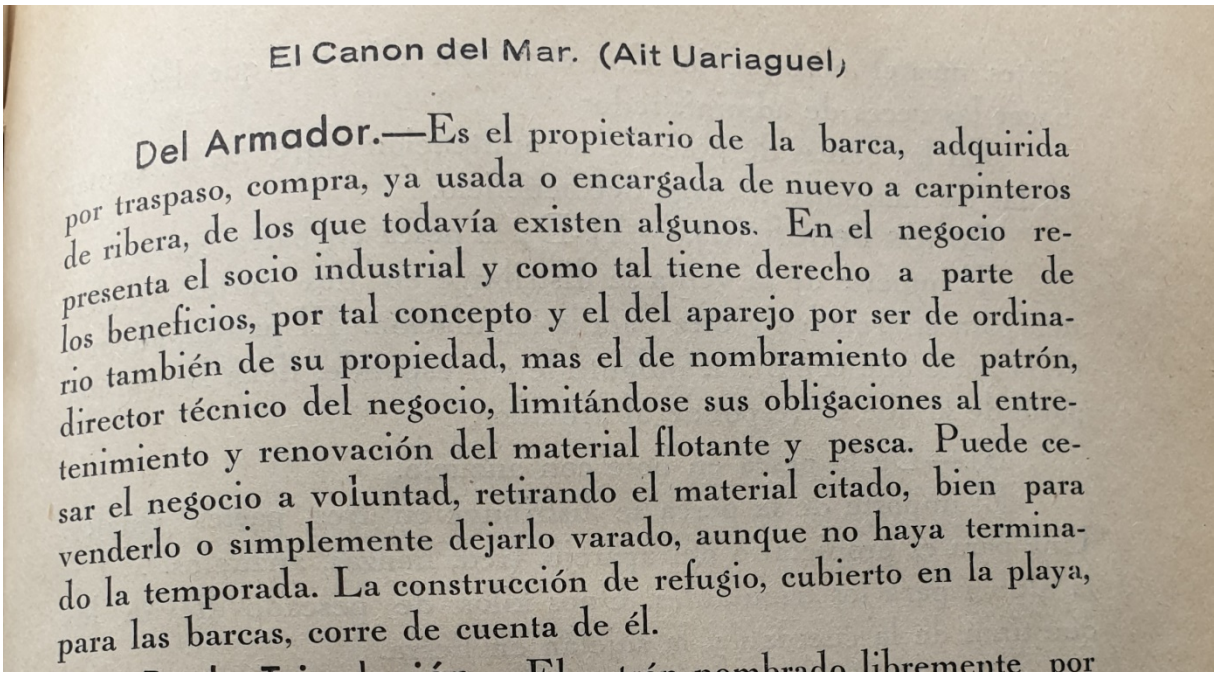
El Canon del Mar. (Ait Uariaguel)

Del Armador.—Es el propietario de la barca, adquirida por traspaso, compra, ya usada o encargada de nuevo a carpinteros de ribera, de los que todavía existen algunos. En el negocio representa el socio industrial y como tal tiene derecho a parte de los beneficios, por tal concepto y el del aparejo por ser de ordinario también de su propiedad, mas el de nombramiento de patrón, director técnico del negocio, limitándose sus obligaciones al entretenimiento y renovación del material flotante y pesca. Puede cesar el negocio a voluntad, retirando el material citado, bien para venderlo o simplemente dejarlo varado, aunque no haya terminado la temporada. La construcción de refugio, cubierto en la playa, para las barcas, corre de cuenta de él.

نموذج قانون البحر الذي أدرجه إيميليو بلانكو إيثاكا في كتابه "La ley Rifeña"

-إبارّاحن/ أباراح: المنادي في الأسواق الذي كان ينتمي عادة إلى طبقة متواضعة في المجتمع حيث يفتقر إلى الأرض والأملاك الأخرى، كان دوره أساسيا لإعلان كل المتضمنة « القوانين » الأخبار والقرارات التي تريد مختلف المجالس القبلية إبلاغها للعامة، بما فيها للأحكام العرفية أو التحريض على الجهاد ومقاومة العدو. صص.137-139.

-إجاجّن مفردها جيج: الأوتاد المثبتة في الجدران بالنسبة لقبيلتي إكزناين وأيث عمارث، ويطلق مصطلح »جيج/جاجكو« أيضا على الأسرة النووية في قبيلة أيث ورياغر. صص.123-124-190.

-اجماعث: تكون مجموعة من ترفقين أي الجماعات. صص. 102-123-127-133-135-157-264-266.

-إجوجْگا/ جيج: فروع السلالات. صص.81-123.

-أخشاب: نبات العلّيق وهو نبات شوكي، وله معنى آخر في الريف "أور أخشاب" بمعنى قلب العليق وهو وصف يطلق على العنيد. ص.83.

-أخمّاس: هو الأجير الذي يعمل في مجال الزراعة مقابل خمس المحصول الزراعي ونميزه »أمكاري «أي الأجير الذي يشتغل نظير مقابل مادي أو أجرة، و »أشوّار «أي الحصّاد مقابل أجرة يومية. ص.86.

-ادّمنثْ: الأراضي التي تم تسميدها طبيعيا والقريبة من محل الإقامة، عكس »أفْراس «أرض فلاحية بور تتواجد غالبا بعيدا عن المساكن. ص.86.

-إذْويرن: الذي يعني توفير كل واحد منهما للدابة التي يملكها فينجزان العملية الفلاحية لدى الأول ثم الثاني التناوب على كل الحقول الأمر الذي فرضته قلة اليد العاملة والدواب ووسائل الإنتاج بصفة عامة. ص.89.

-إذيذگ/ إذيذي: المهاريس الخشبية. ص.190.

-اربع: الربع وحدة انقسامية أصغر. صص.122-123-128-129-130-131-135-270.

-ارحق أو رانصاف: غرامة الحق التي يستخلصها» إمغارن «أعضاء المجلس القبلي وتفرض على القاتل الذي يقترف هذا الجرم داخل السوق يوم انعقاده وقدرها 2000 دورو حسني،أو على الطريق المؤدية إليه فتنحصر في1000 دورو فقط، يستفيد منها إمغارن التابعين للقسمات التي ترتاد السوق مسرح الجريمة، وتسمى » ارحق ن السوق« أما إذا كان القاتل من قبيلة غير أيث ورياغر فنتحدث آنذاك عن» ارحق ن ذقبيتش« أي الغرامة القبلية وتستخلص أو تؤدى بسوق على المستوى القبلي، وتوزع بالتساوي على الأخماس الخمسة المكونة للقبيلة.

في حالات الجرح كان الجاني يؤدي »ارْقيساسْ« أي القصاص وهي غرامة لم تتجاوز في أقصى الحالات 600 دورو حسني، تدفع المرأة نصفها. نشير إلى أن الغرامات البسيطة المتعلقة بالسرقة مثلا، تسمى »ارْقامث «حيث يحددها » أقوام« وهو الخبير الذي يقوم بتقييم حجم الخسائر وهو عضو من أعضاء مجلس القبيلة، ويستخلصها مجلس المدشر أو القسمة، ما يميز هذه الغرامة على الدية أو غرامة الدم التي يؤديها القاتل لعائلة الضحية بعد قبولها من طرف هؤلاء وعدم إصرارهم على الأخذ بثأر قريبهم، كان الحد الأقصى لهذه الغرامة في منطقة الجبل هو 1200 دورو حسني في حين كانت أقل من هذا القدر بكثير في السهل. مع العلم أن دية المرأة تساوي نصف دية الرجل. صص.128-133-137-271-272-273-276.

-أرّصْ: سريرٌ من القصب أو أجزاء خشبية صغيرة متراصة قبل تغطيته بالطين أو الطوب فوق سقف بيت الضيوف. ص.186.

-ارْعاهذ: العهد ويكون بشكل شفهي وإلزامي، وله قيمة ومكانة في المجتمع الريفي، والتي يتميز بها العار أيضا. ص.182.

-ارعنصا(ر)ث: من الأعياد غير الدينية التي يحتفل بالريف وتاريخ الاحتفال بها هو يوم24 يوليوز الفلاحي المتزامن مع الانقلاب الصيفي للشمس. ص.151.

-ارقيساس: غرامة القصاص. ص.172.

-أرْواحْ إيوا)رْ(ذان: يأتي جميع أقارب الزوجين إلى المنزل في اليوم السابع من ميلاد المولود الجديد، وخاصة الأقارب المنتمين لعائلة الزوجة ليقدموا لها هداياهم التي تسمى باللغة الأمازيغية إيوا)رْ(ذان. ص.207.

-أريثو/ أروف: شرفة تخصص لحفظ الأغذية. ص.186.

-أريفوبْليك: اللفظة مشتقة من الفرنسية في أغلب الظن وتعود جذورها إلى التدخل الأجنبي الذي كانت له أطماع في الريف، يمكن حصرها ما بين تاريخ وفاة السلطان الحسن الأول أو بعدها بقليل أي أواخر العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وسنة 1921 التي شهدت ظهور ابن عبد الكريم، وتتميز عموما بتراجع نفوذ المخزن المركزي وهيمنة النزاعات الدموية والصراعات الداخلية وغياب الأمن وتعزيز دور المجالس القبلية في تسيير الشؤون المحلية.صص. 131-238-239-241-263-274.

-أزدجيف: المعنى الحرفي للكلمة هو الرأس، لكنه يعني أيضا في السياق الريفي زعيم السلالة، وفي منطقة السهل عضو مجلس المدشر. صص.122-157-263.

-إزْرانْ/إزْري: الأبيات الشعرية التي تشكل بالإضافة إلى اللازمة «أيا رالا بويا» أساس الأهازيج الشعبية التي تتغنى بها العازبات بالخصوص و»إمذيازن« أي فرق الرقص التي تتلقى مقابل خلال الحفلات والأعراس. ص.151.

-أزقاق: فناء المنزل الريفي ويكون مكشوف. ص.186.

-إزگناون/ إزيناون/نْصاصن: تعني الأَنصاف، وهي تدخل ضمن مختلف التعاقدات خصوصا منها الفلاحية، حيث يتقاسم الشريكان الأتعاب والموارد والوسائل المستعملة لإنجاز العمليات الفلاحية ثم الأرباح مناصفة. ص.87.

-إزوران/أزوار: المعنى الحرفي للكلمة هو العرق، لكنه يعني أيضا السلالة الفرعية. صص.123-134.

-أساثور: رافدة رئيسية طويلة وعريضة تُنحت في بعض المناطق لتصبح سداسية الأضلاع يتم بناء السقف عليها. ص.186.

-إستحورم: هو طلب القاتل الذي يعجز عن أداء غرامة الدم ويتجه إلى قبيلة أخرى لحماية الأمغار في القبيلة التي لجأ إليها، وذلك بالاستجارة بزوجته من خلال إجراء رمزي يتمثل في لمس يد الرحى، التي تعتبر من أملاك المرأة. ص.273.

-إسْغْناس: بمشابك فضية أو من القصدير تُثبت فوق الكتف الأيمن من صنع اليهود. ص.197.

-إسمغ/إسمغان مذكر ذيسمغث: الرجل الأسود المرأة السوداء، تأخذ الكلمة بالريف معنى العبيد أيضا. ص.32.

-أسوگاس: العام أو السنة، هكذا يصبح » أسوگاس ن ذفجّاحث« هو السنة الفلاحية » فوس أسوگاس« هو رأس العام الفلاحي الذي يوافق » ارحاكوز« من الأعياد غير الدينية الأخرى التي يحتفل بها بالمنطقة ومجموعة من المناطق الأمازيغية بشمال إفريقيا. صص.154.

-أسيرذْ ن ثوذايْث: غسيل اليهودية بمعنى التخلص من التأثيرات اليهودية، أو التخلص من الخوف. ص.154.

-أشْبار: البرج الصغير المخصص للمراقبة به فتحة صغيرة تستعمل لإطلاق النار برج صغير لا يتجاوز علوه المتر والنصف وعرضه المتر، كان يبنى في فترة الريفوبليك، بجانب أي منزل كمعقل يتخندق به المقاتل لمراقبة أعدائه وإطلاق النار عليهم إن اقتضى الأمر، حيث يتوفر هذا البرج الصغير على مدخل واحد وفتحات صغيرة جانبية للرؤية وتمرير فوهة البندقية. كان البعض يبني مثل هذه الأبراج فوق سطح المنزل ذاته، وقد أمر ابن عبد الكريم سنة 1922 بهدمها جميعا كإجراء ينهي نزاعات الأخذ بالثأر الداخلية للتفرغ للمقاومة والعدو المشترك. قد تستعمل الكلمة في عبارات من مثل » إطفْ أشبارْ «وتعني، عاند وقاوم ورفض الاستسلام. ص.189.

-أظريب/إظريبن: يطلق هذا الاسم على كل هارب من الانتقام خلال نزاعات الأخذ بالثأر والذي يعجز عن أداء غرامة الدم، حيث يبحث هذا القاتل عن ملجأ في قبيلة أخرى، وبعد حصوله في أغلب الحالات على حماية أمغار نافذ في هذه القبيلة. ص.273.

-أغا(ر)بي/ إغا(ر)بيين: تعني التسمية غير الريفيين عموما، وبالخصوص، المنتمين إلى منطقة الحماية الفرنسية المتحدثين بالعربية والفرنسية بدل الأمازيغية والإسبانية. ص.102.

-أَغْبَارْ: العين أو المنبع، »ذغباتش« في صيغة التصغير. ص.31.

-أغزار/إغزران: النهر باعتباره أكبر مجرى مائي. ونظرا لأهمية الماء في المجتمع الريفي باعتباره مجتمعا يعتمد على الزراعة بشكل أساسي، فإن أسماء المجاري والعيون والتجمعات المائية تتعدد حسب اختلافها ووظيفتها. وإذا تدرجنا من الأكبر إلى الأصغر بالنسبة للمجاري المائية فسنجد أسماء:» ثْراثْ« بمعنى واد صغير، ثم »سارو« و» ذاسْدْجيا «كمسيلين صغيرين و» ذا(ر)كا « أي قناة الري. ص.76.

-إغس/ إخسان: المعنى الحرفي العظام، وتعني في الريف وحدة انقسامية. ص.135.

-إغوذْوان: عبارة عن خيوط صوفية حمراء تلف حول معصمي العرريس وعلى معصمي وكاحلي العروس ليلة الحناء. ص.220-226.

-إغياطن: عازفي المزمار صنهاجة سراير وجبالة. ص.220.

-أفيثار/ أفشثار: إسطبل البقرة. ص.187.

-أقا)ر(ضاش: الممشط المستعمل لتنقية الصوف حيث توضع الصوف الخام بين ممشطين ويتم نفشها حتى تنقيتها. وقد تنفش الصوف بمشط حديدية ذات أسنان طويلة متباعدة تسمى» إمشْطْن« ومن الأدوات المستعملة في عملية غزل الصوف نذكر» أزْضي «أي المغزل أو النول، وإذا كان هذا القضيب رفيعا فيسمى» ثازْضيط« . ص.180.

-أقران: التوازن بين الشركاء في وسائل الإنتاج واقتسام المنتوج. ص.88.

-أقشرور: جرة من الطين مخصصة للحليب. ص.179.

-إگار: الحقل عموما الذي يستغله الفلاح لزراعة الحبوب، ويعتبر من الأراضي البعلية أي» ذامو(ر)ث نرْبور« تمييزا لها عن »ذامو(ر)ث أوامان «أي المسقية وتدخل ضمن أراضي »، ر(مُورْكْ« أي أملاك. بالإضافة إلى »ذامو(ر)ث ن اجْماعثْ «أي الأرض المشاع. صص.26-32-40-64.

-أگراو: اجتماع لمجلس المدشر أو القسمة/العشيرة أو القبيلة، حيث تتخذ أغلب القرارات التي تهم هذه الوحدات. كانت تتم عادة تحت ظل شجرة بجوار السوق ويحضرها كمشاركين فعليين أعضاء المجلس أي» إمغارن«، يجلسون في شكل دائرة في حين يمكن للعامة معاينة الاجتماع وقوفا بمحيط هذه الدائرة، لكن دون الحق في المشاركة في أشغال المجلس. صص.60-133-264-271-293.

-إمْثرْثن: نموذج تعاقدي يعني الأثلاث، يطبق عندما يأخذ الشريك ثلث المحصول لأن مساهمته أقل مقارنة مع صاحب الأرض أو مالك المواشي. ص.88.

-أمثون/أنتون: قليل من العجينة يحتفظون بها لاستعمالها في المرة اللاحقة كخميرة، وفي حالة استنفاذ امرأة لما لديها تطلبه من جارتها. ص.193.

-إمذاومن: دوامين Douamen، يقومون بمهام جمع الضرائب ضمن المجلس القبلي. ص.269.

-أمذياز/إمذيازن: الموسيقي أو المغني الذي يستأجره القبليون لتقديم عروضه في مختلف المناسبات خصوصا الأعراس. ينتمي عادة إلى طبقة اجتماعية متواضعة تنتمي في الغالب إلى أيث توزين ويستعمل آلتي » الزّمّار «أو »ثامْجا « أي الناي و» أدجون« أي الدف. ويسمى إمذيازن جبالة بـ» إغيّاطن« فهم موسيقيون ينتمون إلى جبالة عموما ويستعملون آلتي الغيطة والطبل. صص.136-139-140-155-220-223-224.

-أمرابظ/إمرابظن: هو أي شخص ينتمي إلى مجموعة الشرفاء بغض النظر عن صحة انتسابه إلى الدوحة النبوية، إذ قد يكتسب هذه الصفة أيضا بفضل توفره على البركة أو اتصافه بكرامات أخرى، وقد يعلو مقامه فيصبح وليا. وتستعمل للدلالة على أضرحة الشرفاء والأولياء. صص.25-63-123-129-173.

-أمرزي/ إمدزي: عرعار شمال إفريقيا Collitrisarticulata ويعتبر من النباتات الأساسية التي كانت تشكل الغطاء الغابوي. ص.83.

-أمزير/إمْزيرن: الحداد الحداد والعضو في مجموعة متواضعة اجتماعيا تفتقر عادة إلى الأملاك ويسود الزواج اللحمي الداخلي بين أعضائها. صص.55-59-100-133-136-139.

-أمْزيوْ مؤنث ذامزا: الغول والغولة، وتكثر الأساطير والحكايات في المنطقة حول شرور هذين الكائنين، خصوصا الأنثى التي تبدو للرجال في صورة امرأة جميلة لإغوائهم واستدراجهم إلى مخابئها ثم الاستمتاع بأكل لحمهم، و»مزوغا(ر) ثيغا(ر)يا « الغولة التي تجر العصي فالمعنية آنذاك هي الجنية القبيحة والشريرة التي تتربص بالمرأة النفساء لإلحاق الأذى بطفلها حديث الولادة، لذا على الأمهات الاحتياط منها بوضع الملح قرب الجنين أو سكين تحت الوسادة، و»ثامزا ميشنّاسن «أي الغولة المرتدية للأقمشة المستعملة لكنس الأفران وتتميز بالقبح والشر. صص.180-181.

-إمشيخن وثيغواوين: أكلة يستعمل فيها الحبوب دون طحن أو جرش. ص.193.

-أمْغار/ إمْغارن: هو من الأعيان ويمثلون قمة الهرم في السلم الاجتماعي، ويرأسون مجالس القبيلة، وكانوا يتمتعون بوضع اقتصادي جيد، ويحظون بالاحترام نظرا لقدرتهم على توفير الأسلحة لحلفائهم والدفاع عن مجالهم، ويكتسب الشخص هذه المكانة عندما يثبت جدارته كأقوى

عنصر ضمن أقرانه بفضل قوته وشجاعته وكثرة أقاربه وأملاكه. ويعني أيضا أبو الزوج بالنسبة للمرأة المتزوجة في الريف. ص.138.

-أنوجي/إنوجيون: الضيف، وقد يكون مدعوا أو أي عابر سبيل، إذ يشتهر الريفيون بإكرام الضيوف وحسن الإطعام والضيافة رغم فقرهم. تجدر الإشارة مع ذلك، إلى ضرورة أن يبقى الضيف بعيدا عن أهل الدار، حيث يخصص له »أخام إنوجيون «أي بيت الضيوف الذي يتوفر على مدخل خاص يسمى »ثاخوخث« يوجد بالجانب الآخر للمدخل الرئيسي للمنزل أي » ثاوّارث نديدّر« . ص.182.

-أهْروك/ أهْروش: المدقات الخشبية. ص.190.

-أوارْذي: تطلق على الزيارة الأولى التي تقوم بها عائلة العروسة لابنتهم وزوجها أسبوعا بعد حفل الزفاف، زيارة العروسة الأولى برفقة زوجها لعائلتها تتم عادة بعد أربعين يوما من الزواج وتسمى »ذارزْفْثْ «. صص.223-228.

-إوْزان إما)ر(مز: جريش الشعير الطري. ص.159.

-أوزير/ إيوزيرن مؤنث ذوزا(ر)ث/ذيوْزيرين: وصيف ووصيفة العروسة أو العريس. والوصيفات والوصفاء سواء بالنسبة للعروسة أو العريس هم من الأقارب أو الأصدقاء يرافقون المعني طيلة فترة الاستعداد للزواج ويساعدونه خلال مختلف المراحل. ص.222.

-أوشن أوشانن: ابن آوى هذا اللفظ يشمل الذئاب. صص.135-194.

-أيتاربيعين: يطلق هذا المصطلح على مجموع أعضاء مجلس وحدة انقسامية ما، مثل »أيتاربيعين ن اربع « الذين يجتمعون بشكل دوري من خلال أگراو الأسبوعي، لاستخلاص مداخل السوق والذعائر والديات وتوزيعها على المستحقين، يدبر إمغارن أو إمقرانن أمور الحرب والثأر والمساندة وفق نظام الحلف واللف، » أيث أربعين ن ذقبيتش «باعتباره القيادة السياسية العليا داخل القسم والعشيرة والقبيلة أي مجلس القبيلة. والجدير بالإشارة هنا أن مصطلح »أيتاربعين« لا علاقة له بالرقم الحسابي أربعين، بل هو دمج لكلمتي أيث وثاربعين مفردها ثاربيعث بمعنى فرقة أو جماعة من الناس، ويصبح القصد بالتالي في السياق الريفي هو مجلس ممثلي الناس أو الشعب المكون من إمغارن أو أعيان الوحدة الانقسامية المعنية. ص.124.

-أيرمام/أكرمام وذاكرماند: أي البحيرة أو البركة، و»أكرمام« مصطلح يطلق عادة على صهاريج تتجمع بها مياه الأمطار وتورد بها المواشي. أما الصهريج ذاته الذي تتجمع فيه مياه عين ما، أو قناة ري، ويستعمل في الغالب لسقي الحقول، فيسمى »الصاريجْ« دون استعمال الأصل الأمازيغي »ثافْراوْثْ«، ويقصد بها نقطة تفرع قناة الري من النهر،» أمْقْصا(ر) «أي نقطة تفرع مياه القناة لسقي جزء من الحقل، ثم »ذسارْسْثْ« جمع »ذيسوراسْ «وهي جذع شجرة محفور في شكل قناة يستعمل كمجرى لنقل المياه عبر الأخاديد. ص.80.

-بوسبعة إجدْجيفن: الوحش ذو الرؤوس السبعة من ضمن المخلوقات الخرافية التي تثير الخوف داخل المجتمع الريفي. ص.181.

-تارزا فوذ: جلست القرفصاء. ص. 322.

-تذخّانت: الأسرة وتعني الدور داخل الجماعة. ص.123.

-ترفيقث: وحدة أكبر ذات انتماء أبوي. ص.123.

-التفريج: ثقب صغير في السقف. ص.187.

-ثاجطّويث: خصلة لا تحلق طيلة حياة الفرد وتستعمل عند الممات، حيث يمسك بها المغسل لقلب جثمان الميت دون لمس جسده. وتحمل في الريف أسماء مختلفة حسب موقعها في رأس الفرد؛ إذا كانت في الجانب الأيسر كما في قسمتي إشاوين وجبارنة بإگزناين مثلا تسمى ثاجطّوشث ، و«ثاعيّاشْث» إذا كانت في الجانب الأيمن كما في ثمسمان وباقي إگزناين، و«ثامْزورث»، إذا كانت وسط مؤخرة الرأس كما في أيث ورياغر وإبقوين. ص.209.

-ثاخوخْث: باب جانبي صغير لبيت الضيوف. ص.188.

-ثاخيذوسْث: السلهام الصوفي القصير. ص.187.

-ثادّا(ر (ث: المنزل أو المسكن ويتشكل المنزل النموذجي في الريف من بناء مربع في الغالب بطابق واحد إلا في حالات نادرة يضاف فيها بيت فوق الطابق الأرضي يسمى» ثْغو(ر)فت. «تبنى الغرف داخل المحيط الخارجي للمنزل بشكل يجعل جميع أبوابها تطل على فناء داخلي مفتوح يسمى » أزْقاقْ« يوجد في جزء من هذا الفناء الكانون المستعمل للطهي المسمى »ثيغا(ر)غا(ر) «. ص.171.

-ثاذوكاند/ أَرْفّيظ: يستعمل كسرير للنوم. ص.187.

-ثازعْبوثْش: المحفظة الجلدية التي تعلق على الكتف خارج الجلباب. ص.197.

-ثاسْرافث: المطمورة التي تخزن فيها الحبوب، وهي في ملكية الأفراد عموما، حيث تحفر في فناء المنزل ذاته، وإن وجدت حالات محدودة لمطمورات مجمعة في موضع واحد تابعة لسلالة أو مدشر، لكنها تختلف عن المخازن الجماعية في الأطلس مثلا. ص.188.

-ثاسريث أونْزار: عروس المطر. ص.153.

-ثاعصت: خلط زمبو مع الزبيب والجوز أو اللوز والسمن. ص.193.

-ثاعگّاط: الحزام الجلدي العريض. ص.197.

-ثاعْمانت: العمامة القطنية ذات اللون الأصفر أو الأبيض والتي ظهرت بعد الاستعمار. ص.197.

-ثاغْرافث: العمامة الصوفية القصيرة التي لا تغطي مجموع الرأس، وظلت مستعملة إلى حين فترة الحماية. ص.197.

-ثافجّاجث: عارضات منحوتة مربعة الأضلاع تدعم سرير القصب المشكل لسقف غرفة الضيوف. ص.187.

-ثاقبيتش: القبيلة وهي الجزء الانقسامي الأعلى، وأهم وحدة سياسية بالريف، يليها » ارْخمس« أي الخمس أي قبيلة خمس أخماس مثل قبيلتي إكزناين وأيث ورياغر، ثم» أرْبعْ«المرادف للقسمة أو العشيرة أو القبيلة المكونة من أربع قسمات مثل أيث عمارث، وتضم القسمة وحدات سياسية واجتماعية» ذارْفيقْث« أي السلالة العاصبة التي تتفرع إلى » إجوجكا «أي السلالات الفرعية، وأصغر وحدة هي الأسرة النووية، المسماة» النوبثْ« هذه الوحدة التي تحدد أدوار الاستفادة من مياه الري، أو دفع »الشا(ر)ظ «أي مشارطة فقيه المسجد، أو الحصول على الحصة من »روزيعْث« أي حصة اللحم الموزعة على كل أسرة عندما تقرر» اجْماعثْ« اقتناء رأس من الماشية وتوزيعها بين أعضائها خلال مناسبة ما، أو تتكفل بتعويض متضرر مرضت بقرته مثلا، فتذبحها وتوزعها على مجموع الأسر » النوبثْ« المنتمية للجماعة ليتقاسموا عبء خسارة المتضرر. ويطلق مصطلح » النوبثْ« أيضا على وجبة الأكل اليومية التي تقدمها كل أسرة بالتناوب لفقيه المسجد. ص.124.

-ثامْزادْجوث: مساجد المداشر الأصغر حجما. ص.168.

-ثامزيذا نجخوظبث: مساجد الخطبة. ص.168.

-ثاندا/ذاندا: من أسماء أحواض المياه المتداولة في الريف. صص.30-78-105.

-ثاوريقْث: أجزاء خشبية الصغيرة بلوحات منشورة تستعمل كدعامة لبناء سقف الغرف. ص.187.

-ثايذوا)ر(ث: الكسوة قطنية وذات ألوان زاهية. ص.198.

-ثفارا: المطرحة التي تستعمل في عملية وضع الخبز في الفرن وإخراجه. ص.153.

-ثويزة/ذويزة: عرف أخلاقي إلزامي شائع يتمثل في التضامن بين سكان الريف في المجال الفلاحي وبناء البيت وكل ما عمل يفرض التعاون، حيث يجتمع أهالي شخص ما وأصدقاؤه لمساعدته لإنجاز العمل مقابل الإطعام فقط. ص.88.

-ثيجغْثْ: مادة حمراء مستخرجة من حبات نبات الدروة لتزيين الخدود. ص.200.

-ثيحنْيا: توضع عارضات خشبية متعامد فوق »أساثور«. ص.187.

-ثيغزا/ثغزويث: المنعرج الفيضي الذي يتحول إلى بستان، هي ضمن الأراضي المسقية مثل» ذاقيراط« التي تجزأ إلى »ذيثورا «التي تجزأ بدورها إلى قطع أصغر هي »رحْواض«. صص.39-58-59-187.

-ثيمْحاگزين أو ثيعصبانين: لحم محفوظ لاستعماله في وقت لاحق عن طريق تجفيفه تحت أشعة الشمس أو تقديده في شكل نقانق يتم تناولها خلال «الحاگوز» و«عاشوراء». صص.154-194.

-ثيمنْجا)ر(ث: كراسي قصيرة دون مسند أو أرجل. ص.190.

-ثيوگا/ذيويا: زوج من الدواب، ويعتبر من أهم وسائل الإنتاج بالريف. ص.190.

-ذارا: الينبوع الذي يختص في الغالب بخصائص استشفائية، وتعني في كثير من الأحيان منابع مائية عادية لكن توحي بنقاء وصفاء مائها، ولها أسماء أخرى أهمها »ارْعونْصا(ر) «أو» ارْميزابْ«. صص.75-78.

-ذازطاط: شبكة عرفية كانت ضرورية في حالة السفر خارج القبيلة وكانت الزطاطة شرطاً لمن أراد العمل خارج القبيلة وفي حالة الريف تشمل المبلغ الذي يدفع للقاتل المأجور بغرض الثأر في عهد الريفوبليك. صص.267-274.

-ذَاسَا)رْ(ذُونْدْ إمظْرَانْ: بغلة المقابر، ومن أهم المخلوقات الخرافية التي ارتبطت بالثقافة الريفية. ص.181.

-ذامريست: الوديعة تكون لمدة محدودة دون فائدة، وتعاد الوديعة فور تسديد الدين، غير أن الوديعة كانت غالبا في شكل قطع أرضية يستفيد المقرض من عائداتها وبالتالي اعتبرتها الحكومة المغربية ربا وألغيت بشكل فعلي سنة 1956. ص.140.

-ذامريقث: عصيدة أو حساء ثخين يُحضر بالقطانى الجافة كالفول والبازلاء والعدس. ص.193.

-ذاينّورث: الفرن التقليدي المخصص لطهي الخبز. ص.191.

-ذبو)ر(ج وثنوزرو: الكوة النافذة الصخرية. ص.170.

-ذوشوث من فعل «إوْشا»، أي «أعطى: التداول حول اتفاق والدا العروسة والعريس حول العطايا المقدمة بالإضافة إلى صداق الزوجة. ص.221.

-ذيگَاز: الوشم، وكان يهم بالخصوص الفتيات العازبات المقبلات على الزواج حيث يلجأن إلى نساء أكبر سنا متخصصات في رسم الوشم المطلوب على الذقن يقال أن هذه العادة تعود إلى

تاريخ قديم مرتبط بهجوم للغزاة الرومان على الريف وفرار المحاربين الريفيين، مما جعل النساء يشمن وجوههن وأذرعهن تعبيرا عن العار الذي لحق بهن. ص.199.

-ذيمكًا: عمل سحري. ص.178.

-ذيوْسي أو لهدية: تتمثل في حمل المدعوون من الأقارب والأصدقاء هدية لوالد العريس تتمثل في رأس من الماشية وكميات من الخبز والطحين والزيت وغيرها من المواد الغذائية كمساعدة لتغطية مصاريف زفاف ابنه. ص.223.

)-رْ(خُمسْ: الخمس هو أكبر وحدة انقسامية داخل القبيلة. صص.123-124-125-136.

-رقوبث: تاج العروس وطرحة مصنوعة من أغصان الدالية ويوضع فوقها غطاء صوفي ثم حريري. صص. 223-225-278.

-ركواغظ: بمعني الأوراق أو القوانين كانت مختلف الرسوم والوثائق والقوانين العرفية في الريف تدون من طرف الفقهاء والعدول والقضاة. ص.270.

-روخو: مصطلح انتشر في الريف خلال فترة الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939، ويعنى به الحزب الشيوعي. صص.321-323.

-روزيعث: ذبيحة يُوزع لحمها على جميع أسر المداشر التابعة للمسجد. صص. 88-155.

-زمْبو: دقيق الشعير الطري. ص.159.

-زوي/أزوي: الزعتر البري وينتج منه أجود أنواع العسل. ص.84.

-السواك/ سواش: لحاء شجرة الجوز المجفف أو قشرة حبة الجوز الطرية. صص.163-200-226.

-سيري إنو ذازيرا: المعنى الحرفي هو بعنق طويل وتعني برأس مرفوع. ص.75.

-الطارب أو أمحضار: أمحضار المتعلم الذي يتردد على المسجد ويحفظ القرآن حسب نموذج التعليم التقليدي، ويصبح »طارب« حين يحفظ القرأن بأكمله. ص.178.

-كورنيطا: أنغام موسيقى النشيد العسكري. ص.314.

-وايدجي ذيمسعي ورا ذتاجا)ر(: متوسط الدخل. ص.139.

-يمّا: أمي (ترتبط أحيانا بمسقط الرأس) وفي نفس السياق نقدم جردا للمصطلحات المستعملة في مجال بعض علاقات القرابة وهي كالتالي: أبي »بابا«، أخي »أوما «وأختي »أوتشما «وابني »ممّي «وابنتي»يدجي«. ص.158.

اللائحة الببليوغرافية باللغة العربية

الوثائق:

- التقييد بالخزانة الحسنية، كناش رقم **192.5**، يتضمن 5 صفحات، الرباط، 1890.
- وثائق المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، المحفظة رقم **37**، الوثيقة رقم 155.
- الوكالة الوطنية للمحافظة العقارية والمسح العقاري والخرائطية، خريطة بودينار، 1: 25000.
- الوكالة الوطنية للمحافظة العقارية والمسح العقاري والخرائطية، خريطة أولاد أمغار، 1: 25000.

المخطوطات

- أزرقان (محمد)، الظل الوريف، مخطوط بخزانة خاصة بصاحب المخطوط تعود لعائلة أزرقان.
- البوفراحي الريفي (عبد العزيز) ت899هـ، مخطوط: رسالة تعريف المريدين لطريق التوفيق والخذلان وتعاطي كل ما فيه استعاذة والبعد عن الشنآن، خزانة خاصة لمحمد علوان، والحنفي مولود.

- البوفراحي الريفي (عبد العزيز) ت899هـ ،مخطوط: رسالة فيما يستحسن من تهنئة الأمير إذا قدم من السَّفر، خزانة خاصة لمحمد علوان، والحنفي مولود.
- البوفراحي الريفي (عبد العزيز)ت899هـ، مخطوط: الأمر المهم الأكيد فيما يلزم الإنسان من حسن الجواب والتسديد، خزانة خاصة لمحمد علوان، والحنفي مولود.
- عن أبي الحسن علي المراكشي، كشف النقاب عن مناقب الشيخ الأواب الحاج حسون، مخطوط خاص، بدون تاريخ.
- اليعقوبي، الأخبار الريفية في الحروب الاصبانية، مخطوط بالخزانة الوطنية18 ، جمادى الثانية عام 1347 هـ الموافق لـ 2 دجنبر 1928م.

المصادر

- الإفراني بن الحاج (محمد)، صفوة من انتشر في أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2004.
- البادسي (عبد الحق بن إسماعيل)، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1993.
- البخلاخي (امحند) الجوهر المكنون في عجائب أخبار ولي الريف سيدي الحاج حسون، منشورات الصالون الأدبي لابن الريف، سلسلة التراجم 1، 2006.
- البكري (أبو عبيد)، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، 1992.
- البكري (أبوعبيد)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- البوعياشي (أحمد عبد السلام)، حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، مطبعة دار الأمل، الطبعة الأولى، طنجة، 1974، الجزء الأول.
- الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1984.

- الخطابي (محمد بن عبد الكريم)، مذكرات لاريونيون، تحقيق تعليق وتقديم: عبد المجيد عزوزي-محمد أونيا، عبد الحميد الرايس-جمال أمزيان، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية الرباط، 2017.
- خلدون (عبد الرحمان)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الجزء السادس.
- داود (محمد)، تاريخ تطوان، القسم الأول من المجلد الثاني، تطوان، 1963.
- الدوائري (أقضاض عبد العزيز)، مذكرات مؤسس وقائد مقاتل في صفوف جيش التحرير، إعداد وتقديم محمد لخواجة، دار أبي رقراق، الرباط، 2008.
- الرباطي (الضعيف محمد)، تاريخ الضعيف تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق: أحمد العماري، نشر دار المأثورات، الطبعة الأولى،الرباط، 1986.
- الرهوني (أبو العباس أحمد)، عمدة الراوين في تاريخ تيطاوين، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاوين أسمير، الجزء الثاني.
- الرهوني (أحمد)، الرحلة المكية، منشورات معهد الجنرال فرانكو، تطوان، 1937.
- الريحاني (أمين)، المغرب الأقصى: رحلة في منطقة الحماية الإسبانية 1952 ،
- الريفي بن موسى (عبد الكريم)، زهر الأكم مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل، دراسة وتحقيق: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992.
- الزياتي (محمد عبد العزيز)، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، تحقيق غنية عطوي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة-الجزائر، 2013.
- الزياني (أبو القاسم أحمد)، الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين من أولاد مولانا الشريف بن علي من كتاب الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، مطبعة الجمهورية، باريس، 1884.
- الزياني (أبو القاسم)، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تحقيق: رشيد الزاوية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2008.
- زيدان (عبد الرحمان)، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الرباط، 1931، الجزء الأول والجزء الثالث.
- سكيرج (أحمد)، الظل الوريف في محاربة الريف، إعداد محمد الراضي كنون، الجديدة، 1926.
- سودة (عبد السلام)، سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، 1997.
- الشراط (بن عيشون محمد)، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهراء نظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997.
- الفاسي (ابن أبي زرع)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1973.
- القادري (بن الطيب محمد)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي-أحمد التوفيق، دار المغرب، الرباط، 1977، الجزء الأول.
- الكتاني (بن عبد الكبير عبد الحي)، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، الجزء الأول.

- الكتاني (محمد بن جعفر بن إدريس أبو عبد الله)، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2004، الجزء الثالث.
- كربخال (مارمول)، إفريقيا، ترجمة محمد حجي أحمد توفيق ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، 1984، الجزء الأول والجزء الثاني.
- الكنسوسي (عبد الله بن أحمد محمد)، جيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، 1994، الجزء الأول.
- مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة ها بينهم، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الثانية، 1989.
- مجهول، تاريخ الدولة السعدية التگمدارتية، تقديم وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة، عيون المقالات، الطبعة الأولى، مراكش، 1994.
- مجهول، قحط في المغرب معركة الحنطة في المنطقة، مطبعة المخزن، تطوان، 1946.
- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، منشورات سعيد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985.
- مجهول، مفاخر البربر، تحقيق: محمد يعلي، مدريد، 1996.
- المراكشي (ابن عذاري)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، ليدن، 1948، الجزء الأول.
- المقري (أحمد)، زهرة الأخبار في تعريف أنساب آل بيت النبي المختار، المطبعة الجديدة ومكتبتها، الطبعة الأولى، فاس، 1349ه.
- منظور، لسان العرب، دار الكتاب، بيروت، الجزء الثاني.
- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، الجزء الأول، والجزء السابع، والجزء التاسع.
- الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، 1983، الجزء الأول.
- اليماني (بن الطيب الحسن)، التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب، تقديم محمد المنوني، دار المعرفة، الطبعة الأولى، 1994، الجزء الأول.

المراجع

- أبو ضيف (أحمد مصطفى)، منهج البحث التاريخي بين الماضي والحاضر، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1987.
- أحميان (محمد)، الريف والبحر الأبيض المتوسط ،**1830-1926** مجلس الجالية المغربية بالخارج، الطبعة الأولى، الرباط، 2018.
- أضوض (إدريس)، ألف مثل أمازيغي ومثلان، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2012.
- أعراب (مصطفى)، الريف والسلطة المركزية مقاربة تاريخية لأسباب التوتر، مطابع الرباط نت، الطبعة الأولى، الرباط، 2019.
- أقضاض (محمد)، الوالي (محمد)، ملحمة ادهار أوبارّان أنشودة المقاومة الريفية، مطبعة المناهل، الطبعة الأولى، 2007.
- أمزيان (محمد)، لعنة عبد الكريم، تيفراز أريف، تطوان، الطبعة الأولى، 2018.

- أميلي (حسن)، المغاربة والمجال البحري في القرنين **17** و**18**م، مختبر الأركيولوجيا والتراث الثقافي الساحلي-المحمدية-، بدعم من وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي والتقني، الطبعة الأولى، الرباط، 2011.
- إيكلمان (ديل)، الإسلام في المغرب، ترجمة محمد أعفيف، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2015.
- بروديل (فرناند)، المتوسط والعالم المتوسطي، ترجمة: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 1993.
- البزاز (محمد الأمين)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1992.
- بلفور (سيباستيان)، العناق المميت من حرب الريف إلى الحرب الأهلية الإسبانية، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، منشورات تيفراز، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2016.
- بوسنينا (عائشة)، حكايات وأمثال أمازيغية ريفية، مطابع الأنوار، الطبعة الأولى، وجدة، 2012.
- بوصوف (عبد الله)، جوانب من تاريخ إمارة نكور، منشورات ملتقى الطرق، الدار البيضاء، 2017.
- بياض (الطيب)، الصحافة والتاريخ إضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن، دار أبي رقراق، الرباط، 2019.
- توفيق (محمد)، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر إينولتان «**1850-1912**» منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، 2011.
- جبور (عبد النور)، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت، 1979.
- جحاح (محمد)، الزاوية بين القبيلة والدولة في التاريخ الاجتماعي والسياسي للزاوية الخمليشية بالريف، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015.
- الجوهري (محمد) وآخرون، الأنثربولوجية الاجتماعية قضايا الموضوع والمنهج، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003.
- حبيدة (محمد)، من أجل تاريخ إشكالي ترجمات مختارة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، القنيطرة، 2004.
- الحسن (رشيد)، وشم الذاكرة معالم أمازيغية في الثقافة الوطنية، مطابع أمبريال، الرباط، 2002.
- حمداوي (جميل)، الشعر الأمازيغي بمنطقة الريف –أنطولوجيا وببليوغرافيا-، دار الريف للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الناضور، 2013.
- حمداوي (جميل)، صورة عبد الكريم الخطابي في الشعرين العربي والأمازيغي، جسور، الطبعة الأولى، وجدة، 1997.
- الخديري (خديجة)، التراث الأثري لساحل بلاد الريف، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، 2018.
- دوتي (إدمون)، مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات مرسم، مطبعة أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، 2011.
- دوركايم (إميل)، في تقسيم العمل الاجتماعي، ترجمة: حافظ الجمالي، مجموعة الروائع الانسانية، الأونيسكو (السلسلة العربية)، الطبعة الثانية، 1986.
- ذي ماداریاغا (ماریا روسا)، محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، ترجمة محمد أونيا – عبد المجيد عزوزي - عبد الحميد الرايس، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، 2013.
- ذي ماداریاغا (ماریا روسا)، مغاربة في خدمة فرانكو، ترجمة: كنزة الغالي، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2006.
- ريكور (بول)، كتابة التاريخ وتمثل الماضي، ترجمة محمد حبيدة، من أجل تاريخ إشكالي ترجمات مختارة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة بن طفيل، القنيطرة، 2005.
- زاهد (محمد)، الريف التاريخ والذاكرة، أين برانت، الطبعة الأولى، الرباط، 2019.

- سراج (أحمد)، آيت ورياغل التاريخ، المؤسسات، العلاقات مع السلطة، منشورات ملتقى الطرق، الدار البيضاء، 2017.
- سعدي (محمد)، حراك الريف ديناميات الهوية الاحتجاجية، سليكي أخزين، الطبعة الثانية، طنجة، 2020.
- السمغيني (سلام)، ما توشيذ ءيگرحريق ءينو؟، دار قرطبة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1992.
- سيمور-شميت (شارلوت)، موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الانتروبولوجية، ترجمة مجموعة من الباحثين بإشراف محمد الجوهري، المشروع القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1998.
- الشلوشي (إدريس)، الجزر المغربية المتوسطية بادس، نكور، جزر ملوية، البرهان، ثاورة، 1799-1912م الغزو والمقاومة، دار القلم، الطبعة الأولى، الرباط، 2012.
- الطاهري (أحمد)، إمارة بني صالح في بلاد نكور: الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الإسلامي، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1998.
- الطاهري (أحمد)، بلاد الريف في أعماق تاريخ وثقافات البحر المتوسط، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى، تطوان، 2019.
- الطاهري (أحمد)، فصول مبتورة من تاريخ المغرب بلاد الريف وحاضرة نكور من فجر التاريخ إلى أنوار الإسلام، ركوليكتوريس أوربانوس، الطبعة الأولى، إشبيلية، 2013.
- الطاهري (أحمد)، فصول منسية من تاريخ المغرب: إمارة بني صالح في بلاد نكور، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1998.
- الطاهري (عبد العزيز)، الذاكرة والتاريخ المغرب خلال الفترة الاستعمارية **1912-1956**، تقديم: جامع بيضا، دار أبي رقراق، بدعم من وزارة الثقافة، الرباط، 2016.
- طليح (عبد العزيز)، إبقوين نبش في الذاكرة، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى،الرباط، 2016.
- الطيبي (عبد الرحمان)، الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط 1860-1912، منشورات تفراز، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2008.
- العروي (عبد الله)، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية **1830-1912**، ترجمة محمد حاتمي ومحمد جادور، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 2016.
- العلمي (محمد)، زعيم الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2009.
- العلوي (هاشم)، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1995، الجزء الأول.
- أوحدو (محمد)، **الريف الشرقي بالمغرب وبنياته التقليدية نموذج قلعية**، منشورات زمن، سلسلة شرفات، العدد التاسع والثمانون، الرباط، 2017.
- عياش (جرمان)، أصول حرب الريف، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمسماني، الشركة المغربية المتحدة، الرباط، 1992.
- عياش (جرمان)، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1986.
- عيسى (لطفي)، بين الذاكرة والتاريخ في التأصيل وتحولات الهوية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2015.
- الغديري (مصطفى)، الريف موضوعات وقضايا :مشاركة أبناء الريف في الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939م من خلال الشعر الأمازيغي بالريف، الطبعة الأولى، وجدة، 2009.
- غراسي (فالنتينا)، مدخل إلى علم اجتماع المخيال نحو فهم الحياة اليومية، ترجمة: محمد عبد النور وسعود المولى، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2018.

- الغلبزوري (محمد)، إشكاليات التسوية الأممية والدولية للجرائم والجنح الدولية حالة حرب الريف الكيماوية **1921-1926**، مطبعة سليكي أخوين، الطبعة الأولى، طنجة، 2019.
- غيلنر (إرنست)، مجتمع مسلم، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادر، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، طرابلس، 2004.
- الفراد (سعيد)، أيث وريشش نموذج نشأة قبائل الريف الشرقي وتطورها وامتدادها، مطبعة الجسور، وجدة، 2010.
- القزدغلي (حبيب) وآخرون، نساء وذاكرة تونسيات في الحياة العامة **1920-1960**، ميديا كوم، تونس، 1993.
- كون (ستيفنس كارتلون)، لحم الثور البري، ترجمة عبد المجيد عزوزي، الطبعة الأولى، سليكي أخوين، طنجة، 2020.
- كينغسميل هارت (أورسولا)، وراء باب الفناء الحياة اليومية للنساء الريفيات، ترجمة عبد الله الجرموني، منشورات تيفراز، الرباط، 2010.
- گيريلي (أنخيلو)، إبقوين قبيلة من الريف المغربي، ترجمة: عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، 2017.
- گيريلي (أنخيلو)، قبيلة أيث يطفت، ترجمة: نادية بودرة، دار الأمان، الرباط، 2019.
- لخواجة (محمد)، جيش التحرير المغربي 1951-1956م ومذكرات للتاريخ أم للتمويه؟، دار أبي رقراق، الرباط، 2007.
- لوغوف (جاك)، التاريخ والذاكرة، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، 2017.
- ليوزو (كلود)، العنف والتعذيب والاستعمار من أجل الذاكرة الجماعية، ترجمة الصادق عماري وآخرون، دار الفضيلة للنشر، الجزائر، 2007.
- المرون (مصطفى)، التاريخ السري للحرب الكيماوية ضد منطقة الريف وجبالة **1921-1927**، دار القلم، الطبعة الأولى، الرباط، 2016.
- المساوي (الحسن)، الجديد في الأمثال والحكم والأقوال المأثورة الأمازيغية بمنطقة الريف، مكتبة الشيخ حسن، وجدة، 2016.
- مصطفى سليم (شاكر)، قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، الطبعة الأولى، 1981.
- منصور (عبد الوهاب)، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1968.
- موليراس (أوجست)، المغرب المجهول: اكتشاف الريف ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز ناريف، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2007، الجزء الأول.
- مونتگومري هارت (دايفيد)، أيث وياغر قبيلة من الريف المغربي، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الريس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، الطبعة الثانية، 2016، الجزء الأول والجوء الثاني.
- مونتگومري هارت (دايفيد)، القانون العرفي الريفي نصوص مختارة من أعمال إمليو بلانكو إيثاگا، ترجمة: محمد الوالي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2004.
- ميرة (محمد)، الأمثال الشعبية في الريف، مطبعة الشرق، وجدة، 2009، الجزء الأول.
- الهراس (المختار)، القبيلة والسلطة تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، الطبعة الأولى، الرباط، 1988.
- هيرفيه ليجيه (دانيال)، سوسيولوجيا الدين، ترجمة: درويش الحلوجي، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2005.
- هيوسرل (إدموند)، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة: أحمد الصادقي، الحوار، الطبعة الأولى، سوريا، 2009.

المقالات:

- أركون (محمد)، »أنثربولوجيا وذاكرة جماعية مفهوم الكلمة الغائبة: كلمة الأمل أفكار وشعارات مغشوشة ،«كتابات معاصرة، العدد السابع والأربعون، منشورات انتصار العقل، بيروت، 2003. (123-128).
- أزايكو (علي صدقي)، »حول النظرية التجزئية مطبقة على المغرب ،«مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، العدد الرابع عشر، (9-14) .1988
- أزيزا (ميمون)-أحميان (محمد)، »القحوط والمجاعات في الريف المعاصر«، الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، (245-269) .2019
- الأشعري (سعيد)، »الصناعة التقليدية بالريف الشرقي ودورها في تحقيق التنمية المحلية ،«مجلة الذاكرة، العدد الثاني، مركز الريف للتراث والدراسات والأبحاث، الناظور، (54-62) .2017
- أقضاض (محمد)، »الريف بين بلاد المخزن وبلاد السيبة ،«مجلة حفريات مغربية، العدد الأول، دار النشر جسور، وجدة، .(109-113) .2001
- أوري (لحسن)، "تقديم" ندوة: تازة وباديتها من خلال الأرشيفات الأجنبية والتراث الوثائقي المحلي، آنفو-برانت، فاس، (8-11) .2014
- أونيا (محمد)، "القرصنة الريفية بين الأسطورة والتاريخ "(1856-1898)، مجلة حوليات الريف، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، .(39-60) .1999
- أونيا (محمد)، »التصور الانقسامي للمجتمع بشمال المغرب ملاحظات حول أعمال رايمون جاموس ودافيد هارت ،«مجلة أمل، العدد الثاني عشر، السنة الرابعة، 1997م(60-71) .
- أونيا (محمد)، »مفهوم الريف المغربي«، حوليات الريف، العدد الأول، السنة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، .(14-44) .1998

- ابن عبيد (عبد المالك)، »الريف الطبيعي«، معلمة المغرب، المجلد الثالث عشر، (4529-4535) ،2001
- بنحمادة (سعيد)، »الحياة العامة لبلاد الريف خلال القرن 12هـ/18م من خلال كتاب زهر الأكم لعبد الكريم بن موسى الريفي ،«ضمن ندوة الحركة العلمية بالريف من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الهجريين مميزاتها وإسهاماتها، منشورات المجلس العلمي المحلي لإقليم الدريوش، الناظور، 2016م(72-100) .
- بوشعراء (مصطفى)، «الجوائح والقواصم ،«مجلة دار النايبة، العدد الثاني، طنجة، .(34-49) .1984
- بوطالب (إبراهيم)، »الذاكرة والتاريخ ،«مجلة البحث التاريخي، العدد الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، .(14-26) .2003
- بوكوس (أحمد)، »تريفيت أو تاريفيت ،«معلمة المغرب، المجلد السابع، .(2351–2352) .1995
- بيضا (جامع)، »المكتبة والتاريخ والذاكرة الجماعية ،«مجلة البحث التاريخي، العدد الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، .(34-40) .2003
- جادور (محمد)، »الذاكرة وبناء الخطاب التاريخي (معركة الملوك الثلاثة) ،«مجلة الثقافة المغربية، العددين العشرين والواحد والعشرين، الرباط، (191-197) .2003
- جدي (مراد)، »طقوس الاحتفالات الفصلية بالريف شمال المغرب: الزمن كممارسة سوسيو-ثقافية ،« الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، 2019. (355-367)
- جدي (مراد)، »الريف: التسمية والهوية والعمران البشري دراسة في تاريخ المجال والسكان ½«، مجلة الذاكرة، العدد الأول، مطبعة الأمنية، الرباط، .(9-24) .2016
- حواس (عبد الحميد)،» الإبداع النسوي في الثقافة الشعبية ،«مجلة الثقافة الشعبية، العدد الحدي عشر، أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، البحرين، .(22-29) .2010

- دو لابريمودي (إيلي)، »المدن البحرية بالمغرب تجارة ملاحة وجغرافية مقارنة«، ترجمة عز الدين الخطابي، حوليات الريف، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، (37-11) .1999
- الرايس (عبد الحميد)، »المسألة المعدنية بالريف والتهافت الأجنبي ،«حوليات الريف، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، (103-73) .1999
- الرايس (عبد الحميد)، »تشكل الوعي الوطني والسياسي لدى النخبة الريفية في بداية القرن العشرين آل الخطابي نموذجا ،«مجلة الربيع: الريف؛ التاريخ والذاكرة والتراث، العدد الثامن، الجزء الأول، الدار البيضاء، .(221-207) .2018
- الرايس (عبد الحميد)، »سوسيولوجيا الأسواق النسائية بالريف ،«حوليات الريف، العدد الأول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، (77-55) .1998
- ريكور (بول)، »التاريخ والذاكرة«، ضمن الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد حبيدة، أفريقيا الشرق، بدعم من وزارة الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، (115-92) .2015
- زروالي (علال)، «السكن الريفي القديم بالريف الشرقي ،«مجلة حفريات مغربية ،العدد الثالث، مطبعة جسور، الطبعة الأولى، وجدة، (67-56) .2004
- الزوبع (جواد)، »إشكالية الفعل وخصائصه الصرفية في أمازيغية »تريفيت» دراسة مقارنة»، مجلة الذاكرة، العدد الثالث، مطبعة الأمنية، الرباط، (136-129) .2016
- السبتي (عبد الأحد)، »بين التاريخ والذاكرة الجماعية تشكلات ورهانات ،«مجلة البحث التاريخي، العدد الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، (33-27) .2003
- سفاري (ميلود)، «الأسس المنهجية في توظيف الدراسات السابقة»، مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية، عدد خاص، (45-38) .1995
- شكري محمد، «أنا وليد لغة تستضيفني إن لم أقل أنا لاجئ فيها ،«مجلة مجرة، العدد السابع، مراكش، (71-69) .2001
- ضريف (محمد)، »ترجمة وتلخيص الزاوية الوزانية ،«المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، العدد الأول،)91-79(.1996
- الطاهري (أحمد)، «بواكير العمران الحضاري ببلاد نكور بين الأركيولوجيا والتوثيق ،«حوليات الريف، العدد الأول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، .(13-6) .1998
- الطيبي (عبد الرحمان)، »الحدود الجغرافية والتاريخية لقبائل الريف الأوسط»، حوليات الريف، العدد الأول، السنةالأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء، (54-45) .1998
- علاش (صباح)، المساجد/ المدارس بالريف نموذج أذوز بإبقوين، ضمن ندوة: المدارس العتيقة بالمغرب: دور القبائل في التدبير والتمويل، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، .(53-46) .2015
- علاش (صباح)، »التراث الثقافي بالريف«، ضمن ندوة: التراث الأمازيغي ركيزة للتنمية بالمغرب، تنسيق أحمد بوضيلب-عزيز بن طالب-محمد أيت حمزة، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، .(68-57) .2017
- غينسبورغ (كارلو)، »الجبن والديدان عالم طحان من القرن السادس عشر مقدمة الطبعة الإيطالية«، ترجمة: ثائر ديب، مجلة أسطور، العدد الثامن، (120-112) .2018
- فوفيل (ميشيل)، »التاريخ والأمد الطويل ،«التاريخ الجديد، تنسيق: جاك لوغوف، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، (191-141) .2007
- القبلي (محمد)، تقديم لأعمال ندوة »الذاكرة والمقاومة المغربية فيما بين سنتي 1944-1961،« تنسيق عبد الرحمان المودن، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، فاتح دجنبر (10-8) .2007
- كدو (فاطمة)، «الدلالات الدونية لبارة «أنثى« في الذاكرة الجماعية بين الوضوح والغموض ،« سوسيولوجية المجتمع المغربي، منشورات فكر، بدعم من وزارة الثقافة، الرباط، (19-7) .2015

- كرزيستوف (بوميان)، »الكتابة التاريخية بين الهوية والاحتراف«، ترجمة عبد الأحد السبتي، مجلة فكر ونقد، العدد الرابع والثلاثون، الرباط، (40-31) .2000
- كريزيستوف (بوميان)، »تاريخ البنى ،«التاريخ الجديد، تنسيق: جاك لوغوف، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، .(233-193) .2007
- ليغينيشي (منويل)، »نكسة إسبانيا في الريف: أنوال 1921م«، ترجمة: هناء الدراوي، مجلة الذاكرة ملف التربية والتعليم بالريف، العدد الثالث، الناظور، دجنبر (143-139) .2018
- مدون (عبد الكريم)، »التاريخ الاجتماعي بين الأسطورة والذاكرة الشعبية محاولة قراءة في ذاكرة المجتمع الآسي ،«مجلة قراءات، العدد الأول، أكادير، .(120-111) .2005
- مزيان (علي)، »بطوية ودورها في الحياة السياسية بالمغرب خلال العصر الحديث ،«مجلة الذاكرة، مركز الريف للتراث والدراسات والأبحاث، العدد الثاني، الناظور، (48-37) .2017
- مقبوب (إدريس)، «المجال الاجتماعي للمرأة القروية وأثره على بنية العائلة ،«سوسيولوجية المجتمع المغربي، منشورات فكر، بدعم من وزارة الثقافة، الرباط، (74-65) .2015
- المنصور (محمّد)، »تصوّف الشّرفاء: الممارسة الدّينيّة والاجتماعيّة للزّاوية الوزانيّة من خلال مناقبها ،« التّاريخ وأدب المناقب، منشورات عكاظ، الرّباط، (27-15) .1989
- موران (إدغار)، »البحر الأبيض المتوسط: فضاء الاختلاف والتواصل«، ترجمة عبد المجيد السخيري، حوليات الريف، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، .(111-105) .1999
- مونتغمري هارت (دافيد)، »من الريفوبليك إلى الريبوبليك، المؤسسات الاجتماعية-السياسية الريفية وإصلاحات عبد الكريم ،«مجلة أمل، العدد 12، الدار البيضاء، (56-47) .1997
- نجمي (عبد الله)، »المغاربة والتاريخ: حادثة يهود فاس عام 1112هـ/1701م» ،مجلة البحث التاريخي، العدد الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، .(49-41) .2003
- نورا (بيير)، »الذاكرة الجماعية«، ضمن الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد حبيدة، أفريقيا الشرق، بدعم من وزارة الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، (91-85) .2015
- هارت منتگومري (دايفيد)، »الأمازيغ: اللغة والأصول توجيهات عامة حول اللغات الأمازيغية ،«حوليات الريف،ترجمة: عبد المجيد عزوزي،العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، -115) .1999 125).
- الوارث (أحمد)، «من تاريخ التصوف المغربي: الزاوية التوزينية بالريف الشرقي ،«مجلة التاريخ العربي ، العدد التاسع والأربعون، الرباط، (121-207) .2009

الأطاريح

- أغزادي (لحسن)، ابن عبد الكريم وحرب الريف **1921-1926**م، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية، فاس، .1989-1988
- جدي (مراد)، الأولياء الصلحاء وتحولات المقدس بالمغرب: دراسة في التاريخ السوسيو-ثقافي للتدين في الريفين الأوسط والشرقي، تحت اشراف محمد استيتو وفريد لمريني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، 2016.

الجرائد:

- جريدة الوحدة المغربية، عدد .8/3/1939
- جريدة الحرية، تطوان، العدد، .2/4/1939
-

المواقع الإلكترونية

- أبلال (عياد)، "الذاكرة الجماعية على ضوء الصحافة والتاريخ"، موقع مؤمنون بلا حدود الإلكتروني، https://www.mominoun.com/articles/، تمت زيارته بتاريخ 14/12/2019.
- بخرو (رضوان)، «إضاءات حول طوبونيمية الريف الشرقي منطقة بوعلما أنموذجا»، موقع هيسبريس الإلكتروني https://www.maghress.com/hespress/، تمت زيارته بتاريخ 04/03/2020.

الروايات الشفهية والمقاطع الصوتية

- شهادة الوازنة بودرة، من مواليد 1929م، تم تسجيل المعلومات يوم 17 فبراير 2019، بتيزي وسلي.
- شهادة تميمونت قوبع مواليد 1955، تم تسجيل المعلومات يوم 26 مارس 2020، بتيزي وسلي.
- شهادة خديجة البوبكاري، مواليد 1931م، تم تسجيل المعلومات يوم 17 فبراير 2019، بتيزي وسلي.
- شهادة سعدية بوبكري، من مواليد 1940م، تم تسجيل المعلومات يوم 17 فبراير 2019، بتيزي وسلي.
- شهادة عمر المساوي مواليد 1939م، تسجيل الشهادة تم يوم 29 نونبر 2018م.
- شهادة محمد أمزيان بودرة مواليد 1911م، وهو عم محمد بودرة، وتم تسجيل الشهادة يوم 17 يونيو 2018م، توفي يوم 19 فبراير 2020م.
- شهادة محمد بودرة من مواليد 1939، وتم تسجيل الشهادة في4 دجنبر 2019م.
- المقطع الأول من القرص المدمج.
- المقطع الثالث من القرص المدمج.
- المقطع الثاني من القرص المدمج.
- المقطع الرابع من القرص المدمج.

La liste Bibliographique en langues étrangères

Les Fonds d'Archives

- ***A.D.N., Fonds Maroc Protectorat, Série 12MA/280/61, dossier N°2****,* Rapport du Capitaine Brenguier, poste du Tizi ouzli, 1941.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,*** Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée 1er partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,*** Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Oulad Ali ben Aissa, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,*** Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Beni-Younes, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,*** Le Colonel Georges Chef du Territoire de Taza, Fiche N° 1522/2.0, Fiche de tribu Gzennaia, Cercle de Tainast, 17 Octobre 1952.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 9MA/713/76,*** Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Taghzut, Le 15 Mai 1947.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136****,* Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Gzennaia Fraction de Tizi ouzli, Première partie, Le 15 Mai 1947.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,*** Consignes manuscrites du Capitaine Vaugien sur les Gzennaia, Fiche de Tribu Gzennaia Zone occupée 1ère partie, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 20 Mai 1941.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,*** Tableau de Commandement des trois Fractions, Tizi Ousli, Le 1 septembre 1955.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,*** Rapport du Capitaine Brenguier chef du poste des affaires indigènes de Tizi ouzli, N°606, des Djmaas de Centre ouvriers, poste du Tizi ouzli, Le 27 Décembre 1950.

- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,*** Monographie sur les Jemaas en Tribu Gzennaia, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 21 Mai 1930.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,*** Le Chef de Bataillon Noix Chef du cercle du Haut-M'soun, Carnet- D'itinéraire A cheval Région de Tizi Ouzli, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 27 Janvier 1947.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,*** Eléments pour La mise à Jour de L'Atlas Monographique du cercle,poste du Tizi ouzli, 1948-1949.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,*** Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I., Fiche de Fraction des Beni-M'Hamed, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/137,*** le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Tribu Bni Amart, Le 24 Mai 1939.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, série R.1783*****,** Bulletin de l'Enseignement public du Maroc :Rif et Jbala, sue Le Dialecte Berbère du Rif, Janvier 1926
- ***A.D.N., Fonds Maroc- Protectorat, série 1MA/285,*** Dossier n° 73, Etude «Essai sur l'esprit de la coutume berbère marocaine (Son fondement, ses traits essentiels, son avenir)».
- ***A.D.N., Fonds Maroc- Protectorat, série 1MA/285,*** Dossier n° 73, Etude sur les actes en pays de coutume.
- ***A.D.N., Fonds Maroc- Protectorat, série 1MA/285*****,** Dossier n° 73 Exécution des prescriptions de la note résidentielle N°303.DP/2 du 8 mars 1924, Bureau des Ait-Youssi.
- ***A.D.N., Fonds Maroc- Protectorat, série1MA/200,*** Dossier n° 73, Etude du Droit Coutumier Berbère, par le Capitaine DENAT.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 1MA/100,*** Dossier XVIII, Rapport Renseignements, Réflexions sur les événements du Riff, Le 15 septembre 1921.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 1MA/100*****,** Dossier D.A.I. 196, Télégrammes officiels N° 6-1, Commandant la Région de Fez (Etat Major), Objet Chiffré, Le 9 juin 1924.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 1MA/100,*** Dossier D.A.I. 196, Le Capitaine Bertot, Pour La Paix Rifaine, Le 3 Mai 1926.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,*** Le Lieutenant Duhoo chef de

poste des Affaires Indigènes, Rapport N° 82, Cercle du Haut M'soun, poste du Tizi ouzli, 10 Octobre 1946.
- ***D.C.H.E.A.A.A.M., série E3195,*** Dossier N° 2.734, P.M. Bazin, Nemours ou Melilla port du Maroc oriental, université de Paris, 1956.
- ***D.C.H.E.A.A.A.M., série E3195,*** Dossier N° 3.454, Ch. Noaillac, Les bases de l'économie marocaine, université de Paris, 1956.
- ***M.A.E.E., D.A., Direction des Archives, Courneuve : La Correspondance Politique et Commerciale, série M.Maroc 1917-1940,*** Volume 111-112, Lettre du Caïd Haddou Ben Hammou à Mohammed Ibn Abdelkrim du 31 août 1921.
- ***M.E.D.A., La Maison rurale du pré-Rif*****,** L'Union Européenne, 23-02-2001.
- ***M.E.D.A., Taghzout****,* L'Union Européenne, 23-02-2001.
- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Service Historique de l'Armée de terre, série 3H102,*** dossier les Affaires du Rif, Lettre Résident Général au Ministre des Affaires Etrangères, et au Ministre de la Défense, Paris.

- ***B.N.E.A.H., Serie 47/613266,*** Marruecos El Rif Melilla, Nociones de Política Hispano-Marroquí, por G. Reparaz, Biblioteca de Emilio Bonelli y Hernando y de Juan María Bonnie y Rubio, Madrid, 1893.
- ***B.N.E.A.H., Serie A.C.D.E.E.M.D.D.A.I.C.D.E.M., N°1/98832,*** Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados, La El Rif 2a Parte, por Emilio Blanco Izaga, Ceuta, 1939.
- ***B.N.E.A.H., Serie A.F.C.a7172-21, R. 71677,*** Diario de un soldado en la campaña de Marruecos 1921-1922, Juan Sánchez Rodrigo, El cronista, Cerradilla, 1922.
- ***B.N.E.A.H., Serie A.F.G.F.C.521,*** Reflexiones acerca de las enseñanzas de la campaña del Rif en 1909, por Don Carlos Banús y Comas, Memorial de Ingenieros del Ejército, Madrid, 1912.
- ***B.N.E.A.H., Serie A.F.R.G.F.C, C^{a-}N°412/14,*** Noticia sobre la Yemáa Rifeña, por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927.
- ***B.N.E.A.H., Serie A.F.R.G.F.C., N°8,*** Monografía de la cabila de Beni Tuzin, por Ángelo Ghirelli, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934.
- ***B.N.E.A.H., Serie A.M.P.S.,*** Marruecos El Rif Azru Akchar, Mapa Provisional, en E. 150000, N°187, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, 1940.
- ***B.N.E.A.H., Serie A.M.P.S.,*** Marruecos, El Rif Bu Zineb, Mapa Provisional en E. 150000, N°174, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, 1940.
- ***B.N.E.A.H., Serie B.D.E.B.Y.H.Y.D.J.M.B.Y.R.,*** Dossier 47/610008, N°1240440, El Problema Rifeño, por Cándido Lobera, Donativo, Melilla, 1909.
- ***B.N.E.A.H., Serie E.C.D.E.M.D.T., Ca 7187-1***, Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif, A.F., por Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.

- ***B.N.E.A.H., Serie H.2284094,*** El combate en el Rif Memoria escrita, por Disposición del Excmo. Por Sr. General Gobernador Militar de Melilla, por Román Bayo Ayala Capitán del Regimiento Infantería de Melilla número 59, 1907.
- ***B.N.E.A.H., Serie I.P.A.E.B.I.,*** Mosaico Rifeño cuaderno de acuarelas de Emilio Blanco Izaga, Vicente Moga Romero, Instituto de las culturas, Uned Melilla, 1929.
- ***B.N.E.A.H., Serie M.S.S./14157/4,*** Los Moros del Rif, en tres actos, espaah.96, Madrid, Volumen 3, 1919.
- ***B.N.E.A.H., Serie R.667.470,*** Dossier N°3/92275, Verdaderas Amargas la campaña de 1909 en el Rif, Relato y juicios de un testigo, Madrid, 1910.
- ***B.N.E.A.H., Serie R.667.852,*** El Expediente Picasso, De Annual A La República Las responsabilidades de la actuación española en Marruecos Julio 1921, por Picasso Juan, Javier Morata Editor, Madrid.
- ***B.N.E.A.H., Serie R.D., N°16065,*** El Rif, La Zona Española, Madrid, 1940.
- ***B.N.E.A.H., Serie R.D., N°16065,*** Territorio del Rif, N°1765, Vademécum, Madrid, 1946.
- ***B.N.E.A.H., Serie S.G.M.S.S.,*** Nombres De Las Cabilas Del Rif, servicio Geográfico, 1912.
- ***B.N.E.A.H., Servicio Histórico Militar,*** Carpeta n°7, Legajo 302, 1927.
- ***B.N.E.A.H., Serie V.I.E.F.B.,*** dossier N° D.1765, Territorio del Rif, por Don Vademécum, Madrid, 1946.

- ***B.N.E., La número 8.085,*** Guerra En El Rif ? Continúa el combate?, El Pais, Diario republicano, Año XXIII, Madrid, Lunes 4 octubre 1909.

- ***B.N.E., Número 18.872,*** Episodios de la campana » Cobarde emboscada de los moros « Ocho muertos y tres heridos el fusilamiento de Ferrer, La Correspondencia de España, Año LX, Madrid, Miércoles 13 de Octubre 1909.
- ***B.N.E., Número 5.294,*** Retirando por Guerra, Heraldo Militar, Periódico independiente de la tarde, , Año XVI, Madrid 19 Marzo de 1910.
- ***B.N.E.A.H., Número 1.310,*** Tierras de Abd-el-Krim, El Sol, Diario Independiente, Año V, Madrid, jueves 20 de octubre de 1921, Volumen 1.

Les Ovrages

- Atlan (Henri), **Les trouble de la mémoire**, **Etude psychiatrique**, volume2, n°9, 1956.
- Auguste Marie Laure (Emile), **La Victoire franco-espagnole dans le Rif,** Dar Al Aman, mémoire retrouvée, Rabat, 2017.
- Bellaire (Edouard Michaux), **Conférence faites au cours préparatoire du service des affaires indigènes**, Champion, Paris, 1927 **,** Volume 27.
- Ben Cherif (Mustapha), **Crimes Internationaux et Droit des Victimes a Réparation les cas de la guerre du Rif 1921-1926**, Najah El Jadida, 2014.

- Bergson (Henri), **Matière et Mémoire essai sur la relation du corps à l'esprit**, Librairie Félix Alcan, Paris, 1986.
- Bergson (Henri), **Matière et mémoire**, PUF, Paris, 1959.
- Bergson (Henri), **Mémoire et vie**, PUF, 3éme Edition, Paris, 1986.
- Bloch (Marc), **Apologie pour l'histoire ou métier d'historien**, Edition, n°4, Armand Colin, Paris, 1961.
- Bloch (Marc), **L'Histoire La Guerre La Résistance**, Quarto Gallimard, France, 2006.
- Breton (Andre), **Manifeste du surréalisme**, Sagittaire chez Simon Kra, Paris, 1924.
- Choukri (Mohamed), **Le Pain nu**, Traduit par Tahar ben Jelloun, Paris, 1979.
- De T.D'Arlach (H.), **Le Maroc et Le Rif En 1856**, Chez Ledoyen, Paris, 1856.
- Desmazieres (Bertrand), de sorbier (Pierre), **Le Colbert de Lyautey**, Edition La porte, 1998.
- Duby (G.), **Le Dimanche de bouvines,** 27 Juillet 1214, Gallimard, Paris, 1973.
- Engels (Friedrich), **L'Origine de la famille, de la propriété privée et de L'État,** Traduction de Jeanne Stern, Paul-Émile-Boulet de l'Université du Québec à Chicoutimi, 1975.
- Furet (François), **L'atelier de l'histoire**, Flammarion, Paris, 1982.
- Gressier (Patrice), **Prospection Archéologique dans le Rif Zone de l'ancien royaume de Nakur**, thèse de 3ème cycle présentée à l'université- Sorbonne, Paris, 1989.
- Halbwachs (Maurice), **La mémoire collective**, presses universitaire de France, Paris, 1950.
- Halbwachs (Maurice), **Les Cadres Sociaux de La Mémoires,** Félix Alcan, 1er Edition, Paris, 1925.
- Jamous (Raymond), **Honneur et Baraka: les structures sociales traditionnelles dans le Rif**, éditions de la maison des sciences de l'homme, Paris, 1981.
- Janet (Pierre), **L'évolution de la mémoire et de la notion du temps**, paris, 1912.
- Lahbabi (Mohammed), **Le Gouvernement Marocain à l'Aube du XXème siècle**, Maghrébines, 2éme Edition, Rabat, 1975.
- Laoust (Emile), **Mots et choses berbères**, Ed. Sté Marocaine, Rabat, 1983.
- Lavabre Claire (Marie), **La mémoire collective entre sociologie de la mémoire et sociologie des souvenirs?**, Halshs, 2016.
- Le Goff (Jacques), **Histoire et mémoire**, Gallimard, 1988.
- Le Roy Ladurie (Emanuel), **Histoire du climat depuis l'an mil**, Flammarion, Paris, 1967.
- Le Roy Ladurie (Emmanuel), Montaillou: Village Occitan de 1294-1324, Gallimard, Paris, 1982.

- Leroi-Gourhan (André), **Le geste et la parole II, La Mémoire et les rythmes,** Albin Michel, Paris, 1964-1965.
- Lugan (Bernard), **Histoire du Maroc des origines à nos jours**, Criterion, Paris, 1992.
- Montagne (Robert), **La vie sociale et politique du berbère**, comité de l'Afrique Française, Paris, 1931.
- Montagne (Robert), **Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc essai sur la transformation politique des berbères sédentaire**, Librairie Félix alcan, Paris, 1930.
- Moudian (Souad), **Mille et un proverbes Rifains**, livre publié avec le soutien du Ministère de la Culture, 2004.
- Mouhib (Mohammed), Midelt Esquisses Historiques et Culturelles, Info-Print, Fes, 2015.
- Mouliéras (Auguste),**Maroc Inconnu Exploration Du Rif,** Librairie Coloniale et Africaine, Joseph André, Paris, 1895.
- Nora (Pierre), **Les Lieux de mémoire I.** La République, Gallimard, Paris, 1984.
- **Nuestra acción en África Las operaciones en el Rif, La Correspondencia Militar**, Número 10.407, Año XXXV, Madrid, Sábado 6 de Enero de 1912.
- Pascon (Paul) Wusten van der (Herman), **Les beni Boufrah essai d'écologie sociale d'une vallée rifaine**, P. Pascon, Rabat, 1983.
- Pascon (Paul), **Le Haouz de Marrakech**, Institut Universitaire de la recherche scientifique, Bouregreg Rabat, 2016, tomes I-II.
- Pritchard (Evans), **La femme dans les sociétés primitives et autres essais d'anthropologie sociale,** traduit par Anne et Claude Rivière, Les Presses universitaires de France, 1971.
- Raymond Roget (Charles), **Le Maroc chez les auteurs anciens**, Paris, 1924.
- Rosenberger (Bernard), **Le Maroc au XVIe siècle Au seuil de la modernité,** Faculté des lettres et des Sciences Humaines de Rabat, Deuxième édition, 2018.
- Troin Jean (François), **Les souks marocains : marchés ruraux et organisation de l'espace dans la moitié Nord du Maroc,**Edisud, 1975.
- Van Gennep (Arnold),**Les rites de passages étude systématique des rites**, Picard, Paris, 1969.
- Wolf (Jean), **les secrets du Maroc Espagnole**, Balland-Eddif, 1994.

- Arques (Enrique), **Tres sultanes a la porfía de un reino**, editora Marroquí, Tetuán, 1952.

- Aziza (Mimoun), **La sociedad rifeña frente al protectorado español de Marruecos 1912 - 1956,** Ediciones Bellaterra, Barcelona, 2003.
- Benéitez Cantero)Valentín(, **Sociología Marroquí,** Tetuán, 1952.

- Benéitez Cantero)Valentín), **Miscelánea Costumbrista de Beni Aaros**, A.I.E.A ., N° 22, 1953.
- Blanco de Izaga (Emilio), **La vivienda rifeña ensayo de características e interpretación con ilustraciones del autor1930**, Consejería de cultura, E.2, Melilla, 2010.
- Blanco Izaga (Emilio), **El perro de Kabila y otros registros etnográficos del protectorado de España en Marruecos**, 1a edición, Melilla, 2013.
- Blanco Izaga (Emilio), **La Ley Rifeña,** Imp. Imperio, Ceuta, 1934.
- Blanco Izaga (Emilio), **La vivienda rifeña ensayo de características e interpretación con ilustraciones del autor (1930)**, Vicente Moga romero, segunda edición, Melilla, 2010.
- Carcaño Mas (Francisco), **Melilla Rifeñeras,** Ayuntamiento de Melilla, 1991.
- De Lama Alcalde (Pilar), **Juegos y Deportes Tradicionales en el Norte de Marruecos**, Museo del Juego, 2010.
- Donoso - Cortés (Ricardo), **Estudio geográfico político-militar sobre las zonas españolas del Norte y sur de Marruecos,** Librería Gutenberg De José Ruiz, Madrid, 1913.
- José López Barranco (Juan), **El Rif en armas La narrativa española sobre la guerra de Marruecos**, Mare Nostrum, Madrid, 2006.
- José López Barranco (Juan), **La guerra de Marruecos en la narrativa Española (1859-1927**), Tesis doctoral dirigida por el Dr. Santos Sanz Villanueva, Facultad de Filología, Universidad complutense de Madrid, curso 1998-1999.
- Montgomery Hart (David), **Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif. Una selección de su obra, publicada e inédita, sobre la estructura sociopolítica de los rifeños del norte de Marruecos**, estudios introductores y notas de Hart, La Biblioteca de Melilla, 1995.
- Montse Flores (Pallarés), **El Agua del Rif,** la mar de fácil editorial, Edición primera, Barcelona, 2010.
- Pereira (Dionisio), **Desvelando una memoria incómoda la represión Franquista en Alhucemas tras el golpe militar de 1936**, Vicente Moga, Melilla, 2019.
- Rosa de Madariaga (María), **España y el Rif crónica de una historia casi olvidada**, ciudad autónoma de Melilla, 1999.
- Rosa Madariaga (María), **En el Barranco del Lobo, Las guerras de Marruecos**, Madrid, 2005.
- Ruiz Albéniz (Victor), **España en el Rif 1908-1912,** colección La biblioteca de Melilla,1994.

- Braudel (Fernand), **Memory and the Mediterranean**, Alfred A.Knopf, 1st Edition, New York, 2001.
- Coon Carleton (Stevens), **Tribes of the Rif,** Harvard University, The University of Michigan Libraries, 1904.

- Ginzburg (Carlo),**The Cheese and Worms the Cosmos of a Sixteenth Century Miller,** Translated by John and Anne Tedeschi, The Johns Hopkins University Press, Baltimore.
- Pritchard E. (Evans), **The Nuer a description of the modes of livelihood and political institutions of a Nilotic people,** Clarendon Press, Oxford, 1940.
- Proust (Marcel),**In Search of Lost Time**, Translation Scott Moncrieff, the Modern Library, Volume 1. New York, 1992.
- Roger (Joseph) and Terri Brint (Joseph), **The Rose the Thorn Semiotic Structures in Morocco,** the university of Arizona Press Tucson, 1987.
- Walter B. (Harris), **France Spain And the Rif,** Edition Edward Arnold and Co., London, 1927.
- Westermarck (Edward), **Ritual and belief in Morocco**, Printed in Great Britain, Vol.2, London, 1926.

Les Articles

- Aziza (Mimoun), »Le Rif et le » Retour de mémoire««, Taza et ses tribus dans les archives étrangères et le patrimoine local, Info-Print, 2014. (31-62)
- Bellaire (Edouard Michaux), «Histoire du Rif», **In Rif &Jbala**, N°71, Janvier 1926, éditions du Bulletin del'Enseignement public du Maroc, Librairie Émile Larose, Paris. (143-157)
- Biarnay (H), "Notes sur les chants populaires du Rif", **Archives Berbères,** 1915-1916, fasc. I, Al kalam, 2ème édition, Rabat, 1987. (26-43)
- Bloch (Marc), »Mémoire collective, tradition et coutume. A propos d'un livre récent«, **Revue de synthèse historique**, XL (nouvelle série XIV), n°118-120, 1925. (73-83)
- De Madariaga Rosa (María), «L'image et le retour du Maure dans la mémoire collective du peuple espagnol et la guerre civile espagnole de 1936», **l'Homme et la société**, N°90, Paris, (71-83)
- Goody (Jack), » Mémoire et apprentissage dans les sociétés avec et sans écriture: la transmission du Bagre «, **L'Homme,** Volume 17, 1977. (29-52)
- Gressier (Patrice), »Le développement urbain des côtes septentrionales du Maroc au Moyen âge frontière intérieure et frontière extérieures », in **CASTRUM** 4, Rome-Madrid, 1992, (14-27)
- Jean-Clément (Martin), »Entre histoire et mémoire : à la recherche d'une méthode«, **In La guerre civile entre histoire et mémoire,** Ouest Editions, Nantes, 1995, (13-21)

- Lazaar (Mohamed), »Conséquences de l'émigration dans les montagnes du Rif«, **Revue européenne de migrations internationales**, Volume.3, N°1, 1987. (97-114)
- Maurer (Gérard), »Les paysans du Haut Rif central», In **Revue de Géographie du Maroc**, N° 14, 1968. (147-161)
- Mikdad (Abdessalam) et Eiwanger (J) et Moser (j) et Nami (M), « La stratigraphie du site d'Ifri n'Ammar (Rif oriental, Maroc) », Rapport préliminaire, dans **Beiträge zur Allgemeinen und Vergleichenden Archaologie24**, Deutsches Archäologisches Institut, 2004. (125-137)
- Mikdad (Abdessalam) et Eiwanger (J), « Recherches préhistoriques et protohistoriques dans le Rif oriental (Maroc) », Rapport préliminaire, dans **Beiträge zur Allgemeinen und Vergleichenden Archäologie 20**, Deutsches Archäologisches Institut, 2000. (109-167)
- Ounia (Mohamed(, «Les structures agricoles dans le Rif pré-colonial : cas de Boqqouia», Revue **Maroc-Europe,** n°8, 1995.) pp.23-50(
- Pascon (Paul), «30 ans de sociologie du Maroc», **B.E.S.M.**, N°155-156, Janvier 1986. (181-192).
- Plusieurs écrivains, »Le structuralisme», **Collection Médiations**, n° 159, *Denoël*, Paris, 1977. (54-68)

- Blanco Izaga (Emilio), »Las Danzas Rifeñas», **África,** V.55, Madrid, 1946. (547-551)
- Díez Sánchez (Juan), "Monográfico: campaña del Rif 1909", **Revista del centro Asociado de la UNED de Melilla**, N°15, 1990. (115-169)
- Gozalbes Gravioto (Enrique), »Melilla en el siglo XI todos para su historia», in **Actas de las jornadas de cultura Árabe y Islámica**, Madrid, 1981. (237-246)
- Guerra (Enrique), »Alhucemas: El nacimiento de una ciudad», **Al jamia**, N° 5/4/1994, Casa blanca. (7-19)
- José Matos (María(, «La Cerámica Rifeña. Tierra, Agua, Fuego y manos femeninas», **La Atlántida Rifeña de Emilio Blanco Izaga: La impronta de un militar español en marruecos**, 1927-1945, Edición de Vicente Moga Romero. Melilla, 2014. (78-81).
- Ramírez Rodríguez (Azul) y Karkar (Ouajd), "Linajes Santos (Imrabden) y Lugares Sagrados. Algunas expresiones femeninas y masculinas de lo sagrado entre los Ayt Ali u Aissa, Amazighs del Rif centre marroquí, y la "Teoría de la santidad geopolítica" de Ernest Gellner", Peregrinaciones Ayer y Hoy Arqueología y Antropología de Las Religiones, El Colegio de México, Impreso en México, 2012. (239-283)
- Sánchez Pérez (Andrés), »Zocos de Mujeres en Bni Uriaguel«, **África**, Madrid, 1943. (21-32)

- Santos-Paniagua (José María), «Notas sobre el derecho consuetudinario de la propiedad en el Rif», in **Archivos del Instituto de Estudios Africanos**, n°1, año IV, Madrid, 1948. (7-13)
- Urruria (L.), « Sobre El tratamiento de la leucemia por el benzol, Revista **Clínica de Madr**id, Número 14, Año VII, 30 Julio 1915, Madrid. (53-60)
- Valdés Lambea (José), « Contribución la estudio de la sífilis en el Rif, Revista **Clínica de Madr**id, Número 14, Año VII, 30 Julio 1915, Madrid. (44-53)

- Hart M. (David), »Conflicting Models of a Berber Tribal Structure in the Moroccan Rif: the Segmentary and Alliance system of the Aith Waryaghar«, **Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée,** n°7, 1970. (103-94)
- Pennell (Richard), «A Country with a Government and a flag», **The Rif War in Morocco 1921-1926,** 1986. (196-226).

Thèses universitaire

- Nahhass (Badiha), **La mémoire et ses usage : Le cas du Rif**, Thèse du Doctorat, sous la direction de Mohamed Tozy, en formation doctorale sciences sociales, Université Hassan II, Casa Blanca, 2014.
- Ramírez Rodríguez (Azul), **Los «Santos» (Imrabden) y el paisaje cultural entre los Ayt Ali u Aissa del Rifcentral Marroquí:una perspectiva etnoarqueológica**, bajo la supervisión del profesor Walburga Wiesheu, universidad Autonoma, México, 2016-2017.

الفهرس

الاهداء.....1

كلمة شكر.....2

لائحة الاختزالات.....3

مقدمة.....5

الباب الأول: المجال والإنسان ونمط الإنتاج بالريف الأوسط.....14

الفصل الأول: الريف الأوسط: المجال والتضاريس.....16

المبحث الأول: إشكالية مجال الريف الأوسط بين الإستوغرافيا والذاكرة.....17

أولا: الريف الأوسط التسمية والحدود.....17

ثانيا: مجال الريف وتمثلات الذاكرة الجماعية.....25

المبحث الثاني: التضاريس والمناخ.....31

أولا: البنية التضاريسية.....31

ثانيا: المناخ والإكراهات الطبيعية.....38

الفصل الثاني: تاريخ الإنسان داخل مجال الريف الأوسط.....43

المبحث الأول: الاستقرار البشري وتوزيع السكان بالريف الأوسط.....44

أولا: الاستقرار البشري والخصائص الإثنية بالريف الأوسط.....44

ثانيا: الخريطة السكانية بالريف الأوسط خلال الاستعمار 1909-1956.....53

المبحث الثاني: البنية الديمغرافية بالريف الأوسط بين الواقع التاريخي والذاكرة الجماعية.....63

أولا: معطيات تاريخية حول البنية الديمغرافية.....63

ثانيا: راسب الهجرة في الذاكرة الجماعية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.....68

الفصل الثالث: الموارد الطبيعية ونمط الإنتاج بالريف الأوسط.....74

المبحث الأول: الموارد الطبيعية وأشكال التدبير.....75

أولا: الماء والأرض.....**75**

ثانيا: الثروة السمكية والمعدنية.....**86**

المبحث الثاني: نمط الإنتاج واقتصاد الندرة بالريف الأوسط.....**89**

أولا: الفلاحة والصيد.....**89**

ثانيا: الصناعة والتجارة.....**96**

الباب الثاني: الذاكرة الجماعية وإعادة تركيب بنية المجتمع والثقافة ونمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط.....**107**

الفصل الرابع: التاريخ الاجتماعي بالريف الأوسط.....**109**

المبحث الأول: الذاكرة والتاريخ الاجتماعي.....**110**

أولا: الذاكرة والعلوم الإنسانية.....**110**

ثانيا: الذاكرة الجماعية وكتابة التاريخ الاجتماعي.....**112**

المبحث الثاني: الهياكل الاجتماعية بالريف الأوسط.....**120**

أولا: البنية القبلية والأنظمة الانقسامية.....**120**

ثانيا: نظام القرابة والتفاوت الاجتماعي.....**131**

الفصل الخامس: الذاكرة الجماعية والتاريخ الثقافي.....**142**

المبحث الأول: توظيف الذاكرة الجماعية في كتابة التاريخ الثقافي.....**143**

أولا: مصادر الذاكرة الجماعية.....**143**

ثانيا: المميزات الثقافية لمواقف الريفيين.....**154**

المبحث الثاني: الذاكرة الجماعية وأنماط التدين بالريف الأوسط.....**164**

أولا: أنماط التدين وتأثيراتها الثقافية.....**164**

ثانيا: المعتقدات السحرية والخرافية.....**175**

الفصل السادس: إعادة تركيب نمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط.....**182**

المبحث الأول: فضاءات الحياة اليومية وتقسيم الأدوار بين الفاعلين الاجتماعيين.....**183**

أولا: فضاء الحياة اليومية.....**183**

ثانيا: الأعمال المنزلية (تقسيم العمل).....197
المبحث الثاني: إعادة تركيب دورة الحياة.....202
أولا: من الميلاد إلى تكوين الهوية الجنسية.....202
ثانيا: طقوس العبور بين الزواج والموت.....212
الباب الثالث: التاريخ السياسي بالريف الأوسط على عهد الدولة العلوية.....235
الفصل السابع: الريف الأوسط بين سلطة المخزن والريفوبليك.....237
المبحث الأول: علاقة الريف والمخزن.....238
أولا: حضور السلطة المخزنية.....238
ثانيا: أشكال التمثيليات المخزنية بالريف.....252
المبحث الثاني: أنساق السلطة بالريف الأوسط زمن الريفوبليك.....260
أولا: الريف زمن الريفوبليك.....260
ثانيا: الريف الأوسط بين العرف والشرع.....266
الفصل الثامن: الريف الأوسط والأطماع الأجنبية.....275
المبحث الأول: بداية التوغل الأجنبي بالريف.....276
أولا: حيثيات السياسة الاستعمارية.....276
ثانيا: التدخل الإسباني الفرنسي بالريف.....281
المبحث الثاني: المقاومة الريفية للاستعمار الأجنبي.....288
أولا: اتحاد قبائل الريف ضد المستعمر.....288
ثانيا: موقف المخزن والمستعمر من المقاومة ووقعه على الريف.....298
الفصل التاسع: التاريخ السياسي بالريف الأوسط والذاكرة الجماعية المستمرة.....302
المبحث الأول: آليات حفظ استمرارية الذاكرة الجماعية.....303
المبحث الثاني: الأحداث السياسية الراسخة بالذاكرة الجماعية.....307
أولا: الذكريات الفخرية.....307

ثانيا: الذكريات الأليمة..... **313**

خاتمة..... **320**

الملاحق..... **325**

المعجم الثقافي للريف..... **330**

اللائحة البيبليوغرافية..... **340**

ملخص البحث في
الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية

من إنجاز الطالبة نادية بودرة تحت إشراف الأستاذ لحسن أوري.

تتمحور إشكالية البحث في موضوع «الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة» حول إشكاليات جديدة لم يسبق التعرض إليها في حقل التاريخ، وإشكاليات قديمة سبق دراستها في عدة مناسبات، لكنها تحتاج لقراءة جديدة ضمن عمل أكاديمي محكم على ضوء مستجدات الإسطوغرافيا وكل ما تشمله الوثيقة التاريخية بمفهومها الجديد والواسع.

تكمن أهمية الأطروحة في كتابة تاريخ الريف الأوسط عن طريق استحضار الذاكرة الجماعية، من أجل البحث بالخصوص في مواضيع مثل ذاكرة تأسيس المجال بالريف، وتمثلات الريفيين حول اقتصادهم وبنيتهم الديمغرافية، وأهم ما ترسخ لديهم جراء الكوارث الطبيعية والمشاكل الاجتماعية التي عاشوها داخل هذا المجال الجغرافي. ويكتسي هذا الأمر أهمية بالغة إذا استحضرنا افتقار هذه المنطقة لتاريخها الاجتماعي والثقافي إلى التدوين، وإن وجدنا بعض الإشارات القليلة في بعض المصنفات التاريخية، وكذا قلة كتب النوازل بالنسبة لمنطقة الريف[1]، باعتبارها مادة أساسية لكتابة التاريخ الاجتماعي بالمغرب. كما يمكننا إضافة صنف أساسي يتمثل في الأبحاث الأنثروبولوجية والسوسيولوجية التي أجريت بالمنطقة، والتي اعتمدت الذاكرة الجماعية بالأساس، لتدوين كل ما صدر عن الجماعات من أفعال وممارسات تحمل في طياتها تاريخاً خفياً وجب إخراجه إلى حيز الوجود.

ويستقي الموضوع أهمية إضافية من خلال ربط الذاكرة الجماعية الحاملة للمخيال الشعبي الريفي، والمدركة للسلوك الإنساني، والمُخَزِّنة للأحداث والتراث والثقافة الشعبية والشفهية، وبين التاريخ باعتباره أهم العلوم الإنسانية والاجتماعية، والمتتبع للإنسان داخل مجال محدد عبر زمن معين. وللبحث أهمية علمية تتمثل في إثراء تاريخ المنطقة والكشف عن خفاياه والتمثلات الرمزية الثقافية للأفراد، وإدراك الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بهذا المجال، الذي يمثل امتدادا وتجذراً واستمرارية للظواهر البنيوية. وتكمن الأهمية التطبيقية في إدراكنا ما للذاكرة من أهمية تاريخية ودور هادف في ترسيخ تفاصيل الحياة اليومية والاجتماعية والثقافية، وحفظها لمقاطع محذوفة من التاريخ المكتوب، والتي من شأنها إنارة التاريخ الثقافي والاجتماعي وإعادة بناء الحياة اليومية، انطلاقا مما حفظته من تراث شفهي وشعبي وممارسات ومخيال وحكايات وأشعار، ومن خلاله تتكون صورة

---

[1]- اعتمد الريفيون على القانون العرفي بالدرجة الأولى وقلت العودة إلى أحكام الشرع، ما نتج عنه محدودية إنتاج كتب النوازل الفقهية التي تعد أساس كتابة تاريخ المجتمعات المفتقرة للتدوين أو بعض جوانبه، وفي حالة الريف يعود أهم كتاب النوازل للزياتي الذي توفي سنة 1646م.

- الزياتي (محمد عبد العزيز)، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، تحقيق غنية عطوي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة-الجزائر، 2013. ص..337

- تعالج هذه النوازل مجموعة من القضايا الحاضرة في كتب التاريخ مثل الجهاد، بالإضافة إلى مواضيع مغيبة في المدونات الإخبارية أهمها؛ ممارسة التجارة مع غير المسلم، وأحكام الهجرة وكل ما تعلق بالصرف، بالإضافة إلى قسمة الأرض ووضعية الأحباس والوقف وأصل النزاعات حول الماء، وهذه القضايا تقدم لنا معطيات حول طبيعة المجتمع الريفي المعتمد على الاستقرار والزراعة كنمط الانتاج، بالإضافة إلى استهدافه من طرف العناصر الخارجية ما أضفى عليه طابع الجهاد.

نمطية للواقع والحياة والكون والوجود، في علاقتها بالإنسان، وارتباطها بالأنشطة الاقتصادية ودورة الحياة ونمط التفكير.

وتكمن جدة وراهنية موضوع «الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية»، في معالجة مجال جغرافي غني على مستوى الأنساق الثقافية والبنى الاجتماعية والأبعاد السياسية، وله ذاكرة متجذرة في المجال والإنسان. وتحفظ لنا هذه الذاكرة محطات تاريخية كبرى تتمثل في مرحلة ما قبل الاستعمار وخلالها وما بعدها، وذلك وفق عمل مونوغرافي يزاوج بين التاريخ المكتوب المتمثل في المصادر والوثائق التاريخية، والتاريخ الشفهي الذي تحفظه الذاكرة الجماعية، على ضوء منهاج المؤرخ الذي بإمكانه أن يجعلها وثيقة تاريخية بامتياز.

وتمنح ميادين المؤرخ الجديدة مبررات لاستعمال الأدوات الشفهية لفهم تاريخ الحياة اليومية بالريف، في ظل هذه الفترة التاريخية التي عرفت متغيرات وظرفيات استثنائية، ويبرز فيها التنقيب الحكائي كتعبير رئيسي. ولا غنى لنا عن التاريخ الشفهي بالمنطقة الذي نقابله بالنقد التاريخي، وفق مقاربةٍ تعتمد المقارنة بين هذا التاريخ والأرشيفات المكتوبة، الأمر الذي يستوجب تكوينا وعملاً ضخما مسبقا وفنا في التريث، من أجل طرق أبواب إشكاليات لم تكن إلى عهد قريب من تخصص المؤرخ، نذكر من أهمها، مجال الفضاء المقدس وسلوكيات العائلة، مرورا بالطقوس والاحتفالات وشبكات المؤانسة الاجتماعية، وحتى المواضيع الأكثر كلاسيكية في ميدان التاريخ مثل السياسة، وذلك من أجل تغطية النواقص الوثائقية أو لتقديم رؤية مغايرة.

تتمثل أهداف الأطروحة في دراسة أسس تأطير الذاكرة الجماعية وأماكنها ومدى مصداقيتها وربطها بالمجال المدروس، واستثمار الذاكرة وإنارتها بالمادة التاريخية والعلوم المساعدة من أجل إعطاء قراءة جديدة في تاريخ الريف الأوسط، ومن هنا تنبثق أهم الدواعي الموضوعية في اختيار دراسة موضوع «الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية»، وهي حاجة هذا المجال إلى عمل مونوغرافي شامل يدرس بنياته التاريخية وأنساقه الثقافية وهياكله الاجتماعية وأحداثه السياسية وفق مقاربة استرجاعية، تتضمن تاريخاً إشكالياً بحاجة إلى المزيد من الدراسة. هذا بالإضافة إلى اعتبار الأعمال المونوغرافية إضافة رصينة للرصيد التاريخي المغربي.

كما تعد المونوغرافيا صنفاً من الكتابة التاريخية قائماً بذاته، ومن حسناته الارتباط بالمكان والزمان، بشكل يجعل الباحث متمكناً من مادته التي تسمح له بعرض البيانات الاقتصادية والاجتماعية والأنساق السياسية، ووضع البنية في تحولاتها وتطوراتها، وانقلاباتها واستلابها وتأثرها وقدرتها على التأثير والدمج والاندماج والإقصاء والانفتاح والانغلاق. وقد مثل هذا الاتجاه تحولا كبيرا في كتابة تاريخ المغرب، واعتبره عبد الأحد السبتي بمثابة قاطرة تتصدر عملية تحديث الذاكرة الجماعية، الأمر الذي جعل الجامعة المغربية تعتمد نظام المختبرات المشجعة للطلبة على إنشاء مونوغرافيات تخص مناطقهم، إذ يسهل عليهم الإلمام بعوائدها وخصوصياتها وأحداثها التي طبعت الذاكرة الجماعية. لقد تعرضت المونوغرافيا مع ذلك لعدة انتقادات، إذ هناك من اعتبرها إرثا استعماريا، يطبعها التكرار والاقتداء، ما يجعلها تقع في النمطية والتركيز على القرن التاسع عشر، غير أنها أبانت عن نجاعتها في الكشف عن كيفية الانخراط في مسلسل الدمج الإمبريالي ومظاهر

المقاومة المسلحة والسياسية زمن الحماية، وأسباب التهميش زمن الاستقلال، وذلك من خلال تعديد روافدها الوثائقية التي من ضمنها الأرشيف الأجنبي.[2]

لم يحظ الريف بدراسة مونوغرافية خاصة به، خاصة فيما يتعلق بالذاكرة الجماعية، ما جعلنا نعتمد في الجانب النظري نماذج متعددة من المونوغرافيا تعالج عدة مواضيع في حيز جغرافي معين، وتقوم أهمها برصد الطقوس المتعلقة بالغيبيات والعوائد التي تكشف عن الأنساق الثقافية داخل المجتمع المدروس[3]. ونجد مجموعة من المونوغرافيات التي تتخذ المنحى الطبيعي في التأريخ للمنطقة، وذلك من خلال التعريف بالمجال المدروس وإطاره الطبيعي وموارده، ثم الإطار البشري منذ الاستقرار إلى التكتل القبلي، وتوجهاته الدينية، وكل ما يخص تكتلات الزوايا، وتحديد الطرق التجارية، بالإضافة إلى تغطية التاريخ الاستعماري للمنطقة.[4]

اطلعنا على مجموعة من الأطاريح التي تعرضت لموضوع صلحاء وأولياء الريف، أو مجال الفضاءات المقدسة؛ نذكر منها أطروحة مراد جدي «الأولياء الصلحاء وتحولات المقدس بالمغرب: دراسة في التاريخ السوسيو-ثقافي للتدين في الريفين الأوسط والشرقي»، تحت اشراف محمد استيتو وفريد لمريني، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة التي تمت مناقشتها سنة 2016-2017، وأطروحة أسول رميريث رودريغث Azul Ramírez Rodríguez، تحت إشراف والبورغا ويشو Wiesheu Walburga التي تحمل عنوان:

-**Los «Santos» (Imrabden) y el paisaje cultural entre los Ayt Ali u Aissa del Rif central Marroquí: una perspectiva etnoarqueológica**.

واعتمدنا على أطاريح تعرضت للجانب السياسي بالريف نذكر منها: «ابن عبد الكريم وحرب الريف 1921-1926»، لأغزادي لحسن، تحت إشراف: جاد طه ورأفت غنيمي الشيخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعوم الإنسانية فاس، سنة 1988-1989، وأطروحة بديهة النحاس لنيل شهادة الدكتوراه في السوسيولوجيا سنة 2013-2014، تحت إشراف محمد الطوزي، في جامعة الحسن الأول الدار البيضاء، تحت عنوان:

La mémoire et ses usage : Le cas du Rif

والتي لامست الموضوع من جانب الذاكرة في الريف ودورها في حفظ الذكرى وإعادة إنتاجها، لكن دون إعمالها للمنهج التاريخي، لأنها عبارة عن عمل سوسيولوجي.

تمنح دراسة الذاكرة الجماعية بالريف وموروث الثقافة الشعبية، تمثلا وحضورا ومرجعيةً، إمكانات واسعة لفهم الوعي الجمعي الريفي، وإدراك نظرته وتصوره للعالم

---

[2] - أوري (لحسن)، تقديم ندوة: تازة وباديتها من خلال الأرشيفات الأجنبية والتراث الوثائقي المحلي، آنفو-برانت، فاس، 2014، ص..10-9

[3] - تعتبر دراسة إدمون دوتي حول مراكش أهم مثال بخصوص الدراسات الأجنبية التي اهتمت بالجانب الطقوسي والعادات الدينية للكشف عن البنية الاقتصادية والتفاعلات السياسية، دون أن نغفل أن الدراسة أولت الجانب الأكبر لجغرافية المنطقة، انظر:

- دوتي (إدمون)، مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات مرسم، مطبعة أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، 2011. صص. 19-17، ص.98، ص. 139، ص. 297.

[4] - حول نفس المنطقة «حوز مراكش»، نجد مونوغرافيا أخرى ذات خطى منهجية تختلف عن الأولى، مكونة من جزأين مقسمين إلى ثلاثة أقسام؛ الأول حول الإطار الطبيعي والموارد، الثاني حول بنية السكان، والثالث حول التاريخ الاقتصادي والهيمنة الرأسمالية وعلاقة المنطقة بالوضعية الاستعمارية بالمغرب، مرفق برصيد مهم من الوثائق. انظر:

-Pascon (Paul), **Le Haouz de Marrakech**, Institut Universitaire de la recherche scientifique, Bouregreg Rabat, 2016, tomes I-II, p.37, p. 255, p. 446.

والحياة والواقع، كما تعتبر مدخلا لتحديد رهانات التنمية الثقافية للمجتمع واستشراف آفاق تطوره وتقدمه، وذلك بناء على دراسة علمية موضوعية لإبراز العلاقة بين مخزون الذاكرة وخلفياتها السوسيو-ثقافية.

حددنا المجال المدروس في ست قبائل منتمية للريف الأوسط، منها ثلاث قبائل جبلية داخلية، وثلاث ساحلية. وأكبر القبائل الداخلية هي إگزناين، التي تشكل بداية الريف الأوسط، وتحدها جنوبا قبيلة البرانس، وشرقا قبيلة أيث توزين، وهي قبيلة حدودية بين الريف الأوسط والشرقي، ثم أيث عمارث التي تقع شمال غرب إگزناين، وهي أصغر قبيلة داخلية. أما أكبر القبائل الساحلية ضمن المجال المدروس فهي أيث ورياغر التي تحد إگزناين جهة الشمال وأيث توزين غربا، فيما تتوسط كلاً من ثمسمان غرباً وإبقوين شرقاً. تتوفر هذه القبائل الست على تاريخ مشترك وتتقاسم قسطا هاماً من أبعاد الذاكرة الجماعية، نظرا لتوفرها على قاعدة لغوية موحدة إلى حد بعيد مع استثناءات بسيطة في النطق[5]، وغياب مثل هذا التجانس كان أحد الأسباب التي جعلتنا نستثني قبائل الريف الأوسط الأعلى، ونقصد بها قبائل «صنهاجة سراير».

أما بالنسبة للفترة التاريخية المخصصة لدراسة الإشكالية وفق العمل المونوغرافي، فيستلزم منا العودة لمدة أربعة أو ثلاثة قرون في تاريخ المجال المدروس قصد وضع دراسة أشمل، لذا سنعتمد في هذا العمل على الزمن الطويل في كل ما يتعلق بالتاريخ الجغرافي والديموغرافي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وسنحدد التاريخ السياسي منذ قيام الدولة العلوية، بالنظر إلى بروز الريف على الساحة السياسية مع السلطان الرشيد، واستمرار هذا الدور السياسي الرئيسي إلى غاية القرن العشرين. ومن هذا المنطلق ستغطي الأطروحة تاريخ الريف الأوسط خلال العصرين الحديث والمعاصر، أي من القرن السابع عشر إلى حدود القرن العشرين.

إن نزوع هذه المقاربة إلى اعتماد الزمن الطويل، والعودة إلى الماضي العميق لا يعني إقامة علاقة بين الماضي والحاضر أو تأكيد تسلسل الظاهرة، إنما لتأكيد عدم ارتباط عمر الذاكرة الجماعية بعمر الإنسان، وعدم انتهاء الأحداث التي تختزنها بمجرد انتهاء حامل ذاكرتها، وإنما تتحول إلى إرث جماعي، وحكايات تروى وأشعار تغنى ورقصات وممارسات. وتهتم هذه المقاربة بتقديم التأويلات التي تثار حول الذاكرة الجماعية ومواضيعها، من قبل الفاعلين وآليات إنتاج الذكرى وتحويلها لتاريخ مكتوب.

أصبحت الذاكرة الجماعية موضوعا للتاريخ ضمن مدرسة التاريخ الجديد التي تمكنت من خلق فضاء لثورة الذاكرة، باعتبارها عملاً إسطوغرافياً يرمي إلى التكيف مع المستلزمات الجديدة وحاجيات الجماعات المعاصرة. وبالنظر إلى الكتابة التقليدية، يُفترض قيام التاريخ الإشكالي على حساب التاريخ السردي وتمحوُر الذاكرة حول مجموعة من العناصر الأساسية، وتبني إشكالية معاصرة مفتوحة وبعيدة عن كل تكتم وضعاني، وإجرائية استذكارية يشع فضولها وتستجيب لرغبة كل الأطراف الاجتماعية المندرجة في المسار التاريخي، ثم التخلي عن زمنية خطية مشبعة بسببية آلية لفائدة رؤية إثنولوجية أو أنثروبولوجية تثير الانتباه إلى مستويات تجعل الفرد ينخرط فورا في الاجتماعي

---

(5)- ***A.D.N., série R.1783, Bulletin de l'Enseignement public du Maroc :Rif et Jbala,*** sur Le Dialecte Berbère du Rif, Janvier 1926, p.5.

والجماعي، بما فيها المستويات اللسانية والديمغرافية والبيولوجية والاقتصادية والميتافيزيقية أو الثقافية، وأخيرا إغفال زمن الأصول، أي الفترة القديمة أو الوسيطية ومنح الامتياز للفترة الحديثة الممتدة على مدى ثلاثة أو أربعة قرون، والمتميزة بالمصادر الكمية الكفيلة بالكشف عن مجتمعاتنا.[6]

يعالج موضوع "الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية"، عدة إشكاليات راهنة ذات أهمية بالغة مرتبطة بالمخيال الجماعي الريفي في علاقته بالمجال ومؤهلاته، وبالحياة الاجتماعية وحماية الموروث الثقافي والفلكلور وكل ما يتعلق بالتراث اللامادي، وهي عناصر تعد جانبا أساسا لتشكل الهوية، وامتداداً للوعي السياسي المرتبط بالذاكرة الجماعية، التي تنمي الشعور بالانتماء إلى الجماعة، الراغبة في التعريف بتاريخها أكثر من أي وقت مضى، وجبر ضرر الجرائم المضادة للإنسانية والمقترفة بحقها[7]. غير أن هذا الأمر لا يعتبر عماد أطروحتنا التي ركزت على الجانب التحليلي التاريخي الذي تحتوي عليه الذاكرة الجماعية بالريف الأوسط، لملء فراغات الصفحات التاريخية، خاصة فيما يتعلق بالتاريخ الثقافي والاجتماعي، ودراسة الأنساق والبنى وفق مقاربة استرجاعية للذاكرة الجماعية المستمرة.

بناء على ما سلف، تتمحور إشكالية الأطروحة حول كيفية جعل الذاكرة الجماعية بالريف في خدمة تاريخ موثق للمنطقة، ومن ثمة سبل قراءة رواسبها على ضوء الوثيقة التاريخية، بمعنى ملء فراغات التاريخ المكتوب، باستثمار ما علق بالذاكرة الجماعية، لإعادة كتابة التاريخ الجغرافي والديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي، عن طريق إعداد عمل مونوغرافي حول الريف الأوسط. وتتمثل أهمية الإشكالية في تحليل كيفية بناء الذاكرة الجماعية بمجال الريف الأوسط، ودور المؤثرات الاجتماعية والثقافية والتاريخية في صناعتها، باعتبار الذاكرة الجماعية مرآة عاكسة للبنية السوسيو-ثقافية والتاريخية للمنطقة، وإبراز العلاقة الجدلية بين الذاكرة والتاريخ، حيث تعمل الذاكرة على حفظ التاريخ، الذي يمنحها المصداقية عن طريق التوثيق.

سنحاول أن نجعل من أطروحتنا تركيباً لتاريخ الريف الأوسط، وفق مقاربات جديدة، وإعادة قراءة ما كتب حول المنطقة وتوسيع دائرة المصادر لتشمل الذاكرة الجماعية التي تم توظيف معطياتها على ضوء النص المكتوب، لنتمكن من التطرق لمواضيع وفق تحليل وتفسير المؤرخ، بعد أن كانت حكراً على عالم الاجتماع والأنثروبولوجي، مثل دراسة رتابة الحياة اليومية.

كما يستوجب العمل على إشكالية الذاكرة والتاريخ تبني إطارٍ منهجي دقيق، يرتكز على مبادئ علم التاريخ، وذلك بالاقتداء بقوانينه وقواعده ومناهجه التي لا يعيها إلا المؤرخ، الذي يجمع بين الحاسة التاريخية والوعي العلمي المتين، المرتكز على جمع العطيات والتحقق من صحتها وتحليلها ثم تركيبها. ويعتبر علم التاريخ محور العلوم الإنسانية كلها،

---

[6] - حبيدة (محمد)، **من أجل تاريخ إشكالي ترجمات مختارة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الطبعة الأولى، القنيطرة، 2004، ص..103

[7] - وردت مجموعة من الدراسات في إطار ربط التاريخ والذاكرة لكنها نحت منحى انصب حول جبر الضرر الجماعي وتحقيق التنمية عن طريق حفظ الذاكرة، والتحسيس بحقوق الإنسان، انظر:

- أوجبور (باسو) أيت لفقيه (لحسن)، إملشيل الذاكرة الجماعية، منشورات جمعية أخيام في إطار برنامج جبر الضرر الاجتماعي، 2011، ص. .2

إذ يوضح لنا كيف نشأ الإنسان ويتتبع تطوره على مدى الأيام والعصور، وجهوده في تسخير الطبيعة لخدمته والخطوات التي بنى بها حضارته وأسسها، وكيف كان ينهض بعد كبوة ويكبو بعد نهضة. وإذ ما تتبعنا تاريخ التدوين التاريخي أو تاريخ التأريخ نستنتج أن علم التاريخ مر بعدة مراحل ليصل إلى هذه المرحلة من الدقة.[8]

يعتبر المنهج التاريخي غير كاف لمقاربة الذاكرة الجماعية بالريف، ويجب ربطه بأدوات التحليل الأنثروبولوجي، خاصة في جانبها التأويلي لدراسة الأنساق الثقافية المحفوظة بالذاكرة الجماعية بالريف، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلالات هذا المنهج على مستوى الإنتاج أو التأويل بالتحديد. ويجب على المؤرخ أن يكون عارفا بالعلوم المتصلة بكتابة ودراسة علم التاريخ، والتي يمكننا تسميتها بالعلوم المساعدة أو العلوم الموصلة، وأن ينطلق من رصيد وثائقي يضم كل الأصول التي تحتوي على المعلومات التاريخية، دون أن ينحصر ذلك فيما هو مدون على الورق، نظرا لإيمان الباحثين بأنه لا شيء يتعالى على نظر التاريخ أو تضيق عن رحابه في الوقت الحالي، إذ كل ما يقع من الإنسان أو يقع عليه في جميع مناحي الحياة عبارة عن موضوعات داخلة في بحث المؤرخ واختصاصاته، فالتاريخ لم يعد دراسة معزولة عن علم الآثار والجغرافيا وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا التي تساعده في دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا.[9]

سنعتمد المنهج الشمولي الذي يجمع المنهج التاريخي والوصفي الخاص بالجغرافيا، والمنهج الكمي الإحصائي الخاص بالتاريخ الديموغرافي والاقتصادي، بالإضافة إلى التحليل الماركسي، ومناهج علم الاجتماع والإثنولوجيا لتتبع تاريخ الإنسان في المجال وتكوين المجتمع وإنتاج الفعل الثقافي، كما لن نغفل آليات السرد الكرونولوجي للأحداث التاريخية المتعلقة بميدان السياسة. وقد أملت ضرورة العمل المونوغرافي هذا التنوع المنهجي الذي يفرض تداخل العلوم الإنسانية من أجل بلوغ إنتاج عمل متكامل يجمع بين الجغرافيا والديموغرافيا والاقتصاد والتاريخ الاجتماعي والثقافي والسياسي، إلى جانب استثمار الذاكرة الجماعية والتاريخ الشفهي، الأمر الذي يستدعي عرضهما على مناهج دقيقة ليبلغا مستوى المعلومة التاريخية، ويضاهيا الوثيقة المكتوبة التي لا يمكن اعتبارها هي الأخرى نموذجية.

ندرك بعد رهن الذاكرة الريفية بالمنهج التاريخي ما تضفيه دراسة التاريخ الشفهي المحفوظ داخل ذاكرة الجماعة للإنتاج التاريخي المكتوب. وتتعزز هذه الأهمية بعد إعطاء الذاكرة الجماعية دورا في إنتاج التاريخ عامة والتاريخ المعاصر خاصة، والانطلاق من مواقع المجتمع والقبيلة والأسرة للاحتفاظ بمجموعة من الذكريات التي تشكل جزءا من هويته وشخصيته، ثم استثمار الأرشيف والمتاحف، والمواقع الأثرية مثل المقابر، الومواقع الرمزية كالاحتفالات التذكارية والمزارات والأعياد والشعارات، والمواقع الوظيفية كالكتب المدرسية والبيوغرافيات أو الجمعيات. إنها نصب تذكارية لها تاريخ، وصناعة هذا التاريخ سرعان ما تدعو إلى قلب مفهوم الكلمة لتجاوز ذاكرة المواقع وتلمس المواقع الحقيقية للذاكرة: الأوساط الاجتماعية والسياسية ذات التجربة التاريخية أو الأجيال الراغبة في تأسيس أرشيفات بناء على استعمالاتها المختلفة للذاكرة. وهكذا يتضح منحى كبير يمتح من

---

[8] - أبو ضيف أحمد (مصطفى)، منهج البحث التاريخي بين الماضي والحاضر، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1987، ص. 3.

[9] - نفسه، ص. 137.

العرف المعاش في اللاشعور الاجتماعي والأثر المتبقى في الوثائق مرورا بالتقليد الحي في الوعي التاريخي.[10]

حرصنا على اعتماد معطيات الذاكرة في كثير من تفاصيل الأطروحة، دون إغفال الدراسات السابقة التي قدمت إطاراً نظرياً بَنَيْنا عليه أسس أطروحتنا التي اعتمدت بعض نتائجها واستفادت من بعض أخطائها، تفاديا لبداية البحث دون التسلح بأي رصيد من نتاج التراكم المعرفي، ودون إطار نظري محدد ومنهاج واضح، خاصة فيما يتعلق بكتابة الشق النظري من الأطروحة.[11]

اعتمدنا قاعدة وثائقية متنوعة محفوظة بكل من المكتبة الوطنية الإسبانية **Biblioteca Nacional de España** بمدينة مدريد، وقسم الأرشيف **Alcalá de Henares**، ومحفوظات الأرشيف الدبلوماسي **Fonds Protectorat-Maroc** بمدينة نانط **Nantes** الفرنسية، للإجابة على جوانب متعددة من الإشكالية المحورية للأطروحة، ومكتبة بني نصار-الناظور **La Tierra** والتي تتضمن مكتبة دايفيد هارت. وشكلت هذه الوثائق والكتب أساس بناء التاريخ الجغرافي للريف الأوسط[12]، كما اعتمدنا عليها لتركيب الإحصائيات الديموغرافية داخل القبائل المدروسة[13]، وقمنا بتوظيفها فيما يخص المعطيات الخاصة بنمط الإنتاج المعتمد بالريف الأوسط[14]، وعدنا إليها في كثير من الأحيان لدراسة الهياكل الاجتماعية[15]، وروتين الحياة اليومية[16]، واعتمدناها علاوة على ذلك، لرصد الوضعية القانونية بالمنطقة أو خصوصية العرف الريفي[17].

---

[10] - حبيدة (محمد)، من أجل تاريخ إشكالي ترجمات مختارة...، مرجع سابق، صص. 103-104.

[11] - سفاري (ميلود)، «الأسس المنهجية في توظيف الدراسات السابقة»، **مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية**، عدد خاص، 1995، ص. 41.

[12]- ***B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°187,*** Marruecos El Rif Azru Akchar, Geográfico y Cartográfico del Ejercito, Mapa Provisional, en E. 150000, 1940.

- B.N.E.A.H., A.M.P.S., N°174, Marruecos, *El Rif Bu Zineb, Geográfico y Cartográfico del Ejercito*, Mapa Provisional en E. 150000, 1940.

[13]- ***B.N.E.A.H., V.I.E.F.B., dossier N° D.1765,*** *Territorio del Rif,* por Don Vademécum, Madrid, 1946.

- A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, *Le Lieutenant Anglada Chef de poste des A.I.,* Fiche de Fraction des Beni M'Hamed, Tizi ouzli, Le 20 Mai 1949.

[14]- ***A.D.N., Fonds Maroc Protectorat, Série 12MA/280/61,*** *dossier N°2,* Rapport du Capitaine Brenguier, poste du Tizi ouzli, 1941.

- A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 9MA/713/76, Le Lieutenant Duhoo Chef de poste des Affaires Indigènes, Fiche de Taghzut, Le 15 Mai 1947.

[15]- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136, Confidentiel,*** Rapport du Capitaine Brenguier chef du poste des affaires indigènes de Tizi ouzli, N°606, des Djmaas de Centre ouvriers, poste du Tizi ouzli, Le 27 Décembre 1950.

- B.N.E.A.H.,A.F.R.G.F.C, C^{a}-N°412/14, *Noticia sobre la Yemáa Rifeña,* por Emilio Blanco Izaga, Madrid, 1927.

[16]- ***B.N.E.A.H., E.C.D.E.M.D.T., Ca 7187-1,*** *Usos y Costumbres en la Kabila de Bocoía Rif*, A.F., Gómez Martínez (Bonifacio), Conferenciada el día 26 Abril de 1948.

[17]- ***B.N.E.A.H., A.C.E.M.D.A.I.C.E.M., N°1/98832,*** *Ley Rifeña: Los Cánones Rifeños Comentados,* por Emilio Blanco Izaga, La El Rif 2a Parte, Ceuta, 1939.

كانت الوثائق عماد المستجدات المرتبطة بالتاريخ السياسي للريف[18]، ووظفنا معطيات مجموعة من المونوغرافيات غير المنشورة[19]، ومجموعة من الدراسات الإثنولوجية والأنثروبولوجية التي مثلت جانبا مهما من الأطروحة[20]، بالإضافة إلى رصيد من الدراسات التي همت الجانب المنهجي لدراسة الذاكرة والتاريخ. وتجدر الإشارة إلى عودتنا في عدة حالات إلى النصوص الأصلية رغم اطلاعنا على ترجمتها، وذلك لعدة أسباب منها: عدم وضوح النص المترجم، أو عدم اكتماله[21].

كانت المصادر التاريخية أساس الأطروحة، خاصة في بعض الفصول، إذ عدنا إلى مجموعة من المصنفات الإخبارية لالتقاط بعض الإشارات التاريخية حول الريف، منها

- *A.D.N., Fonds Maroc- Protectorat, série1MA/200/285,* *Dossier n° 73,* Etude du Droit Coutumier Berbère, par le Capitaine DENAT.

[18]- ***B.N.E.A.H., R.667.470, Dossier N°3/92275,*** *Verdaderas Amargas la campaña de 1909 en el Rif,* Relato y juicios de un testigo, Madrid, 1910.

- *A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 1MA/100,* Dossier D.A.I. 196, Les photos N° 73350 et N° 343423, Commandant la Région de Fez (Etat-major), Objet secret, Le 14 Février 1925.

- *M.A.E.E., Série D.A., Direction des Archives,* Courneuve : La Correspondance Politique et Commerciale, série M. Maroc 1917-1940, Volume 111-112, Lettre du Caïd Haddou Ben Hammou à Mohammed Ibn Abdelkrim du 31 août 1921.

- ***B.N.E.A.H., D.E.B.H.J.M.B.R., Dossier 47/610008, N°1240440,*** El Problema Rifeño, por Cándido Lobera, Donativo, Melilla, 1909.

[19]- ***A.D.N., Fonds Protectorat-Maroc, Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, série 12MA/900/136,*** Confidentiel, Monographie sur les Jemaas en Tribu Gzennaia, Bureau des Gzennaia Aknoul, Le 21 Mai 1930.

- *B.N.E.A.H., A.F.R.G.F.C., N°8,* *Monografía de la cabila de Beni Tuzin,* por Ángelo Ghirelli, Gráficas Reunidas S.A., Barquillo, Madrid, 1934.

[20]- Coon Carleton (Stevens), **Tribes of the Rif,** Harvard University, The University of Michigan Libraries, 1904.

-Blanco de Izaga (Emilio), **La vivienda rifeña ensayo de características e interpretación con ilustraciones del autor1930**, Consejería de cultura, E.2, Melilla, 2010.

- مونتگومري هارت (دايفيد)، أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، الطبعة الثانية، 2016، الجزآن الأول والثاني.

- كينغسميل هارت (أورسولا)، وراء باب الفناء الحياة اليومية للنساء الريفيات، ترجمة عبد الله الجرموني، منشورات تيفراز، الرباط، 2010.

-Montgomery Hart (David), **Emilio Blanco Izaga: Coronel en el Rif. Una selección de su obra, publicada e inédita, sobre la estructura sociopolítica de los rifeños del norte de Marruecos**, estudios introductores y notas de Hart, La Biblioteca de Melilla, 1995.

[21]-Halbwachs (Maurice), **La mémoire collective**, Presses Universitaire de France, Paris, 1950.

- لوغوف (جاك)، التاريخ والذاكرة، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، 2017.

-Le Goff (Jacques), **Histoire et mémoire**, Gallimard, 1988.

المخطوطة كتراث أبو محمد البوفراحي، أو المكتوبة وهي الأغلب[22]، بالإضافة إلى نص منقبي وآخر فقهي (نوازل)[23] ، ومجموعة من الدراسات التي جمعت التراث الشعبي الريفي، ووفرت علينا عناء جمع الأمثلة الشعبية والحكايات المأثورة عبر الاستمارات وآليات علم الاجتماع[24] ، ودراسات ومقالات متعددة، لا يمكننا عرضها بتفصيل، وعملنا على جمع الروايات الشفهية واعتماد الموروث الجماعي، في كثير من جوانب الأطروحة.

أمدتنا هذه الدراسات برصيد منهجي أفادنا في وضع خطة عمل مونوغرافي حول مجال الريف الأوسط، من خلال معطيات التاريخ المكتوب ورواسب الذاكرة الجماعية، وقمنا بتقسيم العمل إلى أبوابٍ ثلاثةٍ مقسمة بدورها إلى ثلاثة فصول للإجابة على الإشكالية المحورية في الأطروحة.

ارتأينا إفراد الفصل الأول ضمن الباب الأول المخصص **للمجال والإنسان ونمط الإنتاج بالريف الأوسط، لمجال الريف الأوسط وتضاريسه،** وذلك للتعرض لأهم عنصر البحث في هذا الباب، أي دراسة مجال الريف وتاريخ تكونه وتسميته والمحددات التي تهم ذاكرة تأسيس الريف وتوجهاتها، وتمثل مجموعة من الثوابت التي تتبناها الساكنة، وتشكل حدوده المتغيرة التي يمكن أن نستشف منها صورة واضحة عن الوضعية السياسية بالمنطقة. ونجد إشكالية تكون وتمثل مجال الريف الأوسط عبر التاريخ في الإسطوغرافيا من خلال الإشارات الواردة في المصنفات التاريخية وغيرها من الرصيد الوثائقي المكتوب، ومجموعة من رواسب وتمثلات وروايات وصور محفوظة بالذاكرة الجماعية لسكان المنطقة الذين يمتلكون تقييماً خاصاً للبنية التضاريسية، والذي قد يتنافى أحيانا مع الحقائق الجغرافية، كما يحتفظون بتاريخ التغيرات المناخية وطبيعته في علاقته مع معاناة السكان من الجفاف وتردد موجات المجاعة، ويعتبر الإنسان بحد ذاته أهم عناصر الإشكالية الرئيسة للأطروحة وأحد أهم العناصر المنهجية للمنهج التاريخي.

سنتناول في الفصل الثاني موضوع **تاريخ الإنسان ضمن مجال الريف الأوسط،** لنستكمل محددات الجغرافية الطبيعية بمعطيات الجغرافية البشرية، ولنقوم برصد تاريخ الإنسان ضمن المجال الريفي، لما له من أهمية في البحث التاريخي ككل والبحث المونوغرافي على وجه الخصوص. لقد عرف الريف الأوسط استقراراً بشرياً مبكراً سبق مرحلة التدوين التاريخي، ما جعل الأركيولوجيا تغطي صفحات تاريخ الريف المفقودة في هذا الشأن. وسنحاول رصد ما إذا كان هذا الاستقرار قد أفرز تنوعا على مستوى

---

[22]- الريفي بن موسى (عبد الكريم)، زهر الأكم مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل، دراسة وتحقيق: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992.

- ابن خلدون (عبد الرحمان)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الجزء السادس.

- البخلاخي (امحند) الجوهر المكنون في عجائب أخبار ولي الريف سيدي الحاج حسون، منشورات الصالون الأدبي لابن الريف، سلسلة التراجم 1، 2006.

[23]- البادسي (عبد الحق بن إسماعيل)، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1993.

- الزياتي (محمد عبد العزيز)، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، تحقيق غنية عطوي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة-الجزائر، 2013.

[24]- أقضاض (محمد)، الوالي (محمد)، ملحمة ادهار أوبارّان أنشودة المقاومة الريفية، مطبعة المناهل، الطبعة الأولى، 2007.

- أضوض (إدريس)، ألف مثل أمازيغي ومثلان، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2012.

الخصائص الإثنية بالريف الأوسط، وشكل تحركات الساكنة عبر التاريخ وخريطة سكانية متحركة بالريف الأوسط، رغم طابع الاستقرار الذي اتصفت به القبائل الريفية، خاصة خلال العصرين الحديث والمعاصر، وذلك لعدة أسباب اقتصادية وسياسية.

عرفت البنية الديموغرافية بالريف الأوسط مجموعة من التحولات والطفرات وكذا الانهيارات، ومنه ما سببته عوامل اقتصادية وسياسية، ومنه ما يعود لإكراهات ومتغيرات فرضها الواقع التاريخي والوضع القبلي، وأنتجت مجموعة من المشاكل الاجتماعية، خاصة ما تعلق بالهجرة التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر، والتي عرفت أوجها خلال القرن العشرين، ونقلت لنا الذاكرة الجماعية حيثياتها وتأثيراتها على المهاجرين وذويهم بالريف، وذلك بمزاوجتها مع المعطيات التاريخية حول الظاهرة.

وارتباطا بالفصلين السابقين وانسجاما مع التسلسل المنطقي، سنعمل في الفصل الثالث المخصص **للموارد الطبيعية ونمط الإنتاج بالريف الأوسط**، على استقراء طريقة تفاعل الإنسان مع المجال ونمط الإنتاج بالريف الأوسط، وكيفية تدبير الموارد الطبيعية الضعيفة والتعامل مع محدودية الماء وندرة إنتاجية الأرض المجزأة نتيجة وعورة التضاريس وضعف توثيق ملكيتها. وسنرصد الموارد الأخرى بالنسبة للقبائل الساحلية المتمثلة في الثروة السمكية التي شكلت نشاطاً اقتصادياً تكميلياً، بالإضافة إلى بعض الموارد المعدنية التي جمعت بين الحقيقة وتمثلات الذاكرة الجماعية. وبما أن الريف مجتمع ذو نمط اقتصادي قائم على الزراعة وتربية الماشية، فقد عرف مجموعة من الصناعات المحدودة المرتبطة بهذا النمط، والمخصصة للاستعمال اليومي، مع تسويق الفائض محليا، وتتمثل أهمها في الأواني الفخارية ومنتجات الدوم والخشب. من المتداول أن الأنشطة الفلاحية كانت تعجز عن توفير الموارد الكافية لعيش السكان، لذا كان يتم البحث عن أنشطة تكميلية لتعويض هذا العجز، نذكر من ضمنها تجارة التهريب المقننة داخل الأسواق. لذا يبقى التساؤل ما إذا استطاع الإنسان الريفي تجاوز صعوبة التضاريس والإكراهات المناخية وقلة الموارد الطبيعية من أجل بلورة نمط إنتاج خاص بالمنطقة اتسم بالندرة والكفاف، وإلى أي حد مكنه استمرار استعمال وسائل الإنتاج العتيقة، من كسب مصدر عيش السكان عن طريق إرفاقه بمجموعة من الأنشطة مثل تربية الماشية والصيد البحري بالإضافة إلى الصناعة والتجارة؟

سنخصص الباب الأول للبناء التحتي من تاريخ مجتمع الريف لننتقل لدراسة هياكل هذا المجتمع نفسه ضمن مباحث الباب الثاني من الأطروحة الذي وضعنا له عنوان: **الذاكرة الجماعية وإعادة تركيب بنية المجتمع والثقافة ونمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط**. هكذا، سنركز في أول فصول هذا الباب على **التاريخ الاجتماعي بالريف الأوسط**.

تعرف المجتمعات الشفهية عامة فقراً على مستوى التأريخ بشكل عام والتاريخ الاجتماعي بشكل خاص ومن ضمنها الريف الأوسط، ما يجعل المؤرخ أمام ضرورة الانفتاح على استنتاجات أعمال العلوم المساعدة وتوسيع دائرة الرصيد الوثائقي، وصولا إلى رواسب الذاكرة الجماعية التي تتوفر على آلياتٍ بإمكانها إعادة تركيب بنية المجتمع والثقافة ونمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط. وهذا بعد أن أصبحت الذاكرة موضوع العلوم

الإنسانية، ومن أهم إشكاليات علم الاجتماع، ومادة أساسية لإنتاج التاريخ الاجتماعي للمنطقة، بمعنى أن الذاكرة الجماعية أصبحت موضوعاً ومادة للتاريخ الاجتماعي، نظرا لتوفرها على آليات حفظ الهياكل الاجتماعية والبنية القبلية والأنظمة الانقسامية، ونظام القرابة والتفاوت الاجتماعي. الاعتماد على الذاكرة الجماعية كوسيلة لاستقراء التاريخ الاجتماعي لا يعني إغفال المنهج التاريخي، وتمحيص الرواية الشفهية على ضوء الوثائق المكتوبة، والتي بإمكانها أن تنقح الذاكرة الجماعية المعرضة للتهويل والأسطورة، رغم ما لها من دور في سد ثغرات النص المكتوب.

تحتوي المجتمعات الشفهية على أنساق ثقافية غنية سنفرد لها الفصل الثاني من الباب الثاني، والخامس من الأطروحة حول: **الذاكرة الجماعية والتاريخ الثقافي**. وتحفظ الذاكرة الجماعية الممارسات الثقافية من الاضمحلال، حيث تضمن استمراريتها بين الأجيال، عبر توارث الذاكرة التي يسعى المؤرخ إلى استثمارها في كتابة التاريخ الثقافي. وفي علاقة جدلية تعتبر ثقافة المنطقة مصدرا من مصادر الذاكرة الجماعية ومؤطرها الأساسي، وحاملاً للمميزات الثقافية لمواقف الريفيين، دون أن نغفل أن الذاكرة الجماعية توجه وفق أنماط التدين السائدة وتأثيراتها الثقافية والمعتقدات السحرية والخرافية، وذلك بالاحتكام للمنهج التاريخي الذي يعتبر أساس الأطروحة، بالإضافة إلى مقارنة معطيات ما علق بالذاكرة الجماعية مع النص المكتوب باعتباره أكثر مصداقية بشكل نسبي.

سنعزز مباحث الفصلين الأولين بفصل تطبيقي وأخير من الباب الثاني، والسادس من الأطروحة يحمل عنوان: **إعادة تركيب نمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط**. إذ تعتبر إعادة تركيب نمط الحياة المعتاد شقاً تطبيقياً لكل ما سنتطرق إليه بخصوص الهياكل الاجتماعية والأنساق الثقافية بالريف الأوسط، ذلك لأن روتين الحياة اليومية بإمكانه أن يجعل الممارسات الثقافية والاجتماعية أكثر وضوحا. ويتعين بهذا الخصوص تحديد نوعية الفضاءات التي تدور فيها أحداث الحياة اليومية الريفية المتمثلة في البيت والحقل، والوقوف على طابع تقسيم الأدوار بين الفاعلين الاجتماعيين، أي تقسيم الأعمال والأنشطة الحياتية التي يأخذ من خلالها كل فرد موقعه ومهامه داخل المجتمع. وتأخذ هذه البنية مدة زمنية طويلة لتتغير، أو تعرف تحولات جزئية فقط، وذلك راجع إلى كونها إرثاً ثقافياً يضمن استمراريته عبر الأجيال، رغم أن المؤرخ الكلاسيكي لا يجد أهمية تاريخية في هذه المواضيع التي لا تحتوي على سنوات دقيقة، إلا أنه أصبح من واجب المؤرخ الاهتمام بالحياة الاجتماعية للإنسان الذي يعتبر أساس البحث التاريخي.

تساعد عملية إعادة بناء دورة الحياة بالريف الأوسط خلال مرحلة ما قبل الاستعمار على فهم خبايا المجتمع الريفي، من الميلاد إلى تكوين الهوية الجنسية، بالإضافة إلى رصد طقوس العبور من الزواج إلى الممات، وهذه المعطيات بإمكانها أن تقدم تفسيرات للمجتمع وتوجهاته السياسية.

كانت جملة الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية التي أجريت حول الريف أساسها كشف البنية الاجتماعية والأنساق الثقافية التي كانت وراء تحقيق القوة السياسية التي عرفها الريف الأوسط، بمعنى أن التاريخ السياسي كان أساس التاريخ الاجتماعي والثقافي، إذ أن

الوعي السياسي لسكان الريف أثار اهتمام الأجانب وجعلهم يرغبون في كشف سر المقاومة الريفية، ما جعلنا نفرد الباب الثالث والأخير **للتاريخ السياسي بالريف الأوسط**.

سنخصص الفصل السابع من الأطروحة والأول من الباب الثالث، لدراسة: **الريف الأوسط بين سلطة المخزن والريفوبليك**، لأننا لا نستطيع كشف علاقة الريف الأوسط بالأجنبي قبل أن نتحدث عن الريف ما قبل الاستعمار. وسمنا هذه المرحلة بالريفوبليك تجاوزا، ونحن ندرك عدم دقة اللفظة والتي قد تشمل فترة محددة تمتد لنحو عقدين من الزمن، أي من تاريخ وفاة الحسن الأول إلى ظهور محمد بن عبد الكريم. سنعمل إذا، على استقراء خصائص ريف مرحلة الريفوبليك وعلاقته بسلطة المخزن، والتدقيق في كيفية احتفاظه بأنظمة محلية تحكم علاقاته الاجتماعية والاقتصادية وتضمن السير العادي للسياسة الداخلية عن طريق تطبيق الأحكام العرفية، علما بأن القبائل الريفية عرفت في نفس الوقت، تمثيليات مخزنية كانت تربطها بالسلطة المركزية، وتسهر على استخلاص الضرائب وتطبيق الأحكام الشرعية، مع وجود فترات نزاع بين الطرفين بطبيعة الحال.

سننتقل في الفصل الثامن من الأطروحة إلى **دراسة الريف الأوسط والأطماع الأجنبية**، لأن السلطة المركزية كانت على دراية بأن الريف الأوسط له قدرة على حماية البلاد من الأطماع الأجنبية، ما جعل هذه المنطقة تنال تقدير السلاطين العلويين الذي اعتمدوا على الريفيين في حماية السواحل الشمالية من المد الاستعماري منذ بداية التوغل الأجنبي الأول بالريف خلال القرن السادس عشر، إلى حدود بداية الاستعمار الفعلي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. هذا التغلغل الذي رافقته حيثيات سياسة استعمارية تلاه التدخل الإسباني الفرنسي بالريف، والذي أثار مقاومة شرسة من طرف قبائل الريف التي اتحدت ضد الاستعمار وتجاوزت كل نزاعاتها الداخلية.

سنولي الذاكرة الجماعية أهمية أكبر في الفصل الأخير من الأطروحة الذي يحمل عنوان، **التاريخ السياسي بالريف الأوسط والذاكرة الجماعية المستمرة**، رغم تميز التاريخ السياسي بالريف الأوسط بكم وثائقي هائل، خاصة عندما نتحدث عن أرشيفات الدول الاستعمارية، وما يواجه الباحث من صعوبات في استعماله، من حيث التوجه الإيديولوجي وأحيانا عملية التشفير التي كانت تتم في مجموعة من التقارير والمراسلات، ثم صعوبة تصنيف الوثائق من المهم إلى الأقل أهمية أمام استحالة استعمالها كلها في عمل واحد، أو بالأحرى في ثلث العمل. تتسم عملية مقارنة محتوى الوثائق بالذاكرة الجماعية المستمرة بالصعوبة. هذا في الوقت الذي تحمل فيه الذاكرة تاريخ الجماعات بكل جوانبه، غير أنه يبقى من الصعب في حالة الريف الحديث عن التاريخ السياسي دون توظيف الذاكرة الجماعية، لما لهذه الذاكرة من آليات حفظ استمرارية هذه الأحداث التاريخية في الحياة اليومية، عن طريق مجموعة من مكونات التراث الشعبي.

من الطبيعي الاعتماد على علم التاريخ لتدوين الأحداث السياسية البارزة بالريف الأوسط، بالنظر إلى دوره في ضمان سرد كرونولوجي منظم، وتفادي أسطرة الماضي وتهويل أحداثه مقابل كتمان بعضها، غير أن رسم صورة أوضح يدعو إلى وضع نطاق حر للذاكرة من أجل الإفصاح عن الأحداث السياسية الراسخة لدى الريفيين، والتي سنقوم

بتقسيمها إلى قسمين هما، الذكريات الفخرية والذكريات الأليمة، ويعتبر كل ريفي ملزم بحفظ ذاكرته التي تعتبر جزءاً من تاريخية وهويته المرتبطين به أشد الارتباط.

تحفظ الذاكرة الجماعية إطار الريف الجغرافي وأسس نشوئه وتتمتع بقدرتها على حمل أنساقه الثقافية وأطره الاجتماعية، كما تعمل على نقل الممارسة الثقافية أو الفعل الاجتماعي ضمن هذا الإطار العام ذاته، وعلى ترسيخ تاريخه السياسي الذي طالما اعتبر جزءاً من ثقافته.

ارتبط البحث في موضوع «**الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية**» بالإشكالية المحورية المتمثلة في كيفية استثمار معطيات التاريخ المكتوب ورواسب الذاكرة الجماعية، وذلك بهدف إعادة تركيب تاريخ الريف الأوسط وفق عمل مونوغرافي يلامس الجوانب المجالية والإنسانية والسياسية، وفق إطار منهجي أملى علينا ضرورة تفكيك عناصر الإشكالية الرئيسية، حيث تم تناولها بالدراسة عبر مباحث الأطروحة التي انتظمت ضمن تسعة فصول داخل ثلاثة أبواب. والآن بعد اختتام العمل، يمكننا القول أننا قدمنا إجابات إيجابية فاقت الإخفاقات.

وقد اعتمادنا الرواية الشفهية و**الذاكرة الجماعية المستمرة**، رغم تميز التاريخ السياسي بالريف الأوسط بكم وثائقي هائل، قصد وضع مقارنة بين محتوى المصدرين التاريخيين المكتوب والمروي، للكشف عن المغيب والحاضر في تاريخ الريف الأوسط، ومنه في تاريخ القسم الشمالي للمغرب الحديث والمعاصر.

أدركنا من خلال اعتماد المصادر المكتوبة التي تعرضت للمسار التاريخي للريف الأوسط، وتنقيح رواسب الذاكرة الجماعية على ضوء المنهج التاريخي، لتفادي أسطرة الماضي وتهويل أحداثه مقابل كتمان بعضها، أن الذاكرة الجماعية تحفظ إطار الريف الجغرافي وأسس نشوئه، ولها قدرة على حمل أنساقه الثقافية وأطره الاجتماعية، ونقل الممارسة الثقافية والفعل الاجتماعي ضمن هذا الإطار العام ذاته، كما رسخت تاريخه السياسي الذي طالما اعتبر جزءاً من ثقافته.

عملنا على استقراء وتركيب النقط المشتركة في تاريخ المجال المدروس المكون من ست قبائل منتمية للريف الأوسط، منها ثلاث قبائل جبلية داخلية، وثلاث ساحلية. وأكبر القبائل الداخلية هي إگزناين، التي تمثل بداية الريف الأوسط، وتحدها جنوبا قبيلة البرانس، وشرقا قبيلة أيث توزين، كما أنها قبيلة حدودية تتوسط الريف الأوسط والشرقي، ثم أيث عمارث التي تقع شمال غرب إگزناين، والتي تعتبر أصغر قبيلة داخلية. أما أكبر القبائل الساحلية ضمن المجال المدروس فهي قبيلة أيث ورياغر التي تحدها إگزناين شمالا وأيث توزين غربا، فيما تتوسط كلاً من ثمسمان غرباً وإبقوين شرقاً.

جمع هذه القبائل الست تاريخٌ مشترك، ضمن مجال بلاد الريف الأوسط، وتقاسم سكانه المستقرون موارده المحدودة لبلورة نمط اقتصاد الندرة، الأمر الذي اضطرهم في كثير من الأحيان إلى مزاولة القرصنة وتجارة التهريب والهجرة. وقد أفرز نمط عيش هذه الساكنة ثقافةً شبه موحدة لدى الفاعلين الاجتماعيين بهذه المنطقة. كما أن معايشة الريف

الأوسط لنفس الأحداث السياسية أدى إلى تشكل أبعاد ذاكرة جماعية مشتركة، فيما ساعد توفر هذه القبائل على قاعدة لغوية موحدة إلى حد بعيد مع استثناءات بسيطة في النطق، على توارث هذه الذاكرة من قبيلة لأخرى ومن جيل لآخر.

تعرضنا لفترة زمنية تقارب أربعة قرون لنتمكن من إنتاج عمل مونوغرافي، يجمع بين الأزمنة التاريخية المختلفة، تستوعب التاريخ المجالي وتشكل التضاريس، وتقارب التاريخ الاقتصادي لتلامس أهم جوانب السمات الثقافية الموغلة في القدم، والتي تعرف استمرارية ضمن الممارسة الاجتماعية المتوارثة عبر الأجيال. وحددنا المدة التاريخ السياسي منذ قيام الدولة العلوية، وبالضبط بعد وفاة المولى الشريف سنة 1658م وتولي السلطان المولى الرشيد الحكم بعد نهاية الصراع ضد أخيه المولى امحمد حول السلطة سنة 1664م، وذلك راجع إلى بروز الريف على الساحة السياسية على عهد هذا السلطان، واستمرار هذا الدور السياسي الرئيسي إلى القرن العشرين. ومن هذا المنطلق غطت الأطروحة تاريخ الريف الأوسط خلال العصرين الحديث والمعاصر، أي من النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى حدود النصف الأول من القرن العشرين.

أجبنا من خلال بحثنا في أطروحة الريف الأوسط بين التاريخ والذاكرة الجماعية على مجموعة من تمفصلات الإشكالية الرئيسية، استخلصنا منها مجموعة من الخلاصات التركيبية، يمكن إجمالها فيما يلي:

تعرفنا على **مجال الريف الأوسط وتضاريسه،** وتاريخ تكونه وتسميته والمحددات التي تهم ذاكرة تأسيس الريف وتوجهاتها، والتي تمثل مجموعة من الثوابت التي تتبناها الساكنة، وتشكل حدوده المتغيرة التي يمكن أن نستشف منها صورة واضحة عن الوضعية السياسية بالمنطقة. وتجد إشكالية تكون وتمثل مجال الريف الأوسط عبر التاريخ في الإسطوغرافيا من خلال الإشارات الواردة في المصنفات التاريخية وغيرها من الرصيد الوثائقي المكتوب، ومجموعة من رواسب وتمثلات وروايات وصور محفوظة بالذاكرة الجماعية لسكان المنطقة الذين يمتلكون تقييماً خاصاً للبنية التضاريسية، والذي قد يتنافى أحيانا مع الحقائق الجغرافية، كما يحتفظون بتاريخ التغيرات المناخية وطبيعتها في علاقته مع معاناة السكان من الجفاف وتردد موجات المجاعة، ويعتبر الإنسان بحد ذاته أهم عناصر الإشكالية الرئيسة للأطروحة، وأحد أهم العناصر المنهجية للمنهج التاريخي.

واستكملنا شق الجغرافية الطبيعية بالتعرض للجغرافية البشرية من خلال دراسة **تاريخ الإنسان ضمن مجال الريف الأوسط،** لما له من أهمية في البحث التاريخي ككل والبحث المونوغرافي على وجه الخصوص. وتوصلنا إلى أن الريف الأوسط عرف استقراراً بشرياً مبكراً سبق مرحلة التدوين التاريخي، ما جعل الأركيولوجيا تغطي صفحات تاريخ الريف المفقودة في هذا الشأن، وأهم ما يمكن أن نستخلصه من هذا الاستقرار هو إفراز تنوع على مستوى الخصائص الإثنية بالريف الأوسط، ما أدى إلى حركية مستمرة للساكنة عبر التاريخ، خاصة خلال العصرين الحديث والمعاصر، وتشكل خريطة سكانية متحركة بالريف الأوسط، وذلك راجع لعدة أسباب اقتصادية وسياسية، رغم طابع الاستقرار الذي اتصفت به القبائل الريفية.

كما تعرفنا على التحولات والطفرات وكذا الانهيارات التي طرأت على البنية الديموغرافية بالريف الأوسط، ما أثر على الجانب الاقتصادي والسياسي، ومنه ما يعود لإكراهات ومتغيرات فرضها الواقع التاريخي والوضع القبلي، وأنتجت مجموعة من المشاكل الاجتماعية، خاصة ما تعلق بالهجرة التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر، والتي عرفت أوجها خلال القرن العشرين، ونقلت لنا الذاكرة الجماعية حيثياتها وتأثيراتها على المهاجرين وذويهم بالريف، وذلك بمزاوجتها مع المعطيات التاريخية حول الظاهرة.

شمل البحث العلاقة الإنتاجية بين الإنسان الريفي و**الموارد الطبيعية ونمط الاقتصاد المتاح بالريف الأوسط،** باعتبارها علاقة تفاعلية جمعت الإنسان الريفي بمحيطه العام وحتمت عليه نمط إنتاج معين، وطريقة تدبير الموارد الطبيعية الضعيفة والتعامل مع محدودية الماء وندرة إنتاجية الأرض المجزأة نتيجة وعورة التضاريس وضعف توثيق ملكيتها.

ورصدنا أيضا الموارد الأخرى بالنسبة للقبائل الساحلية المتمثلة في الثروة السمكية التي شكلت نشاطاً اقتصادياً تكميلياً، بالإضافة إلى بعض الموارد المعدنية التي جمعت بين الحقيقة وتمثلات الذاكرة الجماعية. وبما أن الريف مجتمع ذو نمط اقتصادي قائم على الزراعة وتربية الماشية، فقد عرف مجموعة من الصناعات المحدودة المرتبطة بهذا النمط، والمخصصة للاستعمال اليومي، مع تسويق الفائض محليا، وتتمثل أهمها في الأواني الفخارية ومنتجات الدوم والخشب.

وقد لاحظنا كيف عجزت الأنشطة الفلاحية عن توفير الموارد الكافية لعيش السكان، لذا تم البحث عن أنشطة تكميلية لتعويض هذا العجز، نذكر من ضمنها تجارة التهريب المقننة داخل الأسواق. وعلى العموم، استطاع الإنسان الريفي تجاوز صعوبة التضاريس والإكراهات المناخية وقلة الموارد الطبيعية من أجل بلورة نمط إنتاج خاص بالمنطقة اتسم بالندرة والكفاف، واستمرار استعمال وسائل إنتاج عتيقة، لكنه كان مصدر عيش السكان عن طريق إرفاقه بمجموعة من الأنشطة مثل تربية الماشية والصيد البحري بالإضافة إلى الصناعة والتجارة.

وعملنا على جعل آليات **الذاكرة الجماعية في خدمة إعادة تركيب بنية المجتمع والثقافة ونمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط،** والتطرق **للتاريخ الاجتماعي بالريف الأوسط،** والذي يعتبر أساس الأطروحة، خاصة وأن الريف من ضمن المجتمعات الشفهية التي تعرف فقراً على مستوى التأريخ بشكل عام والتاريخ الاجتماعي بشكل خاص. وهذا ما جعلنا ننفتح على نتائج العلوم المساعدة ونوسع دائرة الرصيد الوثائقي، إلى أن بلغنا أسس استثمار رواسب الذاكرة الجماعية التي تتوفر على آلياتٍ بإمكانها إعادة تركيب بنية المجتمع والثقافة ونمط الحياة بالريف الأوسط. هكذا خلصنا إلى تقديم معطيات حول الهياكل الاجتماعية من الأسرة إلى القبيلة الريفية نعتقد أنها ذات أهمية.

ركزنا توجهنا نحو استخلاص **التاريخ الثقافي من رواسب الذاكرة الجماعية الريفية،** حيث أن الذاكرة الجماعية تحفظ الممارسات الثقافية من الاضمحلال، وتضمن استمراريتها

بين الأجيال، عبر توارث الذاكرة التي يسعى المؤرخ إلى استثمارها في كتابة التاريخ الثقافي. وتعتبر ثقافة المنطقة مصدرا من مصادر الذاكرة الجماعية ومؤطرها الأساسي، وحاملاً للمميزات الثقافية لمواقف الريفيين، دون أن نغفل أن الذاكرة الجماعية تُوجَّه وفق أنماط التدين السائدة وتأثيراتها الثقافية والمعتقدات السحرية والخرافية، وذلك بالاحتكام للمنهج التاريخي الذي يعتبر أساس الأطروحة، بالإضافة إلى مقارنة معطيات ما علق بالذاكرة الجماعية مع النص المكتوب باعتباره أكثر مصداقية بشكل نسبي.

عمدنا إلى تركيب خلاصات التاريخ الاجتماعي والثقافي من خلال **إعادة تركيب نمط الحياة المعتاد بالريف الأوسط** بشكل تطبيقي، وذلك بالاعتماد على نماذج من الواقع التاريخي بالريف الأوسط، إذ تعتبر إعادة تركيب نمط الحياة شقاً تطبيقياً لكل ما سبق ذكره بخصوص الهياكل الاجتماعية والأنساق الثقافية بالمنطقة، ذلك لأن روتين الحياة اليومية بإمكانه أن يجعل الممارسات الثقافية والاجتماعية أكثر وضوحا. ويتعين بهذا الخصوص تحديد نوعية الفضاءات التي تدور فيها أحداث الحياة اليومية الريفية المتمثلة في البيت والحقل، والوقوف على طابع تقسيم الأدوار بين الفاعلين الاجتماعيين، أي تقسيم الأعمال والأنشطة الحياتية التي يأخذ من خلالها كل فرد موقعه ومهامه داخل المجتمع. وتأخذ هذه البنية مدة زمنية طويلة لتتغير، أو تعرف تحولات جزئية فقط، وذلك راجع إلى كونها إرثاً ثقافياً يضمن استمراريته عبر الأجيال، رغم أن المؤرخ الكلاسيكي لا يجد أهمية تاريخية في هذه المواضيع التي لا تحتوي على تواريخ دقيقة، إلا أنه أصبح من واجب المؤرخ الاهتمام بالحياة الاجتماعية للإنسان الذي يعتبر أساس البحث التاريخي. من هنا جاء سعينا من خلال هذا العمل إلى نقل ورش خاص بعلم الاجتماع ودراسته وفق الضوابط التاريخية.

أتممنا أركان عملنا المونوغرافي بالبحث في حيثيات التاريخ الحدثي و**السياسي بالريف الأوسط**، وكشفنا من خلاله العلاقة الكائنة **بين سلطة المخزن والريفوبليك**، أو علاقة الريف بالسلطة المخزنية، ووضعية الريف السياسية ما قبل الاستعمار، وكيفية احتفاظه بأنظمة محلية تحكم علاقاته الاجتماعية والاقتصادية وتضمن السير العادي للسياسة الداخلية عن طريق تطبيق الأحكام العرفية، علما بأن القبائل الريفية عرفت في نفس الوقت، تمثيليات مخزنية كانت تربطها بالسلطة المركزية، وتسهر على استخلاص الضرائب وتطبيق الأحكام الشرعية، مع وجود فترات نزاع بين الطرفين بطبيعة الحال.

تجنبنا التفصيل والإطالة في موضوع **الريف الأوسط والأطماع الأجنبية**، لما شهده من دراسات مكثفة ومعمقة سابقة، واخترنا التطرق لجوانب محددة مثل إدراك السلطة المركزية لقدرة الريف على حماية البلاد من الأطماع الأجنبية، ما جعل هذه المنطقة تنال تقدير السلاطين العلويين الذي اعتمدوا على الريفيين في حماية السواحل الشمالية من المد الاستعماري منذ بداية التوغل الأجنبي الأول بالريف خلال القرن السادس عشر، إلى حدود بداية الاستعمار الفعلي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. هذا التغلغل الذي رافقته حيثيات سياسة استعمارية تجسدت في التدخل الإسباني الفرنسي بالريف، والذي أثار مقاومة شرسة من طرف قبائل الريف التي اتحدت ضد الاستعمار وتجاوزت كل نزاعاتها الداخلية، باعتبار أن العدو واحد، والقضية مشتركة، فتصدت للمستعمر وقاومته تحت قيادة الشريف محمد أمزيان 1909-1912 في البداية، ثم محمد بن عبد الكريم الخطابي 1921-1926 فيما

بعد. وقد وضعت المقاومة الريفية المخزن في بعض الأحيان أمام ضغط خارجي بخصوص التزامه بالاتفاقيات والمعاهدات الموقعة، وأثارت رغبة المستعمر في الانتقام من المقاومة الريفية، ما جعله يستعمل المحظور والمباح للقضاء على الريفيين بأساليب تتنافى والمواثيق الدولية.